التهذيب في التفسير

تصنيف

الإمام الحاكم أبي سعد المحسن بن محمد بن كرامة البيهقي الجشمي

توفي سنة ٤٩٤ هجرية

رحمه الله تعالى

تحقيق

عبد الرحمن بن سليمان السالمي

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

التهذيب في التفسير

التهذيب في التفسير

تصنيف

الإمام الحاكم أبي سعد المحسن بن محمد بن كرامة البيهقي الجشمي

توفي سنة ٤٩٤ هجرية

رحمه الله تعالى

تحقيق

عبد الرحمن بن سليمان السالمي

الجزء العاشر

سورة الجمعة - سورة الناس

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

سورة (الجمعة) مدنية، إحدى عشرة آية.

وعن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (الجمعة) كتب له عشر حسنات بعدد من ذهب إلى الجمعة في مَصْرٍ من أمصار المسلمين، ومن لم يذهب».

وعن عطاء بن السائب عن ميسرة قال: هذه الآية ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ في التوراة سبعمائة آية.

ولما ختم سورة (الصف) بالدعاء إلى عبادته، ورغب فيها ووعد[1] المؤمنين النصر، افتتح هذه السورة ببيان قدرته، وأن جميع الأشياء خاضعة منقادة.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ (١) هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٢) وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (٤) مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥)﴾

(١) ووعد: وعد، غ.

القراءة

قراءة العامة: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ بالكسر على أنه صفة لله تعالى، وقرأ أبو وائل بالرفع على تقدير: هو الملك.

اللغة

أصل التقديس: التطهير، والقُدُّوس: الطاهر، وقد بَيَّنَّا ما قيل فيه في سورة (الحشر)، وقال أهل اللغة: كل اسم على «فعُّول» مشددة العين فالفاء منصوبة، نحو: سَفُّودٍ وكَلُّوبٍ إلا ثلاثة أحرف هذا، وسُبُّوحٌ[1] والذُّرُّوح: **واحد الذراريح، وحكى الفراء عن الكسائي قال: سمعت أبا الدنيا، وكان أعرابيًا فصيحًا يقول: القَدُّوس بفتح القاف، لعلها لغة.**

والأمي: الذي لا يكتب، كأنه منسوب إلى ولادة الأم، في أنه لا يحسن الكتابة.

والتزكية: التطهير، زكَّاه يزكيه: إذا وصفه بالطهارة، وقيل: منه الزكاة، وقيل: من النماء، يقال: زكا الزرع.

والأسفار: الكتب، واحدها سِفْر، نحو: شبر وأشبار، وإنما سمي سِفْرًا؛ لأنه يكشف عن المعنى بإظهاره، أسفر الرجل عن عمامته: إذا كشف، وسفرت المرأة عن وجهها، ومنه: الصبح إذا سفر.

الإعراب

في قوله: «وآخرين» وجهان من الإعراب:

أحدهما: الكسر، تقديره: وفي آخرين، عطفًا على (الأميين).

وثانيهما: النصب، رَدًّا على الهاء والميم في قوله: «ويعلمهم» أي: ويعلِّم آخرين منهم.

---

(١) ما بين المعكوفين مقطوع في غ. وما أثبتناه من التحرير والتنوير ١/ ٦٤٥.

۞ المعنى

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ينزهه كل شيء، ويشهد له بالوحدانية والربوبية بما ركب فيها من التدابير العجيبة، والصنع البديع، الدال على أنه قادر، عالم، حي، سميع، بصير، لا يشبه شيئًا، وأنه حكيم، وإنما قال مرة: «سبح» ومرة «يسبح» إشارة إلى دوام تنزيهه في الماضي والمستقبل، «الْمَلِكِ» القادر على تصريف الأشياء، «الْقُدُّوسِ» المنزه عن المثل والشبه والأفعال القبيحة، وقيل: من حقه أن يُقَدَّسَ، فلا يضاف إليه قبيح «الْعَزِيزِ» القادر الذي لا يمتنع عليه شيء «الْحَكِيمِ» قيل: العالم، وقيل: الذي يضع الأشياء مواضِعَها، محكم أفعاله، «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ» قيل: العرب، عن مجاهد، وقتادة؛ لأنهم كانوا لا يحسنون الكتابة إلا نادرًا، وقيل: أول من كتب الخط إدريس (عليه السلام) «رَسُولاً مِنْهُمْ» يعني محمدًا صلى الله عليه وآله، فإنه منهم نسبًا، وقيل: أراد أنهم لم يكونوا أهل كتاب، فلما جاءهم خرجوا عن هذه الصفة، والأول الوجه.

ومتى قيل: لماذا مَنَّ عليهم بكون الرسول منهم؟

قلنا: لأنه شرفهم بأن بعث منهم رسولاً، ولأنهم يكونون إليه أَمْيَلَ، وبأحواله أعلم.

«يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ» أي: يقرأ عليهم القرآن المشتمل على الحجج والأحكام «وَيُزَكِّيهِمْ» أي: يطهرهم بالدعاء إلى ما لو أجابوا لصاروا أزكياء، وقيل: يحكم بتزكيتهم، وقيل: ليطهرهم من دنس الشرك «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» قيل: الكتاب القرآن، والحكمة: الشرائع، وقيل: الحكمة التوحيد والعدل، وقيل: الفقه والسنة، ويحمل على الجميع، فيعلمهم الكتاب وجميع ما يجب عليهم من أصول الدين وفروعه «وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أي: قبل بعثه له[1] كانوا في ضلال عن

(١) كتب في غ بعد كلمة: (بعثه له) ما لفظه: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الحق وذهاب عن الدين ظاهر «وَآخَرِينَ» قيل: ويعلم آخرين «مِنْهُمْ» من المؤمنين، قيل: كل مَنْ بَعْدَ الصحابة، عن مجاهد، وابن زيد، وقيل: هم العجم، عن ابن عمر، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقيل: التابعون، عن مقاتل، وعكرمة، وقيل: جميع من يدخل في الإسلام إلى يوم القيامة، عن ابن زيد، [وروي][(١)]: أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية، فقيل: من هؤلاء؟ فوضع يده على سلمان، وقال: «لو كان الإيمان في الثريا لناله رجال من هؤلاء».

«لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ» أي: لم يلحقوا بالعرب، وقيل: لم يلحقوا في الحال، وسيلحقون فيما بعد «وَهُوَ الْعَزِيزُ» القادر على البعثة «الْحَكِيمُ» يضع الرسالة موضعها «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا» يعني اليهود، قيل: كلفوا العمل بالتوراة، فلم يعملوا بها، وخالفوا، فمثلهم في الإقرار بها وترك العمل بما فيها «كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا» قيل: كتبًا، عن ابن عباس [وقال] فسواء حمل على ظهره أو جحده[(٢)]: إذا لم يعمل به ولا ينتفع به. وقيل: كان في التوراة البشارة بمحمد صلى الله عليه فأنكروا، فكان حظهم منها كحظ الحمار، وقيل: كما لا ينتفع الحمار بحمل الكتب، بل يستضر كذلك هؤلاء لما لم ينتفعوا استضروا بلزوم الحجة عليهم «بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ» أي: بئس القوم قومٌ هذا مَثَلُهُمْ، أي: شبههم.

ثم وصف القوم، فقال تعالى: «الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» قيل: لا يثيبهم ولا يهديهم إلى رحمته، وقيل: لا يحكم بهدايتهم، وقيل: لا يفعل بهم من الألطاف ما يفعله بالمؤمنين الذين عندها يهتدون، وإنما خص الحمار؛ لأن المثل يُضْرَبُ به في قلة الفهم.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أنه ﷺ كان أميًا لا يكتب، وذلك أبلغ في إعجازه.

وتدل على أنهم قبل البعثة كانوا في ضلال، ولو كان خلق الضلال فيهم لما صح ذمهم، ولما اختلف حال البعثة وقبله.

---

(١) مطموس في غ.

(٢) جحده: جحد. وما أثبتنا من تفسير مجمع البيان، ١٠/ ٥.

وتدل أن قبل البعثة يلزم المكلف، فتدل أن التكليف العقلي ينفرد عن الشرعي.

ويدل قوله: «وآخرين» أنه مبعوث إلى الكافة؛ ولذلك ختم به النبوة.

ومتى قيل: كيف يصح ذلك بعد موته؟

قلنا: علماء أمته يقومون مقامه، ويبلغون عنه.

ويدل قوله: «ويزكيهم» أنه يريد تزكية الْخَلْقِ، خلاف قول المجبرة.

وتدل أنهم لما لم يعملوا بالتوراة لم ينتفعوا به، وكانوا في حمله كالحمار، وفيه تخويف لمن لا يعمل بالقرآن، فيصير حاله كحالهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

اللغة

الزعم: قول عن ظن أو علم، وقد يكون باطلاً، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٦] فهذا باطل، وقال الشاعر:

تَـقُـولُ هَـلَـكْـنَـا إِنْ هَـلَـكْـتَ وَإِنَّـمَـا ... عَـلَـى الله أَرْزَاقُ الْـعِـبَـادِ كَـمَـا زَعَـمْ[1]

أي: كما قال، وهذا حق.

والتمني: قول القائل: ليت كان كذا، ويتعلق بالماضي والمستقبل، وهو من

---

(١) نظر: اللسان (زعم)، تاج العروس (زعم).
البيت قائله عمرو بن شاس:

وعاذلة تخشى الردى أن يصيبني ... تروح وتغدو بالملامة والقسم
تقول هلكنا إن هلكت وإنما ... على الله أرزاق العباد كما زعم

جنس القول، عن أبي علي، والقاضي. وقال أبو هاشم: معنى في النفس يوافق هذا القول.

۞ النزول

قيل: لما قالت اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، ولنا الجنة دون الناس أنزل الله تعالى فيهم هذه الآية: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر اليهود في إنكارهم ما في التوراة أمر نبيه أن يخاطبهم بالمُفْحِم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ قيل: سموا يهودًا للنسبة إلى يهودا، وقيل: لقولهم: «إنا هدنا إليك»، وعلى أيٍّ كان فقد صار في الشرع اسمَ ذمٍّ كالشرك والكفر والنفاق ونحوه. ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ وأن لكم الجنة ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي: قولوا: «اللهم أمِتْنَا»، وقولوا: «ليتنا متنا»، إن كنتم صادقين فيما زعمتم؛ لأنه يوصلكم إليه، ومن علم يقينًا وصوله إلى الجنة فليس شيءٌ[1] خيرًا له من ذلك، يقع في نعيم دائم، ويستريح من غموم الدنيا. ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي، وقد قال النبي ﷺ: «لو تمنوا لماتوا عن آخرهم». وقيل: لم يتمنوا لعلمهم بأنهم كاذبون. وقيل: لعلمهم بصحة نبوته وصدقه.

ومتى قيل: كيف نفى، ولعلهم يتمنون بقلوبهم؟

قلنا: التحدي بما ظهر باللسان؛ لأن أحدًا لا يتحدى بما لا يُعْلَمُ ولا يُدْرَك، وهذا كما لو قال لعبده: «أنت حر إن شئت»، فالمشيئة وإن كانت معنى في القلب فالحرية موقوفة على ما يظهر باللسان.

ومتى قيل: هل تمنوا؟

قلنا: علموا أنهم لو تمنوا لافتضحوا، ولولا ذلك لكان تمنيهم في تكذيبه أبلغ من تصريحهم في التكذيب، ولأن النبي ﷺ لو لم يكن على ثقة لَمَا دعاهم إلى شيء لو أظهروه

(١) شيء، شيئا، غ.

لظهر كذبه، فكان ﷺ على ثقة من أمره، وهم أيضًا يعلمون، فصار هذا معجزة له.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ يعني أنكم تكرهون[1] الموت لمكان معاصيكم[2]، وذلك الموت لا بد يأتيهم، وإنما يتقدم ويتأخر بحسب المصلحة. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: جزائه. وقيل: إلى الموضع الذي يحكم بينهم، وهو يعلم السر والعلانية فيجازيهم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قيل: يخبركم بأفعالكم، وقيل: يجازيكم.

ومتى قيل: كيف يصح الرد والحكم لله أولاً وآخرًا؟

قلنا: الحكم كله لله؛ إلا أنه جعل ذلك إلى العباد في الدنيا، وبالموت ينقطع ذلك، وجميع ذلك كله إليه، وهذا تَوَسُّعٌ في الكلام.

۞ الأحكام

تدل الآيات على معجزات لنبينا ﷺ:

أحدها: ما تحداهم به فلم يفعلوا.

وثانيها: إخباره عن ضمائرهم فكان كما أخبر.

ويدل أن مَنْ فَعَلَ المعصية يكره الموت، ويوجب الخوف؛ ولذلك كان كثير من العلماء يتمنون الموت ولا يخافون حتى روي عن علي بن أبي طالب: ما أبالي سقط عليّ الموت أم سقطت على الموت، وكان سفيان الثوري يتمنى الموت.

وقد اختلف العلماء فيه، فمنهم من كره تَمَنِّيَ الموت، ومنهم من لم يكره.

وقد روي عن النبي ﷺ قال: «لا يتمنَّ[3] أحدكم الموت، فإن كان محسنًا فإن يَعِشْ يزدد[4] خيرًا فهو خير له، وإن كان مسيئًا فلعله أن يستعتب». وروي أنه كان يقول: «اللهم أحيني ما دامت الحياة خيرًا لي، وأمتني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»، فمن كره إنما تَمَنِّيهِ مطلقًا، ومن تمنى إنما تمنى لهذا الشرط.

---

(١) تكرهون: تكرهوا، غ.
(٢) معاصيكم: معاصيهم، غ.
(٣) يتمن: يتمنى، غ. السنن الكبرى للنسائي: ١/ ٥٩٩، رقم (١٩٤٥).
(٤) يعش يزدد: يعيش يزداد، غ. وما أثبتناه حتى: السنن الكبرى للنسائي: ١/ ٥٩٩، رقم (١٩٤٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: ﴿ٱلۡجُمُعَةِ﴾ بضم الميم. وعن الأعمش بسكونها، وهما لغتان، وجمعهما: جُمَعٌ وجُمُعاتٌ. قال ابن عباس: نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم. وقال أبو عبيد والفراء: التخفيف حَسَنٌ، وهو أقيس في مذهب العربية نحو: غُرْفَةٍ وغُرَفٍ، وحُجْرَةٍ وحُجَرٍ، وطُرْفَةٍ وطُرَفٍ. قال الفراء: فيهما لغة ثالثة: جُمَعة بفتحة الميم، كقولك: رجل ضُحَكَةٌ وهُمَزَةٌ ولُمَزَةٌ. وقيل: هي لغة بني عقيل. وقيل: لغة النبي ﷺ، وضم الميم القراءة المجمع عليها، ولغة الحجاز، ولا شك أن القرآن ورد بالأفصح والأحسن.

قراءة العامة: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾، وعن عمر وابن مسعود وأبي العالية: «**فامضوا**» وهذا محمول على أنهم فسروا، لا أنها قراءة.

۞ اللغة

الجمعة: أصله من الجمع، وهو اسم للاجتماع، كما أن الفرقة اسم للافتراق، والألفة اسم للائتلاف، والجمعة سميت جمعة، قيل: لأن آدم جُمِعَ فيها خَلْقُهُ، روي مرفوعًا؛ لأنه يجمع فيها الجماعات. وقيل: بأنه تعالى خلق فيها الأشياء وفرغ منها يوم الجمعة، فاجتمعت المخلوقات يوم الجمعة، واختلفوا، فقيل: أول من سماها كعب بن لؤي، وهو أول من قال: أما بعد، عن أبي سلمة، وقيل: كانت تسمى عروبة، فسماه الله تعالى جمعة لاجتماع الناس فيه، عن أبي مسلم. وقيل: أولُ من سماها الجمعة الأنصارُ، جمعوا فيها قبل الهجرة، وقالوا: السبت لليهود، والأحد للنصارى، ولنا الجمعة، فكانت تسمى العروبة، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة، فصلى

بهم ركعتين وذكرهم فسموها جمعة، وذبح لهم شاة، فتغدوا عنده، وتعشوا منها لقلتهم، عن ابن سيرين.

والسعي: الإسراع في السير.

والانتشار: التفرق.

والابتغاء: الطلب.

۞ النزول

قيل: كان قوم يجلسون في البقيع يبيعون ويشترون إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، ولا يفرقون، فنزلت الآية.

۞ المعنى

ثم أوجب تعالى الجمعة، وشرع فيها عيد المسلمين، خلاف ما كان عليه اليهود، فقال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ» قيل: هو أذان الجمعة للوقت، وقيل: بل هو أذان عند قعود الإمام على المنبر للخطبة، وروى الزهري عن السائب بن يزيد[1] قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذنٌ واحد وهو بلال، فكان إذا جلس رسول الله على المنبر أذن على باب المسجد، فإذا نزل أقام الصلاة، ثم كان أبو بكر وعمر كذلك، فلما كان زمن عثمان وكثر الناس، وتباعدت المنازل أمر بالتأذين الأول، فلم ينكر عليه أحد. «مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» أي: في يوم الجمعة، كقوله: ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠] أي: في الأرض، وقيل: أول جمعة أقيمت بالمدينة، جمعها أسعد بن زرارة، وأول جمعة جمعها رسول الله ﷺ أنه قدم قباء يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، فأقام بقباء الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدهم، وخرج يوم الجمعة عامدًا للمدينة، فأدركته الصلاة في بني سالم بن عوف، فأقام الجمعة وخطب، فكان أول جمعة جمعها رسول الله ﷺ. «فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ» قيل: امضوا إليه مسرعين غير متثاقلين، عن قتادة، وابن زيد، والضحاك، وقرأ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، وقيل: ما هو بالسعي على الأقدام، وقد

(١) يزيد: زيد، غ. وما أثبتناه من هامشها.

نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع، عن الحسن، والأول الوجه، وعليه إجماع الفقهاء أن المراد به العمل، والمراد بالذكر قيل: الخطبة، وقيل: الصلاة، «وَذَرُوا الْبَيْعَ» أي: دعوا المبايعة، قال الحسن: كل بيع تفوت فيه الصلاة يوم[1] الجمعة فإنه حرام لا يجوز، واختلفوا في تحريم البيع، قيل: عند الأذان الثاني، وقيل: عند خروج الإمام، عن الزهري، وقيل: إذا زالت الشمس حرم البيع، عن السدي، والضحاك، وابن زيد. «ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ» يعني ما أمرتكم به من حضور الجمعة، واستماع الذكر، وأداء الفريضة خير من المبايعة «إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ» قيل: إن كنتم تعلمون مصالح أنفسكم ومنافعها ومضارها، وقيل: معناه: اعلموا ذلك، عن أبي علي. «فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ» أي: فرغوا من إتمام صلاة الجمعة «فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ» أي: تفرقوا للتصرف والتجارة، هو إباحة، وليس بِأَمْرٍ وإيجاب «وَابْتَغُوا» اطلبوا «مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» من نعمه ورزقه، وعن أنس عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ الآية قال: «ليس بطلب دنيا، ولكن عيادة مريض، وحضور جنازة، وزيارة أخ في الله»، وقيل: هو طلب العلم، عن الحسن، وسعيد بن جبير، ومكحول، وقيل: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟﴾ يعني يوم السبت، عن الصادق. «وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا» بالحمد على نعمه وإحسانه والتعظيم له «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» تظفرون بما تطلبون من ثواب الجنة.

۞ الأحكام

الكلام في هذه الآية من وجهين:

أحدهما: دلالات الآية.

والثاني: ذكر الجمعة وشرائطها.

أما الأول فتدل على اختصاص يوم الجمعة بصلاة وذكر.

وتدل على أن للجمعة نداء وهو أذان، وليس في الكتاب ذكر للأذان إلا هاهنا، وفي قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٥٨].

(١) يوم: مطموس في غ.

وتدل على وجوب السعي، والأقرب أنه يجب عند النداء؛ لأنه علقه به.

وتدل على وجوب الجمعة؛ لأن وجوب السعي إليها، وتحريم المبايعة لأجلها يدل على وجوبها.

وتدل على أن الخطاب للأحرار؛ لأن العبد لا يملك البيع.

وتدل على أنه خطاب للرجال؛ لأن «آمنوا» حقيقة فيهم.

وتدل على اختصاص الجمعة بمكان؛ لذلك أوجب السعي إليه.

وتدل على ذكر يجب السعي إليه.

وتدل على اختصاصه بوقت حيث يُنَادَى فيه.

وتدل على تحريم البيع، واختلفوا، فالأكثر على أنه يكره وينعقد، وقيل: لا ينعقد، وهو قول الحسن ومالك.

ويدل قوله: «وابتغوا» على جواز التكسب، خلاف ما يقوله بعضهم.

ويدل قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أنه أراد من جميعهم الفلاح.

وتدل على أن الفلاح يُدْرَكُ بهذه الطاعات.

واستدل بعضهم بقوله ﴿فَانتَشِرُوا﴾ على إباحة السفر بعد الصلاة، فتدل على تحريمه قبلها حتى زعموا أنه لا يجوز بعد طلوع الفجر يوم الجمعة أن يسافر، والظاهر لا يدل عليه، وهو مذهب الأكثر.

وتدل على أن السعي والبيع فعلهم، وكذلك الانتشار والابتغاء؛ لذلك علق به الأمر والنهي، وكيف يكون جميع ذلك خلقًا له، وهو يدعو إلى ترك البيع والسعي بألطف استدعاء ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فأما الفصل الثاني: فالكلام فيه ينقسم إلى عشرة فصول:

أولها: وجوبها.

وثانيها: على مَنْ تجب.

وثالثها: في الخطبة.

ورابعها: في الموضع الذي تقام فيه.

وخامسها: العدد المعتبر فيها.

وسادسها: هل يقيم السلطان.

وسابعها: الجماعة والإمام.

وثامنها: الوقت.

وتاسعها: صفات الجمعة.

وعاشرها: سنن الجمعة، وموضع تفصيلها كتب الفقه، ونشير إلى جمل من ذلك.

أما الأول: وجوبها، فمتفق عليه، ونطق به الكتاب والسنة، وعُلِمَ من دين النبي ﷺ ضرورة، كنحو أركان الدين من الحج، والصوم، والصلاة، ثم اختلفوا، فقال أبو حنيفة: فرض الوقت الظهر أمر بإسقاطه بالجمعة، وعند زفر: الفرض الجمعة، والظهر بدل، وبه قال الشافعي، واختلفوا، فقال أبو حنيفة: صلاةُ الوسطى صلاةُ الجمعة والظهر في سائر الأيام، وهو قول الهادي (عليه السلام)، وقال الشافعي: صلاة الوسطى صلاة الفجر، ومنهم من قال: العصر.

فأما الفصل الثاني من تجب عليه: فلا خلاف أنها تجب[1] على الرجال الأحرار البالغين المقيمين إذا لم يكن بهم عذر، ثم اختلفوا، فالفقهاء أكثرهم على أنه لا جمعة على العبد، وقال مالك وأصحاب الظاهر: عليهم الجمعة، وقال الهادي: الجمعة واجبة على المسافر، وهو قول داود، وقال أبو حنيفة والشافعي: لا جمعة عليهم، قال أبو حنيفة: لا جمعة على الأعمى، وقال أبو يوسف ومحمد: تجب إذا وجد قائدًا،

(١) أنها تجب: أنه يجب؛ غ.

واتفقوا أنها لا تجب على النساء والمرضى وأصحاب العلل، وأجمعوا على وجوبه على الفساق.

واختلفوا في الكفار: عندنا تجب؛ لأنه مخاطب بالشرائع، ومنهم من قال: لا تجب، ولا جمعة عليه، [و] إذا حضرها، وصلاها جاز، وقال زفر: لا تجزيه، وعليه الظهر، إذا صلى من عليه الجمعة الظهر في بيته قبل صلاة الإمام أجزأه، وقال زفر والشافعي: لا تجزئه؛ لأن عندهم الفرض هو الجمعة، فإن توجه إلى الجمعة بطل ظُهْرُهُ بنفس السعي عند أبي حنيفة، وقال أبو يوسف ومحمد: لا تبطل حتى يدخل في التحريمة.

واختلفوا في وعيد من أَخَّرَ من غير عذر: فمنهم من قال: يلحقه الوعيد، وهو الظاهر، ومنهم من قال: لا نقطع بذلك.

فأما الفصل الثالث الكلام في الخطبة: فهي شرط عند جمهور الفقهاء، وقال الحسن: مستحبة، وليست بواجبة، وعن سعيد بن جبير أنها بمنزلة ركعتين، ثم اختلفوا، فقال أبو حنيفة: الواجب مقدار ما يدخل في الاسم من تسبيح أو تحميد، وقال أبو يوسف ومحمد: الواجب ما يتناوله اسم الخطبة، وقال الشافعي: لا بد من خطبتين بينهما جلسة، وفيها قراءة القرآن، وهو قول الهادي (عليه السلام)، ولا خلاف أن هذا هو المستحب.

واختلفوا في القيام: فقال أبو حنيفة وأصحابه: ليس بشرط، ويجوز قاعدًا إلا أن السُّنَّةَ أن يخطب قائمًا، وقال الشافعي: القيام شرط لا يجوز تركه من غير عذر، وهو قول الهادي.

وأما الطهارة: فقال الهادي: هي شرط، إن خطب مُحْدِثًا لا تجزيه، وقال أبو حنيفة: تجزيه، وللشافعي قولان.

قال الهادي: ويسلم الإمام على الناس قبل أن يتبدئ بالخطبة، وقال أبو حنيفة ومالك: يكره ذلك. إذا دخل المأموم والإمام يخطب فإنه يتطوع بركعتين خفيفتين عند الهادي عليه السلام، وقال أبو حنيفة: لا يتطوع. وقال أبو حنيفة: يكره الكلام قبل الخطبة

وبعد الفراغ منها إلى أن يدخل في الصلاة، وقال أبو يوسف: لا يكره، وبه قال الهادي.

من أتى الجمعة ولم يدرك شيئًا من خطبة الإمام، فإنه يصلي الجمعة عند أبي حنيفة والشافعي، وقال الهادي ﵇: يصلي الظهر أربعًا، يبني على ما أدركه مع الإمام، وهو قول عطاء، وطاووس، ومجاهد، ومكحول.

فأما الفصل الرابع: فلا خلاف أن الجمعة لا تقام في كل موضع، وأن مكانًا مخصوصًا يعتبر، ثم اختلفوا، فقال أبو حنيفة وأصحابه: لا يجوز إقامتها إلا في الأمصار، وإن اختلف أصحابه في تفسير المَصْرِ، وهو قول شيخنا أبي علي.

وقال الشافعي: كل موضع فيه أربعون رجلاً مقيمون، أحرار، يجب إقامة الجمعة فيه.

وقال الهادي ﵇: كل موضع فيه جماعة مقيمون تجب، سواءٌ فيه القرى والأمصارُ.

فأما من كان خارج المَصْرِ: فقال أبو حنيفة: لا تجب عليهم الجمعة، وقال كثير من الفقهاء: تجب.

ثم اختلفوا في المقدار الذي بينهم وبين المَصْرِ حتى تجب: فقال الشافعي: إذا سمعوا النداء من المصر تجب، وقال ابن عمر وأبو هريرة: من كان على عشرة أميال تجب عليه، وقال سعيد بن المسيب: تجب على من آواه المبيت، وقال الزهري: تجب على من كان بينه وبين المصر ستة أميال، وقال ربيعة: أربعة أميال، وقال مالك: ثلاثة أميال، وقال أبو يوسف: إذا كان للمصر جانبان تجوز الجمعة في موضعين، وإن كان يأمن من يقطع الجسر يوم الجمعة ببغداد، وقال محمد: تجوز في ثلاثة مواضع، ولا يجوز أكثر من ذلك، وبه قال الهادي، وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يجوز إقامتها إلا في موضع واحد.

فأما الفصل الخامس: فلا خلاف أن العدد شرط في انعقاد الجمعة.

ثم اختلفوا بكم تنعقد: قال أبو حنيفة وسفيان والهادي: تنعقد بثلاثة سوى

الإمام، وقال أبو يوسف: باثنين سوى الإمام، وقال الشافعي: بأربعين رجلاً أحرارًا بالغين مقيمين، وقال الحسن وداود: تنعقد بواحد سوى الإمام كسائر الجماعات، وقال ربيعة الرأي: تنعقد باثني عشر، وقال الحسن بن صالح بن حي: تنعقد بالإمام وحده، وقال بعضهم: تنعقد بثلاثين.

واختلفوا في كم يشترط الجمع: فقال الهادي عليه السلام: من أول الصلاة إلى آخرها، وهو قول زفر والشافعي، وقال أبو حنيفة: حين تنعقد الركعة بسجدة، وقال أبو يوسف ومحمد: شرط في التحريمة.

فأما الفصل السادس: السلطان، فعند أبي حنيفة شرط لا تجوز إقامة الجمعة إلا بإذنه، وعند الشافعي ليس بشرط، فإن كان عادلاً أو جائرًا جاز إقامة الجمعة بإذنه، وقال الهادي: لا تجوز إذا كان جائرًا، فإن كان الإمام مأسورًا أو محصورًا فقدم المسلمون رجلاً فصلى بهم جاز.

فإن كان السلطان متغلبًا هل يجب الحضور؟ فمنهم من قال: لا يجب؛ لأن في الخطبة ذكره، وفي الحضور تكثير سوادهم، وهو قول البغدادية، ومنهم من قال: يجب الحضور، فإن أمكن إنكاره، وإلا كف، ولم تسقط الجمعة بمعصيته.

فأما إذا كان الإمام يقول بالجبر والتشبيه فلا تجوز الصلاة خلفه، وهل يجب السعي؟ على الخلاف الذي ذكرنا في السلطان.

فأما الفصل السابع: فالجماعة والإمام شرط، فإن كان الإمام فاسقًا جاز الصلاة خلفه، وهو قول أكثر الفقهاء، ومنهم من قال: لا تجوز، وبه قال الهادي.

ومن أدرك بعض الجمعة، فإن أدرك ركعة فقد أدركها عند أبي حنيفة، وإن أدركه في التشهد فهو مدرك، وقال محمد: لم يدركها.

فأما الفصل الثامن: فوقت الظهر وقت الجمعة، فإن فات يقضي الظهر، وقال مالك: يقضي الجمعة، فإن دخل وقت العصر، والإمام في الجمعة استقبل عند أبي حنيفة، وعند الشافعي يبني عليها الظهر، وقال الهادي: أتمها جمعة، وهو قول مالك.

ولا يجوز إقامة الجمعة قبل الزوال عند الفقهاء بأسرهم، وقال ابن حنبل[1]: يجوز، وهو محجوج بالإجماع.

فأما الفصل التاسع: صفة الجمعة: فيجتمع الناس ويخطب الإمام، ثم يصلي ركعتين ويجهر بالقراءة، وقال أبو حنيفة: يقرأ ما شاء، وقال الهادي: المستحب أن يقرأ في الأولى سورة (الجمعة)، وفي الثانية (بالمنافقين).

فأما الفصل العاشر: **من سنن الجمعة**: الغسل، واختلفوا، فمنهم من قال: الغسل لليوم، ومنهم من قال: للصلاة.

ومن سننها: أن يُبَكِّرَ إلى المسجد.

ومن سننها: السكوت إذا خطب الإمام.

ومن سننها: لبس الجديد والتطيب.

ومن سننها: ترك الأعمال.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ﴾، وعن طلحة بن مصرف: (**إذا رأوا لهوا أو تجارة انفضوا إليها وتركوك قائمًا على المنبر**) وهذا يحمل على التفسير، لا يجوز القراءة به، ولا يثبت القرآن بالآحاد.

۞ اللغة

الانفضاض: الانحلال والتفرق، والفض: تفريق الشيء، وانفض القوم: تفرقوا، وفضضت عن الكتاب ختمه: فرقته، والفَضْفَضَةُ: سَعَةُ الثوب، ودرع فضفاضة لتفرقها على الثوب، والفضفاض: ما تفضفض عن الشيء: إذا انفض.

---

(١) حنبل: حنبال، غ.

واللهو واللعب نظيران، وكلما شغلك فقد ألهاك، ومن ذلك سميت المرأة لهوًا، والجماع لهوًا.

۞ الإعراب

الهاء في قوله: «إليها» يعود إلى التجارة، وقال الفراء: لأنها لهم، والعرب تذكر شيئين ثم تعود الكناية إلى أحدهما، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة: ٣٤] ولم يقل: «ينفقونهما» لعلم المخاطب، ويحتمل أن تكون الهاء ترجع إلى المروي.

۞ النزول

عن جابر بن عبد الله قال: أقبل عير ونحن نصلي مع النبي ﷺ الجمعة، وانفض الناس إليها، فما بقي غير اثني عشر رجلاً أنا فيهم، فنزلت الآية.

وقيل: أصاب المدينة جوع وغلاء، فقدم دحية بن خليفة من تجارة من الشام، والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فلما رأوه قاموا إليه بالبقيع خشية أن يُسْبَقُوا إليه، فلم يبق مع النبي ﷺ إلا رهطٌ، منهم أبو بكر وعمر، فنزلت الآية، عن الحسن، وأبي مالك، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو تتابعتم حتى لا يبقى أحد منكم لسال بكم الوادي نارًا».

وقيل: كان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ أقبل دحية الكلبي من الشام بتجارة، وكان يَقْدُمُ بما يُحتاجُ إليه من الدقيق والبر وغيره، وكان يقف بسوق المدينة، ويضرب الطبل، فيعلم الناس بقدومه، فقدم قبل أن يسلم، ورسول الله ﷺ يخطب، فخرج إليه الناس، ولم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلاً وامرأة، فنزلت الآية، عن مقاتل.

وقيل: لم يبق في المسجد إلا ثمانية، عن ابن عباس، والكلبي.

وقيل: خرجوا إلا أحد عشر رجلاً، عن ابن كيسان.

وقيل: فعلوا ذلك ثلاث مرات، كل مرة لعير تقدم من الشام، وكل ذلك يوافق يوم الجمعة.

وذكر أبو مسلم أنها نزلت في المنافقين، وإنما لم يسمهم لما جرى من ذكرهم في القرآن، ولعلم المخاطب بها.

وقال شيخنا أبو علي: كانوا من المسلمين، قدم عير لهم فيها بضاعة، فتسارعوا إليها، فعاتبهم الله تعالى.

فأما ما يروى أن قليلاً منهم بقي فبعيد؛ لما ثبت من تحقيق الصحابة في الدين، وسددهم فيه، وكلما روي أخبار آحاد، وليس في الظاهر إلا خروج قوم، ثم يحتمل ما قاله شيخنا أبو علي، ويحتمل ما قاله أبو مسلم.

المعنى

ثم ذم من تخلف عن الجمعة لتجارة أو لهو، فقال سبحانه: «**وَإِذَا رَأَوْا**» قيل[1]: عاينوا، وقيل: علموا «**تِجَارَةً**» بيعًا أو شراء «**أَوْ لَهْوًا**» قيل: الطبل، عن مجاهد، وروي عن جابر أن جماعة مروا بطبل في نكاح، فخرجوا، وقيل: المزامير، عن جابر. «**انفَضُّوا إِلَيْهَا**» أي: تفرقوا وخرجوا إليها «**وَتَرَكُوكَ**[2] **قَائِمًا**» قيل: تخطب على المنبر، وقيل: قائمًا في الصلاة «**قُلْ**» يا محمد «**مَا عِندَ اللَّهِ**» من الثواب، ونعم الدنيا والآخرة «**خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**» أي: المعطين، قيل: لأنه يعطي، ولا يَمُنُّ، وقيل: يعصى، ولا يحرم الرزق، وقيل: يتفضل بالرزق الكثير، ويرضى بالشكر اليسير.

الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: تحريم الاشتغال بشيء عند الخطبة، ووجوب الاستماع.

ومنها: على قبح اللهو، فأما التجارة فهي مباحة؛ إلا أنها محرمة عند خطبته.

ومنها: أن الإنسان ينبغي أن يتوفر على أعمال الآخرة، ويتوكل في الرزق على الله تعالى، وإن اشتغل بسببه ففي وقت لا يجب فرض، ولا شبهة أن هذه القصة لم تقع من كبار المهاجرين والأنصار مع ما علم من عاداتهم، فإما أنه وقع من قوم عوام على ما قاله أبو علي أو قوم منافقين على ما قاله أبو مسلم.

---

(١) قيل: وقيل، غ.

(٢) وتركوك: فتركوك، غ.

سورة (المنافقين) مدنية، وعن بعضهم أنها مكية، وليس بشيء، وهي إحدى عشرة آية.

وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (المنافقين) برئ من النفاق».

ولما ختم سورة (الجمعة) بما هو من علامات النفاق مِنْ تَرْكِ رسول الله ﷺ قائمًا في الصلاة أو في الخطبة، والاشتغال باللهو والتجارة، افتتح هذه السورة بذكر المنافقين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا
رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ
عَلَيْهِمْۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ
ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾

۞ القراءة

قرأ أبو عمرو والكسائي والأعمش: «خُشْب»[1] ساكنة الشين نحو: بَدَنَةٍ وبُدْنٍ، والباقون بضم الشين، وعن ابن كثير بالتخفيف، والصحيح عنه التثقيل، والتخفيف قراءة البراء بن عازب، واختيار أبي عبد الله، قال: لأن واحدتها خشبة، ولم نجد في العربية «فَعَلَة» يجمع على «فُعُلٍ» بضم الفاء والعين، ويَلْزَمُ مَنْ ثَقَّلَها أن يُثَقِّلَ «البُدْنَ»، ويقرأ: و«البُدُن»؛ لأن واحدتها «بدنة»، واختار أبو حاتم التثقيل، ونظيرها: ثَمَرَةٌ وثُمُرٌ.

قرأ نافع ويعقوب: «لَوَوْا» بتخفيف الواو[2]، واختاره أبو حاتم، وقرأ الباقون: بتشديد الواو، واختاره أبو عبد الله والمفضل قال: لأنهم جعلوها مرة بعد مرة، يقال: لَوَى رأسه ليًا إذا ثناه عنك خلافًا عليك، ولَوَّى أَوْكَدَ.

قراءة العامة: «أيمانهم جنة» بفتح الألف من اليمين، يعني: يحلفون بالكذب للمسلمين ليسلموا، وعن الحسن «إيمانهم» بكسر الألف من الإيمان الذي هو الإسلام، يعني: أظهروا الإيمان ليأمنوا من سيوف المسلمين، وصيروه جُنَّةً.

۞ اللغة

الجُنّة: السترة المتخذة لدفع الأذية، كالسلاح المتخذ للدفع، والجَنة: البستان الذي تجنه الشجر، والجِنَّةُ: الجنون الذي يستر العقل، والجِنُّ لسترته عن أعين الناس، والجَنَانُ والجنين كل ذلك أصله الستر.

والصد: الإعراض، صد وصَدَّ غيره لازم ومتعد، وهو يصُدُّ بضم الصاد ويصِدُّ بكسرها: إذا ضَجَّ، والصُّدُّ بضم الصاد: ناحية الوادي، والصَّد والصُّد بالفتح والضم: الجبل.

والفقه: العلم بالشيء، فَقِهْتُ الحديث أَفْقَهُهُ، وكلُّ علم فقهٌ إلا أنه اختص به

(١) حجة القراءات ٧٠٩.

(٢) حجة القراءات ٧٠٩.

علم الشريعة، فكل من علمها يقال: إنه فقيه، وأفقهتك الشيء: بَيَّنت لك، وقال سلمان لامرأة: فَقِهْتِ، أي صِرْتِ فقيهة، وقيل: فَهِمْتِ ما خاطبتك به، يقال: فَقِهَ بكسر القاف: علم وفهم، وبضمها: صار فقيهًا.

والجسم: قال ابن دريد: كل شخص مدرك، وكل عظيم الجسم جسم، والأجسام جمع جسم، والجسمان: الشخص الأجسم، قال الشاعر:

وأَجْسَمُ مِنْ عادٍ جُسُومُ رِجَالِهِمْ وأَكْثَرُ إنْ عُدُّوا عَدِيدًا مِنَ الترب[1]

واختلف المتكلمون في حد الجسم، فقيل: الطويل العريض العميق، ولذلك متى ازداد[2] ذهابه في هذه الجهات قالوا: أَجْسَمُ وجَسِيمٌ، وهذا قول مشايخنا، وقيل: هو المؤلف، وقيل: هو القائم بالنفس، وليس بشيء؛ لأن ذلك لا يقع فيه التزايل، فلا يستعمل فيه لفظة «أفعل»، ولأنه نفي؛ لأن معناه لا يحتاج إلى محل، والأجسام تأتلف من الجواهر، وهي أجزاء لا تتجزأ ائتلفت بمعانٍ يقال لها: التأليف، فإذا رفعت عنه بقيت أجزاء لا تتجزأ.

واختلف مشايخنا في أقل الأجسام، فقيل: ثمانية أجزاء مؤلفة، عن أبي علي، وأبي هاشم. وقيل: ستة أجزاء، عن أبي الهذيل، وقيل: أربعة أجزاء، عن أبي القاسم.

والإفك والانصراف بمعنى، يقال: أَفَكَ يَأْفِكُ أَفَكًا بفتح الهمزة والفاء، وذلك مصدر، والإفك بكسر الهمزة وسكون الفاء اسم الفعل، ومثل ذلك حَذَر وحَذِر، تقول: حذرت حذرًا بفتح الحاء والذال، والاسم: الحِذْر بكسر الحاء وسكون الذال، عن أبي مسلم.

ويقال: سَنَدْتُ إلى الشيء أَسْنُدُ سنودًا: إذا استندت، وأسندت غيري، وفلان سَنَدِي: معتمدي، والمسند: ما أسند إلى شيء يحفظه.

---

(١) الترب: الرمل؛ غ؛ والبيت قائله الفرزدق في قصيدة مطلعها:

أوصى تميمًا إن قضاعة ساقها ندى الغيث عن دار بدومة أو جدب

الأغاني: ٢١/ ٣٨٨.

(٢) ازداد: ازدادت، غ. وما أثبتناه من هامشها: ظ.

۞ الإعراب

كسرت (إن) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ لأجل لام الابتداء التي في الخبر؛ لأن لها صدر الكلام، وإنما أخرت عن موضعها إلى موضع الخبر لئلا يجمع بين حرفي التأكيد، وهو (إنّ) واللام، وكانت أحق بالتأخير؛ لأنها غير كاملة، ولولا اللام لفتح لأجل العلم.

واللام في قوله: ﴿لَرَسُولُهُۥ﴾ لام التأكيد، والعرب تؤكد باللام يقولون: لأعطينك ولأضربنك، ومنه: «لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه اللهُ ورسولهُ، كرّار غير فرار، يكون الفتح على يده» فأعطاها عليًا عليه السلام.

﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ قيل[1]: تم الكلام عند قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، ثم قوله: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ ابتداء وخبر، وقيل: بل يتصل بما قبله، أي: يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو.

۞ النزول

السورة نزلت في قصة عبد الله بن أبي وأصحابه من المنافقين، كانوا يحلفون عند رسول الله ﷺ بأن محمدًا رسول الله ﷺ، وأن في قلوبنا مثل ما نقول بألسنتنا، وكذبوا.

وقيل: كانوا إذا خلوا بضعفة المسلمين طعنوا في الإسلام، فإذا بلغ النبي ﷺ ذلك جاءوا معتذرين يحلفون كاذبين، عن الأصم.

وقيل: قال عبد الله بن أبي: لا تنفقوا على من عند رسول الله، وإذا رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فَنَاظَرَهُ زيد بن أرقم، فلما أخبروا النبي ﷺ جحد وحلف، ففيه وفي زيد بن أرقم نزلت السورة، وقيل له: اذهب يستغفر لك رسول الله ﷺ فلوى رأسه تكبرًا وتعظمًا، وستأتي تلك القصة من بعد.

۞ المعنى

«إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ» يا محمد «لَرَسُولُهُ» وكفى به شهيدًا «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ» فيما أظهروا من قولهم: نشهد إنك لرسول الله؛ لأنهم ما قالوا ذلك عن عِلْمٍ واعتقاد، وقيل: شهد عن جهل

(١) قيل: وقيل، غ.

فكان كاذبًا، كمن يشهد لإنسان على غيره وهو لا يعلم كان كاذبًا، وإن كان ذلك الحق ثابتًا. «**اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً**» أي: جعلوا أيمانهم الكذب سترة يدفعون عن أنفسهم ما يخافون من القتل والأسر وسائر المكاره، وقيل: سترة يستترون بها لئلا يعرف حالهم، واليمين هي حلفهم أنهم منكم، عن الضحاك. «**فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ**» قيل: أعرضوا بذلك عن دين الإسلام، وقيل: لما حلفوا وأظهروا الإيمان سكنوا إلى قولهم، فكانوا يوقعون الشُّبَهَ ليصرفوهم عن الإسلام. وقيل: خوفوا الناس وصدوهم عن الإيمان بمحمد ﷺ، وقيل: صدوا الناس بأن دعوا إلى الكفر في الباطن، وهذا إنما يكون من خواصهم، يصدون العوام عن الدين كما تفعله المبتدعة «**إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**» أي ساءت أعمالهم في إبطان الكفر والحلف بالكذب «**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا**» ظاهرًا عند النبي ﷺ والمسلمين «**ثُمَّ كَفَرُوا**» إذا خلوا بالمشركين، وإنما قال: «**ثُمَّ كَفَرُوا**» لأنهم جددوا الكفر بعد إظهار الإيمان، وقيل: المراد بالإيمان: التصديق؛ أي: صدقوا النبي ظاهرًا ثم جحدوه باطنًا، «**فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ**» قيل: وسم عليها سمة الكفر بأنهم لا يؤمنون أبدًا لتعرف الملائكة بحالهم عقوبة لهم، عن أبي علي. وقيل: لما أَلِفُوا الكفر واعتادوا التكذيب والعناد، ولم يصغوا إلى الحق، ولا فكروا في العواقب خلاهم واختيارهم وخذلهم، فصار ذاك طبعًا على قلوبهم، وهو إلفهم ما اعتادوه من الكفر، عن أبي مسلم. «**فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ**» أي: لا يعلمون الحق من حيث لا يتفكرون حتى يعلموا الحق والباطل.

«**وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ**» شبه المنافق بالخشب المسندة، ووجه التشبيه: أن أجسامهم بحسن صورتها واستواء خلقها وقامتها تعجب الناظر، ولكن لخلوها من الخير كأنهم خشب، أشباح بلا أرواح، وقيل: التشبيه وقع بالخشب المتآكلة يحسب من رآها سليمة من حيث إن ظاهرها يروق، وباطنها لا يفيد، كذلك المنافق ظاهره يعجب، وباطنه خالٍ من الخير. قال ابن عباس: وكان عبد الله ابن أبي جسيمًا فصيحًا، وإذا قال شيئًا يسمع النبي ﷺ «**وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ**» من حسن كلامهم وقولهم للمؤمنين: إنا منكم «**يَحْسَبُونَ**» يظنون «**كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ**» قال[1] ابن عباس: لجبنهم ولتهمة النفاق فيهم يخافون

(١) قال: وقال، غ.

من كل شيء مخافة أن يظهر نفاقهم ويفتضحوا، بخلاف الواثق بدينه. وقيل: إذا نادى مناد في المعسكر أو انفلتت دابة، أو أنشدت ضالة ظنوا أنه العدو، وأنهم يرادون؛ لِمَا في قلوبهم من الرعب، عن مقاتل. وقيل: تم الكلام عند قوله: «كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ» أي: من جبنهم كلما سمعوا صيحة توهموا أن ذلك بلاء نزل، وأن الدائرة عليهم، وإذا سمعوا بخبر عدو، أو تأهب المسلمون لقتال، أحبوا الموت لفرط جبنهم، ثم ابتدأ فقال: «هُمُ الْعَدُوُّ» أي: هؤلاء المنافقون هم أشد عداوة وأضر بالمسلمين؛ لأن المسلمين علموا الكفار، فيتحرزون منهم، ولا يختلطون بالمسلمين، بخلاف المنافقين، فعلى الأول «هُمُ الْعَدُوّ» يرجع إلى الكفار، أي: يظن المنافقون أن ذلك العدو، وعلى هذا العدو هم المنافقون، وقيل: «هُمُ الْعَدُوُّ» أي: لفرط جبنهم يشتد ضررهم على المسلمين؛ لأن الجميع إذا خاف بعضهم تنكسر قلوب الباقين «فَاحْذَرْهُمْ» أي: احذر مخالطتهم ولا تأمنهم؛ لأنهم كانوا ينقلون أسرار المؤمنين إلى الكفار، ويفسدون من قدروا عليه من المؤمنين ويفتنونهم، وقيل: تحذر منهم «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ» قيل: هذا دعاء عليهم بالهلاك؛ لأن من قاتله الله فهو مقتول، ومن غالبه فهو مغلوب، وقيل: لعنهم الله أي: أبعدهم، وقيل: أخزاهم.

ومتى قيل: أليس هم ماتوا؟

قلنا: موتهم نزل بهم عقوبة، عن أبي علي، ويجوز أن يعاقبوا بشيء لا نعرفه فيقتلوا.

«أَنَّى يُؤْفَكُونَ» أي: أنى يصرفون عن الحق مع كثرة الدلالات؟! قيل: هذا توبيخ وتقريع، وليس باستفهام، عن أبي مسلم، وقيل: معناه: كيف تكذبون، من الإفك؟!

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ» قيل: أمالوها إعراضًا بوجوههم عن الحق تكبرًا وكفرًا وكراهة لذكر النبي ﷺ، وقيل: لووا رؤوسهم يحركونها استهزاء حيث دعوهم إلى الحق «وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ» أي: يعرضون عما دعوا إليه «وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ» طالبون الكبر في ذلك الإعراض، قيل: هو عبد الله بن أبي، وقيل: هو في جميع المنافقين، وهذا من الجهل بمواقع الرسالة والدين.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ...﴾ الآية أن القوم أظهروا أنهم يصدقونه عن اعتقاد ومعرفة، ولم يكونوا كذلك، فلذلك سماهم كاذبين؛ لأن ظاهر قولهم كذب؛ بل للوجه الذي ذكرنا كأنهم قالوا: نعتقد أنك رسول الله، ولم يكونوا كذلك.

وتدل أنهم حلفوا كاذبين.

واختلف العلماء، فمنهم من قال نفس قولهم: ﴿نَشْهَدُ﴾ يمين، وهو قول الأصم وفقهاء العراق، ومنهم من قال: الحلف غيره، وكانوا يحلفون، وقوله: (أشهد) لا يكون يمينًا، وهو قول الشافعي واختيار أبي علي.

وتدل على جبن المنافقين مع قوة أجسامهم، وكذا يكون كل ملحد وكافر ومبتدع.

وتدل على أن التكبر عن الحق من الكبائر.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

۞ اللغة

الاستغفار: طلب المغفرة، وإنما جاز من النبي صلى الله عليه الاستغفار لهم على ظاهر حالهم، فبين الله تعالى أن ذلك لا ينفع لإضمارهم الكفر.

والانفضاض: التفرق عن تلاؤم، ومنه: نفض الكتاب، فرقه بالنشر، ومنه: الفضة؛ لأن من شأنها التفرقة في أثمان الأشياء.

والأعز: نقيض الأذل، والأعز: الأقدر على منع غيره، وأصله من العزيز.

قيل: نزلت الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه، وذلك أنه بلغ رسول الله صلى الله عليه أن بني المصطلق يجتمعون لحربه، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية زوجة النبي ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ لحربهم، فلقيهم على ماء لهم، واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق، وغنموا أموالهم ونساءهم وذراريهم، والناس على ذلك وقع بين أجير لعمر بن الخطاب يقال له جهجاه، من بني غفار، وبين حليف للخزرج مشاجرة بسبب الماء وقتال، فصرخ الجهجاه بالمهاجرين، وصرخ حليف الأنصار بالأنصار، وأعان هذا بعضهم، وهذا بعضهم حتى وقعت مناوشة، فقال عبد الله أبي وعنده قومه وفيهم زيد بن أرقم، غلامٌ حدثُ السِّنِّ: ما مثلنا ومثلهم إلا كقول القائل: سَمِّنْ كلبك يَأكلُك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل - عني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله -. ثم قال لقومه: هذا فعالكم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد. فقال زيد بن أرقم: أنت والله الذليل، ومحمد في عِزٍّ من الرحمن، فسكته عبد الله، وأخبر زيد بذلك رسول الله ﷺ وعنده عمر، فقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنقه أو مر أنصاريًّا يضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: «إذن تحدثَ الناس أن محمدًا يقتل أصحابه» وأمر بالرحيل، وأرسل إلى عبد الله: «ما هذا الذي بلغني عنك»، فحلف أنه لم يكن من ذلك شيء، وأن زيدا لكاذب، وقال جماعة من الأنصار: هو شيخ لا يصدق عليه غلام حدث، وجاء عبد الله بن عبد الله، واستأذن النبي ﷺ في قتل أبيه فأبى، فلما قدموا المدينة أنزل الله سبحانه هذه السورة في تكذيب عبد الله وتصديق زيد، وكان عبد الله خارج المدينة، فلما أراد دخولها منعه ابنه، وجاء وسيفه مسلول، فقال: ما تفعل يا لكع، فقال: لا أدعك تدخل حتى يأذن رسول الله، وحتى تقول بأن رسول الله الأعز، وأنت الأذل وابن الأذل، فشكا عبد الله ابنه إلى رسول الله ﷺ، فأذن له في الدخول، وقال لابنه: «دعه، إنا نحسن معاشرته لمكانك»، ولم يلبث إلا أيامًا قلائل حتى مات، فلما نزلت الآيات قيل له: قد نزل فيك ما ترى، فاذهب إلى رسول الله

يستغفر لك، فلوى رأسه، وقال: أمرتموني أن أومن فآمنت، وأن أؤدي الزكاة فأديتُ، فما بقي إلا أن أسجد لمحمد، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟﴾ الآيات.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حال المنافقين وأقوالهم، وأن الاستغفار لهم لا يغني عنهم، فقال سبحانه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: سواء طلبت لهم من الله المغفرة أو لم تطلب ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لأنه يغفر بشرط الإيمان، فإذا لم يؤمنوا لم يُغْنِ ذلك عنهم شيئًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قيل: لا يهديهم إلى طريق الجنة؛ لأن القوم خارجون عن الدين والإيمان. قال الحسن: أخبره أنهم يموتون على الكفر فلم يستغفر لهم. وقيل: لم يستغفر لهم؛ لأنهم لم يحضروا مجلسه.

ومتى قيل: لو حضروا مجلسه وطلبوا الاستغفار كان يستغفر لهم؟

قلنا: نعم بشرط التوبة، فأما مع الإصرار فلا. وقيل: بل على ظاهر الحال. والأول الوجه؛ لأنه علم حالهم.

﴿هُمُ﴾ يعني المنافقين ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟﴾ من أموالكم ﴿عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ من فقراء المهاجرين والأنصار ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ يتفرقوا عنه، قيل: تواصى المنافقون بينهم بذلك. وقيل: قاله عبد الله بن أبي لهم؛ ليتفرق الصحابة فلا يجد ناصرًا، والله تعالى عظم أمر نبيه فلم يحك ما قالوا فيه، وإنما قال: ﴿عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾. ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خزائنه: مقدوراته؛ أي: يخلق ما يشاء ويرزقهم من وجوه أخر، ويزيل فقرهم فلا يضر ترك إنفاقهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يعلمون كنه عظمته، وقيل: لا يعلمون أنه يرزقهم إن منعوا الإنفاق، وينصره إن منعوا النصر، وقيل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: «**وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ**».

«**يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ**» من غزوة بني المصطلق «**لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا**

«الْأَذَلَّ» وهو يعني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ، فأكذبه الله تعالى، وقال: «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ» لأنه القادر على ما يشاء، القاهر لكل مخلوق، لا يمتنع عليه شيء «وَلِرَسُولِهِ» بإظهاره وإعلاء كلمته ودينه على الأديان، وللمؤمنين بنصرته لهم في الدنيا، وإدخاله إياهم الجنة، وقيل: عزة الله بالربوبية، وعزة الرسول بالنبوة، وعز المؤمنين بالعبودية، أخبر الله تعالى بذلك، ثم حقق ذلك، فأعز رسوله والمؤمنين، وفتح عليهم مشارق الأرض ومغاربها «وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ» أن له ملك السموات والأرض.

ومتى قيل: أليس قال في موضع: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠]؟

قلنا: عز الرسول والمؤمنين من جهته فلله العزة جميعًا.

❁ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: أن الكفار والمنافقين لا تلحقهم مغفرة، ولا استغفار.

ومنها: أن المنع من الإنفاق في سبيل الله كبيرة، مذموم.

ومنها: أن الرزق يحصل من جهته، فَمَنْعُ غيره لا يضر إلا أنه يأمر عباده بأن ينفق بعضهم على بعض، فإن لم يفعلوا أتاهم الرزق من وجه آخر.

ومنها: أن العزة تحصل به وبطاعته.

ومنها: أن المعارف مكتسبة؛ لأنه وصفهم بأنهم لا يعلمون.

ومنها: أن ذلك قول المنافقين، بخلاف قول المجبرة.

قوله تعالى:
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

القراءة

قرأ أبو عمرو[(١)]: «فَأَصَّدَّقَ وأَكُونَ» بالواو وفتح النون على جواب التمني والاستفهام بالفاء، قال أبو عمرو: إنما حذفت الواو من المصحف اختصارًا، قال الفراء: ورأيت في بعض مصاحف عبد الله بن مسعود (فَقُولا: فَقُلَا)، وروي أن في حرف أبيّ وابن مسعود: (**وأكون**)[(٢)]، وقرأ الباقون: (**وأكنْ**)[(٣)] بالجزم عطفًا بها على قوله: «**فأصدق**» ولو لم يكن فيه الفاء؛ لأنه لو لم يكن فيه الفاء كان جزمًا، واختار أبو عبيد الجزم لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه يحذف الواو في مصحف عثمان وسائر المصاحف.

وثانيها: أن أكثر القراء عليه.

وثالثها: أن لها وجهًا صحيحًا، وهو أن يكون نسقًا على محل: «**فأصدق**» قبل دخول الفاء على ما ذكرنا، وأنشد:

فَأَبْلُونِي بَلِيَّتَكُمْ لَعَلِّي ... أُصَالِحُكُمْ وَأَسْتَدْرِجْ نَوَيَّا[(٤)]

وكان يجب أن يقول: أَسْتَدْرِجُ بالرفع عطفًا على (أصالحكم)، إلا أنه جزم؛ لأنه عطف على (أصالحكم) قبل دخول (لعل) فيه.

---

(١) حجة القراءات ٧١٠.
(٢) وأكون: فأكون، غ.
(٣) وأكن: فأكن، غ.
(٤) البيت قائله: خارجة بن الحجاج الأيادي؛ انظر: لسان العرب (علل).

وقيل: جزم لأنه جواب الأمر إلا أن (أصالحكم) رفع لدخول (لعل)، كذلك هاهنا لدخول الفاء.

اللغة

كل شيء شغلك عن شيء فقد ألهاك عنه، ألهى يُلْهِي إِلْهَاءً: إذا غفلت عنه، وتركته، وأضاف الإلهاء إلى المال؛ لأنه وقع بسببه كما يقال: حلمي جَرَّأك، قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ [الطور: ٣٢]، وقال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، يعني الأصنام، قال الشاعر:

أَلْهَى بَنِي جُشَمٍ عَنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ قَصِيدَةٌ قَالَهَا عَمْرُو بْنُ كُلْثُومْ[(١)]

وقال كعب بن زهير:

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ آمُلُهُ لاَ أُلْهِيَنَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ[(٢)]

وألهيته عن الأمر: صرفته عنه.

والأجل: الوقت ومدة الشيء، والآجل: ضد العاجل.

الإعراب

«أحدكم» نصب بوقوع الفعل عليه وهو الموت، وإن تأخر.

ونصب (فأصدقَ) لأنه جواب التمني بالفاء، وقيل: جواب الاستفهام، وهو قوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ﴾، قال عمرو بن معدي كرب:

ذَرْنِي فَأَذْهَبَ جَانِبًا وَحْدِي وَأَكْفِكَ جَانِبِي

النزول

قيل: نزلت الآية في المنافقين، عن مقاتل وجماعة. والمراد بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ظاهرًا، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من المؤمنين المخلصين.

---

(١) الأغاني ١١/٥٧؛ الكامل في الأدب، ١/ ٥٢؛ وقائله رجل بني بكر وفي رواية: أَلْهَى بني تغلب عن كل مكرمة...

(٢) البيت قائله كعب بن زهير في قصيدة البردة، وفي رواية: وقال كل صديق كنت آمله، انظر: لسان العرب (لها).

وقيل: نزلت في المؤمنين، وأراد (بالصالحين) أي: بالأعمال الصالحة، عن ابن عباس وجماعة.

۞ المعنى

ثم أمر تعالى بالإنفاق بعدما حكى عن المنافقين النهي عنه، فقال سبحانه: «**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ**» لا تشغلكم «**أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ**» قيل: أراد بذكر الله جميع[1] طاعاته، وهو قول أبي مسلم وهو الوجه، وقيل: أراد الصلوات[2] الخمس، عن أبي علي، وقيل: ذكر الله على كل حال، وقيل: ذكر الله وهو شكره على نعمائه والصبر على بلائه، والرضا بقضائه، أشار إلى أنه لا ينبغي أن يغفل في حال عن ذكر الله بؤسًا كان أو نعمة، فإن إحسانه في [جميع] الحالات لا ينقطع «**وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ**» أي يلهو عن ذكره يأسًا بأسباب الدنيا «**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**» خسروا ثواب الله ورحمته «**وَأَنْفِقُوا**» قيل: في الجهاد، وقيل: في سبيل البر، ويدخل فيه الزكوات وسائر الحقوق الواجبة «**مِن مَا رَزَقْنَاكُمْ**» أعطيناكم «**مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ**» أي: أسباب الموت «**فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي**» أمهلتني «**إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ**» إلى مدة قريبة، قيل: (لا) صلة والكلام على وجه التمني، وتقديره: لو أخرتني، وقيل: (**لولا**) بمعنى (هلا)، وتكون استفهامًا، وطلبه ليمهله في الدنيا، وذلك إذا عاين علامات الآخرة سأل الرجعة ليتدارك الغائب، وقيل: ليس في الزجر عن التفريط في حقوق الله آية أعظم من هذه «**أَصَّدَّقَ**» أي: أتصدق «**وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ**» قيل: من المؤمنين المخلصين، والآية في المنافقين، عن مقاتل، وقيل: من المطيعين لله، والآية في المؤمنين، عن ابن عباس، وقيل: الصلاح هنا[3] الحج، عن ابن عباس، وقال: ما من أحد يموت وكان له مال فلم يؤد زكاته، وأطاق الحج فلم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت، فقالوا: يابن عباس، اتق الله فإنما الكافر يسأل الرجعة! فقال: أنا أقرأ عليكم به قرآنًا، ثم قرأ هذه الآية، وروي عن الضحاك: «لا ينزل بأحد الموت

(١) جميع: على جميع، غ. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ٢٠.
(٢) الصلوات: الصلاة، غ.
(٣) هنا: هذا، غ. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ٢٠.

ولم يحج ولا أدى زكاة إلا تمنى الرجعة ويقول: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ ولن يجاب إليه».

«**وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا**» يعني أعمار الخلق مكتوبة فلا تتقدم ولا تتأخر، فالواجب ألا يتكل المرء في تلافي ما فاته على عمره، والإنسان يهمل أوقاتًا كثيرة، ثم يتمنى مدة يسيرة لاستدراك ما فاته.

ومتى قيل: ألا يجوز أن يعادوا؟

قلنا: إذا اضطروا إلى المعرفة لا تجوز الإعادة؛ لأنهم يكونون ملجئين، وإن لم يكن كذلك فهو بمنزلة الانتباه، فيعودون إلى ما كانوا؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ﴾ [الأنعام: ٢٩]، «**وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**» أي: عليم بأعمالكم يجازيكم بها.

۞ الأحكام

يدل قوله: «**لا تلهكم**» أن أفعال العباد حادثة من جهتهم؛ لأنها لو كانت مخلوقة لله تعالى لكان الله يلهيهم فلا يصح قوله: «**لا تلهكم**» وكذلك قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ[1] هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ يدل على أن الفعل لهم.

ويدل قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ أن في المال حقًّا يجب إخراجه قبل حصول الحسرة.

وتدل على أن الرزق لا يكون حرامًا؛ لأن الإنفاق من الحرام محظور.

ويدل قوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ الآية على أشياء:

منها: أن الفعل فعلهم؛ لأنها لو كانت خلقًا له تعالى لما كان لسؤالهم الرجوع ليتصدقوا معنى.

ومنها: أنهم يقدرون على ذلك، لولا ذلك لتمنوا القدرة، وكيف يسألون الرجعة ليفعلوا ما فرطوا، وليس إليهم شيء من ذلك، ولا قدروا عليه.

ويدل قوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ﴾ الآية أن الأجل واحد؛ لأنه لا يتقدم ولا يتأخر، وهو ما علم الله تعالى أنه يموت فيه، أو يقتل.

---

(١) فأولئك: أولئك، غ.

سُورَةُ التَّغَابُن

سورة (التغابن)، وهي مدنية، عن الأصم، واختاره القاضي.

وقيل: مكية إلا قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾.

وهي ثماني[1] عشرة آية.

وعن أبي، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (التغابن) دُفِعَ عنه موت الفجأة».

لما ختم السورة [السابقة] بذكر الأمر بالطاعة، والنهي عن العصيان، افتتح هذه السورة ببيان حال المطيع والعاصي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ
ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا
تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ
أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

---

(١) ثماني: ثمان؛ غ.

۞ اللغة

القدير: القادر، إلا أن في «قدير» مبالغة، فهو قادر على جميع الأجناس، وعلى ما لا نهاية له من كل جنس في كل وقت.

والصور: جمع صورة وهي المبنية على ضرب من التأليف، ثم تنقسم الصور إلى ضروب كثيرة، صَوَّرَهُ تصويرًا.

والإسرار: الإخفاء.

والوبال: ثقل الشيء المكروه، ماءٌ وَبِيلٌ وطعام وبيل: أي غير مريء، وَبَالُ الأَمْرِ: وخَامَةُ عاقبته، وفي الحديث: «كل ما أديت زكاته فقد ذهبت أَبَلَتُه[1]» أي: وبَلَتُهُ، وهو وباله، فقلبت الواو همزة، ومعناه: ذهاب مضرته.

۞ الإعراب

﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ رفع على الابتداء والخبر، عن الأخفش.

﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ نصب بـ (أحسن).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ابتداء وخبره.

۞ المعنى

«**يُسَبِّحُ لِلَّهِ**» أي: ينزهه «**مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**» قيل: يدل على تنزيهه، وقيل: التفكر فيه يوجب تنزيهه، وقيل: تنزيه المكلفين بالقول والجمادات بالدلالة «**لَهُ الْمُلْكُ**» متفرد دون غيره، والألف واللام لاستغراق الجنس، وقيل: له الملك حقيقة واستحقاقًا، وقيل: له الملك وكلما سواه مملوك له، عن أبي مسلم. «**وَلَهُ الْحَمْدُ**» أي: جميع الحمد له؛ لأن له النعم كلها وله الصفات. **الحميدة** ممدوحة لا شيء يوجب نقصًا «**وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**» يُوجِدُ المعدوم، ويُفْني الموجود، ويغير

(١) كل ما أديت زكاته فقد ذهبت أبلته: غ. وما أثبتناه من: لسان العرب ١١/ ٣، ومن تاج العروس ١/ ٧٥٧٢.

الأحوال كما يشاء «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ» قيل: الخطاب للمكلفين، عن أبي علي، وقيل: بل هو عام أي: أحدثكم عن عدم كما أراد، وقد تم الكلام هاهنا، ثم ابتدأ فقال: «فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ» قيل: منكم من لم يقر بأنه خلقه كالدهرية، ومنهم من يقر بأنه خلقه كالموحدة، وهذا نحو قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي﴾ [النور: ٤٥]، فالله تعالى خلقهم، ثم المشي منهم، كذلك هاهنا، الله تعالى خلقهم، ثم الإيمان والكفر منهم، وقيل: فمنكم كافر بالله، ومنكم مؤمن، وقيل: فمنكم كافر في السر، مؤمن في العلانية كالمنافقين، ومنكم مؤمن في السر، كافر في العلانية كعمار وذويه[1]، عن الضحاك. وقيل: فمنكم كافر بالله، مؤمن بالكواكب، ومنكم مؤمن بالله، كافر بالكواكب، يعني في الأنواء، عن عطاء بن أبي رباح. وقيل: فمنكم كافر يؤمن، ومنكم مؤمن يكفر، عن ابن عباس. وقيل: فمنكم كافر في الحال، مؤمن في العاقبة، ومنكم مؤمن في الحال، كافر في العاقبة، عن أبي سعيد الخدري، والمراد بالآية ظاهر، فلا يحتاج إلى هذه التأويلات، والمعنى: أن المكلفين على جنسين، كافر فيدخل فيه أنواع الكفر، ومنهم مؤمن، وهم نوع واحد، ولا يجوز حمله على أنه خلقهم مؤمنين وكافرين؛ لأن الكفر والإيمان فعل العبد، ليس بخلق الله تعالى؛ ولذلك يقع بحسب قصدهم وقدرتهم وعلمهم وآلتهم؛ ولذلك يصح الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وبعثة الرسل، ولأنه يشتق منه الأسماء لهم دونه؛ لأن الحكيم لا يخلق سب نفسه، وقَتْلَ أنبيائه، ولأنه لو جاز أن يخلق الكفر وكل قبيح وضلال جاز أن يبعث رسولاً يدعو إلى الضلال، ويظهر المعجزة على يدي كذاب، ولجاز عليه الكذب، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا، وقد قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه حتى يعرب لسانه عنه، فإما شاكرًا وإما كفورًا»، وعندهم الله يُهَوِّدُهُ ويُنَصِّرُهُ، وعن النبي ﷺ يحكي عن ربه: «خلقت عبادي كلهم حنفاء»، ونحو ذلك

(١) وذويه: ورويه، غ. والصواب ما أثبتناه من: تفسير القرطبي ١٨/١١٨.

من الآيات والآثار، ولأنه كان يقول كافرًا ومؤمنًا بالنصب، فلما كان بالرفع علمنا أن المراد ما ذكرنا «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» أي: عالم بأعمال الجميع فيجازيهم بذلك «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ» أي للحق والطاعة، وقيل: قصد به الحق وأراده، وقيل: للثواب، وقيل: بحسب المصلحة فكان حقًّا. «وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ» قيل: أحسنها من حيث الحكمة، ومن حيث قبول العقل لا قبول الطبع؛ لأن فيها من ليس بهذه الصفة، وقيل: أحسن صوركم من حيث قبول الطبع؛ لأن ذلك هو المفهوم من حسن الصور كقوله: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

«وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ» أي: إلى حُكْمِهِ المرجع، فأحسنوا العمل «يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ» أي: ما يخفيه بعضكم إلى بعض، أو يخفيه في صدره «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» يعني بما في القلوب والضمائر «أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ» خبر «الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ» من الأمم وأصروا على الكفر «فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ» أي: وخيم عاقبة فعلهم، وثقل أمرهم مما نالهم من العذاب «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» موجع، قال أبو مسلم: وجدوا غِبَّ أمرهم في الكفر، فوجدوه غير موافق لهم، بل وجدوه مكروهًا عليهم بما حل بهم في الدنيا «وَلَهُمْ» بعد ذلك «عَذَابٌ أَلِيمٌ».

۞ الأحكام

ظاهر قوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ يوجب أن ذلك فعلهم؛ لأنه أضاف ذلك إليهم؛ ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ، وقد بَيَّنَّا طرفًا من الكلام فيه.

ومتى قيل: فأين الفاسق؟

قلنا: هو مسكوت عنه، وإنما الغرض ذكر الطرفين.

وقيل: محذوف (ومنكم فاسق)، عن الحسن.

وقيل: ليس فيه نفي ثالث، عن أبي علي.

وقيل: أراد فمنكم جاحد، ومنكم مقر، عن الأصم، ولا ثالث لهذين.

وحكي عن الحسن (ومنكم منافق) إلا أن المنافق داخل في قوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ والأوجه ما قاله أبو علي؛ لأنه تعالى بين حال فريقين ولم ينف ثالثًا.

ومتى قيل: هلا حملتم على أنه خلقه كافرا؟

قلنا: بينا في ذلك ما يليق بهذا الموضع، ولأن الظاهر لا يقتضيه، فلا تعلق للقوم بذلك، ونظير ذلك قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣].

ومتى قيل: هلا قلتم: إنه يكون في بطن أمه كافرًا أو مؤمنًا كما ورد في الخبر؟

قلنا: لأنه ليس بمكلف ولا عاقل، فلا يليق به هذا الوصف.

ومتى قيل: إذا كان المعلوم من حاله ذلك حكم عليه به؟

قلنا: فقل في المعدومات: إن في بعضها كافرًا[1] وبعضها مؤمنا[2]؛ ولأن هذه أسماء مشتقة من أفعال لا تجري عليهم إلا بعد وجودها كاسم الضرب ونحوه.

ومتى قيل: أليس روي عن النبي ﷺ: «الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه»؟

قلنا: هذا خبر واحد، وروي: «السعيد من سعد بعمله، والشقي من شقي بعمله»، وإن ثبت فمعناه: أنه إذا كان المعلوم من حاله أنه يعصي أو يطيع إذا بلغ، فذلك يعلم من حاله في بطن أمه، فيحمل على هذا ليوافق الكتاب والسنة وأدلة العقول.

ويدل قوله: «بالحق» أنه خلق الأشياء لغرض صحيح وللحق، بخلاف قول المجبرة.

ويدل قوله: ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أن العقوبات جزاء الأعمال.

(١) كافرًا: كافر؛ غ.
(٢) مؤمنا: مؤمن؛ غ.

قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٠﴾

❁ القراءة

قرأ يعقوب: «**نجمعكم**» بالنون اعتبارًا بقوله: «**أنزلنا**»، الباقون بالياء كناية عن اسم الله تعالى.

قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر: «**نُكَفِّرْ**»، «**ونُدْخِلْهُ**» بالنون، الباقون بالياء فيهما[1].

❁ اللغة

أصل الغبن النقص، والتغابن: «تفاعل» من الغبن، وذلك يكون بين اثنين، ويجري في البيع والشراء، وهو أخذ الشيء بدون قيمته، ومن يشري الدنيا بالآخرة فهو بهذه الصفة؛ لأنهم أخذوا حقيرًا، وأعطوا خطيرًا، يجري الغبن على أهل النار من أهل الجنة؛ لأنهم باعوا الجنة بالدنيا، وأصله في البياعات، غَبَنَهُ يَغْبِنُهُ غَبْنًا، نحو: ضرب يضرب ضربًا، وغَبِنَ فلان رأيه يَغْبَنُهُ غبنًا [نحو]: حَمِدَ يَحْمَدُ، والغَبْن في الرأي: إذا كان ضعيفًا، وقيل: أصله من إخفاء الشيء، ومنه المغابن: المواضع التي تخفى، عن أبي مسلم.

(١) حجة القراءات ٧١١.

۞ الإعراب

«يوم» قيل: نصب على الظرف، أي: يبعثون يوم، وقيل: نصب على الإغراء، أي: اذكروا يوم، أو عليكم يوم يجمعكم فاستعدوا له.

قوله: ﴿بِأَنَّهُۥ كَانَت﴾ قيل: الهاء عماد، وقيل: كناية عن الثبات.

۞ المعنى

لما تقدم ما نزل بالأمم، بين الوجه الذي لأجله استحقوا العذاب، فقال سبحانه: «**ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ**» أي: ذلك العذاب نزل بهم لأجل أن الرسل أتتهم «**بِالْبَيِّنَاتِ**» والحجج والمعجزات فأنكروا «**فَقَالُوا**[1] **أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا**» يعني أبشر مثلنا نتبعه ليهدينا «**فَكَفَرُوا**» جحدوا «**وَتَوَلَّوْا**» أعرضوا عنهم وعما جاءوا به «**وَاسْتَغْنَى اللَّهُ**» أي: هو غني عنهم وعن عبادتهم، وإنما كلفهم لنفعهم «**وَاللَّهُ غَنِيٌّ**» لا تجوز عليه الحاجة «**حَمِيدٌ**» قيل: محمود، وقيل: من حقه أن يحمد لإنعامه عليهم مع كفرهم. «**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَنْ يُبْعَثُوا**» بعد الموت أحياء «**قُلْ**» يا محمد «**بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ**» ذكر القسم تأكيدًا للبعث «**ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ**» قيل: لتخبرن بأن يعرض عليهم مكتوبًا في الكتب، وقيل تُجَازُنَّ بذلك «**بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**» أي: سهل عليه بعث جميع الخلق في طرفة عين «**فَآمِنُوا**» أيها المكذبون بالبعث «**بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا**» قيل: هو القرآن؛ لأنه ينور أمر الدين، وبه يهتدى «**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**» عالم بأعمالكم فيجازيكم بحسبها «**يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ**» قيل: يجمعكم من القبور ليوم القيامة، أي: يميتكم جميعًا، وقيل: يجمعكم في يوم الجمع يوم القيامة لاجتماع الخلائق فيه «**ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ**» قيل: غبن أهل الجنة أهل النار، عن قتادة، ومجاهد، وقيل: غبن أهل النار؛ لما نالهم من العذاب بإيثارهم الدنيا الفانية، والغبن: فوت الشيء الخطير ببدل حقير.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ في تفسيرها: «ما من عبد مؤمن يدخل الجنة إلا

(١) فقالوا: وقالوا، غ.

أري مقعده من النار لو أساء؛ ليزداد شكرًا، وما من عبد يدخل النار إلا أُرِيَ مقعده من الجنة لو أحسن؛ ليزداد حسرة».

وقيل: يغبن أهل الجنة بعضهم بعضًا في زيادة الدرجات.

«وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ» أي: معاصيه **«وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا [أَبَدًا]»** أي: يدوم لبثهم، ويدوم نعيمهم **«ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»** أي: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المحذور **«وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا»** بالحجج والقرآن **«أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ»** المرجع.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ﴾ أن العقاب يستحق على المعاصي، وأن المعاصي فعلهم.

ويدل قوله: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أن القوم عجزوا عند ظهور المعجزة، فعدلوا إلى ما ليس بحجة؛ لأن الرسالة لا تتعلق بالجنس، وإنما تتعلق بالمصلحة.

ويدل قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ أن جميع الخلق يحشر يوم القيامة، لذلك سمي يوم الجمع، وسمي التغابن لعظم ما يجري من الغبن ذلك اليوم على أهل النار، ولا غبن أعظم من أن يفوته ثواب الجنان، ويدخل النار.

وتدل على أن أفعال العباد حادثة من جهتهم؛ إذ لو كان خلقًا له لما صح التغابن، كالهيئات والصور، عن أبي علي.

قوله تعالى:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾
وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ
وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا
ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ
حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «يَهْدِ» بالياء وفتحها، «قَلْبَهُ» بفتح الباء، يعني: الله يهدي قلبه. [و] عن السلمي: «يُهْدَ» بضم الياء وفتح الدال، «قلبُه» بضم الباء على ما لم يسم فاعله. وعن طلحة بن مصرف: «نَهْدِ» بالنون، «قلبَه» بفتح الباء، وعن مالك بن دينار: «يَهْدَا» بألف لينة بدلاً من الهمزة.

قرأ ابن كثير وابن عامر: «يُضَعِّفه» بغير ألف، الباقون بألف، وقد مر ذكره(١).

اللغة

المصيبة: ما أصاب الإنسان من خير أو شر إلا أنه كثر استعمالها في المكروه، يدل عليه قوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة: ٥٠].

والفتنة: المحنة والاختبار.

(١) حجة القراءات ٧١٢.

والشح: البخل، وهو في اللغة: منع النفع، وفي الشرع: منع الحقوق الواجبة، شح يَشِحُّ شُحًّا، وهو شحيح.

والوقاية: منع الشيء عن غيره، وَقَي يَقِي، فهو واقٍ.

الإعراب

﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ نصب بفعل محذوف يدل عليه ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ كأنه قيل: ائتوا بالإنفاق خيرًا، وقال الأخفش: تقديره: يكن الإنفاق خيرًا لأنفسكم.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ خبر الابتداء محذوف، أي: هو عالم الغيب.

النزول

قيل: نزل قوله: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ في قوم أرادوا الهجرة، فثبطهم أزواجهم وأولادهم، وقيل: كانوا كفارًا، وأظهروا العداوة، عن الحسن.

وقيل: كان الرجل إذا أسلم يريد أن يهاجر معه أهله وولده، فمنهم من يجيب، ومنهم من لا يجيب، ففي ذلك نزلت الآية، عن ابن عباس.

وقيل: منهم من هَمَّ بقطع العصمة بالطلاق.

وقيل: قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ نزل في قوم تخلفوا عن الهجرة بسببهم.

وقيل: إن امرأة تشاجرت مع زوجها، فقال: هذا جزاء من عصى الله فيك.

وقيل: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، كان إذا أراد الغزو منعه أهله، عن عطاء بن يسار[1].

وقيل: نزلت في قوم أرادوا طاعة الله، فثبطهم أولادهم وأزواجهم، عن مجاهد.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أَنّ ما يصيب الإنسان من جهته تعالى يجب على العبد الرضا بقضائه، منبهًا أن الكفر والمعاصي ليس منه، فقال سبحانه وتعالى: «مَا أَصَابَ مِنْ

(١) يسار: بشار، غ.

مُصِيبَةٍ» قيل: الآلام والأمراض، والقحط والجدب، والموت ونحوها مما هو من جهته تعالى «إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ» أي: بأمره، وهذا تَوَسُّعٌ والمراد أنه يفعله ويخلقه، وقيل: المراد جميع ما يناله من الضرر وإن كان ظلمًا قبيحًا، «إلا بإذن الله»(١): إلا بعلمه، وقيل: بتخليته، عن أبي مسلم. فكأنه لما تقدم ذكر الكفر بين أنه يعلمه فيجازي بذلك من يؤمن بالله، وقيل: يصدق به ويرضى بقضائه «يَهْدِ قَلْبَهُ» ليعلم أن المصيبة بإذن الله، عن ابن عباس، وسئل علقمة عن ذلك فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله تعالى ويرضى ويسلم. ولا شبهة أن الكفر لا يجب الرضا به، دل أنه ليس من قضائه. وقيل: من يؤمن بالله فيصبر عند نزول المصائب، ويرضى بقضائه يهد قلبه بلطفه حتى ينشرح، ويثبت على ما هو عليه، وقيل: يهد قلبه إلى نيل ثوابه، وقيل: يهد قلبه فيعرف معايب الدنيا، فلا يجزع عند البلاء، وقيل: هو الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا ظُلِمَ غَفَرَ، وإذا أصابته مصيبة استرجع، فيهدي قلبه عند النعمة للشكر، وعند البلاء للصبر والرضا، عن مجاهد. وقيل: من يؤمن بالله تعالى بفعل الفرائض يهد قلبه لفعل السنة «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» فيجازي كل إنسان بعمله «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ» أي: أعرضتم عن ذلك «فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» أي: ليس عليه إلا تبليغ الرسالة، وقد فعل، والمبين: البين الظاهر.

«اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» والتوكل: تفويض الأمر إليه، والثقة بتدبيره، والرضا بتقديره. «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ» (مِنْ) للتبعيض؛ لأن بعضهم بهذه الصفة، وقوله: «عَدُوًّا لَكُمْ» قيل: في دينكم «فَاحْذَرُوهُمْ» فيه، وقيل: تحملكم على معصية الله، وتمنعكم عن طاعته، فذلك عداوتهم، وقيل: عداوتهم أنهم يتمنون موته، فيرثون ماله «فَاحْذَرُوهُمْ» أن تقبلوا منهم «وَإِنْ تَعْفُوا» تتركوا عقابهم «وَتَصْفَحُوا» تجاوزوا عنهم «وَتَغْفِرُوا» تستروا ما سبق منهم إن عادوا إلى الحالة الجميلة، وقيل: (إن تعفوا وتصفحوا) عمن ظلمكم فإن الله يغفر بذلك كثيرًا من ذنوبكم، عن أبي علي، وقيل: إن قومًا من المهاجرين قالوا

(١) إلا بإذن الله: إلا بإذنه، غ. وما أثبتناه من: تفسير الأعظم: ٢/٢٢٣.

لأولادهم: لئن لم تتبعونا لا ننفق عليكم، ثم بعد ذلك التحقوا بهم، فأرادوا ألا ينفقوا عليهم، فندبهم إلى العفو والتجاوز والإنفاق، وقيل: فاعفوا ولا تعاقبوهم، ولا تقطعوا العصمة «**فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**».

«**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ**» أي بلاء وامتحان؛ وذلك أنهم قد يحملونهم على كسب الحرام، ومنع الحقوق، ومن كثر عياله قَلَّ نظره في أمر عاقبته، ولهذا اختار أكثر الصالحين العُزْبَةَ وترك التزويج، وقيل: فتنة عذاب لما يناله من الشدة والكلفة في رعايتها، وقيل: لأنهم ينالهم[1] بسببهم العذاب، وقيل: فيه بلاء؛ لأن المرء ابتلي بحبهم، وما يرجع إلى منافعهم، فكانت فتنة «**وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**» أي: لا تميلوا إلى المال والأولاد، وآثروا طاعة الله فعنده الأجر العظيم، عن أبي علي.

ومتى قيل: لِم قال في الجميع: إنهم فتنة، وفي بعضهم: إنهم عدو؟

قلنا: لأن الفتنة شملت وعمت الجميع، والعداوة اختصت بالبعض، ذلك ظاهر.

«**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**» هذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه لم يكلف شططًا، ولا شيئًا لا يقدر العبد عليه.

والثاني: أنه أراد المبالغة، أي: اتقوا الله ما أمكنكم.

ومتى قيل: أليس قد روي عن بعضهم أن هذا ناسخ لقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]؟

قلنا: ذلك ليس بصحيح؛ لأنه تعالى لم يكلف إلا ما يطيقه العبد، والآيتان لا تتناسخان، وإنما ورد بشرط الطاقة، ويحتمل أن يقال: إن في هذه الآية رخصة لحال التقية، وما جرى مجراها.

«**وَاسْمَعُوا**» قيل: اسمعوا من الرسول ما يتلو عليكم، وما يعظكم به، ويأمركم، وينهاكم، وقيل: اسمعوا؛ أي: أطيعوا وانقادوا كما يقال: سمعًا وطاعة، ومنه: سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ «**وَأَطِيعُوا**» الله والرسول «**وَأَنفِقُوا**» في أعمال البر ذلكم خير من الإقبال على الأهل والولد «**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ**» أي: من صرف عن نفسه البخل وَمَنَعَ،

(١) في غ كتب فوق لفظة: (ينالهم). لفظة: (يناله سعته).

وقيل: الشح أن يَبْخَلَ نَفْسُهُ، وإذا جاد غيره يشق عليه، والبخل: أن يبخل هو، وقيل: من الشح أن يعمد إلى مال غيره فيأكله، عن ابن مسعود، وفي الشرع: أن البخل والشح منع الواجب، وقيل: أراد بالشح ترك المواساة في طاعة الله والجهاد في سبيل الله إلا أن حقيقة الشح في المال «**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**» الفائزون الظافرون بالبغية والمراد. «**إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**» وقد بَيَّنَّا أن هذا تَوَسُّعٌ من حيث جعل الصدقة بأمر الله وضمانه الجزاء عليها قرضًا، والحسن أن يعطيها مخلصًا لله تعالى، وقيل: إطلاق اسم القرض تلطف في الاستدعاء إلى الإنفاق «**يُضَاعِفْهُ**[1] **لَكُمْ**» أي: يُعطي لكم بدله أضعاف ذلك من واحد إلى سبعمائة إلى ما لا يتناهى؛ لأن الصدقة منقطعة وثوابها يدوم، وقيل: ليس حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة. «**وَيَغْفِرْ لَكُمْ**» ذنوبكم «**وَاللَّهُ شَكُورٌ**» أي: مثيب يجازي، وصفته بالشكور تَوَسُّعٌ، وقيل: شكور يقبل القليل ويثيب عليه بالكثير، «**حَلِيمٌ**» لا يعاجل بالعقوبة، وهذا غاية الكرم والإحسان «**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**» يعني السر والعلانية، وقيل: ما يدخل في الحواس وما لا يدخل، وقيل: المعدوم والموجود «**الْعَزِيزُ**» القادر «**الْحَكِيمُ**» العالم، وقيل: المحكم لأفعاله.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ فإنها تدل على وجوب الصبر، وتوطين النفس على ما ينزل به من جهته تعالى، والرضا بذلك، وترك الجزع، وهذا إنما يتم على مذهب أهل العدل، حيث اعتقدوا أنه تعالى حكيم لا يفعل إلا المصلحة، فيعلمون أنما نزل بهم فيه صلاحهم، ثم يعوضه على ذلك أضعافًا مضاعفة، فعند ذلك يرضى ويصبر، فأما المجبرة إذا اعتقدت أنه يحتمل أن يكون مفسدة له، ومع ذلك لا عوض فهذا محل الجزع.

---

(١) يضاعفه: يضاعف، غ.

ومنها: قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أنه تعالى يؤيد المؤمن بألطاف يشرح بها صدره.

ومنها: قوله ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ﴾ فتدل أن بعض الأزواج والأولاد عدوٌّ، وذلك من وجهين: إما بالمنع عن طاعة الله، أو وقوعهم بسببهم في معصية، وإما أن يتمنى موته ليحوز ماله، عن أبي علي، وإما ألا ينفق لأجله، فهذا وجه ثالث، ذكره الأصم.

ومنها: دلالتها على وجوب التحرز ممن يمنع من الطاعة والإنفاق.

ومنها: أن من عمل حسنة يضاعف له الثواب.

ومنها: أن التقوى والطاعة فعل العبد، وكذلك الإنفاق والشح.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

سورة (الطلاق)، وتسمى (النساء القُصْرَى).

قال ابن مسعود في حديث العدة: من شاء باهلته أن سورة (النساء القصرى[1])، نزلت بعد قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] فإنما أراد قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، فعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر، فإذا كانت حاملا[2] فعدتها وضع الحمل، وعن بعضهم: أبعد الأجلين.

وهي مدنية بالإجماع، واثنتا عشرة آية.

وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ مات على سنة رسول الله».

ولما ختم سورة (التغابن) بذكر النساء والحذر منهن إذا منعن عن الواجب، افتتح هذه السورة بأحكام النساء، ومعاشرة الزوجات، والحكم بعد الفرقة والعدة والرضاع وغير ذلك.

---

(١) القصرى: القصوى، غ. والصواب ما أثبتناه من تفسير ابن أبي السعود ٨/ ٢٦٢، والتحرير والتنوير ١/ ٦٦٨.

(٢) حاملاً: حاملة؛ غ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا
تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ
حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ
فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ
ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢
وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ
لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ
وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ
يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾

۞ القراءة

قرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم[(١)]: «وفاحشة مُبَيَّنَة» بفتح الياء من بينت فهي مُبَيَّنَة على ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون بكسر الياء على أنه بينه.

قرأ حفص عن عاصم: «**بالغُ**» بغير تنوين «**أمرِه**» بالجر على الإضافة، الباقون: «**بالغٌ**» بالتنوين، «**أمرَه**» بالنصب[(٢)]، وقرأ داود بن أبي هند: «**بالغٌ**» بالتنوين، «**أمرُه**» بالرفع، قال الفراء: معناه: أمره بالغ، والأصل التنوين، وإنما حذف بعضهم للتخفيف.

«**واللاّي**» بغير همز ولا مد: أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو[(٣)]، بالمد والهمز:

(١) حجة القراءات ١٩٦.
(٢) حجة القراءات ٧١٢.
(٣) حجة القراءات السبع لابن خالويه، ٧٥.

نافع ويعقوب، وليس بعد الهمز ياء: نافع ويعقوب. ممدودة مهموزة مشبعة بعد الهمزة ياء: ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي.

۞ اللغة

الطلاق في اللغة: الإرسال وإزالة اليد، تقول: أطلقت أسيري وإبلي، وطلقت امرأتي، والجميع باب الواحد، وإنما فصلوا بين اللفظين لاختلاف المعنى.

وفي الشرع: عبارة عن تخلية المرأة بحل عقدة من عقدة النكاح، وهو صريح فلا يحتاج [إلى نية][(١)]، وهو ثلاث تطليقات.

والعدة: أيام أقرائها مأخوذ من العد، وهو الإحصاء، عددت الشيء، والعِدُّ بكسر العين: الماء الكثير الذي لا ينقطع كماء العين والبئر.

الحد: المنع، وحدود الله: أوامره ونواهيه لمنعه المكلف من الخروج منه.

والقَدَرُ والقَدْرُ: المقدار، فالقَدْرُ: مصدر قولك: قَدَرْتُ الشيء أَقْدُرُهُ قَدْرًا، والقَدَرُ: الاسم، وهي الشيء المقدور كائنًا ما كان من وقت وغيره مما يقع التقدير عليه.

والحيض: دم مخصوص تتعلق به في الشرع أحكام، وحدُّهُ: خروج دم مخصوص من رحم المرأة، في مدة معلومة، وأصله: خروج الدم، ومنه: حاضت حيضًا ومحيضًا ومحاضًا: إذا سال الدم في أيام معلومة، وإذا سال في غير أيامها قيل: استحيضت فهي مستحاضة.

والريب والارتياب: شَكٌّ مع تهمة.

۞ الإعراب

«النبي» رفع لأنه نداء مفرد، والهاء صلة؛ لأن (أي) لا يتم اسمًا إلا بصلة.

«بالغ أمره» الجر على الإضافة، والنصب على المفعول.

---

(١) ما بين المعكوفين أثبتناه من هامش غ. وكتب عليه: أظنه.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الآيات في قصة حفصة بنت عمر، وذلك أن رسول الله ﷺ طلقها، فرجعت إلى أهلها، فنزلت هذه الآية، وأمره الله تعالى بأن يراجعها فإنها صوامة قوامة، وهي إحدى نسائك في الجنة، فراجعها، عن قتادة عن أنس.

وقيل: نزل في عبد الله بن عمر بن الخطاب طلق امرأته في حال الحيض فقال ﷺ لعمر: «مره فليراجعها ويمسكها حتى تطهر ثم تحيض حيضة أخرى، فإذا طهرت طلقها إن شاء قبل أن يجامعها»، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء، عن السدي.

وقيل: نزلت في عبد الله بن عمرو بن العاص، وسعيد بن العاص، وطفيل بن الحارث، وعقبة بن غزوان، عن مقاتل.

فأما قوله تعالى: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ قيل: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، أُسِرَ ابنه سالم [فجاء] إلى رسول الله ﷺ وشكى الفقر، فقال: «اتق الله وأكثر قول: لا حول ولا قوة إلا بالله»، ففعل، فرجع ابنه مع مائة من الإبل، وقيل: خمسون، عن الكلبي.

وعن ابن عباس: ساق لهم أربعة آلاف شاة، ففيه نزلت الآية.

وعن مقاتل: أصاب غنمًا ومتاعًا، فجاء به، فسأل رسول الله ﷺ أيحل له أن يأكل ما آتاه الله؟ فقال: «نعم»، فأنزل الله تعالى الآية.

فأما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي﴾ قيل: لما نزل في سورة (البقرة) عدة النساء في ذوات الأقراء والمتوفى عنها زوجها قال أبي بن كعب: يا رسول الله، إن أناسًا يقولون: بقي من النساء ما لم يذكر الصغار والكبار وذوات[1] الحمل، فنزلت: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾.

---

(١) وذوات: ذوات، غ.

وقال مقاتل: لما نزل: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] قيل: يا رسول الله، ما عدة الآيسة من الحيض والحبلى؟ فنزلت الآية.

۞ المعنى

«**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ**» تقديره: يا أيها النبي قل لأمتك: إذا طلقتم، عن أبي علي، وقيل: إذا أردتم الطلاق، كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟﴾ [المائدة: ٦]، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ﴾ [النحل: ٩٨] وكقولهم: إذا قاتلت فالبس السلاح، «**فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ**» قيل: طاهرًا من غير جماع، عن ابن عباس، وابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وابن سيرين، وقتادة، والضحاك والسدي، ومعنى «**لعدتهن**» قيل: قبل عدتهن، يعني: في طهر لم يجامعها فيه، والعدة: الحيض، وكان ابن عباس وابن مسعود يقرؤون: (**فطلقوهن قبل عدتهن**)، وهذا يحمل على التفسير، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الفقهاء، فالعدة بالحيض، والطلاق في الطهر، فهو قبل العدة، يقال: توضأت للصلاة، ولبست للحرب، وقيل: «**لعدتهن**» أي: في عدتهن، والعدة للأطهار، وهو مذهب الشافعي، وقيل: اللام لام السبب فكأنه قال: فطلقوهن لتعتدوا، ولا شبهة أن هذا في المطلقة بعد المسيس، وذلك بأن يدخل بها، أو يخلو خلوة صحيحة عند أبي حنيفة رحمة الله عليه، وعند الشافعي: لا تجب بالخلوة.

فأما غير المدخول بها فلا عدة عليها، وقد وَرَدَ القرآن بذلك في سورة (الأحزاب): ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ [الأحزاب: ٤٩] وأجمعت الأمة على ذلك.

«**وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ**» يعني عدوا الأقراء التي تعتد بها، وقيل: عدوا أوقات الطلاق لتطلقوا للعدة، وقيل: إنما أمر بإحصاء العدة؛ لأن لها فيها حقًّا وهي النفقة والسكنى، وللزوج حَقًّا هو المراجعة، ومنعها عن الأزواج لحقه، وثبوت نسب الولد، فأمر الله تعالى بإحصائها ليعلم متى وقت الرجعة، وتكرار الطلاق وفوت المراجعة، وتحريمها عليه، ورفع النفقة والسكنى، ولكي لا تطول العدة لاستحقاق زيادة نفقة، أو تقصر طلبًا للزوج.

ومتى قيل: ما الفائدة في جعل الطلاق والعدة ذات عدد؟

قلنا: الله تعالى بَيَّنَ الشرائع مصالح لعباده، فلما علم أنه ربما يتزوج بامرأة بَذِيئةٍ سيئة الخُلُق جعل إلى التخلص منها[1] سببًا في الدنيا، وعلم أن طباع الخلق مختلفة، فربما يندم، فيكون الطلاق مفسدة له، فأمر بأن يطلق واحدة، وأمر بذلك في طهرها ليقدر على مراجعتها، ولئلا تطول العدة عليها إضرارًا بها، فأمر بذلك في طهر لم يجامعها؛ لأنه إذا جامعها ربما تحبل، فيندم.

ومتى قيل: أليس إذا أوقع ثلاثًا يقع؟ وكذلك إذا فرق فوت الرجعة؟

قلنا: هو الذي أوقع نفسه فيه، وسد باب التلافي، ولهذا قال أصحابنا: إنه يكره الجمع بين ثلاث، فأما إذا فرق وأوقع لأنه قد جرب نفسه مرة بعد مرة فلم تحدث ندامة ولا رغبة فيها، فلا يؤدي هذا الطلاق إلى فساد وندامة.

«**وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ**» أي: اتقوا عذابه باتقاء معاصيه «**لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ**» يعني: ليس للزوج إخراجها ما دامت معتدة، ولا لها أن تخرج إلا عند ضرورة، عن عطاء، والضحاك، وقتادة. «**إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ**» ظاهرة، قيل: الفاحشة الزنا، فتخرج لإقامة الحد عليها، عن الحسن، ومجاهد، والشعبي، وابن زيد وجماعة، وقيل: الفاحشة البذاء على أهلها، فيحل لهم إخراجها، عن ابن عباس، وقيل: النشوز، عن قتادة. فإذا طلقها على نشوز فلها أن تتحول من بيت زوجها. وقيل: خروجها قبل انقضاء العدة، عن ابن عمر، والسدي، وقيل: كل معصية لله تعالى ظاهرة، عن ابن عباس. «**وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ**» أوامره ونواهيه التي حدها لعباده، فلا تجاوزوها «**وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ**» أي: جاوزها، قيل: فيما أمر ونهى من أمره في المطلقات، وقيل: هو عام، وقيل: هو الظلم في الدين، أي: من عصى الله فقد ظلم نفسه، وقيل: ليس هو من الظلم في الدين ولكن في الدنيا، يعني إنْ تعدى في أمر المطلقة والعدة لزيادة أو نقصان أو تبديل ينغص على نفسه صلاح عيشته «**فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**» قيل: باستحقاق العقاب، وقيل: ببخس حقه في الدنيا «**لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ**

(١) منها: عنها؛ غ.

﴿يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ قيل: يبدو لزوجها فيراجعها في العدة الأولى والثانية، عن الضحاك، والسدي، وابن زيد. فالمضاف إلى الله إباحة المراجعة عند ندمه، وقيل: أن تحدث شدة شهوة إليها ورغبة فيها فتدعوه إلى المراجعة **﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾** أي: أشرفن على انقضاء عدتهن، ولم يرد انقضاءَها؛ لأن بعد انقضائها لا يخير الزوج بين الإمساك والفرقة **﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾** أي: راجعوهن بمعروف، وقيل: المعروف النفقة والمسكن والكسوة وحسن الصحبة **﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾** أي: اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيَبِنَّ منكم، فلا تمسكوهن لضرار وتطويل العدة، وقيل: الأجل أجل الطلاق الثاني، راجع إن شاء، وإن شاء طلق، فعلى القول الأول: تخيير بين الرجعة والكف عنها حتى تنقضي العدة، وعلى الثاني: تخيير بين الرجعة والطلاق، غير أن أكثر المفسرين على القول الأول **﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾** قيل: على الرجعة، عن ابن عباس، وجماعة من المفسرين. وقيل: على الطلاق، وليس بشيء لإجماع الفقهاء أن الطلاق يقع من غير إشهاد.

فأما الرجعة فقيل: الإشهاد مستحب، وليس بواجب، أمر به احتياطًا لكي لا تنكر الرجعة بعد انقضاء العدة، فيكون أقطع للريب، وسوء المقال، وهو قول أبي حنيفة وأكثر الفقهاء، وقيل: إنه واجب، وهو قول الشافعي. **﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾** خطاب للشهود ليؤدوا الشهادة لله من غير زيادة ولا نقصان، ولا لنفع أو دفع **﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾** يعني ما تقدم موعظة من الله لكم، وخص المؤمنين لأنهم ينتفعون به، ومن لا يؤمن بالله وبالبعث كيف ينتفع بالوعظ **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾** أي: اتقى معاصيه، وتمسك بطاعته **﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾** قيل: فرجًا، وقيل: من يطلق للسنة يجعل له مخرجًا إلى الرجعة **﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾**، عن عكرمة، والشعبي، والضحاك، وقيل: هو عام، من يتق الله يلطف له فيوسع على رزقه، ويخلو من محن الدنيا، وقيل: من يتق الله يجعل له مخرجًا من عذاب الآخرة، وهموم الدنيا **﴿وَيَرْزُقْهُ﴾** في الجنة **﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾** وهذا أوجه(١). وقيل: من يتق له يجعل له مخرجًا

---

(١) أوجه: الوجه، غ.

من الأمور التي تشتد في الدنيا على العاقل الخروج منها، ويشتبه من أمور الديانات، ويكون ذلك بألطافه، والأولى حمله على الثواب في الجنة وعذاب الآخرة؛ لأن ذلك جزاء من الله تعالى دون أرزاق الدنيا؛ لأنه لا يختص بالمتقين، وليس بجزاء، يدل عليه ما روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «يجعل له مخرجًا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت، وشدائد يوم القيامة»، وقيل: مخرجًا من كل شدة، عن أبي العالية، وقيل: مما نهاه عنه، عن الحسن.

«**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**» أي: من يفوض أمره إليه يكفه[1] المهمات، وقيل: يكفيه أمر دنياه ويعطيه ثواب الجنة، ويجعله بحيث لا يحتاج إلى غيره «**إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ**» أي: يبلغ ما أراد من قضاياه وتدابيره فيهم على ما أراد، لا يجوز عليه المنع، فمن نوّن أراد أنه سيبلغ قضاياه وقتًا بعد وقت، ومن ترك التنوين أراد أنه أمضى قضاياه كما أراد «**قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**» أي: حدًا وأجلًا ينتهي إليه، وقيل: مقدرًا بحسب المصلحة في الإباحة والإيجاب، والترغيب والترهيب، كما بين في الطلاق والعدة وغيرها، وقيل: جعل لأعمال عباده تقديرًا فيما وعد وأوعد، فلا يجازى إلا على قدر ما استحق.

«**وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ**» يعني يئسن من المحيض فلا تحيض لكبر «**إِنِ ارْتَبْتُمْ**» أي: شككتم، قيل: إن شككتم، ولم تدروا دمها، أي: دم حيض أم دم استحاضة؟ «**فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ**»، عن مجاهد والزهري، وابن زيد. وقيل: إن ارتبتم في حكمهن فلم تدروا ما يحكم في عدتهن؟ «**فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ**» وقيل: إن ارتبتم؛ أي: تيقنتم بإياسها فهو من الأضداد «**إِنِ ارْتَبْتُمْ**» أي: شككتم، أو ارتبتم: تيقنتم، وقيل: إن ارتبتم في انتقالها من الحيض إلى الشهور أو بانتقالها من الإياس إلى الحيض، وقيل: ارتبتم أنها تحيض أم لا لصغرها، فعدتها الشهور، فإذا حاضت فعدتها الحيض «**وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ**» للصغر «**فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ**» والوجه أن قوله: «**وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ**» كبرًا «**وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ**» صغرًا «**فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ**».

---

(١) يكفه: يكفيه؛ غ.

«وَأُوْلَاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ» يعني: المطلقة إذا كانت حاملة فعدتهن «أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» وهذا عام في المطلقات والمتوفى عنها زوجها عند أكثر الفقهاء، وعند بعضهم المتوفى زوجها تعتد بأبعد الأجلين، وبه قال الهادي عليه السلام. «وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا» أي: يسهل أمره عليه في دنياه وآخرته إما بفرج عاجل، أو بعوض آجل، وقيل: يسهل عليه فراق أهله، ويزيل[1] الهموم عن قلبه «ذَلِكَ» أي: ما تقدم «[أَمْرُ اللَّهِ] أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ» في القرآن وحكمه، يعني: ما بين من النكاح والطلاق والوعد والوعيد شرعها لكم «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ» يعني: من اتقى الكبائر كفر عنه صغائره «وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا» أي: جزاءه، وهو ثواب الجنة.

۞ الأحكام

يدل قوله: «طلقتم» على أن الطلاق بالرجال، وفيه إجماع.

وتدل على أن للطلاق وقتًا يوقع فيه، وذلك تأديب من الله، وأَمْرٌ منه، وتعليم لكيفية الطلاق فيما يتصل بالوقت، ولا خلاف أن الطلاق في حال الحيض بدعة، وأن السنة أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه، فأما إذا جمع بين الثلاث، فعند أبي حنيفة وأصحابه هو بدعة، وقال الشافعي: لا سنة ولا بدعة في الجمع، ثم اختلفوا، فالأكثر على أنه يقع، وعن بعضهم أنه[2] لا يقع أصلاً، وعند القاسم والهادي عليهما السلام: يقع واحدة، وظاهر الأخبار يدل على وقوعها. وقوله لابن عمر: «مره فليراجعها» يدل أنه وقع في حال الحيض.

فأما من لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل فقيل: لا سنة ولا بدعة في طلاقها عند أكثر الفقهاء، وقيل: بل يعتبر بالشهور، كما يعتبر بالحيض في ذوات الأقراء، وتُفَرَّقُ على الشهور، وليس له أن يطلقها في شهر جامعها فيه، وكذلك في الحامل.

وتدل على كراهية الجمع لما فيه من فوت التلافي.

(١) ويزيل: وأزال، غ.
(٢) أنه: أنها؛ غ.

وتدل على وقوعه من حيث كان ظالمًا لنفسه.

وتدل الآيات على وجوب العدة، والعدة بثلاثة أشياء:

[الأول]: بالأقراء لِمَنْ تحيض، وقد طلقها زوجها.

والثاني: بالأشهر للصغيرة، والكبيرة، والمتوفى عنها زوجها.

وثالثها: بوضع الحمل في الجميع إلا في المتوفى عنها زوجها، فقد بَيَّنَّا الخلاف فيه.

ثم للحرة ثلاث حيض أو[1] ثلاثة أشهر، وللأمة حيضتان أو شهر ونصف شهر، ووضع الحمل لا يختلف، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأكثر الفقهاء، وقال الهادي: عدة الأمة والحرة سواء، وكذلك طلاق العبد عنده ثلاث كطلاق الحر في جميع الأحوال، بخلاف قول أبي حنيفة والشافعي.

فأما إذا لم تحض لعلة: فقيل: تمكث تسعة أشهر، ثم تعتد بالشهور، روي ذلك عن مالك، وقيل: عدتها سنة، وقيل: تبقى في العدة حتى تحيض أو تبلغ حد الأياس، وهو قول أكثر الفقهاء والمروي عن ابن مسعود.

وتدل على وجوب السكنى؛ لذلك قال: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، ولا خلاف أن الرجعية تستحق النفقة والسكنى.

ثم اختلفوا في المبتوتة؛ فقال أبو حنيفة: لها النفقة والسكنى، وهو قول عمر وعائشة وابن مسعود، وقال مالك والشافعي: لها السكنى ولا نفقة لها، وقال الهادي إلى الحق: لها النفقة ولا سكنى لها، وعن أبي ثور: لا نفقة لها، ولا سكنى.

فأما الحامل المبتوتة؛ فعند أبي حنيفة تستحق النفقة والسكنى، ووافقه الشافعي ثَمَّ.

فأما المتوفى عنها زوجها؛ فلا نفقة لها في تركة الزوج عند أكثر الفقهاء، وقال الهادي عليه السلام: نفقتها ما دامت في العدة من جميع التركة، وهو مروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، وابن مسعود، وابن عمر، وشريح، والنخعي، وسفيان.

---

(١) أو: و، غ.

وتدل الآيات على ثبوت الرجعة، ولا خلاف أن الطلاق إذا وقع بصريح الطلاق تثبت الرجعة ما دامت في العدة، فأما الكنايات فعند أبي حنيفة: لا رجعة فيها، وقال الشافعي: تثبت الرجعة.

وتدل على وجوب الإشهاد، ، وقد بَيَّنَّا ما قيل فيه.

وتدل على إقامة الشهادة على وجهها عند التجاحد، وإن كان هناك غيره ممن يصح الحكم بشهادته فهو فرض على الكفاية، ولا يتعين عليه.

وتدل على أن بالتقوى يصلح أمره في الدارين، بخلاف قول المرجئة.

وتدل على أن الطلاق والرجعة والإشهاد وإقامة[1] الشهادة والتقوى فعل العبد.

ومتى قيل: أليس روي أخبار في كراهية الطلاق حتى روى ابن عمر عن النبي ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق».

وروي عن النبي ﷺ: «تزوجوا، ولا تطلقوا؛ فإن الطلاق يهتز منه العرش».

وعن ثوبان عن النبي ﷺ: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة».

وعن أنس عن النبي ﷺ: «ما حلف بالطلاق ولا استحلف إلا منافق»؟

قلنا: لا شبهة أن الطلاق ليس بمحظور مطلقًا، وأجمعوا أنه من المباح، وورد الكتاب بشرائطه وأوقاته، وهذه أخبار آحاد، لا تعارض الكتاب، فلا بد أن تثبت من تأويل.

فإن طلقها من غير نشوز من جهتها وكراهتها يُكْرَهُ، وإن سألت الطلاق من غير موجب من جهته مع كراهيته لذلك كره لها، وإن اتفقا على ذلك لمصلحة أو تباغض أو خوف ألا يقيما حدود الله فلا بأس به، فعلى هذا تحمل الأخبار.

فأما الخبر الأخير أراد مَنْ حَلَفَ بطلاق، ثم لم يعمل بموجبه، كمن حلف

(١) وإقامة: وإقام، غ.

بثلاث تطليقات ووقع، ثم أمسكها فهو كالمنافق في عظم الإثم، وإن لم يكن منافقًا بالإجماع.

قوله تعالى:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا﴾

القراءة

قراءة القراء: «وُجْدِكُمْ» بضم الواو، وعن يعقوب بكسرها، وعن الأعرج بفتحها، وكلها لغات صحيحة، حكاها ابن السكيت يقال: وجدت في المال وُجدًا ووِجدًا ووَجْدًا، بتعاقب الحركات الثلاث على الواو، وكذلك جِدَةً، ووجدت الضالة وجدانًا، ووجدت من الحزن وجدًا، ومن الغضب مَوْجِدَةً ووجدانًا، والوجد في المال ملك ما يجده المالك له.

«كاين» بوزن كاهن خفيفة بغير همز قرأها أبو جعفر، وقرأها ابن كثير بوزن كاهن مهموزة الياء في (كائن) [وقرأ الباقون] مشددة على وزن كَعَيِّنْ.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي: «نُكْرًا» ساكنة الكاف فهو رواية حفص عن عاصم، وإسماعيل عن عاصم، الباقون بضم الكاف[1].

---

(١) حجة القراءات ٤٢٤.

۞ اللغة

الإسكان: أن يسكنه موضعًا، يقال: أسكنت داره، وأصله من السكون.

والمضارة: المضايقة والمزاحمة، وهو إلحاق الضرر بكل واحد منهما، ومنه: الضرورة، وهي الاندفاع إلى أضيق الحالات.

والأمر في القول: قول القائل لمن دونه: افعل، إذا أراد المأمور به، والأمر في القول حقيقة، وفي الفعل مجاز، يقال: أمره مستقيم؛ لأن التصرف والاشتقاق منه في القول، وكذلك الاطراد، والائتمار بأن يأمر كل واحد منهما صاحبه، وأن يفعل ما أمر به، ائتمرت: فعلت ما أُمِرْتُ به، وَأْتُمَرْتُ أيضًا إذا فعلت أمرًا من تلقاء نفسك، والإِمْرُ بكسر الهمز: العجب.

وأَولات حمل: جمع، واحده: ذات حمل، جمع من غير لفظه، كقولهم: رجل ذو مال، ورجال أولو مال.

والتعاسر: التمانع بما يتعذر به الأمر، وأصله من العسر نقيض اليسر، والعسر: صعوبة الأمر، واليسر: سهولته، وهو إتيانه من غير مشقة.

والعتو: مجاوزة الحد في ركوب المعصية، ومنه: العاتي، المبالغ في العصيان، لا ينجع فيه الوعظ.

النكر بضم النون: المنكر، وبفتحها: الدهاء، ونكرت الشيء وأنكرته فهو منكور ومنكر، والناكرة: المُحَارِبَةُ.

والوبال: ثقل الشيء المكروه، ماء وبيل، وطعام وبيل، والوبال: وخامة عاقبة الأمر.

۞ الإعراب

﴿أُوْلَٰتِ حَمْلٍ﴾ نصب (أولات) لأنه خبر ﴿كُنَّ﴾ إلا أن التاء زائدة.

وفي نصب قوله: ﴿رَّسُولًا﴾ قيل: بدل من الذكر، والذكر القرآن كأنه قيل: رسولاً يذكر، وقيل: الذكر بمعنى الشرف فيكون الذكر هو الرسول، وقيل: محذوف؛ أي: وأرسل رسولاً.

المعنى

ثم بَيَّنَ الله تعالى حال المطلقة في النفقة والسكنى فقال سبحانه: «أَسْكِنُوهُنَّ» أي: أسكنوا المطلقة بعد الطلاق ما دامت في العدة في بيوتكم «مِنْ حَيْثُ سَكَنتُمْ» أي: حيث سكنتم من المساكن، قيل: (مِنْ) صلة، عن الكسائي. «مِن وُجْدِكُمْ» قيل: من الوجدان، أي: في مسكن تجدونه، عن الحسن، وأبي علي؛ لأن المطلقة تعتد في منزل زوجها، وقيل: «مِن وُجْدِكُمْ» من ملككم وما تقدرون عليه، عن أبي مسلم، وقيل: من سعتكم، والوجد والجدة الغنى والسعة «وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ» قيل: لا تضايقوهن في السكنى حتى يتعذر عليهن ما لا بد منه من الصلاة والطهارة، والغسل والنوم، عن أبي مسلم، وقيل: في النفقة والسكنى ما دامت في العدة، عن أبي علي، وقيل: بتطويل العدة وسوء العشرة، ومعنى (لاَ تُضَارُّوهُنَّ) أي: لا تلحقوا بهن ضررًا، أو لا تؤذوهن «وَإِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ» أي: كن حوامل «فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» بين نفقة الحامل المعتدة، وهو ينفق عليها، وإنما اختلفوا في المبتوتة لمن النفقة؟ فقال أبو حنيفة: للحامل؛ ولذلك يعتبر بكفايتها وهي تطالب بها، وقال الشافعي: للحمل، وهذا غير صحيح؛ لأنه قال: «فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ» ولو كان الولد قِنًّا فالنفقة على الزوج دون المولى «حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» لأن العدة تنقضي بوضع الحمل «فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ» يعني أرضعت المطلقة بعد انقضاء العدة أولادكم «فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ» أي: أعطوهن أجرة الرضاع على الولد لا على المرأة، وحق الإرضاع عليه بعد ما بانت منه «وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ» خطاب للرجل والمرأة، قيل: معناه: ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بمعروف، وقيل: ليأمر كل واحد صاحبه بمعروف، وقيل: هموا بالمعروف، عن الفراء. والمؤتمر الذي يهم بالأمر لفعله، يقال: بئس ما ائتمرت لنفسك، وقال الكسائي: أي شاوروا، ومنه: ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ [القصص: ٢٠] أي: يتشاورون، ائتمر القوم وتآمروا: إذا شاور بعضهم بعضًا، وقيل: الخطاب عام، أي: ليأمر بعضكم بعضًا بما هو المعروف، عن أبي علي، وأبي مسلم. والمعروف ما عرف صحته عقلاً أو شرعًا.

«وَإِن تَعَاسَرْتُمْ» أي: في الرضاع بأن تطلب أكثر مِنْ أُجْرَتِهَا، أو يأبى الزوج أن

يعطي تمام أجرتها، فيعسر كل واحد معاملة صاحبه في ذلك، أو يأبى الرجل أن يعطيها رضاها، وتأبى هي الإرضاع فلا تكره المرأة على ذلك «**فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى**» تستأجر غير أمه البائنة منه. «**لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِن سَعَتِهِ**» أي: على قدر غناه «**وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ**» أي: ضيق «**فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ**» أي: مما أعطاه على ذلك القدر «**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا**» أعطاها «**سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا**» قيل: يجعل غنى بعد فقر، وسعة بعد ضيق، واختلفوا، فقيل: نزلت في الصحابة، كانوا في بؤس وشدة، فوسع الله عليهم وفتح البلاد، وقيل: هو عام، وقيل: من قام بحق الله في الأرض من إنفاق[1] يأتيه اليُسر[2] في الدنيا وإلا ففي الآخرة، وعن النبي ﷺ: «ينادي كل يوم منادٍ صباحًا ومساء: اللهم اعط كل منفق خلفًا، وكل ممسك تلفًا».

«**وَكَأَيِّن مِّنْ قَرْيَةٍ**» أي: كم من أهل قرية، و(كأين) للتكثير «**عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا**» أي: جاوزت الحد في العصيان «**وَرُسُلِهِ**» أي: عن أمر رسله فخالفوه «**فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا**» بالمناقشة والاستقصاء، والمحاسبة: استيفاء الحق وإيفاؤه، وقيل: المحاسبة الفصل بين المحق والمبطل وإيفاء كل واحد منهما، وقيل: هو في الآخرة ماضٍ بمعنى المستقبل، وقيل: في الدنيا بالكتابة عليه، وفي الآخرة بالمجازاة، إلا أن الكتابة لا تسمى محاسبة، وقيل: الحساب هاهنا: الأخذ بالذنوب، عن أبي مسلم. «**وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا**» أي منكرًا فظيعًا لم يُرَ مثله، قيل: هو عذاب الاستئصال، وقيل: هو عذاب الآخرة وهو الوجه، وقيل: بإنزال البلايا والمحن، وقيل: في حال النزع، وقيل: بالجوع والخوف، وقيل: بالقتل والسبي، وقيل: قد يقدم ويؤخر[3]، وتقديره: وعذبناها في الدنيا نكرًا، وحاسبناها في الآخرة حسابًا شديدًا «**فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا**» أي: جزاء معاصيه، ووخيم عاقبة أموره «**وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا**» أي: الخاسر بالهلاك، وقيل: الخسران؛ لأنه فاته الجنة ودخل النار «**أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**» أي: هيأ، وهو عذاب النار «**فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ**» أي: يا أصحاب العقول،

(١) إنفاق: نفاق، غ.
(٢) هكذا في غ.
(٣) قد يقدم ويؤخر: قد تقدم وتأخر؛ غ.

قيل: خصهم بالذكر لأنهم المكلفون، وقيل: هم ينتفعون به، وقيل: إنما ذكرهم حَثًّا على الشكر والعمل بمقتضى العقول، أي: تفكروا ولا تفعلوا مثل ما فعل أولئك فينزل بكم مثل ما نزل بهم.

ثم وصف أولي الألباب بقوله: «**الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا**» قيل: عظة تذكرونه، وقيل: هو القرآن، وقيل: الذكر هو الرسول، عن الحسن، أي: رسولاً يذكر، وقيل: «**رَسُولاً**» فاذكر، وقيل: الذكر صفة الرسول، وقيل: ذكر الرسول بأنه ذِكْرٌ توسعًا كما قيل للمسيح: روح، وقيل: معناه: إن هذا الذكر كالرسول في أنه أنزله ليعمل به، وقيل: أراد ذكرًا مع رسول، وقيل: أنزل ذكرًا وأرسل رسولاً، وقيل: شرفًا، وهو الرسول، وقيل: ذكرًا آتاه الرسول ليبين لكم.

۞ الأحكام

يدل قوله: «**أسكنوهن. . .**» الآية على وجوب السكنى للمطلقة. ويدل أنه على الزوج.

ويدل قوله: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ على وجوب النفقة، وقد بينا أن المطلقة الرجعية لها النفقة والسكنى بالاتفاق، وأن المبتوتة بثلاث اختلفوا فيها، وقد بَيَّنَّا.

فأما ما روي عن فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ: «لم يجعل لها النفقة والسكنى»، فأنكر ذلك عمر وعائشة وابن مسعود، فلا يقبل خبر أنكره هؤلاء لأجلها، وروي أنها كانت ناشزة.

ويدل قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ على وجوب النفقة للحامل، وقد بَيَّنَّا أنها للحامل دون الحمل، ثم اختلفوا فقيل: إن الآية تدل على وجوب النفقة للحامل أيضًا؛ لأنه أوجب النفقة لها لكونها معتدة.

وقيل: بل تدل على أن لا نفقة لها؛ لأنه خص الحامل، والصحيح عندنا أنه مسكوت عنه في هذه الآية، لا تدل الآية على واحد، فيرجع إلى دليل.

ويدل قوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أن الإرضاع وأجرته على الأب.

ويدل قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ﴾ أنه تعالى لا يكلف ما لا يطاق، بخلاف قول المجبرة، فيدل على أن الاستطاعة قبل الفعل، وأن الفعل ليس بخلق الله.

وتدل على وجوب التقوى، وأنه أرسل الرسول، وأنزل القرآن حجة على خلقه.

قوله تعالى:

﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

❁ القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر: «نُدْخِلْهُ» بالنون على التفخيم[1]، الباقون بالياء كناية عن اسم الله تعالى، وقد تقدم في قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾.

❁ اللغة

التلاوة والقراءة من النظائر، وهو إتباع الحروف بعضها بعضًا من قولهم: جاء فلان وتلاه فلان.

والبيان: إظهار المعنى للنفس، وأصله من البينونة، ومنه: أبان العضو؛ أي: قطع، ومنه: ما أُبِينَ من الحي فهو مَيِّتٌ، والبيان: الدلالة التي بها تعلم الأحكام.

والرزق: العطاء الجاري.

والمِثْلُ: ما يسد مسد الشيء فيما رجع إلى ذاته، ثم يستعمل في أشياء، والأشياء على ثلاثة أضرب: متماثل، ومخالف، ومتضاد.

---

(١) حجة القراءات ٧١٢.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى الغرض في إرسال الرسول، فقال سبحانه: «**يَتْلُو عَلَيْكُمْ**» أي: يقرأ «**آيَاتِ اللَّهِ**» حججه، وهو القرآن «**مُبَيِّنَاتٍ**» أي: تبين الأحكام التي تتضمن بيانها «**لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**» قيل: من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، فشبه الإيمان بالنور، والكفر بالظلمة، قيل: لأنه يؤدي إلى نور في القبر والقيامة والجنة، والكفر يؤدي إلى ظلمة فيها، وقيل: لأنه يفوز بالمبتغى كما بالنور يصل إلى المقاصد، وقيل: مِنْ ظُلْمَةِ جنهم إلى نور الجنة، عن أبي علي، وهذا أولى؛ لأنه حمل الكلام على حقيقته.

«**وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا**» يعني: ما يعطيهم أحسن ما أعطي أحد، وذلك مبالغة في وصف نعيم الجنة.

ثم نَبَّهَ على عظيم قدرته، فقال سبحانه: «**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**» قيل: سبع أرضين[1]، وقيل: هي أطباق لا سكان فيها، وقيل: بل فيه سكان مكلفون أو غير مكلفين، فأما السموات فسبع، وفي كل واحدة ملائكة «**يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ**» قيل: بالوحي من السماء السابعة إلى الأرض السفلى بأوامره فيما يتعبد به، وقيل: بالتدبير فيها بحياة بعض وموت بعض، وغنى بعض، وفقر بعض، وهلاك واحد، وسلامة آخر، وغير ذلك من التدابير والتصرفات كالشتاء والصيف، والليل والنهار، وإخراج النبات والثمار، عن أبي مسلم، وقيل: معناه في السموات والأرض، عن أبي مسلم، وقيل: تتنزل الملائكة بأوامره.

ومتى قيل: لِم جمع السموات دون الأرض؟

قلنا: قيل: أراد بالأرض الجنس، وقيل: لأن السموات منفرجة، والأرض مصمتة.

---

(١) أَرضين: أرض، غ.

ومتى قيل: هل في الأرض والسموات أحد من الخلائق؟

قلنا: لا خلاف أن السموات سبع، وفي كل سماء ملائكة، واختلفوا في الأرض، فقيل: ليس فيها أحد، وقيل: فيها خلق، قال قتادة: في كل سماء وفي كل أرض خلق من خلقه، وأمر من أوامره، وقضاء من قضائه. وقال أبو علي: ليس بين الأرضين خلل وفتوق، وإنما كانت سبعًا؛ لأنها من سبعة أجناس، جعل من كل جنس أرضًا، قال أبو علي: ليس في القرآن آية تدل على أن الأرض سبعة غير هذه.

«لِتَعْلَمُوا» بالتدبير في هذا «**أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**» أي: علم كل شيء، وإنما قال ذلك؛ لأن مَنْ تفكر في السموات والأرضين، وما فيهما، وما بينهما علم أنه قادر لذاته عالم لذاته، فمجرد حدوثه يدل على كونه قادرًا، ونظامه يدل على كونه عالمًا.

❁ الأحكام

يدل قوله: «يتلو. . .» الآية أن القرآن مما يصح أن يُعْلَمَ المراد به إما بظاهره، وإما بقرينة، خلاف ما تقوله الرافضة والحشوية، ولو لم يصح معرفة المراد بظاهره، والنبي والإمام إنما يبين بالخطاب، فكيف يعرف بكلامه.

ومتى قيل: كيف يعرف المراد مع احتماله؟

قلنا: القرآن يشتمل على آيات محكمة، يعرف المراد بظاهرها، لا يحتمل إلا معنى واحدًا، فهذا لا إشكال فيه.

ومنها: آيات تحتمل معاني حقيقة، أو حقيقة ومجازًا، ولا مانع من حمله عليها، فيحمل عليها.

ومنها: أن متشابهه يُرَدُّ الى المُحْكَمِ ويرتب عليها وعلى أدلة العقول.

ومنها: آيات مجملة لا بد من بيان، فإذا بَيَّنَهُ الله تعالى في مواضع أخر، وبَيَّنه الرسول، كفى.

وتدل الآيات على أن السماء سبع، والأرض سبع، وذكر شيخنا أبو علي أن

السموات فوق الأفلاك، وأنها مقر الملائكة، فأما الأرض فلا يسكنها أحد، إلا ما نحن عليه، وليس في الآية أن فيها أحدًا أم لا، ولا أن بين كل واحد فرقًا أم لا، فالتوقف فيه أولى.

ويدل قوله: «لتعلموا» أنه أراد من الجميع أن يعلموا، خلاف قول المجبرة.

ومتى قيل: لِم خص المؤمنين بقوله: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[1]؟

قلنا: لأنهم يخرجون، وقيل: لأن الإخراج جزاء على الإيمان، فيخص المؤمنين.

ومتى قيل: لِم أضاف الإخراج إلى نفسه؟

قلنا: لأنه بلطفه، وهدايته، وإليه، وأمره، وإزاحة العلة.

(١) ليخرج الذين آمنوا: ليخرجهم، غ.

سُورَةُ التَّحرِيم

سورة (التحريم)، وهي مدنية، وهي اثنتا عشرة آية.

وعن أُبيّ بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ أعطاه الله توبة نصوحًا».

ولما تقدم في سورة (الطلاق) بيان حكم النساء في الطلاق والعدة والنفقة والسكنى، بيّن في هذه السورة حكمهن في التحريم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ
ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ
حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ
هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ
ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن
طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ
وَأَبۡكَارٗا ٥﴾

۞ القراءة

قرأ الحسن والسلمي وقتادة والكسائي وأبو بكر بن عياش: «عَرَفَ» بالتخفيف[١]، قال أبو بكر: وهي قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام أدخلته في قراءة عاصم، وهي من عشرة أحرف، أدخلتها في قراءته لتستخلص قراءته قراءة علي، وقرأ الباقون: «عَرَّفَ» بالتشديد، أما التشديد فمعناه: عَرَّفَ غَيْرَهُ، والتخفيف «عرف» أي: جازاه بما فعل، كقولهم إذا توعد: قد عرفت ما فعلت، سأجازيك بفعلك.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «وإن تَظَاهَرَا» خفيفة الظاء، وقرأ الباقون مشددة، فالتشديد على الإدغام، والتخفيف على الحذف[٢].

وفي (جبرائيل) أربع قراءات: بفتح الجيم والراء من غير همز: ابن كثير. بكسرهما: أبو عمرو ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم. مفتوحة الجيم والراء مهموز: أبو بكر عن عاصم. روي عن بعضهم بفتح الجيم وكسر الراء.

قراءة العامة: «نبأها»، وعن طلحة بن مصرف: «أنبأها» وهما سواء في المعنى.

۞ اللغة

الحرام: القبيح الممنوع منه بالنهي، ونقيضه: الحلال، وهو الحسن المطلق بالإذن فيه، وأصل الباب: المنع، ومنه: الحرم، والإحرام، والحريم، والمحارم.

والتحريم: تفعيل من الحرام، والتحريم يكون بشيئين: بإيجاب المنع كما يقال: حَرَّمَ الله الخمر تحريمًا، وببيان أنه محرم، كما يقال: حرمه أبو حنيفة، وأباحه الشافعي.

والابتغاء: الطلب، ومنه: الباغي لطلبه للاستعلاء بما ليس له بحق، والفعل البغي، والبُغْيَةُ: معتمد الطلب.

---

(١) حجة القراءات ٧١٣.

(٢) حجة القراءات ٧١٣.

والتَّحِلَّةُ والتحليل بمعنى، يقال: حَلَّلْتُ له كذا تحليلاً وتَحِلَّةً، كما يقال: كرمت فلانًا تكريمًا وتكرمة، وقدمته تقديمًا وتقدمة، وتحلة اليمين: فِعْلٌ يسقط التبعة فيه.

واليمين والحلف والقسم من النظائر، وجمعه: أيمان، قيل: إنه مأخوذ من القوة، كأنه يُقَوِّي كلامه بالحلف، وقيل: من الجارحة؛ لأن عادتهم كان عند الحلف ضرب الأيدي على الأيدي.

والإسرار: إلقاء المعنى إلى غيره في خفية، ونظيره: الإخفاء، ونقيضه: الإعلان والإظهار.

والصَّغْوُ: المَيْلُ، صغا: إذا مال.

والتظاهر: التعاون؛ وهو أن يكون كل واحد ظهيرًا للآخر، أي: معينًا له، وأصله من الظهر.

والقنوت: الدوام على الطاعة، قنت قنوتًا.

والسائح: الجاري، والعرب تصف بذلك الماء الجاري، الدائم الجري، ثم تصف به الرجل الذي يضرب في الأرض، ويقطع البلاد، يقال: سائح وسُيَّاح.

۞ الإعراب

يجوز في (**جبرائيل**) و(**صالح**) النصب والرفع، فالنصب على تقدير: إن جبريل وصالح، وإذا رفعت فعلى موضع هو؛ لأنه رفع.

﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ يحتمل أن يكون جمعًا وحذف الواو منه كما حذف من ﴿يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦] ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤] وإنما أسقطت لالتقاء الساكنين، ويحتمل أن يكون واحدًا، والمراد به كل رجل صالح.

﴿مَرۡضَاتَ﴾ التاء ليست زائدة، إنما هي هاء صارت تاء في الوصل.

﴿صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ فذكر بلفظ الجمع؛ لأن الاثنين جمع، فجاز أن يعبر عنه بلفظ الجمع، وقيل: كل شيئين من شيء جماعة، كقولهم: ضربت أعناقهما، عن

الأخفش، وقيل: ما في البدن مُفْرَدٌ إذا رُدَّ إلى التثنية يرد بلفظ الجمع[1]، يقال: هشمت رؤوسهما[2]، وجلدت ظهورهما.

النزول

اختلفوا في سبب نزول الآية، وفي المحرم ما هو، فقيل: المحرم العسل، فروت جماعة منهم عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا صلى الغداة يدخل على نسائه، فكان إذا دخل على حفصة سقته العسل، فأنكرت عائشة احتباسه عندها، فتعرفت الخبر، فسمعت أنه يشرب عندها العسل، فغارت، وأرسلت إلى النساء: إذا دخل عليكن رسول الله ﷺ فلنقل: إنا نجد منك ريح المغافر، وهو صمغ العُرْفُطِ كريه[3] الرائحة، وكان رسول الله ﷺ يكره الروائح الكريهة لمكان المَلَكِ، فدخل عليهن، وهن يقلن ذلك حتى دخل على عائشة، فأخذت أنفها، وقالت: إني أجد منك ريح المغافر، أكلتها؟ قال: «لا، سقتني حفصة عسلاً»، وحرمه على نفسه.

وقيل: لما كان من الغد دخل على حفصة، وجاءت بالعسل أبى، وحرمه على نفسه، وقيل: التي سقته العسل أم سلمة.

وقيل: بل كانت زينب بنت جحش، كان يشرب عندها العسل، فتواطأت عائشة وحفصة على أن يقولا: نجد منك ريح المغافر، فلما قالتا ذلك له حرم العسل على نفسه.

وقيل: التحريم في شراب كان يعجبه، عن عبد الله بن شداد.

وقيل: المحرم مارية القبطية أم إبراهيم، وكان أهداها إلى رسول الله ﷺ

---

(١) معنى هذا كما ذكره في مجمع البيان ١٠/ ٥٤: أن أكثر ما في الإنسان اثنان اثنان نحو اليدين والرجلين والعينين، وإذا جمع اثنان إلى اثنين صار جمعًا فيقال: أيديهما وأعينهما، ثم حمل ما كان في الإنسان واحدا على ذلك لئلا يختلف حكم لفظ أعضاء الإنسان.

(٢) رؤوسهما: رؤوسكما، غ.

(٣) كريه: كريمة، غ.

المقوقس، خلا بها في حجرة حفصة في نوبتها، فعاتبته حفصة، فحرمها على نفسه طلبًا لمرضاة حفصة؛ لأنها غارت عليه[1]، عن الحسن، ومسروق، وقتادة، والشعبي، وزيد بن أسلم، والضحاك، وابن زيد، وقال لحفصة: «لا تخبري بذلك أحدًا»، فأخبرت عائشة، وكانتا متظاهرتين على سائر أزواج النبي ﷺ.

وقيل: قال لحفصة: «هي حرام، وإن أباك وأبا عائشة خليفتان من بعدي، لا تخبري بذلك».

وقيل: إن حفصة زارت عائشة.

وقيل: بل خرجت إلى أبيها، وخلا بيتها، فوجه إلى مارية، فكانت معه في بيت حفصة، وجاءت حفصة فأسر إليها التحريم، فأخبرت بذلك عائشة.

وقيل: طلق حفصة تطليقة جزاء على ذلك، فأمره الله تعالى بالمراجعة.

وروي أن عمر قال لها: لو كان في آل الخطاب خير ما طلقك رسول الله ﷺ، وجاء جبرائيل، فأمره بالمراجعة، فراجعها واعتزل نساءه شهرًا، وقعد في بيت مارية أم إبراهيم حتى نزل آية التحريم.

وقال مقاتل بن حيان: لم تطلق حفصة، وإنما هَمَّ بطلاقها، وأتاه جبريل وقال: «لا تطلقها فإنها صوامة قوامة، وإنها من نسائك في الجنة» فلم يطلقها.

وقيل: إنها نزلت في المرأة التي وهبت نفسها للنبي، وهي أم شريك، فأبى النبي ﷺ أن يقبلها لأجل امرأته، عن عكرمة.

والأصح أن التحريم تحريم مارية، والذي حمل على ذلك عائشة وحفصة؛ لأن أكثر المفسرين ونَقَلَةِ الأخبار على ذلك، ولأن طلب مرضاة الأزواج لا تحصل في تحريم العسل.

المعنى

«يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ» نداء شريف وتعظيم خصه به «لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ» قيل:

---

(١) عليه: عليها، غ.

مارية، وقيل: العسل، وقيل: شرابًا كان يعجبه، فعاتبه الله تعالى على أنه حرم شيئًا أحله له.

ومتى قيل: هل وقع ذلك ذنبًا؟

قلنا: اختلفوا، منهم من قال: وقع صغيرة؛ ولذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومنهم من قال: لا؛ لأنه يحتمل أن يكون عتابًا كما يجري في المباحات، وترك الأولى.

«**تَبْتَغِي**» أي: تطلب بذلك التحريم «**مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ**» قيل: نسائك، وقيل: حفصة وعائشة «**وَاللَّهُ غَفُورٌ**» يغفر ذنوب عباده ويسترها «**رَحِيمٌ**» بهم، واختلفوا في التحريم، قيل: حلف بيمين ألا يقربها، عن قتادة، والضحاك، وقيل: لم يحلف ولكن قال: «هي حرام علي»، فجعل فيه كفارة يمين، عن ابن عباس، وهو قول أبي علي. وعن الشعبي الكفارة لليمين، والمعاتبة للتحريم. وعن عطاء: التحريم يمين. واتفقت الصحابة أن تحريم الزوجة يتعلق به معنى، ثم اختلفوا في ذلك المعنى على ما نبينه.

«**قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ**» أي: قَدَّرَ وأمر «**تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ**» أي: تحليلها بالكفارة، والكفارة ما ذكره في سورة (المائدة)، واختلفوا، فقيل: لم يُكَفِّرْ النبي ﷺ؛ لأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، عن الحسن، وقيل: بل كفر، عن الأصم؛ لأن التكفير عبادة وليست بعقوبة «**وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ**» أي: وليكم وناصركم «**وَهُوَ الْعَلِيمُ**» بمصالحكم «**الْحَكِيمُ**» في أوامره ونواهيه.

«**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ**» أخفى «**إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ**» قيل: حفصة بإجماع المفسرين «**حَدِيثًا**» أي: كلامًا قال لها، وأمرها بإخفائه، وذلك الحديث حديث مارية وتحريمها، وقيل: تحريم العسل على ما ذكرنا، وقيل: بل أسر إليها «أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتي بعدي»، وعن ابن عباس: أسر إليها أَمْرَ الخلافة بعده، وقيل: أسر إليها أن أباك خليفتي من بعدي، عن ميمون بن مهران. «**فَلَمَّا نَبَّأَتْ**» أي: أخبرت حفصة عائشة «**بِهِ**» بالحديث، وقيل: بالسر «**وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ**» أي: أطلع الله رسوله عليه وما جرى من إفشاء سره «**عَرَّفَ بَعْضَهُ**» أما بالتخفيف قيل: غضب عليها وجازاها، وقيل: طلقها جزاء لها، وقيل: هَمّ بطلاقها، وقيل: لما أخبرها النبي ﷺ

[ببعض ما قال لها فلم يخبرها بقولها أجمع][1] عرف حفصة بعضه «**وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ**» وهو حديث الخلافة، عن مقاتل، فأما التشديد: عَرَّفَ النبي حفصة ببعض ذلك الحديث وأخبرها به، وأعرض عن بعض ولم يخبرها به، قال الحسن: ما استقصى كريم قط، قال مقاتل: أخبرها ببعض ما قالت عائشة، ولم يخبرها بقولها أجمع. «**فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ**» أي: أخبر رسول الله ﷺ حفصة، أي: بما أظهره الله، و«**قَالَتْ**» حفصة «**مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا**»؟ أي: من أخبرك به؟ «**قَالَ**» رسول الله ﷺ «**نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ**» بالأشياء «**الْخَبِيرُ**» بالسرائر، وإنما قالت: من أنبأك هذا؟ لأنها وثقت بعائشة أنها لا تخبر، فقالت متعجبة: من أخبرك بهذا؟ «**إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ**» والتوبة: الندم على ما فات والعزم على ترك العود إلى أمثالها، لقبح ذلك، خالصة لله تعالى، والخطاب لعائشة وحفصة «**فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**» أي: مالت وزاغت إلى الإثم واستوجبتما التوبة، عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وهما عائشة وحفصة، عن عمر وسائر أهل التأويل، وقيل: مالت قلوبكما إلى ما كرهه رسول الله ﷺ من تحريم ما حرمه، عن ابن زيد، وقيل: مالت قلوبكما عن الاستقامة لفرط الغيرة، وقيل: جواب «**إِن تَتُوبَا**» محذوف تقديره: إن تتوبا من العود إلى إفشاء سره فتوبا فقد استوجبتما التوبة، وقيل: إن تتوبا يقبل الله توبتكما، وقيل: مالت قلوبكما إلى إفشاء سره وإظهاره، عن أبي علي. «**وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ**» تعاونا، يعني عائشة وحفصة تظاهرا على رسول الله ﷺ في إيذائه «**فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ**» ناصره «**وَجِبْرِيلُ**» ناصره «**وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ**» قيل[2]: خيار المومنين، عن الضحاك، وقيل: الأنبياء، عن قتادة، وقيل: أبو بكر، عن المسيب بن شريك، وقيل: عمر، عن سعيد بن جبير؛ لأنه عاتب حفصة، وقيل: أبو بكر وعمر، عن عكرمة، والأصم، وروي عن ابن مسعود أن النبي ﷺ سئل عن ذلك فقال: «إن صالح المؤمنين أبو بكر وعمر»، وكانا عَنَّفَا عائشة وحفصة وعاتباهما على ما فعلتا، وكانا أبويهما فخصهما بالذكر، وقيل: هو علي بن أبي طالب عليه السلام، رواه علي عن النبي ﷺ، ورواية أسماء بنت عميس عن النبي ﷺ، وقيل: هم المخلصون دون المنافقين، عن الكلبي. «**وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**» أي: معين «**عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ**

(١) ما بين المعكوفين زيادة من: الكشف والبيان للثعلبي: ١٣/ ٣٠٢.

(٢) قيل: وقيل، غ.

أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ» قيل: في حسن العشرة والخدمة وطاعة الرسول، وقيل: في الفضل في الدين «**مُسْلِمَاتٍ**» أي: مطيعات منقادات «**مُؤْمِنَاتٍ**» قيل: مصدقات لله ورسوله، وقيل: مؤمنات مستحقات للثواب والتعظيم، وقيل: مسلمات ومؤمنات، يعني ذكرهما مدحًا لهن «**قَانِتَاتٍ**» قيل: عابدات، وقيل: خاضعات لله تعالى «**تَائِبَاتٍ**» قيل: راجعات إلى الله تعالى في أمورهن، وقيل: نادمات على تقصير وقع منهن «**عَابِدَاتٍ**» أي: عابدات لله تعالى بالفرائض والسنن بالإخلاص «**سَائِحَاتٍ**» قيل: ماضيات في طاعة الله، وقيل: صائمات، عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وقيل: مهاجرات، عن ابن زيد وأبيه زيد بن أسلم. «**ثَيِّبَاتٍ**» التي كان لهن أزواج «**وَأَبْكَارًا**» أي: لم يكن لهن أزواج، وهذا إخبار عن القدرة لا عن الكون؛ لأنه علم أنه لا يطلقهن، فنظيره: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٨]؛ لأنه ليس في الوجود من هو خير من أصحاب محمد ﷺ.

ومتى قيل: فَلِمَ قال: ﴿خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾؟

قلنا: لم يكن في النساء مثلهن، ولكن لو دُمْنَ على إيذائه وفارقهن، وخلق الله شيئًا على الصفة[1] المذكورة كن خيرًا منهن، فالمراد به القدرة لا نفس الوجود، وقيل: أراد خيرًا منهن في العشرة والنفع للنبي ﷺ، وقيل: في الفضل فيما يرجع إلى أحوال الدنيا.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ على أشياء:

منها: أنه لا يجوز تحريم ما أحل الله.

ومنها: أنه لا يجوز ترك شيء من أمر الله لرضا غيره؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ومنها: وقوع صغيرة منه؛ لذلك عاتبه، وعقب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ولأن الظاهر أنه حرم شيئًا حلالاً.

(١) الصفة: صفة، غ.

ومنها: ما يدل أن تحريم الحلال يتعلق به حكم، وهو متفق عليه، فإذا قال لامرأته: أنت عليّ حرام، اختلف العلماء فيه، فقيل: هو يمين، عن ابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، وأبي بكر أنه يمين تكفر، وقيل: هي ثلاث تطليقات، وهو قول مالك، ومنهم من قال: تطليقة بائنة، ومنهم من قال: كناية وينوي، ومنهم من قال: هو ظهار، وعلى قول أبي حنيفة ينوي إن نوى الظهار فهو ظهار، وإن نوى إيلاء كان إيلاء، وإن نوى الطلاق كان طلاقًا بائنًا، وإن نوى ثلاثًا كان ثلاثًا، وإن نوى ثنتين فواحدة بائنة، وإن لم يكن له نية فهي يمين، وقال الشافعي: إن نوى الطلاق كان طلاقًا، وإن نوى الظهار كان ظهارًا، وإن لم يكن له نية لزمه كفارة يمين في أحد قوليه، وفي قول آخر: لا يلزمه شيء، وإن نوى التحريم ففيه كفارة يمين.

ويدل قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ على وقوع معصية منهما؛ لذلك أمر بالتوبة؛ ولذلك قال: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾.

ويدل قوله: ﴿عَسَىٰ﴾ الآية أن تظاهرهما يؤثر في حالهما.

ويدل قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ أن النبي ﷺ محفوظ مرفوع عنه جميع المكاره.

قال أبو علي رحمه الله: ويدل قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ أن المولى لا يفيد الإمامة، على ما تزعمه الإمامية، وإنما يريد الحياطة والمعونة.

وتدل أن التظاهر وضعف القلب فعلهما، وكذلك ما وصف به الأزواج من خصال المدح.

قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

قرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه: «نُصُوحًا» بضم النون[1]، وهي قراءة الحسن على المصدر، قال المبرد: أراد توبة ذات نصح، وقرأ الباقون بفتحها على نعت التوبة.

قرأ أبو عمر وحفص عن عاصم ويعقوب: «وكُتُبِهِ» على الجمع[2]، واختاره أبو حاتم؛ لأنه أعم، وقرأ الباقون: «وكِتَابِهِ» على واحد.

قراءة العامة: «وصَدَّقَتْ» بالتشديد من التصديق، وقرأ لاحق بن حميد بالتخفيف.

---

(١) حجة القراءات ٣١٤.

(٢) حجة القراءات ٣١٥.

قراءة العامة: «**بكلمات**» على الجمع، وقرأ الحسن وعيسى والجحدري: «**بكلمة**» على واحد يعني عيسى.

۞ اللغة

الوقاية: الحراسة والحفظ، وقى يقي وقاية فهو واقٍ، والأمر للواحد: قِ يا هذا، وللاثنين: قِيَا، وللجماعة: قُوا، ونظيره: من الوفاء: فِ، فِيَا، فُوا.

والتوبة: الرجوع إلى الله وإلى طاعته، وهو الندم على ما فات من ارتكاب قبيح، أو ترك واجب، والعزم على ألا يعود في المستقبل إلى أمثالها.

والنصوح: مأخوذ من النصاحة وهو الخِيَاطَةُ، كأنه أراد به التوثيق كما يوثق الشيء بالمِخْيَطِ، ويحتمل أنه يوصل صاحبها إلى الجنة، وأهلها كما يوصل المَخِيطُ بالمِخْيَطِ، والنصوح نعت للتوبة يقال: ماء شَرُوبٌ أي يُشْرَبُ، كذلك النصوح ما ينصح، عن أبي مسلم. وقيل: النصوح التي يناصح فيها الإنسان نفسه بإخلاص الندم مع العزم من غير تضييع في ذلك، عن علي بن عيسى. فيكون مأخوذًا من النصح، وهو النصيحة.

والإحصان: المنع، ومنه: الحصن والحصين، وإحصان الفرج: مَنْعُهُ من دنس الذنب، فرس حَصِان يمنع من ركوبه.

والقانت: الدائم الثابت على طاعة الله، المتمسك بدينه.

۞ الإعراب

«نصوحا» نعت للتوبة، ولم يقل: نصوحة؛ لأنه «فَعُولٌ»، و«فعول» يكون بغير هاء، كقولك: امرأة غفور، وشكور.

ونصب (امرأة) و(مريم) بالفعل، تقديره: ضرب امرأة فرعون مثلًا، وضرب مريم مثلًا.

المعنى

لما وعظ نساء النبي ﷺ أمر المؤمنين بوعظ نسائهم وما يؤديهم إلى النجاة، فقال سبحانه: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا**» أي: احفظوا واحرسوا «**أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**» أي: افعلوا ما أمر الله به، ومروا أهليكم بذلك، وانهوهم عن معصية الله بمنعهم بذلك من النار، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. «**وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**» قيل: حطبها، وقيل: توقد على الناس تعذيبًا وعلى الحجارة، ومنها الأصنام التي عبدوها يعذبون بها، عن أبي مسلم. «**عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ**» أي: خزنتها، والموكلون بها ملائكة غلاظُ القلوب، لا يرحمون أحدًا من أهل النار «**شِدَادٌ**» أي: أقوياء، وهم الزبانية تسعة عشر، وأعوانهم «**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**» قيل: في الدنيا؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، وقيل: بل في الدنيا والآخرة إذا أمرهم بأخذهم وتعذيبهم يأخذونهم، ولا يلتفتون إلى صراخهم، وقيل: يرفع الله الرحمة عن قلوبهم فلا يرحمون أهل النار، وقيل: عِلْمُهُمْ بما فعل العصاة يُذْهِبُ الرحمة عن قلوبهم، وقيل: جعل لذتهم في تعذيب أهل النار كما جعل لذة المؤمنين في نعيم الجنة، وقيل: يمنع النار أن تداخلهم، فلا يتألمون به، ويجوز أن يلتذوا بتلك النار.

«**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ**» لما عُذِّبُوا أخذوا في الاعتذار، ولم يلتفت إلى معاذيرهم، ويقال لهم: لا تعتذروا؛ فهذا جزاء فعلكم، وقيل: لا تتكلفوا العذر؛ فإنه لا ينفعكم، وليس لكم عذر صحيح، وإنما تعتذرون بأنا لا نعلم وَغرَّنا الرؤساءُ، وكل ذلك ليس بعذر، وقيل: الغرض من العذر القبول، وهم لا يعتذرون على وجه يقبل؛ لأنهم يلجؤون إلى ذلك. ومن يقول لهم هذا؟ قيل: الملائكة، وقيل: الله تعالى يناديهم، وكان أشد الإياس والعذاب «**إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**» أي: هذا جزاء عملكم.

«**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا**» قيل: توبة تنصح لكم بالإخلاص، عن سعيد بن المسيب، وقيل: توثق ذلك، عن أبي مسلم، وقيل: نصوحًا تناصحون فيها أنفسكم، عن أبي علي، واختلف المفسرون في النصوح، قيل: أن يتوب، ولا يعود، عن عمر، وقيل: أن يكون نادمًا على ما مضى مجمعًا على ألا يعود فيه، عن

الحسن، وقيل: هو أربعة: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الخلان، وقيل: هي أن تكون لله فقط، وقيل: رد المظالم، وإدمان الطاعة، وقيل: قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، وقيل: علامته ثلاث: مخالفة الهوى، وكثرة البكاء، ومكابدة الجوع والظمأ، والصحيح ما أشار إليه الحسن، ولو كان جميع ما ذكر فيه من شرائط التوبة النصوح.

«عَسَى رَبُّكُمْ» (عسى) من الله واجب، أي: توبوا ليغفر لكم، وقيل: توبوا متعرضين للمغفرة، يعني بين الخوف والرجاء «[أَنْ] **يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**» أي: لا نفعل بهم ما نفعل بأهل النار من الخزي، فنبيض وجوههم، ونحسن خلقهم، ولا يلحقهم خوف ولا حزن «**نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ**» قيل: هو نور يتلألأ بين أيديهم في القيامة وعلى الصراط، وقيل: نور كتبهم «**يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا**» قيل: يقول المؤمنون حين يطفأ نور المنافقين في القيامة، عن مجاهد، والحسن. وقيل: «**أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا**» أي: وفقنا للطاعة التي هي سبب النور، وقيل: لما رأوا الكفار في الظلمات قالوا ذلك.

ومتى قيل: لِم خص النور بأنه بين أيديهم وبأيمانهم؟

قلنا: قيل: على يسارهم يكون أهل النفاق، وخلفهم الكفار.

وقيل: هو مسكوت عنه، يجوز أن يكون النور محيطًا بهم.

ومتى قيل: أليس يعلمون أن نورهم يتم، فكيف يسألون، والدار ليست بدار تكليف؟

قلنا: هو على سبيل التلذذ لاستدامة النور، وكذلك سؤال المغفرة يقع تلذذًا.

«**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ**» قيل: جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالحجة، عن أبي علي، وقيل: جاهدهما إذا أظهرا النفاق «**وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**» أي: شددوا عليهم، قيل: في الجهاد من غير محاباة، وقيل: بإقامة الحد عليهم، قال الحسن: أكثر من كان يصيب الحدود في ذلك الزمان المنافقون، فأمر بأن يغلظ عليهم في إقامة الحدود «**وَمَأْوَاهُمْ**» أي: مصيرهم «**جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**».

«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا» قيل: ضرب المثل للمؤمن والكافر، وقيل: لأزواج النبي ﷺ علموا له حثهن على الطاعة، وبيان بأن طاعة الرسول لا تنفعهم «لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ» قيل: امرأة نوح واعلة، وامرأة لوط: واهلة[1]، وقال مقاتل: والعة ووالهة «كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ» نوح ولوط عليهما السلام «فَخَانَتَاهُمَا» أي: في الدين، وقيل: كانتا منافقتين، عن ابن عباس، وقال: ما زنت[2] امرأة نبي قط، وقيل: امرأة نوح تنسبه إلى الجنون، وامرأة لوط كانت تدل الجيران على أضياف لوط، وقيل: كانت امرأة نوح إذا آمن به واحد أخبرت الجبابرة من قومه. «فَلَمْ يُغْنِيَا» مع نبوتهما «عَنْهُمَا» لما كفرتا «مِنَ» عذاب «اللَّهِ شَيْئًا» أي: لم تنفع قرابتهما، أشار إلى أن الواجب الطاعة؛ إذ لا تنفع القرابة «وَقِيلَ» لهما «ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ».

«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ» وهي آسية بنت[3] مزاحم، أسلمت لما عاينت المعجزة من عصا موسى وغلبته السحرة، فلما ظهر أي: إسلامها، نهاها، فأبت إلا الإسلام، فأوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد، وألقاها في الشمس، وأمر بأن يلقى عليها صخرة عظيمة، فلما قرب أجلها «قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ» قيل: أبصرت بيتها في الجنة من دُرَّةٍ، قيل: رفعها الله إلى الجنة فهي فيها تأكل وتشرب، عن الحسن، وابن[4] كيسان، وقيل: توفيت عند إلقاء الصخرة عليها، فلم تألم «وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ» أي: خلصني منه، ومن عمله، قيل: ومن دينه، وكانت تكره المقام معه لكفره، فدعت أن ينجيها منه، ويبوِّئَها بيتًا في الجنة، وقيل: تبرمت من سماع الباطل منه، فاستغاثت بالله «وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» فقطع الله تعالى بهذه الآية طمع العاصي أن ينفعه صلاح غيره، أو أن معصيته تضر أحدًا.

---

(١) في النسخة المخطوطة للحاكم كما أثبت (قيل: امرأة نوح واهلة، وامرأة لوط واهلة) وفي مجمع البيان ١٠/ ٦٤: وقيل: إن اسم امرأة نوح واغلة، واسم امرأة لوط: واغلة) ولكن هذا سيأتي عن مقاتل كما ذكره أيضًا في مجمع البيان بعد هذا. ومعنى قول مقاتل: (والغة ووالهة) أي أن اسم المرأتين والغة ووالهة.

(٢) مازنت: ما زنة، والصواب ما أثبتناه من روح المعاني ٢٨/ ١٦٢.

(٣) بنت: بن، غ.

(٤) وابن: وأبي، غ.

«**وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا**» أي: منعت فرجها من دنس الذنب، وقيل: بعد ما أثنى الله عليها بالإحصان لم يضرها قول مَنْ رماها بالزنا «**فَنَفَخْنَا**» قيل: نفخ جبريل بأمر الله تعالى؛ فلذلك أضاف إلى نفسه، واختلفوا في قوله: «**فِيهِ**» قيل: في جيبه «**مِنْ رُوحِنَا**»، عن قتادة، وكلُّ شِقٍّ فَرْجٌ، وقيل: نفخ جبريل في فرجها، وخلق الله تعالى منه المسيح، عن جماعة وهو الوجه، وقيل: «**فيه**» كناية عن المسيح، أي: خلق المسيح في بطنها، ونفخ فيه الروح حتى صار حَيًّا «**وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا**» قيل: بوعده ووعيده وأمره ونهيه «**وَكُتُبِهِ**» قيل: التوراة والإنجيل، ومن وَحَّدَ قال: المراد به الإنجيل، «**وَكَانَتْ**» مريم «**مِنَ الْقَانِتِينَ**» أي: من المطيعات لله تعالى.

۞ الأحكام

يدل قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ الآية أن الواجب على المرء بعد إصلاح نفسه النصيحة في الدين والدعاء إليه، وأن يبدأ بأقاربه وأهاليه، وذلك يتضمن تعليم أصول الدين وفروعه، والأمر بالطاعة والنهي عن المعصية.

ومتى قيل: إذا كان في زمان الجبر والتشبيه فلا يمكنه أن يعلمهم العدل والتوحيد، ولا يأمن النشوء على الجبر، فما الواجب؟

قلنا: الانتقال من تلك الديار.

وتدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتدل على إزالة المبطل عن باطله، وحل الشُّبَهِ.

ويدل قوله: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ﴾ على عصمة الملائكة، وأنهم يفعلون كل ما أمروا به، قال أبو علي: وذلك في دار الدنيا، وقد بَيَّنَّا ما قيل فيه.

ويدل قوله: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ﴾ أن العقاب جزاء للأعمال، خلاف قول المجبرة.

ويدل قوله: ﴿تُوبُوٓاْ﴾ الآية أن غفران الذنوب معلق بالتوبة.

وتدل الآيات على وجوب الجهاد باليد واللسان.

وتدل أنه لا يجوز المن على ما قاله أبو حنيفة، خلاف قول الشافعي، **وأنما** فعله

رسول الله ﷺ من المنّ على أبي عزة منسوخ، وكذلك قوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا﴾[1] [محمد: ٤].

وتدل على أن نكاح المؤمن بالمشركة ونكاح المشرك بالمؤمنة كان جائزًا في تلك الشرائع، فأما في شريعتنا فيجوز للمسلم تزويج اليهودية والنصرانية مع كراهة فيه، وعند القاسم والهادي عليهما السلام لا يجوز.

وتدل على أن طاعة أحد لا تنفع غيره، ولا معصية أحد تضر غيره.

وتدل على أن العلم بأحوال من تقدم لطف للمكلفين، قاله أبو مسلم.

ويدل قوله: ﴿ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ﴾ أنهما دخلتا النار قبل يوم القيامة.

وتدل الآيات على أن أفعال العباد ليست بمخلوقة لله تعالى، وأنها حادثة من جهة العبد من وجوه:

منها: قوله: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.

ومنها: قوله: ﴿لَّا يَعۡصُونَ﴾ ,﴿وَيَفۡعَلُونَ﴾.

ومنها: قوله: ﴿تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

ومنها: قوله: ﴿تُوبُوٓاْ﴾.

ومنها: قوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾.

ومنها: قوله: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

ومنها: قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾.

ومنها: قوله: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾.

ومنها: قوله: ﴿أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾.

---

(١) فإما: إمّا، غ.

سُورَةُ المُلْك

سورة (الملك) مكية فيما روي، وهي ثلاثون آية، وتسمى (المنجية)؛ لأنها تنجي صاحبها من عذاب القبر على ما ورد به الخبر، وتسمى (الواقية) لما روي عن النبي ﷺ «أنها الواقية من عذاب القبر».

وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «وددت أن تبارك الذي بيده الملك في قلب كل مؤمن»[١].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل فأخرجته يوم القيامة من النار، وأدخلته الجنة، وهي سورة (تبارك)».

وعن ابن مسعود: (إذا وضع الميت في قبره يؤتى من قِبَلِ رجليه، فتقول[٢]: ليس لكم عليه سبيل؛ لأنه كان يقوم[٣] بسورة (الملك)، ثم يؤتى من قِبَلِ رأسه فيقول لسانه: ليس لك عليّ سبيل؛ لأنه كان يقرأ بي سورة (الملك)، ثم قال: هي المانعة من عذاب القبر، وهي في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب)[٤].

ولما ختم السورة [المتقدمة] بذكر خلق عيسى من غير والد، افتتح هذه السورة بدلائل قدرته، وآيات ربوبيته، وذكر ملكوته، فقال سبحانه وتبارك:

---

(١) شعب الإيمان رقم ٢٢٧٧.

(٢) هكذا في غ، وفي مجمع البيان: (فيقال له)، وقد روى هذا الحديث عن أبي هريرة بلفظه، ورواه بهذا وزيادة بسند ذكره إلى أبي جعفر ١٠/ ٦٦.

(٣) هكذا في غ. وكتب فوقها: يقرأ. ظ.

(٤) الحديث في شعب الإيمان رقم ٢٢٧٩.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ٥﴾

القراءة

قرأ الأعمش وحمزة والكسائي: «من تَفَوُّتٍ» بغير ألف[1]، وهي قراءة عبد الله، الباقون: «تفاوت» بالألف، وهما لغتان مثل: التَعَهُّد والتعاهد، والتحمل والتحامل، والتظهر والتظاهر[2]، والتَّصَغُّر والتصاغر.

اللغة

«تبارك» معناه: الثابت الدائم، وأصله من البَرْك، وهو ثبوت الطير على الماء، ومنه: البركة: ثبوت الخير، وقيل: تبارك من البركة، أي: البركات كلها منه، وتبارك وتعالى قيل: معناهما واحد.

والطباق: يكون طبقًا على طبق، بعضها فوق بعض، يقال: أطبقت الشيء: وضعت بعضه[3] فوق بعض، وقيل: الطباق التشابه والاتفاق في الأقدار.

والتفاوت: أن يفوت الشيء صاحبه، فيزيد عليه أو ينقص منه، ونقيضه: التقدير.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢٤.

(٢) والتظاهر: والتا ظهر، غ.

(٣) بعضه: بعضهما، غ.

والفَطْرُ: الشق، ومنه: الفطور، ومنه أخذ الفاطر.

والخاسئ: البعيد مما يريده، ومنه قيل للكلب: اخسأ، خَسَأْتُ الكلبَ أَخْسَؤُهُ، وخَسِئَ الكلبُ يَخْسَأ لفظ الفعل، إذا أضفته إلى الكلب مكسور، ومنه: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

والحسير من الإبل: المُعْيِي من الإبل الذي لا فضل فيه للسير، قال الشاعر:

بِهَا جِيَفُ الحَسْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا فَبِيضٌ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبُ[(١)]

والرُّجُوم: جمع رجم مفتوح الجيم، وهي الشيء الذي يرجم به، وبسكون الجيم مصدر رجمت أرجم رجمًا، أي: رميت، والرَّجَمَ بفتح الراء والجيم: قد يسمى به الموضع الذي يرمى فيه بالمرجوم، والمرجومُ والمرمِيُّ سواء.

وأعتدنا: أصله: أعددنا، أبدلت الدال تاء، فصار اعتدنا أي: هيأنا.

الإعراب

«**تبارك**» نصب؛ لأنه فعل ماض، وهو «تَفَاعَلَ»، ولا يجيء منه المستقبل، ولا اسم الفاعل.

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ بالابتداء، و(**أحسن**) خبره، قال الزجاج: وفيه إضمار؛ أي: ليعلم أيكم، والأصل فيه: أن حروف الاستفهام لا تتصل إلا بفعل يتعلق بالجملة على تقدير المفرد كقولك: علمت أزيد في الدار أم عمرو، تقديره: قد علمت أن أحدهما فيها، قال الفراء: ولم تقع البلوى على (أيّ)؛ لأن ما بين (أيّ) والبلوى إضمار[(٢)]، كما تقول: بلوتكم لأنظر أيكم أطوع، ومثله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠﴾ [القلم: ٤٠].

«**طباقا**» نصب لأنه مفعول ثان. (**مصابيح**) لا ينصرف؛ لأنه «مفاعيل».

(١) البيت قائله الراعي النميري، يصف برية واسعة هلكت فيها المطايا، وبقي فيها جيفها. جمهرة اللغة (بصل).

(٢) إضمار: إضمارا؛ غ.

المعنى

«تَبَارَكَ» قيل: تعالى وَجَلَّ عما لا يجوز عليه في ذاته وأفعاله، عن أبي مسلم، وقيل: البقاء له لم يزل، ولا يزال، عن أبي علي، وقيل: ذكره بركة على عباده في دينهم ودنياهم «الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ» يعني الذي هو المالك، وله الملك يؤتيه من يشاء، ويتصرف كما يشاء، وذكر اليد تأكيدًا، قيل: لأن أكثر التصرفات والعطايا باليد «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» قيل: هذا عام والمراد به الخصوص، يعني أنه قادر على ما يصح كونه مقدورًا له؛ لأن كثيرًا من الأشياء لا توصف بالقدرة عليه لذاته، وقيل: إنه عام في كل مقدور، أما المعدومات فيوجدها، والموجودات فيفنيها ويعيدها، ومقدور غيره يقدر عليه ويعجز عنه، وهو عام، وإن اختلفت[1] المعاني، فأما ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فعام؛ لأنه لا شيء إلا ويجب أن يعلمه «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ» قيل: خلق الموت في الحي فأماته، والحياة في الجماد فأحياه، وقيل: خلق الموت للتعبد بالصبر، وخلق الحياة للتعبد بالشكر، وقيل: خلق الأموات للاعتبار، والحياة للتزود، وقيل: خلق الموت في الدنيا فهو الخلقة، والحياة عند البعث للجزاء على الأعمال، وقيل: خلق الموت في الآباء ليبيدوا، والحياة في الأبناء ومن خلفهم «لِيَبْلُوَكُمْ» أي: يعاملكم معاملة المختبر، وإلا فهو عالم بأحوالهم، وقيل: ليختبر عباده ما بين الحياة إلى الموت بالشكر على النعم، والصبر على البلايا، والرضا بالقضاء، وفعل الطاعة، والامتناع عن المعصية «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» أي: من كان أحسن عملاً كان جزاؤه أحسن، وقيل: «ليبلوكم» أي: كلفكم ليظهر المعلوم، فيكون الجزاء على فعله لا على المعلوم منه، وقيل: أيكم أكثر ذكرًا للموت، وأشد استعدادًا له، وإنما قدم الموت؛ لأن الأشياء في الأصل كانت[2] جمادًا مواتًا، ثم خلق فيه الحياة، وقيل: لأنه أقرب إلى القهر، وقيل: المراد بالحياة البعث، فقدم الموت لأنه متقدم عليه، وسئل أبو قتادة رضي الله عنه عن قوله: «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» قال: أتمكم عقلاً، وأشدكم لله خوفًا، وأحسنكم فيما أمر الله به ونهاه عنه نظرًا، وإن كان أقلكم تطوعًا،

---

(١) اختلفت: اختلف؛ غ.

(٢) كانت: كان، غ.

وعن الحسن: أيكم أزهد في الدنيا زهدًا وأترك لها تركًا «وَهُوَ الْعَزِيزُ» أي: القادر على كل شيء وعلى من عصاه، ومع ذلك غفور لمن رجع إليه فأطاعه.

«الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا» قيل: بعضها فوق بعض، وقيل: أراد المطابقة والمشابهة، أي: بعضها يشبه بعضًا في الإتقان والإحكام، والحسن والتزين «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ» قيل: أراد جميع المخلوقات لا تفاوت فيها من طريق الحكمة، ولا تناقض، بل كلها في الحكمة سواء، وإن كانت متفاوتة في الصور والهيئات، وقيل: أراد خلق السموات لا ترى فيها اعوجاجًا، بل هي مستقيمة مستوية مع عظمها «فَارْجِعِ الْبَصَرَ» أي: استقْصي في النظر مرة بعد مرة، تقديره: انظر ثم أرجِعِ النظر؛ أي: رد النظر وانظر «هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ» قيل: من وَهْيٍ، عن ابن عباس، وقيل: من خلل، عن قتادة، وقيل: من شقوق، عن سفيان، وقيل: اختلاف، عن الضحاك، وقيل: من صدوع، عن أبي عبيدة. «ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ» أي: رد البصر «كَرَّتَيْنِ» أي: كرر النظر كرتين مرتين، قيل: معناه: أدم النظر «يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ» أي: ينصرف ويرجع إليك البصر «خَاسِئًا» قيل: ذليلًا، عن ابن عباس، قيل: كأنه ذل كذلة من طلب شيئًا فلم يجده وأُبعِدَ عنه، وقيل: خاشعًا، وقيل: بعيدًا عن مطلوبه، وعما يريده، عن أبي مسلم. «وَهُوَ حَسِيرٌ» أي: مُعْيًا كليلٌ منقطعٌ، عن قتادة، وتلخيص المعنى: أن نظر هذا الناظر يرجع إليه بعد الإعياء بعيدًا من بغيته، خائبًا من طلبته «وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ» قيل: الكواكب، قال قتادة: خلق الله تعالى النجوم لثلاث خصال: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها. «وَجَعَلْنَاهَا» أي: النجوم «رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ» أي: مَرَامِيَ يرمى بها الشياطين، وكانت الجن تسترق السمع ممن في السماء، فلما جاء الإسلام منعوا من ذلك «وَأَعْتَدْنَا» هيأنا «لَهُمْ» في الآخرة «عَذَابَ السَّعِيرِ» وهو النار المستعرة مع ما لهم في الدنيا من الرجم.

۞ الأحكام

قوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أن اليد تُذْكَرُ، ولا يراد بها الجارحة.

وتدل على أن في القرآن مجازًا وتوسعًا.

ويدل قوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ أن الموت معنى يضاد الحياة، وأن الحياة معنى.

وتدل على أنه تعالى المختص بالقدرة عليهما.

وتدل على أنه خلقهما للامتحان، ولا يليق ذلك إلا بمن هو مكلف أو فيهما لطف، فأما الحياة فتجوز مع كونه تمكينًا أن تكون لطفًا لهذا الحي وغيره، والموت يكون لطفًا لغيره.

ويدل قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ أنه كلف ليجازي على الأعمال، فيبطل قول المجبرة.

ويدل قوله: ﴿خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ[1]﴾ أنها سبع بعضها فوق بعض.

ويدل قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ الآية أن الكفر والقبائح ليس من خلقه لكثرة التفاوت بينهما.

ويدل ذلك على صانع مدبر؛ لأن خلق السماء وما فوقها والنجوم فيها، وعدم فتق فيها مع مرور الأيام يدل على صانع ومدبر.

ويدل قوله: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ أن الإدراك طريق للعلم.

وتدل على أن الإدراك ليس بمعنى؛ إذ لو كان معنى لكان يجوز أن ينظر ويديم النظر بحاسة صحيحة، وليس فيه إدراك الفطور، فلا يدركها مع كونها فيها.

ويدل قوله: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا﴾ إلى آخر الآيات أن في السماء نجومًا.

وتدل أن رجوم الشياطين منها، قال أبو علي: الكواكب ثابتة لا تزول وإنما ترمي بنار تنفصل منها.

وتدل أن الأفلاك تحت السماء.

وتدل على أن الشياطين مكلفة.

(١) خلق سبع سماوات: خلق السماوات، غ.

قوله تعالى:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر والكسائي: «فَسُحُقًا» بضم الحاء، والباقون بسكونها، وروي عن الكسائي التخيير بين التثقيل والتخفيف، وهما لغتان، نحو: الرُّعُب والرُّعْب، والسُّحُت والسُّحْت.

اللغة

جهنم: اسم من أسماء النار، قال أبو مسلم: العرب تسمي البئر البعيدة الجهنام، فكأنه على هذا الدرك الأسفل من النار، يعذب فيها الكفار.

والشهيق: ضرب من الصوت، يخرج عن ضيق تنفس.

والفور: ارتفاع الشيء بالغليان، فارت القدر تفور فورًا، ومنه: الفوارة؛ لارتفاعها بالماء ارتفاع الغليان، ومنه: فار الدم من الجرح، وفار الماء من الأرض.

والغيظ: قال أبو مسلم: هو الغليان، ومنه سمي الغضب غيظًا.

والفوج: الجماعة.

والاعتراف: الإقرار بالشيء عن معرفة به؛ لأنه مأخوذ من المعرفة، والسحق: أصله البعد، وسمي الهلاك سحقًا لبعده من النجاة، وسحقته سحقًا، أي: فرقته عن اجتماع فصار كالغبار.

۞ الإعراب

«**سحقًا**» نصب على المصدر، أي: أسحقهم الله سحقًا.

۞ المعنى

لما تقدم وعيد الشياطين الذين دَعَوْا إلى الكفر والضلال أتبعه بوعيد الكفار الذين أجابوهم إلى ذلك، فقال تعالى: «**وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ**» وهو عذاب النار «**وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**» أي: بئس المرجع «**إِذَا أُلْقُوا فِيهَا**» يعني الكفار ألقوا في جهنم «**سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا**» يعني يسمع الكفار للنار شهيقًا، قيل: صوت فظيع نحو صوت الحمار، يسمع عند غليانها وفورتها، فيعظم بسماع ذلك عذابهم لما يرد على قلوبهم من هولها، وقيل: إنه تعالى يخلق فيها صوتًا يشبه صوت المغتاظ، وقيل: يكون لسقوطهم فيها صوت فظيع «**وَهِيَ تَفُورُ**» أي: تغلي بهم غليان القِدْرِ، قال مجاهد: تفور بهم كما يفور الجب القليل بالماء الكثير «**تَكَادُ**» تقرب «**تَمَيَّزُ**» تَفَرَّقُ، عن ابن عباس، والضحاك، وابن زيد. أي: تكاد تنشق ويتفرق بعضها من بعض، وقيل: تتميز على أهلها «**مِنَ الْغَيْظِ**» قيل: من الغليان، وقيل: من الغيظ على أهلها، فشبه حالها بحال الغضبان «**كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ**» أي: جماعة «**سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا**» وهم الملائكة «**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ**» استفهام والمراد التقرير، والنذير: قيل: الرسول، وقيل: جميع ما يقع به الإنذار من الكتاب والمواعظ، وقيل: الشيب «**قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا**» يعني لما جاءنا الرسول كذبناه «**وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ**» أي: ذهاب عن الحق عظيم «**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ**» أي: لو سمعنا من الرسل ما أدوا إلينا، أو نعقل عنهم فعلمنا به «**مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**» وقيل: لو استعملنا عقولنا فتدبرنا وسمعنا من رسلنا ما كنا في أصحاب السعير «**فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ**» أي: أقروا «**فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ**» أي: أبعدهم الله من النجاة بعدًا وسحقًا، قيل: بعدًا، وقيل: هو واد في جهنم، عن سعيد بن جبير، والسعير: النار.

۞ الأحكام

تدل الآيات على عظيم ما ينال العصاة في النار.

ويدل قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أن كل مكلف محجوج، وأنه أُتِيَ في عذابه مِنْ قِبَلِ نفسه، وأنه مزاح العلة برحمة ربه؛ لذلك قالوا: ﴿بَلَىٰ﴾.

ويدل قوله: ﴿نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ﴾ أن الحجج عقلية أو سمعية[1].

وتدل أن كل قوم جاءهم نذير، ثم النذير يختلف، فلا تعلق للإمامية بها.

ويدل قوله: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ أن الذنب فعلهم، ليس بخلق الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ
عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ
ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ
ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ
نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «**أأمنتم من في السماء**» بهمزة واحدة وتسكين الثانية، وأبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب يطولونها، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بهمزتين.

اللغة

اللطف: صغر الشيء، واللطف في الأعمال: الرفق بها، واللطف من الله: الرأفة والرحمة والرفق، واللطيف: الرفيق بعباده، يقال: لطف به وتلطف لطفًا: إذا رفق به، ولطف يلطف: إذا دق.

والذلول من المراكب: ما لا صعوبة فيه، وإنما صارت الأرض ذلولاً بتسكين الله

---

(١) عقلية أو سمعية: عقلي أو سمعي، غ.

إياها[1] حتى أمكن العباد عليها التصرف، ولو كان مضطربًا لما كان كذلك، ومعنى الذلول: الطائعة المنقادة، وجمعه: ذُلُلٌ.

ومناكب الأرض: ظهورها، ومَنْكِبُ كل شيء أعلاه، وأصله: الجانب، ومنه: منكب الرجل، ومنه: الريح النكباء.

والنشور: الحياة بعد الموت، نشر الميت: إذا عاش، ينشر نشورًا، وأنشره الله ينشره إنشارًا أي أحياه، فإذا أردت أنه عائش قلت: ناشر، وإذا أردت أنه أحياه الله قلت: منشر، قال الأعشى:

حَتَّـى يَـقُـولَ الـنَّـاسُ فِـيـمَـا رَأَوْا ... يَـا عَـجَـبًـا لِـلْـمَـيِّـتِ الـنَّـاشِـرِ[2]

وأصله من النشر ضد الطي.

الخسف: الذهاب في الأرض، يقال: خسف الله به الأرض، وخَسَفَ القمرُ: ذهب نوره.

والمَوْرُ: التردد في الذهاب والمجيء، مار يَمُورُ مَوْرًا فهو مائر، نحو: ماج يموج موجًا فهو مائج.

والحاصب: الحجارة التي يرمى بها كالحصا، حصبه بالحصا: إذا رماه بها، يحصبه حصبًا.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ﴾ في المشركين، كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبريل بما قالوا فيه، فيقول بعضهم لبعض: أسروا قولكم كي لا يسمع إله محمد.

---

(١) إياها: إياه، غ.

(٢) يصف جارية، وقيل هذا البيت قوله:

لـو أسـنـدت مـيـتًـا إلـى نـحـرهـا ... عـاش ولـم يـنـقـل إلـى قـابـر

والناشر هنا بمعنى المنشور كما في قوله تعالى: ﴿مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ [الطارق: ٦] أي: مدفوق، والبيت في رواية أخرى.

حتى يقول الناس مما رأوا..

انظر: لسان العرب (نشر)، تاج العروس (نشر)، الصحاح (نشر).

۞ الإعراب

يقال: ما معنى (من) في قوله: «مَنْ خَلَقَ»؟

قلنا: يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون اسمًا للخالق، تقديره: يعلم الخالق.

والثاني: أن يكون اسمًا للمخلوق، تقديره: ألا يعلم خَلْقَهُ.

«نذير» أصله نذيري، حذف الياء وتدل عليها الكسرة التي «تحت[1] الراء».

۞ المعنى

لما تقدم الوعيد عقبه بالوعد على العادة المعهودة في القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد، فقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ» أي: يخافونه فلا يعصونه «بِالْغَيْبِ» قيل: يخافونه ولم يَرَوْهُ، وقيل: «بالغيب»، أي: في سرهم، وقيل: في حال غيبتهم عن المؤمنين وخلوتهم، يعني: بالغيب، أي: في حال غيبة لا يراه الناس، وقيل: بالآخرة؛ لأنها غيب يؤمنون بها، عن الحسن. «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» لذنوبهم «وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» أي: ثواب عظيم «وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» ظاهره تخيير، ومعناه وعيد، أي: سواء أسررتم أو أعلنتم فإنه عليم بضمائركم لا تخفى عليه خافية «أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ» قيل: ألا يعلم الله الخالق، وقيل: ألا يعلم المخلوقات «وَهُوَ اللَّطِيفُ» قيل: العالم بما لطف ودق، وقيل: الرفيق بعباده، وقيل: اللطيف: ما كان[2] فعله في اللطف بحيث لا يهتدي إليه غيره، وقيل: اللطيف: فاعل اللطف، «فَعِيلٌ» بمعنى «فاعل» كعليم وقدير، وقيل: بمعنى المُلْطِفِ كبديع بمعنى مبدع، وقيل: اللطيف الذي يكلفك اليسير ويعطيك الكثير «الْخَبِيرُ» العالم «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً» أي: سهلها ساكنة مسخرة لا تمتنع من تصرفاتهم، وقيل: أثبتها بالجبال، عن ابن عباس، أي: أسكنها. «فَامْشُوا» أي: إلى ما رغبكم الله تعالى فيه، وإلى ما أباحه لكم، وهذه إباحة وإرشاد، وليس بإيجاب «فِي مَنَاكِبِهَا» قيل: جبالها،

(١) تحت: على؛ غ.

(٢) ما كان: وكان، غ.

عن ابن عباس، وقيل: طرقها[1] وفجاجها، عن مجاهد، وقيل: نواحيها وجوانبها، عن الفراء، والأصم، وقيل: في أكنافها، عن الضحاك، وقيل: في سبلها حيث أردتم، عن الحسن. «وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ» يحتمل الإيجاب والإباحة، والرزق هي النعم التي أعطاها الله تعالى عباده، أي: كلوا من رزقه واستدلوا به على الرازق؛ لتعلموا أنه يقدر على إحيائكم وإعادتكم بعد الموت «وَإِلَيْهِ النُّشُورُ» إلى حكمه والموضع الذي يحكم هو بعد الموت والبعث، وقيل: إليه الإحياء للمحاسبة، وقيل: هو مالك النشور القادر عليه، عن أبي علي. «أَأَمِنتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ» قيل: أأمنتم عذاب من في السماء، عن جماعة، ثم اختلفوا فقيل: كانت العرب تزعم أن الإله في السماء فقال: «أَأَمِنتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ» على زعمكم، [وقيل]: «أَأَمِنتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ» عذابه، عن أبي علي، وقيل: «أَأَمِنتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ» سلطانه وتدبيره، فإن تدابيره تكون في السماء، ثم تنزل إلى الأرض، وقيل: «أَأَمِنتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ» يعني: الملائكة الموكلين بعذاب العصاة، مع عظم حالهم عند نزولهم بالعذاب، وقيل: (في) بمعنى (على)، كما يقال: فلان على العراق أي: مالكها وواليها، كأنه قيل: أمنتم من على السماء، أي: ملكها وخلقها، وأنعم عليكم بذلك «أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ» الخسف: ابتلاع الأرض لهم حتى يغيبوا فيها بمعنى: أأمنتم أن يغيبكم في الأرض إن عصيتموه «فَإِذَا هِيَ» أي الأرض «تَمُورُ» قيل: تتحرك بأهلها، عن الحسن، وقيل: تردد بهم وهم في قعرها، عن الضحاك، وقيل: تهوي بهم، عن ابن كيسان، وقيل: تجري إلى الموضع[2] الذي حكم الله بالقرار فيه «أَمْ أَمِنتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا» قيل: ريح ذات حَجَرٍ، وقيل: مطر فيه حجارة، عن أبي مسلم، وقيل: سحاب فيه حجارة، عن أبي علي، وترسل الحاصب الملائكة كما فعل بقوم لوط، وقد علم أن المراد بمن في السماء الملائكة «فَسَتَعْلَمُونَ» حينئذ «كَيْفَ نَذِيرِ» أي: كيف إنذاري بالعذاب، والإنذار: التخويف.

(١) طرقها: طرقه، غ.
(٢) إلى الموضع: المواضع، غ.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ على وجوب الإخلاص؛ لأن الخشية في الخلوة تدل على الإخلاص، فهذه الخشية أدتهم إلى أداء الواجبات واجتناب المعاصي؛ لذلك قال: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

ويدل قوله: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ على التحذير من حيث يعلم الضمائر.

ومتى قيل: هلا دل على أن أفعال القلوب خَلْقُهُ؟

قلنا: (مَنْ) كناية عن العقلاء، ولأن هذا وعيد، ولو كان خلقًا له لما أوعد عليه، ولأنا بَيَّنَّا ما قيل فيه، ولو كان (مَنْ خَلَقَ) يرجع إلى الله تعالى فليس فيه بيان ما خلق، والخلاف فيه، فلا تعلق لهم بالظاهر، عن أبي علي.

ويدل قوله: ﴿فَٱمۡشُواْ﴾ أن في المشي ما هو واجب إن حمل على الأمر، كالمشي إلى الحج والجهاد والجمعات وزيارة واجبة، وفيها ما هو ندب كزيارة المشاهد والأقارب، وإن حمله على الإباحة دخل فيه التجارات وسائر المباحات، قال أبو علي: يجوز أن يكون ندبًا ويجوز أن يكون إباحة، قال القاضي: لا مانع من حمله عليهما.

ويدل قوله: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ أن الرزق حلال، والحرام لا يكون رزقًا؛ لأنه ممنوع من أكله.

وتدل على أن فيه ما هو واجب كالمضطر، أو ندب كإجابة الإخوان، وكالسحور ليتقوى به على الصوم، وفيه ما هو مباح، وهل يحمل على أحدهما أو عليهما؟ على الخلاف الذي ذكرنا في المشي، ولا تعلق للمشبهة بقوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ لأنه ليس في الظاهر أنه تعالى في السماء، وقد بَيَّنَّا ما قيل فيه، والله تعالى ليس بجسم، ولا متحيز فلا يجوز عليه المكان.

وتدل الآيات أن الخشية والقول والمشي فعل العبد، وليس بخلق الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا
يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ
ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ
وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

القراءة

أثبت بعض القراء الياء في «نذير» و«نكير» وأخواتها على الأصل، وحذفها بعضهم بالتخفيف ودلالة الكسر عليه، واتباع المصحف ولرؤوس الآي لتكون موافقة لما تقدم.

اللغة

الإنكار: خلاف الاعتراف، يقال: نَكِرْتُ الشيء وأنكرته، والنُّكْرُ: الدهاء؛ لأنه يُنْكَرُ، والمنكر: ما ينكره العقل والشرع.

واللَّجاج: تقحم الأمر، لَجِجْتُ في الأمر أَلَجُّ لَجَاجًا، ويقال لِلْعَيِّ: لَجْلاَج؛ لتردده في كلامه، ومنه: (الحق أبلج، والباطل لجلج)؛ أي: يتردد فيه صاحبه، فلا يجد مخرجًا، ومنه حديث عمر (كتب إلى أبي موسى: الفهمَ الفهمَ فيما تَلَجْلَجَ في صدرك) أي: تردد، قال المبرد: وأصله المضغة يرددها الرجل في فمه إلى أن يسيغها أو يقذفها.

والعُتُوّ: الطغيان، وهو الخروج إلى فاحش الفساد، عتا يعتو عتوًا فهو عاتٍ، والجمع: عتاة.

والنفور: الخروج من الشيء هربًا من ضرره، ونقيضه: القبول.

والإكباب: الإلقاء على الوجه، أَكَبَّ يُكِبُّ إِكْبَابًا فهو مُكِبٌّ فيما لا يتعدى، فإذا تعدى قلت: كَبَبْتُ فلانًا على وجهه، وكبه الله لوجهه، ومكب[1] فعل غريب؛ لأن أكثر الفعل في التعدي واللزوم أن يكون على وزن أَفْعَلْتُهُ فَفَعَلَ، وهذا على ضده، يقال: كببته على وجهه فأكب، ونظيره: قشعت الريح السحاب فانقشعت.

المعنى

لما تقدم الوعد والوعيد عقبه بذكر ما نزل بالأمم الخالية، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**» يعني كذبوا رسلي «**فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**» أي: كيف رأيتم إنكاري بما أنزلت عليهم من العذاب.

ثم دل على كمال اقتداره، فقال سبحانه وتعالى: «**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ**» بأجنحتها وهي تطير «**وَيَقْبِضْنَ**» أجنحتها بعد انبساطها «**مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ**» أي: ما يحبسهن في الهواء في حالتي القبض والبسط إلا الرحمن سبحانه «**إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ**» أي: عالم، قال مجاهد وقتادة: الطير في الهواء تصف أجنحتها تارة، وتقبض تارة، وإنما دل بوقوف الطير في الهواء على هاتين الحالتين لوجوه:

منها: أنه أعطى الطير جناحين.

ومنها: أنه جعل ذلك على صفة إذا بسطها في الهواء تقف، ولا تقع مع ثقل الطير.

ومنها: أنه إذا قبض جناحها وحركها لا تسقط.

ومنها: أنه خلق الهواء وجعله على صفة يصح فيها الطيران، ومثل هذا يحتاج إلى شيئين: قادر على الأجسام والأعراض، وعالم بتفاصيل الأجزاء التي معها يصح الطيران؛ واعتمادات توجد في الهواء تمنع الطير من السقوط، وكل ذلك لا يصح إلا منه تعالى؛ لذلك قال: «**إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ**».

---

(١) وأكبَّ: ومكب؛ غ.

«**أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَكُمْ**» هذا معطوف على قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ من جند الله أن ينزل عليكم عذابًا أم لكم جند «**يَنصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ**» قيل: منعة، عن ابن عباس. فيمنع عنكم من عذاب الله، فلما لم يكن لهم ذلك كان هذا إنكارًا، أي: ليس لهم ما يمنع العذاب عنهم «**إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ**» أي: ليسوا إلا في غرور؛ لأنه لا منعة لهم، ومع ذلك يعصون الله «**غرور**» قيل: في باطل، وقيل: غرهم ما لا أصل له، توهمًا أن الأصنام تعصمهم «**أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ [إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ]**» أي: لو أمسك الله الذي هو رازقكم أسباب الرزق نحو المطر والنبات، والجواب محذوف، أي: ما وجدوا رازقًا سواه، ولا في أصنامهم من يكفيهم ذلك، فكان يجب أن يعبدوه، ولا يعبدوا من لا يغني عنهم شيئًا «**بَلْ لَجُّوا**» أي تمادوا واستمروا في اللجاج «**فِي عُتُوٍّ**» أي: تعدٍّ عن الحد «**وَنُفُورٍ**» عن الحق، وحقيقة النفرة: الإعراض عن قِلَى «**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا**» قيل: ضرب مثلاً للمؤمن والكافر، عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقيل: هو على الحقيقة، فإن الكافر يحشر يوم القيامة يمشي على وجهه، عن قتادة، ومعناه: «**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ**» قيل: ساقطًا على وجهه، فلا يرى الطريق، ولا يقدر على المشي، وقيل: أفمن يمشي راكبًا رأسه في الضلالة كالأعمى، لا يبصر حَقًّا من باطل هو «**أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**» طريق واضح قيم، وهذا تقدير أن من يمشي سويًّا يعلم الطريق هو أهدى ممن لاَ علم له «**قُلْ**» يا محمد لهم «**هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ**» أي: أوجدكم عن عدم «**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ**» وإنما خص هذه الأعضاء؛ لأنها طرق العلم، ومحله القلب، أي: أعطاكم آلات العلم فلم تتفكروا «**قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ**» قيل: قليلاً شكرهم على هذه النعم، وقيل: قليل من يشكره منهم «**قُلْ**» يا محمد «**هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ**» أي: خلقكم صغارًا، ثم نقلكم إلى حال التكليف «**فِي الأَرْضِ**» يحتمل من الأرض؛ لأن آدم خلق من الأرض، ويحتمل أنه أنشأكم في الأرض «**وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**» إلى حكمه وجزائه تجمعون، وقيل: ذرأكم في الأرض أراد الخلق للبعث يوم القيامة، ماض أراد[1] به المستقبل، وذلك يقع في الأرض.

(١) أراده: أرا، غ.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: دلالة طيران الطير على كونه قادرًا عالمًا على ما قررنا.

ومنها: نعمه علينا بذلك دينًا للاعتبار وللاستدلال، ودنيا للمنافع التي لنا بالطيور.

ومنها: أن كل من تمسك بغير الله فهو غرور.

ومنها: أن الرازق هو، لا يقدر غيره على الرزق.

ومنها: أنه خلق الحواس فتدل على اقتداره وعلمه بتفاصيلها، ونعمه بها علينا، وكل ذلك يدل على صفاته، تعالى إما بنفسه أو بواسطة.

قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾
فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ
أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا
بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم
بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

۞ القراءة

قرأ يعقوب: «**هذا الذي كنتم به تَدْعُون**» ساكنة الدال[1]، عن الضحاك، وقتادة، وسعيد بن جبير، ويحيى بن يعمر، والقراء كلهم بفتح الدال مشددة قيل: هما بمعنى إلا أن المخفف من الدعاء والمشدد من الادعاء.

قرأ الكسائي: «**فسيعلمون**» بالياء وهو رواية عن علي (عليه السلام)، الباقون بالتاء[2]، القراء على فتح الياء من «**أَهْلَكَني**» غير حمزة، فإنه أرسله، وقوله: «ومن

---

(١) القرطبي ٨ / ١٩٣.

(٢) حجة القراءات ٧١٦.

معي» أرسل الياء حمزة والكسائي ويعقوب في بعض الروايات عن عاصم، الباقون بفتحها[1].

❁ اللغة

الزلفة: القربة، وهو مصدر يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ومنه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ [الشعراء: ٩٠] أي: قربت، ويقال للمراقي: المزالف؛ لأن الراقي عليها يزلفه، أي يقربه مما يرتقي إليه، وازدلف إليه ازدلافًا، أي: تقرب، وسميت المزدلفة لقربها من مكة، وجمع زلفة: زُلَفٌ، قال العجاج:

نَـاجٍ طَـوَاهُ الْأَيْـنُ مِـمَّـا وَجَـفَـا ... طَـيَّ الـلَّـيَـالِـي زُلَـفًـا فَـزُلَـفَـا[2]

ساءه الأمر يسوؤه سوءًا، ومنه: السوء، ومنه: أساء يسيء إساءة فهو مسيء: إذا فعل ما يؤدي الغم.

الدعاء: مصدر دعا يدعو: إذا طلب منه أمرا، والدَّعوة بفتح الدال المرة الواحدة، وهو الدعوة إلى الطعام، والدِّعوة بكسر الدال في النسب، وحكي عن بعض العرب في النسب بالنصب، وفي الطعام بالكسر، والأول أشهر وأكثر[3]، والادعاء: أن تدعي حقًّا لك أو لغيرك، ويَدَّعُون: «يَفْتعلون» من الدعاء، قال الفراء: والمخفف والمشدد سواء، نحو: يَذْكرون ويذّكرون، وسواء قولك «فعلت وافتعلت»، وهو دعوت وادعيت، نحو: جَنَيْتُ واجتنيت، وعرفت واعترفت.

والغَوْرُ: الذهاب في الأرض حتى يخفى فيها، وهو مصدر غار يغور غورًا لا يثنى ولا يجمع، يقال: ماء غور، وماءان غور، ومياه غَوْرٌ، ونظيره: خَصْمٌ وعَدْلٌ، وغارت الشمس: إذا غابت، وكل شيء دخلت فيه وغبت فهو مغار، ومنه: ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ﴾ [التوبة: ٥٧].

والمعين: قيل: مأخوذ من العين كأنه ظاهر تراه العيون، فهو على هذا «مفعول»

---

(١) زاد الميسر ٨ / ٣٣٤.

(٢) وبعده: (سماوة الهلال حتى احقوقفا) قوله: ناج أي الجمل الذي ينجو بصاحبه من خطر البرية، والأين: الإعياء والتعب أي: هزل السير الجمل كما يهزل الليالي الهلال، وزلفا فزلفا: أي درجة بعد درجة ومنزلة بعد منزلة. تاج العروس (زلف)، واللسان (زلف) وجمهرة اللغة (خفق).

(٣) وأكثر: والأكثر، غ.

من العين «كمبيع» من البيع، وقيل: مأخوذ من الإمعان في الجري، فوزنه «فَعِيلٌ» كأنه قيل: معن في الجري والظهور.

۞ الإعراب

«زُلْفَةً» نصب على المصدر، وقيل: على الحال.

و«حور» رفع لأنه اسم ما لم يسم فاعله.

۞ النزول

قيل: كان المشركون يتمنون موت النبي ﷺ وأصحابه، فنزل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ بالإماتة فما الذي ينفعكم ذلك من العذاب.

۞ المعنى

لما تقدم الوعيد بالحشر عقبه بذكر ما اعترضوا وما أجيبوا، فقال سبحانه: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ» يعني بالبعث والجزاء «إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ» في أن ذلك كائن، قيل: قالوه إنكارًا واستهزاء، وقيل: تنفيرًا للعامة يوهمونهم أنه كذب وباطل «قُلْ» يا محمد «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ» يعني علم الساعة متى تكون يختص به القديم سبحانه «وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ» لكم مُخَوِّف لكم به «مُبِينٌ» أي: مبين لكم ما أنزل من الأحكام، والوعد والوعيد «فَلَمَّا رَأَوْهُ» قيل: هذا إخبار عمن تقدم من الكفار حين رأوا نزول العذاب بهم، وقيل: كناية عمن كذب نبينا ﷺ، قالها كناية عن العذاب الذي نزل بالأمة، عن أبي مسلم، فإذا بعثوا، ورأوا القيامة قد قامت، ورأوا ما أعد لهم من العذاب، واللفظ على الماضي، والمراد به المستقبل، وهذا قول أكثر المفسرين، وقول أبي علي، وقيل: رأوا العذاب يوم بدر، عن مجاهد. «زُلْفَةً» قريبًا، عن مجاهد، وقيل: معاينة، عن الحسن. «سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» أي: يظهر على وجوهم آثار الغم والحسرة، وقيل: نالهم الشؤم والخزي، عن أبي مسلم. وقيل: سودت وجوههم. وقيل: ساءهم رؤية القيامة، ولم تسرهم؛ لِمَا قَدَّموا من المعاصي، و«قيل» لهؤلاء الكفار، واختلفوا في القائل: قيل: قاله الملائكة توبيخًا، وقيل: قاله

بعضهم لبعض تندمًا وتحسرًا، ويحتمل أنه تعالى يقول ذلك لهم زيادة في عقابهم «**هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ**» تطلبونه وتسألونه، قيل: تَدْعُون الله أن يعجله لكم، عن ابن زيد. وهو قوله: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقيل: تدعون أن لا جنة ولا نار، عن الحسن. وقيل: هذا الذي تدعون لقولكم متى هذا الوعد، وقيل: «تدّعون» بالتشديد: تدفعون «**قُلْ**» لهؤلاء الكفار «**أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِي أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**» قيل: إن أماتنا أو أبقانا وأخَّر في آجالنا فمن يجيركم من العذاب فإنه واقع بكم لا محالة، عن ابن جرير، وقيل: أرأيتم إن عذبني الله ومن معي أو رحمنا فغفر لنا، فمن يجيركم؟! يعني: نحن مع إيماننا خائفون؛ لأنه قادر على ما يشاء فما يمنعكم عذابه إذا نزل بكم؟! عن ابن عباس، وابن كيسان، وقيل: أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا بتأخير آجالنا ما الذي ينفعكم من ذلك من دفع العقاب الذي استحققتموه من الله؟! فلا تَعَلَّلُوا بما لا يغني عنكم شيئًا، عن أبي علي، وأبي مسلم، وتلخيصه: لا مجير للكافر، سواء أهلكنا أو رحمنا، وإنما النجاة بالإيمان «**قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**» يعني نحن آمنا، وأنتم لا تنظرون إلى قولنا، فستعلمون إذا جمعتنا[1] القيامة مَن الضال ومن المهتدي، وقيل: ربنا الرحمن آمنا به فستعلمون عن قريب من الضال، ومعنى «مبين» ظاهر «**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا**» أي: غائرًا ذاهبًا في الأرض، أكثر المفسرين على أن المراد به العموم، وأنه يريهم رحمته وقدرته، ويقول: إن غار ماؤكم فمن يأتيكم به؟ وذكر الكلبي ومقاتل أنه أراد بئر زمزم، وبئر ميمون بئر عادية قديمة، والصحيح هو الأول «**فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ**» قيل: ظاهر للعيون، عن أبي علي، وأبي مسلم، وقيل: ماء جارٍ، عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وقيل: عَذْب وهي لغة قريش، عن المؤرج، وأراد أنه المنعم بالأرزاق فاشكروه واعبدوه.

---

(١) جمعتنا: جمعنا، غ.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: أن علم الساعة يختص به القديم، وفيه لطف للمكلفين.

ومنها: أنه لا مجير للكافر يوم القيامة.

ومنها: أنه المنعم بضروب النعم كالمياه وإجرائها التي هي سبب النعم منبّهاً[(١)] بذلك على بطلان عبادة الأصنام.

ومنها: الحِجَاجُ في أمر الدين، وأكثر الحجاج في حديث عباد الأصنام في السور المكية؛ لأنه كان يدعو إلى التوحيد والعدل، وهو أهم الأمور، وهم كانوا مشركين، فلما هاجر إلى المدينة وأسلم الناس، شرَّع الشرائع، وقررَّ الأمور.

(١) منبها: ومنبها، غ.

سُورَةُ القَلَمِ

سورة (ن) مكية وتسمى سورة (القلم)، وهي اثنتان وخمسون آية.

وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (ن والقلم) أعطاه الله تعالى ثواب الذين حسن الله أخلاقهم».

ولما ختم سورة (الملك) بذكر تكذيب الكفار ووعيدهم، افتتح هذه السورة بمثل ذلك.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وحمزة: «نون» بإظهار النون عند الواو[1]، وقرأ ابن عامر والكسائي بإخفاء النون، واختلف في ذلك عن نافع وابن كثير وعاصم

(١) حجة القراءات ٧١٧.

ويعقوب، وروي عنهم الإخفاء والإظهار، والقراءة الظاهرة بالجزم؛ لأنها من حروف الهجاء، وهي مجزومة أبدًا، وعن ابن عباس بالكسر على إضمار حرف القسم، وقرأ عيسى بن عمر بالفتح على إضمار فعل، أي: اقرأ نون وهو قسم، وجواب القسم: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾.

اللغة

السطر: الكتابة، سَطَرَ يَسْطُرُ سطرًا: إذا كَتَبَ، وجمع السطر: سطور وأَسْطُرٌ.

والجنون: زوال العقل، وأصله الستر.

والممنون: المقطوع، والمن: القطع.

والمفتون: المبتلى، يقال: فتن فلان بفلان، وأصل الفتنة الابتلاء والاختبار.

والإِدْهان: من المداهنة، وهو الجريان في ظاهر الحال على المقاربة، مع إضمار العداوة، وأصله من الدهن، شبه التليين في القول بالتليين في الدهن، والمداهنة كالمصانعة يقال: داهنت: إذا واريت[1]، وأدهنت: غَشَشْتُ.

والمهين: الضعيف القليل، والمهانة: الذلة والقلة.

الإعراب

«**فيدهنون**» رفع بالعطف، وليس بجواب النهي؛ إذ لو كان جوابًا لقال: فيدهنوا، وتقديره: ودوا لو تدهن، ودوا لو يدهنون.

«**بأيكم**» الباء زائدة، تقديره: أيكم المفتون، قال الراجز:

نَحْنُ بَنُو جَعْدَةَ أَصْحَابُ الفَلَجْ
نَضْرِبُ بالسَّيْفِ وَنَرْجُو بِالْفَرَجْ[2]

أي: الفرج.

(١) واريت: وريت؛ غ؛ والتصويب من: لسان العرب ١٣/ ١٦٠.

(٢) البيت لعطارد الجعدي ا نظر: اللسان (با)، الصحاح (با).

النزول

قيل: نزل قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ﴾ الآية في مشركي قريش حين دعوا إلى دين الآباء، عن جماعة.

وقيل: نزل قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ في الوليد بن المغيرة. وقيل: في الأسود بن عبد يغوث. وقيل: في الأخنس بن شريق.

المعنى

﴿نٓ﴾ قيل: هو الحوت الذي عليه الأرضون، عن ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل، وعطاء، والسدي، والكلبي، والواقدي، وقيل: هو حرف من حروف الرحمن، عن ابن عباس بخلاف، وقيل: النون: الدواةُ، عن الحسن، وقتادة، والضحاك، وابن عباس بخلاف، وهو قول الأصم. وقيل: (ن) لوح من نور، عن معاوية بن قرة رفعه إلى النبي ﷺ، وقيل: هو قسم أقسم الله به، عن ابن زيد، وقيل: فاتحة السورة، عن ابن كيسان، وقيل: افتتاح أسمائه: ناصر ونصير ونور، عن عطاء، وقيل: نهر في الجنة، عن الصادق، وقيل: اسم للسورة، عن أبي علي، وقيل: إشارة إلى أن القرآن مركب من هذه الحروف، ويتعذر عليكم مثلها لتعلموا أنه معجز، عن أبي مسلم، وقيل: إشارة إلى أنه مركب منها ليعلم أنه محدث، عن أبي بكر الزبيري، وقيل: قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] فافتتح السورة بهذه الحروف ليستمعوا، فيأتي ما بعده إلزامًا وتأكيدًا للحجة، عن أبي علي قطرب، وقيل: المراد به الحوت في البحر، وهو من آيات الله تعالى؛ إذ خلقه في الماء، فإذا فارق الماء مات؛ كما أن حيوان البر إذا خالط الماء مات، ليعلم اقتداره سبحانه. «وَالْقَلَم» الواو واو القسم، قيل: أقسم بالقلم تنبيهًا على عظم شأنه؛ لأنه أحد لسانَي الإنسان، يؤدي عنه ما في ضميره، ويبلغ البعيد ما يبلغه القريب بلسانه، وبه يحفظ الكتب، وبه يستقيم أمر الدين والدنيا، وقيل: البيان اثنان: بيان اللسان، وبيان البَنَان، ثم بيان البنان يبقى على مرور الأيام، وبيان اللسان يندرس على مرور الأعوام، وقيل: أول ما خلق الله تعالى القلم يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة، وقيل: هو قلم من نور، طوله ما بين السماء

والأرض، وقيل: أراد بالقلم الخط والكتابة التي مر على عباده حيث علمهم بقوله: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤] وقيل: القسم برب نون، ورب القلم. «وَمَا يَسْطُرُونَ» أي: ما يكتبون، قيل: ما يكتب في اللوح المحفوظ، وقيل: ما تسطره الحفظة من أعمال العباد، عن أبي علي، وقيل: ما يكتبه جميع الكتبة بنو آدم وغيرهم، عن أبي مسلم. «مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ» هذا جواب القسم، يعني لما أنعم عليك من كمال العقل لست بمجنون، وقيل: بالنبوة والحكمة؛ يعني: لا يكون مجنونًا مَنْ أنعمنا عليه بالنبوة والحكمة، وقيل: بعصمة ربك، وقيل: هذا كما يقال: ما أنت بمجنون، والحمد لله، وقيل: ما أنت بمجنون، والنعمة لربك، كقولهم: سبحانك اللهم، وبحمدك، أي: والحمد لك، وهذا تقرير لنفي الجنون عنه، وقيل: إن المشركين لما أعيتهم الحيلة نسبوه إلى الجنون، فنفى الله تعالى ذلك عنه.

ومتى قيل: كيف نسبوه إلى الجنون مع علمهم بكمال عقله؟

قلنا: إيهامًا للعوام، وقيل: تركًا للنظر في حاله، وقيل: شبهوه بالمجنون من حيث يزعم أنه تأتيه الملائكة من السماء، ويأتيه الوحي، فلما حدثهم ما كان يبعد عن أوهامهم قالوا: هذا مجنون كما جرت العادة بين الناس أن يقال للمتكلم بمثل هذا: إنه مجنون.

«وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ» أي: جَزَاءً غَيْرَ مقطوع، وهذا ثواب الجنة، يعني لا تُبالِ بكلامهم مع ما لك عند الله من الثواب الدائم، وقيل: غير ممنون، أي: لا نمن به عليك، عن أبي مسلم، وقيل: غير مكدر بالمن الذي يقطع عن لزوم الشكر من قولهم: المنة تكدر الصنيعة. «وَإِنَّكَ» يا محمد «لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» قيل: على دين عظيم، وهو دين الإسلام، عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، والأصم، قيل: كان خلقه أدب[1] القرآن، عن الحسن، وقيل: يأتمر بأمر الله وينتهي عما نهى الله عنه، عن قتادة، وقيل: الخلق العظيم: الصبر على الحق، وسعة البذل، وتدبير الأمور على مقتضى العقل بالصلاح والرفق والمداراة، وتحمل المكاره في الدعاء إلى الله تعالى،

(١) أدب: وأب، غ وما أثبتناه من: الطبري١٢/ ١٧٩، والقرطبي١٨/١٩٨، والدر المنثور ٨/ ٢٤٣، وزاد المسير ٨/ ٣٢٨.

والتجاوز والعفو، وبذل الجهد في نصرة المؤمنين، ودفع الأذى عنهم، وترك الحسد والحرص والتباغض ونحوه، عن أبي علي، وسئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1] **[الأعراف: ١٩٩]**، وقيل: عاشرهم بخلقه، وزايلهم بقلبه، فكان ظاهره مع الخلق وباطنه مع الحق. «**فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ**» أي: ترى يا محمد ويرون هم أيضًا، وهذا وعيد والمراد من رماه بالجنون «**بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ**» قيل: أيكم المجنون، عن الضحاك. يعني من المجنون، فهو مصدر على وزن «المفعول»، يقال: ليس له معقول، أي: عقل، والميسور والمعسور يراد به العسر واليسر، وقيل: الباء بمعنى (في)، تقديره: في أي الفريقين المجنون، وقيل: أيكم أولى بالشيطان، والمفتونُ الشيطانُ، يعني أيكم فتنه الشيطانُ، عن مجاهد، وقتادة، وقيل: الباء زائدة، ومعناه: أيكم المفتون، كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وقيل: تعرفون المفتون في دينه، وقيل: المفتون من تبع هواه، وآثر دنياه، وباع دينه بأولاه، وترك رضا الحق ليستقيم أمره بين الخلق، وقيل: كان الكفار يرمون النبي ﷺ بأنه يقبل من الشيطان، وأنه فتنه، فافتتن به، فهو مفتون، وكان النبي ﷺ والمسلمون يرمون الكفار بأن الشيطان فتنهم، فَبَيَّنَ تعالى أنهم سيعلمون مَنْ فَتَنَهُ الشيطان «**إِنَّ رَبَّكَ**» يا محمد «**هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ**» أي: دينه «**وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**[2]» فيجازي كلًّا بما يستحقه «**فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ**» يعني: الكفار إذ طلبوا منك الرجوع إلى دين الآباء، أو المداهنة في الدين، أو تركهم وما هم عليه ليتركوك وما أنت عليه، فلا تطعهم في شيء من ذلك «**وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ**» قيل: ودوا لو تكفر[3] فيكفرون، عن ابن عباس، والضحاك، وعطاء، وقيل: ودوا لو تلين في دينك فيلينون في دينهم، أي: تميل إلى عبادة الأصنام فيمالونك، عن ابن عباس بخلاف، وقيل: ودوا أن تصانعهم في دينك فيصانعوك، عن الحسن، وقيل: أن تنافق فينافقون، عن زيد بن أسلم، وقيل: ودوا لو ترفض أمرك فيرفضون بعض أمورهم، عن الحسن، وقيل: لو تقاربهم فيقاربونك، عن ابن كيسان. «**وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ**»

---

(١) مسند أحمد حديث رقم ٢٤٢٨، والمعجم الأوسط رقم٧٢، وشعب الإيمان ١٤٢٨.

(٢) بالمهتدين: بالمتقين، غ.

(٣) تكفر: تكفروا؛ غ.

كثير الحلف بالباطل لقلة مبالاته بالكذب «مَهِينٍ» قيل: المهين المكثار من الشر، عن الحسن، وقتادة، وقيل: الحقير الضعيف، وقيل: الكذاب، عن ابن عباس، وقيل: الضعيف في الخيرات، وقيل: يستحقرونه لكثرة كذبه، وقيل: من كَثُرَ حلفه كذبًا، وعرف بذلك فهو مهين، فالجمع يرجع إلى معنى واحد، وهو الحقير.

الأحكام

الآيات تدل على أشياء:

منها: القسم بهذه الأشياء، فتدل على عظم حالها، قال القاضي: والأولى أن يحمل (نون) على أنه اسم السورة، فعلى هذا القسم بالسورة، وبالقلم الذي تكتب به السورة، وبمن كتبها، والقسم بالله في الحقيقة.

ومنها: نفي ما رموا به رسول الله ﷺ من الجنون.

ومنها: عظم محله في الآخرة.

ومنها: النهي عن طاعة أولئك المكذبين.

وتدل أنهم كانوا رؤساء قادة، ودعوه إلى باطل.

ومنها: أنه لا يجوز اتباع المبطل، وإن كان متبوعًا.

ومنها: قبح المداهنة في الدين، وأنها مفسدة، وأن الواجب التشديد.

ومنها: المنع عن إكثار الحلف، وعن اليمين الفاجرة.

وتدل على أن المداهنة والحلف فعل العبد؛ لذلك ذمهم به.

قوله تعالى:

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾

۞ القراءة

اختلف القراء في «أن كان» فقرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام[1]، وكلهم يطولونه هاهنا وإن اختلفوا في أمثاله، وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بهمزتين على الاستفهام، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي وحفص عن عاصم بهمزة واحدة وفتح الألف على تقدير: و«لا تطع أن كان» من غير استفهام، على الخبر، والأول على تأويل: ألا كان ذا مال وبنين، يقول ـ إذا تتلى عليه آياتنا ـ: إنها أساطير الأولين، وقيل: إلا أن[2] كان ذا مال يطاع في الكفر.

۞ اللغة

الهَمْزُ: الوقيعة في الناس بما ليس فيهم، وأصل الهمز: الدفع بشدة اعتماد، ومنه: الهماز، والهُمَزَةُ: المغتاب الغياب، والهَمْزَةُ: حرف من حروف المعجم، وهي حرف يخرج من الصدر بشدة، ومنه: الهمز: الكسر.

والنميم: التضريب بين الناس بنقل الكلام وهو الوشاية، والنميمة: مصدر «نم ينم نميمة»، ومنه: النمامُ المشمومُ؛ لأنه بِرِيحِهِ كالمخبر عن نفسه.

والمعتدي: المجاوز للحد، ومنه: الاعتداء.

والأثيم: فاعل الإثم، وبناء «فعيل» يجيء بمعنى «فاعل».

والعُتُلّ: الجافي الغليظ ومنه: ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ﴾ [الدخان: ٤٧] وأصله: الدفع، عَتَلَه يَعْتِلُهُ عتلًا: إذا زعزعه بغلظة وجفاء.

والزنيم: الدعي وهو المعلق[3] بالقوم وليس منهم، وأصله: الزَّنَمَةُ؛ وهي المدلية تحت حلق الجدي، ويقال للتيس: [زنيم إذا كان][4] له زنمتان، قال الشاعر:

زَنِيمٌ لَيْسَ يَعْرِفُ مَنْ أَبُوهُ ... بَغِيُّ الأُمِّ ذُو حَسَبٍ لَئِيمُ[5]

---

(١) حجة القراءات ٧١٧.
(٢) إلا أن: الآن؛ غ.
(٣) في التبيان: وهو الملصق بالقوم؛ ١٠/ ٧٧.
(٤) الزيادة من: تفسير غريب القرآن: ١/ ٤١٩. والمحرر الوجيز: ٦/ ٣٩٦.
الزنيم: الدعي في النسب، المستلحق في قوم ليس منهم لا يحتاج إليه، فكأنه فيهم زنمة.
(٥) الطبري ١٢/ ١٨٤، وابن كثير ٤/ ٥١٨، والقرطبي ١٨/ ٢٠٣.

وقال آخر:

وأَنْـتَ زَنِـيْـم نِـيـط فِـي آلِ هَـاشِـمٍ   كَمَا [نِيَط] خَلْفَ الرَّاكِبِ القدحُ الفردُ[1]

والسمة: أصلها العلامة، وسَمَهُ يَسِمُهُ وسمًا فهو موسوم.

والخرطوم: الأنف، وجمعه: خراطيم.

الإعراب

«أساطير» رفع لأنه خبر ابتداء محذوف أي: هو أساطير.

النزول

قيل: نزلت الآيات في الوليد بن المغيرة. وقيل: في أسود بن عبد يغوث.

قال أبو مسلم: نزلت في المنافقين.

المعنى

ثم وصف الله تعالى الحلَّاف المهين، فقال سبحانه: «هَمَّازٍ» قيل: مغتاب، عن ابن عباس، وقيل: هو الذي يلمز ناحية في المجلس، عن الحسن. «مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ» أي: قَتَّاتٌ يسعى بالنميمة يفسد بين الناس «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ» قيل: عن الإسلام، يمنع عشيرته عن الإسلام، ويقول: من دخل دين محمد لا أنفعه بشيء أبدًا، عن ابن عباس، وقيل: بخيل يمنع الحقوق الواجبة «مُعْتَدٍ» مجاوز للحق غشوم ظلوم، عن قتادة. «أَثِيمٍ» أي: فاعل الإثم فاجر «عُتُلٍّ» قيل: فاجر لئيم في خبر مرفوع، عن علي، والحسن، السيئ الخَلْق الفاحش الخُلُق، وقيل: المنافق، عن ابن عباس، والكلبي، وقيل: الأكول الذي همته بطنه لا يتفكر في الحلال والحرام ولا في العواقب، عن

(١) هذا البيت من الطويل، قاله شاعر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت في هجاء أبي سفيان، قوله: نيط أي: علق، والقدح: إناء يشرب فيه يروي الرجلين، وفي الحديث: «لا تجعلوني كقدح الراكب» معناه: لاتجعلوني آخرًا في الذكر والصلاة عليّ؛ لأن الراكب يعلق قدحه في آخر الرحل بعد فراغه من استصحاب الأهبة. انظر: ديوان حسان بن ثابت، دار صادر، بيروت.

أبي علي، وقيل: الأكول الشروب، القوي الشديد، لو وضع في الميزان لا يؤثر شعيرة، يدفع الملك من أولئك سبعين ألفًا دُفْعَةً، عن عبيد بن عمير. «بَعْدَ ذَٰلِكَ» أي: مع ذلك «زَنِيم» قيل: دَعِيٌّ، ملصق، عن ابن عباس، وجماعة، قال مرة الهمداني[(١)]: إنما[(٢)] ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة،[(٣)] وقيل: الزنيم الذي لا أصل له، عن علي، وقيل: له زنمة في عنقه كزنمة الشاة، وكان لا يعرف حتى قتل، فعرف زنمته، عن ابن عباس، وقيل: هو الذي يكون عَلَمًا في الشر يعرف به كما تعرف الشاة بزنمتها، عن الشعبي، وقيل: هو الكافر الهجين المعروف بالشر، عن سعيد بن جبير، وقيل: هو الظلوم، عن ابن عباس بخلاف. «أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ» بَيَّنَّا معناه إذا قرئ على الاستفهام أو على الخبر «إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا» يعني القرآن «قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» قيل: كُتُبُ الأولين وأخبارهم، عن الأصم، وأبي علي، وقيل: واحده أسطورة، عن الزجاج، وقيل: كان الواجب أن يجعل الأموال والأولاد داعية للشكر، فجعلوا جزاءها الكفر، وقالوا: أساطير الأولين.

«سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ» اختلفوا متى يكون ذلك على قولين:

أحدهما: أنه يكون في الدنيا.

وثانيها: أنه يكون في الآخرة.

فأما من قال بالأول اختلفوا، قيل: هو وعيد، أي: ينالهم ما يبقى أثره عليهم ويعرفون بها، كأنه علامة على أنفه ووجهه، مبالغة في الفضيحة، وقيل: يبتليه في الدنيا في ماله ونفسه وأولاده ما يظهر حديثه للناس ويبقى عليه[(٤)] أثره، عن أبي مسلم، وقيل: «سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ» أي: نخطمه بالسيف والقتل حتى يبقى أثره، فعل ذلك يوم بدر، عن ابن عباس، وأضافه إلى نفسه؛ لأنه حصل بأمره

(١) الهمداني: الهذامي. والصواب ما أثبتناه من: تفسير البغوي ١/ ١٩٢، وتفسير القرطبي١٨/ ٢٠٣.

(٢) إنما: في، غ.

(٣) ثماني عشرة: ثمانية عشر، غ.

(٤) عليه: عليهم، غ.

وتأييده، وقيل: بالشَّيْن الباقي أبدًا، عن قتادة، وقيل: سنبين أمره بيانًا لا يخفى على أحد كما لا تخفى السمة على الأنف، عن محمد بن جرير.

فأما من قال بالثاني اختلفوا، فقيل: يَسِمُ الله وجوه الكفار بعلامة يُعْرَفُون بها يوم القيامة، ثم يحشرون إلى النار، عن أبي علي، وقيل: هو اسوداد وجوههم، عن مجاهد، وأبي العالية، وقيل: يجوز أن يخص هؤلاء الذين عادوا رسول الله من بين سائر الكفار بعلامة قبيحة يتميزون بها كعلامة آكل الربا وآكل مال اليتامى ومن يغل في الغنيمة، وقيل: يكويه كيًّا يظهر، عن الضحاك، والكسائي.

۞ الأحكام

تدل الآيات على قبح هذه الأفعال، وكونها من الكبائر، وهي[1] الهمز والنميمة ومنع الحقوق وغير ذلك من الأوصاف المذكورة، فأما الزنيم فالأكثر على أنه الدَّعِيُّ، ولا شبهة أنه وإن كان عيبًا فيه فلا عقوبة له بذلك؛ لأن الذنب لأبويه.

ومتى قيل: أليس روي في الخبر: «لا يدخل الجنة ولد زنا ولا ولد ولده»[2]؟ وروي: «لا تزال أمتي بخير ما لَم يَفْشُ فيهم ولد الزنا»[3]، وروي أنه قال في ولد الزنا: «هو شر الثلاثة»[4]؟

قلنا: هذه أخبار آحاد، لا يعترض بها على ما ثبت بالعقل والقرآن، وقد ثبت أن الأخذ بذنب الغير يقبح، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فهذا نص، وإن ثبت الخبر فهو محمول على ولد بعينه، وكذلك الثالث، فأما الثاني: فإن ولد الزنا يكثر لكثرة الفساد.

ويدل قوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾ أنه لا ينبغي أن ينظر إلى ماله وجاهه، ولكن ينظر إلى دينه.

وتدل أن الهمز والنميمة ومنع الواجب فعله، ليس بخلق الله تعالى.

---

(١) وهي: وهو، غ.

(٢) صحيح ابن حبان رقم ٣٣٨٣، والدارمي رقم ٢٠٩٣، وشعب الإيمان رقم ٧٨٧٣.

(٣) مسند أحمد رقم ٢٦٨٧٣.

(٤) المستدرك رقم ٧٠٥٤، ومسند أحمد رقم ٨٠٨٤.

قوله تعالى:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع والحسن وأبو عمرو: «يُبَدِّلَنَا» بفتح الباء وتشديد الدال، وكذلك في (التحريم) «يُبَدِّلَهُ»[1]، الباقون ساكنة الباء خفيفة الدال، وهما لغتان: بَدَّلَ يُبَدِّلُ تبديلاً، وأَبْدَلَهُ يُبْدِلُهُ إبدالاً، وقيل: بينهما فرق، فالتبديل: تغيير الشيء بتغير حاله وعينه قائم، والإبدال: رفع الشيء، ووضع شيء آخر مكانه.

اللغة

الابتلاء والاختبار والامتحان نظائر، والابتلاء من الله هو التعبد والتكليف، فكلفهم ليظهر من أعمالهم، فيعلم الله تعالى وقوعها كما علم من قبل أنه سيقع، فيقع الخبر على ما وقع منهم، وهو في صفة الله تَوَسُّعٌ أي: يعامله معاملة المختبر.

والصَّرْمُ: أصله: القطع، والصِّرَام والجَذَاذ: قطع ثمر النخل، تقول: صرمت النخل، ومنه سميت القطيعة بين المتواصلين صرمًا، والصارم: القاطع[2]، ويقال للصبح: صَرِيمٌ، والليل: صَرِيمٌ؛ لأن كل واحد يقطع عن صاحبه، ويقال: أصبح:

(١) حجة القراءات ٧١٤.

(٢) القاطع: والقاطع، غ.

دخل في وقت الصباح، وأمسى: دخل في وقت المساء، أصبح القوم، وهم مصبحون.

والاستثناء: إخراج بعضٍ مِنْ كُلٍّ، لولاه لدخل فيه، تقول: رأيت القوم إلا زيدًا، والاستثناء بالمشيئة كقولهم: إلا أن يشاء الله، معناه: إن شاء منعني أو يُمَكِّنِّي، فالأول وُضِعَ لإخراج بعض ما دخل تحت العموم، والثاني لرفع حكم الكلام.

والطائف: الطارق ليلاً، يقال: (طاف عليها): إذا طرقها ليلاً، فإذا قيل: (طاف به) صلح في الليل والنهار، وأصله من الطوف.

والتنادي: أن ينادي كل واحد منهما صاحبه، والنداء: الدعاء بطريقة يا «فلان».

والتخافت: التساتر، خفيت الحديث، وأخفيته، وأسترته بمعنًى، ويقال: خفت فلان نفسه يخفت خفوتًا[1]، وهو خافت: إذا أخفى نَفَسَهُ، والتخافت: يجري بين الاثنين، وأصل الخفوت: السكون، ويقال للميت: خفت؛ أي: سكن.

والحَرْدُ: القصد، وهو أصل الباب، حَرَدَ يَحْرِدُ على وزن «ضرب يضرب»، حَرْدًا فهو حارد، قال الشاعر:

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللـه ... يَحْرُدُ حَرْدَ الجَنَّةِ المُغِلَّةْ[2]

والحَرَدُ: الغضب، وفيه لغتان: حَرَدٌ وحَرْدٌ، كالدَّرَك والدَّرْك، والحرد: المنع، عن أبي عبيدة، والقتيبي، وهو المحاردة أيضًا.

والحرمان: منع الخير الذي كان يُنَالُ لولا سبب الانقطاع، حَرَمَهُ حرمانًا فهو محروم، وخلافه: المرزوق، وأصل الباب: المنع، ومنه: الحرام والحرم والإحرام.

والتلاوم: «تَفَاعُلٌ» من اللوم، ويتلاومون: «يتفاعلون»، وهو لَوْمُ كُلٍّ واحد منهم للآخر، واللوم: التقريع بفعل القبيح.

---

(١) خفوتًا.: خفوفاً، غ.

(٢) في مجمع البيان: (أقبل سيل جاء من عند الله. . .) إلخ، وكذلك في (التبيان)، الجنة أو الضيعة المغلة كما في بعض الروايات، معناها: التي أتت بشيء، وفي رواية لسان العرب: وجاء سيل كان من أمر الله وأصلها باق. العين (حرد)، وتهذيب اللغة (حرد)، ولسان العرب (حرد).

والطغيان: الغلو في الظلم، وأصله: مجاوزة الحد، ومنه: الطاغي، ومنه: ﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١].

والويل: غلظ المكروه الشاق على النفس، وإنما دخل النداء في الويل لبيان عن حال الشدة، كأنه يقول: يا ويلٌ هَلُمَّ، فإنه أوانك.

۞ الإعراب

«**إنا**» فيه نونان، أدغمت[١] إحداهما في الأخرى.

«**بلوناهم**» (هم) محله نصب؛ لأنه مفعول.

«**ليصرمنها**» ضم الميم دليل الجمع.

«**مصبحين**» نصب على الحال. «**صارمين**» خبر (كان)، واسمه في «**كنتم**».

۞ المعنى

ثم ضرب مثلاً بحال مَنْ قَبْلَهُمْ تحذيرًا عن مثله، فقال سبحانه: «**إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ**» أي: تعبدناهم، وأمرناهم بالشكر على نعمنا عليهم، ونهيناهم عن الكفر، فوضع الابتلاء موضع الأمر والنهي، وقيل: عنى به أهل مكة، أي: بلوناهم بالحرب، وروي عن النبي ﷺ [أنه] دعا عليهم فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مُضَرَ، اللهم اجعلها سنينَ كَسِنِي يوسفَ»[٢] فقحطوا، وقيل: جميع الكفار بلوناهم بالتعبد «**كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ**» أي: أصحاب البستان، والجنة: البستان الذي فيه[٣] الشجر، وأصله من السَّتْرِ، قيل: كان باليمن على فرسخين من صنعاء، وكان غَرَسَهُ أهل الصلاة، وكان مالك البستان يصرف حقوق الفقراء إليهم وقت الصرام فمات، فورثه ثلاثة بنين، قالوا: المال قليل، والعيال كثير، فلا نستطيع أن ندفع إلى الفقراء شيئًا، فتواعدوا بينهم يومًا للصرام، يغدون قبل خروج الناس ليصرموا نخلهم، ولم يستثنوا، فلما أتوها رأوها مسودة، عن ابن عباس، وقيل: كانت الجنة لشيخ يطعم منها المساكين، فلما مات قال بنوه: ﴿لَا

---

(١) أدغمت: أدغم؛ غ.

(٢) البخاري رقم ٧٧١، ومسلم رقم ٢٩٤، والنسائي رقم ١٠٧٣.

(٣) الذي فيه: التي فيها؛ غ.

يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٌ﴾ شُحًّا على الثمرة أن يَطْعَمَهَا المحاويجُ، عن قتادة. «إِذْ أَقْسَمُوا» أي: تحالفوا بينهم «لَيَصْرِمُنَّهَا» أي: يقطعون ثمرها «مُصْبِحِينَ» أي: في وقت الصباح، قبل علم الناس، وقيل: منعوا الحقوق الواجبة فيها «وَلاَ يَسْتَثْنُونَ» قيل: قطعوا أنهم يصرمون، ولم يقولوا: إن شاء الله، وقيل: لم يستثنوا نصيب الفقراء من جملة أنصبائهم «فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ» أي: طرق عليها أمر، وعذاب من الله ليلاً، والقوم نيام، قيل: أصابها نار وقعت من السماء فاحترقت وهم نيام، فاسودت أشجارُهَا «فَأَصْبَحَتْ» الجنة «كَالصَّرِيمِ» أي: كالليل الأسود، عن ابن عباس، وأبي عمرو بن العلاء، وقيل: الصريم المصروم جميع ثماره، وهو المقطوع، أي: صار كأن جميع ثمارها قطعت، عن أبي علي، وقيل: صرم عنها الخير فليس فيها شيء، عن الحسن، وقيل: كالرملة انصرمت من [معظم][1] الرمل، عن المؤرج، وقيل: كالرماد الأسود «فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ» أي: نادى بعضهم بعضًا وقت الصباح يحث على الخروج «أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ» أي: قاطعين حرثكم، والحرث اسم للزرع، والجنة اسم للشجر، فكانت الجنة مشتملة عليهما جميعًا، وقوله: «إن كنتم» ليس بشرط، وإنما هو حث واستعجال كما يقال: إن أردت خلاص أبيك فأدركه، «فَانطَلَقُوا» فمضوا إليها «وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ» يتسارون، يكلم بعضهم بعضًا خفية كي لا يسمع المساكين فيخرجون معهم «أَن لاَ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِسْكِينٌ» فقير، وهذا هو الذي كانوا يتخافتون به «وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ» قيل: على جد وجهد من أمرهم، عن أبي العالية، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، وقيل: على جهد من الفاقة، عن الحسن، وقيل: على حَنَقٍ، عن سفيان، أي: غضب، وقيل: على جد في المنع، عن أبي عبيدة، والقتيبي، من قولهم: حَارَدَتْ السنة: إذا منعت قطرها، وحَارَدَتْ الإبل: منعت ألبانها، وقيل: على أمر مجمع بينهم، عن مجاهد، وعكرمة، والقرظي، والنخعي، وقيل: على قوة وقدرة «قَادِرِينَ» عند أنفسهم، عن ابن عباس، وقيل: على قصد، أي: خرجوا قاصدين مجدين فيما عزموا عليه، يقال: حَرَدَ حَرْدَهُ، أي: قصد قصده، وقيل: الحرد: اسم الجنة، عن السدي، وليس بالوجه. «قَادِرِينَ» قيل: قادرين عند أنفسهم على منعهم، وقيل: قادرين على

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من: تفسير القرطبي: ١٨/ ٢١١. وتفسير البحر المحيط: ١٠/ ٣١٨. وتفسير اللباب لابن عادل: ١٥/ ٤١٣. وروح المعاني: ٢٩/ ٣٠.

موافاتهم الجنة في الوقت الذي قدروه، وهو وقت الصبح، تقديره: قصدوا الجنة للوقت الذي قدروه لصرامها، عن أبي مسلم. «**فَلَمَّا رَأَوْهَا**» أي: رأوا الجنة على تلك الصفة «**قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ**» قيل: أضللنا الطريق فليس هذا بستاننا، عن قتادة، وقيل: الضالون عن الحق في أمرنا؛ فلذلك عوقبنا بذهاب ثمرتها، وقيل: ضللنا في منع حق الفقراء، فقال بعضهم: «**بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ**» يعني هذه جنتنا، ولكن حرمنا نفعها وخيرها لمنع المساكين حقهم، وتركنا الاستثناء «**قَالَ أَوْسَطُهُمْ**» قيل: أعدلهم مقالة، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وقيل: أفضلهم وأعقلهم، والأوسط: الأقرب إلى الأصلح، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقيل: أوسطهم في السن «**أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ**» كأنه حذرهم سوء فعلهم، فقيل: «**لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ**» أي: لولا تستثنون، عن مجاهد؛ لأن في الاستثناء التوكل على الله والبراءة من الحول والقوة، وقيل: كان استثناؤهم سبحان الله، عن أبي صالح، وقيل: هلا تسبحون الله، وتذكرونه، وتشكرونه على ما أعطاكم، وقيل: هلا تستغفرونه عن فعلكم، وقيل: معناه: هلا ذكروا الله، وسبحوه، فكأنه أنكر عليهم تركهم رد الأمر إلى الله وإلى مشيئته، وتواصيهم منع المساكين حقوقهم فلم يقبلوا، عن أبي مسلم، وقيل: هلا نزهتم الله عن الظلم، فإنه لا يظلم، ولا يرضى منكم بالظلم، وقيل: قوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ تقريع، وقوله: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ[1]﴾ ابتداء حث على التسبيح لله والرجوع إليه، فعند ذلك «**قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**» في عزمنا حرمان المساكين حقوقهم، يعني هو منزه عن الظلم فما فعل بنا لم يكن ظلمًا، وإنما الظلم منا حيث منعنا الحق «**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ**» أي: يلوم بعضهم بعضًا على ما فرط منهم «**قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ**» لما امْتُحِنُوا انتبهوا على سوء فعالهم، وكذا الغافل لا ينتبه إلا إذا ناله المصيبة «**إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ**» أي: مجاوزين للحد في منع الفقراء حقهم وترك الاستثناء، وقيل: طاغين، أي: لم نشكر نعم الله، ولم نصنع ما صنع آباؤنا «**عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ**» يعني إذا تبنا نرغب إلى الله حتى يبدلنا خيرًا منها، وقيل: لما أخلصوا أبدلهم الله بها جنة، يقال لها: الحيوان، فيها عنب يحمل البغل منها عنقودًا، عن ابن مسعود.

---

(١) لولا تسبحون: لولا تسبحون الله، غ.

۞ الأحكام

يدل قوله: «أقسموا» على أشياء:

منها: ذمهم على منع الحق، وذمهم على القسم عليه، وذمهم على ترك الاستثناء، فدل على وجوب الاستثناء إذا أخبر عن المستقبل؛ لأنه لا يأمن كونه كذبًا.

ومنها: أن العزم على القبيح قبيح؛ لأنهم عوقبوا على عزمهم من غير منع وظلم بالمنع، وإذا استحقوا العقوبة بهذا فكيف من يأخذ أموال الناس ظلمًا، ويمنع حقوقهم تعديًا.

ومتى قيل: فمنع هذه الثمرة كان عقوبة وامتحانًا؟

قلنا: يجوز الوجهان[(١)]: أن يكون عقوبة، وأن يكون لطفًا؛ لذلك[(٢)] تابوا.

ومنها: تدل أن للفقراء حقًّا في ذلك؛ لأن العقوبة لا تستحق إلا بترك الواجب، واختلفوا في ذلك الحق، فقيل: كان حقهم العشر، وقيل: بل ما كان يتساقط من الشجرة عند الصرام والحصاد.

ومنها: يدل قوله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أنه كان مؤمنًا يأمر بالمعروف.

ومنها: دلالة قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أن الظلم فعل العبد.

ومنها: دلالة قوله: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أنهم تابوا.

وتدل أن العبد عند المعصية ينبغي أن يرجع إلى الله تعالى، وقد روي عن الحسن أنه قيل له: ألا[(٣)] تخرج على الحجاج؟ فقال: هو عقوبة من الله فلا تقاتلوه بالسيف، ولكن عليكم بالتوبة والدعاء، بمعنى تخليته عقوبة فلا ينصركم مع الإصرار، فتوبوا تُنْصَرُوا.

---

(١) الوجهان: الوجهين؛ غ.
(٢) لذلك: كذلك، غ.
(٣) ألا: لا، غ.

قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «يُكْشَفُ» بالياء وضمها على ما لم يسم فاعله، وعن ابن عباس: «تَكْشِفُ» بفتح التاء وكسر الشين، أي: تكشف القيامة عن ساقها[١]، وعن الحسن بالتاء مضمومة[٢].

اللغة

الأكبر [للمذكر]، وللمؤنث الكبرى، وهو أن يزيد مقداره على مقدار غيره، ثم يستعمل في كل شيئين يقال: أكبر شأنًا وأكبر شخصًا.

الحُكْمُ: فصل الأمر على جهة القهر والمنع، وأصل الباب: المنع، ومنه: الحِكْمَةُ؛ لأنها تمنع من الفساد، ومنه: حَكَمَةُ الدابة.

والزعيم والكفيل والضمين نظائر.

والساق: عضو معروف للحيوان، سمي ساقًا لقيام البدن عليه، ومنه: ساق الشجرة، وكل نبت له ساق يبقى صيفًا وشتاء فهو شجرة، قال الشاعر:

لِلْفَتَى عَقْلٌ يَعِيشُ بِهِ حَيْثُ يَهْدِي سَاقَهُ قَدَمُهْ[٣]

(١) زاد المسير ٨/ ٢٤٠.

(٢) زاد المسير ٨/ ٢٤٠.

(٣) البيت لطرفة بن العبد، فسره ابن الأعرابي فقال: معناه: إن اهتدى لرشد علم أنه عاقل، وإن اهتدى لغير رشد علم أنه على غير رشد. لسان العرب (سوق).

والكشف: إزالة الستر، ثم يستعمل كشف الساق في الأمور الشديدة، فيقال: قامت الحرب على ساق، وكشف الأمر عن ساق، وليس للحرب ساق، وإنما يريدون شدتها، قال الشاعر يصف حربًا:

كَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ سَاقِهَا   وَبَدَا مِنَ الشَّرِّ الصُّرَاحِ[1]

وقال آخر:

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشُدُّوا   وَجَدَّتِ الْحَرُب بِكُمْ فَجِدُّوا

[والْقَوْسُ فِيهَا وَتَرٌ عَرَدُّ][2]

واختلفوا في تشبيه ذلك بكشف الساق، فالأكثر على أن معناه: أنه اشتد الأمر كما يشتد ما يحتاج إلى كشف الساق، ثم كثر في كلامهم حتى صار كالمثل، وذكر أبو مسلم: أن أصله[3]: استخراج ولد الناقة من خبائها عند الولادة، فيدخل الرجل يده ويخرجه، والذي يفعل ذلك يقال له: المُذَمِّرُ، ويتبركون بالأنثى من أولادها، كذلك إذا خرج الرأس قبل الرِّجْل، فإذا كان على خلافه بأن تخرج الرجل قبل الرأس، وكان ذكرًا تشاءموا به، وكرهوه، قال الكميت:

وَقَالَ الْمُذَمِّرُ لِلنَّاكِحِينْ   مَتَى ذُمِّرَتْ قَبْلِي الْأَرْجُلُ[4]

وقال آخر:

قَدْ طَرَّقَتْ بِبِكْرِها أُمُّ طَبَقْ   فَذَمَّرُوها ذَكَرًا ضَخْمَ الْعُنُقْ

مَوْتُ الْإِمَامِ فِلْقَةٌ مِنَ الفِلَقْ[5]

---

(١) البيت لجد أبي طرفة بن العبد، منره ابن الأعرابي فقال: والصراح ـ بالحاء المهملة ـ: المحض الخالص من كل شيء. لسان العرب (سوق).

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٣٧. ما بين المعكوفين ثابت في مجمع البيان وليس ثابتًا في غ، ومعنى وتر عردٌ: شديد، وفي بعض النسخ: وتر عرند، وهو أيضًا بمعناه، وبعده: (مثل جران الفيل أو أشد).

(٣) أصله: أصل، غ.

(٤) الصحاح (زمر).

(٥) البيت أنشده خلف الأحمر لما نعي إليه المنصور. لسان العرب (طبق). وفي رواية اللسان: فذمروها وهمة ضخم العنق.

أي: داهية من الدواهي.

ترهقهم: تغشاهم، رَهِقَهُ يَرْهَقُهُ رَهَقًا فهو راهق: إذا غشيه، ورهقه الفارس: إذا أدركه، وراهق الغلام: أدرك.

الإعراب

كسر (إن) في قوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨﴾، ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ لأجل دخول اللام في الخبر، ولولاه لفتح، وألف (إن) تكسر في ثلاثة[1] مواضع: إذا كانت في ابتداء الكلام، نحو قولهم: إن زيدًا لقائم، وإذا جاءت بعد القول، كقولهم: قال: إن زيدًا قائم، وثالثها: إذا تلقتها اللام المفتوحة، كقولهم: علمت إن زيدًا لقائم، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ [المنافقون: ١] و﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾ [الأنعام: ٣٣] وما سواها فهي مفتوحة.

﴿لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: الذي تحكمون.

«يوم» نصب على الظرف.

النزول

قيل: نزل[2] قوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾ جوابًا لعتبة بن ربيعة، قال: إن كان ما يقوله محمد حَقًّا فنحن أفضل منه في الآخرة، وهذا إنما قاله إما لاعتقاد أنه على الحق أو إيهامًا لاتباع العوام.

وقيل: في قوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ نزل في الذين[3] تخلفوا عن الجماعات، عن كعب.

المعنى

لما تقدم ذكر ما نزل بأصحاب الجنة من العذاب، عقب بالتحذير عن مثل

(١) ثلاثة: ثلاث، غ.
(٢) نزل: نزلت؛ غ.
(٣) الذين: الذي، غ.

حالهم، فقال سبحانه: «**كَذَلِكَ الْعَذَابُ**» قيل: كذلك عذاب الدنيا ينزله[1] الله على العصاة، عن أبي علي، وقيل: كما فعلنا بأولئك نفعل بهؤلاء الذين تقدم ذكرهم، عن أبي مسلم، وقيل: كفعلنا بأولئك نفعل بكل ظالم متعدٍّ، والمراد بالعذاب ما نالهم من الجائحة في جنتهم، وقيل: كذلك يكون عقاب من يرد القيامة ظانًّا أنه على شيء فيجد أعماله محبطة، كهؤلاء الذين قصدوا الجنة، فوجدوا خلاف ما ظنوا، كذلك حال جميع العصاة، وهذا من أحسن ما يستدل بالشاهد على الغائب، وقيل: كذلك نفعل بأمتك يا محمد، إذا منع الأغنياء حقوق الفقراء، فأمنعهم المطر والنبات، وأرفع عنهم البركة.

ومتى قيل: كيف أطلق اسم العذاب على ذلك مع قوله: ﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾ ؟

قلنا: الابتداء يرجع إلى التكليف بالشكر، وإخراج حق الفقراء، فلما لم يفعلوا عوقبوا بالجائحة، وهكذا يكون العقاب على فعل العبد، لا على فعل الله تعالى، وقد قيل: إن هذا العذاب يجوز أن يكون ابتلاءً ولطفًا.

«**وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ**» أي: أشد «**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**» ذلك.

ثم ذكر الوعد للمؤمنين، فقال سبحانه: «**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ**» يعني في الآخرة «**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ**» وهذا استفهام والمراد النفي؛ أي: لا يستويان، ولا يسوَّى بينهم؛ لأنه ليس بفعل حكيم «**مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**» يعني: ما أسوأ هذا الحكم؛ فكيف تحكمون به على الله أنه يفعله مع أنه حكيم لا يفعل القبيح؟! «**أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ**» أي: لكم كتاب تدرسون ذلك فيه، وقد قامت الحجة بذلك فتمسكتم به «**إِنَّ لَكُمْ [فِيهِ]**» في ذلك الكتاب «**لَمَا تَخَيَّرُونَ**» أي: لكم ما تختارون، أشار إلى أن حكم الله لا يثبت إلا بدليل، وإنما احتج عليهم بنفي الكتاب؛ لأن وعد الله ومن يغفر له ومن لا يغفر يُعْلَمُ بالسمع «**أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ**» عهود ومواثيق «**عَلَيْنَا بَالِغَةٌ**» عاهدناكم فلا ينقطع ذلك العقد إلى يوم القيامة، وقيل: البالغة: الذي يبلغ جهده في اليمين، وقيل: البالغة: اليمين بالله، عن أبي علي، وقيل: «**إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» أي: عهدنا أن نعطيكم ما تحكمون إلى يوم القيامة، عن أبي علي. «**إِنَّ لَكُمْ**

(١) ينزله: ينزل، غ.

لَمَا تَحْكُمُونَ» في ذلك العهد، أي: نعطيكم ما تحكمون في الثواب أو التسوية بين المطيع والعاصي، فيكون لكم حكمكم «**سَلْهُم**» يا محمد «**أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ**» يعني ما ذكرت «**زعيم**» قيل: كفيل، عن ابن عباس، وقتادة، وقيل: قائم بالحجة، عن ابن كيسان. أي: من يقوم بهذه الحجة، والزعيم: القائم، ويأتمر مَنْ دونه به، وقيل: من يكفل لكم أنه لا يعاقب العاصي، ولا يسلب نعمه، وقيل: إن الرؤساء قالوا للأتباع والعوام: نحن كفلاء لكم، وما تفعلونه في أعناقنا، وذلك إما لاعتقاد جهل أو إيهام على ما بَيَّنَّا، وكذا عادة علماء السوء، يدعون إلى الباطل بمثل هذا.

ومتى قيل: هذه الزعامة ماذا تناولت؟

قلنا: ثلاثة أشياء:

أولها: التسوية بين المحسن والمسيء.

وثانيها: دعوى العهد والإيمان.

وثالثها: دعوى النصر والكتاب.

«**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ**» قيل: أرباب تفعل هذا، وقيل: شهداء يشهدون لهم بالصدق فتقوم به الحجة كما للمسلمين، وقيل: الشركاء الأوثان التي ادعوا أنها تنفع وتضر، وقيل: هو ما شاركهم في الكفر يشهدون لهم أنهم على الحق «**فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ**» يوم القيامة «**إِن كَانُوا صَادِقِينَ**» فيما يدعونه، فأبطل تعالى جميع الوجوه التي يُحْتَجُّ [بها] في التسوية بين المسلم والمجرم «**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ**» أي: فليأتوا بشركائهم يوم القيامة، «**ويُكْشَفُ عن ساق**» معناه: عن شدة من الأمر [الفظيع من][1] هول ذلك اليوم، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك، وقيل: هو عند الناس آخر أيام الدنيا، وأول يوم الآخرة لم يلق العبد يومًا أشد منه، عن أبي مسلم. «**وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ**» قيل: يوم حضور الملائكة وظهور أعلام الآخرة وقت النزع، فيدعون إلى الصلاة «**فَلَا يَسْتَطِيعُونَ**»، عن أبي مسلم، وقيل: هذا في الآخرة يؤمرون بالسجود تقريعًا فلا يمكنهم، وقيل: يحدث في أصلابهم صلابة تمنع من السجود «**خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ**» أي: خائفة متوقعة للعذاب، وذكر العين؛ لأنه

(١) ما بين المعكوفين زيادة من: تفسير مجمع البيان، للطبرسي: ١٠/ ٨٤.

يظهر عليه أثره «**تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ**» أي: تلحقهم ذلة حتى يتبين الخشوع والذلة عليهم «**وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ**» أصحاء يمكنهم السجود فلا يسجدون، قيل: يدعون إلى السجود إلى الصلاة المكتوبة بالأذان والإقامة فلا يجيبون، عن إبراهيم التيمي، وسعيد بن جبير، وقيل: الذين تخلفوا عن الجماعات، عن كعب.

❁ الأحكام

يدل قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ على جرم العصيان.

وتدل أن مصائب الدنيا قد تكون عقوبة، وهو قول أبي علي، وأما عند أبي هاشم فتكون محنة ولطفًا؛ لذلك قال: ﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾ وقد بيَّنَّا ما قيل فيه.

ويدل قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الآيات على أشياء:

منها: أن الجنة تنال بالتقوى، خلاف قول المرجئة.

ومنها: أن المسلم والمجرم اسمان شرعيان، يمدح بأحدهما، ويذم بالآخر.

ومنها: أن هذين الوصفين كالمتنافيين.

ومنها: أنهما لا يستويان، خلاف قول المرجئة.

ومنها: أن طاعات المجرم تنحبط به.

ومنها: أنه لا تحسن التسوية بينهما؛ لذلك قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ، خلاف قول المجبرة: إنه يجوز أن يسوي بينهما؛ بل يجوز أن يفضل المجرم على المسلم، ولأن الإيمان والكفر لو كان خَلْقَهُ لجاز أن يسوى بينهم كما يجوز أن يسوي بين الأبيض والأسود.

ومنها: أن الوعيد تناول المجرم وهو الفاسق، خلاف قول بعضهم.

ومنها: أن عذابه دائم؛ إذ لو انقطع لصار في بعض الأوقات كالمنفي.

ومنها: أنما قدموا عليه ضلال، وليس بحكم الله؛ لذلك قال: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

ومنها: أن الاعتقاد يجب أن يكون صادرًا عن دليل لذلك طالبهم بحجة وكتاب.

ويدل قوله: ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ على شدة أهوال القيامة، وأنهم يدعون إلى السجود توبيخًا لا تعبدًا.

وتدل أنهم كانوا يقدرون على السجود في الدنيا، وإلا لما صح نظم الكلام، فيبطل قول المجبرة في المخلوق والاستطاعة.

فأما ما ترويه الحشوية في حديث طويل، عُمْدَتُهُ: «أنه تذهب كل طائفة مع آلهتهم إلى النار، ويبقى الموحدون، فيقول الله تعالى: من عبدتم؟ فيقولون: عبدنا الله، فيبدو لهم في صورة غير صورته فينكرونه، فيقول: هل بينكم وبينه آية؟ قالوا: نعم، ويكشف عن ساقه فيخرون سجدًا»، فمن دسيس الملحدة؛ لأنه ليس بذي صورة، ولا يجوز عليه الأعضاء، ولا أن يتصور بصور.

ومن عجيب شأنهم أنهم يزعمون أن الشيطان يتصور بصور، ثم وصفوا معبودهم بمثل ذلك، وأي معنى في ساق بلا قدم وفخذ، ولو أثبتوا جميع الأعضاء فهو جسم، والعجب من قوم ينكرون التشبيه، ويروون هذا الحديث من غير تأويل لها، ثم يروون ما يناقضها، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

قوله تعالى:

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «**لولا أن تداركه نعمة من ربه**» أي: أدركه إنعام ربه، وفي مصحف ابن مسعود: «**تداركته نعمة**» بالتاء لأجل تأنيث النعمة[1].

---

(١) القرطبي ١٨/ ٢٢١.

قراءة العامة: «لِيُزْلِقُونك»، وعن الأعمش: «ليزهقونك» أي: يهلكونك، وروي نحوه عن ابن عباس وابن مسعود، ولعلهم فسروا به[1].

قرأ أبو جعفر ونافع: «لَيَزْلِقُونَكَ» بفتح الياء[2]، الباقون بضمها، وهما لغتان، زَلَقَهُ يَزْلِقُهُ زَلْقًا، وأَزْلَقَهُ يُزْلِقُهُ إزلاقًا.

۞ اللغة

الاستدراج: مأخوذ من الدرجة، وأصل الدَّرَجِ: المَشْيُ، يقال: دَرَجَ الصبي أي: مشى، ومنه: ما دَبَّ ودَرَجَ، قيل: الأحياء والأموات[3]، ومنه: الدَّرَجُ الذي يرقى عليها، والمَدْرَجَة: الطريق المسلوك، ومدارج الأكمة: طرقها المعترضة فيها.

والإملاء: الإمهال.

والكيد والإرادة من النظائر، ومنه: ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦].

والمبين: القوي.

والغُرْمُ: أصله اللزوم، والمَغْرَمُ: اللازم من الدين الذي يلح في اقتضائه، ومنه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] أي: لازمًا، والمَغْرَمُ: مصدر غَرِمْتُ غُرْمًا ومَغْرمًا، نحو: خرجت خروجًا ومخرجًا، وفلان مغرم بكذا أي: مولع به، لازم له، والغريم يلزمه الدين، وصاحب الدين؛ لأنه يلزم من عليه الدين، والغرم: أداء شيء يلزم.

والكَظْمُ: أصله الإمساك والحبس، والكاظم: الممسك على ما في قلبه، والأصل في الكظم البعير، وهو أن يردها في حلقه، يقال: كَظَمَ البعيرُ: إذا لم يجتر، وكظم فلان غيظه: إذا تجرعه ولم يمضه، وكظم الخَصْمَ: أجابه بالمسكت.

والعراء: الأرض العارية من النبات، قال الشاعر:

وَرَفَعْتُ رِجْلاً لاَ أَخَافُ عِثَارَهَا ... وَنَبَذْتُ بِالْبَلَدِ الْعَرَاءِ ثِيَابِي[4]

---

(١) القرطبي ١٨/ ٢٢١.

(٢) حجة القراءات، ٧١٨.

(٣) والأموات: أموات، غ.

(٤) قائل البيت هو: قيس بن جعدة، اللسان (عرا).

والزلق: أصله الزلل، زلقه وأزلقه: نحاه وبعده، يقال: زلقته فزلق أي: أزللته فَزَلَّ، وأزلقت الحامل: ألقت ولدها، وأزلقه ببصره: إذا أَحَدَّ النظر إليه، والمَزْلَقُ: الموضع لا تثبت عليه قَدَمٌ، وحكى قطرب عن يونس قال: لم أسمع الزلق والإزلاق من العرب، ولم نسمعه إلا في القرآن.

الإعراب

«ومن يُكَذِّبُ» أي: مع مَنْ يكذب، فحذف (مع) وتعدى الفعل إلى ما بعده، فعمل فيه، كقولهم: «تركت الناقة وفصيلها» أي: مع فصيلها، واستوى الماء والخشبة، قال الشاعر:

يَـا قَـوْمُ مَـا لِـي وَأَبَـا ذُؤَيْـبِ[1]

أي: مع [أبي] ذؤيب.

النزول

قيل: في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ﴾ نزل في الكفار، أرادوا أن يفتنوا رسول الله ﷺ ويصيبوه بالعين، فنظر إليه قوم من قريش، وقالوا: ما رأينا مثله.

وقيل: كانت العين في بني أسد، وكان تمر بأحدهم الناقة السمينة فيعاينها[2]، ويقول لجاريته: احملي المكتل والدرهم لتأتينا باللحم، فما يبرح حتى تقع وتذبح، فسألوهم أن يصيبوا رسول الله ﷺ بالعين ففعلوا، فعصمه الله تعالى.

قال الكلبي: كان رجل من العرب إذا أراد أن يصيب صاحبه بالعين يجوع ثلاثة أيام، ثم ينظر إلى الشيء، فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غنمًا أحسن من هذه، فما يذهب إلا قريبًا حتى تسقط طائفة، فسألوا هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بعينه،

---

(١) البيت قائله خالد بن زهير الهذلي، لسان العرب (بزز)، تاج العروس بزز، وتمامه:

يـا قـوم مـالـي وأبـا ذؤيـب ... كـنـت إذا أتـوتـه مـن غـيـب

يـشـم عـطـفـي ويـبـز ثـوبـي ... كـأنـنـي أريـتـه بـريـب

(٢) فيعانيها: فعانها، غ.

ففعل، فعصمه الله تعالى، ونزلت الآية، وأنكر شيخنا أبو علي قولهم، وذكر أن الإصابة بالعين تتبع الاستجمال والاستحسان، وهذا من نظر العداوة، وبعد، فإن الإصابة بالعين ليس بصحيح، وأنكره[١] أبو علي وأبو مسلم، وجوَّزه القاضي وجماعة، ثم اختلفوا فمنهم من قال: هو على طريق ما أجرى الله تعالى العادة، فيفعله كذلك، ومنهم من قال: تنفصل من عينه أجزاء تؤثر فيه.

۞ المعنى

ثم عقَّب الاحتجاج بالوعيد، فقال سبحانه: «**فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ**» قيل: هذا وعيد لهم، عن أبي علي، أي: كِلْ أمرهم إليّ فإني كاف في الانتقام منهم، عن أبي مسلم، وقيل: دعني وإياهم فإني أجازيهم بما يستحقون «**وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ**» قيل: القرآن، وقيل: جميع ما أداه إليهم «**سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ**» قيل: نأخذهم من أي طريق سلكوا، وأين دبوا ودرجوا، عن أبي مسلم، وقيل: سنأخذهم إلى العقاب حالاً بعد حال، ودرجة درجة من حيث لا يعلمون، وقيل: سنقربهم إلى العذاب بأن نميتهم، ثم نبعثهم، ثم نحاسبهم، فلا يزال يقرب حالاً بعد حال وهم لا يعلمون، عن أبي علي، وقيل: نأخذهم في الدنيا حالاً بعد حال، وأُخِذُوا يوم بدر، وقيل: نطيل أعمارهم، ونسبغ النعم عليهم إظهارًا للحجة، فلا يزالون فيها حتى تأخذهم[٢] بغتة، كأنه قيل: سنستدرج أعمارهم إلى عقابهم، وإن أطلنا لهم «**وَأُمْلِي لَهُمْ**» أي: أمهلهم وأطيل أعمارهم ولا أعاجلهم «**إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**» أي: تدبيري وإرادتي فيهم قوي، لا يفوتون، والكيد: إرادة الإضرار، وقيل: كيدي: عذابي، فسماه كيدًا؛ لأنه جزاء كيدهم، أي: عذابي لهم شديد، أشار بأن الإمهال ليس بعجز، ولكن لعلمه بأنهم لا يفوتون «**أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا**» هذا عطف على قولهم: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ فذكر جميع ما يُحْتَجُّ به، فقال: أم تسأل يا محمد هؤلاء الكفار أجرًا على أداء الرسالة، وتطمع في مالهم طمعًا يلزمهم لزوم الدين المثقل؟ «**أَمْ عِنْدَهُمُ**

---

(١) ليس بصحيح وأنكره: ليس بصحيح فأما الإصابة بالعين فأنكر، غ.

(٢) ونسبغ النعم عليهم إظهار اللحجة فلا يزالوان فيها حتى نأخذهم: وأمسغ النعمة عليهم إظهارا للحجة فلا يزال حتى يأخذ، غ.

الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ» قيل: أم يعلمون الغيب فيعلمون أنك غير محق فيما أتيتهم؛ فلهذا لا يتبعونك؟ عن أبي علي، وقيل: أراد علم الغيب وهو إحدى الآيات في الكتاب، وهو العلم بترتيب الكلام حتى يصير معجزًا، يعني: هل يعلمون هذا فيكتبون كتابًا مثله في نظمه وفصاحته وحسنه، ويشتمل على أخبار الغيب، أنَّى لهم ما يحكمون، وقيل: أراد بالغيب اللوح المحفوظ؛ لأن فيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة **«فَهُمْ يَكْتُبُونَ»** منه أنهم على حق، وما يكتب منه يكون حَقًّا، وقيل: الغيب ما في القرآن من أخبار الغيب، وهي أحد إعجازه، أي: هل لهم كتاب مثل هذا القرآن حتى يكتبوا منه ما حكموا به.

فلما أبطل جميع شبههم، ولم يبق في تكذيبهم إلا القتال قال تعالى لرسوله: **«فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ»** أي: دع كلامهم، فإنه لا حجة معهم، فاصبر لما حكم الله عليك في أداء الرسالة، وقيل: «اللام» تجري مجرى (إلى)، أي: اصبر إلى أن يحكم الله في قهر أعدائك ونصر أوليائك، وقيل: اصبر لحكم الله في التخلية بين الظالم والمظلوم حتى يبلغ الكتاب أجله **«وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ»** يعني يونس عليه السلام؛ لأنه صار في بطن الحوت، وقيل: في الضجر والغضب من أذى قومه، عن قتادة، وقيل: في خروجه من بين قومه بغير إذن حتى التقمه الحوت **«إِذْ نَادَى»** ربه، أي: دعا ربه في جوف الحوت، وقيل: الذي نادى به قول: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، **«وَهُوَ مَكْظُومٌ»** قيل: مغموم، عن ابن عباس، ومجاهد، كأن الغم حبسه عن الانبساط في أمره، وقيل: مكظوم محبوس، والكظم: الحبس، وقيل: المكظوم: المخنق بالغم إذا لم يجد لغيظه شفاء، فيونس غاظه فعل نفسه، ولم يجد لغمه شفاء **«لَوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ»** لحقه **«نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ»** أي: رحمة، فبقاه في بطن الحوت وأخرجه حيًا **«لَنُبِذَ»** طرح **«بِالْعَرَاءِ»** أي: بالفضاء **«وَهُوَ مَذْمُومٌ»** ملوم، عن ابن عباس، أي: معه ما يلام به، ولكن الله تعالى تداركه برحمته، قيل: رحمته لطفه حتى أناب، وسبح، ودعا، وقيل: رحمته: إجابة دعائه، وتخليصه من بطن الحوت، وقيل: تبقيته في بطنه حيًّا وإخراجه حَيًّا **«فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ»** أي: اختاره فاصطفاه لنبوته **«فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ»** قيل: أخبر بأنه منهم، عن أبي علي، وقيل: لطف له وسهل

السبل حتى صار من الصالحين، وقيل: جعله فيهم يوم القيامة، ونظيره: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء: ٦٩]، عن أبي مسلم. «**وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ**» أي: القرآن، قيل: معناه: ينظرون إليك عند تلاوة القرآن والدعاء إلى التوحيد نظر عداوة وبُغْضٍ وإنكار لما يسمعون، وتعجب منه، فيكادون يصرعونك بحدة نظرهم، ويزيلونك عن موضعك، تقول العرب: نظر إليه نظرًا شَزْرًا، ونظرًا منكرًا، قال الشاعر:

يَتَلاحَظُونَ إِذا الْتَقَوْا فِي مَحْفَلٍ نَظَرًا يُزِيلُ مَوَاقِعَ الأَقْدَامِ[1]

وقيل: يبعدونك بأبصارهم، يقال: رمي سهمهم فزلق: إذا بعد، عن ابن عباس، وقيل: يزهقونك، عن قتادة، وقيل: يصرعونك، عن الأصم، وقيل: يرمونك، عن عطية، وقيل: يزيلونك، عن المؤرخ، وقيل: يصيبونك بأعينهم، عن السدي، وقيل: يقتلونك، عن الحسن، والكل يرجع إلى ما قدمناه من غير الإصابة بالعين، وذلك ليس بصحيح؛ لأن ذلك لا يثبت، ومن يدعيه يزعم أنه يكون فيما يستحسن.

فإن قالوا: كانوا يستحسنون القرآن؟

قلنا: كيف وهم يجحدونه، وينسبونه إلى السحر.

«**وَيَقُولُونَ إِنَّهُ**» يعني محمدًا ﷺ «**لَمَجْنُونٌ**»، ونسبهم إياه إلى الجنون مع علمهم بوفور عقله على أحد وجهين: إما تشبيهًا حيث وعدهم بالبعث مع بُعْدِهِ في أوهامهم، أو تلبيسًا على العوام ليصرفوهم[2] عنه. «**وَمَا هُوَ**» قيل: محمد، وقيل: القرآن «**إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**» قيل: يذكرهم أمر آخرتهم والثواب والعقاب، وقيل: يذكرهم الأحكام وأدلة العقل والسمع، وقيل: يذكرهم أمر دينهم ودنياهم، وقيل: لما نسبوه إلى الجنون وصفه بما ينفي ذلك فقال: هو شرف للخلق حيث هداهم إلى الرشد،

---

(١) ذكره في (تفسير التبيان) بهذا اللفظ ١٠/ ٩١، ٩٢، وبلفظ آخر: (يتعارضون) بدلاً عن (يتلاحظون)، وفي مجمع البيان: يتقارضون ١٠/٩٨ط الأعلمي، وذكر في حاشية التبيان أنه في القرطبي ١٨/ ٢٥٦. وانظره في اللسان (زلق)، وتاج العروس (زلق).

(٢) ليصرفوهم: ليصرفهم، غ.

وأنقذهم من الضلالة، وفتح السورة بنفي الجنون، ووصفه بمحاسن الأخلاق، وختم بذلك.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أن سؤال الأجر يُنَفِّرُ عنه، فنفى ذلك عنه، فنفي الكبائر أولى، فمن هذا الوجه يدل على عصمته ﷺ.

وتدل الآيات أنه لا عذر لهم في الإقامة على الكفر، وأنه تعالى أزاح عللهم؛ لذلك أبطل جميع هذه الوجوه، وبَيَّنَ أنهم أُتُوا في ذلك من قِبَلِهِمْ، فمن هذا الوجه يبطل قول المجبرة: إن الله تعالى خلق الكفر فيهم، ومنعهم الإيمان، وقدرة الإيمان، وأراد منهم الكفر، ولم يرد الإيمان، وهذا من أوضح عذر لهم، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ويدل قوله: «فاصبر» على وجوب الصبر في أمر الدين وتحمل المشاق.

واستدل بعضهم بقوله: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ على أن الإصابة بالعين صحيح، ورووا عن النبي ﷺ: «**العين حق**»[1]، وقد بَيَّنَّا أن أبا علي أنكر ذلك، وأن القاضي جوَّزه على العادة، خلاف قول من قال: ينفصل من العين أشياء تؤثر في المرئي.

ويدل قوله: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ أنه مبعوث إلى الكافة، وأن القرآن حجة يوجب العلم والعمل.

(١) البخاري رقم (٥٤٠٨)، ومسلم رقم (٤١).

سُورَةُ الحَاقَّةِ

سورة (الحاقة) مكية، وهي اثنتان وخمسون آية في الكوفي، وفي البصري إحدى وخمسون.

وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (الحاقة) حاسبه الله حسابًا يسيرًا».

ولما ذكر في سورة (القلم) حديث القيامة ووعيد الكفار، وأمر رسوله بالصبر على أذاهم إلى أن يجازيهم، افتتح هذه السورة بذكر القيامة وأحوالها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿ٱلْحَآقَّةُ (١) مَا ٱلْحَآقَّةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا
ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ
تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ
أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠)﴾

القراءة

قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب: «ومَنْ قِبَلَهُمْ» بكسر القاف وفتح الباء[1]، وهو قراءة الحسن والسلمي واختيار أبي عبيد وأبي حاتم، ورواه أبان عن عاصم، يعني: ومن معه من أتباعه وجنوده، واعتبروا قراءة ابن مسعود وأبي: «ومن معه»[2]، وقرأ الآخرون: «ومن قبله» بفتح القاف وسكون الباء، أي: من تقدمه من الأمم.

قراءة العامة: «**والمؤتفكات**» بالألف على الجمع، وعن الحسن: «**المؤتفكة**»[3] بغير ألف.

اللغة

الحاقة: القيامة، واختلفوا، فقيل: إنه اسم من أسماء القيامة، عن الأصم، وقيل: «فَاعِلَةٌ» من قولهم: حق، ومنه قوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [غافر: ٦]، فسميت بذلك؛ لأن وعده ووعيده يحق فيها، عن أبي مسلم، وقيل: لأنه يتبين فيها حقائق الأعمال فسميت الحاقة، عن ابن عباس، وقيل: الحاقة: الواجبة، من قولهم: حق، أيْ: وجب، يعني: وجب لكل أحد جزاءُ عمله، حَقَّ يَحِقُّ حقًّا وحقوقًا فهو حاق، عن ابن الأنباري، وقيل: الحاقة القيامة؛ لأنه يحق فيها الجزاء، وقيل: سميت الحاقة؛ لأنها يوم الحق، عن الكسائي، والحَقَّةُ والحاقة لغتان، وقيل: حقت، ولا كاذبة لها، فسميت حاقة، وقيل: لأنها تحق الكفار، يقال: حاقَقْتُهُ فَحَقَقْتُهُ، أي: خاصمته فخصمته.

والقارعة: القيامة، وأصله من القرع، وهو يقع على الضرب، وعلى الصوت، فإن كان المراد من الصوت فهي في الدنيا الصيحة النازلة بالأمم التي أهلكها الله تعالى، وفي الآخرة نفخة[4] البعث، وسميت القيامة قارعة؛ لأنها تقرع القلوب بأهوالها، ووزنه «فاعلة»، من قرعت الشيء قرعًا.

(١) حجة القراءات ٨/ ٧.
(٢) تفسير أبي السعود ٩/ ٢٢.
(٣) القرطبي ١٨/ ٢٢٨.
(٤) نفخة: ونفخة؛ غ.

والطاغية: المجاوزة بحال غيرها في الشدة، وأصله من طغى، ومنه: الطغيان، والطاغية قيل: مصدر، وقيل: نعت، أي: بأفعالهم الطاغية، والهاء فيه يحتمل أن يكون للتأنيث، ويحتمل المبالغة، كالعَلَّامة والنسابة.

والصرصر: الريح الشديدةُ الصوت، سمي بذلك لما يسمع من الصرير، صر، وصرصر، ومنه: صرير الباب، وبناؤه «فَعْلَل»، وهو ماض، مأخوذ من الصِّرِّ، ومنه: ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران: ١١٧] ونظير[1]: صر، وصرصر: صل، وصلصل.

والعاتية: فاعلة من العتو، وهو تجاوز المقدار في العصيان، المتمرد فيه لا ينفعه وعْظٌ، يقال: عتا يعتو عُتُوًّا فهو عاتٍ[2]، وقيل للريح: عاتية تشبيهًا بحال العاتي في الشدة، ومجاوزة الحد.

والحُسُومُ: القاطعة قطع عذاب الاستئصال، وأصله القطع، حسم طمعه من كذا: قطع، حسم يحسم حسمًا، وانحسم الشيء: انقطع، والحُسُومُ: الشؤم لأنها تحسم الخير عن أهله، ومنه: الحسام، وحُسُوم: جمع حاسم، ونظيره في البناء: راقد ورُقُود، وواقف ووقوف.

وصرعى: جمع صريع، نحو: قتيل وقتلى، وأسير وأسرى.

والخاوية: الخالية التي لا شيء في جوفها، ومنه: خوى البطن، وخوت الإبل تخوية: إذا خمصت بطونها، وخَوِيتْ المرأة خوا: إذا لم تأكل عند الولادة، وخوت الدار: خَلَتْ.

والربا: الزيادة، ربا يربو: إذا زاد وارتفع، ومنه: الربوة: المكان المرتفع، ومنه: الربا للزيادة التي فيه.

۞ الإعراب

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ قيل: رفع بالابتداء وخبره: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ كأنه قيل: أي شيء هو؟ فقيل: الحاقة كقولهم: زيد ما زيد، وقيل: هو خبر ابتداء محذوف أي: هذه

---

(١) ونظير: ونظيره، غ.

(٢) عات: عاتي، غ.

الحاقة، ثم قيل: أي شيء الحاقة تفخيمًا لشأنها، وقيل: تقديره: هذه سورة الحاقة، وقيل: خبره فيما بعده، والحاقة الثانية مرفوعة بـ (ما)، و(ما) بمعنى (أي).

﴿حُسُومًا﴾ نصب على المصدر، أي: تحسمهم حسومًا، وقيل: نصب على الحال، وقيل: هو نعت للأيام، بمعنى أيامًا حاسمة، وقيل: تقديره: سخر عليهم ريحًا حسومًا، فهو نعت للريح.

المعنى

«**الْحَاقَّةُ**» القيامة، عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وجماعة المفسرين. «**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ**» أي: ما القيامة تفخيمًا لشأنها، وقيل: إن ما «أدراك للمعلوم»، و«ما يدريك» لما ليس بمعلوم في جميع القرآن، عن سفيان. «**كَذَّبَتْ ثَمُودُ**» هم قوم صالح «**وَعَادٌ**» هم قوم هود «**بِالْقَارِعَةِ**» قيل: بالقيامة، عن ابن عباس، وقتادة، وقيل: بالنفختين: نفخة الموت ونفخة البعث، وقيل: بالعذاب النازل بهم حين وعدهم نبيهم، فلم يقبلوا حتى هجم عليهم، فقرع قلوبهم «**فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ**» قيل: بالصيحة التي نزلت بهم حتى أهلكتهم، عن قتادة، وأبي علي، وأبي مسلم، والطاغية: المتجاوزة[1] في الفعل كل صيحة، وسمى الصيحة طاغية لتجاوزها الحد، والمراد العذاب النازل بهم، وقيل: سمي طغيانًا؛ لأنه جزاء على الطغيان، فسمي باسمه، وقيل: فأهلكوا بطغيانهم، فيكون الطاغية مصدرًا كالعاقبة والعافية، وقيل: أهلكوا بفعلهم الطاغية، فيكون نعتًا، وهذا معنى قول مجاهد، وابن زيد. «**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ**» قيل: باردة، عن ابن عباس، وقتادة، وأبي مسلم. كأنه تصطك الأسنان بما تسمع من صوتها لشدة بردها، وقيل: الشديد المجاوز لحرها المعروف «**عَاتِيَةٍ**» أي: مجاوزة للحد في الشدة، شبه بالعاتي توسعًا، وقيل: عتت على خُزَّانها لشدة الهبوب فلم يدروا ما خرج وما بقي، عن الأصم، وقيل: عاتية مهلكة «**سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ**» أي: سلطها، وأرسلها فما أقلع عنهم، كالمسخر لفعل ما، والتسخير: استعمال الشيء بالاقتدار، فاستمر ذلك «**سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ**» قال وهب: التي تسميها العرب أيام العَجُوز ذات برد ورياح شديدة، ونسبت إلى

(١) المتجاوزة: المتجاوز، غ.

العجوز؛ لأن عجوزًا دخلت سربًا فتبعتها الريح فقتلتها اليوم الثامن، وانقطع العذاب، وقيل: سميت أيام العجوز؛ لأنها في عجز الشتاء «**حُسُومًا**» متتابعة ليست لها فترة، عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، أخذ من حسم الداء بمتابعة الكي عليه، كأنه تتابع عليهم الشر حتى استأصلهم، وقيل: دائمة، عن مقاتل، والكلبي، وقيل(١): كاملة لم تفتر عنهم حتى أفنتهم، عن الضحاك، وقيل: شؤمًا نكداء قليلة الخير حسمت الخير عن أهلها، عن عطية، وقيل: قطوعًا لم تُبْقِ منهم أحدًا، والحسم: القطع، عن الخليل. «**فَتَرَى الْقَوْمَ**» قيل: أراد الرجال، وقيل: بل الرجال والنساء «**فِيهَا**» قيل: في تلك الأيام والليالي، وقيل: في ديارهم وبيوتهم «**صَرْعَى**» قيل: مصروعين هلكى «**كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ**» قيل: أصول النخل، عن قتادة. «**خَاوِيَةٍ**» خالية الأجواف، قيل: ضرب الريح عليهم حتى استخرج ما في بطونهم، وبقيت أجسادهم لا شيء فيها، وقيل: شبه بذلك لعظم أجسامهم، وقيل: كانوا حفروا مواضع لأنفسهم، ثم استوثقوا بها، فاقتلعتهم الرياح، وصرعتهم كأعجاز النخل المقتلعة من أسفلها، وقيل: لما أرسل عليهم الريح قاموا لها، واعتمدوا على أرجلهم ليدفعوا الريح، فرفعتهم الريح بين السماء والأرض، ورمتهم على مناخرهم وأهلكتهم «**فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ**» أي: نفس باقية، وقيل: المراد به البقاء أي: هل ترى لهم بقاء «**وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ**» بينا معنى القراءتين «**وَالْمُؤْتَفِكَاتُ**» أي: المنقلبات، وهي قُرَيَّات قوم لوط انقلبت بهم، عن قتادة، وقيل: المؤتفكات: الآفكات، وقد يجيء «فعل وافتعل» بمعنى، فمعناه: الأمم الآفكة، أي: الكاذبة على الله الكافرة، عن أبي مسلم. «**بِالْخَاطِئَةِ**» أي: الخطيئة والمعاصي، فأخطؤوا الحق إلى الفساد «**فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ**» أي: عصوه فيما أمرهم به، وقيل: المراد بالرسول الرسالة، قال الشاعر:

لَقَدْ كَذَبَ الْوَاشُونَ مَا بُحْتُ عِنْدَهُمْ ... بِسِرٍّ وَلاَ أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ(٢)

أي: برسالة، عن أبي مسلم، والأول الوجه؛ لأنه الظاهر، وعصيانه يصح، فلا معنى لصرف الكلام عن ظاهره «**فَأَخَذَهُمْ**» الله بالعقوبة «**أَخْذَةً رَابِيَةً**» قيل: شديدة، عن

(١) وقيل: قيل، غ.
(٢) البيت قائله كثيِّر، تاج العروس (رسل)، واللسان (رسل). وفي رواية: بليلى ولا أرسلتهم بِرَسِيلِ.

ابن عباس، وقيل: زائدة على عذاب الأمم، وقيل: غالبة خارجة عن العادة، ومعناه أخذًا فوق كل أخذ، ولم يرد الزيادة على المستحق.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: أن الحاقة اسم شرعي للقيامة.

ومنها: عِظَمُ حال القيامة.

ومنها: أن التكذيب فعلهم؛ لذلك أضافه إليهم، وعذبهم عليه.

ومنها: أن ثمود أهلكت بالصيحة، وعاد بالريح، وابتداؤها كان باليوم، والختم باليوم.

ومنها: أن الإفك والخطيئة فعل العبد، وكذلك قوله: «**فعصوا**».

ومنها: قوله: «**فأخذهم**» أن العقوبة تستحق على أفعالهم، خلاف قول المجبرة.

قوله تعالى:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾

۞ القراءة

قرأ ابن كثير وعاصم في بعض الروايات عنهما: «**وتَعْيهَا**» ساكنة العين تشبيهًا بقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨][1] وهي قراءة غير مرضية، وعن حمزة بشم العين الكسرة ولا يشبعها، والقراء على كسر العين وإشباعها.

---

(١) السبعة في القراءات لابن مجاهد ٦٤٨.

قرأ عاصم والكسائي: «يخفي» بالياء لتقدم الفعل على الاسم، الباقون: بالتاء لتأنيث (خافية)[1].

اللغة

الطغيان: مجاوزة الحد، وطغى الماء: جاوز الحد المعروف في العظم حتى غرق الأرض ومن فيها.

والجارية: السفينة سميت لجريانها على الماء، والجارية؛

لأنها يجري فيها ماء الشباب[2].

والواعية: القابلة لما يجعل فيها متمسكة به، وَعَى قَلْبُهُ العِلْمَ يعي وعيًا، ويقال: وَعَيْتُ العلم، وأوعيت المتاع في الوعاء.

والنفخ مصدر نفخ نفخًا، والنفخة: المرة.

والدَّكُّ: الدفع، دككت الشيء: دفعته، والدَّكّ: الضرب، والدك: أن تهيل التراب على الميت، والدك: البسط، ومنه: الدُّكَّان، واندك سنام البعير: إذا انفرش على ظهره، وناقة دَكّاء: التي لا سنام لها.

والواقعة: من الوقع، وسميت القيامة واقعة لشدة وقعتها بما ليس لغيرها مثل تلك الشدة.

والواهي: الخَرِقُ، وقيل: هو الشديد الضعف، ومثله الواهية، وهَي الشيء يَهِي وَهْيًا، وهو واهٍ أي: منتقض البنية لا يستمسك لضعفه.

والأرجاء: النواحي، واحدها: رجا مقصور، وتثنى رَجَوَانِ بالواو، والرجا جانب النهر، وأصله من «رجوت».

والخافية: فاعلة من خَفِيَ يَخْفَى خفاء، فهو خَافٍ، والإخفاء: خلاف الإعلان.

---

(١) حجة القراءات ٨/ ٧.

(٢) أي: المرأة الجارية.

۞ الإعراب

نصب «دكة» لأنها قامت مقام المفعول، والاسم مضمر، وهو الألف.

۞ النزول

عن أبي بردة الأسلمي أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «إن الله تعالى أمرني أن أدنيك ولا أقصيك، وأن أعلمك وتعي، وحق على الله أن تعي»، ونزل: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ قال رسول الله ﷺ لعلي: «سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي»، قال: «فما نسيت شيئًا بعد، وما كان لي أن أنساه».

۞ المعنى

ثم بين تعالى قصة نوح، فقال سبحانه: «**إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ**» أي: جاوز الحد في المقدار قال قتادة: طغى فوق كل شيء خمس عشرة ذراعًا، وقيل: أكثر، عن ابن عباس، ومجاهد. «**حَمَلْنَاكُمْ**» أي: حملنا آباءكم؛ لأن الابن يخاطب بالشكر على ما أسدى إلى أبيه من النعم، ويخاطب بمدائحه ومعائبه، قال تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩١]، «**فِي الْجَارِيَةِ**» أي: السفينة، عن ابن عباس، وابن زيد، وقيل: طول السفينة ألف وثلاثمائة ذراع، وعرضها ستمائة ذراع تجري بين المائين، عن الحسن. «**لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً**» أي: عبرة وعظة تذكرونها، يعني الخبر عنها، وقيل: تذكروا بها عظم نعم الله في إنجائه وانتقامه من كفار قومه، وبيان قدرته وحكمته «**وَتَعِيَهَا**» تحفظها «**أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**» أي: تعي كل شيء، وتعلم، وقيل: حافظة، عن ابن عباس، وقيل: سامعة قابلة ما سمعت، وقيل: تقديره: ولتعيها، واللام لام الأمر، فالمراد لتسمع ولتحفظ؛ لأنها معطوف على قوله: «**لنجعلها**»، «**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ**» قيل: أراد به النفخة الأولى يموت عندها الخلق، وإنما قال: (نفخ) ولم يقل: نفخت؛ لأن تأنيث النفخة ليس بحقيقي، ويحتمل النفخة الثانية التي عندها تبعث «**وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا**» أي: كسرتا ودقتا، قيل: صارا ترابًا، عن ابن زيد،

وقيل: بسطتا بسطة واحدة، وقيل: ضرب بعضها ببعض حتى تفتت الجبال، وسفتها الرياح، وبقيت الأرض شيئًا واحدًا لا جبل فيها ولا رابية، بل تكون قطعة مستوية، وإنما قال: دكتا؛ لأنه جعل الأرض شيئًا واحدًا «**فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ**» أي: قامت القيامة «**وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ**» قيل: ضعيفة، وقيل: منخرقة، عن أبي مسلم، وقيل: صار بعد الصلابة كالصوف في الوهي «**وَالْمَلَكُ**» اسم يقع على الواحد والجمع «**عَلَى أَرْجَائِهَا**» نواحيها وأقطارها، عن الحسن، وقتادة، وسفيان، وقيل: هي لغة هذيل، وقيل: السماء مكان الملائكة، فإذا وهت صارت في نواحيها، وقيل[١]: إذا رأى الخلق جهنم بدروا هاربين، فتردهم الملائكة، عن الضحاك، وقيل: على أرجائها ينظرون إلى الخلق، ثم ينزلون فيكرمون المؤمنين، ويعذبون الكافرين.

ومتى قيل: إذا وهت السماء فكيف وقفوا على أرجائها؟

قلنا: يجوز أن يتفرقوا في أرجائها، وقيل: هم لا يحتاجون إلى موقف صلب، ألا ترى أنهم يقفون في الهواء.

«**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ**» هو العرش المعروف «**فَوْقَهُمْ**» قيل: فوق الملائكة التي على أرجائها، وقيل: فوق أهل الجمع «**يَوْمَئِذٍ**» أي: يوم القيامة «**ثَمَانِيَةٌ**» قيل: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله، عن ابن عباس، وقيل: ثمانية أملاك، عن ابن زيد، وعن النبي ﷺ: «هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة أخرى فيكونون ثمانية»[٢] وقيل: ثمانية أجناس من الملائكة «**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ**» قيل: يعرضون على ثلاث عرصات، ثنتان فيهما معاذير وجدال، وفي الثالثة[٣] تطير الصحف في الأيدي، فآخِذٌ بيمينه، وآخذ بشماله، في خبر مرفوع عن ابن مسعود، وقتادة، والعرض للجزاء والمحاسبة «**لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ**»؛ لأنه تعالى يعلم سرهم وجهرهم.

(١) وقيل: قيل، غ.

(٢) مسند إسحاق بن راهويه رقم ١٠ ص٩٠.

(٣) وفي الثالثة: والثالث، غ.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أنه جعل الخبر الذي تقدم تذكرة للزجر عن المعاصي والحث على الطاعة.

وتدل الآيات على أهوال القيامة وانشقاق السماء، وكون الملك في الأطراف، ويرون العرش.

ومتى قيل: فما فائدته؟

قلنا: تعظيمًا لحال العرض عنده على ما جرت به العادة في الدنيا، وقيل: هو علم لجميع الناس عنده، وقيل: هو سقف الجنة، وظل أهل الطاعة.

ومتى قيل: وكيف العرض على الله، وهو ليس في مكان؟

قلنا: قيل: هو عرض على الملائكة، وقيل: على موضع الحساب، وذلك عرض الجزاء، لا عرض المعرفة؛ لأنه تعالى عالم بكل شيء.

قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾

۞ القراءة

قرأ حمزة ويعقوب: «**ماليه**» و«**سلطانيه**»[1] وفي سورة (القارعة) ﴿مَاهِيَهْ﴾ [القارعة: ١٠] بحذف الهاء في الوصل، وقرأ يعقوب وحده: «**اقرأوا كتابيه**»، **ملاق حسابيه**»، «**لم أوت كتابيه**»، «**ما حسابيه**» بحذف الهاء في الوصل، الباقون بإثبات الهاء في الوصل، ولا خلاف في إثباتها عند الوقف.

---

(١) السبعة في القراءات ١٨٩.

۞ اللغة

العيشة: الحالة التي تستمر بها الحياة، عاش عيشًا، ومنه: المعاش الذي يُطْلَب لفائدة النفع.

والراضية: «فاعلة» من رضي يرضى راضية، أي: ذات رضًا، كأن العيشة أعطيت حتى رضيت؛ لأنها بمنزلة الطالبة، كما أن الشهوة بمنزلة الطالبة للمشتهى.

والقطوف: واحدها قِطْفٌ، مكسورة القاف، وهي الثمرة التي تقطف، فإذا فتحت القاف فهو مصدر قَطَفَ يَقْطِفُ قَطْفًا، فهو قاطف، نحو: ضرب يضرب ضربًا، فهو ضارب، والقطف: أخذ الثمرة من الشجرة بسرعة.

والدنو: القرب، دنا يدنو دنوًا فهو دان، وتدانيا.

والقاضية: الفاصلة بالإماتة، من قضى فلان: إذا مات، وأصله: فصل الأمر، ومنه: قضى القاضي بكذا، والجمع قضايا، ومنه قضاء الله: إجباره على القطع.

۞ الإعراب

«**يا ليتها**» الهاء كناية عن الموتة الأولى في الدنيا، كناية عن غير مذكور.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ في شأن أبي سلمة بن عبد الأسد، عن ابن عباس.

وقيل: بل هو عام، وهو الصحيح، وذلك الرجل داخل في الجملة.

۞ المعنى

ثم بَيَّن تعالى حال الخلق يوم القيامة، فقال سبحانه وتعالى: «**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ**» وهم المؤمنون «**فَيَقُولُ هَاؤُمُ**» قيل: تعالوا، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. «**اقْرَءُوا كِتَابِيه**» وهذا كلام مَنْ بَلَغَ الغاية في السرور، فيدعو غيره لقراءة كتابه والاطلاع على حاله، وقيل: يدعو أهله وقراباته ليزدادوا سرورًا، وقيل: يجوز أن يدعو أعداءه

ليزدادوا حسرة، وقيل: هلموا لتنظروا إلى ما أمر الله لي من النعم، وقيل: يقولون ذلك لخزنة الجنة؛ ليعرفوا مبلغ جزائهم فيوفروه[١] عليهم «إِنِّي ظَنَنتُ» بمعنى علمت وأيقنت في الدنيا «أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيه» قيل: الهاء لنظم رؤوس الآي[٢]، وقيل: للاستراحة، وقيل: معناه: ظننت أنه يؤاخذني بسيئاتي بما جعلتها، وقيل: ظننت في الدنيا فيما تكلفته من الأعمال، أي: أصل بها إلى هذه الدرجات «فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ» قيل: مرضية، وقيل: ذات رضا «فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ» رفيعة القدر والمكان «قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ» قريبة، قيل: لا ترد أيديهم عن ثمرتها، عن قتادة، وقيل: دانية مهيأة «كُلُوا» أي: ويقال لهم: كلوا من الطعام «وَاشْرَبُوا» من الشراب «هَنِيئًا» قيل: الهنيء: المريء الذي ليس فيه[٣] ما يؤذي، ولا يعقب أذى كالغائط والبول «بِمَا أَسْلَفْتُمْ» أي: قدمتم «فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ» الماضية، يعني: في الدنيا، وقيل: أيام الصيام، وقيل: أيام الخلوة، قال قتادة: أيامكم هذه أيام خالية تؤديكم إلى أيام باقية اعملوا فيها وقدموا خيرًا، وقيل: كتاب المؤمن مزبور، وعليه خط من نور.

«وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ» وهم العصاة، قيل: هي علامة أهل النار، تُلْوَى يده اليسرى خلف ظهره، ثم يعطى كتابه، وقيل: تنزع من صدره إلى خلف ظهره، وقيل: يفعل ذلك استخفافًا بهم، وقيل: بل أيمانهم مغلولة، فإذا قرأ[٤] كتابه مشحونًا بكل قبيح وفاحشة قال تحسرًا وتندمًا: «يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه» كلام من ضاق صدره، وقَلَّتْ حيلته، فيقول: يا ليتني لم أُعْطَ هذا الكتاب، ليتني لم أره، ليته لم يكن «وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه» هذا كلام تحسر وتندم «يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ» يعني يا ليت الموتة التي كانت في الدنيا كانت قاضية عليَّ فلم يكن لي حياة ولا نشور، وقيل: القاضية: الموت، أي: ليت الموت أتى، فأستريح، عن أبي علي، قال قتادة: تمنى الموت ولم يكن عنده في الدنيا شيء أكره منه، وقيل: معناه: يا ليتني مت، فاسترحت «مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه» أي: ما كفى عني شيئًا من عذاب الله، وما نالني من المكروه، وقيل:

(١) فيوفروه: فيوفرونه، غ.
(٢) الآي: الآية، غ.
(٣) فيه: فيها، غ.
(٤) قرأ: قراوا؛ غ.

قصرت همتي على تحصيل المال؛ ليكون نصرة لكشف الكرب فما نفعني اليوم، وقيل: استوجب النار بسبب ماله، وهلك ماله وحشر فردًا «**هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه**» قيل: حجّتي، عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، أي: ضل عني ما كنت أعتقده حجة في الباطل، وقيل: المُلْك الذي كان لي في الدنيا، عن ابن زيد، قال الحسن: لكل إنسان سلطان على نفسه ودينه وعيشه، ويزول ذلك في الآخرة، ولا ينفعه تبار مال الدنيا ولا ملكه، ولا الأتباع، وقيل: إنما ينوح بهذه النياحات إذا تيقن الأبد، واستحقاق العذاب بسبب ما جمع من المال الحرام، وما استعمله في معصية الله، فيبطل عنه جميع ذلك، ويبقى متندمًا متحيرًا.

۞ الأحكام

تدل الآيات على اختلاف أحوال الناس في إعطاء الكتب: ما يفعله المؤمنون من علامات المسرة، ويفعله العصاة من علامات الحسرة، وذلك لطف في الطاعة، وزجر عن المعصية.

ويدل قوله: «**كلوا**» أنه يريد الأكل منهم؛ لأن صيغته الأمر، ولأنه يزيد ذلك في سرورهم، وهذا على قول أبي هاشم والقاضي، وعند أبي علي: هو إباحة، ولا يريده.

ويدل قوله: ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ أن الثواب جزاء الأعمال، وكذلك العقاب.

وتدل على أن ذلك فعلهم.

وتدل على تزهيد في جمع المال والملك، وترغيب في الجنة.

قوله تعالى:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾

اللغة

الجحيم: اسم من أسماء جهنم، وهو في اللغة: اسم للنار العظيمة، والجحيم والسعير والوقود نظائر.

والتصلية: إلزام النار، ومنه: اصطلاء القعود عند النار للدفاء، وأصل الباب: اللزوم، ومنه: المُصَلِّي: الذي يلزم أثر السابق.

والسلسلة: حلق منتظمة، ومنه: سلسل في كلامه، أي: أعقده شيئًا بعد شيء، وتسلسل: إذا استمر شيئًا قبل شيء على الولاء والانتظام.

والذرع: قدر معروف، وأصله مأخوذ من الذراع، وهو العضو المعروف، وثوب مذروع، ويقال: ذرعه يَذْرَعُهُ ذرعًا.

والغِسْلِينُ: مأخوذ من الغسل، وهو الصديد، كأنه غُسَالَة فروجهم.

المعنى

لما تقدم ذكر حالتي الناس في الكتاب عقَّبه بذكر وعيد العصاة، وما أعد لهم، فقال سبحانه: «**خُذُوهُ**» أي: يقال للملائكة الذين هم خزنة جهنم: خذوه، وقيل: يجمع كل واحد منهم جماعة من الزبانية «**فَغُلُّوهُ**» أي: اجعلوا الأغلال في أعناقهم «**ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ**» أي: أدخلوه النار وألزموه إياها «**ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ**» أي: اسلكوه في السلسلة فيدخل عنقه فيها ثم يجرها، وقيل: تدخل في دبره وتخرج من منخريه، عن ابن عباس، وقيل: تدخل في فيه وتخرج من دبره، عن الضحاك، وقيل: تدخل في دبره وتخرج من حلقه، وتكون محماة بنار جهنم، عن أبي علي.

واختلفوا في الذراع: قيل: سبعون ذراعًا بذراع الملك، عن ابن عباس، وقيل: كل ذراع سبعون باعًا، الباع ما بين كوفة ومكة، عن نوف، وقيل: كل ذراع سبعون ذراعًا، عن سفيان، وقيل: الله أعلم بأي ذراع هو، عن الحسن، وقيل: لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها، عن كعب، وقيل: يشد بالسلسلة زيادة في تعذيبه،

وقيل: تشد يده ورجله ليتقي العذاب بوجهه، وقيل: يرمى في النار مجموعةً يدُه إلى عنقه ورجلُه إلى رأسه، ثم ترميه النار من قعرها، ويعود فيها ـ نعوذ بالله ـ، واختلفوا: قيل: تقدير الكلام: اجعلوا هذه السلسلة بمنزلة الخيط، يسلك فيه الخرز جزاء على ما كان منه، وقيل: إنما تسلك السلسلة فيه، ولكن جاء الكلام على القلب، والتقديم والتأخير من غير اختلال المعنى.

«**إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ**» شأنه وصفاته «**وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ**» وهو المحتاج الفقير، وهو منع الزكاة والحقوق الواجبة «**فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا**» يعني يوم القيامة «**حَمِيمٌ**» قيل: أحد يحميه، عن أبي علي، وقيل: صديق ينفعه، وقيل: قريب يعينه «**وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ**» قيل: صديد أهل النار، عن ابن عباس، وقيل: شجرة يأكلها أهل النار، عن الضحاك، والربيع، وقيل: طعام من طعام النار، عن مجاهد، وقيل: هو الطحلب، عن الأصم، وقيل: النار دركات، فمنهم من طعامه غسلين، ومنهم من طعامه الضريع «**لاَ يَأْكُلُهُ**» أي: الغسلين «**إِلاَّ الْخَاطِئُونَ**» قيل: المجرمون، وقيل: الكافرون.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: عظم عذاب أهل النار، والخبر عنه لطف للمكلف.

ومنها: دلالة قوله: «**لا يؤمن**» «**ولا يحض**» على أن العذاب مستحق بألاَّ يفعل الواجب على ما يقوله شيخنا أبو هاشم، خلاف ما يقوله أبو علي.

ومنها: أن الكافر يعاقب على غير الكفر دائمًا.

ومنها: أن الكافر مخاطب بالشرائع، خلاف ما يقوله بعض الفقهاء.

ومنها: أن نوعًا من العذاب أَكْلُ الغسلين في خبر مرفوع: «لو أن دلوًا من غسلين يهراق في الدنيا لأنتن أهل الأرض»[1].

(١) المستدرك رقم ٣٨٥٠.

ومنها: أن أهل النار الخاطئون، فيشتمل على الكفار والفساق، وعن ابن عباس أنهم أصحاب الخطايا.

قوله تعالى:
﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا
تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ
ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧
وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُۥ
لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾

❁ القراءة

قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب: «**يؤمنون**» و«**يذكرون**»[١] بالياء[٢] كناية عن الكفار، والباقون بالتاء خطابًا لهم.

❁ اللغة

القسم والحلف واليمين نظائر.

والكريم: الكثير الخير الواسع المعروف، ونقيضه: اللئيم.

والتَّقَوُّل: تكلف القول من غير رجوع إلى حق، والتَّقَوُّل والتكذب والتزيد نظائر.

والوتين: نياط القلب، وإذا انقطع لم يكن معه حياة، وُتِرَ الرجل، فهو موتور.

والحاجز: المانع من التقاء شيئين؛ لكونه بينهما، حَجَزَهُ يَحْجُزُهُ.

والتذكرة: العلامة التي يذكر بها المعنَى، ذَكَّرَهُ تَذْكِرَةً، نحو: جَزَّأَهُ تَجْزِئَةً.

(١) حجة القراءات ٧٢٠.

(٢) بالياء: بالتاء، غ. والصواب ما أثبتناه، بدليل ما بعده.

۞ الإعراب

يقال: لم قال: «حاجزين» والفعل لواحد؟

قلنا: لأنه رد على المعنى نحو قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقيل: أحد فيه، معناه: جَماعةٌ.

واللام في قوله: «لتذكرة» لام القسم، وقيل: ليس بلام القسم؛ لأنها تكون مع النون الثقيلة، وإنما أدخل للتقدير.

۞ المعنى

ثم أكد ما تقدم، فقال سبحانه: «فَلَا أُقْسِمُ» فيه أوجه:

أحدها: أن (لا) صلة مؤكدة، وهو قول البصريين.

وثانيها: أنه رد لكلام، وإثبات لآخر، كأنه قيل: ليس الأمر كما يزعمه هؤلاء، عن الفراء.

وثالثها: لأنه نفى القسم؛ لأنه لا يحتاج إلى القسم لو يحوجه، فهو أظهر من أن يحتاج في إثباته إلى قسم، عن أبي مسلم.

ورابعها: أنه كقولهم: لا والله، لا أفعل كذا.

«بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ» قيل: بما ترون وما لا ترون، وأراد جميع المكونات؛ لأن الذات كلها لا تخلو من هذين القسمين، وقيل: ما تبصرون الشمس والقمر، وما لا تبصرون العرش والكرسي، وقيل: الجنة والنار، وقيل: ما تبصرون: الرسول، وما لا تبصرون: جبريل عليهما السلام، وقيل: ما على ظهر الأرض، وما في بطنها، وقيل: بالنعم الظاهرة والباطنة، وقيل: الدنيا والآخرة، وقيل: بالأجسام والأرواح، وقيل: الإنس والجن والملائكة، وقيل: ما تبصرون من آيات قدرته، وما لا تبصرون من أسرار قدرته «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ» قيل: جبريل، عن أبي علي، وقيل: محمد، عن الحسن. «كَرِيمٍ» جامع لخصال الخير، وقيل: كريم على ربه.

ومتى قيل: إذا كان القرآن كلامه تعالى فَلِمَ أضافه إلى الرسول؟

قلنا: فيه وجوه:

قيل: كانوا ينكرون أن يكون كلام رسول الله، ويقولون: هو سحر، فبين أنه كلام رسوله؛ لأنه سمع منه، عن أبي علي.

وقيل: تلاوته وأداؤه.

وقيل: فيه حذف أي: قول مُرْسِلِ رسولٍ كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهلها.

«**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ. وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ**» الشاعر من ينشئ الشعر، ويبتدئه، والكاهن: من يقول: إن الجن تلقي إليه الأخبار، نفى عنه الشعر؛ لأن الشاعر يتبع الهوى، ويراعي النظم دون الصدق والكذب، ويقول الكذب، ولأنه ما شعر إلا وقد قيل مثله أو قريبًا منه، والقرآن بلغ في الإعجاز حَدًّا لا يأتي أحد بمثله، ولا قريبًا منه، ونفى عنه الكهانة؛ لأنها كذب وحيلة توهم العوام أنه شيء، وليس له حقيقة، قال قتادة: طهره الله من الشعر والكهانة وعصمه عنهما «**قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ**» صفة للمكذبين، أي: لم يتفكروا ليعلموا المعجز[1]، ويفصلوا بينه وبين الشعبذة والكهانة «**تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» أي: أنزله هو، ولا يضره تكذيبهم «**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ**» أي: تَخَرَّصَ علينا، وتخلق كذبًا، قيل: ادعى الوحيَ فيما لم يوح إليه، عن أبي علي، وقيل: بزيادة أو نقصان، أو تغيير لو فعل ذلك «**لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ**» أي: لو فعل ذلك لانتقم الله منه، فنفى ذلك عنه، وبَيَّنَ عصمته، قيل: لأخذنا منه يده اليمنى على جهة الإذلال، كما يقول السلطان: يا غلام، خذ بيده، إهانة له، عن ابن جرير، وقيل: باليمين بالقوة؛ أي: انتقمنا منه بقدرة عليه، عن ابن عباس، وقيل: لقطعنا يده اليمنى، عن الحسن، وأبي مسلم، وقيل: الباء زائدة؛ أي: لأخذنا منه اليمين، والمعنى ما قاله الحسن، وقيل: (من) زائدة، والمعنى: لأخذناه وعاقبناه بالحق «**ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**» قيل: نياط القلب، عن ابن عباس،

---

(١) المعجز: المعجزة، غ.

وسعيد بن جبير، وأكثر المفسرين، وقيل: عرق في القلب يتصل بالظهر، عن مجاهد، وقتادة، والضحاك، وهو حبل القلب، وقيل: لقطعنا منه علقة النبوة، ولأحبطنا عمله، وهو وعيد على ما يتخاطبون به «**فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ**» أي: مانعين عن العقاب «**وَإِنَّهُ**» يعني القرآن «**لَتَذْكِرَةٌ**» أي: عظة لمن تدبر وتفكر، وخص المتقي[1]؛ لأنه الذي ينتفع به لتفكره فيه «**وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ**» أشار إلى أن منهم مصدق ومكذب «**وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ**» قيل: القرآن حسرة عليهم حيث لم يعملوا به، وقيل: البعث والحساب حيث لم يعدوا لها، وقيل: أمر النبي ﷺ حسرة عليهم، حيث كذبوه، وقيل: التكذيب حسرة عليهم؛ لأنه تقدم ذكره في قوله: «**مكذبين**»، عن أبي علي. «**وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ**» فأضاف الحق إلى اليقين لاختلاف اللفظين، قيل: تأكيدًا، وقيل: معناه أنه صِدْقٌ ويقين لا شك فيه، وقيل: هو تنزيل رب العالمين حقًا ويقينًا، وقيل: ما ذكر فيه حق اليقين كائن لا محالة، ذكر هذين الوجهين أبو مسلم. «**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ**» أي: نزهه عما لا يجوزعليه من الصفات، وعلى ما أيدك من النبوة، وكِلْ أمرهم إلى الله «**الْعَظِيمِ**» الذي يصغر كل شيء في جنب عظمته.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: أن القرآن معجزة، وأنه كلامه تعالى.

ومنها: أنه تنزيل فيدل على حدوثه.

ومنها: أن أداءه، وتبليغه من جهة الرسول.

ومنها: أن الرسول معصوم صادق فيما يقول؛ إذ لو غَيَّرَ لَفَعَلَ به ما ذكر.

ومنها: أن الوعيد ثابت في أهل الصلاة؛ لأنه إذا ثبت فيه فغيره أولى.

ومنها: أن الشفاعة لا تكون لأهل الكبائر؛ لأنه إذا لم يصح أن يدفع عن نفسه فغيره أبعد.

---

(١) المتقي: المتقين، غ.

ومنها: أن التكذيب والتقول فعل العبد، خلاف قول المجبرة: إنها خلق الله تعالى.

ومنها: دلالة قوله: «**لتذكرة**» أن القرآن حجة، ويصح أن يعلم معناه.

ومنها: دلالة قوله: «**وإنه لحسرة**» على أن أفعال العباد فعلهم، وأنهم قادرون على ما لم يفعلوا، لولا ذلك لما صح تحسرهم.

ومنها: دلالة قوله: «**فسبح**» على وجوب تنزيهه عن صفات النقص والأفعال القبيحة، على ما تزعمه المشبهة والمجبرة.

سُورَةُ المَعَارِج

سورة (سأل سائل) مكية، وهي أربع وأربعون آية، وتسمى سورة (المعارج) أيضًا.

وعن أبي بن كعب عن النبي ﷺ: «من قرأ (سأل سائل) أعطاه الله تعالى ثواب الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون».

ولما ختم سورة (الحاقة) بوعيد الكفار افتتح هذه السورة بمثل ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر: «**سَالَ سائل**» ساكنة الألف غير مهموزة[1]، الباقون: مهموزة مفتوحة الألف، واتفقوا في «**سائل**» أنه مهموز، فمن قرأ بالهمز عن السؤال لا غير، وهو اختيار أبي عبيد، وأبي حاتم، فعلى هذا الباء في قوله: «**بعذاب**»

(١) حجة القراءات ٧٢١.

قيل: بمعنى (عن)، كقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[الفرقان: ٥٩] أي: عنه، قال علقمة بن عبدة:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي   بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ[١]

أي: عن النساء، وقال آخر:

دَعِ المُعَمَّرَ لاَ تَسْأَلْ بِمَصْرَعِهِ   وَاسْأَلْ بِمَصْقَلَةِ البَكْرِيِّ مَا فَعَلاَ[٢]

فالمعنى: سأل سائل عن عذاب، وقيل: الباء صلة، تقديره: سأل سائل عذابًا واقعًا للكافرين.

ومن قرأ بغير همز فقيل: إنه لغة في السؤال، سال سائل، مثل: نال نائل[٣]، وخاف خائف[٤]، وقيل: هو من السيل، وقيل: هو واد في جهنم يرد عليهم لعله: بحوز وراء السيل، عن الزجاج، وزيد بن ثابت، وعبد الرحمن بن زيد، فعلى هذا الباء في موضعه، كأنه قيل: سال عليهم بعذاب.

قرأ الكسائي: «يَعْرُجُ» بالياء[٥]، وهو قراءة ابن مسعود [ردًّا] إلى المعنى، وهو اختيار أبي عبيدة، الباقون بالتاء ردًّا إلى اللفظ.

۞ اللغة

السؤال: طلب الفعل من غيره.

والدفع مصدر دفع يدفع دفعًا، والدافع: الصارف للشيء عن غيره.

والمعارج: موضع العروج، واحدها: مَعْرَجٌ، عَرَجَ يَعْرُجُ عروجًا، والعروج: الصعود مرتبة بعد مرتبة، ومنه: الأعرج لارتفاع إحدى رجليه عن الأخرى.

(١) اللسان (طبب)، وتاج العروس (طبب).
(٢) البيت قائله الأخطل؛ اللسان (صقل)، وتاج العروس (صقل).
(٣) نائل: ينال، غ.
(٤) خائف: يخاف، غ.
(٥) حجة القراءات ٧٢١.

الإعراب

«**بعذاب**» محله نصب، وإنما كسر بالباء، وتقديره: سأل عذابًا.

«**صبرًا**» نصب على المصدر، وهو المفعول المطلق.

«**جميلا**» نعت للصبر.

النزول

قيل: لما بعث النبي ﷺ وخَوَّفَ أهل مكة بالعذاب قال المشركون بعضهم لبعض: مَنْ أَهْلُ هذا العذاب؟ سلوا محمدًا لمن هو؟ وعلى من ينزل؟ فأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ ، عن الحسن، وقتادة.

وقيل: إن النضر بن حارث دعا، وقال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزل به ما سأل يوم بدر، وقتل صبرًا، ولم يقتل من الأسرى غير رجلين: النضر بن حارث، وعقبة بن أبي معيط، عن ابن عباس، ومجاهد.

وسئل سفيان بن عيينة فيمن نزل «**سأل سائل**»؟ فقال: لقد سألتني مسألة ما سألني أحد قبلك، حدثني أبي عن جعفر بن محمد عن آبائه قال: لما كان رسول الله ﷺ بِغَدِيرِ خُمٍّ نادى الناس، فلما اجتمعوا أخذ بيد علي، وقال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»[(1)]، فشاع ذلك في البلاد، فبلغ الحارث بن نعمان، فأتى رسول الله ﷺ على ناقة حمراء حتى أتى الأبطح، وأتى النبي ﷺ، وهو في ملأ من أصحابه، فقال: يا محمد أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصلي فقبلناه منك، وأمرتنا بالزكاة والصوم والحج فقبلناه منك، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمك ففضلته علينا، وقلت: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» فهذا شيء منك، أو من الله؟ فقال: «والله الذي لا إله إلا هو، إنه من الله»، فولى الحارث بن النعمان وقال: اللهم إن كان ما يقول محمد حقًا فأمطر علينا حجارة من السماء،

(١) الترمذي رقم ٣/ ٣٧، وابن ماجه، رقم ١٢١، وأحمد رقم ٦٤١، وابن حبان رقم ٦٩٣١.

فما أَنْ وصل إلى رحله حتى رماه الله بحجر، فسقط على هامته، وخرج من دبره فقتله، وأنزل الله تعالى فيه: ﴿سَأَلَ سَآيِلُۢ﴾ وقيل: إن النبي ﷺ دعا عليهم بالعذاب ففيه نزل: ﴿سَأَلَ سَآيِلُۢ﴾.

۞ المعنى

«سَأَلَ سَائِلٌ» السائل قيل: السائل هو النبي ﷺ، أي: دعا داع «بِعَذَابٍ» الكافرين، عن أبي علي، وقيل: السائل هو النضر بن الحارث، وقال: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ﴾ [الأنفال: ٣٢ الآية]. وقيل: قاله بعض الكفار، ثم اختلفوا، وقيل: قاله تكذيبًا وردًّا، وقيل: على وجه الاستعجال، وقيل: على وجه الاستعلام على من يقع ذلك العذاب، وقيل: دعا النبي ﷺ بالعذاب، عن أبي علي، والباء حقيقة فيه، وقيل: الباء بمعنى (عن) أي: سائل عن عذاب، وقيل: الباء صلة، أي: سأل عذابًا. «وَاقِعٍ» كائن لا محالة؛ لأنه لما تُيُقِّنَ كَوْنُهُ مع فَقْدِ دافع كان كالواقع «لِلْكَافِرِينَ» قيل: اللام للنسبة، لمَّا كان نازلاً بهم نسبه إليهم، عن أبي مسلم، وقيل: تقديره: بعذاب للكافرين واقع على التقديم والتأخير، عن الفراء، وقيل: اللام بمعنى (على)، أي: وليقع عليهم، عن الضحاك، وقيل: اللام بمعنى (عن)، أي: بعذاب واقع ليس له دافع عن الكافرين، وقيل: اللام فيه حقيقة، وتقديره: سأل سائل من الكافرين لمن هذا العذاب الذي يذكره محمد؟ فأجيب بأنه للكافرين، عن الحسن. «لَيْسَ لَهُ» أي: للعذاب «دَافِعٌ» أي: من يدفعه عنهم «مِنَ اللَّهِ» أي: أنه أحل بهم، فالعذاب من خلقه ومن جهته «ذِي الْمَعَارِجِ» صفة الله، أي: رب المعارج ومالكها وخالقها، كقولهم: فلان ذو مال، واختلفوا في المعارج، قيل: السموات، عن ابن عباس؛ لأنها موضع عروج الملائكة، وقيل: المعارج: الفتق التي بين كل سماءين وأرضين، عن ابن كيسان، وعلى هذا «تَعْرُجُ» يتصل بالمعارج، وقيل: ذي الفواضل والنعم؛ عن قتادة، لأنها على مراتب، وقيل: معالي الدرجات التي يعطيها الله أولياءه في الجنة؛ لأنه يعطيهم منازل شريفة ودرجات عظيمة، عن أبي علي، فعلى هذا «تَعْرُجُ» يكون ابتداء كلام، وقيل: معارج الملائكة، عن مجاهد، وقيل: ذي

الدرجات، عن سعيد بن جبير. «تَعْرُجُ» أي: تصعد «الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ» جبريل، خصه بالذكر من بين الملائكة تعظيمًا له، قيل: هم الحفظة يعرجون بعد قضائهم للأمور التي أمروا بها، وقيل: تعرج بالأعمال وتنزل بالتدابير، وقيل: المراد جميع الملائكة، وقيل: تعرج الملائكة في الغمام لقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥] يعني يوم القيامة «إِلَيْهِ» قيل: إلى الموضع الذي يعطيهم الله فيه الثواب في الآخرة كقوله: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] إلى الموضع الذي أمرني ووعدني «فِي يَوْمٍ» قيل: في وقت، وقيل: سماه يومًا؛ لأن الملائكة تعرج إليه في مقدار يوم، عن الزجاج. «كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» اختلفوا في هذه المدة، قيل: هو يوم القيامة، وقيل: بمدة الدنيا، وقيل: لعروج الملائكة، وقيل: للاستطالة، وقيل: للفعال، عن أبي علي، ثم اختلفوا في معنى الكلام، وما ضرب له المدة، فقيل: يوم القيامة تفعل فيه من الأمور، ويقضى من الأحكام بين العباد، وإنزال كل مرتق في الموضع المستحق لو فعل في الدنيا كان مقدراه خمسين ألف سنة، عن أبي علي، وقيل: تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره من عروج غيرهم خمسين ألف سنة، وذلك من أسفل الأرضين السبع إلى فوق السموات السبع، عن مجاهد.

فأما قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٥] فهذا ما بين السماء والأرض الصعود والنزول ألف سنة، خمسمائة للصعود وخمسمائة للنزول، عن مجاهد، وقيل: هو يوم القيامة، عن الحسن، وقتادة، والضحاك، فقدر موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سنين الدنيا، وعروج الملائكة في بعضه، وقيل: لو ولي المحاسبة غيره تعالى في ذلك اليوم لم يفرغ إلا بعد خمسين ألف سنة، وهو يفرغ منه في ساعة، عن الكلبي، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: ليس له دافع من الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه، وقيل: هو يوم القيامة جعل على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، يعني أن أهل الموقف يستطيلون ذلك اليوم لشدته، عن ابن عباس، وأبي مسلم.

وروي عن النبي ﷺ قيل له: ما أطول ذلك اليوم؟ فقال: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»[1]، وعن إبراهيم: ما قدر ذلك اليوم على المؤمنين إلا كما بين الظهر والعصر، وقيل: هو مدة عمر الدنيا من أولها إلى آخرها خمسون ألف سنة، لا يدري أحدكم كم مضى؟ وكم بقي؟ وإنما يعلمها الله تعالى، عن الحكم، وعكرمة، فحمل بعضهم المدة على التحقيق إما للدنيا أو للقيامة، وبعضهم على التشبيه على ما بينا.

«**فَاصْبِرْ**» على أذاهم وتبليغ الرسالة «**صَبْرًا جَمِيلًا**» قيل: تحسن عشرتهم ودعوتهم إلى الله ودينه، والتأني وترك العجلة والمداراة «**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا. وَنَرَاهُ قَرِيبًا**» الرؤية الأولى بمعنى الظن، والثانية بمعنى العلم، أي: يظنونه بعيدًا، ونحن نعلمه قريبًا، قيل: يرونه غير كائن، ونحن نراه قريبًا؛ لأن كل آت قريب، يعني القيامة، وقيل: يرون العذاب بعيدًا ونحن نراه قريبًا عنهم لاستحقاقهم.

❁ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: سؤال عن العذاب، ثم من سأل، وكيف سأل ليس في الظاهر.

ومنها: أن العذاب لا دافع له.

ومنها: وجوب الصبر في الدين وإن ناله في ذلك الأذى.

ومنها: أن القيامة قريبة؛ لأن كل ما هو آت قريب.

ومنها: عروج الملائكة على ما بَيَّنَ تعالى، فتدل على عظيم حالهم، وعظيم قدرة الله تعالى حيث أعطاهم تلك الآلات.

(١) صحيح ابن حبان رقم ٧٣٣٤، ومسند أحمد رقم ١١٧٣٥.

قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

القراءة

قرأ البزي عن ابن كثير، والبرجمي عن عاصم: «**وَلاَ يُسْأَلُ**» بضم الياء، أي: لا يسأل حميم عن حميم[1]، وهو قراءة الحسن، والقراء على فتح الياء، أي: لا يسأل أحدٌ أحدًا لشغله بنفسه.

قرأ أبو جعفر والكسائي: «**يَوْمَئِذٍ**» بفتح الميم[2]، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وحمزة وابن كثير بكسر الميم، واختلف عن عاصم ونافع، فمن فتح جعلهما اسمًا واحدًا كأحد عشر، ومن كسر فلإضافة العذاب إليه.

قرأ حفص عن عاصم: «**نزاعة**» بالنصب[3]، الباقون بالضم، أما الضم: فتقديره: أنها لظى إنها نزاعة للشوى، وقيل: نعتًا للظى، وقيل: لا يجوز أن يكون نعتًا للظى؛ لأن لظى معرفة وهذه نكرة، وأما النصب: فقيل: على الحال، وقيل: كان في الأصل (النزاعة)، فلما نزع الألف واللام نصب بنزع الصفة.

اللغة

المُهْل: الجاري بغلظة، من أمهله إمهالاً ومهلاً، وقال الزجاج: المُهْلُ: دُرْدِيُّ الزيت.

---

(١) حجة القراءات ٧٢٢.

(٢) حجة القراءات٧٢٣.

(٣) حجة القراءات ٧٢٣.

والعِهْنُ: الصوف المنفوش.

والتبصير: التبيين بالبصر، بَصَّرَهُ تبصيرًا، وأَبْصَرَهُ إبصارًا.

والافتداء: انتفاء الضر عن الشيء ببدل منه.

والفصيلة: الجماعة المنقطعة عن جملة القبيلة برجوعها إلى أب خاص، وأصل الفصل: القطع.

ولظى: اسم من أسماء جهنم مأخوذ من التوقد، ومنه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤].

والنزع: أخذ الشيء بشدة، والنَّزَّاعَةُ: الكثيرة النزع.

والشوى: جلدة الرأس. والشوى: الأكارع والأطراف، والشوى: ما عدا المَقَاتِلَ من كل حيوان، يقال: رمى فأشوى أي: أصاب غير المقتل، ورمى فأهوى[1] أصاب المقتل، ومنه: الشوى؛ لأن النار تأخذ الجلدة والأطراف بالتغيير، والشوى: جمع شَوَاةٍ.

و(كلَّا): قيل: أصله: كذا لا، فخففوه[2] وشددوه للمبالغة، فصار (كلَّا)، وقيل: معناه: حقًّا.

وأوعى: حفظ في وعاء.

۞ الإعراب

«**لظى**» موضعها رفع، لأنها خبر (إن)، و«**نزاعة**» خبر آخر، ويجوز أن تكون الهاء في «**إنها**» عماد، و«**لظى**» ابتداء، وخبرها: «**نزاعة**».

«**حميما**» نصب ب (سَأَلَ)، وقيل: معناه: عن حميم، فلما حذف الخافض نصب.

---

(١) في مجمع البيان (رمى فأصمى).

(٢) في غ: تخففوه.

۞ المعنى

ثم وصف تعالى اليوم الموعود به، فقال سبحانه: «**يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ**» قيل: عَكَرُ الزيت، عن مجاهد، وقيل: كالصُّفْرِ المذاب، عن أبي مسلم، والتشبيه وقع في ذوبه وجريانه، وقيل: حر جهنم يذيبها ويقطر على العصاة ذوبها «**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ**» كالصوف المصنوع، وقيل: كالصوف المنفوش، عن مقاتل، وقيل: كالصوف الأحمر، عن الحسن، يعني في ضعفه وتفرقه، وقيل: تصير أولاً كثيبًا مهيلاً، ثم عهنًا منفوشًا، ثم هباءً منثورًا «**وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا**» أي: قريب قريبًا شيئًا لشغل كل إنسان بنفسه عن غيره، عن قتادة، وقيل: لا يسأل حميم حميمًا ليعرف حاله؛ لأن كل أحد يعرف بسيماه، وقيل: لا يسأل أن يحتمل عنه شيئًا من أوزاره ليأسه من ذلك في الآخرة، عن الحسن. «**يُبَصَّرُونَهُمْ**» أي: يتبين لهم الحميم بأبصارهم فلا مخلوق إلا وهو نصب عينيْ صاحبه، يبصر قريبه وحميمه وعشيرته، ولا يكلمه، ولا يسأله شغلاً بنفسه عن أنفسهم، وقيل: يبصرونهم أي: يعرف بعضهم بعضًا ساعة، ثم لا يتعارفون، عن قتادة، وابن عباس، وقيل: يعرفهم المؤمنون، عن مجاهد؛ أي: يبصر المؤمن أعداءه على حالهم من العذاب، فيشمت بهم ويسر، وقيل: يعرف أتباعُ الضلالِ رؤساءَهُمْ، وقيل: يعرفونهم، أما المؤمن ببياض وجهه، وأما الكافر فبسواد وجهه، عن السدي، وقيل: إن الله تعالى يبصر ملائكة العذاب من يستحق العذاب حتى لا يحتاجوا[1] إلى سؤال، وذلك بعلامات يفعلها في وجوههم «**يَوَدُّ الْمُجْرِمُ**» أي: يتمنى المشرك والمذنب «**لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ**» أي: تمنوا سلامتهم بإسلام هؤلاء الأعزة إلى النار والعذاب بدلاً منه، ثم يخلصه «**وَصَاحِبَتِهِ**» امرأته، «وبنيه»: أولاده، وقيل: بنوه «**وَفَصِيلَتِهِ**» قيل: عشيرته الأقربون منه «**الَّتِي تُؤْوِيهِ**» يأوون إليه «**وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ**» (ثم) بمعنى الفاء أي: فينجيه، معناه: يخلصه من العذاب «**كَلَّا**» أي: ليس كذلك، لا ينجيه من عذاب الله شيء، ثم ابتدأ فقال: «**إِنَّهَا لَظَى**» وقيل: كلا أن يظن ذلك، وقيل: كلا أن يكون

(١) يحتاجوا: يحتاجون؛ غ.

كذلك، وقيل: «كلا»؛ أي: لو تمكن منهم ما نجاه أحد فكيف ولا تمكن، وقيل: كلا: حقًّا؛ متصل بقوله: (لظى)، «إنها لظى»: اسم من أسماء جهنم، وقيل: هي الدركة الثانية سميت بذلك لأنها تلتهب «نَزَّاعَةً لِلشَّوَى» قيل: الأطراف كاليد والرجل والهام، عن قتادة، وقيل: للجلد وأم الرأس، عن ابن عباس، وقيل: لحم الساق، عن أبي صالح، وقيل: أم الرأس تأكل الدماغ كله ثم يعود كما كان، عن الكلبي، وقيل: العصب والعقب، عن سعيد بن جبير، وقيل: جلد الرأس، عن مجاهد، وقيل: اللحم دون العظم، عن مجاهد أيضًا، وقيل: يحرق كل شيء ويبقى فؤاده، عن الحسن، وقيل: محاسن وجهه، عن أبي العالية، وقيل: المفاصل «تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى» يعني النار تدعو إلى نفسها من أدبر عن الإيمان، وتولى عن طاعة الله تعالى، عن قتادة، وقيل: عن الحق، عن مجاهد، وقيل: عن الرسول، وقيل: النار لا تدعو، ولكن جعلها الله موضع العصاة، فكأنها تدعو، عن أبي مسلم، وقيل: الله تعالى يُنْطِقُ النار حتى تدعوهم إليها، وقيل: خزنة النار تدعوهم، فجعل ذلك دعاء منها، عن أبي علي، كما يقال للجائع: الطعام يدعوك، وعن ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح، تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب، وهذا الدعاء بخلق الله في النار، وقيل: تدعو: تُهْلِكُ، عن ثعلب، تقول العرب: دعاك الله أي: أهلكك «وَجَمَعَ» المال «فَأَوْعَى» أمسكه فلم يؤد حق الله، وقيل: جمعه من باطل ومنعه عن الحقوق، وقيل: كسبه من غير حله، وأنفقه في غير حله.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: عظم أهوال يوم القيامة.

ومنها: أن السماء من حديد حتى تذوب كما روي.

ومنها: أن أحدًا لا يُتَعَرَّفُ عن حاله؛ لأن كل واحد يعرف بعلامة.

ومنها: أن كل أحد يشغله شأنه عن شأن غيره.

ومنها: أن المجرم معذب، وكل مرتكب لكبيرة مجرم، بخلاف قول المرجئة.
ومنها: أنه لا ينبغي أن يشتغل بجمع المال.
ومنها: أن في المال حَقًّا يلحقه الوعيد بمنعه.
ومنها: أن الإدبار والتولي والجمع فعل العبد؛ لذلك استحق العذاب.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا
ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ
وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ
غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾
وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

القراءة

قرأ ابن كثير: «**لأمانتهم**» بغير ألف بعد النون على واحدة[(١)]، الباقون بالألف على الجمع.

قرأ حفص عن عاصم ويعقوب: «**بشهاداتهم**» بألف بعد الدال على الجمع[(٢)]، الباقون بغير ألف على واحدة.

وكلهم قرؤوا: «**صلاتهم**» بغير واو على واحدة.

اللغة

الهَلُوعُ: العَجُولُ الضجور، وناقة هِلْوَاعٌ: إذا كانت سريعة خفيفة، عن أبي مسلم، وقيل: الهَلَعُ أشد الحرص وأسوأ الجزع.

---

(١) حجة القراءات ٧٢٤.
(٢) حجة القراءات ٧٢٤.

والجزع: خلاف الصبر، جزع جزعًا.

والحق: وَضْعُ الشيء موضعه، على ما يدعو إليه العقل والشرع من قولهم: حق الشيء يحق حَقًّا وحقة، كقولك: تحققه.

والعادي: الخارج عن الحق عدا فهو عادٍ: إذا اعتدى، وعدا في مشيه يعدو عدوًا: إذا أسرع، وهو الأصل؛ لأن المتعدي أسرع الخروج عن الحق وجاوزه إلى الظلم.

الإعراب

«هلوعا» نصب على الحال، عن أبي مسلم.

و«جزوعًا» و«منوعا» نصب على المجاورة لقوله: «هلوعًا» ولم ينصب على ما نصب عليه «هلوعًا»، عن أبي مسلم.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حال الخلق، فقال سبحانه: «إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا» قيل: الهلوع الحريص الضجور، يعني خلق مشتهيًا فهو يَسْتَبِقُ إلى شهواته، ويقل صبره عنها؛ لأنه تعالى خلقه مشتهيًا، والشهوة تدعوه إلى الحرص والضجر، وقد أمر بالصبر وقلة الحرص، وإنما خلق كذلك؛ لأن التكليف لا يصح إلا بالشهوة فهذا هو حقيقة المعنى، واختلف عبارات المفسرين عن الهلوع وأكثروا، فقيل: الهلع: شدة الجزع مع الحرص والضجر، عن ابن عباس، وعكرمة، وقيل: الحريص على ما لا يحل له، عن ابن عباس رواه أبو صالح عنه، وقيل: هو الذي قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾، عن عطية عن ابن عباس، وقيل: شحيحًا، عن سعيد بن جبير، وقيل: جزوعًا، عن قتادة، وابن زيد، وقيل: حريصًا شرهًا، عن مجاهد، والضحاك، وقيل: ضيق القلب، عن مقاتل، وقيل[1]: خلقه الله تعالى يحب ما يسره ويرضيه ويكره ما يدهيه، ثم تعبده بإنفاق ما يحب، والصبر على ما يكره، عن الأصم، وقيل: عجولاً، عن عطاء، وقيل: إذا مسه الخير لم يشكر، وإذا مسه الشر

(١) وقيل: قيل، غ.

لم يصبر، عن أبي عبيدة، وثعلب، وقيل: إذا أقتر جزع، وإذا أيسر منع، عن سهل، وقيل: أراد بالكفار خاصة، وقيل: الخلق عامة، وقيل: خلق ضعيفًا عن الصبر على الهلع والجزع؛ لأنه لم يكن في ابتداء خلقه يجزع ولا يهلع، ولا يشعر لذلك بحال الطفولية، ولم يرد تعالى أنه خلق فيه هذه الصفة، وإنما أراد أنه خلقه مشتهيًا محتاجًا ضعيفًا، فاقتضى أن يكون ضجورًا عند المكاره، ومنوعًا للخيرات.

ثم بَيَّنَ تعالى عادته، فقال سبحانه: «**إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا**» قيل: هو جميع ما يلحقه من المصائب والمشاق التي يجب الصبر عليها، فإذا لم يصبر كان مذمومًا «**وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**» يمنع حق الله تعالى منه، ثم استثنى قومًا فقال تعالى: «**إِلاَّ الْمُصَلِّينَ**» قيل: هم الصحابة خاصة، وقيل: جميع المؤمنين من كان بهذه الصفة، يعني الذين من شأنهم الصلاة وإن شق عليهم «**الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ**» يعني يديمون إقامة الفرائض «**وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ**» قيل: ما يخرج في صدقة أو صلة رحم، عن ابن عباس، وقيل: الزكاة المفروضة، عن ابن عباس أيضًا. «**لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**» السائل: المحتاج الذي يسأل الناس، والمحروم: الممنوع، قيل: الذي حرم الرزق وهو لا يسأل الناس، عن أبي علي، وقيل: الذي لا شيء له، خلاف المرتزق، عن أبي مسلم، وقيل: حرم أن يعطى الصدقة بتركه المسألة، عن الحسن، وأصله: المنع، وقيل: المحروم: الزَّمِنُ، وقيل: المحروم: الذي لا حظ له في العطاء، وقيل: المحروم: من أصاب ماله جائحة أو آفة، وقيل: المحروم: الكلب والسنور ونحوها مما يطوف على الإنسان «**وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ**» يعترفون «**بِيَوْمِ الدِّينِ**» أي: بيوم القيامة، وقيل: بيوم الجزاء؛ لأنهم لما علموا الظالم والمظلوم، ورأوا منع المشتهى بالتكليف علموا أن هناك دارًا أخرى معدة للجزاء والانتصاف. «**وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ**» أي: خائفون «**إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ**» أي: لا يؤمن حلوله بمستحقه وهم العصاة، وقيل: يخافون ألاَّ تقبل حسناتهم ويؤخذون بسيئاتهم، وإنما قال: «**غَيْرُ مَأْمُونٍ**»؛ لأن المكلف لا يعلم هل أدى الواجب كما أمر، أو هل انتهى من المحظورات؟ حتى لو قدرنا إنسانًا يعلم ذلك لأَمِنَ «**وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ**» لا يبذلونها «**إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ**» وهم الذين بينهم عقد النكاح «**أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ**

«غَيْرُ مَلُومِينَ» في الاستمتاع[١] بهن «فَمَنِ ابْتَغَى» طلب «وَرَاءَ ذَلِكَ» أي: سوى المنكوحة والمملوكة «فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ» المجاوزون للحد «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ» قيل: ما يؤتمن المرء عليه كالوصايا والودائع والحكومات والعبادات ونحوها؛ لأن جميع ذلك ائتمنوا عليها «وَعَهْدِهِمْ» ما فرض عليهم «رَاعُونَ» حافظون «وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ» قيل: يقيمونها ولا يكتمونها ولا يزيدون ولا يغيرون لقرابة أو جَرِّ نفع، وقيل: هو الشهادة بين الناس، وقيل: المراد الشهادة في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] فيقيمون الشهادة في الآخرة، وقيل: قائمون بحفظ ما شهدوا به من شهادة أن لا إله إلا الله لا يشركون به شيئًا، ولا يأتون بما ينقض هذا الأصل، والشهادة بالتوحيد والعدل والنبوات في الشرائع أعظم الشهادة «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ» أي: يحفظون أوقاتها وأركانها وسننها فيؤدونها بتمامها، ولا يضيعون شيئًا منها «أُوْلَئِكَ» من تقدم صفتهم «فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ» معظمون بالثواب.

۞ الأحكام

الآيات تدل على أشياء:

منها: ذم الجزع، فيجب الصبر عند البلاء، وذم منع الواجب.

ومنها: وجوب الصلاة والزكاة، والاعتراف بيوم البعث، وشيء من ذلك لا يصح إلا بعد معرفة التوحيد والعدل والنبوات والشرائع، فيتضمن الإقرار بأصول الدين.

ومنها: الخوف من العقاب، فيترك المعاصي.

ومنها: وجوب أداء الأمانات، وحفظ الفروج.

ومنها: أن الجنة إنما تُنَالُ بهذه الأشياء، خلاف قول المجبرة: إنه ليس بجزاء، وخلاف المرجئة.

وتدل أن هذه الأفعال حادثة من جهة العبد ليصح الأمر والنهي، والثواب والعقاب.

---

(١) الاستمتاع: الاستماع، غ.

قوله تعالى:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

القراءة

قرأ الحسن وعاصم في بعض الروايات عنه: «**أن يَدْخُلَ**» بفتح الياء وضم الخاء[(1)]، أضاف الفعل إليهم، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله.

قرأ أبو جعفر: «**رب المشرق والمغرب**» على واحد، الباقون: «**المشارق والمغارب**» على الجمع[(2)].

قرأ أبو بكر عن عاصم: «**يُخْرَجُون**» بضم الياء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله[(3)]، الباقون بفتح الياء وضم الراء، أضاف الخروج إليهم.

قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم: «**نُصُبٍ**» بضم النون وسكون الصاد، الباقون بفتح النون وسكون الصاد[(4)]، وهي قراءة زيد بن ثابت، وأبي رجاء، وأبي العالية، والحسن، وأشهب العقيلي، واختيار أبي حاتم، وقيل: هما بمعنى واحد، قال الفراء والأخفش: النُّصُب جمع[(5)] نَصْبٍ، نحو: رُهُنٍ ورَهْنٍ، والأنصاب: جمع النُّصُبُ

(١) القرطبي ١٨/ ٢٥٥.
(٢) القرطبي ١٨/ ٢٥٥.
(٣) القرطبي ١٨/ ٢٥٥.
(٤) حجة القراءات ٧٢٤.
(٥) جمع: جمعه، غ.

فهو جمع الجمع، والنُّصُب والأنصاب واحد في المعنى، وقيل: بينهما فرق، ثم اختلفوا، فقال مقاتل والكلبي: النصب ـ بِضَمٍّ ـ: الأوثان، والنُّصْبُ بالجزم: الشيء المنصوب، يقال: فلان نُصْب عيني، وقال ابن عباس: إلى غاية، وذلك حين يسمعون الصيحة الآخرة، وقال الكلبي: إلى علم وراية تضرب لهم يستبقون إليها(١).

ويقال: لِم كتب (فمال) منفصلة؟

قلنا: اتباعًا للمصحف والسلف، وقيل: اللام بمعنى الحال أي: ما حال الذين كفروا، واللام بدل، فلما كان المبدل منفصلاً [كان] كذلك البدل.

۞ اللغة

المُهْطِعُ: المسرع، قال الزجاج: هو المُقْبِلُ ببصره على الشيء، لا يزايله، وقال: إنه المادُّ عنقه، والأصل: الإسراع، أهطع يُهْطِعُ: إذا أسرع.

«عِزِين» جماعات في تفرقة، واحدهم: عِزَةٌ، وجاز جمعه بالواو والنون؛ لأنه عوض مما حذف، وكذلك سَنَةٌ وسِنُون، ونظيره: قُلَةٌ وقُلِين وقُلُون، وكَرَةٌ وكُرِين، قال الراعي:

أَخَلِيفَةَ الرَّحْمَنِ إنَّ عَشِيرَتِي ... أَمْسَى سَوَامُهُمُ عِزِينَ فُلُولا(٢)

وخرج النبي ﷺ، وهم حلق حلق منصرفين، فقال: «ما لي أراكم عزين»(٣)؟ وأصله: عِزْوَةٌ من عَزَاهُ يَعْزُوهُ: إذا أضافه إلى غيره، فكأن كل واحد من هذه الجماعات مضافة إلى أخرى.

والتبديل: تصيير الشيء موضع غيره، بَدَّلَهُ تبديلًا، وأبدله إبدالاً.

والخوض: الدخول في الشيء، خاض الماءَ، وخاض في الحديث.

والأجداث: القبور، واحدها جَدَثٌ.

---

(١) إليها: إليه؛ غ.

(٢) هذا البيت من قصيدة لعبيد الراعي يمدح بها عبد الملك بن مروان، ويشكو فيها من الساعة، وهم الذين يأخذون الزكاة من قبل السلطان، والسوائم: الإبل ترسل للرعي، والفلول جمع فل: بقية الشيء الكثير، ومنه فلول المعارك، وهو موضع الحرب؛ الصحاح: (عزا).

(٣) مسلم رقم ٤٣٠، وأبو داود رقم ٤٨٢٣، وابن حبان رقم ١٦٥٤.

والإيفاض: الإسراع، أَوْفَضَ يُوفِضُ إيفاضًا: إذا أسرع، قال رؤبة:

يَـمْـشِـي بـنـا الـجِـدُّ عـلـى أَوْفَـاضِ[1]

أي: على عجلة.

والرَّهَقُ: اللحاق، ورهقه: لَحِقَهُ، ومنه: فلان رَاهَقَ الحُلُمَ: إذا أدرك وقت الاحتلام.

الإعراب

«**مهطعين**» و«**عزين**» نصب على الحال.

«**خاشعة**» نصب لتقدم النعت على الاسم.

النزول

قيل: كان المشركون يجتمعون عند النبي ﷺ، ويسمعون كلامه، ثم يكذبونه، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقوله محمد فإنا ندخلها قبلهم لا محالة، ويكون لنا فيها أكثر مما لهم، فأنزل الله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ﴾ الآية.

المعنى

ثم عَقَّبَ ما وعد المؤمنين بذكر الكفار ووعيدهم، فقال سبحانه: «**فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا**» أي: ما بالهم وما حملهم على ما فعلوا؟!، كقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ [النساء: ٨٨]، ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩] «**قِبَلَكَ**» عندك يا محمد «**مُهْطِعِينَ**» قيل: مسرعين، عن أبي عبيد، وجماعة، وقيل: متكلفين، عن الحسن، وقيل: عامدين، عن قتادة، وقيل: شاخصون أبصارهم لا يطرفون، عن ابن[2] زيد، أي: ناظرين إليك بالعداوة، وقيل: مادُّون أعناقهم، وجميع ذلك يرجع إلى الإسراع، واختلفوا فيما أسرعوا إليه، ولم ذموا على ذلك؟ فقيل: مسرعين إلى الكفر، وهم

(١) اللسان (وفض).

(٢) ابن: أبي، غ.

المنافقون، عن أبي مسلم، وقيل: هذا لا يصح؛ لأن السورة مكية، ولأن المنافقين كانوا لا يظهرون الكفر في مجلس رسول الله ﷺ، فالأقرب أنهم كفار أهل مكة، وقيل: مسرعين إليك، وكانوا أسرعوا ليأخذوا الحديث منه ثَمَّ يتفرقون[(١)] عزين بالتكذيب عليه؟! عن الحسن، وقيل: أسرعوا إليه كشخوص المتعجب منه، وقيل: أسرعوا إليه بطلب عيب له، وقيل: فمال الذين كفروا مسرعين في نيل الجنة وطمع الثواب مع الإقامة على الكفر، وليس معهم ما يوجب ذلك، عن أبي علي. «عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ» أي: فرقًا فرقًا وعصبة عصبة، وجماعة جماعة، متفرقين «أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ» مع ما عليه من الكفر، عن أبي علي، وقيل: بغير إيمان وعمل يجرون مجرى المؤمن «كَلَّا» أي: لا يكون كذلك ولا يدخلونها «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ» قيل: من النطفة، عن الحسن، وقيل: من قَذَرٍ، عن قتادة، قيل: من كان أصله من هذا الماء المهين فكيف يستوجب الجنة بأصله وبنفسه؛ إنما يستوجبها بالأعمال الصالحة، وقيل: كلهم من نطفة، وإنما يتفاضلون بالأعمال، وقيل: القادر على خلق هذه الصور العجيبة قادر على تعذيبهم، فاعبدوه ولا تخالفوا أمره، واحذروا عقابه، فهو الذي تحق له العبادة، وكان أبو بكر رضي الله عنه يصف بدو خلق ابن آدم في البطن، ويقول: يخرج من مخرج البول مرتين، ويقع في الرحم نطفة ثم علقة، ثم يخرج فيتلوث في بوله وخريه حتى يقذر السامع نفسه، وقيل: خلقناهم من أجل ما يعلمون، وهو التعريض للثواب والأمر والنهي، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] فحذف (أجل)، كقول الشاعر:

أَأَزْمَعْتَ مِنْ آلِ لَيْلَى ابْتِكَارَا ... وشطَّتْ على ذي هَوًى أَنْ تُزارَا[(٢)]

أي: من أجل آل ليلى، وقيل: (ما) بمعنى (مَنْ)، أي: خلقناهم ممن يعلمون لا كالبهائم، وقيل: خلقناهم من أسلاف مشركين، فهديناهم لينظروا ويشكروا نعمه عليهم. «فَلَا أُقْسِمُ» بينا الكلام في نفي القسم في سورة (الحاقة) «بِرَبِّ الْمَشَارِقِ

(١) ثم يتفرقون: لم يتفرقوا، غ. وما أثبتناه من: البيان في تفسير القرآن للطوسي: ١٠/ ٢٢.
(٢) الشاعر: الأعشى، وهو في ديوانه ٨٠، واللسان (زمع)، والصحاح (زمع)، وتاج العروس (زمع).

﴿وَالْمَغَارِبِ﴾ قيل: مشارق الشمس ومغاربها، قال ابن عباس: للشمس ثلاثمائة وستون مطلعًا تطلع كل يوم من مطلع لا تعود إلى قابل، وقيل: مشارق الشمس والقمر والنجوم ومغاربها، أي: يخالف ذلك ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ. عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي: من قدر على خلق غيرهم، وقد يكون ذلك الغير خيرًا منهم.

ومتى قيل: فهلا بدلهم بمن هو خير منهم؟

قلنا: أجل[1] فقد بدلهم بالمهاجرين والأنصار، وهم خير منهم، وقيل: ابتداء الخلق لا يجب على الله تعالى، وإن علم أنه خير لا مفسدة فيه؛ لأنه تَفَضُّلٌ، وهذا قول مشايخنا البصريين؛ لأن عندهم يجوز أن يخلق كل من علم أنه يكفر، ولا يخلق من علم أنه يؤمن، وعند البغدادية فيقولون: إن التبديل بهم لم يكن أصلح؛ فلذلك لم يفعل، وظاهر الآية يدل أنه لم يبدل.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ يعني بفوت عذابنا إياهم، فلو سبقوا عقابنا لسبقونا، وقيل: وما أهل سلطاننا بمسبوقين، وقيل: وما نحن بعاجزين عن ذلك إذا شئنا، عن أبي علي، وقيل: وما نحن بمغلوبين، عن أبي مسلم. ﴿فَذَرْهُمْ﴾ دعهم، وهو تهديد ووعيد ﴿يَخُوضُوا﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ بأمر دنياهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يعني يوم القيامة قيل: معناه: دعهم؛ فإني أجازيهم يوم القيامة بما يستحقون ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ من القبور ﴿سِرَاعًا﴾ قيل: لشدة السوق يسرعون ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ قيل: كأنهم إلى عَلَمٍ نُصِبَ لهم يسعون إليها، عن أبي علي، وأبي مسلم، وقيل: كأنهم إلى أوثانهم يسعون للتقرب إليهم في الدنيا ﴿يوفضون﴾ يسعون إليها، عن ابن عباس، وقتادة، وقيل: يستبقون، عن أبي العالية، ومجاهد. ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: ذليلة خاضعة بالعذاب، وقيل: تخشع أبصارهم؛ لأنهم لا يستطيعون النظر من هول ذلك اليوم ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يلحقهم هوان، قيل: هو سواد وجوههم، وقيل: هو ما يلحقهم من الملائكة الموكلين بعذابهم ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ فلا يصدقون به.

---

(١) أجل: جعل، غ.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: أن الجنة لا تنال بالطمع والتمني، وإنما تنال بالطاعة.

ومنها: أنهم جميعًا استووا في الخلقة، فالتفاضل بينهم بالأعمال الصالحة.

ومنها: جواز أن يكون في مقدوره من لو خلق لكان خيرًا من المخلوق، خلاف قول البغدادية.

ومنها: بيان حال القيامة لطفًا في الطاعة، وزجرًا عن المعاصي.

ومنها: أن الخوض واللعب فِعْلُهُمْ.

سُورَةُ نُوحٍ

سورة (نوح) مكية، وهي ثمانٍ وعشرون آية في الكوفي، وسبع في البصري، وثلاثون في المدني.

عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (نوح) كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح».

ولما ختم سورة (المعارج) بوعيد المكذبين، افتتح هذه السورة بقصة نوح وقومه، وما نالهم بالتكذيب؛ تسلية له ﷺ، وزجرًا للكفار أن ينالهم مثل ما نال أولئك.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾

۞ القراءة

أكثر القراء والنحويين على إظهار الراء في «يغفر» لئلا يخل بها الإدغام من جهة ما فيها من التكرير، واختار أبو عمرو الإدغام؛ لأن ذهاب التكرير لا يخل[1].

۞ اللغة

الإنذار: الإعلام بموضع المخافة ليتقى، أَنْذَرَهُ إنذارًا، والنذير والمنذر: الرسول.

والأجل: الوقت، يقال: أَجَلُ دينه كذا؛ أي: وقْتُهُ.

۞ الإعراب

قيل: في قوله: «أن أنذر» معناه: بأن أنذر، فحذف الباء كما يقال: أرسلت فلانًا بكذا، فعلى هذا محل (أن) نصب على سقوط الباء، وقيل: موضعه جر لقوة حذفها مع (أن).

و(من) في قوله: «من ذنوبكم» قيل: صلة، وتقديره: يغفر ذنوبكم، وقيل: للتبعيض، أي: بعض ذنوبكم وهي الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، وقيل: الذنوب السالفة، عن الحسن، وأبي علي، وقيل: (مِنْ) بمعنى (عن)؛ أي: يصفح عن ذنوبكم، وقيل: دخل لتمييز الذنب من غيره لا لتبعيض الذنوب، عن الزجاج.

۞ المعنى

«إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ» أي: أرسلناه لينذر قومه، وقيل: أرسلناه وأمرناه لينذر قومه، أي: يخوفهم «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» موجع، وهو عذاب الاستئصال في الدنيا، وقيل: ينذرهم عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، عن الحسن، وقيل: عذاب الآخرة، فجاءهم وخوفهم وأدى الرسالة فـ«قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ» أي: رسول مخوف «مُبِينٌ» أي: مبين وجوه الأدلة في الوعيد، وبيان العذاب، وأداء الرسالة، وبيان الأحكام ومعالم الدين.

---

(١) القرطبي ٤/ ٦٤.

ثم بدأ بالتوحيد فقال سبحانه: «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ» أي: اعبدوه وحده مخلصين «وَاتَّقُوهُ» أي: اتقوا معاصيه وعقابه «وَأَطِيعُونِ» فيما أُؤَدِّيهِ إليكم من الرسالة، فإنكم إن فعلتم ذلك «يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى» قيل: إلى وقت الموت والمدة المضروبة لهم إلى المسمى لهم، فلا يهلككم بالعذاب والطوفان، وقيل: إن آمنتم زاد في أجلكم، وإن لم تؤمنوا أماتكم وأهلككم «إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ» قيل: آجال العذاب والهلاك، وقيل: آجال الموت، وقيل: أجل الآخرة «لاَ يُؤَخَّرُ» عن وقتها، وقيل: الأجل الذي وعدهم بتبقيتهم إليه لو آمنوا يبقيهم إليها «لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ» أي: لو علمتم أن في عبادتكم تأخير الأجل، وزوال الهلاك، وقيل: «لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ» إذا نزل لا يزيد، وقيل: لولا جهلكم، وإلا خوف النقلة من هذه الدار إلى دار أخرى بغتة وغير تأخير يوجب للأهبة لها والإيمان بالله، وقيل: لو علمتم ما في التوبة من عظيم النجاة لبادرتم إليها، وقيل: معناه: اعلموا ذلك، واحذروا ما خُوِّفْتُمْ به من العذاب، عن أبي علي، وقيل: لو كنتم تعلمون ما يجب عليكم، عن أبي مسلم.

۞ الأحكام

الآيات تدل على أشياء:

منها: أن القوم كانوا كفارًا؛ فلذلك بدأ بالتوحيد والدعاء إليه، وهذا دأب[1] الرسل يدعون إلى أهم الأمور، وهو التوحيد الذي لا يصح شيء من العلوم إلا بعده، ثم بعد قبوله يثبتون الشرائع.

ومنها: أن الغفران إنما يحصل بمجموع ما ذكر من العبادة وطاعة الرسول والتقوى، خلاف قول المرجئة.

ومنها: أنهم لو آمنوا لزال الهلاك، وبقوا إلى أجل مسمى، ولا تعلق للبغدادية بالآية في الأجلين؛ لأنه تعالى إذا علم أنهم إذا آمنوا أبقاهم إلى مدة كذا، وإذا لم يؤمنوا أهلكهم، علم مع ذلك أنهم يؤمنون أو لا يؤمنون فعلى المعلوم منهم تضرب مدة آجالهم، فلا يكون الأجل إلا واحدًا.

(١) دأب: أداب، غ.

ومنها: أنه لو لم يعذبهم لجاز أن يبقوا، خلاف قول من يقول: لكانوا[1] يموتون لا محالة، وقول من يقول: يعيشون لا محالة؛ لأنه تعالى قادر على الحالين.

ومنها: أنهم يقدرون على الإيمان؛ لذلك خيَّرهم.

ومنها: أن الإيمان والتقوى فعلهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق والاستطاعة.

ومتى قيل: إذا علم تعالى أنهم لو آمنوا لبقوا إلى وقت، فهلا قلتم: لهم أجلان؟

قلنا: الأجل: الوقت، فما لا يدركه عمره ولا يموت فيه لا يسمى أجلاً، هذا كما[2] نقول: لو لم يمت فلان لرزقه الله أموالاً وأولادًا، ثم لا يقال: له مال وولد، كذلك هذا.

ومتى قيل: لو آمنوا فالتبقية ثواب لهم، كما أن الهلاك كان عقوبة؟

قلنا: لا؛ لأن التبقية للتكليف، ولا تكون ثوابًا، بخلاف الهلاك.

قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾

القراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب: «دُعَائِيْ إلا فرارا» ساكنة الياء، وقرأ الباقون بفتح الياء[3].

---

(١) لكانوا: لكان؛ غ.

(٢) كما: لما، غ.

(٣) القرطبي ١٨/ ٢٥٩.

۞ اللغة

الفرار: التباعد عن الشيء والذهاب عنه، إما رغبة عنه، وإما[1] خوفًا منه، فر فرارًا فهو فارٌّ.

والاستغشاء: طلب الغَشْيِ، وهو الاستتار، ومنه: الغشيان؛ لأنه ستر عقله، ومنه: الغاشية.

والإصرار: الإقامة على الأمر بالصَّرِيمَةِ عليه، أَصَرَّ يُصِرُّ إصرارًا فهو مُصِرٌّ.

والمدرار: الكثير الدرور، والدرور يجلب الشيء حالاً بعد حال على الاتصال، در يَدِرُّ دَرًّا ودرورًا فهو دارٌّ، والمطر الكثير الدرور: مدرار.

والإمداد: إلحاق الثاني بالأول على النظام حالاً بعد حال، أمده بكذا يُمِدُّهُ إمدادًا، ومد النهر ومده نهر آخر.

والنهر: المجرى الواسع من مجرى الماء، وجمعه: أنهار، وأصله: السعة، ومنه: النهار؛ لسعة الضياء فيه.

۞ الإعراب

«**استكبارًا**» و«**إسرارا**» نصب على المصدر، وذكره مبالغة.

و«**جهارا**» نعت لمحذوف؛ أي: دعوة جهرة.

۞ المعنى

ثم بَيّنَ تعالى قول نوح لَمَّا لم يجيبوه إلى دعوته، ولم يقبلوا مقالته، فقال سبحانه: «**قَالَ**» نوح «**رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي**» إلى الإيمان بك، وإلى عبادتك «**لَيْلاً وَنَهَارًا**» يعني دائمًا متصلاً، وقيل: دعوت بعضهم ليلًا، وبعضهم نهارًا، وقيل: دعوت مرة ليلًا، ومرة نهارًا، عن أبي مسلم، والأول الوجه. «**فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا**» إنفارًا وإدبارًا لما دعوتهم إليه، وقيل: ازدادوا فرارًا عند دعائه، أضافه إليهم كما

(١) وإما: أو؛ غ.

تقول: ما زادك عظتي إلا فسادًا «وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ» أي: كلما دعوتهم إلى الإيمان لتغفر لهم بسببه «جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ» قيل: كراهية السماع، سدوا طريق السماع لئلا يسمعوا كلام نوح «وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ» أي: غطوا وجوههم بثيابهم لئلا يروا نوحًا، ولا يسمعوا صوته «وَأَصَرُّوا» أي: داموا على كفرهم «وَاسْتَكْبَرُوا» أي: تكبروا وأنفوا عن قبول الحق «اسْتِكْبَارًا» قيل: كان الرجل يذهب بابنه إلى نوح، ويقول: يا بني احذر هذا، لا يُغْوِيَنَّكَ؛ فإن أبي ذهب بي إليه، فحذرني كما حذرتك، عن قتادة. «ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا» أي: إعلانًا، عن قتادة. «[ثُمَّ] إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ» الدعوة «وَأَسْرَرْتُ» قيل: دعاهم بكل وجه كان عنده أنه أقرب إلى الإجابة فلم يزدادوا إلا بعدًا، وقيل: دعوتهم مرة بالإعلان، ومرة بالإخفاء، ودعوت طائفة سرًّا، وطائفة جهرًا، وأسر لهؤلاء، وأعلن لأولئك، ثم أعلن لهؤلاء، وأسر لأولئك، كل ذلك حكي عن أبي مسلم.

ومتى قيل: ما معنى قول نوح: فعلت وفعلت، والله عالم به؟

قلنا: قيل: شكاية منهم ومن(١) سوء صنيعهم، وما قابلوه به، وقيل: إظهارًا للعبودية، وبذل الجهد في الطاعة له، والدعاء إليه مع تمردهم.

«فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ» أي: اطلبوا منه المغفرة بالإيمان «إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا» لمن تاب وآمن وعمل صالحًا، فإذا فعلتم ذلك «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا» قيل: متتابعًا في وقت الحاجة، وقيل: ينزل منها الماء وكلما اعتصرته من شيء فهو دَرُّهُ «وَيُمْدِدْكُم» أي: يهب لكم «بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ» بساتين «وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا» جارية، وقيل: كان الله تعالى ابتلى قوم نوح بالقحط، وعقم أرحام النساء أربعين عامًا، وقَلَّتْ ريعُ جِنَانِهِمْ، فَضَمِنَ نوحٌ لهم أنهم إن آمنوا أصلح الله أحوالهم، وروي أن عمر خرج للاستسقاء فما زاد على الاستغفار، وتلا هذه الآية، عن الشعبي.

وروي أن رجلاً أتى الحسن فشكى إليه الجدوبة، فقال: استغفر الله، وأتاه آخر فشكا الفقر، فقال: استغفر الله، وأتاه آخر فقال: ادع الله أن يرزقني ولدًا، فقال: استغفر الله، فقيل له في ذلك، فتلا هذه الآية.

---

(١) ومن: وعن، غ.

الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: أن الدعاء إلى الله تعالى لا يُتْرَكُ لأجل رَدِّ مَنْ يَرُدُّهُ.

ومنها: أن الاستغفار يكون في حكم اللطف لنعيم الدنيا.

وتدل على أن الاستسقاء لا صلاة فيه كما قال أبو حنيفة خلاف ما يقول الشافعي، وروينا عن عمر مثل ذلك، وروي أن النبي ﷺ استسقى ودعا ولم يُصَلِّ، وروي أن عمر استسقى بالعباس ولم يُصَلِّ، وما روي أنه صلى فعندنا يجوز أن يصلي، وإنما نقول: ليس فيه صلاة مرتبة مسنونة.

ومنها: أن الإصرار والاستكبار فعلهم.

قوله تعالى:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

اللغة

الوقار: أصله الثبات، وقر الرجل وقارًا ووقورًا بفتح القاف وضمها، وفيه وَقَارٌ، والأمر منه: قِرْ، ونظيره: وقف يقف وقوفًا، والأمر: قِفْ، والوَقْرُ: الثقل في الأذن لثبوته فيه، وقِرَتْ أذنه تَوْقَرُ وقْرًا، وقال الكسائي: وقرت أذنه فهي مُوقَرَةٌ، والوِقْرُ بالكسر: الحمل لثبوته، نخلة مُوقِرٌ ومُوقِرَةٌ وموقورة، فأما قوله: «وقرن» قيل: هو من الوقار، وقيل: ليس منه؛ لأنه من الجلوس، يقال: وقَرْتُ أَقِرُ وَقْرًا: إذا جلست، والأول قول أبي عبيد وأبي مسلم.

والأطوار: الانتقال في الأحوال، حالاً بعد حال، والطور: التَّارَةُ، يقال: طور بعد طور؛ أي: تارة بعد تارة، وجمعه: أطوار.

والطباق: منزلة فوق منزلة.

والإنبات: إخراج النبات من الأرض بالنمو حالاً بعد حال.

والفِجَاجُ: الطرق المتسعة المتفرقة، واحدها: فج، وقيل: الفج: المسلك بين الجبلين.

۞ الإعراب

«نباتًا» نصب على المصدر، وهو مصدر وقع مخالفًا لبناء فعله؛ لأن مصدر أنبته: إنباتًا[1]، قال الخليل: تقديره أنبتكم، فنبتم نباتًا.

۞ المعنى

ثم حكى تعالى ما وعظ به نوح قومه، وما ذكر من دلائل وحدانية الله، وآثار قدرته ونعمته، فقال سبحانه: «مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا» قيل: ما لكم لا تعتقدون بتثبيت الله إلّهاً لكم، والوقار: الثبات، عن أبي مسلم. وهذا أحسن ما قيل فيه؛ ولذلك عقبه بدليل التوحيد وإثبات الصانع، وقيل: ما لكم لا ترون لله عظمة، عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقيل: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته، عن سعيد بن جبير، وكله متقارب، وقيل: ما لكم لا ترجون لله عاقبة، عن قتادة، أي: لا تطمعون في عاقبته لعظمة الله، وقيل: لا ترون لله طاعة، عن ابن زيد، وقيل: لا تخافون لله عظمة، عن الكلبي، وقيل: ما لكم لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم[2] إياه خيرًا، عن الأصم، وقيل: لا تعرفون لله حقًا، عن الحسن، أي: لا تشكرون نعمه، ولا تعبدونه، ولا توحدونه، وقيل: ما لكم لا ترجون ثوابه، ولا تخافون عقابه، والرجاء من الأضداد، فيكون أَمَلًا وخوفًا، قال الشاعر:

إذا لَسَعَتْهُ الدَّبْرُ لم يَرْجُ لَسْعَهَا[3]

---

(١) إنباتا: نباتا، غ.

(٢) توقيركم: توقركم، غ. وما أثبتناه من: فتح القدير: ٧/ ٣١٣، والكشف والبيان للثعلبي ١٣٠ وتفسير البغوي: ٨/ ٢٣١، وتفسير اللباب لابن عادل: ١٥/ ٤٨٢. إلاّ أن الرواية في جميع هذه المصادر عن ابن كيسا.

(٣) البيت قائله أبو ذويب الهذلي، وتمامه:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها ... وخالفها في بيت نوب عوامل

انظر: تاج العروس (نوب)، اللسان (نوب).

أي: لم يخف.

«**وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا**» تارات حالاً بعد حال، قيل: نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم خلقًا سويًّا، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وقيل: صبيانًا ثم شبابًا ثم شيوخًا، وغير عاقل ثم عاقلاً، وضعيفًا ثم قويًّا، وقيل: غنيًّا وفقيرًا، وصحيحًا ومريضًا «**أَلَمْ تَرَوْا**» يحتمل الرؤية بالبصر أي: ألم تبصروا السموات كيف خلقناها، ويحتمل العلم أي: ألم تعلم «**كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا**» بعضها فوق بعض «**وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ**» قيل: في السموات السبع، عن عبد الله بن عمر، وقال: وجههما من قبل السموات وأقفيتهما من قبل الأرض، وقيل: في ناحيتهن، وقيل: يعني في السماء الدنيا، عن الحسن، وهذا كما يقال: أَتَيْتُ بني تميم، وإنما أتى بعضهم، وفلان منزله في دور بني فلان، وإنما هو في دار بعضهم، وقيل: فيهن أي: في السموات والأرض، عن ابن عباس. «**نُورًا**» أي: ضياء «**وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا**» أي: مصباحًا «**وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا**» وقيل: يحتمل معنيين:

أحدهما: التكبير بعد الصغر، والإطالة بعد القصر، وذلك هو الإخراج من حال الطفولية إلى الشباب والكهولية.

والثاني: أن يراد به الخلق الأول، وهو خلق آدم من الأرض والطين، عن أبي مسلم.

وقيل: (مِنْ) بمعنى (في)؛ أي: في الأرض، وقيل: رباكم بالأغذية التي من الأرض «**ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا**» أي: في الأرض أمواتًا «**وَيُخْرِجُكُمْ**» منها عند البعث أحياء «**إِخْرَاجًا**» وذكر المصدر تأكيدًا «**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا**» أي: مهادًا مستوية، تحملكم أحياء، وتستركم أمواتًا «**لِتَسْلُكُوا مِنْهَا**» من الأرض «**سُبُلاً فِجَاجًا**» طرقًا مختلفة، عن ابن عباس، وقيل: سبلاً في الصحارى وفجاجًا في الجبال، وكل ذلك إشارة إلى أن لها صانعًا صنعها، وأنعم بها على خلقه.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: وجوب تعظيم الله، وإثبات توحيده وعدله، ثم عبادته.

ومنها: ما في خلق السموات والأرض والنجوم من عجائب الصنعة، وأن الواجب أن يتدبر فيه؛ ليعلم أن لها صانعًا قادرًا حيًّا عالمًا، سميعًا بصيرًا حكيمًا، لا مثل له، ولا شِبْهَ.

قوله تعالى:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)﴾

القراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب: «**وُلْده**» بضم الواو، وسكون اللام، الباقون بفتح الواو واللام(١)، وهما لغتان.

قرأ أبو جعفر ونافع: «**وُدًّا**» بضم الواو، والباقون بفتحها(٢)، وهما لغتان.

قرأ أبو عمرو: «**خطاياهم**» بالياء من غير مد ولا همز(٣)، وقرأ الأعمش: «**خطيئتهم**» على واحدة، وقرأ الباقون: «**خطيئآتهم**» بالتاء والمد والهمز.

وقرأ حفص: «**بيتيَ**» بفتح الياء، وأرسلها الباقون.

قراءة العامة: «**كُبَّارا**» بالتشديد، وعن ابن محيصن وعيسى بن عمر بالتخفيف(٤)،

---

(١) حجة القراءات ٧٢٥.
(٢) حجة القراءات ٧٢٦.
(٣) حجة القراءات ٧٢٦.
(٤) القرطبي ١٨/ ٢٦٤.

وهما بمعنى، غير أن في التشديد التكثير، يقال: كَبِيرٌ وكُبَارٌ وكُبَّارٌ، وعجيب وعُجَابٌ وعُجَّابٌ.

قراءة العامة: «**يغوث ويعوق**» غير مجرى؛ لأنهما على بناء فعل مضارع، وهما مع ذلك عجميان، عن أبي حاتم، وقرأ الأعمش وأشهب العقيلي: «**يغوثًا ويعوقًا**» مجرى[1].

قراءة العامة: «**ولِوَالِدَيَّ**» على التثنية، يعني أباه لمك، وأمه سمحا، وعن سعيد بن جبير: «**ولِوَالِدِي**» على الواحد[2].

اللغة

الخَسَارُ: الهلاك بذهاب رأس المال، ففيه معنى الهلاك؛ ولذلك بُني على بَيانِهِ[3]، وأما الخسران فذهاب رأس المال، وليس فيه معنى الهلاك؛ لأنه يقل ويكثر.

ودَيَّار: «فَيْعالٌ» من الدوران، نحو: القَيَّام، وأصله: قَيْوَامٌ، وديَّار دَيْوَار يعني أحدًا يدور، بأن يجيء ويذهب في الأرض، قال القتيبي: أصله من الدار، أي: نازل دارٍ، قال الشاعر:

وَمَا نُبَالِي إِذَا مَا كُنْتِ جَارَتَنَا ... أَلاَّ يُجَاوِرَنَا إِلاَّكِ دَيَّارُ[4]

والتبار: الهلاك.

---

(١) فتح القدير ٥/ ٤٢١.

(٢) القرطبي ١٨/ ٢٧٠.

(٣) أي: بيان معناه، وهو الهلاك، فبني على بناء معناه وهو فعال ولعلها على (بابه) أي على شاكلة وخسّرفها الناسخ خَسَار = هَلَاك = فَعَال.

(٤) الخصائص ١/ ٣٠٧.

۞ الإعراب

(ما) في قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ قيل: صلة، وتقدير الكلام: من خطيئآتهم، قال الشاعر:

يَـا ظَـبـيـةً عُـطُـلاً حَـسَّـانَـةَ الـجِـيـدِ[1]

۞ المعنى

ثم حكى تعالى عن نوح عادات قومه، ودعائه عليهم بالهلاك عند إياسه من إيمانهم، فقال سبحانه: «**قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي**» فيما دعوتهم إليه من عبادتك، وترك الأوثان، «**وَاتَّبَعُوا مَن لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا**» أي: هلاكًا، وهم القادة والأشراف، أي: اتبعوا الأشراف تقليدًا، وهم بما أنعم الله عليهم لم يشكروه، ولم يؤمنوا حتى هلكوا «**وَمَكَرُوا مَكْرًا**» أي: دبروا في أمر نوح تدبيرًا «**كُبَّارًا**» عظيمًا، وأجمعوا على ذلك، قيل: بقي فيهم ثلاثة قرون كل قرن ثلاثمائة سنة، كل قرن يوصي الآخر ألا يقبل منه، وقيل: (**مكروا مكرا كبارا**) أي: قالوا قولاً عظيمًا، عن ابن عباس، وقيل: مكروا في دين الله وأهله مكرًا عظيمًا، عن الحسن، وقيل: اجترءوا على الله فَكَذَّبُوا رسله، عن الضحاك، وقيل: تدبيرهم أنهم حثوا الأتباع على قتل نوح «**وَقَالُوا**» يعني الرؤساء للأتباع «**لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**» قيل: هذه أصنام كان[2] يعبدها قوم نوح، ثم عبدتها العرب فيما بعد، عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وقيل: لما صارت هذه الأصنام إلى العرب كان وُدٌّ لكلب، وسُوَاعٌ لهمدان، ويغوث لِمُذْحِجٍ، ويعوق لكنانة، ونسر لحمير، واللات لثقيف، والعزى لسليم وغطفان وجشم وسعد بن بكر، وإساف ونائلة وهبل لقريش بمكة، ولا شبهة أن هذه كانت أصنامًا تعبد زمن نوح.

واختلفوا في سبب وصفها، قيل: كان لآدم خمسة بنين، وهذه أسماؤهم،

---

(١) البيت قائله الشماخ، وتمامه:

دارُ الفتاة التي كنا نقول لها يا ظبية . . .

انظره في: الصحاح (حسن)، واللسان (حسن)، (عطل).

(٢) كان: كانت، غ.

فماتوا، فحزنوا عليهم، فوسوس إليهم الشيطان، وصور لهم صورًا على صور أولئك من صُفْرٍ أو نحاس في موضع سجودهم، وانقرض أولئك، [و] وسوس إليهم الشيطان بأنها إلههم؛ ولذلك صور في مصلاهم فعبدوها، حتى بعث الله نوحًا، ونهاهم عنه، عن محمد بن كعب. وقيل: كانوا قومًا صالحين من بني آدم ونوح يقتدى بهم، فلما ماتوا صوروهم، وانقرض أولئك، وجاء آخرون، فوسوس إليهم إبليس أنهم كانوا يعبدونهم، فعبدوهم، عن محمد بن قيس، وقيل: كان نوح يحرس جسد آدم بالهند ويحول بينه وبين الكفار، فوسوس إليهم إبليس، وقال: أنا أصور لكم مثله تطوفون به، فنحت خمسة أصنام وَدلَّهُمْ(١) على عبادتها، فلما كان أيام الغرق طم الترابُ تلك الأوثانَ، وأخرجها الشيطان للعرب، فعبدوها، عن ابن عباس، وقيل: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر من الطير، عن الواقدي، وقيل: كانت هذه أسماء رجال نقلوها إلى هذه الأصنام.

«**وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا**» يعني ضل بسبب هذه الأصنام كثير من الناس، فأضاف الضلال إليها؛ لما وقع بسببها، كقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، عن أبي علي، وقيل: المراد أن أكابرهم أضلوا أتباعهم، عن أبي مسلم. «**وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً**» قيل: هلاكًا، وقيل: ذهابًا عن الجنة والثواب «**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ**» معاصيهم «**أُغْرِقُوا**» في الدنيا، ثم نقلوا إلى النار «**فَأُدْخِلُوا نَارًا**» واختلفوا في هذه النار، فقيل: هي في قبورهم؛ لأن الفاء للتعقيب، وقيل: بل النار في الآخرة أي: سيدخلون «**فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ**» غير الله «**أَنْصَارًا**» تنصرهم فتدفع عنهم العذاب «**وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ**» أي: لا تدع، قيل: إنه دعا بإذن الله لما أيس من إيمانهم، وقيل: ما دعا عليهم حتى نزل: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، عن قتادة. فكأنه أذن له في الدعاء «**عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**» أحدًا يدور «**إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ**» يعني يتواصون بمخالفة نوح وتكذيبه «**وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا**» أي: لا يلد إلا من يكفر عند بلوغه حد التكليف كافرًا؛ لأن الطفل لا يكون كافرًا، وقيل: إنما قال

(١) ودلهم: دلهم، غ.

نوح هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلاب رجالهم وأرحام نسائهم، وأعقم أرحام نسائهم، وأيبس أصلاب رجالهم، أربعين سنة قبل العذاب، وقيل: سبعين سنة، وأخبر الله نوحًا أنهم لا يؤمنون، ولا يلدون مؤمنًا، فحينئذ دعا عليهم، عن محمد بن كعب، ومقاتل، والربيع، وعطاء، وابن زيد، فأجاب الله دعاءه، وأهلكهم بالطوفان، ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب، وقال الحسن وأبو العالية: أهلك الأولاد الأطفال بغير عذاب، ثم أهلكهم بالعذاب، وقيل: عم بالدعاء جميع الكفار، فَعَمَّ بالغرق، وقيل: يجوز أن يكون فيهم أطفال، فيكون ذلك لهم محنة يجب عليها العوض كالأمراض والأوجاع التي تصيب الأطفال، وقيل: يدل على أنه لم يكن فيهم صبي قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧] والأطفال لم يكذبوا. قلنا: العذاب لم يقع إلا على المكذبين.

ثم دعا لنفسه وللمؤمنين، قال سبحانه: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ**» وكانا مؤمنين «**وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا**» قيل: داري، وقيل: مسجدي، عن الضحاك. وقيل: سفينتي «**وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**» عامة، قيل: من أمة محمد، عن الكلبي. «**وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا**» هلاكًا ودمارًا.

۞ الأحكام

الآيات تدل على أشياء:

منها: قوله تعالى: «**واتبعوا...**» الآية تدل على أنه لا يجوز اتباع الرؤساء والأكابر في الدين، وإنما يجب اتباع الحجة، فتدل على بطلان التقليد.

وتدل على أن من دعا إلى خلاف طاعة الله لا يجوز اتباعه.

وتدل على أنه لا يجوز طاعة البغاة، ومن خرج على الإمام، خلاف قول الحشوية.

ومنها: أنهم كانوا يعبدون الأوثان، وقد بَيَّنَّا ما روي عن المفسرين إلا أن فيه نوعَ ضعفٍ.

ومنها[1]: قولهم: إن الشيطان صُوِّرَ لهم، فإن ثبت فالمراد أنه وسوس إليهم بأن

(١) ومنها: منها، غ.

يصوروا، ولا شبهة أن كل من عبد الأصنام يعلم أنها لا تنفع، ولا تضر، وأنها لا تعقل، فلا بد أن يكون عبدوها إما تقربًا إلى غيرها وإما[1] تقليدًا وجهلاً، وكل عاقل يثبت صانعًا غير شرذمة من الفلاسفة.

ثم من أثبت الصانع اختلفوا، فمنهم موحد، ومنهم ثنوي، ومُثَلِّثٌ، ومنهم من يوجه العبادة إلى الصانع، ومنهم من يتخذ الوسائط، ثم الوسائط تختلف إلى نجم وشمس ونار وصنم، فالأقرب أن الأصل فيه أنهم صوروا هذه الأوثان وعبدوها متوسَّطًا بينهم وبين الصانع، ثم لما تطاول الزمان عبدوها، ونفى بعضهم الصانع.

ومنها: أنه لم يهلكهم حتى علم حالهم أنهم لا يؤمنون، ولا يلدون مؤمنًا.

ومنها: دلالتها على بطلان مذهب المجبرة من وجوه:

أحدها: قوله: «**عصوني**».

وثانيها: قوله: «**واتبعوا**».

وثالثها: قوله: «**ومكروا**».

ورابعها: قوله: «**وقالوا**».

وخامسها: قوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾.

وسادسها: قوله: ﴿يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ ، فأضاف الضلال إليهم، ودعا عليهم لما أيس من إيمانهم، وعندهم الضلال منه تعالى، ولو خلق فيهم الإيمان لآمنوا كلهم، فما معنى هذا التوبيخ عليهم؟!

ومنها: أن سؤال المغفرة مشروط بالإيمان.

ومنها: أن نوحًا كان نبيًّا إلى جميع أهل الأرض.

---

(١) وإما: أو؛ غ.

سُورَةُ الجِنّ

سورة (الجن) مكية، وهي ثمان وعشرون آية.

عن النبي ﷺ فيما رواه أبي بن كعب: «من قرأ سورة (الجن) أعطي بعدد كل جن وشيطان صدق بمحمد، وكذب به عتق رقبة».

ولما تقدم في سورة (نوح) اتباع القوم أكابرهم ورؤساء الضلال والكفر، ولم يتبعوا نوحًا، افتتح في هذه السورة حديث الجن، وأنهم اتبعوا الرسول، ولم يتبعوا أكابرهم ورؤساء الضلال فيما بينهم؛ ليعلم الفرق بين من ربحت صفقته، وبين من خسر نفسه وعمله، وأوبقها بعذاب جهنم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ
فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ
يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾

۞ القراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «**أوحي إلي أنه**»، «**وأن لو استقاموا**»، «**وأن المساجد**»، «**وأنه لما قام**» هذه الأربعة الأحرف بفتح الألف، والباقي من أول السورة إلى آخرها بالكسر[1].

وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم كذلك، إلا قوله: «**وإنه لما قام عبد الله**» فإنهما كسراه.

وقرأ أبو جعفر: «**قل أوحي إلي أنه استمع**» بالفتح، ولم يختلفوا فيه، ثم قرأ في الآية الثالثة: «**وأنه تعالى جد ربنا**» بفتح الألف، «**وأنه كان يقول سفيهنا**» بالفتح، «**وإنا ظننا**» بكسر الألف، «**وأنه كان رجال من الإنس**» بفتح الألف، وبكسر ما بعده إلى قوله: «**وأن لو استقاموا**»، «**وأن المساجد**»، «**وأنه لما قام عبد الله**» بفتح هذه الثلاثة، وقال: ما كان مردودًا على الوحي فهو (أنه) بالفتح، وما كان من قول الجن فهو (إنه) بالكسر.

وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف: «**قل أوحي إلي أنه**» بفتح الألف، وكذلك كل ما بعده بالفتح إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ فإنه بالفتح أيضًا، والأصل فيه أن كل من نصب فهو عطف على قوله: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾، ومن كسر فهو عطف على قوله: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا﴾ وما جاء بعد القول فهو كالابتداء، فيكسر.

فأما قوله: «**وأنه تعالى**» مَنْ فَتَحَ، فعلى تقدير: آمنا أنه تعالى، قال الشاعر:

إِذَا مَا الْغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يَوْمًا ... وَزَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ والْعُيُونَا[2]

أي: وكحلن العيون. ومن كسر لأنه بعد القول.

قرأ يعقوب: «**تَقَوَّلَ**» بفتح القاف وتشديد الواو من التقول، الذي هو التخرص، وقراءة القراء: «**تَقُولَ**» مخففة بضم القاف وسكون الواو، من القول[3].

---

(١) حجة القراءات ٧٢٧.

(٢) البيت قائله الراعي النميري، الصحاح (زجج)؛ واللسان (رغب)، (زجج)؛ وفي ديوانه، ص ٢٦٩.

(٣) زاد المسير ٨/ ٣٧٨.

قراءة العامة: «جَدُّ رَبِّنا» بفتح الجيم، وعن عكرمة بكسر الجيم[1]، أراد خلاف الهزل، وعن ابن السميقع: «جدا» من الجدوى، وهو المنفعة[2]، ولا يجوز القراءة بهما، وإنما يجوز بالمستفيض الشائع.

اللغة

الإيحاء: إلقاء المعنى إلى النفس في خفية، ومنه سمي الإلهام وحيًا، ومنه: وحي الأنبياء؛ لأنه يخفى على الناس.

والاستماع: طلب السماع بالإصغاء إليه، استمع استماعًا.

والجن: جنس من المخلوقين، والمكلفون ثلاثة: الملك، والإنس، والجن، فالملكَ خلق من النور، والإنس [خُلِقَ] من التراب، والجن خلق من النار.

والعجب: شيء يدعو إلى التعجب منه لخفاء سببه، وخروجه عن العادة.

والجَدُّ: أصله القطع، ومنه الجَدُّ: العَظَمَةُ؛ لانقطاع كل عظيم عنها لعلوها، ومنه: جد فلان في قومه، أي: عظم فيهم، ومنه: الجَدُّ أبو[3] الأب لانقطاعه بعلو الأبوة، والجد لانقطاعه بعلو شأنه، والجِدُّ خلاف الهزل لانقطاعه عن السخف، ومنه: الجديد لأنه حديث عهد بالقطع غالب الأمر.

والشطط: البعد في الأصل، ومنه: شططت الدار، ومنه: الشطط: السرف في الخروج عن الحق، أبعده عنه، قال الشاعر:

شَـطَّ الـمـزَارُ بِـجَـدْوَى وَانْـتَـهَـى الْأَمَـلُ ... فَـلاَ خَـيَـالٌ وَلاَ عَـهْـدٌ وَلاَ طَـلَـلُ[4]

النزول

قيل: لما مُنِعَ الجنُّ من استراق السمع طافوا في الأرض، فاستمعوا القرآن فآمنوا به، ونزل الوحي به، عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك.

---

(١) فتح القدير ٥/ ٤٢٦.

(٢) تفسير أبي السعود ٩/ ٤٣.

(٣) أبو: أب، غ.

(٤) البيت قائله: عمرو بن أحمد الباهلي؛ اللسان (جدا)، وتاج العروس (شطط).

وقيل: لما حرست السماء بالشهب، ورميت الشياطين بالرجوم، بعث[1] إبليس تسعة من الجن ليعرف الأخبار، فأتوا النبي ﷺ، وهو يقرأ القرآن، فآمنوا، وانصرفوا داعين إلى الإسلام، عن ابن عباس.

۞ المعنى

«**قُلْ**» يا محمد «**أُوحِيَ**» ذكره على ما لم يسم فاعله تفخيمًا وتعظيمًا، والله تعالى هو الذي أوحى إليه «**أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ**» والنفر يكون من الرجال، قيل: كانوا سبعة من نَصِيبِين، استمعوا قراءة النبي ﷺ، ورجعوا إلى قومهم «**فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا**» قيل معجزًا؛ لأن كلام العباد لا يتعجب منه، وقيل: أرادوا كلامًا خارجًا عن المعتاد نظمًا وفصاحة ومعنى «**يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ**» أي: يدل إلى الهدى ويدعو إليه، والرشد ضد الضلال «**فَآمَنَّا بِهِ**» أي: صدقناه «**وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا**» أي: بدأنا بأنفسنا فقبلنا، وتركنا الشرك، واعتقدنا التوحيد، وقيل: إنما بدؤوا بأنفسهم في الحكاية؛ لأنهم كانوا رؤساء، والعوام تتبعهم في مذاهبهم، وقيل: بل قالوا لهم نصيحة، ومن نصح غيره يبدأ بنفسه؛ ليكون غيره إلى القبول أقرب.

واختلفوا، فقيل: لم يرهم النبي ﷺ؛ لذلك قال: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، وقيل: بل رآهم، وكانوا سبعة رهط من جن نصيبين، فأرسلهم إلى سائر الجن، وعن ابن مسعود أنه رأى قومًا من الزط، فقال: ما أشبههم بالجن الذين رأيتهم ليلة الجن، وكان مع رسول الله ﷺ، فلما أخبروا عن أنفسهم بالإيمان دعوا إلى التوحيد، فقال سبحانه: «**وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا**» قيل: تعالت صفات الله التي هي خصوص، وهي صفات عالية ليست للمخلوقين، عن أبي مسلم، كأنه قيل: تعالت عظمته لصفاته المستحقة لم يزل ولا يزال، وقيل: عظم جلالة ربنا وعظمته، عن الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وقال أبو علي: يقال: جد فلان في بني فلان، أي: عظم، فالمعنى: جل في صفاته، فلا تجوز عليه صفات الأجسام والأعراض والحدوث والنقص، وقيل: غني ربنا، عن الحسن، وذلك يرجع إلى صفته لعظم الغني، ومنه:

---

(١) بعث: وبعث، غ.

رجل مجدود، أي: ذو حظ وغنى، وقيل: قدرة ربنا، عن ابن عباس، وقيل: ذكره، عن مجاهد، وقيل: فعله وأمره، عن الضحاك، وقيل: آلاؤه ونعمه على الخلق، عن القرظي، وقيل: علا ملك ربنا، عن الأخفش، وقيل: علا ظَفْرُهُ على كل كافر وجاحد، عن ابن كيسان، والجميع يرجع إلى معنى واحد، وهو ما ذكرناه أولاً أنه جل عظمته لقدرته، وعلمه، وغناه، وأفعاله، وآلائه، وملكه **«مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا»** أي: زوجة وولدًا؛ لأنه من صفات الجسم **«وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ»** قيل: جاهلنا، وقيل: سفيهنا هو إبليس، عن مجاهد، وقتادة **«شَطَطًا»** يعني قولاً عظيمًا، وافترى على الله من وصفه بما لا يليق به، وقيل: شططًا أي: بعيدًا من الصواب، وهو الكذب في توحيده وعدله **«وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا»** أي: كنا حسبنا [أنا] على حق، وأن أحدًا لا يقول على [الله] الكذب في وصفه بالولد والشريك حتى سمعنا القرآن، وَتَبَيَّنَّا الحق.

۞ الأحكام

الآيات تدل على أشياء:

منها: أن الجن مكلفون.

ومنها: أن النبي ﷺ مبعوث إليهم، قال الحسن: إن الله تعالى بعث محمدًا إلى الإنس والجن، ولم يرسل رسولاً قط من الجن، ولا من أهل البادية، ولا من النساء لقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩].

ومنها: أن في الجن مؤمنًا وكافرًا.

ومنها: أنهم يعرفون لغة العرب، والفرق بين المعجز وغير المعجز.

ومنها: أن نفرًا منهم كذلك، والباقون بخلافه.

ومنها: دلالة قوله: ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ أن القرآن محدث؛ لأنه من صفات الفعل، لا يوصف به القديم.

ومنها: أن القرآن مستقل بنفسه في الدلالة، لذلك قال: **«يهدي»**.

ومنها: دلالة قوله: «آمنا» أن الإيمان فعلهم، خلاف مذهب المجبرة.

ومنها: أنهم لم يجوزوا ظهور المعجز على غير الأنبياء؛ لذلك اعترفوا بنبوته.

ومنها: دلالة قوله تعالى: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ الآية أنهم اعتقدوا التوحيد والعدل، فعظموا الله في صفات ذاته، وصفات فعله، ونفوا عنه التشبيه، والجبر.

ومنها: دلالة قوله: ﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أن فيهم من كان يغلو في باطله.

وتدل أن ذلك القول فعلهم؛ لذلك أضافهم إلى السفه بسببه، فمن هذا الوجه تدل على بطلان مذهب المجبرة في المخلوق، ففيها دلالة قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ﴾ أنهم كانوا مقلدة، قلدوا على ظن حتى سمعوا القرآن والحجة، وانكشف لهم الحق، وصح ما قالوا، فرجعوا متعجبين مما كانوا عليه، وهذا كرجل يرى شيخًا على كرسي متطيلسًا متعممًا متحبكًا وحوله العوام من الناس، وهو يبكي ويتضرع، ويُعَلِّمُ الناس التشبيه والجبر، فظن أنه على شيء، وأنه لا يكذب على الله، فإذا ظهر له بالدليل كَذِبُهُ وبهته يتعجب، ويقول: ما ظننت أن مثل هذا يكذب على الله، كذلك هؤلاء، وفي الآية إشارة إلى بطلان التقليد، ووجوب اتباع الحجة.

قوله تعالى:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

اللغة

العياذ: مصدر عاذ يعوذ عوذًا وعياذًا، والعياذ بالشيء والاستجارة والاعتصام من النظائر وهو: الامتناع بالشيء من لحاق الشيء.

والرهق: أصله اللحوق، ومنه: راهق الغُلامُ: إذا لحق حال الرجال، ورجل مُرَهَّقٌ: إذا ارتكب الفواحش، كأنه لحق الإثم.

واللمس: المماسة، لمسه بيده لمسًا، ومنه يسمى الجماع ملامسة، قال أبو مسلم: لمست والتمست بمعنى، و«فعلت وافتعلت» يجيء بمعنى، كقولهم: كسبت واكتسبت، وعملت واعتملت، وهذا من ذاك.

الحَرَسُ: جمع حارس نحو: «قاعدٍ وقَعَدٍ»، و«راصِدٍ ورَصَدٍ»، والحَرْسُ: الحفظ، حرسته أَحْرُسُهُ: إذا حفظته.

والشهب: جمع شهاب، وهو قطعة من النار.

والرَّصَدُ: جمع راصد، وهو الحافظ، ويقال: المرصاد الطريق.

۞ الإعراب

«**وجدناها**» يعني: السماء، فمحل الكناية نصب.

و«**ملئت**» اسمه في التاء، وخبره: «**حرسًا**» وهو ما لم يسم فاعله.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حاكيًا عنهم فساد طريقة الإنس والجن في الاستعاذة، فقال سبحانه: «**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ**» أي: من بني آدم «**يَعُوذُونَ**» يعتصمون «**بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ**» قيل: كان الرجل منهم إذا نزل الوادي[1] في سفره ليلًا قال: أعوذ بعزيز هذا **الوادي** من شر سفيه قومه، عن الحسن، وقتادة، ومجاهد، وقيل: أول من تعوذ بالجن قومٌ من اليمن، ثم بنو حنيفة، ثم فشا في العرب، عن مقاتل، وهذا كان منهم على حسب اعتقادهم أن الجن تحفظهم، وقيل: يعوذون أي: يعتصمون بالجن في الانقطاع إلى الشيطان وحزبه بالطاعة، واتباعه فيما يدعوه إليه، عن أبي مسلم، وقيل: «**يعوذون**» أي: يظهرون الاتصال برجال ذكروا لهم من الجن، ويظهرون الميل إليهم والاستعاذة بهم، عن أبي علي، وقيل: معناه: وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من معرة الجن، عن أبي القاسم. «**فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**» يعني زاد الجنُّ الإنسَ رهقًا، وقيل: زاد الإنسُ الجنَّ رهقًا استعاذتهم بهم[2]، واختلفوا في قوله: «**رَهَقًا**» قيل: إثمًا، عن

(١) الوادي: البوادي، غ. وما أثبتناه من: التبيان في تفسير القرآن، للطوسي: ١٠/ ١٤٢. وتفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ١٣٠.

(٢) بهم: به، غ.

ابن عباس، وقتادة، وقيل: طغيانًا، عن مجاهد، وقيل: جهلاً، عن أبي علي، وقيل: هلاكًا، عن أبي مسلم، وقيل: فَرَقًا أي: خوفًا، عن الربيع، وابن زيد، وقيل: تعظيمًا وتجبرًا؛ لأنهم قالوا: سدنا الإنس والجن، عن إبراهيم، وقيل: شَرًّا، عن الحسن، وقيل: خسارا، عن ثعلب، وقيل: زادهم الإنس ضلالاً وكفرًا «**وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا**» يعني مشركي الجن ظنوا «**كَمَا ظَنَنتُمْ**» أي: ظن مشركو الإنس «**أَن لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا**» قيل: لا يبعثهم بعد الموت، وكانوا ينكرون البعث، عن الحسن، وقيل: لن يبعث الله أحدًا رسولاً، عن قتادة، وقيل: هذا وما قبله كلها حكاية عن الحسن، وقيل: بل هو ابتداء كلام من الله تعالى عرض بين كلام الجن «**وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ**» قيل: التمسنا قربها لاستراق السمع، عن أبي مسلم، وقيل: طلبنا المصير إليها، عن أبي علي. «**فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا**» أي: حفظة من الملائكة شداد «**وَشُهُبًا**» من النجوم، وقيل: إن السماء لم تحرس قط إلا لمثوبة أو عقوبة عاجلة عامة «**وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا**» من السماء «**مَقَاعِدَ**» مواضع «**لِلسَّمْعِ**» أي: لاستراق السمع، يعني: كان يتهيأ لنا قبل نبدأ القعود في مواضع الاستماع إلى كلام الملائكة، فنعرف ما نسمع من الغيب «**فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا**» أي: نارًا «**رَصَدًا**» قيل: طريقًا، عن أبي مسلم، وقيل: حافظًا، وقيل: إن هذه الشهب كثرت في هذه الأيام، وانتقضت العادة بها، فكانت معجزة، ومنعت الجن عن الاستماع من الملائكة؛ ليسمعوا من النبي ﷺ فإنه كان مبعوثًا إليهم «**وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا**» قيل: هذا المنع لا ندري ألعذاب سينزل بأهل الأرض، أو لنبي يبعث، ويهدي إلى الرشد، وأن مثل هذا لا يكون إلا لهاتين، وقيل: لا ندري أمنعوا كي لا يعلموا ما أراد الله فعله، ولا يعلموا ما يجري بين الملائكة من علم الغيب، أو أراد بهم خيرًا.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أن في الجن رجالاً كما في الإنس، وأنهم يتناسلون؛ ولذلك قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ﴾ [الكهف: ٥٠]، وروي عن أبي القاسم أنه ليس فيهم نسل.

وتدل أن في الإنس من كان يميل إلى الجن، ويلوذ بهم، وذلك باطل، ومن هذا

وقعت بين العامة الاعتصام بالجن في باب الحب والبغض، وطلب الأشياء، وعلم الغيب، وتغيير الصور، ومن جوز أن يقدر غير الله تعالى على الأجسام والصور والحياة والموت يكفر.

ويدل قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ﴾ أن اعتقادات المبطلين تنبني على الظنون دون العلم واليقين.

ويدل قوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ﴾ الآية أن الجن كانوا يسترقون السمع لتعرف الأخبار، وأنهم مُنِعُوا بالشهب.

وتدل أنهم لما منعوا كانوا متوقعين أن ذلك لهلاك، أو لبعثة نبي، وأنهم تخبروا لشيئين: الشهب، والمنع من المقاعد.

وتدل أنه كان لطفًا للجن في الانصراف عن الكفر؛ لأنهم لما رأوا ذلك داروا في الأرض، فوصلوا إلى رسول الله ﷺ، وآمنوا.

وتدل أن الجن رُكِّبُوا تركيبًا تضرهم النار؛ لذلك خافوا الشهب.

ومتى قيل: كيف توصلوا إلى استراق السمع؟

قلنا: يحتمل أنهم صاروا بآلات أعطاهم الله تعالى إلى مواضع تجيء الملائكة فيه فيتكلمون، فيستمعون، ويلقون إلى غيرهم.

ومتى قيل: فأي مفسدة في استراق السمع حتى مُنِعُوا منه؟

قلنا: وجوه:

منها: إيهامهم ضعفة الجن أنهم يعلمون الغيب؛ لأنهم إذا وجدوا الأمر كما قالوا انقادوا إليهم.

ومنها: أنهم يجعلونه طعنًا في النبوات والمعجزات.

ومنها: أنهم يلقون ذلك إلى الإنس بالوسوسة، فتصير شبهة.

ومنها: أن نزول الملائكة وصعودهم يكثر أيام البعثة، وإذا التقى البعض بالبعض وذكروا من الأمور الغائبة، استمع[1] الشياطين، فيسبقون إلى العلم به النبي ﷺ، فيفسدون على الضَّعَفةِ أمر النبوات.

(١) استمع: ويستمعوا، غ

ومنها: أنه كان مبعوثًا إليهم، فلا يجوز أن يسمعوا الرسالة إلا منه.

ومنها: أنه معجزة له، ولطف لهم؛ [حيث] حثهم على التدبير والتفحص.

ومتى قيل: إذا كان الشهاب قبل المبعث، كما في حال المبعث، فكيف صارت معجزة؟

قلنا: كثرت في أيامه حتى دخلت في حد الإعجاز، وهذا كما نقول: المطر ليس بمعجز بجريان العادة به، فإذا كثر وزاد على المعنى المعتاد دخل في حد الإعجاز كالطوفان، فكما رئيَ في أيام النبي ﷺ.

ومتى قيل: كانت معجزة له ﷺ؟

قلنا: نعم، كثرة الشهب ومنع الجن.

ومتى قيل: فإذا علموا المنع والهلاك عند الاستراق، فكيف عادوا؟

قلنا: لم يقع ذلك في كل مرة، وإنما في بعض الأحايين إذا صادف حديث الملك، وإذا كان مرة هلاكًا، ومرة سلامة، جاز أن يتقحموا كرُكَّابِ[1] السفينة.

ومتى قيل: أكانوا يصعدون السماء أم يقفون في الهواء؟

قلنا: كلا الوجهين جائز، وقد منعوا من الجميع.

ويدل قوله: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ على بطلان قول المجبرة: إن الله زادهم ذلك.

قوله تعالى:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾

---

(١) كركاب: كراكب؛ غ.

۞ القراءة

قرءاة العامة: «لا يخاف» بالألف على الخبر، وفعل مستقبل، وقرأ الأعمش: «لاَ يَخَفْ» على النهي عن الخوف[1].

۞ اللغة

الصلاح: ضد الفساد، والصالح: عامل الصلاح الذي يتقوم به حاله في دينه، والمصلح: فاعل [الصلاح] الذي به يُقَوَّمُ أمرٌ من الأمور، ولهذا يقال: إنه مصلح، ولا يوصف بأنه صالح.

والطرائق: جمع طريقة.

والقِدَدُ: القِطَعُ والفِرَقُ، واحدها: قِدَةٌ، كما يقال: قطعةٌ وقِطَعٌ، وفرقة وفرق، وأصله: القطع، والقَدُّ والقطع سواء.

والبخس: النقصان.

والرَّهَقُ: اللحاق.

والقاسط: الجائر، والمُقْسِطُ: العادل، وأصله: الميل والعدول، فالقاسط: العادل عن الحق إلى الجور، والمُقْسِطُ: العادل إلى الحق، ونظيره تَرِبَ: افتقر، وأَتْرَبَ: استغنى، وأصله: التراب، فالأول: ذهب ماله حتى قعد على التراب، والثاني: كثر ماله حتى صار كالتراب، أقسط يُقْسِطُ فهو مقسط: إذا عدل، وقَسَطَ يَقْسِطُ قُسُوطًا: إذا جار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾، قال الشاعر:

قَـوْمٌ هُـمُ قَـتَـلُـوا ابْـنَ هِـنْـدٍ عَـنْـوَةً ... عَـمْرًا وَهُـمْ قَسَطُوا عَلَى النُّعْمَانِ[2]

أي: جاروا وظلموا.

---

(١) فتح القدير ٥/ ٤٢٩.

(٢) البيت قائله الفرزدق في هجائه للأخطل في قصيدة مطلعها:

يا ابن المراغة والهجاد إذا التقطت.

انظر: ديوان الفرزدق، دار صادر، بيروت.

والتحري: تعمد إصابة الحق، وأصله: طلب الشيء والقصد له، وبناؤه من الفعل «تَفَعَّلَ».

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أنهم متفرقون في الدين كالإنس، فقال سبحانه: «وَأَنَّا مِنَّا» أي: من الجن «الصَّالِحُونَ» في دينهم «وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ» قيل: دون الصالح، عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد. «كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا» أي: فِرَقًا شتى، وأهواء مختلفة، ومذاهب مفترقة، مسلم وكافر، وصالح ودونه، عن ابن عباس، ومجاهد وجماعة، وقيل: ألوانًا شتى، عن سعيد بن جبير، وقيل: قِدَدًا مختلفين، عن الحسن، وقيل: ضروبًا، عن الأخفش، وأبي عبيدة، وقيل: أجناسًا، عن المؤرج، وقيل: مللًا، عن النضر، وقيل: شيعًا وفرقًا كل فرقة تهوى هوى كأهواء الناس، عن ابن كيسان، وقيل: كنا يهودًا ونصارى ومسلمين، وجميع ذلك متقاربة، وقيل: الجن مثل الإنس منهم قدرية مجبرة، ومرجئة، ورافضة، وشيعة، عن السدي. «وَأَنَّا ظَنَنَّا» أي: علمنا «أَن لَن نُعجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ» إذا أراد بنا أمرًا لا نفوته «وَلَن نُعجِزَهُ هَرَبًا» إذا طلبنا، وقيل: المراد به الظن لما رأينا السموات والأرض وما فيها، فأخطر الله ببالهم الأدلة، فنظروا وعرفوا، وكانوا في ابتداء الحال ظانين إلى أن علموا، والأول أولى. «وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى» قيل: القرآن الهادي إلى الحق، وقيل: التوحيد والعدل والنبوات والشرائع «آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا» أي: نقصانًا في ثوابه «وَلاَ رَهَقًا» قيل: ظلمًا، وقيل: لا يخاف بخسًا [في] حسناته، ولا زيادة في سيئاته، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وابن زيد، وقيل: لا يخاف أن يؤخذ بغير ذنب، ولا أن يؤخذ بذنب غيره، وقيل: رهقًا أي: مكروهًا يغشاه ويلحقه، وقيل: تبعة يؤخذ بها «وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ» المستسلمون لأمر الله، المنقادون له «وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ» الجائرون، العادلون عن الحق «فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا» أي: طلبوا الرشد، واهتدوا إلى الحق «وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ» الجائرون «فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا» توقد بهم النار، كما توقد بالحطب.

۞ الأحكام

الآيات تدل على أشياء:

منها: أن الجن مختلفون في الديانات كالإنس.

ومنها: أنهم مكلفون.

ومنها: أن فيهم مسلما وصالحا[1]، وفيهم من هو بخلاف ذلك.

ومنها: أنهم لما سمعوا القرآن آمنوا؛ أي: استدلوا على صحة نبوته.

ومنها: أنهم كانوا قائلين بالعدل والتوحيد، ويرون الثواب والعقاب جزاء الأعمال؛ لذلك نفوا عن الله تعالى الظلم، وقالوا: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ وعند المجبرة بخلاف ذلك، ولا يأمن لو خلق فيهم الكفر، وعذبهم، أو عذبهم بغير ذنب لكان ظلمًا، وقد نفوا عنه الظلم.

ومنها: أن المؤمن يكون في أَمْنٍ من العذاب، وعلى زعم المجبرة أن أحدًا لا يأمن ذلك، وكذلك تدل على أنه لا يلحقهم غَمٌّ يوم القيامة.

ومنها: أن الظالم مصيره إلى النار، خلاف قول المرجئة.

قوله تعالى:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: «**لو استقاموا**» بكسر واو (لو)، وعن الأعمش بضمها[2]، فالأول لالتقاء الساكنين.

---

(١) مسلما وصالحا: مسلم وصالح، غ.

(٢) روح المعاني ٢٩/ ٩٠.

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو: «**نَسْلُكْهُ**» بالنون على الإضافة إليه تعالى[1]، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب: «**يسلكه**» بالياء الكناية[2] راجعة إلى قوله: «**ربه**»، وقرأ بعضهم بالنون، وضمها، وكسر اللام، قيل: سلك وأسلك بمعنى.

قرأ ابن عامر في رواية هشام بن عمار: «**لُبُدًا**» بضم اللام[3]، الباقون بكسرها واللُّبدة واللِّبدة بضم اللام وكسرها بمعنى واحد، وهو المتراكب المتكاثف، وروي عن مجاهد وابن محيصن مثل قراءة ابن عامر، وقيل: فيه أربع لغات:

لِبَد بكسر اللام وفتح الباء، وعليه أكثر القراء، واحدها: لِبْدَةٌ بكسر اللام.

وثانيها: ضم اللام وفتح الباء، واحدها: لُبْدَةٌ بضم اللام، وهي قراءة مجاهد وابن عامر.

وثالثها: لُبُد بضم اللام والباء، واحدها: لَبِيدٌ، يقال: لبيد ولُبُدٌ، وهو قراءة أبي حيوة.

ورابعها: ضم اللام وتشديد الباء، واحدها: لاَبِدٌ، نحو راكع ورُكَّعٍ، وساجد وسُجَّدٍ، وهو قراءة الحسن والجحدري.

قرأ أبو جعفر وعاصم وحمزة: «**قل إنما أدعو**» بغير ألف[4] على الأمر، وقرأ الباقون بالألف على الخبر[5].

اللغة

الاستقامة: الاستمرار على الطريقة المستقيمة، وكذلك المستقيم من الكلام.

---

(١) حجة القراءات ٧٢٩.

(٢) الكناية: كناية، غ.

(٣) القرطبي ٢٠/٥٧، حجة القراءات ٧٢٩.

(٤) يعني بغير ألف في (قل)؛ لأن الباقين قرؤوا: (قال إنما).

(٥) حجة القراءات ٧٢٩.

والغَدَقُ: الواسع، وماء غَدَقٌ: كثير، وغَدِقَ المكان يَغْدَقُ غَدَقًا إذا كثر الماء فيه، وهو غَدِقٌ به، عن الزجاج، قال أمية لعله: بن أبي الصلت:

مِزَاجُهَا سَلْسَبِيلُ مَاؤُهَا غَدَقٌ   عَذْبُ الْمَذَاقَةِ لاَ مِلْحٌ وَلاَ كَدرُ

وفي حديث الاستسقاء: «غيثا غدقًا»[(١)] أي: كثير الماء.

والصَّعَدُ: الغليظ الصعب، والعرب تضرب المثل في الأمر الغليظ بالصعود في العقبة الكؤود، ومنه: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾.

واللِّبَدُ: القطع المتراكبة المتكاثفة، ومنه: اللِّبَدُ لتراكب صوفه، والمتلبد من الشيء: المتراكب بعضه فوق بعض، ولَبَّدَ رأسه: إذا ألزق بعض شعره ببعض.

النزول

قيل: قالت الجن للنبي ﷺ: كيف لنا أن نأتي المسجد ونشهد معك الصلاة، ونحن ناؤون عنك؟ فنزل: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾، عن سعيد بن جبير.

المعنى

ثم عقب تعالى بعد انقضاء حكاية الجن بالوعد والوعيد، فقال سبحانه: «**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا**» في الدين علمًا وعملاً، وقيل: لو استقاموا على طريقة الحق بأن كانوا مطيعين «**لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءَ غَدَقًا**» أي: وسعنا عليهم الرزق والنعم لنختبرهم كيف شكرهم للنعم، عن سعيد بن المسيب، وعطاء، والضحاك، وقتادة، ومقاتل، وعطية، والحسن، وأبي علي، قال الحسن: كان والله أصحاب محمد مستقيمين، ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر، ففتنوا بها، فوثبوا بإمامهم، فقتلوه يعني عثمان، ونظيره: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله تعالى في قصة نوح: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ [نوح: ١٠] على ما تقدم، وقيل: لو استقاموا على الطريقة المستقيمة من الدين لجعل الله لهم سقيًا، وذلك يحتمل سعة الرزق في الدنيا، ويحتمل نعيم الآخرة في الجنة، ويحتمل الأمرين جميعًا، ويكون معنى

(١) المستدرك رقم ١٢٢٦، والمعجم الكبير رقم ١٢٦٧٧.

«**لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**» أي: لنخلصهم من الجدب إلى السعة، ومن[1] دنس الكفر إلى الطهر، عن أبي مسلم، وقيل: لو استقاموا على الكفر فكانوا كلهم كفارًا لأعطيناهم مالاً كثيرًا، ووسعنا عليهم الرزق «**لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**» اختبارًا وتأكيدًا للحجة، عن الربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، والكلبي، والفراء، وابن كيسان. وليس بالوجه؛ لأن الاستقامة على الطريقة لا تستعمل إلا في الدين الصحيح، ولأنه تلطف في الاستدعاء، وحث على الطاعة، وقيل: إنه خطاب للجن، وقيل: للإنس، وقيل: لهما، وهو الوجه. «**وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ**» قيل: عن شكر النعمة، وقيل: عن طاعته «**يَسْلُكْهُ**» أي: يدخله «**عَذَابًا صَعَدًا**» قيل: شاقًّا، عن ابن عباس، والسدي، وقيل: لا راحة فيه، ولا رَوْحَ، عن قتادة، ومقاتل، وتقديره: متصعدًا في العظم، أو متصعدًا [قد][2] غمره وأطبق عليه، وقيل: هو جبل في النار، عن عكرمة، وقيل: من صخرة صماء محماة يكلف الوليد بن المغيرة أن يَصْعَدَها وهو في السلاسل، ويضرب بالمقامع، فإذا بلغ أعلاها ينحدر إلى أسفلها، ثم يكلف صعودها وهبوطها، فذلك دأبه أبدًا، وقيل: الصعد: الطريق الشاق، ومنه: وقع الناس في صعود وهبوط، أي: طريق شاق، وقيل: هذا كله كلام الله تعالى أوحي إلى نبيه، وليس من كلام الجن، عن أبي مسلم. «**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ**» قيل: هي المواضع المهيأة للصلاة وهي معروفة، عن قتادة، وقيل: البقاع كلها، فكل موضع يسجد فيه فهو مسجد، عن الحسن، وقيل: هو الأعضاء التي يسجد عليها، عن سعيد بن جبير، والزجاج، والفراء. وهي سبعة أعضاء، وهي لله تعالى؛ لأنه خلقها ورباها وأنعم بها، وقيل: المساجد السجود، يقال: سجد سجودًا ومسجدًا، كقولهم: ضرب ضربًا ومضربًا. فإن حملناه على البقاع فواحدها مسجد بكسر الجيم، وإن حملناه على الأعضاء فواحدها: مسجَد بفتح الجيم «**فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**» قيل: المساجد بيت للصلاة لله تعالى، فأخلصوا العبادة لله تعالى، عن الحسن، وقيل: لا تدعوا غير الله، كما يفعله اليهود والنصارى، والمشركون في بِيَعِهِمْ وكنائسهم، قال الحسن: من السُّنَّةِ إذا دخل المسجد أن يقول:

---

(١) ومن: من؛ غ.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من التبيان في تفسير القرآن للطوسي: ١٠/١٤٨.

لا إله إلا الله، لا أدعو مع الله أحدًا، وقيل: يدعوه بالوحدانية، وقيل: اذكروا الله فيها واعبدوه، ولا تتخذوها متجرًا ولا طرقًا، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيبًا «**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ**» وهذا أيضًا هو الوحي المنزل على نبيه ﷺ، يعني: محمدًا ﷺ «**يَدْعُوهُ**» يقول: لا إله إلا الله «**كَادُوا**» يعني: الجن «**يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا**» قيل: يركبونه حرصًا على سماع القرآن، عن ابن عباس، والضحاك، وأبي علي، وقيل: كادوا يكونون عليه جماعات متكاثفة بعضها فوق بعض؛ ليزيلوه بذلك عن دعوته، وقيل: كان أحب الأسماء إلى رسول الله ﷺ عبد الله؛ خضوعًا لله، وقيل: لما قام عبد الله للدعوة تلبدت الجن والإنس على هذا الأمر ليطفئوا نور الله ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [**الصف**: ٨]، ويظهره على من نَاوَأَهُ، عن الحسن، وقتادة، وابن زيد، وقيل: هذا من كلام الجن، لما انصرفوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب رسول الله ﷺ واقتدائهم به، وقيل: بل من كلام الله لنبيه لما كان من حرص الجن على استماع القرآن، وقيل: لما دعا قريشًا إلى التوحيد اجتمعوا، وازدحموا عليه حنقًا وغيظًا و«**كادوا**» يعني المشركين تلبدوا عليه لإبطال أمره، وهذا يقرب من قول الحسن، وقيل: هذا هو الوجه؛ لأنه عقبه بقوله: «**إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي**» ولأنه ذمهم على ذلك، ولو كان حرصًا لما ذمهم، وقيل: تعجبوا واجتمعوا تعجبًا من نزول القرآن والدعاء إلى الحق، ولم يعلموا أن العجب من تركهم القادر العالم الحي السميع البصير وعبادتهم لحجر لا ينفع ولا يضر «**قال**» يعني: محمدًا ﷺ قال، [و] على القراءة الأخرى «**قُلْ**» يا محمد لهم: «**إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي**» أي: ليس هذا بِبِدْعٍ؛ لأني أدعو ربي، وأدعو إلى توحيده وعدله، وتنزيهه عما لا يليق به، «**وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ**(١) **أَحَدًا. قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا**» قيل: خطاب للمشركين الذين تجمعوا لإبطال أمره أي: لا أملك عذابكم، ولا نجاتكم بل الأمر فيه إلى الله تعالى، وهذا اعتراف بالعبودية، وإضافة الحول والقوة إليه تعالى.

(١) به: بربي، غ.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: أن الجنة تُنالُ بالاستقامة، وأنها يجوز أن تكون سببًا لسعة الرزق.

ومنها: على وجوب التفكر في الأدلة.

ومنها: أنه يكره في المساجد غير العبادات، ولا شبهة في كراهة أعمال الدنيا، واختلفوا في القضاء، لا يكره عند أبي حنيفة؛ لأنها من أمور الدين، وقال الشافعي: يكره.

ومنها: وجوب الانقطاع إليه تعالى؛ لذلك قال: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ ويحتمل قوله: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ أن يكون مدحًا وذمًا.

ومنها: أن الاستقامة فعل العبد، ليس بخلق الله تعالى، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن
يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ
فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ۝٢٤ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ
رَبِّيٓ أَمَدًا ۝٢٥ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ
يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ
وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ۝٢٨﴾

۞ القراءة

قرأ ابن عباس ويعقوب بضم الياء: «ليُعلم» على ما لم يسم فاعله[1]، على تقدير: لِيَعْلَمَ الناس أن الرسل قد بلغوا، وقرأ الباقون بفتح الياء.

---

(١) القرطبي ١٩/ ٢٩.

وفتح أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو الياء من قوله: «ربي»، الباقون بإرسالها[١].

۞ اللغة

الإجارة: المنع من لحاق الشر به، أجار يُجِيرُ إجارة فهو مجير، والله يجير، ولا يجار عليه؛ لأنه لا يتهيأ لأحد أن يجير عليه؛ لكمال قدرته.

والمُلْتَحَدُ: الملتجأ بالميل إلى جهة السلامة به، وهو «مُفْتَعَلٌ» من اللحد: وهو الطريق المنحرف العادل على السمت، وبه سمي لَحْدُ القبر لحدًا؛ لأنه محفور في جانب منه، ومنه: الملحد؛ لأنه يميل عن الطريق الواضح إلى جانب الضلال.

والأمد: الغاية.

والرَّصَدُ: الحفظة، واحدها: راصد.

۞ الإعراب

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ رفع لأنه نعت لقوله: «ربي» وقيل: هو خبر ابتداء محذوف، أي: هو عالم الغيب.

و(**يسلك**) لازم ومُتَعَدٍّ، سَلَكَهُ وأَسْلَكَهُ، ومنه: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ﴾ [الزمر: ٢١] ومنه: ﴿لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح: ٢٠].

«**رصدًا**» نصب لأنه مفعول، كأنه قيل: يجعل رصدًا نسلكه من بين يديه.

«**عددًا**» نصب على الحال، وقيل: على المصدر، أي: عد عددًا.

ومتى قيل: لِمَ قيل: «**فإن له**» ثم قال: «**خالدين**»؟

قلنا: لأنه أخبر عن (مَنْ،) و(مَنْ) تكون للجماعة.

---

(١) القرطبي ١٩/٢٧.

النزول

قيل: إن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: إنك أتيت بأمر عظيم لم يُسمع بمثله، وقد عاداك الناس، فارجع، عن هذا، ونحن نجيرك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾ الآية، وبين لنبيه ﷺ ليقول لهم: إن أحدًا لا يجير على الله؛ لأنه قادر لذاته، لا يجوز منعه عن مراده.

المعنى

ثم أمر تعالى نبيه أن يبين لهم أن المالك النفع والضر، وعالم الغيب هو الله تعالى، وأنه رسول ليس عليه إلا البلاغ، فقال سبحانه وتعالى: «**قُلْ**» يا محمد «**[إِنِّي] لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ**» أي: لا يمنعني من أمر يريده بي «**وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ**» سواه «**مُلْتَحَدًا**» قيل: ملجأ أميل إليه، عن قتادة، وقيل: نصيرًا، وقيل: مدخلاً في الأرض مثل السرب، عن الكلبي، وقيل: حرزًا، عن السدي. «**إِلاَّ بَلاَغًا مِنَ اللَّهِ**» يعني تبليغًا لرسالته فإنه مَلْجَئِي وملتحدي، وفيه لي الأمر والنجاة، عن الحسن، وأبي علي، وقيل: لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا، فما عَلَيَّ[1] إلا البلاغ عن الله، كأنه قيل: لا أملك شيئًا سوى تبليغ وحي الله تعالى بتوفيقه وعونه، عن قتادة، وقيل: لا يجيرني من الله أحد إن لم أبلغ رسالته، وإن بلغت كان هو لي مجيرًا، وقيل[2]: لا أملك إلا ما ملكت، وإنما أنا رسول، فليس لي إلا البلاغ، وقال أبو مسلم: يحتمل (بلاغًا) معنيين:

أحدهما: إلا ما بلغني من الله وأتاني، أي: لا يجيرني شيء إلا ما أتاني من الله تعالى، ولا فرق بين أن يقول: آتاني كتابه، وبلغني كتابه، والمراد ما تَعَبَّدَهُ به.

والثاني: التبليغ أي: لا أملك إلا تبليغ ما أنزل إلي، فأما القبول والإيمان به فليس لي، وإنما هو إليكم.

﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ لما عطف الرسالة إلى البلاغ أوجب أن يكون غيره، فيحتمل أنه أراد

---

(١) علي: إلى؛ غ.

(٢) وقيل: وقل، غ.

بالبلاغ ما بلغ من توحيد الله وعدله وصفاته، وما يجوز عليه، وما لا يجوز، وأراد بالرسالة ما أرسل لأجله من بيان الشرائع التي لا تتم إلا به، ويحتمل أن يكون للتأكيد جَمَعَ بينهما.

ولما بَيَّنَ أنه لا ملجأ من عذابه إلا طاعته، عقَّبه بوعيد من خالفه، فقال سبحانه مبينًا أن هذا دأبه في جميع المكلفين: «**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**» أي: خالف أمره وارتكب ما نهى عنه، قيل: هو في الإبلاغ ليتصل بما قبله، ويعلم أنه كما يجب على الرسول الإبلاغ يجب على غيره، وقيل: هو عام يدخل فيه البلاغ وغيره، وهو الوجه. «**فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**» أي: مقيمين لا يبرحون عنها «**حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ**» من العذاب، قيل: هو عذاب الاستئصال في الدنيا، وقيل: عذاب الآخرة «**فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا**» أهم أم النبي ﷺ، والله تعالى ناصره ومعينه، وكذلك أنبياؤه وملائكته، والمراد أنه لا ناصر لهم، ولا عدد، وأن النبي وحزبه هم المنصورون، وقيل: كان المشركون يصفونه بقلة العدد، ويفتخرون بكثرة جموعهم، فَبَيَّنَ تعالى أن الأمر سينعكس عليهم، وفيه زجر عن الكفر والمعاصي، والاغترار بالأتباع «**قُلْ**» يا محمد «**إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ**» قيل: أراد القيامة، وقيل: أراد العذاب، أي: لا أعلم أن ذلك قريب يعجل «**أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا**» أي: أجلاً وغاية تطول مدتها «**عَالِمُ الْغَيْبِ**» أي: هو عالم الغيب، فيعلم متى يكون يوم القيامة «**فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا**» أي: لا يُطْلِعُ على غيبه أحدًا «**إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ**» أي: من يصطفيه ويختاره ويرتضيه من رسول، ويعلم أنه يصلح للرسالة، فيطلعه على ما يشاء من الغيب على ما يرى به من المصلحة، عن قتادة. «**فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا**» أي: حافظًا، قيل: أراد علم ما مضى من أخبار الأمم وأنبيائهم، وما جرى عليهم من أذى قومهم، وما أعد لهم من الثواب، وفيه تقوية لقلبه، وقيل: معناه: تعريف ما كان وما يكون، فيكون العلم بذلك كالرصد له، والرصد: الطريق، ويقال: سلكه وأسلكه؛ أي: سلك به طريقًا يهون معه القيام بأمر النبوة، وقيل: كان إذا نزل الوحي بعث الله جبريل ومعه ملائكة يحرسون الوحي حتى لا يسترقه، فيحرسون النبي من كفار الإنس والجن إلى أن يؤديَ، ويبلغَ إلى الخلق

مصالحهم، وقيل: رصدًا من الملائكة حفظة، عن إبراهيم، وقتادة، وروي أن سورة (الأنعام) نزلت ومعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح، يحرسون رسالة الله من أن يطلع عليها أحد حتى يبلغوها، وقيل: أربعة من الملائكة يحفظونه، عن سعيد بن المسيب. «لِيَعْلَمَ» قيل: ليعلم محمد أن الرسل قبله أدوا[1] رسالات ربهم وبلغوا، عن قتادة، وقيل: ليعلم من كذب أن قد أبلغوا رسالات ربهم، عن مجاهد، وقيل: ليعلم الرسل «أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ» على إحاطته بهم ويحصي لما بلغوه من رسالاته، عن سعيد بن جبير، وقيل: ليعلم الله، عن الزجاج، ومعناه: ليظهر من المعلوم على ما كان الله تعالى عالمًا به، وقيل: ليعلمه واقعًا كما كان يعلمه أنه سيقع، وقيل: ليعلم الرسول أن الملائكة بلغوا رسالات الله إليه، وقيل: ليعلم الجن أن الملك بلغ رسالات ربه، وقيل: أراد ليبلغوا، فجعل بدل ذلك قوله: «ليعلم» بلاغهم توسعًا، عن أبي علي. «وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ» أي: أحاط علمًا بما عندهم حتى يعلم كل شيء، [و] لا يخفى عليه شيء، فصار جميع المعلومات في معلومه بمنزلة ما أحيط به «وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا» أي: عدها عدًّا، أي: مع كثرة المعلومات المعدومة والموجودة عَلِمَ تعالى عددها، وصغيرها وكبيرها، وقليلها وكثيرها، وما يكون وما لا يكون، وما كان لو لم يكن كيف كان، وما لم يكن لو كان كيف كان، وقيل: العلم بما لا يتناهى يصح، والإحصاء لا يتناول إلا المتناهي؛ لأنه فعل، عن أبي علي، فإن حمل على العلم تناول جميعها، وإن حمل على العد تناول الموجودات.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: أن الملجأ من عذابه طاعته.

ومنها: أن العصاة يخلدون في النار، خلاف قول المرجئة.

ومنها: أن الجنة والنار لا تفنيان، خلاف قول جهم.

---

(١) أدوا: أتوا، غ.

ومنها: أن الغيب لا يعلمه إلا الله، خلاف قول الرافضة: إن الإمام يعلم الغيب.

ومنها: أنه يحفظ كل رسول من الإنس والملائكة حتى يؤدوا الرسالة؛ لأنه مبعوث لبيان المصالح، فلا يجوز [أن] تنقطع عنه، فوجب حراسته حتى يؤدي.

ومنها: دلالة قوله: «**وأحصى**» أنه عالم لذاته؛ لأن المعلومات لا نهاية لها، والمعلوم: المتناهي.

ومنها: أن العصيان فِعْلُ العبد، حادث من جهته؛ لذلك استحق العقاب.

سُورَةُ المُزَّمِّل

سورة (المزمل)، قال القاضي: قيل: مكية، وقيل: مدنية، وقيل: بعضها مكية وبعضها مدنية، وقال حمزة: إنها مكية إلا قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ إلى آخر السورة، وهي عشرون آية في الكوفي، وتسع عشرة[1] في البصري، وثماني عشرة[2] في المدني.

وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «أنه من قرأ سورة (المزمل) دفع عنه العسر في الدنيا والآخرة».

ولما ختم سورة[3] (الجن) بذكر الرسل، افتتح هذه السورة بذكر النبي ﷺ، وأمره بالصلاة شكرًا له.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾

(١) عشرة: عشر، غ.
(٢) عشرة: عشر، غ.
(٣) سورة: السورة، غ.

القراءة

قراءة العامة: «**المُزَّمِّلُ**» بكسر الميم وتشديد الزاي يعني المتلفف بثيابه، وعن بعضهم: «**المزَمَّلُ**» بتخفيف الزاي وفتح الميم وتشديدها على معنى زمل هذا الأمر، أي: حمله[1]، والزمل: الحمل، وقد ازْدَمَلَ الحمل إذا حمله، ومنه حديث أبي الدرداء: (إن فقدتموني لتفقدن زملاً عظيمًا) يعني حملاً من العلم عظيمًا، والزاملة: بعير يستظهر به الرجل، يحمل عليه متاعه.

قراءة العامة: «**قُم**» بكسر الميم لالتقاء الساكنين، وقرأ أبو السماك العدوي بضم الميم لأجل ضم القاف[2].

قرأ أبو عمرو وابن عامر: «**وِطاءً**» بكسر الواو وفتح الطاء ممدودًا[3]، وهو اختيار أبي عبيد على معنى المواطأة والموافقة، وهو أن يواطئ سمعه وبصره ولسانه. وقرأ الباقون «**وطأ**» بفتح الواو وسكون الطاء مقصور أي: فراغًا للقلب.

قراءة العامة: «**سبحا**» بالحاء غير معجمة، أي: فراغًا وسعة لتصرفك في حوائجك، وأصل السبح: سرعة الذهاب، ومنه: السباحة في الماء، وفرس سابح: شديد الجري. وقرأ يحيى بن يعمر: «**سبخا**» بالخاء المعجمة[4]، أراد: خفة واستراحة، ومنه حديث عائشة: «أنها دعت على سارق سرق منها» فقال ﷺ: «لا تسبخي عنه بدعائك»[5] أي: لا تخففي، والتسبيخ: توسيع القطن [والكتان والصوفي][6] وتنفيشها، ويقال لما يسقط من القطن عند النَّدْفِ: سبخ، يقال: سَبِّخِي قطنك، قال ثعلب: السبح: التردد والاضطراب. والسَّبْخُ: السكون، ومنه قوله ﷺ: «الحمى، من فيح جهنم، فسبخوها بالماء»[7] أي: سكِّنوها، وقيل: معناه: خففوها، يقال: سبخ الله عني الحمى، أي: خفف وسهل.

(١) القرطبي ١٩/ ٣١.
(٢) القرطبي ١٩/ ٣٣.
(٣) حجة القراءات ٧٣٠.
(٤) القرطبي ١٩/ ٤١.
(٥) أبو داود رقم ١٤٩٧، وأحمد رقم ٢٤٢٢٩، والأوسط رقم ٣٩٢٥.
(٦) ما بين المعكوفين زيادة من: تفسير القرطبي: ١٩/ ٤١.
(٧) القرطبي ١٩/ ٤١.

قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم: «**رب المشرق**» برفع الباء على الابتداء، وقيل: بإضمار (هو)؛ أي: هو رب المشرق والمغرب، وقرأ الباقون بالجر على أنه نعت لقوله: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ ، وقيل: على البدل.

۞ اللغة

المُزَّمِّلُ: أصله المُتَزَمِّلُ، وهو الملبد في ثيابه، فإذا جاء على الأصل يقال: تزمل يتزمل تزملًا: إذا التف، فأدغمت التاء في الزاي[1] من غير إخلال بالحرف؛ لقرب المخرج، فصار المزمل، والتصريف منه ازَّمَّل يَزَّمِّلُ بتشديدين على الميم والزاي[2]، وكل شيء لفف فقد زُمِّل، قال امرؤ القيس:

كَـأَنَّ ثَـبِـيـرًا فـي عَـرَانِـيـنِ وَبْـلِـهِ   كَـبِـيُـر أُنَـاسٍ فـي بِـجَـادٍ مُـزَمَّـلِ[3]

والنصف: أحد قسمي الشيء المساوي للآخر في المقدار، كما أن الثلث جزء من ثلاثة، والربع جزء من أربعة، وهذه من صفات الأجسام، فإذا رفعت التأليفات عنها بقيت أجزاء لا توصف بأن لها نصفًا أو ثلثا أو ربعا[4]، والعَرَضُ لا يوصف بالنصف والجزء، والقديم لا يوصف؛ لأن هذه عبارات عن مؤلفات على وجوه.

ومتى قيل: فإذا وجب ألاّ يكون وصف القديم بأنه واحد لا يكون مدحًا له؟

قلنا: نحن نقول: إن معنى قولنا: واحد: أنه مستحق لصفات لا يستحقها غيره، ككونه قديمًا قادرًا عالـمًا لذاته ونحو ذلك، ومن يقول: معناه أنه لا يتجزأ، فليس بمدح، إلا أن يقال: إنه حي لا يتجزأ، بخلاف سائر الأحياء.

والترتيل: ترتيب الحروف على حقها في تلاوتها وتثبت[5] فيها، فأما الحدر: فإسراع فيها، وكلاهما حسن، إلا أن الترغيب هاهنا في الترتيل.

---

(١) الزاي: الرا، غ.
(٢) والزاي: والراء، غ.
(٣) البيت من معلقة امرؤ القيس المعروفة، يصف سحابًا بكثرة المطر، وثبير كأمير: جبل بمكة، والعرانين: أوائل المطر. والوبل: المطر الشديد الضخم القطر، والبجاد: كساء مخطط، يقول: كأن ثبيرًا في أوائل مطر هذا السحاب سيد أناس تلفف بكساء مخطط، شبه تغطيته بالمطر والغمام بتغطي هذا الرجل بالكساء. اللسان (خزم).
(٤) نصفا أو ثلثا أو ربعا: نصف أو ثلث أو ربع، غ.
(٥) وتثبت: يثبت، غ.

والإلقاء والتلقين بمعنى، تقول: ألقيت على فلان مسألة، وقال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٦].

والثقيل: ضد الخفيف، واختلفوا، فقال أبو علي: الثقل ليس بمعنى، وإنما يرجع إلى أجزاء الجوهر، وقال أبو هاشم: هو معنى وهو الاعتمادات اللازمة السفلية، وأما الخفة: فهو انتفاء الثقل فقط، وليس بمعنى، وعن بعضهم أنه معنى.

والنشوء: إحداث الشيء ابتداءً منه، نشأ الله الخلق أي: خلقهم ابتداءً عن عدم، لا على مثال، ونشأ فلان في بني فلان، والناشئ: النبات، ونشأ السحاب: ارتفع، وأنشأ حديثًا وشعرًا: ابتدأ، والناشئة: الظاهرة لحدوث شيء بعد شيء، وناشئة الليل: ابتداء عمل الليل شيئًا بعد شيء، يعني عمل الليل، وقيل: ناشئة الليل يريد القيام والانتصاب للصلاة فيه، والناشئة: القيام، مصدر جاء على «فاعلة»، نحو: الخاتمة بمعنى الختم، وقيل: كلما حدث في الليل فهو ناشئ، والجمع: ناشئة، وقيل: الناشئ: واحد، جمعها: نَشَأٌ، نحو: خادم وخَدَمٍ، ويقال للذكر والإناث: نشأ.

والمواطأة: الموافقة والمماثلة، يقال: واطأ في الشعر أي: قال بيتين على قافية واحدة، وأوطأ كذلك، والوطاء من قولهم: وطئهم العدو: إذا نكى فيهم وطأة شديدة، فيكون بالقدم والقوائم وبالخيل، ومنه: «اللهم اشدد وطأتك على مضر»(١) أي: خذهم أخذًا شديدًا، وأصل الباب: التوطئة، وهو التذليل والتمهيد، والوطاء: المهاد. وفراش وطيء.

والأَقْوَمُ: الأخلص استقامة، وأصله من قولهم: هذا قوام الأمر، وقيامه؛ أي: به يستقيم الأمر، وهو مأخوذ من القيام، خلاف القعود، ومنه: القيامة.

والتبتل: الانقطاع إلى عبادة الله، وإخلاص العمل له، وأصله القطع، ومنه: صدقة بَتَّةٌ بَتْلَةٌ، ويقال: بَتَتُّ الشيء وبتلته: قطعته، ومنه: البتول لانقطاعها إلى عبادة الله، وقيل: لانقطاعها من الأزواج، وبتلت الشيء أَبْتِلُهُ: قطعته، وطلقها بَتَّةً بَتْلَةً أي: قاطعة.

---

(١) البخاري رقم ٧٧١، والنسائي رقم ١٠٧٣، وابن ماجه رقم ١٢٤٤.

۞ الإعراب

«الليل» نصب؛ لوقوع الفعل عليه، وتقديره: قم في الليل، فلما حذف (في) وصل إليه الفعل فنصبه، وقيل: نصب على الظرف.

«نصفه» نصب لأنه بدل من (الليل)، يقال: أَكَلْتُ السمكةَ رَأْسَهَا.

«أو انقص» من كسر الواو فلاجتماع الساكنين، ومن[1] ضم فلضمة القاف.

«تبتيلاً» نصب على المصدر، وهو مصدر على غير لفظ الفعل؛ لأنه قال: «تبتل» فكان مصدره تَبَتُّلاً، إلا أنه ذكر تبتيلاً لنظم رؤوس الآي.

۞ النزول

روى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي بالليل، فتسامع الناس به، واجتمعوا، وكبروا، فدخل البيت فقال: «أخاف أن تكتب عليكم»، فجعلوا يتنحنحون حتى يخرج إليهم، فنزل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ففرضت صلاة[2] الليل حتى كان أحدهم ليربط حبلاً فيتعلق به، فمكثوا كذلك ثمانية أشهر، ثم نسخ ذلك، فصارت صلاة الليل تطوعًا[3].

وقيل: لم يكن فريضة، بل كان تطوعًا؛ لأن الفرض لا تخيير فيه، وقيل: كان فرضًا، والزيادة والنقصان موقوفًا على رأي المصلي واختياره.

وقيل: لما نزلت هذه الآية اشتدت عليهم محافظة الوقت نصف الليل، أو أقل، أو أكثر، فكان يفوته حتى يصبح، فشق عليهم، فتورمت أقدامهم، فخفف عنهم، ونسخت.

وقيل: بَيْنَ أنْ فُرِضَت حتى نُسِخَت سَنَةٌ، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وقيل: كان بينهما عشر سنين، عن سعيد بن جبير، وقيل: ثمانية أشهر، عن عائشة، وقيل: كان هذا بمكة قبل فرض الصلوات[4] الخمس، ثم نسخ بالخمس، عن

---

(١) ومن: فمن، غ.

(٢) ففرضت صلاة: فرضت الصلاة؛ غ.

(٣) القرطبي ١٩/ ٣٤.

(٤) الصلوات: صلاة؛ غ.

ابن كيسان، ومقاتل، وقيل: لما سماه الكفار بأسماء شق عليه، فقالوا: شاعر، ساحر، كاهن، مجنون، تزمل بثيابه ونام. فأتاه جبريل، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١].

المعنى

«يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ» قيل: المتلفف بثيابه، عن قتادة، وقيل: تزمل بِعِبْءِ النبوة، عن عكرمة، وقيل: يجوز أنه تزمل بثيابه للنوم، ويجوز أن يكون لِلْحَرِّ، فأتاه الوحي وأمره بالقيام؛ ليعلم أنه لا عذر لأحد في ترك العبادة، وقيل: كان هذا في ابتداء الوحي، ولم يكن أدى شيئًا من الرسالة بعد، فلهذا خاطبه بالمزمل، «قُمِ اللَّيْلَ» أي: في الليل للصلاة، عن أكثر المفسرين، وقال أبو مسلم: قم لقراءة القرآن، فأمره أن يُقَسِّمَ الليل بين النوم، وقراءة القرآن «إِلاَّ قَلِيلاً» استثنى القليل «نِصْفَهُ» قيل: هو بدل من الليل، فيكون بيانًا للمستثنى منه، أي: يجب القيام نصف الليل أو ثلثه، وقيل: هو بدل من القليل فيكون بيانًا للمستثنى، والمعنى: قم[(1)] سوى نصفه أي: نصف الليل «أَوِ انْقُصْ مِنْهُ» من النصف، فترده إلى الثلث «أَوْ زِدْ عَلَيْهِ» على النصف إلى الثلثين، فخيره بين هذه المنازل، وصار ذلك موكولاً إلى اجتهاده «وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً» قيل: تَرَسَّلْ فيه تَرَسُّلاً، عن مجاهد، وقيل: اقرأه قراءة مبينة، عن الحسن، وقيل: بَيِّنْهُ بيانًا شافيًا، عن ابن عباس، وقيل: اقرأه على هينتك وفصله تفصيلاً، وتفهم معانيه، ولا تهره هرًّا، وأصل الترتيل: أن يأتي بالحروف تامًّا بعضه على إثر بعض من غير نقصان، فيكون قد أتم القراءة، وفهم معناه وبين لغيره، «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً» قيل: نوحي إليك، وقيل: نلزمك العمل به «ثَقِيلاً» قيل: يثقل العمل به للمشقة فيها، عن الحسن، وقتادة، وقيل: سماه ثقيلاً لثقله في الميزان، عن ابن زيد، وقيل: إنه ثقيل لم ينسخ، وإنما بين تخفيف الثقل، وقيل: ثقيل: رصين لعظم حكمته، وقيل: ثقيلاً بالوعد والوعيد والحرام والحلال، عن أبي العالية. وقيل: ثقيلاً على المنافقين، عن محمد ابن كعب، وقيل: ثقيلاً ليس بالخفيف السفساف؛ لأنه كلام ربنا جل وعز، عن الفراء، والأصل فيه أنه لما عظم العمل بما فيه من الأمر والنهي وصف بأنه ثقيل، كما

(١) قم: فيه، غ، وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ١٤٣.

وصف يوم القيامة بأنه ثقيل؛ لما فيه من الأمور العظام، وقيل: كان ثقيلاً نزوله، بأنه كان عند نزوله يتغير حاله، ويعرق، وإذا كان راكبًا تَبْرُكُ راحلته ولا تمشي[1] «إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا» قيل: ما ينشئه الله للنبي ﷺ في الليل، فيوحي به إلى رسوله ليلاً كان أشد مواطأة ووطاء بالهمز أي: ثباتًا ورسوخًا في قلبك لفراغه، عن أبي مسلم، وقيل: ناشئة الليل: موافقة ساعاته كلها، وكل ساعة ناشئة؛ لأنها تنشأ، وجمعها: ناشئات، عن ابن عباس، وابن الزبير، وقيل: ناشئة الليل: ساعات التهجد من الليل، كل وقت قام من الليل فقد نشأ، عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وابن زيد، وقيل: ناشئة الليل أول الليل، وهو ناشئ، فأدخلت الهاء للمصدر، وقيل: ما قمت من أول الليل، فهو ناشئة، عن عكرمة، وقيل: ناشئة الليل ما كان بعد العشاء الآخرة، عن الحسن، وقتادة، وقيل: ناشئة الليل بين المغرب والعشاء، عن علي بن الحسين، وكان يصلي بينهما، ويقول: هذه ناشئة الليل، وقيل: ناشئة الليل: القيام بعد النوم، عن عائشة، وقيل: القيام آخر الليل، عن ابن كيسان. «أَشَدَّ وَطْأً» قيل: واطأ القلب اللسان، وواطأه، عن مجاهد، وقيل: أن يواطئ قلبه وسمعه وبصره ولسانه، عن ابن عباس، فأما «وطاء» قيل: أثبت في الخير والقراءة، عن مجاهد، وقيل: أثبت قيامًا، عن الفراء، وقيل: أشد على المصلي من صلاة النهار، عن أبي علي، وقيل: أفرغ له قلبًا من النهار، عن ابن زيد. فخص الله تعالى ساعات الليل لأحد وجهين:

أحدهما: أنه أشد موافقة للقراءة، وموافقة للسمع والقلب واللسان لخلوص القلب من الشواغل، ويتدبر معانيه، ويفهم ما أريد منه، ولا يقطعه عنه قاطع؛ ولأن العين بالنهار تبصر الأشياء وتشغل القلب، وبالليل لا تبصر شيئًا للظلام، فيكون أوفق للقراءة.

وثانيها: لمشقته على النفس وثقله؛ لأنه يفارق الفراش ويهاجر لذيذ النوم، ويصلي والناس نيام.

«وَأَقْوَمُ قِيلًا» قيل: أقوم قراءة وأصوب لفراغ قلبه من شغل الدنيا، عن ابن زيد، وقيل: أشد استقامة في القراءة، عن أبي مسلم. «إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا» قيل:

(١) تمشي: المشي، غ.

سبحًا متصرفًا ومنقلبًا وترددًا في الأداء، عن قتادة. يعني مذاهبك في النهار، وما يشغلك كثيرة تمنع قرار الشيء في القلب، وفي الليل يفرغ القلب للتذكر والقراءة، ويكون أثبت «**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ**» قيل: اذكر الله باللسان والصلاة، وقيل: أراد ذكره في عموم الأحوال؛ لأن ذلك يُمَكِّنُ مع الاشتغال كما يمكن مع الفراغ، فكأنه يريد الذكر في جميع الأحوال، وذلك إن حمل على الوجوب يرجع إلى الاعتقاد للتوحيد والعدل والنبوات، وسائر أصول الدين، وإن أريد الذكر باللسان، فلا بد من حمله على النوافل، وقيل: اذكره بالتعظيم، وهذا على ما ذكرنا أنه يجب أن يعتقد التوحيد وصفاته الحسنى، وما يعود إلى أصول الدين، لا يجوز خلوه عنه ساعة إلا بسهو أو نسيان، وقيل: إذا ابتدأت القرآن فاقرأ (**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**)، عن أبي مسلم. «**وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا**» قيل: أَخْلِصْ النية إخلاصًا، عن ابن عباس وجماعة، وقيل: انقطِعْ إليه انقطاعًا، تَأْمُلُ ثوابه وتخاف عقابه، وتطيعه في سرك وجهرك، وقيل: اجتهد، عن الحسن، وقيل: تفرغْ لعبادته، عن ابن زيد، وقيل: توكلْ عليه توكلًا، عن شفيق، وقيل: اتصل به اتصالاً، فما رجع من رجع إلا من الطريق، ما وصل إليه أحد فرجع عنه، وقيل: ارفع اليدين في الصلاة، عن محمد بن علي، وقيل: التبتل: رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله، يعني تنقطع من الدنيا وشواغلها وتتوفر على العبادة، وقيل: من دام على الإخلاص، وكان في المكاسب المباحة فهو متبتل أيضًا «**رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**» أي: انقطع إليه فهو رب المشرق والمغرب «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا**» قيل: حافظًا، وقيل: فَوِّضْ أمرك إليه، واعتمد عليه، فتجده خَيْرُ وليٍّ وكافٍ «**وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ**» قيل: هم الكفار ينسبونه إلى السحر والكهانة والشعر، ويكذِّبونه، وقيل: اصبر على أذاهم فيما يقولون من الكفر والضلال «**وَاهْجُرْهُمْ [هَجْرًا]**» أعرض عنهم إعراضًا «**جَمِيلًا**» يعني لا تمهلهم، واقتصر على الدعاء إلى الله تعالى وتوحيده وعدله وبيان الشرع، وقيل: اصبر على ما نالك من الأذى من جهتهم مع الإبلاغ، وقيل: نسخت هذه الآية بآية القتال، وقيل: بل هو تلطف في استدعائهم، فيجب مع القتال فليس فيه نسخ، وقيل: الهجر الجميل: إظهار الجفوة من غير ترك الدعوة إلى الحق والمناصحة.

۞ الأحكام

في الآية أحكام:

منها: وجوب صلاة الليل عليه ﷺ، هكذا قاله أكثر المفسرين، وذكر أبو علي أنه لم يكن واجبًا؛ بل كان نفلاً؛ فلذلك خُيِّرَ، قال القاضي: وإذا كان مطلق الأمر لا يقتضي الوجوب لم يكن في ظاهره دلالة على ما يقوله القوم، إلا أنه ثبت أن أوامر الله ورسوله تقتضي الوجوب، فلهذا دل الظاهر عليه، وإذا ثبت وجوبه اختلفوا، فالأكثر من الفقهاء والمفسرين أنها منسوخة، وعن الحسن وابن سيرين لا بد من قيام الليل، ولو قدر حلب شاة.

ومنها: أن القرآن تجب قراءته على الترتيب على وجه يُتِمُّ الحروف، ويُفْهِمُ المعنى.

ومنها: وجوب الانقطاع إليه في جميع الأحوال، وعبادته مخلصًا لكونه ربًّا وخالقًا ومنعمًا.

ومنها: وجوب الصبر على أذى المخلوقين، على من يدعو إلى الدين، والمعاشرة بأحسن الأخلاق، والدعاء بالرفق؛ ليكون أقرب إلى الإجابة، ومع ذلك لا ينبغي ترك الدعوة والاحتجاج عليهم.

ومنها: أن التبتل والصبر والهجر فعلُ العبدِ.

قوله تعالى:

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾[1]، وعن ابن مسعود وعطية: «فكيف تتقون يوما يجعل الولدان شيبًا إن كفرتم»، وقرأ أبو السماك العدوي: «فكيف تَتَّقُونِ» بكسر النون على الإضافة[2]، والمجمع عليه فتح النون.

۞ اللغة

لفظة (ذَرْ) جاء مستقبلاً، وأخذ منه الأمر والنهي، ولم يجئ منه الماضي استغناء عنه بما هو أولى منه، وهو (تَرَكَ)؛ لأن الواو متكرهة حتى يقرنها إلى الهمزة، وعلى هذا: دَعْ[3].

والنعمة: التنعم، والنعمة: الثروة، والنعمة: المنة، والنُّعْمَة بضم النون: المسرة[4]، والنعمة: المال.

والتمهيل: التأخير في المدة.

والأنكال: القيود، واحدها نِكْلٌ.

والغُصَّةُ: تردد اللقمة في الفم، لا يسيغها آكلها، يقال: غص بِرِيقِهِ يَغَصُّ غَصَصًا، وفي قلبه غُصَّةٌ أي: لوعة، لا يسيغ معها طعام ولا شراب.

والكثيب: الرمل المجتمع الكثير.

والمهيل: السائل، يقال: هِلْتُ الرمل أَهِيلُهُ: إذا حركت أسفله، فسال من أعلاه، ويقال: مَهِيلٌ ومهيول نحو: مكيل ومكيول، ويقال: انهال الرمل انهيالاً، ومنه الحديث: «كِيلُوا ولا تَهِيلُوا»، ويقال: تهيل الرمل وانهال، وَهِلْتُه: إذا نثرته وصببته من يدك، وهيّلته: أرسلته إرسالاً يجري، وأهلته لغة، والأهيل والهَيَال: السيال.

والوبيل: الثقيل الشديد، وبناؤه «فَعِيلٌ» من الوبال، وكُلُّ ثقيل وبيل، ومنه: كَلأٌ

(١) فتح القدير ٥/ ٤٤٧.
(٢) القرطبي ١٩/ ٤٧.
(٣) دع: فدع، غ.
(٤) المسرة: الثروة. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان: ١٠/ ١٤٧.

مُسْتَوْبَلٌ أي: مُتَوَخِّمٌ، لا يُسْتَمْرَأُ، ومنه: الوبل والوابل: ما يغلظ على النفس، وأصله: الغلظ، ومنه: الوبال، قال الشاعر:

لقد أكلت بجيلة يوم لاقت فَوارِسَ مالِكٍ أَكْلاً وَبِيلاً[1]

والشِّيبُ: جمع أَشْيَبَ[2]، والشَّيْبُ: بياض الشعر، شاب يشيب شيبًا.

والفَطْرُ: أصله الشق.

۞ الإعراب

ويقال: لِمَ قيل: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ﴾ ولم يقل: منفطرة؟

قلنا: فيه وجوه:

قيل: أراد السقف، وهو مُذَكَّرٌ، عن يونس، وأبي علي.

وقال الخليل: هو كقولك: شاة مُطْفِلٌ: معها أطفالها قريبة عهد بالنتاج، ومعناه: ذات انفطار، يجري على طريق النسبة[3]، وامرأة مُطْفِلٌ أي: ذات طفل.

وقيل: تأنيث السماء ليس بحقيقي، فمرة يُذَكَّرُ، ومرة يؤنث.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: «وذرني...» الآيات في صناديد قريش، والمستهزئين، وهم خمسة.

وقيل: بل نزلت في المطعمين ببدر، وهم عشرة، عن مقاتل، وقد بَيَّنَّا في (الأنفال).

۞ المعنى

لما أمره الله تعالى بالصبر على أذى الكفار أمره أن يَكِلَ أمره إلى الله فسيكفيه أمرهم، فقال سبحانه: «وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ» أي: لا تكافئهم أنت، واتركهم وإياي؛

(١) البيت للخنساء، انظر: ديوان الخنساء، تحقيق: إبراهيم عوصة ص ٢٤٦، القاهرة، ١٩٨٥.
(٢) أشيب: الشيب، غ. وما أثبتناه من: لسان العرب: ١/ ٥٠٢.
(٣) النسبة: التشبيه، ع. وما أثبتناه من: التبيان في تفسير القرآن الطوسي ١٠/ ١٦١.

فإني أكافئهم «**أُولِي النَّعْمَةِ**» يعني المتنعمة «**وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا**» أي: أخرهم مدة قليلة، قيل: إلى يوم بدر، فقتلوا يوم بدر، وقيل: إلى عذاب الآخرة؛ ولذلك عقبه بذكر الأنكال والجحيم «**إِنَّ لَدَيْنَا**» عندنا «**أَنكَالاً**» قيل: قيودًا، عن قتادة، ومجاهد، وقيل: أغلالاً «**وَجَحِيمًا**» اسم من أسماء النار «**وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ**» أي: ذا شوك يأخذ بالحلق، فلا يدخل ولا يخرج، عن ابن عباس، وقيل: هو الغسلين والزقوم والضريع «**وَعَذَابًا أَلِيمًا**» وجيعًا، وهو سائر أنواع العذاب «**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ**» أي: تحرك وتضطرب بِمَنْ عليها «**وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا**» أي: رملاً سائلاً متناثرًا، عن ابن عباس.

ثم أكد الحجة، فقال سبحانه: «**إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً**» يعني محمدًا ﷺ «**شَاهِدًا عَلَيْكُمْ**» قيل: يشهد عليكم في الآخرة بما يكون منكم في الدنيا، وقيل: أراد بالشهادة بيان الحق، فسماه شاهدًا لكونه مبينًا، وليس أمره ببدع؛ فقد أرسلنا رسولاً مِنْ قَبْلِهِ «**كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً**» يعني: موسى ﵇ «**فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا**» أي: لما خالف الرسول أخذناه بالعذاب «**أَخْذًا وَبِيلًا**» قيل: شديدًا ثقيلاً مع كثرة جموعه وكثرة أمواله، وسعة ملكه، حذر قومه أن ينالهم مثل ما نال فرعون «**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ**» قيل: كيف تتقون ذلك العذاب يوم القيامة، والحال حال إلجاء لا ينفع أحد تندمه[1]؛ إذ ليس ثَمَّ تكليف حتى يتلافى الفائت، وقيل: كيف تتقون ذلك العذاب ولا أحد ينجيكم ويدفع عنكم، والاتقاء: الدفع، قال الشاعر:

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إسْقَاطَهُ ... فَتَنَاوَلَتْهُ واتَّقَتْنَا[2] بِالْيَدِ[3]

أي: دَفَعَتْنَا، وقيل: كيف لكم بالتقوى في ذلك اليوم إذا كفرتم في الدنيا، أي: لا سبيل إليه.

---

(١) تندمه: تندامه، غ.

(٢) واتقتنا: واتقته، غ، ما أثبتناه من: الصحاح، واللسان.

(٣) الشاعر: هو النابغة الذبياني، وكان من أخصاء النعمان بن المنذر ملك الحيرة، ودخل عليه يومًا فجأة ومعه امرأته المتجردة، فالتفتت إليه مذعورة، فسقط نصيفها وهو الخمار، فاستترت بيدها وذراعها، فكادت ذراعها تستر وجهها لغلظها وكثرة لحمها، فأمره النعمان أن يقول قصيدة فيها، فأنشأ قصيدته، ومنها البيت.

ثم وصف اليوم، فقال سبحانه: «**يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ**» أي: الصبيان «**شِيبًا**» لشدته، وقيل: إنما هو طريق المَثَلِ، تقول العرب: حدث أمر تشيب فيه النواصي، ويشيب فيه الصغير، وهو الوجه. «**السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ**» أي: منشق به، قيل: معناه: فيه؛ أي: في ذلك اليوم، كما يقال: فلان بالكوفة أي: في الكوفة، وقيل: بذلك الأمر الشديد، وقيل: بذلك اليوم الهائل، وما تزعمه المشبهة أنه به يرجع إلى الله تعالى يعني أنها تنفطر في ثقل الرحمن فباطل وكُفْرٌ؛ لأنه ليس بجسم، والثقل إما أن يرجع إلى الأجزاء، أو إلى معنى فيه، يتعالى الله عنهما جميعًا. و«**كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً**» أي: كائنًا لا خُلْفَ فيه، ولا تبديل.

❁ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: على ما أعد الله لأهل النار من أنواع العذاب النار وغيرها.

ومنها: الإنذار ببعثة الرسل.

ومنها: كون الرسول شاهدًا على أمته بما يفعلونه.

ومنها: أهوال يوم القيامة من انفطار السماء وغير ذلك.

ومنها: أن الخلف في وعده ووعيده لا يجوز.

ومنها: أن العصيان والتكذيب فِعْلُ العبد؛ لذلك استحق الذم والعقاب.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن
ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ
مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب: «**ونصفه وثلثه**» بالجر فيهما[1] عطفًا على (ثلثي)، فالأدنى على هذا على الثلاثة الأخرى كأنه قيل: أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه ومن ثلثه. وقرأ الباقون بالنصب فيهما، على تقدير: تقوم نصفه وثلثه، والأدنى على هذا يختص بثلثيه.

۞ اللغة

التذكرة: «تفعلة» من الذكر، وهي المواعظ التي تذكر ما يعمل عليه.

والأدنى: الأقرب، ومنه سميت الدنيا؛ لأنها أقرب من الآخرة.

والإحصاء والعد من النظائر، والإحصاء: هو إحاطتك به حسابًا.

والضرب في الأرض: السفر فيها.

۞ الإعراب

«**هذه**» قيل: الكناية عن السورة، وقيل: عن الآيات، وقيل: إلى [ما] تقدم من المواعظ.

«**وآخرون**» أي: سيكون آخرون.

«**خيرًا وأعظم**» نصب؛ لأنه مفعول (**تجدوه**)، أي: تجدوه خيرًا وأعظم، وهو صلة عند البصريين، وعماد عند الكوفيين.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أن الغرض بما تقدم من عظتهم، وحثهم على الطاعة، فقال سبحانه: «**إِنَّ هَٰذِهِ**» بَيَّنَّا أنها كناية عمّاذا «**تَذْكِرَةٌ**» أي: موعظة تذكركم ما غفلتم عنه من أمور آخرتكم «**فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا**» قيل: من شاء اتخذ بذلك التذكر والعمل به «**إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا**» أي: إلى ثوابه ورضاه طريقًا بالإيمان والطاعة.

---

(١) حجة القراءات ٧٣١.

ثم بَيَّنَ حسن طاعة أصحاب النبي ﷺ، وأثنى عليهم؛ ليقتدى بهم، فقال سبحانه: «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ» يا محمد «تَقُومُ أَدْنَى» أي: أقرب وأقل «مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ»، وهذه المقادير لا بد أن تكون في ليال[1] مختلفة لاستحالة اجتماعها في ليلة واحدة، فكأنه قيل: إنك تقوم في ليل ما يقرب من الثلثين، وفي ليل تقوم نصفه، وفي ليل ثلثه، وعلى القراءة الأخرى قريبًا من النصف ومن الثلث «وَطَائِفَةٌ» أي: جماعة «مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ» أي: من أصحابك، وقيل: كان واجبًا، عن الحسن وجماعة، وقيل: كان نفلاً؛ ولذلك خص بعضهم، ولم يَعسّم، عن أبي علي. «وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» قيل: يعرف حقيقة أوقاتهما ومقاديرهما على التفصيل، فأما غيره فيعلم الجملة، وربما يظن ولا يعلم، وقيل: يقدر أي: يعرفكم مقدارهما؛ لتعلموا مقدار ما تصلون فيه، وقيل: يقدر أوقاتهما؛ لتعملوا فيه على ما أمركم به «عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ» قيل[2]: علم أنكم لا تعرفون مقدار أوقاته، ولا يمكنكم إحصاؤه، ولا تعلمون إذا قمتم كم مضى، وكم بقي حتى تحصوا ثلثه أو نصفه، [و] قيل: لن تطيقوا إحصاءه، عن الحسن. وهذا يعود إلى الأول، أي: لا تطيقون إحصاءه على الحقيقة، ولا حفظ مواقيت الصلاة، وقيل: «عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ» أي: لا تطيقون المداومة على قيام الليل، ويقع منكم التقصير فيه «فَتَابَ عَلَيْكُمْ» قيل: جعله تطوعًا ولم يجعله فرضًا، عن أبي علي، وقيل: نسخ عنكم فلا يوجبه عليكم، وقيل: خففه عنكم ورفع التبعة منكم «فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ» قيل: في الصلاة، عن أبي مسلم، فإنه قال: أراد القيام لقراءة القرآن لا غير، وأنكر قول الجماعة وزيفه؛ لأنه ليس في الظاهر ما يدل على أنه القيام والقراءة في الصلاة، وإنما تدل التلاوة على أنه أمر بالدراسة[3] والحفظ والقيام لهما من النوم، قال: ويدل عليه أنه أمر بعد القراءة بالصلاة، وإنما ألجأه إلى ذلك إنكاره وقوع النسخ في القرآن وهو في ذلك محجوج بالإجماع. وقيل: لما خفف وأزال التقدير شرع في القراءة «مَا تَيَسَّرَ» واختلفوا، فقيل: مائة آية، عن

(١) لَيالٍ: ليالي؛ غ.
(٢) قيل: وقيل، غ.
(٣) بالدراسة: الدراسة، غ.

السدي، وقال الحسن: من قرأ مائة آية في ليله لم يحاجه القرآن، وقال كعب: من قرأ في ليله مائة آية كتب من القانتين، وقيل: خمسون آية، عن سعيد بن جبير، وقيل: أراد السور الصغار، عن أبي علي، وقيل: المراد ما تيسر من غير تقدير، وذلك يختلف بالأحوال والمكلفين، وقيل: أراد به في صلاة المغرب والعشاء، وقيل: كنى بالقراءة عن الصلاة كقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨] فالتخيير في نفس الصلاة، وهذا على قول من يجعله ندبًا لا واجبًا «**عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ**» يعني يسافرون للتجارة وطلبًا للأرباح، عن ابن عباس. «**وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**» يعني المجاهدين «**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**» أي: المكتوبات أقيموها في أوقاتها بشرائطها وقضاء الواجب عليها، واختلفوا، فمنهم من قال: الصلاة والزكاة لم توجب بمكة وهذه الآية مدنية، ومنهم من قال: أوجبتا بمكة، فالآية مكية. «**وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**» قيل: هو في بذل المال، لما أمر بالتصدق وضمن الجزاء صار كالقرض توسعًا، وهذا هو الوجه، وقيل: المراد به سائر العبادات؛ لأن المرء يتكلفه ويجب عليه الثواب «**حَسَنًا**» قيل: يتصدق بلا منٍّ ولا أذى، وقيل: أن يتصدق بخير ماله دون الرديء «**وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ**» أي: من طاعة، وقيل: من مال ليصدق به «**هُوَ خَيْرًا**» أي: أنفع من بقاء عينه؛ لأنه يصير لورثته، وإذا تصدق استحق ثوابًا دائمًا، وقيل: خير من الشح والتقصير «**وَأَعْظَمَ أَجْرًا**» أي: جزاء، فأشار إلى أن الطاعات محفوظة، لا يضيع منها شيئًا «**وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ**» أي: اطلبوا مغفرته بالتوبة «**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ**» من عادته ستر الذنب وتجاوزه «**رَحِيمٌ**» يرحم عباده بالإثابة وأنواع النعم.

۞ الأحكام

يدل قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ﴾ أن العبد مخير ولا يصح ذلك إلا والفعل فعله، وهو يقدر عليه وعلى ضده، فيبطل من هذا الوجه قول المجبرة في المخلوق والاستطاعة.

ويدل قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ على تخفيف ورد بعد التشديد، فالظاهر يليق بقول

الجماعة: إن صلاة الليل كانت واجبة ثم نسخت، دون قول أبي علي أنها كانت نافلة لا فرض، ودون قول أبي مسلم أن القيام للقراءة؛ لأن القراءة لم تكن واجبة حتى خفف.

ويدل قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ على أشياء:

منها: أنه تجوز الصلاة بما شاء من القرآن، ولا تتعين الفاتحة على ما يقوله أهل العراق، خلاف قول الشافعي؛ لأنهم أجمعوا أن المراد القراءة في الصلاة، ومن مشايخنا من يقول: لا يقبل في تعيين الفاتحة خبر الواحد؛ لأنه يقتضي نسخ ما ثبت بالقرآن، ولا يقال: إنه مجمل على ما سوى الفاتحة؛ لأنه خلاف الظاهر.

ومنها: أن الصلاة تجوز بقراءة ثلاث آيات قصار، أو آية طويلة، وهو قول أبي يوسف ومحمد، ورواية عن أبي حنيفة، ويروى عنه أنه يجوز بآية واحدة، ويستدل بظاهر الآية.

ويدل قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ الآية أنه يستوي في الرخص سفر الجهاد، وسفر التجارة.

وتدل على إباحة التجارة والتكسب.

ويدل قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ الآية على وجوب الصلاة والزكاة، والألف واللام إنما تكون للجنس، والمعهود هن المكتوبات، فينصرف إليها.

ويدل قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ﴾ أن جميع ما يعمله العبد محفوظ، لا يضيع منه شيء، فتدل على قول أبي هاشم في الموازنة، خلاف ما يقوله أبو علي في التحابط.

ويدل قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ على وجوب الاستغفار والتوبة في الأحوال كلها؛ لأن المكلف قَلَّ ما يخلو من تقصير.

وتدل أن إقامة الصلاة والزكاة والاستغفار فعل العبد، ليس بخلق الله تعالى.

سُورَةُ المُدَّثِّر

سورة (المدثر)، قيل: مكية، عن ابن عباس، وقيل: مدنية، عن الضحاك، وهي ست وخمسون آية.

وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (المدثر) أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وكذب به».

ولما أُمِرَ النبي ﷺ في سورة (المزمل) بالصلاة وغيرها أمره في هذه السورة بالإنذار، كأنه أَمَرَهُ أن يبدأ بنفسه، ثم بالناس.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر وحفص عن عاصم ويعقوب: «والرُّجْزَ» بضم الراء وهو قراءة الحسن، وعكرمة، ومجاهد، وحميد، وشيبة، واختيار أبي حاتم. وقرأ الباقون بكسر الراء[1]، واختاره أبو عبيد؛ لأنه أنسب اللغتين، وهما لغتان بمعنى واحد عند أكثر

(١) حجة القراءات ٧٣٣.

المفسرين وأهل اللغة. وقال الكسائي: بينهما فرق، فالرُّجْز بضم الراء: الوثن، وبالكسر: العذاب أي: اهجر ما يؤدي إلى العذاب، وقيل: بالضم: الصنم، وبالكسر: النجاسة والمعصية، عن أبي العالية، والربيع.

قراءة العامة: «تمنن» بنونين على إظهار التضعيف، وقرأ أبو السماك العدوي مدغمة مفتوحة[1].

قراءة العامة: «تَسْتَكْثِرُ» بالرفع، وقرأ الحسن بالجزم[2]، وقرأ الأعمش بالنصب[3]، ولا تجوز القراءة بهذين، أما الجزم: فأجازه الفراء، ولم يجزه غيره من النحويين، وهو رديء، وإنما أجازه على جواب النهي، وليس بشيء؛ لأنه ليس بجواب، فأما النصب: فعلى توهم لام (كي)، وليس بالوجه، مع أن القراءة لا تجوز إلا بالظاهر المستفيض، فالوجه الرفع، وعليه العمل وإجماع الأمة، ونبيِّن وجه ذلك من بعد.

۞ اللغة

المدثر: متفعل من الدثار، وأصله المتدثر بثيابه إلا أن الثاء أدغمت في الدال؛ لأنها من مخرج الدال، مع أن الدال أقوى في الجهر منها، تَدَثَّرَ تدثرًا، ودَثَّرَهُ تدثيرًا، فالمتدثر: المتغطي بالثياب عند النوم.

والإنذار: الإعلام بموضع المخافة لتتقى.

والإكبار: التعظيم، ومنه ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف: ٣١] ونقيضه: التصغير، وحقيقه هو وصفه بأنه أكبر، والله تعالى كبير الشأن، يعني أنه المختص باتساع المقدور والمعلوم، وأنه المستحق لصفاته لم يزل، ولا يزال لا يشاركه فيها غيره.

طَهَّرَهُ يُطَهِّرُهُ: إذا نظفه عن النجاسات.

---

(١) القرطبي ١٩/ ٦٣.

(٢) القرطبي ١٩/ ٦٣.

(٣) بالنصب: بنصب، غ القرطبي ١٩/ ٧٣.

والهجران: مفارقة الشيء.

والمن: النعمة، والمن: ذكر النعمة بما يكدرها ويقطع حق الشكر بها، وأصله القطع، ومنه: ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أي: غير مقطوع.

والاستكثار: طلب الكثرة، استكثر من المال والعلم، وهو في الآية طلب ذكر الاستكثار للعطية.

والناقور: الذي من شأنه أن يُنْقَرَ فيه للتصويت، وهو فاعول من النقر، كقولك: هاضوم من الهضم، وحاطوم من الحطم.

واليسر: ضد العسر، واليسر: خلاف العسر، واليسر: القليل الكلفة، ومنه: اليسار: كثرة المال لقلة الكلفة به في الإنفاق، ومنه: تيسر الأمر: سَهُلَ.

۞ الإعراب

(تستكثر) رفع، قيل: لأنه في موضع الحال، وتقديره: لا تمنن مستكثرًا، فلما وقع موقع الاسم رفع في المضارعة، وذلك أن (يستكثر) ضارع مستكثرًا، وقيل: أصله: أن تستكثر، فلما حذف (أن) رفع، كقول الشاعر:

أَلاَ أَيُّهذَا اللاَّئِمِي أَحْضُرُ الوَغَى ... وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي[(١)]

أي: أن أحضر، فلما حذف (أن) رفع أحضر.

۞ النزول

روى أبو مسلم ابن عبد الرحمن عن جابر أن أول ما نزل من القرآن على النبي ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[(٢)].

وعن جابر أن النبي ﷺ قال: «فتر عني الوحي مرة فبينما أنا أمشي بحراء إذ سمعت صوتًا ينادي، فنظرت، فإذا الملك الذي جاءني جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء

(١) البيت قائله طرفة بن العبد في معلقته؛ واللسان (أنن).
(٢) البخاري رقم ٤٦٣٨.

والأرض، فجئثت فرقًا، فأقبلت إلى خديجة فقلت: دثروني، فصبوا علي ماء باردًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾»(١).

وقيل: رأى جبريل في صورته، فأعظم ذلك، وقال: «دثروني» فأنزل الله تعالى هذه الآية، وآتاه جبريل هذا الخطاب، عن الأصم.

وقيل: أول ما نزل: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، عن الزهري.

۞ المعنى

«**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**» قيل: المتدثر في ثيابه، قال النخعي: كان متدثرًا في شملة صغيرة، وعن بعضهم معناه: يا أيها الطالب صرف الأذى بالدثار اطلبه بالإنذار، وقيل: يا أيها المتدثر بالنبوة، قم منها، وأنذر قومك بالنار إن لم يؤمنوا، عن عكرمة، وقيل: المراد به الجِدُّ في أمره، والقيام بما أرسل به، وترك الهُوَيْنَى فيه، كأنه قيل: لا تَنَمْ عما أمرتك به، وذلك عادة العرب، يقولون: فلان لا ينام، إذا وصفوه بالجد وصدق العزيمة، كأنهم يحظرون النوم على ذي الحاجة حتى يبلغ حاجته، ولهم فيها أشعار، قال بعضهم:

أَلاَ أَيُّهَا النَّاهِي فَزارَةَ بَعْدَمَا ... أَجَدَّتْ لِغَزْوٍ إِنَّمَا أَنْتَ حَالِمُ

أَرى(٢) كُلَّ ذِي وَتْرٍ يَقُومُ بِوَتْرِهِ ... وَيَمْنَعُ عَنْهُ النَّوْمَ إِذْ أَنْتَ نَائِمُ(٣)

ويقولون لمن طلب ثأره [فَأَدْرَكَهُ]: هذا هو الثأر المُنِيمُ.

وقال آخر يصف إبلاً ومن أوردها للشرب:

أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وسَعْدٌ مُشْتَمِلُ ... مَا هَكَذَا تُورَدُ يَا سَعْدُ الإِبِلُ(٤)

والاشتمال والتدثر واحد.

(١) البخاري رقم ٤٦٣٨.

(٢) أرى: رأى، غ.

(٣) الأغاني ١٩/ ٢٠٥، والبيت ينسب إلى قتب بن حصن من بني شمة بن فزارة.

(٤) البيت لمالك بن زيد مناة، المحيط في اللغة (شمل).

«قُمْ فَأَنذِرْ» أي: خَوِّفْ بالعذاب جميع الكفار «وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ» أي: عَظِّمْهُ وَنَزِّهْهُ عما لا يليق به، وقيل: كبر للصلاة «وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ» قيل: طهرها للصلاة، عن أبي علي، وقيل: طهرها من لبسها على معصية[1] أو غَدْرَةٍ، يعني: طهر الأعمال، عن ابن عباس. وأنشد:

فَـإِنـي بِـحَـمْـدِ الله لاَ ثَـوْبَ فَـاجِـرٍ لَـبِـسْـتُ وَلاَ مِـنْ غَـدْرَةٍ أَتَـقَـنَّـعُ[2]

والعرب تقول لمن صدق ووفى: طاهر الثياب، ولمن غدر ومكر: دنس الثياب، وقال أبي بن كعب: لا تلبسنها على غدر، ولا على ظلم، ولا على إثم، البسها، وأنت طاهر. وقيل: ثيابك فطهر من الذنوب، عن ابن عباس، وإبراهيم، وقتادة، والضحاك، والشعبي، والزهري، وقيل: أراد طهر نفسك عن المعاصي، فكنى عن النفس بالثياب؛ لأنه يشتمل عليها، قال عنترة:

فَـشَـكَـكْـتُ بِـالـرُّمْـحِ الْأَصَـمِّ ثِـيَـابَـهُ لَـيْسَ الْكَرِيـمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ[3]

وقيل: عملك فأصلح، عن مجاهد، والضحاك، وقيل: قلبك وبيتك فطهر، وقيل: خُلُقَكَ فَحَسِّنْ، عن الحسن، ومحمد بن كعب، وقيل: لا يكن لباسك عن حرام، عن ابن عباس، وقيل: ثيابك اغسلها بالماء عن النجاسة؛ لأن المشركين كانوا لا يتطهرون، عن ابن سيرين، وابن زيد، وقيل: كبر الله بالصلاة، وصل في ثوب طاهر، وتخلق بأخلاق طاهرة، عن أبي مسلم. فيحمل على تطهير الثياب للصلاة، وعلى تطهير الأخلاق، وقيل: وثيابك أي: أزواجك، والعرب تسمي الزوجة لباسًا، أي: طهرهن عن الكفر والمعاصي حتى يصرن مؤمنات صالحات، عن أبي مسلم، وقيل: طهرهن من الخطايا بالوعظ والتأديب، وقيل: ثيابك فقصر، عن طاووس، وكل ذلك خلاف الظاهر، والظاهر ما ذهب إليه شيخنا أبو علي. «وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ» قيل: اترك المآثم والذنوب، عن ابن عباس، والحسن، وإبراهيم، والضحاك، وقال الحسن: وكلُّ معصيةٍ رِجْزٌ، وقيل: اهجر الأوثان فلا تعبدها، عن مجاهد، وعكرمة،

---

(١) معصية: معصية، غ. وما أثبتناه من: الكشف والبيان للثعلبي: ١٣/ ٤١٣ وتفسير ابن كثير: ٨/ ٢٦٣.

(٢) البيت ينسب لغيلان بن سلمة الثقفي؛ لسان العرب (طهر).

(٣) البيت من معلقة عنترة بن شداد، لسان العرب (طهر).

وقتادة، والزهري، وابن زيد، وقيل: الزاي[1] بدل من السين؛ أي الرجس فاهجر، يعني اجتنب النجاسات، وقيل: فاجتنب الشرك، عن الضحاك، وقيل: الشيطان، عن الأصم، وقيل: العذاب، عن الكلبي؛ أي: اهجر ما يوجب العذاب من الأعمال، وقيل: كان عند البيت صنمان، فقال تعالى: «**وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**» وقيل: جانب كلَّ قبيح وخلق ذميم، مثل: الخنا، والسفه، والبخل، وما أشبه ذلك، عن أبي علي، وقيل: أسقط حب الدنيا من قلبك، فإنه رأس كل خطيئة «**وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ**» قيل: لا تُعْطِ شيئًا طمعًا في أن تُعْطَى أكثر منه، فتكون طالبًا للمكافآت، عن ابن عباس، وإبراهيم، والضحاك، وقتادة، ومجاهد، وقيل: هو الربا الحرام، أي: لا تعط شيئًا لطلب أن تعطى أكثر مما أعطيت، عن الضحاك، وأبي مسلم، وقيل: لا تمنن على الله بعملك، فتستكثره، عن الحسن، وقيل: لا يكثرن عملك في عينك؛ فإنه فيما أنعم الله عليك، وأعطاك قليل، عن الربيع، وقيل: لا تضعف في عملك مستكثرًا لطاعتك، عن مجاهد، وقيل: لا تستكثر عملك؛ فتراها من نفسك، وإنما عملك به تعالى؛ إذ جعل لك إليه سبيلاً، وهداك له، فعليك بالشكر، عن ابن كيسان، وقيل: لا تمنن على الناس بالنبوة لتأخذ منهم عليها أجرًا، عن ابن زيد، وقيل: لا تمنن على الناس بما تنعم عليهم وتعطيهم في ذات الله، فتمن على صاحبها على سبيل الاستكثار منك كذلك، عن أبي علي، وقيل: إذا أعطيت عطية فأعطها لربك واصبر حتى يكون هو الذي يثيبك عليها، عن أبي مسلم. وقيل: لا تمنن بما تأتيه من الإبلاغ على أمتك، عن أبي علي. وقيل: الأقرب أنه أراد لا تعط ما تعطيه للرياء والسمعة؛ ولكن أعطها لله خالصة. وقيل: بل الأقرب أنه البلاغ والنبوة؛ ليصح اتصاله بما قبله وما بعده. «**وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ**» قيل: فاصبر على أذى المشركين، عن مجاهد، وقيل: لربك فاصبر على عطيتك [كأنه وصله لما قبله وجعله صبراً على العطاء من غير استكثار][2]، عن إبراهيم؛ يعني: إذا أعطيت فاصبر حتى يُعَوِّضَك، ولا تطمع أن[3] تأخذ عوضًا، وقيل: لقضاء ربك فاصبر، وقيل: لوجه ربك فاصبر على مشاق التكليف، وقيل:

(١) الزاي: الراء، غ.

(٢) التكملة من الكشاف للزمخشري: ٧/ ١٧٧.

(٣) أن: أي، غ.

فاصبر على ما أمرك الله تعالى من أداء الرسالة، وتعظيم الدين، وعلى ما ينالك من التكذيب؛ لتنال الفوز. وقيل: فاصبر لله عن المعاصي وعلى الطاعات والمصائب. وقيل: حملت أمرًا عظيمًا: محاربة العرب والعجم فاصبر لله، عن ابن زيد. «**فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ**» أي: نفخ في الصور، وهي كهيئة البوق، عن مجاهد، وقيل: هو النفخة الثانية، وعنده يحيي الله الخلق وتقوم القيامة، وهي صيحة الساعة، عن أبي علي. «**فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ**» لِمَا يحل بهم من العذاب «**عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ**» أي: غير هين ولا سهل، وأضاف العسر واليسر إلى اليوم؛ لأنه يكون فيه.

۞ الأحكام

الآية تقتضي أحكامًا ودلالات:

منها: أنه ﷺ في تلك الحال كان مدثرًا بثيابه، وهذا حقيقته، ولا مانع منه، فلا معنى للعدول عنه.

ومنها: أنه يجوز أن ينادى بغير اسمه، وهذا ينقسم بما كان فيه تعظيم أو لا يكون فيه استخفاف يجوز، وهذا منه تعالى تلطف، فلا استخفاف فيه، فأما غيره فلا يجوز أن يدعوه إلا بأحسن صفاته وأسمائه، فيقول: يا نبي الله، ويا رسول الله.

ومنها: وجوب الإنذار، والإبلاغ عليه.

ومنها: وجوب تعظيمه جل وعز.

ومنها: وجوب تطهير الثياب عند الصلاة، وإذا أمكن حمله على حقيقته فلا معنى للعدول عنه إلى توسع أو تَعَسُّفٍ.

ومنها: وجوب مجانبة كل رجز، والأقرب أنه كل قبيح.

ومنها: قبح المن للاستكثار، وقد بَيَّنَّا ما قيل فيه، ولا تنافي بينهما، فيحمل على الجميع.

ومنها: وجوب الصبر في الدين والدعاء إلى الله.

ومنها: أن الصبر وغير ذلك مما يتعلق به الأمر والنهي فِعْلُ العبد.

قوله تعالى:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾

اللغة

التمهيد والتوطئة والتذليل والتسهيل نظائر، ومهدت له أي: مكنته، وسهلت له التصرف في الأمور.

و(كلا): ردع وزجر، كأنه قيل: ارتدع عن هذا وانزجر، كما أن (صَهْ)[1] بمنزلة اسكت، و(مه) بمنزلة اكفف، وإنما هي أصوات، سمي الفعل بها، وقيل: معناه: حَقًّا[2].

والعنيد: الذاهب عن الشيء على طريق العداوة له، عَنَدَ يَعْنُدُ عنودًا، وهو عاند إذا نفر، ومنه: المعاندة والعناد. والعنيد والمعاند بمعنى.

الإرهاق: الإعجال بالعنف، أرهقه يُرْهِقُهُ إرهاقًا، ورَهِقَهُ يَرْهَقُهُ رَهَقًا: إذا لحقه بالإعجال والعنف، وأصل الباب: اللحوق، ومنه: غلام مراهق: أدرك الحلم.

والصعود: العقبة التي يصعب صعودها، وهي الكؤود، ونقيض الصعود: الهبوط.

والعبوس: تقبض الوجه تكرهًا للأمر، عبس يَعْبِسُ عبوسًا فهو عابس وعباس، والعبوس والتقطيب والكلوح نظائر، ونقيضه: الطلاقة والبشاشة.

والبسور: بدو التكره في الوجه لما يظهر، من قولهم: بَسَرَ بالأمر: إذا عجل به

(١) صه: مه؛ غ.

(٢) يقصد أن (كلا) بمعنى (حقا).

قبل حينه، بسورًا، ومنه: البُسْرُ، لتعجيل حاله قبل الإرطاب، والبسر من كل شيء: الغض، نبات بسر، وماء بسر: قريب العهد بالسحاب، قال توبة[1]:

وَقَـدْ رَابَـنِـي مِـنْـهَـا صُـدُودٌ رَأَيْـتُـهُ وَإِعْـرَاضُـهَـا عَنْ حَـاجَـتِي وبُـسُـورُهَـا[2]

والإدبار: الأخذ على جهة الدبر، ونقيضه: الإقبال. دَبَرَ يَدْبُرُ دبورًا، وأدبر إدبارًا، وتدبر: نظر في عاقبة الأمر ودبره ومحله، مأخوذ من جهة الخلف.

النزول

قيل: نزلت هذه الآيات في الوليد[3] بن المغيرة المخزومي، وكان له مال وبنون، قال ابن عامر: وكان يسمى الوحيد في قومه، ثم اختلفوا، فقيل: إنه أتى قريشًا في ناديها، وقال: هذا الموسم، والناس يسألون عن محمد، فما أعددتم الجواب؟ قالوا: نقول: كاهن، فقال: الكاهن يكذب، وهو لا يكذب، قالوا: نقول شاعر، فقال: إن كلامه ليس بشعر، قالوا نقول: مجنون، قال: تعلمون أنه ليس به جنون، ثم فكر في نفسه، وقال: هو ساحر، وكلامه سحر، يفرق بين الرجل وأهله وولده.

وقيل: لما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ [غافر: ١، ٢] قرأ النبي ﷺ طرفًا منها في المسجد، والوليد قريب منه يسمع فاستحسنه، وأتى نادي قومه من بني مخزوم، وقال: لقد سمعت من محمد كلامًا ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو، فقالوا: صبأ الوليد [والله لتصبأن قريش كلهم، وكان يقال للوليد: ريحانة قريش، فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه][4]، وأتى أبو جهل وقعد بجنبه حزينًا، فسأله الوليد: ما لي أراك حزينًا؟ فقال: إن قريشًا

(١) في غ: رؤبة. وهو غلط فالبيت لتوبة بن الحمير، صاحب ليلى الأخيلية، وقبل هذا البيت قوله:

وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

(٢) جمهرة خطب العرب ٢/ ٤١٠.تأليف أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية ـ بيروت.

(٣) الوليد: وليد؛ غ.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من: مجمع البيان ١٠/ ١٧٨ ط **الأعلمي**.

يجمعون لك نفقة، ويزعمون أنك تدخل على ابن أبي كبشة، وابن أبي قحافة؛ لتنال من فضل طعامهم، فغضب، وقال: أما علموا أني من أكثرهم مالاً، ثم قام وأتى مجلس قومه، وقال: أتزعمون أن محمدًا مجنون؟ أرأيتموه مجنونًا قط، قالوا: لا. قال: أفتزعمون أنه كاهن؟ هل رأيتم عليه شيئًا من ذلك؟ قالوا: لا، قال: أتزعمون أنه شاعر؟ هل قال شعرًا؟ قالوا: لا. قال: أتزعمون أنه كذاب؟ هل جربتم عليه كذبًا؟ قالوا: لا. فقالوا للوليد: ما هو؟ فتفكر ساعة في نفسه، ثم قال: هو ساحر، يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، وما يقوله سحر، فنزلت الآيات، قال أبو مسلم: يحتمل أنه في كل كافر هذا حاله.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر الكفار عقَّبه ببيان ما أنعم عليهم، وما قابلوه به من الكفران، وما أعد لهم، فقال سبحانه: «**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ [وَحِيدًا]**» أي: اكتف بي له مكافئًا، فدعني ومَنْ خَلَقْتُ، وهذا وعيد، وليس هناك مَنْعٌ حتى يقال: ذَرْ، ولكن جاء على مثل مخاطبات العرب على تقدير أنه حل محله، يقال له: هذا وحيد، يحتمل أن يكون من صفة المخلوق، أي: خلقته في بطن أمه وحيدًا لا شيء له، ولا معه لا مال ولا ولد، ويحتمل أنه من صفة الخالق، أي: خلقته وحدي لا شريك في خلقه «**وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا**» قيل: كثيرًا، وقيل: يمد بالنماء كالزرع والضرع والتجارة، وقيل: كان له ألف دينار، عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وقيل: أربعة آلاف دينار، عن قتادة، وقيل: ألف ألف، عن سفيان، وقيل: كان أرضًا، عن النعمان بن سالم، وقيل: كان غلة شهر بشهر، عن عطاء، وقيل: كان ماله تسعة آلاف[1] مثقال فضة، عن ابن عباس، وقيل: كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره شتاء ولا صيفًا، عن مقاتل. «**وَبَنِينَ شُهُودًا**» حضورًا معه بمكة، لا يغيبون، قيل: كانوا عشرة، عن مجاهد، وقتادة، وقيل: ثلاثة عشر، عن سعيد بن جبير، وقيل: سبعة، عن مقاتل، وكلهم رجال: الوليد، وهشام، وخالد، والعاص، والقيس، وعبد الشمس، وعمارة، أسلم

---

(١) آلاف: ألف، غ.

ثلاثة: خالد، وهشام، وعمارة، وقيل: كان بنوه لا يغيبون عنه لغناهم عن ركوب السفر للتجارة، فكان لا يستوحش مفارقتهم، ويخدمونه، وهم زين له في ناديه، وعون على أموره وأعاديه «**وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا**» أي: نبسط له أحوال الدنيا حتى صارت كلها متناسبة في الحسن، وقيل: كان مكفي المؤنة من كل وجه «**ثُمَّ يَطْمَعُ**» قيل: فعلت به كل ذلك، فلم يشكرني؛ بل كفر نعمي، ثم هو مع ذلك يطمع ويرجو «**أَنْ أَزِيدَ**» في إنعامه «**كَلَّا**» أي: لا يكون كما ظن، ولا أزيده مع كفره، وقيل: كان الوليد بعد نزول هذه الآيات في نقصان من ماله وولده حتى هلك، وقيل: يطمع مع ذلك في الجنة والثواب، كلا لا يكون ذلك، فذرني وإياه فإني أكفيك أمره، و(كلا): أياس وقطع للرجاء، وقيل: «كلا» ابتداء قسم؛ أي: حقًا إنه كان لآياتنا. ثم بَيَّنَ كفره، فقال: «**إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا**» أي: لحججنا معاندًا، ينكر مع معرفته بها، وقيل: عرف الحق وأن القرآن معجز وأنه رسول، فمنعه أبو جهل عن الإيمان، وقيل: عنيد جحود، عن ابن عباس، وقتادة. «**سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا**» قيل: سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة فيه، وقيل: صعود: جبل من نار يؤخذ بارتقائه، فإذا وضع يده عليه ذابت، فإذا رفعها عادت، وكذلك رجله في خبر مرفوع، وقيل: صعود: جبل في جهنم من نار يضرب بالمقامع حتى يصعد عليه، ثم يضرب حتى ينزل، ذلك دأبه أبدًا «**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ**» قيل: فكر في نفسه لإبطال القرآن، ونبوة النبي ﷺ، وقدر فيه ليبطله، وقيل: قَدَّرَ: هل يمكنه أن يقول فيه بما يبطله؟ وفكر هل يجد مطعنًا؟ وقيل: قَدَّرَ: قال: إن قلنا: كاهن لم يصدقونا؛ لأن كلامه لا يشبه كلام الكهان، وإن قلنا: شاعر، فليس كلامه بشعر، وإن قلنا: ساحر، لا يأتي بما يأتي السحرة، فلما أعجزه فكر، وقال عن عناد: إنه سِحْر [يؤثر] «**فَقُتِلَ**» قيل: لعن، وقيل: استحق العذاب، عن أبي علي، وقيل: عُذِّب، عن الزهري، وقيل: هو ذم لهذا الكافر، عن الحسن. «**كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ**» قيل: كيف قدر في آياتنا ما قدر مع وضوح الحجة، فلعن وعوقب بعقاب آخر، كيف قدر في إبطال الحق تقديرًا آخر، وقيل: عوقب في الآخرة مرة بعد مرة، وقيل: لما ترادف نظره ترادف من الله الغضب والعذاب «**ثُمَّ نَظَرَ**» قيل: إلى النبي منكرًا لنبوته مغضبًا عليه، وقيل: نظر بأي شيء يجيب قومه إذا لم يجد مطعنًا، ثم

نسبه إلى السحر، «ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ» أي: كلح وقطب لمَّا لم يحضره من القول ما كان يرتضيه في إبطال أمر النبي ﷺ، وقيل: كان بين أمرين: الإصرار على الكفر مع لزوم الحجة، ومعرفة الحق، أو اتباع الحجة، مع رفض الجاه، وكونه متبوعًا، فدعاه ذلك إلى أنْ قَطَّبَ «ثُمَّ أَدْبَرَ» أي: أعرض وتولى «وَاسْتَكْبَرَ» ترفع عن قبول الحق «فَقَالَ[1] إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ» يروى ويحكى، يعني: يرويه محمد عن غيره أو عمن تقدم، وقيل: يأثره عن أهل بابل، وقيل: يأثره عن مسيلمة، وقيل: عن نساء زوجه «إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ» ولم يعلم أنه لو كان قول البشر لقدر هو وغيره مع فصاحتهم على أمثاله.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أن كثرة النعم توجب عظم عصيان المنعم.

وتدل على أن لله تعالى على الكفار نعمًا، خلاف قول المجبرة.

وتدل على أن أحوال الدنيا من نعمه تعالى.

وتدل على أن مزيد النعم قد يكون مفسدة لذلك قال: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾.

وتدل على إعجاز القرآن؛ لأنهم مع شدة عداوتهم لرسول الله ﷺ، وحرصهم على إبطال أمره، وهو تحداهم بالقرآن وأوعدهم، وكل داع يدعو إلى شيء كان حاصلاً في معارضته، ثم مع ذلك لم يعارضوه، وعدلوا إلى الكذب والألقاب والقتال فعلم[2] أن عدولهم لعجزهم؛ إذ عدلوا عما فيه بطلان أمره مع سهولته إلى ما شق، ولا يدل على بطلانه، فعلم أنه معجز.

وتدل على أن الكفر لإبطال الحق يقبح، فتدل على قول أبي هاشم: إن في النظر ما يقبح، خلاف قول أبي علي.

وتدل أن الفكر والعبوس فعل العبد.

---

(١) فقال: وقال، غ.

(٢) فعلم: علم، غ.

قوله تعالى:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١)﴾

القراءة

قراءة العامة: «لواحة» بالرفع على أنه نعت للسقر في قوله: «ما سقر» ويحتمل: هي لواحة، وقرأ عطية العوفي: «لواحةً» بالنصب على أنه نعت لقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[1].

اللغة

الإصلاء: إلزام موضع النار، أصلاه يُصْلِيهِ إصلاءً، واصطلى هو يصطلي اصطلاءً، وأصله: اللزوم.

سقر: اسم من أسماء جهنم، ولا ينصرف؛ لأنه مؤنث معرفة، وأصله من قولهم: سقرته[2] الشمس تَسْقُرُهُ سَقْرًا: إذا آلمت دماغه، ومنه سميت النار سَقَرَ[3] لشدة إيلامها، ومنه: السقر والصقر بالسين والصاد: الجارحة؛ لأن شدته في نفسه كشدة الألم في أذى صيده.

والإبقاء: ترك شيء مما أخذ، أبقى يبقي إبقاءً، وقولهم: أبقاه الله أي: أطال مدته، والباقي: اسم لما استمر وجوده.

(١) القرطبي ١٩/ ٧١.
(٢) سقرته: سقرتهم، غ.
(٣) سقر: سقرا، غ.

والتلويح: التغيير للون، لَوَّحَتْهُ الشمس تُلَوِّحُهُ تلويحًا وهي لَوَّاحَةٌ على المبالغة في كثرة البلوغ.

والبَشَرَةُ: ظاهر الجلدة، وجمعها: بَشَرٌ، وسمي الإنسان بشرًا لظهور جلده ممّا على غيره من الوبر والشعر.

والملك: أصله الرسالة إلا أنه اختص بنوع من المكلفين على صورة مخصوصة، قال الشاعر:

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُولِ ... أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرْ[1]

وأصله مَلأَكٌ بالهمز، قال الشاعر:

فَلَسْتَ لإِنسيٍّ وَلكِن لِمَلأَكٍ ... تَنَزَّلَ مِن جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ[2]

۞ الإعراب

نصب ﴿تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ لأنهما اسمان جعلا اسمًا واحدًا.

۞ النزول

قيل: لما نزل قوله: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، إن ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدُّهْمُ[3]، أيعجز عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم، فقال أبو الأسد: أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني اثنين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ الآية، عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك.

وقيل: قال أبو جهل: ما لمحمد أعوان إلا تسعة عشر، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾، عن مقاتل.

(١) الشاعر هو: أبو ذؤيب الهذلي؛ تاج العروس (رسل).

(٢) البيت ينسب لرجل من عبد القيس يمدح الملك النعمان، وقيل: لأبي وجزة يمدح عبد الله بن الزبير، وقيل: لعلقمة. اللسان (لاك)؛ (صوب)؛ تاج العروس (صوب).

(٣) في هامش غ: الدهم: العدد الكثير.

۞ المعنى

ثم عقَّب ذكر الكافر بالوعيد له، فقال سبحانه: «**سَأُصْلِيهِ سَقَرَ**» أي: سأدخله النار، وألزمه دائمًا، وسقر: قيل: درك من دركات جهنم، وقيل: باب من أبوابه، وقيل: اسم من أسمائه «**وَمَا أَدْرَاكَ**» أيها السامع «**مَا سَقَرُ**»: شدته وكنهه ومقداره «**لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ**» قيل: هو نهاية الوصف بالإحراق، أي: تحرق كل شيء، عن أبي مسلم، وقيل: لا تبقي مَنْ فيها حيًّا، ولا تذره ميتًا، لكن تحرقهم كلما جدد خلقهم، عن مجاهد، وقيل: لا يبقى أحد من أهلها أن تتناوله، ولا تذره من العذاب، وقيل: لا تُبْقِي شيئًا إلا أحرقته تعذيبًا، «**وَلاَ تَذَرُ**» أي: لا إبقاء عليهم؛ بل تبلغ مجهودهم في أنواع العذاب، عن أبي علي، وقيل: لا تبقي لهم لحمًا، ولا تذر لهم عظمًا، عن السدي، وقيل: إذا أخذت فيهم لم تُبْقِ منهم شيئًا، وإذا أعيدوا لم تذرهم حتى تفنيهم، ولكل شيء فَتْرَةٌ وملالة إلا لجهنم، عن الضحاك. «**لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ**» مغبرة للجلود تلوح ألوانهم لا سيما إذا اشتد سوادهم، وقيل: إذا شاهدها[1] المعذب تغير لونه، قال مجاهد: تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سوادًا من الليل، وقيل: محرقة للجلود، عن ابن عباس، وزيد بن أسلم، وقيل: تلوح لهم جهنم حتى يروها عيانًا، عن الحسن، والأصم. «**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**» قيل: تسعة عشر صنفًا، وقيل: تسعة عشر نقيبا، ولهم أعوان، وقيل: تسعة عشر جنسًا، وقيل: تسعة عشر ملكًا، وعليه أكثر المفسرين، وإذا وقع الكفاية بهؤلاء فلا معنى لضم الزيادة إليها، وقيل: إنما خص تسعة عشر ليوافق خبر النبي ﷺ أخبار الأنبياء، وما كان في الكتب المتقدمة، وكان فيها أن عددهم تسعة عشر، وقيل: هؤلاء خزان سقر، وللنار، ودركاتها الأخر خُزَّانٌ أُخَرُ «**وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً**» أي: جعلنا الخزنة ملائكة «**وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ**» أي: عددهم «**إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا**» أي: شدة تعبد واختبار؛ لأنه كلفهم تصديقه، وامتحن أهل الكتاب ليعلموا صدقه، وقيل: جعل قلة عددهم فتنة ليعلموا أنه قادر على تقويتهم، وأنهم يقومون مقام العدد الكثير، عن الأصم. «**لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**» من اليهود والنصارى أنه حق؛ لموافقة خبره لما في كتبهم، وقيل:

(١) شاهدها: شاهده، غ.

ليعلموا أنه يقدر أن يجعل في واحد من القوة ما يقوم بخلق كثير، وقيل: هي في التوراة والإنجيل: تسعة عشر، عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك. **«وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا»** قيل: ليظهر إيمانهم أيضًا كما ظهر لغيره ليزدادوا إيمانًا، وقيل: لأنه يخبرهم بما لا يعلم إلا الله فيعلمون أنه معجز، وأنه كلام الله سبحانه. وقيل: يؤمنون بعظم بنيتهم وكثرة قوتهم **«وَلاَ يَرْتَابَ»** لا يشك **«الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ»** في أنه الحق، وفي قدرة الله على ما يشاء، وفي نبوة النبي ﷺ **«وَلِيَقُولَ»** قيل: اللام لام العاقبة، يعني إذا سمعوا قالوا هذا، وغرضهم التكذيب، وقيل: هو على وجه الإخبار عنهم **«الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»** قيل: نفاق، وقيل: خلاف وكُفْرٌ؛ لأن الآية مكية وليس بها نفاق **«وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا»** قيل: ببيان هذا العدد وما معنى تسعة عشر، يزدادون شكًّا كما يزداد المؤمنون إيمانا، وقيل: قالوا: ما معنى التخويف بتسعة عشر مع كثرة عددنا؟ وظنوا أن العدد شرط، ولم يعلموا أنه يقدر على أن يجعل واحدًا بحيث يقوم بعدد جَمٍّ **«كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»** الكاف للتشبيه؛ أي: كما جعلنا خزنة النار ملائكة ذوي عدد محنة واختبارًا، كذلك يكلف ليظهر الضلال والهدى، فأضاف ذلك إلى نفسه؛ لأن سببه التكليف فهو من جهته ليظهر المصدق والمكذب، وقيل: يضل عن طريق الجنة والثواب من يشاء ويهدي إليه من يشاء، وقيل: يهلك من يشاء ويثيب من يشاء، عن أبي مسلم، وقيل: يحكم بضلال من يشاء، وبهداية من يشاء على حسبما يوجد منهم، وقيل: كما أصلى هذا الكافر سقر[1] كذلك يفعل الله بمن يشاء أن يضله أو يثيبه، وقيل: **(كذلك)** بمعنى: أن ما وصف من حال المعذبين بأيدي الملائكة وما وصف من حالهم أنه على ما وصف أنه يعذب من يشاء ويصرفه عن الجنة، ويهدي إليه من يشاء، عن أبي علي.

ثم بَيَّنَ تعالى أن عدة الخزنة ليس عن قلة، ولكن لمصلحة، فقال سبحانه: **«وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ»** أي: لا يعلم جنسهم وعددهم إلا هو، قيل: من كثرتهم، عن قتادة، وقيل: عدتهم ومقدار شدتهم **«وَمَا هِيَ»** قيل: الموصوفة بهذه الصفات، عن مجاهد، وقتادة، وقيل: ما هي سقر، وقد تقدم ذكره، وأنواع العذاب لم يبينها إلا

(١) سقر: لسقر، غ.

ليذكروا، عن أبي علي، وقيل: ما هي الآيات والمواعظ، وقيل: الجنود والعذاب، وقيل: الملائكة «إلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ» أي: عظة يذكرون بها، وقيل: ذكره زجرًا لهم عن المعصية.

الأحكام

يدل قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ على عظيم ما فيها من العذاب.

ويدل قوله: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ على أشياء:

منها: عظيم قوتهم، ولا مطعن للملحدة في ذلك؛ لأن من أقر بالصانع، وأقر أنه الخالق القوي، فإذا قوى واحد ليقوم بأعداد لم نستبعده، وقد أعطى الله تعالى جبريل من القوة ما اقتلع مدن قوم لوط.

ومنها: تتضمن معجزة للنبي ﷺ؛ لأنه أخبر عن عددهم، وذكر أن ذلك مذكور في كتبهم، ثم لم يكذبه منهم أحد مع أنه لم يكن قرأ كتابًا، فعلم أنه علم ذلك بالوحي.

ويدل قوله: «وما هي» أن جميع ما تقدم عبرة للخلق ليتعظوا، والأقرب أن المراد بـ«هي» الملائكة؛ لأنهم في قوتهم عبرة للخلق، وكل ذلك زجر وترهيب عن المعاصي.

قوله تعالى:

﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾

۞ القراءة

قرأ نافع وحفص عن عاصم ويعقوب: «والليل إذ» بغير ألف وسكون الذال[١]، وقرأ الباقون: «إذا» بالألف، «دبر» بغير ألف، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم وهما لغتان، قال أبوحاتم: ليس في القرآن قَسَمٌ بجنبه (إذْ)، ولكن الأقسام بجنبها إذا، وقال أبو عبيد: هو ليس موافقة للحرف الذي يليه؛ ألا ترى أنه قال: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾، والصحيح أنهما قراءتان ظاهرتان ليس لأحدهما على الأخرى ترجيح، وقال أبو مسلم: «دبر» جاء بعد النهار، وفي دبر النهار، أي: أقبل عقيب النهار، وهذا ضد أدبر؛ لأنه من الإدبار، أدبر يدبر إدبارًا: إذا تولى، وأعرض، وانصرف.

قراءة العامة: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ بالألف، وعن ابن السميقع: «إذا سفر»[٢] بغير ألف وهما لغتان، سفر وجه فلان وأسفر: إذا أضاء، ويجوز أن يكون من قولهم: سفرت المرأة: إذا ألقت خمارها عن وجهها.

قراءة العامة: «نذيرًا» بالنصب، قيل: تقديره: يا أيها المدثر قم نذيرًا للبشر، وقيل: حال من قوله: ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ إلا أنه «فَعِيلٌ»، فلا تدخلها الهاء، وقيل: نصب على القطع، وقيل: على التمييز، عن أبي مسلم، وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: «نَذِيرٌ» بالرفع[٣] أي: [هو] نذير.

۞ اللغة

الإسفار: الظهور والبروز، قال الشاعر:

وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ لَيْلَى تَبَرْقَعَتْ فقَدْ رَابَنِي مِنْهَا الْغَدَاةَ سُفُورُهَا[٤]

أي: بروزها وظهورها من النقاب.

---

(١) حجة القراءات ٧٣٣.

(٢) القرطبي ١٩/ ٧٦.

(٣) القرطبي ١٩/ ٧٧.

(٤) البيت لتوبة بن الحمير، وقد تقدم الاستشهاد بالبيت الذي قبله وهو قوله:

وقد رابني منها صدود رأيته وإعراضها عن حاجتي وبسورها

اللسان (برقع).

والكُبَرُ: جمع كبرى، كما يقال: أولى وأُوَل، وأخرى وأُخَر.

والنذير: مصدر كالنكير؛ ولذلك يوصف به المؤنث.

والسلوك: الدخول، وهو المرور في مخوض، سلكت الطريق، وأسلكته غيري: حملته عليه، قال تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

والخوض: الدخول فيما يلوث، خاض الماء والطين.

والدين: الجزاء، والدين: ما يدان به.

واليقين: العلم، وهو اعتقاد تسكن النفس إلى أن معتقده على ما اعتقده، وقيل: اليقين ما لا يعتريه الشك ولا الشبهة(١).

المعنى

ثم ذكر تعالى الوعيد، فقال سبحانه: «**كَلَّا**» قيل: ردع وزجر لهم عما يقولون، كأنه قيل: احذروا الغفلة، واذكروا العقوبة، وقيل: يعني: لما تقولون، أي: ليس كما تقولون، فيتصل بما قبله، وقيل: معناه: حَقًّا، فيتصل بما بعده «**وَالْقَمَرِ**» قيل: ورب القمر، وإنما أقسم به؛ لما فيه من عظيم آياته في طلوعه ومسيره، وغروبه، وزيادته ونقصانه، وظهوره وخفائه «**وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ**» قيل: ولى وذهب، عن قتادة، وقيل: دبر: جاء دبر النهار؛ أي: أقبل، وأدبر: تولى، عن أبي مسلم وجماعة، وأكثر المفسرين أنهما بمعنى، يقال: دبر الرجل وأدبر، وقَبَلَ وأقبل «**وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ**» أضاء وأنار، عن قتادة. كأنه قيل: إذا كشف الظلام، فأبان الأشخاص «**إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ**» قيل: النار إحدى الكبر، وقد تقدم ذكرها في قوله: «**سقر**»، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وقيل: هذه الآية التي بينها إحدى الكبر، وقيل: آيات القرآن والوعيد، وقيل: النار في الدنيا تذكر في الآخرة (**إحدى الكبر**) أي: إحدى العظائم «**نَذِيرًا لِلْبَشَرِ**» أي: مخوفًا للخلق، وفيه ثلاثة أقوال: قيل: هو من صفة النار، عن

(١) الشبهة: شبهة؛ غ.

الحسن، وقيل: من صفة الله، عن ابن(1) زيد. ثم اختلفوا، فقيل: تقديره إنذارًا، وقل: أنا لكم منها نذير، وقيل: من صفة النبي ﷺ، عن ابن زيد. كأنه قيل: قم نذيرًا، وقيل: لكل مؤمن نذير من قبله «**لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ**» قيل: لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر، فلا يتقدم في طاعة الله، أو يتأخر عنها بمعصيته، عن الحسن، وقتادة، ونظيره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ [الحجر: ٢٤] في الطاعة و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ عنه بمعصيته كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقيل: لمن شاء منكم أن يتقدم على الطاعة، ويتأخر عن المعصية، عن ابن الأنباري، وقيل: لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر، فلا يتقدم إلا فيما أمر الله تعالى، ولا يتأخر إلا عما نهاه الله «**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**» أي: المرهون بعمله: المؤاخذ به، المجازى عليه؛ لأنه يكون محبوسًا بعمله كالرهن يكون محبوسًا بدينه؛ يعني أن كل أحد مأخوذ بذنبه فيجازى على عمله.

ثم استثنى أصحاب اليمين، فقال: «**إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ**» قيل: يعطون كتبهم بأيمانهم، وقيل: يسلك بهم ذات اليمين، وقيل: أصحاب اليمين، قال قتادة: علق الناس كلهم إلا أصحاب اليمين، واختلفوا فيهم، فقيل: هم المؤمنون المستحقون للثواب والجنة، عن الحسن، وابن كيسان، وقيل: الذين لا ذنب لهم، وكانوا ميامين على أنفسهم، وقيل: هم أطفال المسلمين، عن علي، وقيل: هم الملائكة، عن ابن عباس، وعن محمد بن علي الباقر: نحن وشيعتنا أصحاب اليمين «**فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ الْمُجْرِمِينَ**» أي: يسألون عن المجرمين الذين دخلوا النار «**مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ**» أي: ما أدخلكم النار؟ وبأي سبب؟ «**قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ**» قيل: كنا لا نصلي الصلاة المكتوبة، وقيل: لم نكن من جملة المؤمنين الذين يصلون «**وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ**» أي: لم نؤد الزكاة المفروضة «**وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ**» أي: كنا نشرع في الباطل مع المبطلين كعلماء السوء وأهل البدع، يسرعون في الباطل،

(١) ابن: أبي، غ.

وُيلْبِسون على العوام؛ ليتبعهم الخلق، وقيل: كنا نخوض في تكذيب النبي وآياته مع الخائضين، عن أبي مسلم، قال قتادة: كلما غوى غاوٍ بالدخول في الباطل غووا معه «**وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ**» أي: يوم الجزاء، وهو القيامة «**حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ**» من ذلك بأن عايناه، وقيل: اليقين الموت، أي: حتى أتانا الموت على هذه الحالة، وقيل: أتاهم ما كذبوا به «**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**» أي: لا يشفع لهم أحد؛ إذ لو شفع لنفع، والشفعاء ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء في خبر مرفوع.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: «**لمن شاء...**» الآية، فهو تهديد ووعيد.

وتدل على أن العبد مخير؛ لأن ذلك لا يصح في المجبور.

وتدل على أن أفعال العبد فعله، وأن القدرة قبل الفعل.

ومنها: قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ فتدل أن أحدًا لا يؤخذ بذنب غيره، فلا يعاقب بغير ذنب، وأن أطفال المشركين لا يعذبون، فيبطل قول المجبرة في هذه المسائل.

ومنها: قوله: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ الآية تدل أن أهل الجنة والنار تجري بينهم مساءلة.

ومنها: قوله: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ تدل على وجوب الصلاة والزكاة.

وتدل على أن الكفار مخاطبون بالشرائع؛ لذلك عوقبوا على ترك الصلاة.

وتدل أن العبد يعذب بألاّ يفعل الواجب على ما ذهب إليه شيخنا أبو هاشم، خلاف قول أبي علي.

وتدل على أنه لا تنفع أهل النار الشفاعة.

قوله تعالى:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر: «مُسْتَنفَرَة» بفتح الفاء أي: منفرة مذعورة، نفرها غيرها[1]، والباقون: بكسر الفاء أي: نافرة.

وكلهم قَرَؤُوا: «بل لا يخافون» بالياء سوى ابن عامر، فروي عنه بالتاء، وقيل: هو غلط عنه، وليس بصحيح، والصحيح عنه مثل قراءة الباقين.

وقرأ نافع ويعقوب: «وما تذكرون» بالتاء، الباقون بالياء كناية عمن تقدم ذكرهم[2].

اللغة

النفور: الذهاب عن الخوف بانزعاج، نفر عن الشيء يَنْفِرُ نفورًا فهو نافر، والتنافر خلاف التلاؤم، واستنفر: طلب النفور، ومستنفرة: طالبة للنفور، وقيل: استنفر ونفر بمعنى، وأنشد الفراء:

أَمْسِكْ حِمَارَكَ إِنَّهُ مُسْتَنْفِرٌ ... فِي إِثْرِ أَحْمِرَةٍ عَمَدْنَ لِغُرَّبِ[3]

والفرار: الذهاب عن الشيء خوفًا منه، ونظيره: الهرب، والفارّ: الهارب، والهرب: نقيض الطلب، وأصل الفرار: الانكشاف عن الشيء.

(١) حجة القراءات ٧٣٤.

(٢) حجة القراءات ٧٣٥.

(٣) غرب: اسم جبل دون الشام إلى العراق في ديار بني كلب، اللسان (نفر)؛ تاج العروس (نفر) وفي رواية: أربط حمارك إنه مستنفر.

والقسورة: أصله الأخذ بشدة من: قسره يَقْسِرُهُ قسرًا نحو: قهره يَقْهَرُهُ قهرًا، واقتسره اقتسارًا، وأخذه قسرًا؛ أي: قهرًا.

والصحيفة: جمعه صحف وصحائف، ومنه: المصحف، وجمعه: المصاحف.

والنشر: خلاف الطي، وهو بسط الملتف.

۞ الإعراب

«**معرضين**» نصب على الحال.

«**إنه تذكرة**» الهاء كناية عن القرآن أو الوحي.

۞ النزول

قيل: إن المشركين قالوا: يا محمد إن شئت أن نتبعك فأتنا بكتاب خاصة إلى فلان وفلان من رب العالمين، نؤمن فيها باتباعك، عن الحسن، وقتادة، ومجاهد.

وقيل: كان المشركون يقولون: إن كان محمد صادقًا فليصبح عند رأس كل أحد منا صحيفة فيها براءة من النار، فنزلت الآية، عن ابن عباس.

قال مطر الوراق: كانوا يريدون براءة من غير عمل، وقيل: قالوا: يا محمد، بلغنا أن بني إسرائيل كانوا إذا أذنب واحد منهم أصبح وعند رأسه مكتوب ذنبه وكفارته فأتنا بمثله، وكره رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿بَلۡ يُرِيدُ﴾.

۞ المعنى

ولما تقدم ذكر المواعظ عقب بذكر إعراضهم عنها، فقال سبحانه: «**فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ**» أي: ما الذي منعهم عن تذكرة ما يتلى عليهم بعد وضوح الآيات وإزاحة العلة «**كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ**» أي: نافرة «**فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ**» قيل: هم الرماة، عن ابن عباس، وأبي موسى، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن كيسان، وقيل: القَنَّاص، عن سعيد بن جبير، وقيل: جماعة الرجال، عن ابن عباس بخلاف، وقيل: الأسد، عن أبي هريرة، وزيد بن أسلم، وابن زيد، وروي نحوه عن ابن عباس، سمي

بذلك لأنه يقهر السباع كلها، وقيل: من ظلمة الليل[1]، عن عكرمة، وقيل: سواد أول الليل، ولا يقال: لسواد آخره: قسورة. وقيل: من رجال أقوياء، عن زيد بن أسلم، والأقرب أنه الأسد، يعني: أعرضوا عن القرآن نفورًا كإعراض الحمر من الأسد «بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا» كتبًا من السماء تنزل «مُنَشَّرَةً» قيل: كتبا إليهم بأسمائهم أن آمنوا بمحمد، وقيل: أرادوا أن يكون كل واحد منهم رسولاً يوحى إليه متبوعًا، وأنفوا أن يكونوا تبعًا، وقيل: براءة لهم من العذاب، وإسباغ النعمة ليؤمنوا، وإلا أصروا على كفرهم، وقيل: تمنوا كتابًا إليهم بأن لهم ما يحبون ويشتهون دون ما يأمرهم به محمد ﷺ. وقيل: أرادوا كتاب أعمالهم لينظروا فيه أمن أهل الجنة أم من أهل النار. وقيل: تفسير ما طلبوا في قوله: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ [الإسراء: ٩٣] الآية، «كَلَّا» قيل: ليس كما تقولون وتريدون، ولا يكون كذلك، وقيل: زجراً لهم، أي: لا تطلبوا ذلك، وقيل: معناه: حقًا «بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ» قيل: لا يظنونها ولا يؤمنون بها، ولا يقرون بكونها، عن أبي مسلم، وقيل: لا يخافون عذابها ولو خافوا لما عذبوا الرسل، عن أبي علي. «كَلَّا» أي: لا نفعل مثل ذلك، فليس الأمر كما قدروا، وقيل: حقًا «إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ» أي: عظة يتعظ بها المكلف قيل: القرآن، وقيل: ما تقدم «فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ» واتعظ به «وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» يعني لا يتدبرون فيه إلا أن يشاء الله، هذه المشيئة غير الأولى؛ إذ لو كانت واحدة لتناقض، فالأولى مشيئة اختيار، والثانية مشيئة إكراه وإجبار، يعني: هؤلاء الكفار لا يذكرون إلا أن يجبرهم الله تعالى على ذلك، وقيل: لا يذكرون الله ذكرًا يستحقون به الثواب، والله تعالى لا يشاء الثواب للكافر؛ إذ لم يشأ الكافر لنفسه؛ إذ لو يشاء لأطاع، فإن الثواب بنفس المشيئة لا يحصل، وإنما يكون بالطاعة، فإذا لم يطيعوا لم يشأ الله ثوابهم، وقيل: إلا أن يشاء الله إقدارهم وتمكينهم، وقد فعل، وقيل: إلا أن يشاء الله من حيث أمر به، ووعد عليه، ونهى عن تركه، وأوعد عليه، فكانت مشيئته سابقة، أي: لا يشاؤون إلا والله قد شاء ذلك، وقيل: هو وعيد، أي: لا يشاؤون اختيارًا،

---

(١) ظلمة الليل: ظلم ليل، غ. وما أثبتناه من: الكشف والبيان للثعلبي: ١٣/ ٤٣٠ وتفسير القرطبي: ١٩/ ٨٠. وفتح القدير: ٧/ ٣٥٩. وتفسير النيسابوري: ٧/ ٢٤٨.

وإن وعظوا، إلا أن يشاء الله فيحملهم عليه بالعقاب «**هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ**» أي: أهل أن تتقى معاصيه ومحارمه مع عظيم نعمه وعظيم عقابه لمن يعصيه، وأهل أن يغفر لمن أطاعه واتقى معاصيه، وقيل: هو أهل أن تتقى معاصيه؛ لأنه يغفر ذنوب من يتقيه، وقيل: أهل أن يتقى عقابه، وأهل أن يفعل ما يؤدي إلى مغفرته، وقيل: أهل أن يغفر ذنوب من تاب إليه، عن أبي علي.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ **على أشياء:**

منها: وجوب تدبر الآيات.

ومنها: أن الإعراض عنها كبيرة يستحق عليها الوعيد.

ومنها: أن الإعراض فعلهم؛ لذلك ذمهم عليه، ولذلك قال: ﴿فَمَا لَهُمْ﴾.

ومنها: أنهم قادرون على النذير، وإن كان الأمر ـ كما تزعمه المجبرة في خلق الإعراض فيهم وسلبهم قدرة التدبر وخلق القدرة الموجبة للإعراض ـ لما صح قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ ؛ لأن معناه: ما الذي منعهم، والعجب أنه تعالى [يقول] معجبًا: ما الذي منعهم من الإيمان، وإنما أراد نفيًا للمنع، والمجبرة تزعم أن هناك موانع كثيرة:

منها: خلق الكفر والإعراض فيه.

ومنها: القدرة الموجبة لها.

ومنها: الإرادة الموجبة لها.

ومنها: عدم القدرة على التدبر، وعدم خلق التدبر، وعدم إرادة التدبر.

ومنها: كراهية التدبر منهم، وكل واحد منها مانع، فقد خالفوا كتاب الله في كل هذا مع مخالفتهم لكتاب الله وأوامره ونواهيه.

ويدل قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ أن العبد مخير، بخلاف قولهم.

ويدل قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ﴾ أن الكافر يريد ما لا يكون، وإرادة ما لا يكون إرادة، وليست بتَمَنٍّ، خلاف قولهم.

ويدل قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنه تعالى قد شاء لولاه لما لزمهم، وهذه المشيئة مشيئة التكليف، لا مشيئة الخلق.

سورة القيامة

سورة (القيامة) مكية، وهي تسع وثلاثون آية في الكوفي، وأربعون في غيره.

وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (القيامة) شهدت أنا وجبريل له يوم القيامة أنه كان مؤمنًا بيوم القيامة، وجاء وجهه مسفرًا على وجوه الخلائق يوم القيامة».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (من أراد أن يعرف صفة القيامة فليقرأ هذه السورة).

ولما ختم سورة (المدثر) بذكر القيامة، وأن الكافر لا يخافها، ولا يؤمن بها، افتتح هذه السورة بذكر القيامة، ووصف أحوالها، وأكد ثبوتها.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾

القراءة

قرأ الحسن وعبد الرحمن الأعرج وابن كثير في رواية: «**لَأُقْسِمُ**» بغير ألف موصلة على تحقيق القسم[1] «**ولاَ أُقْسِمُ بالنَّفْس**» بالألف مقطوعة ممدودة، قال الحسن: أقسم بالأولى، ولم يقسم بالثانية.

---

(١) حجة القراءات ٧٣٥.

وقرأ الباقون: «**لا أقسم**» بالألف مقطوعة ممدودة في الحرفين جميعًا، والثانية اتفاق «**لا أقسم بالنفس اللوامة**» أنها على نفي القسم.

قراءة العامة: «**بلى قادرين**» بالياء، وسنبّين الوجه فيه، وقرأ ابن أبي عبلة: «**بلى قادرون**» بالواو والرفع، على تقدير: بلى نحن قادرون[1].

اللغة

القسم واليمين والحلف من النظائر، وهو ما يؤكد الخبر به، وأصله من القسامة، كأنه جعل في حيز الصحيح، والآخر في حيز الباطل.

واللوامة: الكثيرة اللوم لقلة رضائها بالأمر.

(**أيان يوم القيامة**): أي متى تكون، وقال الشاعر:

فَكُلُّهُمْ قَائِلٌ لِلدِّينِ أَيَّانَا[2]

أي: متى، وهو مركب من حرفين: (أيّ أَوَانٍ)، يعني: أي وقت.

الإعراب

«**لا أقسم**» قسم، وجوابه قيل: محذوف، وتقديره: أقسم بالقيامة إنه كائن، وقيل: جواب القسم، أي: لنجمعنها قادرين.

وفي نصب «**قادرين**» وجوه: قيل: تقديره: بلى نجمعها قادرين، وقيل: بلى نقدر قادرين على أكثر من ذلك، إلا أنه حذف للاستغناء «بقادرين»، كما يقال: قاعدًا، وقد سارت الركب؛ أي: نقعد، وقد ساروا، وقيل: إن تقديره: يحسبنا قادرين، ولا يحسبنا عاجزين، وقيل: ألسنا قادرين، وقيل: نحن قادرون، فعدل عن وجهه فنصب، كقول الشاعر:

يَسْعَى الْوُشَاةُ حَوَالَيْهَا وَقِيلُهُمُ: إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سَلْمَى لَمَقْتُولُ[3]

---

(١) القرطبي ١٩/ ٨٥.

(٢) البيت قائله أمية بن الصلت وتمامه:
والناس راث عليهم أمر ساعتهم فكلهم قائل للدين أيانا

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى من قصيدة البردة، أساس البلاغة (جنب).

وقيل: هذا كقول القائل: أتحسبني أن أضربك؟! بلى أقدر على قتلك.

«بلى» أصله (بل)، زيد فيه الألف ليحسن[1] الوقف عليه فصار «بلى».

۞ النزول

قيل: إن عدي بن ربيعة من بني زهرة والأخنس بن شريق حليف لهم كانا يؤذيان النبي ﷺ، فأتاه عدي، وقال: متى تكون القيامة؟ وكيف يكون حالها؟ فأخبره بذلك، فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدق أَوَ يجمع الله العظام؟ فأنزل الله تعالى هذه الآيات إلى قوله: «**عظامه**».

وقيل: بل نزلت في أمية بن خلف، قال: من يحي العظام، وهي رميم؟!

۞ المعنى

«**لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**» قيل: (لا) صلة، والمراد أُقْسِمُ، عن سعيد بن جبير، وأبي علي، وقيل: (لا) تأكيد كقوله: لا، والله ما كان كذا، عن ابن عباس، كأنه قيل: لا أقسم بيوم القيامة ما الأمر على ما يظنون، وقيل: (لا) رد لكلام المشركين، ثم ابتدأ القسم فقال: أقسم، وكل يمين قبلها رد الكلام فلا بد من تقديم (لا) قبلها للفرق بين اليمين التي تكون جحدًا، واليمين الذي يستأنف؛ ألا ترى أنك تقول مبتدئا: والله، إن الرسول لحق، وإذا قلت: لا، والله إن الرسول لحق فكأنك أكذبت قومًا أنكروه[2]، وقيل: لا أقسم بالقيامة: بإثباتها، فأَمْرُها أظهرُ من أن يحتاج فيه إلى القسم عليها، وقيل: لا أقسم بذلك اليوم، ولا بالنفس اللوامة لكفر من كفر بهما، ذكر هذين الوجهين أبو مسلم، وقيل: أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوامة، عن الحسن، وليس بوجه. «**وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**» قيل: كثيرة اللوم لنفسه، عن ابن عباس، وقيل: تلوم على ما مضى وفات، عن مجاهد، أن يقول: لِمَ فعلت؟، ولِمَ لَمْ أفعل؟ وقيل: اللوامة الكافرة، عن قتادة، ومقاتل، وأبي مسلم. كأنه قيل:

(١) الألف ليحسن: إلى لتنبيه، غ

(٢) فكأنك أكذبت قوما أنكروه: وإن قوما أنكروه لكذبة، غ. انظر الطبري: ٢٤/ ٤٨.

ذات اللوم الكثير لما سلف منه، وقيل: اللوامة: النفس المؤمنة أبدًا، يلوم نفسه في الدنيا ويحاسبها ويقول: ماذا فعلت؟، لم قصرت؟ وهلا فعلت كذا، ولو فعلت كذا لكان خيرًا لك، فيفكر أبدًا في العواقب، ويلوم نفسه، وإن الفاجر يمضي قدمًا لا يفكر في الآخرة، ولا يحاسب نفسه، ولا يعاتبها، عن الحسن، وقيل: هي البرة والفاجرة، فالبر على التقصير، والفاجر على الفجور، عن ابن عباس، والفراء، وهذا من البر إنما يكون على وجه التمني لا اللوم؛ إذ لو جاز أن يلوم نفسه جاز لغيره أن يلومه. وقيل: تلوم على الخير والشر، ولا تصبر على السراء والضراء، عن سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبي علي، وقيل: النفس أمارة بالسوء كثيرة الحرص والأمل، فهي ملومة أبدًا، وقيل: اللوامة الذي مِنْ عادته اللومُ، فيلوم نفسه وغيره، كما يقال: كذاب لِمَنْ عادتُهُ الكذب «**أَيَحْسَبُ**» يظن «**الْإِنسَانُ**» يعني الكافر المنكر للبعث «**أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ**» بعد تفرقها، وكونها رميمًا لا نجمعها، ولا نحييها، وقيل: ذكر العظام، والمراد النفس؛ يعني لا يبعث حَيًّا ولا يجمع بين أجزائه عند البعث، فقال تعالى مقررًا لذلك: «**بَلَى قَادِرِينَ**» قيل: تقديره: بلى، ونحن قادرون على جمعها وبعثها وإحيائها، وقيل: تقديره: بلى نقدر على جمع عظامه، وعلى ما هو أعظم، وقيل: بلى نجمع، ونحن قادرون استقبالاً بمعنى الحال «**عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ**» يعني بلى نقدر على تسوية بنانه، وهي[1] أطراف الأصابع، واختلفوا في معنى هذا، فقيل: نقدر أن نجعلها كالخف والحافر، عن ابن عباس، وقتادة. فيتناول المأكول بفمه، ولا ينتفع انتفاعه بأنامله[2]، ولكنا مننا عليه بذلك، وقيل: لو جعلنا ذلك لامتنع عليه الأخذ والإعطاء، والقبض والبسط، وكثير من التصرفات، ففرقنا بين أصابعه ليتهيأ له جميع ذلك، وقيل: بلى، من يقدر على تأليف البنان مع صغرها وكثرة المفاصل فيها والأعصاب والعروق فيها، فهو على إعادتها أقدر منه، بابتداء الخلق على الإعادة، وقيل: بلى، قادرين على أن نسوي بنانه حتى نعيده إلى ما كان قبلها سويًّا، عن أبي علي، وأبي مسلم. «**بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ**» قيل: معناه: يمضي أمامه قدمًا

(١) وهي: وهو؛ غ.

(٢) انتفاعه بأنامله: انتفاع أنامله، غ.

في معاصي الله، راكبًا رأسه وهواه، لا يفزع ولا يتوب، عن مجاهد، والحسن، وعكرمة، والسدي. أي: هذا الذي يحمله على الإعراض، وقيل: يقدم الذنب ويؤخر التوبة، يقول: سوف أتوب حتى يأتيه الموت على أشر أحواله، وأسوأ أعماله، عن سعيد بن جبير، وقيل: هو الأمل يأمل الإنسان ويقول: أعيش وأصيب من الدنيا كذا، ولا يذكر الموت، عن الضحاك، وقيل: يكِّذب لما هو أمامه من البعث والحساب، عن ابن عباس، وابن زيد. والفجور: الكذب، وقيل: يريد أن تأتيه الآخرة التي هي أمامه، فيراها في الدنيا، عن ابن كيسان، وقيل: ليظلم على قدر طاقته، عن السدي، وقيل: يركب رأسه في هواه، ويهيم حيث قادتْه نفسُه، ويأمل عيشًا لا يناله، ويهمل نفسه، لا يردعه ورع، ولا تحجزه تقوى، ويعمل ما شاء حتى صار إلى أن يريد أن يكون مقدمًا على كل قبيح، ويُسَوِّفُ بالتوبة، ويجمع للدنيا آناء ليله ونهاره، ولا يتفكر في عاقبة أمره، وقيل: ليقصد ليذنب أيامًا في مستقبل عمره، ويعزم عليها، ولعله لا يبلغها، ولا يصل إليها، عن أبي علي، وأصل الفجور: الميل، وسمي الفاجر لميله عن الحق إلى الباطل «**يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ**» أي: متى تكون؟ قيل: قال ذلك مكذبًا لها واشتغالاً بالدنيا وما يلهيه من غير تفكر في العاقبة، فإذا خُوِّفَ بالقيامة، قال: متى يكون ذلك؟!

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: تعظيم أمر القيامة وأحوالها والقسم برب القيامة، وإنما يذكر من أفعاله ونعمه ما ينبه على عظيم قدرته وآلائه. وقيل: القسم بالقيامة.

ومنها: صحة الإعادة وما دل عليها، وإنما ذكر البيان لما فيه من عجائب صنعه من الطول والقصر، والمفاصل، والأعصاب، والعروق، حتى تتهيأ به الأعمال وتنقبض وتنبسط.

ومنها: قبح الآمال الباطلة، والعزم على المعاصي، والتسويف بالتوبة.

ومنها: قبح سؤال المبطل في تقوية باطله أو تكذيب الحق؛ لذلك ذمه لقوله: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

قوله تعالى:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع: «بَرَقَ» بفتح الراء، وقرأ الباقون بكسرها[(١)]، قيل: هما بمعنى، وقيل: من كسر فهو من بَرِقَ يَبْرَقُ: إذا جاوز، ومن نصب، فهو من البريق أي: شخص، ويكون ذلك في العين إذا رأى هولاً.

قراءة العامة: «خَسَفَ» بفتح الخاء والسين على فعل ماض، وقرأ أبو حيوة: «خُسِفَ» بضم الخاء وكسر السين على ما لم يسم فاعله قال: لقوله: «وجمع»[(٢)].

وقراءة العامة: «**وجمع الشمس والقمر**»، وفي حرف ابن مسعود: (**جمع بين الشمس والقمر**)[(٣)].

وقراءة العامة: «**المَفَرّ**» بفتح الفاء، واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة قالا: لأنه مصدر. وقرأ ابن عباس والحسن بكسر الفاء[(٤)] قال الكسائي: هما لغتان مثل: مَدَبّ ومَدِبّ، وقال غيره بالفتح المصدر، وبالكسر موضع القرار مثل: المَطْلَع والمَطْلِع.

۞ اللغة

البرق: لمعان بالشعاع الذي لا يلبث؛ لأنه مأخوذ من البرق، بَرِقَ البصر يَبْرُقُ برقًا، والبارقة الذي تلمع سيوفهم: إذا جردوها كالبرق.

---

(١) حجة القراءات ٧٣٦.

(٢) فتح القدير ٥/ ٤٧٣.

(٣) القرطبي ١٩/ ٨٧.

(٤) القرطبي ١٩/ ٨٧.

والوَزَرُ: ملجأ مِنْ حصن أو غيره، ومنه: الوزير: المُعِينُ الذي يُلْجَأُ إليه في الأمور، ومنه: وزرت الحائط: قويته بأساس كبناء يقف عليه.

والمستقر: موضع القرار، ونظيره: المأوى والمثوى، والمستقر على ضربين: مستقر إلى أمد، ومستقر إلى الأبد.

والفَرُّ: مصدر فر يَفِرّ فرًّا وفرارًا، وفي حديث سراقة: (هذان فَرُّ قريش أفلا[1] أرد على قريش فَرَّها) يريد: الفارين من قريش، يعني: النبي ﷺ وأبا بكر، يقال: رجل فرٌّ، ورجلان فرٌّ، ورجال فرٌّ.

والنبأ: الخير[2] العظيم الشأن.

والتقديم: ترتيب الشيء قبل غيره، ونقيضه: التأخير، والتقديم ثلاثة: في زمان، ومكان، ورتبة.

والبصيرة والبينة والدلالة والحجة نظائر، والبصيرة: ما يبصر به الشيء، ودخلت الهاء للمبالغة، وقيل: هو كقولك: فلان عبرة وحجة، عن الأخفش.

المعاذير: هو التنصل من الذنب بذكر العذر، والعذر: ذكر منع يقطع عن الفعل المطلوب. والاعتذار: الاجتهاد في تثبيت[3] العذر، وواحد المعاذير قيل: معذرة، عن علي بن عيسى، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ [عافر: ٥٢]، وقيل: واحد المعاذير: مِعْذَارٌ، عن الزجاج.

۞ المعنى

لما تقدم السؤال عن القيامة عقبه بالجواب ببيان شرائطه وأمارته، فقال سبحانه: «**فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ**» تقديره: يوم القيامة إذا برق البصر وَخَسَفَ الْقَمَرُ، عن الحسن، قيل: شخص ناظرًا فلا يطرف من هول ما يرى من أحوال القيامة مما كان يكذب به في الدنيا، كقوله: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، عن قتادة، ومقاتل، وأبي مسلم، وقيل: حار، وقيل: دهش «**وَخَسَفَ الْقَمَرُ**» قيل: أظلم وذهب ضوؤه كأنه يذهب نوره في خسف من الأرض فلا يرى، وقيل: غاب، عن ابن كيسان،

(١) أفلا: ألا، غ.
(٢) الخبر: الخبراء، غ.
(٣) تثبيت: تثبت، غ.

كقوله: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ﴾ [القصص: ٨١]، «وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ» قيل[1]: جمع بينهما أسودين مكورين. وقيل: جمع بينهما في ذهاب الضياء حتى يراهما كل أحد بغير نور وضياء، وقيل: يجمعان، ثم يرضان في البحر، عن عطاء، وقيل: يجمع بينهما في طلوعهما من المغرب، فإذا عاين الإنسان هذه الأهوال تمنى الهرب، فـ«يَقُولُ الْإِنسَانُ» يعني من هو من أهل النار «أَيْنَ الْمَفَرُّ» أين المهرب، وقيل: أين أهرب، وذلك غاية الجزع والدهش، وقيل: يجوز أن يسأل بعض المؤمنين أو الملائكة أين المهرب، فيجيبون «كَلَّا لَا وَزَرَ» وقيل: هو من كلامه تعالى، قيل: لا ملجأ، عن ابن عباس، ومجاهد، وقيل: لا حصن، عن الضحاك، وقيل: «لَا وَزَرَ» لا جبل، عن السدي، والحسن، وقيل: الوَزَرُ: جبل كان تتحصن به العرب عند نائبة تنوبهم، فكأنه قال: لا وزر ينجيكم من عذاب الله «إِلَى رَبِّكَ» أي: إلى حكمه «يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ» أي: مستقر الأمور، وقيل: لا وزر؛ بل المستقر إلى الموضع الذي يجعل الله قرار الخلق فيه إما الجنة، وإما النار. وقيل: المستقر: الجنة؛ لأن النجاة والراحة يومئذ لمن يدخل الجنة، وقيل: المستقر: المصير والمرجع، عن ابن مسعود. «يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ» قيل: يخبر. وقيل يجازى «يَوْمَئِذٍ» يعني يوم القيامة «بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ» قيل: بما قدم قبل موته من عمل صالح أو سيئة، وما أخر من سُنَّةٍ حسنة أو سيئة يعمل بها بعد موته، عن ابن عباس، وابن مسعود. وقيل: بما قدم من المعصية وآخر من الطاعة، عن ابن عباس بخلاف. وقيل: بأول عمله وآخره، عن مجاهد. وقيل: ما أخذ وما ترك، عن ابن زيد. وقيل: جميع أفعاله التي يستحق الجزاء بها، وقيل: بما قدم من طاعة الله وأخر من حق الله فضيعه، عن قتادة، وقيل: بما قدم في أول عمره، وأخر في آخر عمره. وقيل: بما قدم من ماله لنفسه، وما أخر خلفه لورثته بعده، عن زيد بن أسلم. «بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ» أي: شاهد على نفسه بما تقوم عليه الحجة، عن ابن عباس، وهذا كما يقال: فلان حجة على نفسه، وفي التنزيل: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]، وقيل: «بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ» أي: من نفسه شاهد يشهد عليه بعمله، وهي جوارحه، عن ابن عباس، وعكرمة، ومقاتل، والكلبي، قال القطيني: أقام جوارحه مقام نفسه. وقيل: طليعة على نفسه. وقيل: يشهد عليه

(١) قيل: وقيل، غ.

الشاهدون، عن مجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبير، وعطاء، وقيل: فيه تقديم وتأخير: بل على الإنسان من نفسه بصيرة «**وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**»، قيل: لو اعتذر، أي: قال عذره، عن ابن عباس، وقيل: فشهادته على نفسه [أولى] من معاذيره الكاذبة، وقيل: من اعتذاره، عن الفراء، أي: ولو اعتذر، وجادل عن نفسه، وقيل: لو أقام الاعتذار عند الناس، عن أبي علي. وقيل: لو أرخى الستور وأغلق الأبواب، عن السدي، والضحاك، وقيل: لو أتى بعتبه لم ينفعه، عن مقاتل، وقيل: المعاذير إحالة بعضهم على بعض بالذنب، عن أبي مسلم، كقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] ومعنى الإلقاء: أن يقول.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه لا مُعِينَ ولا ظهير لأهل النار.

وتدل على أنه لا يُقْبَلُ ثَمَّ عذرٌ.

وتدل أنه لا عذر لهم؛ إذ لو كان عذر صحيح لَقُبِلَ منهم.

قوله تعالى:

﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾

۞ القراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب: «**يحبون**»، «**ويذرون**» بالياء فيهما على الكناية لمن سبق ذكره، وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب(١).

۞ اللغة

التحريك: التصيير من جهة إلى أخرى بالحركة، حركه يحركه تحريكًا فهو

---

(١) حجة القراءات ٧٣٦.

محرك، والحركة: اسم لكون يوجد بعد ضده، والمتحرك له حالة بكونه متحركًا، وهو عندنا اسم للكون في الأكنة الثانية التي ينتقل إليها، والحركة والسكون من جنس الأكوان.

والعجلة: عمل الشيء قبل وقته الذي ينبغي فيه، ونقيضه: الإبطاء.

والاتباع والاقتداء والاحتذاء نظائر، والاتباع: موافقة الثاني للأول، اتبعه يتبعه اتباعًا، ونقيضه: الخلاف.

والبيان: إظهار المعنى للنفس بما يتبين به من غيره، بان الشيء يبين، وأبانه غيره.

والقرآن: أصله من الضم والجمع، وهو مصدر كالرجحان والنقصان، يقال: قرأت الماء في الحوض أي: جمعت.

❁ النزول

قيل: كان رسول الله ﷺ يكثر تحريك لسانه بالقرآن مخافة النسيان، فنزل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ ، عن مجاهد، وقتادة.

وقيل: كان إذا نزل القرآن عجل بتحريك لسانه لحبه إياه، فنزل: ﴿ ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ ، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك، وفيه نزل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

❁ النظم

يقال: كيف يتصل ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ بما قبله؟ وكيف يتصل به قوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾؟

قلنا: فيه وجوه:

أولها: أن هذا خطاب للنبي ﷺ في الدنيا، ونظم الكلام: أنه لما تقدم ذكر القيامة والوعيد قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ﴾ قراءته؛ بل كررها عليهم، ورتل ليتقرر

في قلبهم، فإن علينا بيان الأدلة، فإذا بَيَّنَّا فاتبع أنت وَكرِّرْ، فإنهم غافلون عن ذلك، ألهاهم حب العاجلة حتى نسوا حديث الآخرة، فيحتاجون إلى زيادة تنبيه وتقرير.

وقيل: الخطاب للكفار يوم القيامة، فلما قال: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بين كيف ينبه فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ أي: ما تقرأه من صحيفتك التي فيها أعمالك، يعني: اقرأ كتابك ولا تعجل فإن هذا الذي هو على نفسه بصيرة إذا رأى السيئات والمؤاخذة بها ضجر واستعجل؛ لينظر بعد كل سيئة ما يأتي بعدها، وهكذا العادة من يقرأ كتابًا فيه أشياء تخزيه يستعجل ليعلم، فيقال له تقريعًا وتوبيخًا: لا تعجل وتثبت لتعلم الحجة عليك، فإنا نجمعها لك، فإذا جمعناه فاتبع ما جمع عليك بالانقياد لحكمه، والاستسلام لتبعته، ولا يمكنك إنكاره ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ لو أنكرت، وإنما أتيت ذلك لحبك العاجلة، وهذا الوجه أليق بما قدم وأخر، غير أن الأول أقرب إلى الظاهر.

وقيل: قوله: ﴿تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ يتصل بقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي: لمحبة العاجلة يفجر أمامه، فيختار ملاذ الدنيا على نعيم الآخرة.

المعنى

«**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ**» يعني بالقرآن والوحي «**لِتَعْجَلَ بِهِ**» أي: تقرأه لتحفظه ولا تنساه «**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**» قيل: إن علينا جمعه في صدرك حتى تحفظه، وقرآنه عليك حتى تعيد ويمكنك بيانه، عن ابن عباس، والضحاك، وقيل: إن علينا جمعه في صدرك، وتأليفه على ما نزل عليك، عن قتادة، وقيل: علينا حفظه عليك لتصل إلى الأداء، فأشار إلى أن المقصود ليس مجرد التلاوة والحفظ؛ بل التدبر فيه، ومعرفة معانيه وأحكامه، ولأن الحفظ من فعل الله، ومعرفة معانيه من فعل النبي ﷺ، كأنه قال: اشتغل بما لزمك دون ما هو إليّ من الحفظ.

ومتى قيل: أليس الحفظ لا يحصل إلا بعد تكرير التلاوة؟

قلنا: العادة مختلفة فيه، وفي زمان الأنبياء يجوز نقض العادة معجزة له حتى كان النبي ﷺ يحفظ الكثير من غير تلاوة وتكرار.

«فَإِذَا قَرَأْنَاهُ» قيل: قرأه الملك عليك بأمرنا، وقيل: إذا جمعناه لك «فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ» أي: اتبع قرآنه بقراءتك، عن ابن عباس، وقيل: فاعمل بما فيه من الأحكام، عن قتادة، والضحاك، وقيل: اعمل به وبَلِّغْهُ أمتك «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» نذكره لك، عن ابن عباس، وقيل: نذكر أحكامه وحلاله وحرامه، عن قتادة، وقيل: نبين لك معناه إذا حفظته، وبيان أحكامه، ومحكمه، ومتشابهه «كَلَّا» ردع وزجر عن حب الدنيا واتباع الهوى؛ لأنه قال بعده: «[بَلْ] تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ» وقيل: معناه حقًا، كأنه قيل: لا يتدبرون؛ لأنهم يحبون العاجلة ويذرون الآخرة، يعني: يختارون الدنيا على العقبى، فيعملون للدنيا لا للآخرة جهلاً منهم وسوء اختيار، وفيه تعجيب من سوء اختيارهم.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ الآية على معجزة؛ حيث يثبت الوحي في صدره من غير درس، وهذا نقض للعادة.

ويدل قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أنه يجب عليه شيء؛ لأن (على) كلمة إيجاب، فبين أنه لما كلف وجب عليه البيان، وما يزيح علة المكلف.

ويدل قوله: ﴿تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ على أن الواجب اختيار الآخرة على الأولى، ومن خالف ذلك فلسوء اختياره، فلذلك ذمهم حيث اختاروا الفاني على الباقي، الخالص من الثواب.

قوله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

۞ اللغة

الوجه: عضو معروف، وأصله من المواجهة، فالوجه ما واجهك، ثم يذكر ويراد نفس الشيء، يقال: هذا وجه الرأي، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] يعني إلا هو.

النضارة: الحسن، نضر وجهه يَنْضُرُ نضارة، ونضره فهو ناضر، والنضيرة: نظر البهجة والطلاقة، ونقيضه: العبوس والبسور.

و(إلى) مقصور يكون حرفًا ويكون اسمًا، فالحرف كقولك: مِنْ زيد إلى عمرو، ومن بغداد إلى الكوفة، وعمله أنه يجر ما بعده، وإذا كان اسمًا فمعناه النعمة، وجمعه: آلاء، يقال: إليً وآلاء نحو مِعًى وأمعاء، وفيه لغات.

والنظر: مصدر نظر ينظر نظرًا فهو ناظر، ويختلف استعماله، والنظر أصله نظر العين، وهو تقليب الحدقة نحو المرئي التماسًا لرؤيته مع سلامة الحاسة، ثم يستعمل في الفكر، يقال: نظرت في هذه المسألة، أي: تفكرت، ومنه: المناظرة، والنظر ينقسم فيقال: نظر إليه نظر رحمة، ونظر غضبان، ونظرًا شَزْرًا، ويستعمل بمعنى الانتظار، ومنه: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، وقال الشاعر:

إِنِّـي إِلَـيْـكِ بِـمَـا[1] وَعَـدْتِ لَـنَـاظِـرٌ نَـظَـرَ الْـفَـقِـيـرَ إِلَـى الْـغَـنِـيِّ الْـمُـوسِـرِ[2]

والبسور: ظهور حال الغم في الوجه، ونظيره العبوس.

والفاقرة: الكاسرة لفقار الظهر شدة، ونظيره: الداهية والآبدة، وأصله من الفقار، يقال: فقره: إذا كسر فقاره.

۞ الإعراب

«ربها» مجرور بـ (إلى) إنْ حمل على الحرف، وإنْ أريد به النعمة فلأنه مضاف إليه، و(ناظرة) صفة للوجه أي: وجوه ناضرة ناظرة إلى ربها.

(١) بما: لما؛ غ.

(٢) البيت لجميل بثينة في الأغاني ٨/١٠٨؛ ديوان جميل بثينة، تحقيق: بطرس البستاني، دار صادر، بيروت. قصيدة مطلعها:

يـا صـاح عـن بعـض الـملامة أقـصـر إن الـمـنـى لـلـقـاءُ أم الـمِـسـورِ

۞ المعنى

ثم عاد الكلام إلى صفة القيامة وبيان حال الناس، فقال سبحانه: «وُجُوهٌ» قيل: معناه ذات وجوه، وقيل: أراد به الأنفس، وقيل: أراد وجوه أرباب الطاعات «يَوْمَئِذٍ» أي: يوم القيامة «نَاضِرَةٌ» قيل: بهجة حسنة، عن ابن عباس، والحسن، وقيل: مسرورة، عن مجاهد، وقيل: ناعمة، عن ابن زيد، وقيل: مضيئة، عن السدي، وقيل: بيض يعلوها النور، عن مقاتل، وقيل: مشرقة، عن الفراء. «إِلَى رَبِّهَا» قيل: معناه: نِعَم ربِّها، وقيل: «إلى رَبّها[1] «نَاظِرَةٌ» قيل فيه وجهان:

أحدهما: أن المراد نظر العين.

والثاني: أن المراد الانتظار.

فأما من حمله على الانتظار، اختلفوا، قيل: تنتظر الثواب من ربها، عن مجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير، وأبي صالح، والضحاك، وروي ذلك عن أمير المؤمنين، وقيل: مؤملة لتجديد الكرامة، كما يقال: عيني ممدودة إلى الله، وإلى فلان بمعنى التأميل، وأنا شاخصة الطرف إلى فلان، ولما كانت العيون بعض أعضاء الوجوه أضيف الفعل الذي يقع بالعين إليها، عن أبي مسلم، وقيل: (إلى) بمعنى النعمة، أي: نعم ربها منتظرة، وقيل: معناه: أنهم قطعوا أطماعهم عن كل شيء سوى الله تعالى؛ لأن نظر الإنسان يختلف، فناظر إلى سلطان، وناظر إلى قريب، وناظر إلى محادثه وزراعة بمعنى يؤمل ذلك، وناظر إلى الله بمعنى يؤمله.

ومتى قيل: النظر إذا عدي بـ(إلى) لا يكون بمعنى الانتظار، لا يقال: انتظرت إليه، وإنما يقال: انتظرته.

قلنا: هذا باطل من وجوه:

منها: أن (إلى) إذا حمل على النعم يسقط السؤال.

ومنها: أنه قد جاء في الشعر وغيره معدى بـ(إلى)، ومعناه الانتظار، قال جميل بن معمر:

---

(١) ربّها: حرف، غ.

وَإِذَا نَـظَـرْتُ إِلَـيْـك مِـنْ مَـلِـكٍ   وَالْـبَـحْـرُ دُونَـك جُـدْتَـنِـي[1] نِـعَـمَـا

وقال آخر:

وُجُـوهٌ يَـوْمَ بَـدْرٍ نَـاظِـرَاتٌ   إِلَـى الـرَّحْـمَـنِ يَـأْتِـي بِـالْـخَـلَاصِ[2]

وقال آخر:

إِنِّـي إِلَـيْـكَ لِـمَـا وَعَـدْتُ لَـنَـاظِـرُ

البيت وقد مر ونظائره تكثر.

ومنها: أنه أراد أن لفظة الانتظار لا تعدى بـ (إلى) فهو كذلك، وإن أراد أن النظر إذا كان بمعنى الانتظار لا يتعدى فليس كذلك، هذا كما كان الرؤية لا تعدى بـ(إلى)، ثم النظر بمعنى الرؤية عندهم تعدى بـ(إلى)، وقال بعضهم: إنه أراد التقابل بين صفة أهل الجنة، وصفة أهل النار، فهولاء لا يؤملون تجديد الكرامة، وأولئك يظنون الفاقرة، وكله راجع إلى فعل القلب.

ومتى يكون ذلك؟ اختلفوا: قيل: قبل الاستقرار في الجنة والنار، وكل فريق ينتظر ما هو له أهل، وقيل: هو بعد الاستقرار في الدارين، قال القاضي: والأول أولى.

فأما الثاني: أن يحمل [على] نظر العين، واختلفوا: قيل: إلى ثواب ربها ناظرة، أي: تنظر إلى ما أعطاه الله في الجنة من النعيم حالاً بعد حال، فيزداد سرورهم، روي هذا عن جماعة من المفسرين من علماء التابعين وغيرهم، فعلى هذا قد ذكر نفسه وأراد الثواب تعظيمًا، كقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] أي: أمره، وكقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ [غافر: ٤٢] أي: إلى طاعته وتوحيده، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] أي: إلى حيث أمرني ربي، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧] أي: أولياءه.

---

(١) جدتني: جتني. بدون نقاط، غ.

(٢) البيت قائله حسان بن ثابت، انظر: ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفات دار صادر، بيروت، ٢٠٠٦.

وذكر مشايخنا أن النظر يحتمل المعنيين: النظر والانتظار، ولا مانع من حمل الآية عليهما، فكأنه أراد أنه ينظر إلى ثواب معدٍّ له في الحال من أنواع النعم، وينتظر أمثالها حالاً بعد حال ليتم السرور؛ لأنه مع فقد أحدهما لا يتكامل.

ومتى قيل: الانتظار يوجب الغم والحسرة؟ وكذلك قيل: الانتظار موت أحمر؟

قلنا: إنما يكون كذلك إذا احتاج إليه في الحال ولا يصل إليه، فأما إذا حصل له في الحال جميع ما يحتاج إليه وينتظر مثلها حالاً بعد حال أبدًا، فلا يكون في غم وحسرة؛ بل به يتكامل السرور، وهذا كما نقول في الموائد المعدة للأكل يكون عليها ما يحتاج، وينتظر أمثالها. وقيل: إن الثواب لا يتجدد، ولكن يكون على نسق واحد؛ لأنه المستحق، فأما المزيد من فضله فيختلف فهم في فضل منه، ويتوقعون أمثاله من فضله حالاً بعد حال.

ومتى قيل: إذا كان النظر بالعين حقيقة وفي الانتظار مجازًا، كيف يحمل عليهما؟

قلنا: عند أبي علي والقاضي يجوز أن يرادا بعبارة واحدة؛ إذ لا تنافي بينهما، ولا بين إرادتهما، وعند أبي هاشم تكلم به مرتين، مرة أراد النظر، ومرة أراد الانتظار.

«**وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ**» كالحة، عن مجاهد، وقتادة، وقيل: مسودة «**تَظُنُّ**» قيل: تعلم؛ لأنهم لا يشكون في حصول العذاب بل يعلمونه ضرورة، وقيل: يظنون حصولها جملة[1]، ولا يعلمون تفاصيله، فالظن يتعلق بتفاصيله «**أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ**» قيل: داهية، عن مجاهد، وأبي عبيدة، وقيل: قاصمة الظهر، عن سعيد بن المسيب. وقيل: آبدة بدخول النار، عن ابن زيد. وقيل: منكرة من العذاب، عن الكلبي.

الأحكام

تدل الآية على أحوال المؤمنين وأحوال الكفار، وأن المؤمن ينتظر الثواب والرحمة، والكافر ينتظر حلول العقوبة بهم.

ومتى قيل: هلا حملتم الآية على إثبات الرؤية على ما استدل به الخلق؟!

(١) أي: يقطعون بحصولها جملة.

قلنا: [لا] لوجوه:

أحدها: أنه ليس في الظاهر ما يدل على ذلك من وجوه:

منها: أن في الآية النظر، والرؤية غير النظر، يقال: نظرت إلى الهلال فلم أره، ولو كان النظر هو الرؤية لكان مناقضة.

ومنها: أن النظر ينقسم كما ذكرنا، والرؤية لا تنقسم.

ومنها: أن النظر يحتمل النظر بالعين والانتظار وغيرهما.

ومنها: أن النظر بمعنى الرؤية مجاز وتَوَسُّعٌ.

ومنها: أن الوجوه لا تَرَى، ولا تكون ناظرة، وإذا أريد به صاحب الوجه، فهو مجاز.

ومنها: أن (إلى) يحتمل أن يكون حرفًا واسمًا على ما بَيَّنَّا، وكل ذلك بَيَّنَ أنه لا تعلق للقوم بالظاهر.

ومنها: أن عند القوم النظر لا يقتضي الرؤية، وإنما يوجب الإدراك، ولو خلق عضو آخر لكان به مدركًا.

وثانيها: أن حقيقة النظر لا تجوز على الله تعالى؛ لأنه تقليب الحدقة نحو المرئي التماسًا لرؤيته على ما بَيَّنَّا، وذلك يقتضي جهة له تعالى، وإذا علق النظر بما يستحيل تعلقه به فلا بد من تأويل.

وثالثها: أن العقل والسمع دلاَّ على أنه تعالى ليس بمرئي.

أما السمع: فقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وهذا تمدح فيعم، وقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] وهو عام.

وأما العقل: فلأنه لو صح عليه الرؤية لوجب أن نراه لاستحالة الموانع عليه، ولأن ما يرى بالحاسة لا بد من أن يكون في جهة، ولأن ما يكون مرئيًّا ويختص بإدراكه البصر فهو من جنس الألوان؛ ولأنه إما أن يرى على ما يعقل فيقتضي كونه جسمًا أو عرضًا، أو يرى على وجه لا يعقل فيلزم أن يصح أن يلمس ويسمع، ولجاز أن يرى بلا بصر.

ومتى قيل: إن المصحح للرؤية هو الوجود؟

قلنا: لا نسلم؛ لأن كثيرًا من الموجودات لا ترى.

فإن قالوا: يصح أن يرى سائر الأعراض وإن لم نره؟

قلنا: يلزمكم أن يصح رؤية المعدوم، وبعد فإن الموجود كما يصحح الرؤية يصحح إدراك سائر المدركات على زعمه، فوجب أن يكون تعالى ملموسًا مشمومًا مذوقًا، فتعالى الله عن ذلك.

قوله تعالى:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ (٢٨) وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ (٣٥)﴾

القراءة

قرأ حفص عن عاصم: «مَنْ رَاقٍ» بإظهار النون يقف عليه وقفة يسيرة، والباقون بالإدغام، وكذلك: ﴿بَلۡۜ رَانَ﴾ [المطففين: ١٤][(١)].

اللغة

التراقي: العظام المكتنفة للحلق يمينًا وشمالاً، وقيل: مقدم الحلق من أعلى الصدر تترقى إليه النفس عند الموت، وهناك يقع الحشرجة، واحدها: تَرْقُوَةٌ، قال دريد بن الصمة[(٢)]:

فَـرُبَّ عَـظِـيـمَـةٍ دَافَـعْـتُ عَـنْـهُـمْ وَقَـدْ بَـلَـغَـتْ نُـفُـوسُـهُـمُ الـتَّـراقِـي[(٣)]

والراقي: الطالب للشفاء، رقاه يرقيه رُقْيَةً: إذا طلب له الشفاء بأسماء الله تعالى،

---

(١) حجة القراءات ٧٣٧.

(٢) الصمة: صمة، غ.

(٣) بحسب رأي محقق الديوان عمر عبد الرسول أن البيت لابنته عمرة في أبيات لها في رثائه بعد معتقله يوم حنين. ديوان دريد بن الصمة، تحقيق عمر عبد الرسول، ص ١٩٧، دار المعارف، ١٩٨.

وآيات كتابه، وأما العوذة فدفع البلية بكلماته تعالى، وكانت العرب تفزع إلى الرقاة كثيرًا، ومنه قول الشاعر:

فَمَا تَرَكَا مِنْ رُقْيَةٍ يَعْلَمَانِهَا ... وَلاَ سَلْوَةٍ إِلاَّ وَقَدْ سَقَيَانِي[1]

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ العرب تَذْكُرُ الساق، وتريد شدة الأمر، يقولون: قامت الحرب على ساق، قال الشاعر:

لاَ يُرْسِلُ السَّاقَ إِلاَّ مُمْسِكًا سَاقَا[2]

والمساق: الموضع الذي يساق إليه، وأصله من السَّوْقِ.

والتولي: الإعراض.

والتمطي: تمدد البطن عن الكسل، والمط: المد، تمطى يتمطى، وأصله يتمطط، جعل أحد الطائين ياء، فصار يتمطى، وقيل: أصله: يلوى مطاه، والمطا: الظهر.

والأَوْلَى: قيل: أصله الوَلْيُ، وهو القرب، ومنه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ [التوبة:١٢٣] وقيل: الأولى في الفعل هو الأحق، وهو أيضًا من القرب.

۞ النزول

قيل: نزلت الآيات في أبي جهل، وقتل يوم بدر شر مقتل، عن النبي ﷺ: «لكل أمة فرعون، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل»[3]. وقيل: خرج النبي ﷺ من المسجد، فاستقبله أبو جهل، فقال ﷺ: «أولى لك فأولى» فقال: بأي شيء تهددني، لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئًا، وإني لأعز هذا الوادي، ودخل المسجد متغيرًا، فسئل عنه، فقال: إن محمدًا يهددني، ونزلت الآية.

---

(١) البيت قائله عروة بن حزام، اللسان (سلا).

(٢) البيت قائله أبو داود الأيادي، وصدر البيت:
أَنَّى أُتِيحَ لَهَا حِرْبَاءُ تَنْضُبَةٍ.
انظره في: تاج العروس (علق)؛ اللسان (حرب).

(٣) المعجم الكبير بلفظ آخر رقم ٨٤٧٤.

المعنى

ثم بَيَّنَ حالهم عند النزع، فقال سبحانه: «**كَلَّا**» قيل: حَقًّا، وقيل: ليس الأمر كما يظنون، ولكن سيعلمون «**إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ**» قيل: بلغت النفس التراقي كناية عن غير مذكور؛ لأن في الكلام ما يدل عليه، والترقوتان: عظما العنق المكتنفة بالحلق «**وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ**» يعني قال من حضره: هل من راق؛ أي: من طبيب يرقيه ويداويه، عن أبي قلابة، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، قال قتادة: التمسوا له الأطباء، فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئًا، وقيل: قالت الملائكة من يرقى بروحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ عن ابن عباس، وأبي الحوراء، ومقاتل، قال أبو العالية: تختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب أيهم يرقى بروحه «**وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ**» أي: فراق الدنيا والأهل والمال والولد، وعن النبي ﷺ: «إن العبد ليعالج كرب الموت وسكراته، ومفاصله يسلم بعضها على بعض، تقول: عليك السلام، تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة»، وقيل: هو في حال المعاينة، والظن بمعنى العلم، وقيل: هو قَبلَهُ حتى يرجوَ الصحة، ويظنَّ الفراق «**وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ**» قيل: شدة أمر الدنيا وأمر الآخرة، عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، والربيع، وقال الضحاك: أهل الدنيا يجهزون البدن، وأهل الآخرة يجهزون الروح، وقيل: حال الموت بحال الحياة، عن الحسن. وقيل: ساقا الإنسان ويبسهما عند الموت، عن الشعبي، وأبي مالك؛ لأنه تذهب القوة، فتصير كجلد يلتف، وقيل: التفاف الساقين في الكفن، عن الحسن بخلاف، وسعيد بن المسيب. وقيل: ساق الدنيا بساق الآخرة، وهو شدة كرب الموت، وشدة هول المطلع. وقيل: يضطرب فلا يزال يمد إحدى رجليه، ويرسل الأخرى، ويلف إحداهما[1] بالأخرى، عن قتادة، وقيل: ماتت رجلاه، فلم تحملاه وكان عليهما جوالاً، عن الحسن أيضًا، وقيل: يلتف عليه غم فراق الدنيا والأهل، وغم القدوم على الله تعالى مع أنه لا يدري ما يقدم عليه، وقيل: يؤخذ جميع ماله من الدنيا، ويسأل عن جميعه. وقيل: هما شدتان: آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة، وقيل: تتابعت عليه الشدائد من النزع، وقرب الموت، وفراق الدنيا، وغم القبر، ونحو ذلك، عن سعيد بن جبير. وقيل: لا يخرج من كربة

(١) إحداهما: أحدهما، غ.

إلا جاءه أشدُّ منها، عن السدي. وقيل: هو في الآخرة، «**إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ**» يعني يساق إلى حكمه، وما يأمر له فيه، وذلك حث على طاعته، وزجر عن معصيته. وقيل: يسوق الملك رُوحَهُ[1] إلى حيث أمر الله به.

ثم بَيَّنَ ما لأجله استحق العذاب، فقال سبحانه: «**فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى**» قيل: لم يصدق بكتاب الله، ولا صلى لله. وقيل: لم يتصدق بشيء ولا صلى «**وَلَكِنْ كَذَّبَ**» بالله «**وَتَوَلَّى**» عن طاعته، عن الحسن، وقتادة. «**ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى**» يتبختر، عن مجاهد، وقتادة. وقيل: أصله من المطا، وهو الظهر، أي: يلوي مطاه تبخترًا، عن زيد بن أسلم. وقيل: المراد إعراضه عن الحق، وقلة اكتراثه بالوعيد، «**أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى. ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى**» قيل: هو وعيد على وعيد، وأولى كلامه وعيد، عن قتادة، وقيل: معناه: الذم أولى لك من تركه، إلا أنه حذف، وكثر في الكلام حتى صار بمنزلة الويل لك. وقيل: معناه: الذم لك على الأول، والذم لك على الثاني والثالث، وكلما عملته من خصال المعاصي. وقيل: معناه: أنت أولى بهذا العقاب وأحق. وقيل: قرب منك العذاب من الولي. وقيل هو من المقلوب، وأصله: أَوْيَل، فقدم اللام على الياء، وقيل: وَلِيُّكَ الشرُّ يا أبا جهل. وقيل: بعدًا لك من خيرات الدنيا وبعدًا لك من خيرات الآخرة، عن أبي علي. وقيل: كرر (أَوْلَى) تأكيدًا.

وقيل: هو وعيد لأبي جهل:

الأول: بالقتل، فقتل ببدر.

والثاني: بعذاب القبر؛ لذلك أدخل فيه الفاء، وهو للتعقيب.

والثالث: بالقيامة؛ ولذلك أدخل (ثم)، وذلك للتراخي.

والرابع: بالنار.

۞ الأحكام

الآيات تدل على أشياء:

منها: شدة أحوال النزع وما يعاين من الأهوال والغموم.

(١) روحه: بروحه؛ غ.

ومنها: عظم محل الصلاة والزكاة من الدين.

ومنها: أن الكافر مخاطب بهما.

ومنها: أنه يستحق العقاب بأن لم يصلوا ولم يتصدقوا على ما يقوله شيخنا أبو هاشم: أن العقاب قد يستحق على ألاَّ يفعل الواجب، خلافَ ما يقوله أبو علي.

قوله تعالى:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

❁ القراءة

قرأ الحسن وأبو عمرو وحفص عن عاصم ويعقوب: «يمنى» بالياء، واختاره أبو عبيد لأجل المني، الباقون بالتاء لأجل النطفة، وهو اختيار أبي حاتم[1].

❁ اللغة

السُّدَى: المهمل، وهو أن يهمل من غير أن يؤخذ به، يقال: أسديت حاجتي، أي: أهملتها، وإبل سدى: ترعى حيث شاءت.

والمني: هو النطفة، الماء الذي يخلق منه الإنسان، أمنى الرجل: خرج منه المني، وأمذى: خرج منه المذي.

والعلقة: القطعة من الدم المنعقد.

❁ الإعراب

القراء ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بالإظهار، وأجاز الفراء بالإدغام على نقل الحركة إلى الحاء، وأنشد:

فَكَأَنَّهَا بَيْنَ النِّسَاءِ سَبِيلَةٌ ... تَمْشِي بِسُدَّةِ بَيْتِهَا فَتُعَيِّي[2]

---

(١) حجة القراءات ٧٣٧.

(٢) اللسان (حيا) وورد البيت برواية أخرى: وكأنها بين النساء سبيكة.

۞ النزول

عن البراء بن عازب: لما نزلت هذه الآية: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ قال النبي ﷺ: «سبحانك، بلى».

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أنهم لم يتركوا هَمَلاً زجرًا لهم، فقال سبحانه: «**أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ**» الألف ألف استفهام، والمراد الإنكار، أي: لا ينبغي أن يظن ذلك، والإنسان، قيل: أراد الجنس وهو الوجه. وقيل: أراد أبا جهل «**أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**» مهملاً، لا يُؤمَر ولا يُنْهَى، عن ابن عباس، ومجاهد. «**أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى**» أي: كيف يظن أن يهمل وهو يرى في نفسه من تنقل الأحوال ما يدل أن له صانعًا حكيمًا، وأنه بلغه وأكمل عقله وقدره، وخلق فيه الشهوة والدواعي، فمع هذا لا يجوز أن يخليه من تكليف. «**يُمْنَى**» قيل: يقدر، وقيل: يخرج من ذكر «**ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً**» قطعة دم، صار المني علقة «**فَخَلَقَ**»، ثم خلق منه الخلق «**فَسَوَّى**» خلقه وصوره وأعضاءه الباطنة والظاهرة ببطن أمه. وقيل: سواه إنسانًا على ما نشاهده «**فَجَعَلَ مِنْهُ [الزَّوْجَيْنِ]**» أي: خلق منه، قيل: من الإنسان من «**الذَّكَرَ وَالأُنْثَى**» وقيل: من المني، فلا بد من غرض، وذلك هو التعريض للثواب بالتكليف «**أَلَيْسَ ذَلِكَ**» من جعل ذلك «**بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى**» للبعث والجزاء.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أحكام:

منها: أن الإنسان إذا حصل فيه شرائط التكليف من القوة والعقل والشهوة لا بد أن يكلف.

ومتى قيل: لِمَ لَمْ يجز ذلك؟

[قلنا]: لأنه يكون بخلق الشهوة مُغْرًى بالقبائح، فلا بد من أمر ونهي.

ومنها: أن من قدر على الابتداء في خلق الأجسام والحياة قدر على إعادتها، وهو القادر للذات.

ومنها: صحة الاحتجاج في الدين.

ومنها: صحة قياس العقلي؛ لأنه اعتبر إنشاءه الثانية بالنشأة الأولى.

سُورَةُ الإنسَان

سورة (هل أتى)، قال القاضي: وهي مكية على اختلاف فيه، وقيل: كلها مكية، وهو قول الأكثر، وقيل: كلها مدنية، عن مجاهد، وقتادة، وقيل: آية منها مكية، وهي قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ والباقي مدنية، عن الحسن وعكرمة.

وهي إحدى وثلاثون آية.

وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (هل أتى) كان جزاؤه على الله تعالى جنة وحريرًا».

ولما ختم سورة (لا أقسم) بصحة البعث، وما دل عليه من خلق الإنسان من نطفة، ابتدأ هذه السورة بمثل ذلك.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «**سلاسلًا**» بالتنوين في الوصل، وإثبات الألف في الوقف(١). وقرأ ابن كثير وحمزة ويعقوب: «**سلاسلَ**» بغير تنوين والوقف بغير ألف. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحفص عن عاصم: «**سلاسل**» بغير تنوين في الوصل، ويقفون بالألف، فمن نَوَّنَ فلتشاكل ما جاوره من رؤوس الآي(٢).

۞ اللغة

هل: حرف استفهام، يقال: هل رأيت زيدًا؟ واستعمل بمعنى (قد).

والإنسان: حيوان على الصورة المعروفة، وهي هذا القالب الذاهب الجائي الآكل الشارب، يَحْيَا بحياة تحله، وقد قيل غير ذلك، وهذا هو الأوجه.

والدهر: مرور الليل والنهار، وجمعه: أَدْهُرٌ، ودهور.

والنطفة: ماء الرجل، وأصله: الماء القليل يكون في إناء أو غيره، وقد يقع على الماء الكثير، وجمعه: نطاف ونطف.

والأمشاج: الأخلاط، واحدها: مَشَجٌ، ومشجت هذا بهذا أي: خلطته، وهو ممشوج ومشيج نحو: مخلوط وخليط.

والابتلاء: الاختبار، وحقيقته لا تجوز عليه تعالى، وإنما يعامل معاملة المختبر ليظهر المعلوم كما علم.

والأبرار: واحدها: بارٌّ، نحو: ناصر وأنصار، وبَرٌّ أيضًا نحو: نهر وأنهار.

والكأس: إناء فيه شراب، ولا يسمى كأسًا إذا لم يكن فيه، عن الزجاج، قال:

صَدَدْتِ الكَأسَ عنَّا أمَّ عَمْرٍو ... وَكَانَ الْكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا(٣)

---

(١) حجة القراءات ٧٣٧.

(٢) الآي: الآية، غ.

(٣) الشاعر: هو عمرو بن كلثوم، والبيت من معلقته، وفي رواية: (صبنت)، وهو بمعنى الصد أيضًا، يقول: كان مجرى الكأس في العادة من يمين المجلس، وأنت يا أم عمرو أجريتها على خلاف العادة. ونسب بعض هذا البيت إلى عمرو بن عدي اللخمي ابن أخت جذيمة الأبرش. الصحاح (صبن).

والتفجير: تشقيق الأرض مجرى الماء، ومنه: انفجار الصبح، وهو انشقاقه عن الضوء، ومنه: الفجور لسعة الأمر في الفساد.

الإعراب

﴿شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ نصب لأنه خبر (كان)، وتقديره: لم يكن الإنسان شيئًا مذكورًا.

و(**الأمشاج**): بناؤه بناء جَمْعٍ، وهو في معنى الواحد؛ لأنه نعت للنطفة، وذلك نحو قولهم: ثوبٌ أخلاقٌ.

«**عينًا**» قيل: نصب على البدل من «**كافورا**»، وقيل: نصب على الحال، والقطع من «**مزاجها**»، عن الكسائي، وقيل: بفعل محذوف، أي: يشربون عينًا، وقيل: من عين، وقيل: أعني عينًا، وقيل: نصب على المدح. والباء في «**بها**» صلة، قيل: تقديره: يشربها، وقيل: بمعنى (من)؛ أي: يشرب منها.

«**تَفْجِيرًا**» نصب على المصدر.

«**شَاكِرًا**» نصب على الحال، وقيل: تقديره: إما أن يكون شاكرًا.

المعنى

«**هَلْ أَتَى**» قيل: قد أتى، وهو إخبار مؤكد، وقيل: هو استفهام، والمراد التقرير، عن أبي علي. وهو تقرير على ألطف الوجوه، وتقديره: أيها المُنْكِرُ الصانعَ وقدرته، أليس قد أتى عليك دهور لم تك شيئًا مذكورًا، ثم كُوِّنْتَ؟ وكل أحد يعلم ضرورة أنه لم يكن موجودًا، ثم صار موجودًا، فإذا تفكر فيه علم أن له صانعًا صنعه، ومحدثًا أوجده «**عَلَى الْإِنسَانِ**» قيل: آدم هو أول من سمي به، عن الحسن، وقتادة، وسفيان، وأبي علي. وقيل: هو على كل إنسان، والمراد به الجنس، عن أبي مسلم. «**حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ**» وقت من الأوقات، وقيل: أتى عليه أوقات وهو مصور إنسانًا. وقيل: أتى عليه مدة وهو غير مصور، والأول أظهر، واختلفوا، قيل: هو آدم أتى عليه أربعون سنة ملقى بين مكة والطائف قبل أن ينفخ فيه الروح. وقيل: هو عام في جميع الخلق، فإنه قبل الولادة لا يكون مذكورًا؛ بل يكون معدومًا، ثم يوجد في صلب أبيه، ثم في

رحم أمه إلى وقت الولادة «**لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا**» أي: لم يُذْكَرْ ولا يعرف، ولا يدرى من هو وما يراد به حتى ينقلب حيوانًا فيذكر[1] ويعرف، وقيل: المراد به العلماء والأئمة؛ لأنهم كانوا لا يُذْكرون فبلغهم الله تعالى وصيرهم بألطافه بحيث يذكرون حيًّا وميتًا بين العوام والخواص، وقرئ هذه الآية عند عمر فقال: (ليتها تمت)[2]، وعند ابن مسعود فقال: ألا ليت ذلك لم يكن.

ثم بَيَّنَ تعالى كيف خلقه، فقال سبحانه: «**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ**» قيل: ماء الرجل، وقيل: ماء الرجل وماء المرأة «**أَمْشَاجٍ**» أخلاط، قيل: من ماء الرجل والمرأة يختلطان في الرحم، فيكون منهما الولد، وماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا على ماء صاحبه كان الشبه له، عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة، ومجاهد، والربيع بن أنس، وأبي علي. وقيل: أمشاجًا أطوارًا، طورًا نطفة، وطورًا علقة، وطورًا مضغة، وطورًا عظامًا إلى أن صار إنسانًا، عن قتادة، وقيل: أمشاجًا عروق النطفة، عن ابن مسعود، وأسامة بن زيد، وقيل: ألوان النطفة، نطفة الرجل بيضاء وحمراء، ونطفة المرأة خضراء وحمراء، وهي مختلفة الألوان، عن ابن عباس بخلاف، والضحاك، ومجاهد، وعطاء، والكلبي، وقيل: أمشاجًا: من نطفة مشجت بدم، وهو دم الحيض، فإذا حبلت ارتفع[3] الحيض، عن الحسن، وقيل: أمشاجًا أخلاطًا من الطبائع الأربع: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة «**نَّبْتَلِيهِ**» قيل: نتعبده أي: نعامله معاملة المختبر ليظهر المعلوم. وقيل: معنى «**نبتليه**» أي: نتعبده بالأمر والنهي «**فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**» قيل: جعلناه سميعًا يسمع[4] الأدلة وبصيرًا يبصرها، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: جعلناه سميعًا بصيرًا لنبتليه؛ لأنه ما لم يجعله كذلك لا يصح الابتلاء، ويجوز أن يكون المعنى على هذا وإن لم يقدر فيه

---

(١) فيذكر: يذكر، غ.

(٢) معنى كلام عمر: أي ليت ذلك تم عند آدم ولم يقع في أولاده التناسل، وقد ذكر هذا في (مجمع البيان)، ورواه بلفظ آخر وهو: (ليت ذلك تَمّ)؛ يعني ليت آدم بقي على ما كان فكان لا يلد ولا يبتلى أولاده ١٠/ ٢١٣، ط الأعلمي. وهو موافق لما روي عن ابن مسعود.

(٣) ارتفع: ارتفعت؛ غ. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ١٩٠.

(٤) يسمع: ليسمع، غ.

التقديم والتأخير، كأنه قيل: نبتليه لذلك جعلناه سميعًا بصيرًا، والسميع والبصير من كان على صفة يدرك المسموع والمبصر إذا وجد وهو كونه حيًّا لا آفة به «**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ**» قيل: بَيَّنَّا له الطريق بنصب الأدلة، وأزحنا له العلة حتى يتمكن من معرفة الحق والباطل، وصلح الابتلاء، وقيل: طريق الخير والشر، عن قتادة.

ومتى قيل: ما هذه الهداية؟

قلنا: أدلة العقل والشرع عم بها جميع المكلفين، والسبيل: هو طريق معرفة الدين الذي يتوصل به إلى ثواب الأبد، ويلزم كل مكلف سلوكه.

«**إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**» لمّا بَيَّنَ أنه كلفهم بَيَّنَ حالهم بعد التكليف، وأشار إلى أن العبد مخير فإما مؤمن يشكر الله على نعمه، وإما كافرٌ يجحد نعمه. وقيل: بينا له الطريق إن شكر أو كفر، عن الفراء. ولا يجوز حمله على أنه خلقهم مؤمنًا وكافرًا؛ لأن الظاهر لا يقتضي ذلك؛ ولأنا بَيَّنَّا أن الإيمان والكفر فعل العبد.

ثم بَيَّنَ ما أعد لكل واحد، فقال سبحانه: «**إِنَّا أَعْتَدْنَا**» أي: هيأنا، قيل: ماض أراد به[1] المستقبل، أي: سنعد، ولما كان الموعود به كالواقع جاز أن يعبر عنه بعبارة الماضي، وقيل: أعد تلك الأيمان ليعذبهم بها، وفيه لطف للمكلفين. وقيل: اعتدنا بالإيجاب والحكم. «**سَلَاسِلَا**» قيل: كل سلسلة سبعون ذراعًا «**وَأَغْلَالاً**» في أعناقهم «**وَسَعِيرًا**» نارًا موقودة. «**إِنَّ الْأَبْرَارَ**» يعني المطيعين لله المؤمنين، وقال الحسن: هم الذين لا يؤذون الذّرّ، ولا يرضون بالشر «**يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا**» قيل: يمزج بالكافور ويختم بالمسك، عن مجاهد، وقتادة، وقيل: مزاجه كافور، يعني في بياضه ورائحته وبرودته، لا في طعمه، لكن يطيب طعمه. وقيل: مزاجها طعمها، عن عكرمة، أي: كالكافور، كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ [الكهف: ٩٦] أي: كالنار. وقيل: طيبت بالكافور والمسك والزنجبيل، عن ابن كيسان. وقيل: كافور اسم عين في الجنة، عن الفراء. وقيل: هذه أنموذج الآخرة، فأما ما يكون منها فأرفع وأطيب من أن يوصف «**عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ**» أي: ذلك الشراب من عين يشرب بها عباد الله

(١) أراد به: مكرر في غ.

في الجنة. قيل: يجوز أن يكون لكل أحد عينٌ، ويجوز أن يكون الأصل واحدًا فيتفجر منها الأنهار. «عِبَادُ اللَّهِ» هذه إضافة تخصيص وتشريف؛ لأن الخلق كلهم عباده «يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا» قيل: يقودونها حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم، عن مجاهد. وقيل: إذا أراد المؤمن أن يتناوله من موضعه خط فيه خطًا فينبع الماء من ذلك الموضع بأن يجريه الله إليه. وفي قوله: «يُفَجِّرُونَهَا» إشارة إلى كثرته.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أنه يسمى إنسانًا إذا كان مصورًا، وإن لم يكن فيه حياة.

ويدل أنه كان[1] مدة شيئًا غير مذكور، فالفائدة فيه لطفٌ للمكلفين.

ويدل أنه كان شيئًا إلا أنه لم يكن مذكورًا باسم يخصه.

ومتى قيل: هلا قلتم: إنه يكون لطفًا له؟

قلنا: لأن اللطف لا يجوز أن يتقدم على التكليف بأوقات؛ لأنه يصير في حكم المنسيين، وإنما اختلفوا هل يتقدم الفعل أم لا؟، فعند أبي هاشم: يجوز إذا لم يكن في حكم المنسيين، وعند أبي علي: لا يجوز.

ويدل قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا﴾ أنه خلق بني آدم من نطفة، وفيه تنبيه على كمال قدرته بلطيف صنعه، وعلى نعمه على عباده من تصغير نفسهم لكي يتجنبوا الكبر.

ويدل قوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أنه خلقهم للتكليف على ما نقول؛ ولذلك عقبه بذكر إزاحة العلة والهداية.

ويدل قوله: ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾ أنه هدى الكل، ثم هم صاروا إما شاكرين، أو كافرين، بخلاف قول المجبرة.

ومتى قيل: فوجب أن يكون في المكلفين غير هذين؟

قلنا: كذا نقول، فالكافر كفور بنعم ربه، والمؤمن شاكر لربه قولاً واعتقادًا

(١) أنه كان: أنها كانت، غ.

وعملاً، والفاسق شاكر لربه؛ لأنه يعترف بنعمه تعالى كثير الثناء عليه، وإن عصاه في بعض أفعاله، وإنما لم يسم شاكرًا مطلقًا؛ لأن الشاكر من أسماء الدين، وهو بفسقه أحبط ثوابه، فخرج من استحقاق أسماء المدح، وإن سمي بذلك مقيدًا.

ويدل قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ أن المؤمن يكون في الجنة يأكل ويشرب، خلاف قول الباطنية.

قوله تعالى:

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ۝١٠﴾

اللغة

الوفاء: إمضاء العقد على الأمر الذي يدعو إليه العقل والشرع، فكل عقد صحيح يلزم الوفاء به، وإمضاؤه على التمام، وكل عقد فاسد لا يلزمه الوفاء به.

والنذر: عقد إيجاب على نفسه، نَذَرَ يَنْذُرُ نَذْرًا فهو ناذر، ومنه الإنذار: الإعلام بموضع المخافة ليعقد على التحرز منها.

والمستطير: المنتشر لكونه في الجهات، اسطار الصدع في الزجاج، واستطار: إذا امتد.

والأسر: الشد، وأصله الشد بالقيد[1]، ثم يسمى به كل أسير.

والقمطرير: الشديد في الشر، اقْمَطَرَّ اليوم، وازمهر اقمطرارًا، وذلك أشد الأيام وأطوله في البلاء، ويوم قمطرير وقماطر، كأنه قد التف[2] شره بعضه على بعض، قال الشاعر:

بَنِي عَمِّنَا هَلْ تَذْكُرُونَ بَلَاءَنَا ... عَلَيْكُمْ إِذَا مَا كَانَ يَوْمٌ قُمَاطِرُ[3]

---

(١) بالقيد: بالقد، غ.

(٢) التف: التفت، غ. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ١٨٥.

(٣) الصحاح (قمطر)؛ اللسان (قمطر)؛ تاج العروس (قمطر).

وقال الكسائي: اِقْمَطَرَّ اليومُ وازْمَهَرَّ اقمطرارًا وازمهرارًا، وهو الزمهرير والقمطرير.

النزول

إن الآية نزلت في رجل[1] من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا، عن مقاتل، وأبي حمزة الثمالي، وذلك أن مسكينًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: أطعمني، فقال: «ليس عندي ما أطعمك[2]، ولكن اطلب»، فأتى الأنصاري، وهو يتعشى فقال: أتيت النبي ﷺ فقال كذا، فقال الأنصاري لامرأته: ما ترين؟ قالت: أطعمه[3] وأسقيه، ففعل، ثم أتى النبي ﷺ يتيم، وقال: أطعمني، فقال: «ليس عندي ما أطعمك ولكن اطلب»، فأتى الأنصاري فأطعمه، ثم أتى النبي ﷺ أسير، واستطعمه فقال: «ما عندي ما أطعمك، ولكن اطلب»، فأتى الأنصاري فأطعمه، فكان ذلك في ساعة واحدة، ففيه نزلت هذه الآية.

وقيل: بل نزلت في علي، وفاطمة، والحسن، والحسين وجارية لهم تسمى فضة، عن ابن عباس، ومجاهد، وأبي صالح، وذلك في قصة طويلة جملتها[4]:

قالوا: مرض الحسن والحسين، فعادهما جدهما، ووجوه العرب، وقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك نذرًا، فنذر صوم ثلاثة أيام إن شفاهما الله تعالى، فنذرت فاطمة كذلك، وكذلك فضة، فبرئا، فصاموا وليس عندهم شيء، فاستقرض علي من شمعون اليهودي الخيبري ثلاثة أصواع شعيرًا، وروي أنه أخذها لتغزل له فاطمة صوفًا، فجاء به إلى فاطمة فأخذت صاعًا وطحنته واختبزته، وصلى علي المغرب، فقربته إليهم، فأتاهم مسكين يدعو لهم ويسألهم، فأعطوه ولم يذوقوا إلا الماء، فلما كان في اليوم الثاني أخذت صاعًا وطحنته واختبزته وقدمته[5] إلى علي،

---

(١) جاء في هامش غ: قيل: في أبي الدحداح الأنصاري وزوجته.

(٢) جاء في هامش غ: لم يختلف كبار المعتزلة كالأصم والجبائي والقاضي عبد الجبار أنها نزلت في علي (عليه السلام) وأهل بيته عليهم السلام.

(٣) وقدمته وقدمت، غ.

(٤) أطعمك: أطعمة، ع. وما أثبتناه من: الكشف والبيان التعليمي: ١٣/ ٤٥٧. وتفسير القرطبي: ١٩.

(٥) ما ترين: قالت أطعمه: ما تري أطعمه، غ. وما أثبتناه من: الكشف والبيان للثعلبي: ١٣/ ٤٥٧.

وإذا بيتيم بالباب يستطعم، فأعطوه ولم يذوقوا إلا الماء، فلما كان في اليوم الثالث عمدت إلى الباقي وطحنته واختبزته وقدمته إلى علي، وإذا أسير بالباب يستطعم فأطعموه ولم يذوقوا غير الماء ثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الرابع وقد قضوا نذورهم أتا علي ومعه الحسن والحسين إلى النبي ﷺ وبهما ضعف، فبكى رسول الله ﷺ، فنزل جبريل وآتاه: «**هَلْ أَتَى**».

وعن ابن عباس: بينا أهل الجنة في الجنة إذ رأوا ضوءًا كضوء الشمس، فيسألون رضوان عنه، ويقولون: يقول ربنا: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾، فيقول رضوان: ليس هذا شمس ولا قمر ولكن علي وفاطمة ضحكا فأشرقت الجنة من نور ضحكهما.

وقيل:

أنا مولى[1] لفتى ... أنزل فيه هل أتى.

۞ المعنى

ثم بين تعالى صفة الأبرار التي نالت بها هذه المرتبة، فقال سبحانه: «**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ**» قيل: يتمون ما فرض الله عليهم من الواجبات كالصلاة والزكاة والحج ونحوها، عن قتادة. وقيل: إذا نذر طاعة وفّى بها وأتمها، عن مجاهد، وعكرمة. «**وَيَخَافُونَ يَوْمًا**» يعني يوم القيامة يخافون عذابه إن لم يفوا به، وقيل: أراد بالخوف التقوى، أي: يوفي ويتصدق، ويتقي معاصي الله، خوفًا من العذاب «**كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا**» يعني يعم العذاب فيه ويقسو في أوله وآخره على العصاة مع كثرتهم، والمراد بالشر العذاب، ومعنى قوله: «**كَانَ شَرُّهُ**» أي: أنه واجب واقع كائن لا محالة، ويسمى العذاب شرًا؛ لأنه شر على المعاقبين لا خير لهم فيه وإن كان حسنًا في نفسه. «**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ**» اختلفوا في الهاء في قوله: «**عَلَى**[2] **حُبِّهِ**» كناية عن ماذا؟ فقيل: كناية عن الطعام؛ أي: يتصدقون بالطعام مع محبتهم للطعام، ثم اختلف هؤلاء، فقال بعضهم: يطعمون الطعام على شهوتهم له وحبهم إياه، عن ابن عباس،

(١) مولى: لمولى، غ. وما أثبتناه من: تفسير القرطبي: ١٩/ ١٢٣. والكشف والبيان للثعلبي: ١٣/ ٤٦٢.

(٢) على: في، غ.

وقال بعضهم: يطعمون الطعام في حال صحة وشح واحتياج إليه لا عند اليأس من الحياة، وقال بعضهم: على شهوة وجوع، ويؤثرون على أنفسهم. وقال بعضهم: يطعمون من أحب الأشياء إليهم كما روي عن الحسن أنه كان يتصدق بالسكر، ويقول: أنا أحبه، وقيل: الهاء كناية عن الله تعالى، أي: يطعمون الطعام للتقرب إلى الله سبحانه وحب مرضاته لا للرياء والسمعة، قال الداراني: على حب الله. وقيل: الهاء كناية عن إطعام الطعام. وقيل: الهاء كناية عن الفقراء؛ أي: يطعمون الطعام على حب منهم للفقراء لا يرون ذلك مغرمًا. «مِسْكِينًا» قيل: هو الفقير الذي لا شيء له، وهو أسوأ حالاً من الفقير، هكذا قال جماعة من أهل اللغة كيونس، وابن زيد، ويعقوب، وابن دريد، وجماعة من الفقهاء وهم أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم، وجماعة من المفسرين منهم أبو مسلم. وقيل: هو الذي له بُلْغَةٌ من العيش، والفقير أسوأ حالاً منه، وهو قول الشافعي، وابن الأنباري، وأصله من السكون كأنه يسكنه الفقر «وَيَتِيمًا» هو الطفل الذي لا أب له «وَأَسِيرًا» قيل: المأخوذ من أهل الحرب، عن الحسن، وقتادة، وأبي علي، قال قتادة: لقد أمر الله بالأسرى أن يحسن إليهم، وإن أسراهم يومئذ أهل الشرك. وقيل: هم المحبوس من أهل القبلة، عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، قالوا: أخوك المسلم أحق أن تطعمه. وقيل: للملوك من العبيد والإماء؛ لأنهم أسروا من دار الحرب. وقيل: الأسير: المرأة، عن أبي حمزة الثمالي. وقيل: أراد الأسير في أيدي الكفار يعطون في فكاك رقبتهم. «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ» أي: ويقولون مع الإطعام: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ» قيل: لله وطلب رضاه لا رياء وسمعة أو طلب عوض. وقيل: لوجه الله أي: لله وأمره وإيجابه «لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ» على ذلك «جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا» قيل: شكرًا، وجمع الشكر شكورا، كالكفور، وقيل: هو مصدر كالدخول والخروج والقعود، وقيل: أما إنهم ما تكلموا به ولكن علم الله من قلوبهم فأثنى به عليهم ليرغب في ذلك راغب، عن سعيد بن جبير، ومجاهد. وقيل: بل يقولون بلسانهم ذلك لتزول المنة. «إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا» أي: قالوا أو أضمروا: إنا نخاف من ربنا عذاب يوم «عَبُوسًا» أي: تعبس فيه الوجوه، فأضاف إلى الوقت توسعًا، كقولك: يوم صائم وليل قائم، قال ابن عباس: عبس فيه الكافر حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران، وقيل: وصف اليوم بالعبوس لما فيه من الشدة

كالرجل يعبس عند الشدة «قَمْطَرِيرًا» قيل: العبوس الضيق والقمطرير: الطويل، عن ابن عباس، وقيل: العبوس: الذي لا انبساط فيه، والقمطرير: الشديد، عن الكلبي. وقيل: القمطرير: الذي يقبض الوجه وتقبض الجباه وما بين الأعين لشدته، عن قتادة، ومجاهد. وقيل: القمطرير أشد ما يكون من الأيام وأصعبه، عن الأخفش، وعن الحسن: سبحان الله ما أشد اسمه!، وهو من اسمه أشد.

الأحكام

يدل قوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ على أشياء:

منها: عظم موقع الوفاء بالنذر، وأنها من العبادات العظيمة، وعلى وجوب ذلك، والأظهر أنه ما يوجبه المرء على نفسه، وإنما يلزم بالنذر ما يكون فيه قربة، وقد قال النبي ﷺ: «لا نذر لابن آدم في معصية الله»[1].

ومتى قيل: أليس لو نذر صوم يوم النحر أو الفطر أو أيام التشريق فإنه يلزمه عند أبي حنيفة، ولو نذر صلاة في أرض مغصوبة يلزم عند الجميع؟

قلنا: يلزم الصوم والصلاة وهي قربة، فأما في ذلك اليوم أو في مكان المغصوب فلا[2] يلزمه.

ومنها: أن الواجب أن يفعل ذلك وجميع الطاعات لله رغبة ورهبة والخوف مانع للرجاء، فإذا أطاع لوجوبه رجاء لثوابه وخوفًا لعقابه إن تركه استحق الثواب، وليس في الآية أنه يفعل للخوف فقط، ولكن وصفهم بأنهم مع فعل الطاعات يخافون، فليس لقائل أن يقول: إذا فعل الطاعة للخوف لا يوجب الثواب.

وقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ﴾ الآية تدل على أشياء:

منها: أن الإطعام مع الحاجة يكون أعظم في الثواب.

ومنها: أن الأسير من أهل الصدقة، والظاهر أنه الأسير من أهل الحرب في أيدي المسلمين.

---

(١) الترمذي رقم ١٥٢٤.

(٢) فلا: لا؛ غ.

وتدل على جواز التصدق على أهل الذمة، ولا يقال: إنه نسخ بآية السيف؛ لأنه لا تنافي بينهما حتى يحمل على النسخ، وقد أمر النبي ﷺ بإطعام أسارى بني قريظة، وألاّ يقتلوا في حر الهاجرة لئلا يجتمع عليهم حر الشمس، وحر السيف، وأمر بالإحسان إلى أسارى بدر، وكان يدفع الأسير إلى الرجل من المسلمين، ويقول: احبسوه عندكم، وكانوا يطعمونه، فأثنى الله تعالى عليهم بذلك.

ومتى قيل: هل يجوز دفع الزكاة إليهم؟

قلنا: لا بالإجماع، وإنما تجوز صدقة النفل، واختلفوا في صدقة الفطر، فعند أبي حنيفة تجوز، وعند أبي يوسف لا تجوز.

ومنها: أن الإباحة والتمليك في صدقة التطوع سواء، وإنما الزكاة يشترط فيها التمليك.

ومنها: أن الإطعام يجب أن يكون لله، لا للشكر والجزاء.

ومتى قيل: فهل يصح إذا فُعِلَ لهما؟

قلنا: لا يصح، ولكن لا يستحق الثواب، ويحتمل قوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ﴾ على وجوب الخوف من العقاب والتحرز منه.

وتدل على أن أفعال العبد فعلهم من وجوه:

منها: قوله: ﴿يُوفُونَ﴾ ,﴿وَيَخَافُونَ﴾ ,﴿وَيُطْعِمُونَ﴾

قوله تعالى:

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾

۞ القراءة

اختلف القراء في قوله: «**قواريرا قواريرا**» فقرأ بالتنوين فيهما وبالألف في الوقف: أبو جعفر وشيبة ونافع والكسائي[1]، وأبو بكر عن عاصم، والأعمش. وقرأ الأول بالتنوين، والثاني بغير تنوين، ويقف على الأول بألف، وعلى الثاني بغير ألف: ابن كثير وخلف بن هشام. وقرأ بغير تنوين فيهما، وبالوقف في الأولى، وفي الثاني بغير ألف: أبو عمرو وابن عامر، وحفص عن عاصم، قال أبو عبيد: ورأيت في مصحف عثمان الأولى بالألف مثبتة، والثانية كانت بالألف فحكت، ورأيت أثرها بينًا هناك. فمن ترك التنوين فلأن «قوارير» لا ينصرف، ومن نون فلتوافق رؤوس الآي، والألف بدل التنوين، فمن نون في الوصل وقف بالألف.

قراءة العامة: «**ودانية**» بالهاء منصوبة، وإنما أنث لأن الظلال جمع، وقرأ عبد الله: «**ودانيًا**» لتقدم الفعل، وفي حرف أبي: «**ودانٍ**» رفع على الاستئناف[2].

وقراءة العامة: «**قدروها**» بفتح القاف والدال، أي: قدروها السقاة الطائفون عليهم بها لهم ذلك، وعن الشعبي: «**قُدِّرُوها**» بضم القاف وكسر الدال، أي: قدرت عليهم، فلا زيادة ولا نقصان، ولا يجوز القراءة إلا بالشائع المستفيض.

۞ اللغة

الوقاية: الحفظ والمنع من الأذى، وقاه يقيه وقاية، ووقَّاه تَوْقِيَةً، واتقاه اتقاء، وتوقى توقيًا.

والشر: ظهور الضرر، وأصله من الظهور، ومنه: شرر النار؛ لظهورها بتطايرها وانتشارها، وقيل: أصله الضرر القبيح، ثم يستعار في غيره، والأول أوجه.

والنضرة: حسن اللون في نعمة منه، ومنه: نبت نضر، ووجوه ناضرة: مشرقة مسرورة، والنضير: الذهب.

---

(١) حجة القراءات ٧٣٨.

(٢) القرطبي ١٩/ ١٢٤.

والأرائك: جمع أريكة، وهي الحَجَلَة، سرير عليه شبه القبة، قال أبو مسلم: الأرائك: العرش فوق الأَسِرَّة.

والدنو: القرب، ومنه الدنيا.

والقطف: قطع الثمرة.

والتذليل: التسخير والتسهيل، قال أبو مسلم: وهو من الذِّلّ بكسر الذال الذي هو ضد العز، لا من الذُّل بضم الذال، الذي هو صفة الصعوبة. وقيل: هو من هذا، وأصل البابين واحد.

الآنية: جمع إناء، ونظيره: أَخْبِيَة وخباء.

والأكواب: الأباريق التي ليست لها خراطيم، واحدها: كوب.

والزنجبيل: شيء كان يستطيبه العرب، ويذكرونه في أشعارهم، وتمزج به أشربتهم، قال الشاعر:

كَأَنَّ القَرَنْفُلَ وَالزَّنَجبِيلَ ... بَاتَا بِفِيهَا وأَرْيًا مَشُورَا[1]

والسلسبيل: الشراب السهل اللذيذ، يقال: شراب سلسل وسلسال وسلسبيل.

۞ الإعراب

نصب «**دانية**» عطفًا على «**متكئين**»، وقيل: على موضع «**لا يرون**» تقديره: ويرون دانية، وقيل: نصب على المدح.

ونصب «**عينًا**» بنزع الخافضة؛ أي: من عين، وقيل: نعت لكأس، وقيل: هو اسم العين معرفة إلا أنه أجري؛ لأنه رأس آية على ما تقدم.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ ما جزى به الأبرار، فقال سبحانه وتعالى: «**فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ**» أي: منع عنهم[2] عذاب ذلك اليوم «**وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً**» أي: حسنًا في الوجوه «**وَسُرُورًا**»

---

(١) البيت قائله: الأعشى؛ انظر: اللسان (زنجبيل)؛ وديوان الأعشى، ص ٨٠.

(٢) عنهم: منهم، غ.

في القلب، وقيل: لقاهم عند خروجهم من القبور ببشارة الملائكة «وَلَقَّاهُمْ» أي: استقبلهم به وأعطاهم «وَجَزَاهُمْ» أي: كافأهم «بِمَا صَبَرُوا» على طاعاته وعن معصيته «جَنَّةً» يسكنونها «وَحَرِيرًا» أي: ديباجًا يلبسونها ويفرشونها «مُتَّكِئِينَ» أي: جالسون جلوس الملوك «فِيهَا» أي: في الجنة «عَلَى الْأَرَائِكِ» أي: الحجال فيها الأسرة، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وقيل: كل ما يتكأ عليه فهو أريكة، عن الزجاج. وقيل: الفرش فوق الأسرة، عن أبي مسلم. «لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا» قيل: لا حرًّا ولا بردًا. والزمهرير: البرد الشديد، عن مجاهد. «وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ» أي: قريبة عليهم «ظِلَالُهَا» أي: ظلال أشجارها، وقيل: ظلال الجنة، لا تنسخها الشمس كظلال الدنيا «وَذُلِّلَتْ» سخرت وسهلت «قُطُوفُهَا» أخذ ثمارها «تَذْلِيلًا» تسخيرًا. قيل: إن قام ارتفعت[(1)] بقدره، وإن قعد نزلت بقدره حتى تنالها يده، وإن اضطجع تدلت حتى ينالها، عن مجاهد. «وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ» أي: يدار «بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ» قيل: إناء فيه شراب من غير عروة. وقيل: الأقداح، عن مجاهد. «كَانَتْ» يعني الإناء والأقداح «قَوَارِيرَ» زجاج «قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ» وقيل: ببياض الفضة في صفاء القوارير، فصفاؤها صفاء الزجاج، وهي من فضة، عن ابن عباس. وقيل: إنه تعالى جعل قوارير كل قوم من ترابهم، وتراب الجنة من فضة، فجعل منها قوارير، عن الكلبي. «قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا» يعني أن الخدم يعرفون قدر حاجاتهم، وقدر شهوتهم، فيقدرون ذلك بما لا يزيد، ولا ينقص. وقيل: على قدر ملء الكف، عن الربيع، والقرظي. وقيل: قدرت الأواني على شكل في نهاية الحسن لم يعهد مثلها من القوارير. وقيل: قدروها على صفات فجاءت كما قدرت منية المتمني. وقيل: قدر ربهم، عن الحسن. «وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا» اسم القدح مملوءًا كأسًا «كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا» إنما ذكر الزنجبيل على عادات العرب إذا استطابوا شيئًا وصفوه بالزنجبيل على ما ذكرنا «عَيْنًا [فِيهَا]» أي: من عين «تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا» أي: توصف بذلك. قيل: سلسة منقادة لهم يصرفونها حيث شاؤوا، عن قتادة. وقيل: شديدة الجرية، عن مجاهد. وقيل: طيبة الطعم والمذاق. وقيل:

(1) ارتفعت: أو تقعد، غ. والصواب ما أثبتناه من: تفسير الطبري ١٢/ ٣٦٤، والدر المنثور ٨/ ٣٧٤.

سميت سلسبيلاً؛ لأنها تسيل في الطرق، وفي منازلهم، تنبع من أصل العرش من جنة عدن، عن أبي العالية، ومقاتل. وقيل: هو اسم العين. وقيل: يسقون أشربة مختلفة منها ماء يمزج بالكافور. ومنها: ماء يمزج بالزنجبيل، وهو إذا مزج بالشراب فاق في الالتذاذ، وكل ذلك أنموذجات، وشراب الجنة خير من جميع ذلك، ولهم أشربة سوى ذلك، الله أعلم بحسنها وطيبها.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: أن المؤمن لا يناله يوم القيامة حزن ولا هول، خلاف ما يقوله بعضهم؛ لذلك قال: ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ الآية.

ومنها: أن الثواب مستحق على العمل، خلاف قول المجبرة.

ومنها: ما وصف من مساكنهم ولباسهم وشرابهم.

ومنها: أن الصبر مما يستحق به الثواب، بل كل الثواب عليه؛ لأنه صبر على الطاعة وعن المعصية، ويتضمن الرضا على ما يصيبه من البلايا من جهته تعالى.

ومنها: أن في الجنة راحة متكاملة، لا يؤذيهم حرٌّ ولا برد.

ومنها: أن ثمارها دانية، وكل ذلك ترغيب وترهيب.

قوله تعالى:

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا
كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾
فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ
فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر وحمزة ونافع: «**عاليهم**» بسكون الياء[1]، وهو قراءة مجاهد، وقتادة، وابن سيرين، والأعمش، وأبي عبيد على أنه اسم موصوف بالفعل، تقول: علاهم، فهو عاليهم. وقرأ الباقون بنصب الياء على الصفة أي: فوقهم، وهو نصب على الظرف، كقوله: فوقهم، عن الفراء، وأنكر هذا القول الزجاج. وقال: إنما نصب على الحال من الضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ، ويجوز أن يكون في ضمير الولدان في «**رأيتهم**» كقوله: ﴿هَدْيًا بَالِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥].

قوله: ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب ﴿خُضْرٌ﴾ بالرفع نعتًا للثياب، ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ كسرًا، عطف على السندس، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم[2].

وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم: «**خضر**» بالكسر نعتًا للسندس، «**وإستبرق**» بالرفع عطفًا أو نعتًا، عطفًا على الثياب، ونعتًا له[3].

وقرأ نافع وحفص عن عاصم كلاهما بالرفع نعتًا للثياب.

وقرأ حمزة والكسائي ويحيى والأعمش بالكسر فيهما نعتًا للسندس.

۞ اللغة

الطوف: الدور طاف يطوف طوفًا، وأطاف به إطافة، وتطوَّف تطوفًا.

والولدان: جمع وليد، وهم الغلمان.

والخلد: البقاء، يقال: خلد إذا بقي، وأخلد: أقام، وخَلَدَ أيضًا، ومنه: جنة الخلد، والخلد: البال. والخِلَدَةُ: القرط.

(١) حجة القراءات ٧٣٩.
(٢) حجة القراءات ٧٤٠.
(٣) حجة القراءات ٧٤٠.

والسندس: الديباج الرقيق الفاخر الحسن، وهو «فعلل» نحو: ثرثر.

والإستبرق: الديباج الغليظ.

والأساور: جمع سوار، وهي حِلْيَةٌ لليد.

۞ الإعراب

قيل: في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أن المفعول محذوف، تقديره: وإذا رأيت الأشياء ثَمَّ، و«ثَمَّ» نصب على الظرف، وقيل: (ثم) المراد به الجنة، يعني: إذا رأيت الجنة.

و(إستبرق): منصرف، ومن ترك صرفه على ما يحكى عن ابن محيصن فقد غلط؛ لأن الأعجمي إذا عرب في حال تنكيره انصرف.

وقوله: «أو كفورًا» (أو) بمعنى الواو، أي: ولا كفورا.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ في أبي جهل، وذلك لما فرضت الصلاة بمكة نهاه أبو جهل، وقال: لئن رأيت محمدًا يصلي لأطأن على عنقه. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا﴾ ، عن قتادة.

وقيل: نزلت في عتبة بن ربيعة، قال للنبي ﷺ: ارجع عن هذا الأمر لأزوجك بنتي، وأسوقها إليك بغير مهر، عن مقاتل.

وقيل: نزل قوله: ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ في الوليد بن المغيرة، قال للنبي ﷺ: ارجع عن هذا الأمر أعطك[1] من المال حتى ترضى. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

وقيل: اجتمع عند النبي ﷺ عتبة والوليد، وقالا: إن كنت تطلب رئاسة سودناك، وإن كنت تطلب مالاً أغنيناك، وإن كنت تطلب امرأة زوجناك، فقرأ النبي ﷺ (حم السجدة) حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾

(١) أعطك: أعطيك، غ.

[فصلت:١٣] فقاما يقول أحدهما لصاحبه: ظننت أن الكعبة ستقع علينا، فنزل قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ الآية.

المعنى

ثم وصف تعالى نعيم الجنة، فقال سبحانه: «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ» أي: يدور عليهم بالخدمة غلمان، وقيل: بما يحتاجون إليه من الطعام والشراب، عن أبي علي. «مُخَلَّدُونَ» أي: باقون دائمون لا يموتون، عن قتادة، وقيل: خلدوا على هيئة الوصفاء لا يشيبون أبدًا، عن الحسن. وقيل: مخلدون: مسودون بلغة حمير، قال شاعرهم:

ومخلَّداتٌ باللُّجَيْنِ[1] كأنَّما … أَعْجَازُهُنَّ أَقَاوِزُ الْكُثْبَانِ

وقيل: مخلدون مقرطَون، والخلد: القرط، قال أبو مسلم: وليس في هذا كبير[2] فضل لولدان الجنة على ولدان الدنيا يوجب حمله على البقاء «إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثُورًا» قيل: كاللؤلؤ المنثور في حسنهم، عن قتادة. وقيل: كاللؤلؤ في الصفاء وحسن المنظر، ويعني «منثورًا» أي: متفرقون في الخدمة لتتم بهم النعمة، وقيل: اللؤلؤ إذا نثر وقع ضوء كل واحد على صاحبه فيكون شعاعه أزيد وحسنه أتم «وَإِذَا رَأَيْتَ» قيل: الخطاب للنبي ﷺ والملك يحصل له. وقيل: بل لكل مكلف، تقديره: إذا رأيت أيها الإنسان أو أيها السامع. وروي أن أسود قال: يا رسول الله إذا دخلت الجنة أترى عيناي ما ترى عيناك؟ قال: «نعم» فما زال يبكي حتى مات «ثَمَّ» قيل: هذه النعم ثَمَّ، وقيل: إذا رأيت الجنة «رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا» عظيمًا قيل: هو الملك الدائم الأبدي، ونفاذ الأمر، وحصول الأماني. وقيل: الملك الكبير، إن أدناهم منزلة ينظر في ملكه من مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه، وقيل: هو استئذان الملائكة عليهم، عن سفيان. وقيل: مُلْكٌ لا يعقبه هلك، بخلاف ملك الدنيا. وقيل: هو أنه إذا أراد شيئًا كان «عَالِيَهُمْ» قيل: وعليهم أي: على أهل الجنة،

---

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٢٠٨، واللسان: (خلد، قوز). تاج العروس (خلد).

(٢) كبير: كثير؛ غ.

وهم أهل الثواب يحلون بالديباج والحلي، وقيل: بل الغلمان يحلون بذلك، فينعم على أهل الجنة بهم وعليهم الحلي والثياب الفاخرة كمن يهب لغيره غلامًا وعليه ثياب فاخرة «ثِيَابُ سُندُسٍ [خُضْرٌ] وَإِسْتَبْرَقٌ» قيل: ثياب ديباج من ألوان مختلفة رقيق وغليظ، والإستبرق له غلظ الصفاقة، لا غلظ السلك، كغلظ الديبقي، وإن كان رقيق السلك، وإنما وصفه بالخضرة؛ لأنها أنضر[1] الألوان وأحسنها «وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ» قيل: تارة يحلون بالذهب، وتارة يحلون بالفضة ليجمع المحاسن، وقيل: يجمع بينهما، وقيل: يحسن في الجنة أطراف الرجال وألوانهم حتى تحسن عليهم الحلي والديباج. وقيل: عادة الدنيا إذا رضي من عبده في فعل أمر به أن يطرفه ويسوره، ويخلع عليه الثياب الفاخرة، وكذلك الملوك يفعلون ذلك، فوعدهم في الجنة ما عرفوه في الدنيا، عن أبي مسلم. «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا» يعني طاهرًا لا يخالطه نجس، ولا يعتوره فساد، ولا دنسه شيء، بخلاف أشربة الدنيا، قد طهره الله في الجنة لتخلص به اللذة. وقيل: طهورًا لا ينقلب إلى البول؛ بل يفيض من أعراقهم كريح المسك، عن أبي قلابة، وإبراهيم التيمي. وقيل: يطهرهم من الذنوب والأنجاس وترشحهم الجنة. واختلفوا في هذه الإضافة وسقيهم. قيل: سقاهم الملائكة بأمره. وقيل: سقاهم ربهم بغير واسطة بأن خلق لهم ذلك وأعطاهم وجعله سقياهم «إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً» قيل: ما تقدم من النعم كان لكم مكافأة على أعمالكم الحسنة وطاعاتكم لله تعالى «وَكَانَ سَعْيُكُمْ» أعمالكم وطاعاتكم «مَشْكُورًا» أي: مقبولاً مرضيًّا، فجازاكم بها على ما استحققتموه بأعمالكم. وقيل: الشكر فعل حسن في مقابلة مثله، فجعل الله تعالى إثابته إياه على طاعته شكرًا له توسعًا ومجازًا.

ثم بَيَّنَ تعالى أن جميع ما تقدم من الوعد وعده هو أنزله، فقال سبحانه: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا» قيل: أنزل آية بعد آية، ولم ينزله جملة، عن ابن عباس. وقيل: تنزيلاً مصدر ذكره تأكيدًا، عن أبي علي. «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ» تثبيت لقلبه، وشرح لصدره، وأمره بالصبر وإن كُذِّب فيما أتى به، ووعيد لمن كذبه،

---

(١) أنضر: نضر، غ.

أي: اصبر لحكم ربك، يعني اصبر بما يحكم الله لك من النصر على أعدائك، وقيل: حكم الله أن تبلغ الكتاب وتعمل به، وتتحمل المشقة في أداء ما كلفت. وقيل: اصبر وانتظر حكم الله فيك وفيهم حتى يحكم بينكم «**وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا**» قيل: آثمًا ولا كفورًا، والألف صلة، عن الفراء، وقيل: (أو) دخل للتأكيد؛ لأنه لو قال: آثمًا وكفورًا فلو أطاع أحدهما كان يجوز أن يظن أنه لم يدخل تحت النهي، وإذا أدخل (أو) فأيها أطاع دخل تحت النهي، عن الزجاج. والآثم: الذي يفعل الإثم. والكفور: الجحود. قيل: الآثم أبو جهل، والكفور: الوليد بن المغيرة. وقيل: هو عام في كل كافر. وقوله: «**مِنْهُمْ**» قيل: من مشركي مكة. وقيل: من الكفار. وقيل: من الناس. وقيل: أراد النهي عن مقاربة الكفار، أي كافر كان. وقيل: أراد لا تطع فاسقًا ولا كافرًا، فالآثم: الفاسق، والكفور: الكافر. يعني: لا تطع من يدعوك إلى إثم أو كُفر[1]، وهذا أولى لزيادة الفائدة، وعدم التكرير. «**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ**» أي: أقبل على شأنك من ذكر الله والدعاء إليه وتبليغ الرسالة ولا تطعهم، ولا تلتفت إليهم، فإن الله ناصرك ومعينك فالزم ذكره وطاعته «**بُكْرَةً وَأَصِيلاً**» قيل: صباحًا ومساء، وقيل: دائمًا. وقيل: أراد صلاة النهار والفجر والظهر والعصر. وقيل: هو أمر بدوام الذكر على عادة الناس، يقولون: افعل ذلك صباحًا ومساء، يعني دائمًا، عن أبي مسلم. وبكرة: أول النهار، والأصيل: آخره. «**وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ**» يعني صَلِّ صلاة الليل، وهو المغرب والعشاء. وقيل: أراد صلاة الليل، وكانت واجبة. وقيل: أراد التطوع، عن أبي علي. وقيل: أراد الخضوع وأن يعبده ليلاً أو نهارًا، ولا يغفل عن تسبيحه وتنزيهه شيئا. «**وَسَبِّحْهُ**»: أي: نزهه عما لا يليق به «**لَيْلاً طَوِيلاً**» قيل: طول الليل، ويكون الطويل صفة الليل. وقيل: سبحه كثيرًا في الليل، ويكون الطويل من صفة التسبيح.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: أن من مات قبل التكليف فهم خدم الجنة، وهم الولدان، وهم أطفال المشركين.

---

(١) أو كفر: أو كفور، غ. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ٢٠٠.

فأما أطفال أهل الجنة فإنهم يجمعون مع آبائهم، ولا يجوز أن يكونوا خدمًا لما يلحق الآباء من ذلك من المعرة.

ومنها: أن خدم أهل الجنة ولدان حسان؛ لذلك شبهوا باللؤلؤ.

ومنها: عظم حال الثواب ونعيم الجنة؛ لذلك قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾.

ومنها: أن الثواب يستحق على الأعمال؛ لذلك قال: ﴿وَجَزَىٰهُم﴾.

ومنها: أنه لا تجوز طاعة الكفار والفساق، وكل من أمر بخلاف أمر الله تعالى، ولهذا قال ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1].

ومنها: حسن الصبر ووجوبه، وعظم حاله من الدين.

ومنها: وجوب الذكر.

ومنها: أن التسبيح والتنزيه فِعْلُ العبد.

ومنها: وجوب ذكر الله وأنه فعل العبد.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾

القراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: «**وما يشاءون**» بالياء. الباقون بالتاء[2].

قراءة العامة: «**والظالمين**» بالياء ونصب؛ لأنه معطوف على جملة مبنية على الفعل، وتقديره: وعاقب الظالمين بإعداد العذاب الأليم إلا أن تفسيره يغني عن

---

(١) أحمد رقم ١٠٩٥، والمعجم الكبير ٣٨١.

(٢) حجة القراءات ٧٤١.

إظهاره. وكذلك كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ [يس: ٣٩] أي: قدرنا القمر، قال الشاعر:

وَالـذِّئْـبَ أَخْـشَـاهُ إِنْ خَـلَـوْتُ بِـهِ   وَحْـدِي وَأَخْـشَـى الـرِّيَـاحَ والْـمَـطَـرَا[١]

أي: أخشى الذئب.

وقرأ أبان بن عثمان: «**والظالمون**» على الابتداء[٢].

۞ اللغة

الأسر: أصله الشد، وتعلق الشيء بعضه ببعض، ومنه قتب[٣] مأسور، أي: مشدود، ومنه: الأسير؛ لأنهم كانوا يشدونه بالقيد. وقولهم: خذ بأسره؛ أي: بِشَدِّه قبل أن يحل، ثم كثر حتى صار بمعنى: خذ جميعه، قال الأخطل:

مِـنْ كُـلِّ مُـجْـتَـنَـبٍ شـديـدٍ أَسْـرُهُ   سَـلِـسِ الـقِـيـاد تـخـالُـهُ مُـخْـتَـالاَ[٤]

والتذكرة: دلالة يحضر بها المعنى للنفس، وأصله من الذكر، والتذكرة تكون اسمًا وتكون مصدرًا وهو الغالب عليه، يقال: ذكرت تذكرة، نحو: قدمت تقدمة، وكرمت تكرمة.

۞ المعنى

ولما نهى عن طاعة الآثم والكفور بَيَّنَ العلة، فقال سبحانه: «**إِنَّ هَٰؤُلَاءِ**» يعني الكفار «**يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ**» أي: الدنيا، وعاجل لذاتها «**وَيَذَرُونَ**» يتركون الآخرة «**وَرَاءَهُمْ**»

(١) البيت قائله: الربيع بن ضبيع الفزاري الذبياني، والبيت ورد برواية أخرى:

والـذئـب أخـشـاه إن مـررت بـه.

اللسان (ضمن).

(٢) القرطبي ١٩/ ١٣٥.

(٣) قتب: قعب، غ. وما أثبتناه من: التبيان في تفسير القرآن للطوسي: ١٠/ ٢١٣. وتفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ١٩٩.

(٤) البيت قائله: الأخطل في قصيدة مطلعها:

كـذبـت عـيـنـيـك أم رأيـت بـواسـط   غـلـس الـظـلام مـن الـربـاب خـيـالا

انظر: ديوان الأخطل، ٢٤٦.

قيل: خلف ظهورهم العمل للآخرة. وقيل: وراءهم أمامهم للآخرة، وكلاهما يحتمل، والأول أظهر «**يَوْمًا**» أي: يوم القيامة «**ثَقِيلًا**» على أهل العذاب «**نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ**» قيل: خلقهم، عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، ومقاتل، من قولهم: أسر هذا الرجل فأحسن أسره، أي: خلق فأحسن خلقه، أي: شد بعضه إلى بعض أحسن الشد. وقيل: الأسر المفاصل، عن أبي هريرة. وقيل: أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب، عن الحسن. وقيل: شد بعضها إلى بعض، ولولا إحكامه على هذا الترتيب لكان تتزايل وما أمكن العمل بها ولا[1] الانتفاع، عن الربيع. وقيل: الأسر القوة، عن ابن زيد، أي: تبعناهم حال القوة. وقيل: شددنا أسرهم أي: جعلناهم أقوياء، عن أبي علي. وقيل: كلفناهم فشددناهم بالأمر والنهي، كما يشد الأسير كيلا يهرب، كذلك المكلف شددنا بالأمر والنهي كيلا يجاوز حد الله «**وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا**» يعني ليس تبقيتهم على كفرهم لعجز أو حاجة إليهم؛ إذ لو أراد تعالى تبديلهم بغيرهم ممن كان أطوع لقدر، ولكن يبقيهم إتمامًا للحجة. وقيل: أراد تبديل القوة بالضعف والنعمة بالزوال، أي: لو أردنا ذلك فعلناه فلا تغتروا «**إِنَّ هَذِهِ**» قيل الرسالة التي تبلغها، وقيل: هذه السورة، عن قتادة. وقيل: الجنة وما وصف من أحوالها «**تَذْكِرَةٌ**» أي: عظة ليتذكر بها أمر الآخرة «**فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا**» أي: أزحنا العلة بالقدرة والآلة، فمن شاء سلك الطريق المؤدي إلى رضا ربه وكرامته. وقيل: طريقًا إلى رضا ربه بالطاعة والانتهاء عن المعصية، عن قتادة. «**وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**» قيل: لا تشاءون الطاعة والانقياد واتخاذ الطريق إلى مرضاته إلا وقد شاء الله من قبل حين أمر به، ووعد عليه، ونهى عن تركه، وأوعد عليه، عن أبي علي. وقيل: أنتم لا تشاؤون ذلك اختيارًا إلا أن يشاء الله أن يجبركم عليه، ويضطركم إليه فحينئذ تشاؤون، ولكن لا ينفعكم ذلك، والتكليف زائل والأمر والنهي ساقط، ولم يشأ الله تعالى هذه المشيئة، وإنما أراد أن يختار الإيمان ليستحقوا الثواب، عن أبي مسلم. «**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**» أي: عليم بأنهم لا يؤمنون، ولو أرادوا لآمنوا، الحكيم في تكليفهم لم يكلفهم شططًا، ولا شيئًا لا يقدرون عليه. وقيل: وما

(١) ولا: ولولا، غ.

تشاؤون يعني المنة لله عليكم لو شئتم الطاعة لا لكم؛ حيث شاءها لكم عند التكليف، وإزاحة العلة والتمكين، ودل عليه وأرشد إليه؛ لأنه عليم بالمصالح، حكيم فيمن كلفه، وفيمن لم يكلفه. وقيل: معناه: ولا يشاء ثواب الكافر إذا لم يسلم، وإن أراد الكافر، فذلك تَشَهٍّ، وأن من يشاء الجنة بغير عمل فالله لا يشاء ذلك ولا يعطيه إلا أن يشاء القديم أن يعطيه مجانًا، وهذا كمن يشاء من القصاب لحمًا بغير دراهم، فيقول له: لست تشاء اللحم حيث تطلبه مجانًا إلا أن أشاء فأعطيك بغير ثمن، وليس إلى ذلك سبيل، وهذا قول أحمد بن مضاء «**يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ**» أي: لا يجبر على طاعته، يخير ويكلف حتى يظهر المستحق للثواب من غيره، فيعطى كل أحد على قدر الاستحقاق، فحينئذ يدخل من يشاء في رحمته أي: جنته وهم المؤمنون «**وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**» وجيعًا، وأراد بقوله: «**مَن يَشَاءُ**» من يستحق.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: قبح قضاء النفس على حب الدنيا.

ومنها: وجوب التفكر في يوم القيامة، والاستعداد لذلك الموقف، وقبح خلافه.

ومنها: أنه يبقي الكافر لمصلحة.

ومنها: أن القرآن حجة وتذكرة يجب النظر فيه.

ومنها: قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ﴾ دلالة على أن العبد مزاح العلة فيما أمر، وإنما أُتِيَ من قِبَلِ نفسه فيما أوبقها.

ومنها: أن كل ظالم من أهل العذاب، بخلاف قول المرجئة؛ لأن اسم الظالم يقع على كل عاص، يرتكب الكبيرة.

ومنها: أن الظلم فعل العبد.

سُورَةُ المُرسَلَات

سورة (والمرسلات)، وهي مكية، خمسون آية.

وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة **(والمرسلات)** كتب أنه ليس من المشركين».

وروى الأسود عن ابن مسعود قال: (نزلت سورة **(والمرسلات)** على النبي ﷺ ليلة الجن ونحن نسير).

ولما ختم سورة **(هل أتى)** بذكر القيامة وما أعد للظالمين، افتتح هذه السورة بمثل ذلك، وأكد كونه بالقسم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾

القراءة

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «**عُذْرًا أو نُذْرًا**» ساكنة الذال فيهما، وهو قراءة الأعمش واختيار أبي عبيد، قال: لأنهما في موضع مصدرين إنما

هما الإعذار والإنذار، وليسا بجمع، وقرأ الحسن وهي رواية عن أبي بكر عن عاصم ورواية عن ابن عامر[(١)] بضم الذال فيهما[(٢)].

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب: «**عذرًا**» ساكنة الذال، «**نذرًا**» مضمومة الذال، وهما لغتان.

قراءة العامة: «**أو نذرًا**» بإثبات الألف، وقرأ إبراهيم التيمي: «**عُذْرًا ونُذْرًا**» بغير ألف بينهما.

اللغة

العُرْفُ: أصله من المعروف، والمعروف: ما عرف صحته بالعقل أو الشرع، والمنكر: ما أنكره العقل أو الشرع.

والعُصُوفُ: شدة هبوب الريح، عصفت الريح تَعْصِفُ عصفًا وعصوفًا: إذا اشتد هبوبها.

والنشر: خلاف الطي، والناشرات: جاعلات النشر، وهو الانبساط.

والفرق: الفصل بين الشيئين، ومنه الفراق، وسمي عُمَرُ فاروقًا؛ لأنه فرق بين الحق والباطل والظالم والمظلوم، وسحاب فارق: مثقل بماء المطر، قال الأعشى يصف ثورًا في ذكر السحاب الفارق:

أَخْرَجَتْهُ قَهْبَاءُ مُسْبِلَةُ الوَدْقِ ... رَجُوسٌ أمامها فُرَّاقُ[(٣)]

ويقال: ناقة فارق، إذا ذهبت في الأرض من وجع المخاض، فتنتج حيث لا يعلم [مكانها][(٤)]، والجمع: فوارق وفُرَّقٌ، وشبه السحاب ينفرد عن السحاب بهذه الناقة، فيقال: فارق.

---

(١) ابن: أبي؛ غ.

(٢) حجة القراءات ٧٤٢.

(٣) اللسان (فرق).

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من: مقاييس اللغة: ٤/ ٣٩٣.

والإيقاع: إيقاع الشيء على غيره، فالذِّكْرُ ملقى بالبيان.

والعذر: إزالة العتب عن النفس، ومنه: عذر المذنب.

والإنذار: الإعلام بموضع المخافة ليتقى.

الإعراب

«**والمرسلات**» محله جر؛ لأنه قسم، تقديره: ورب المرسلات، والواو واو القسم، والقسم من الله تعالى إنما يكون بشيء فيه نعمة موجبة للشكر، أو قدرة توجب التفكر فيه العلم بحال صانعه، أو عقوبة توجب الاعتبار بمثلها، والانتهاء عن سببها. وجواب القسم: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾.

و(**ما**) في قوله﴿إِنَّمَا﴾ (ما) الكافة تَكُفُّ عن العمل.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ يجوز فيهما النصب لوجهين:

أحدهما: أنه مفعول له؛ أي: للإعذار والإنذار.

والثاني: أنه مفعول به؛ أي: ذكر للعذر والنذر.

المعنى

«**وَالْمُرْسَلَاتِ**» قيل: الرياح، عن ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وأبي صالح، وأبي علي، وأبي مسلم. «**عُرْفًا**» متتابعة الهبوب، تبع بعضها بعضًا كعرف الفرس، عن الأصم، وقيل: عرفًا كثيرًا، وقيل: عرفًا أي: متوسطًا بين العاصف والرخاء، وقيل: المرسلات: الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه، عن ابن مسعود بخلاف، وقيل: (**المرسلات عرفًا**): الأنبياء جاءت بالمعروف «**فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا**» يعني الرياح الشديدة الهبوب «**وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا**» قيل: هي الرياح، عن ابن مسعود، ومجاهد، وقتادة؛ لأنها تنشر السحاب للغيث كما يلحقه المطر، وقيل: تنشر السحاب؛ أي: تبسطه، عن أبي مسلم، وقيل: الرياح اللينة، وقيل: هي الأمطار، عن أبي صالح؛ لأنها تنشر النبات، وقيل: الرياح يرسله الله بُشْرى بين يدي

رحمته، عن الحسن، وقيل: لأنها تنشر في الهواء، عن أبي علي، وقيل: الملائكة تنشر الكتب، عن مقاتل. «**فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا**» قيل: الملائكة تفرق بين الحق والباطل، عن ابن عباس، وأبي صالح، ومجاهد، والضحاك، وأبي علي، وقيل: آيات القرآن، عن الحسن، وقتادة، والأصم، فرقت بين الحلال والحرام، والهدى والضلال، وقيل: الرياح تفرق بين السحاب، وقيل: بين الحق والباطل بأن تهلك أهل الباطل، وتنجي المؤمن كما شوهد يوم الخندق، وقيل: السحابات الماطرة المثقلة بماء المطر، تشبيهًا بالناقة الفارق، على ما تقدم، عن أبي مسلم، وقيل: هي الرياح الفارقة، مرَّة تجري بسهولة، ومرة تجري بعصوف، وهي وقت تنشر السحاب، وفي وقت تأتي بالعذاب، كذلك الفرق، وهي فصل الحكم من الله تعالى، وإضافة الفعل إلى الريح تَوَسُّعٌ؛ لأنه سببه، عن أبي مسلم، فالأول أولى. «**فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا**» قيل: الملائكة، عن ابن عباس، وقتادة، وأبي علي، تلقي الذكر إلى الأنبياء، والأنبياء تلقيه إلى الأمم، والعلماء تلقيه إلى المتعلمين، وإلقاؤه بأن تنزله وتفهمه، وقيل: هي الرياح تلقي الذكر والوعظ إذا هبت في الحر، وإذا حملت السحاب، وإذا أهلكت، فتوجب الشكر على إحسانه، والحذر عن مثل ما حل بالمهلكين، عن أبي مسلم، فحمل أبو مسلم الخمسة على الرياح، وأبو علي الثلاثة الأولى على السحاب، والرابعة والخامسة: (الفارقات، والملقيات) على الملائكة، وهو اختيار قاضي القضاة، وبعضهم حمل الجميع على الملائكة، وبعضهم اختلفوا فيه، وبعضهم حمل كل واحد على شيء آخر، قالوا: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ①﴾ الأنبياء، و(**العاصفات**): الرياح، و(**الناشرات**): الأمطار نشرت النبات، و(**الفارقات**): آي القرآن، و(**الملقيات ذكرًا**): الملائكة تلقي كتب الله إلى الأنبياء، وهذا أولى لتكثير الفوائد، والتنبيه على الأدلة والنعم الموجبة للشكر. «**عُذْرًا أَوْ نُذْرًا**» قيل: ما يلقون عذرًا أو نذرًا، وقيل: إعذارًا وإنذارًا، وقيل: الإعذار والإنذار؛ لأنه بالبيان الشافي مزيح للعلة متناهٍ في الإعذار، ولما فيه من الوعيد يكون متناهيًا في الإنذار «**إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ**» يعني ما توعدون من أمر القيامة والبعث والحساب والجزاء لواقع؛ أي: كائن لا محالة.

الأحكام

تدل الآيات على القسم، وقيل: القسم برب هذه الأشياء، عن أبي علي، وقيل: بل بهذه الأشياء تنبيهًا على عظيم موقعها.

وتدل على عظم موقع الرياح والسحاب؛ لما فيهما من القدرة والنعمة، وكذلك الأمطار، وإنما أقسم بها تنبيهًا على ما فيها، وحثًّا على النظر.

وتدل على أن القيامة كائن لا محالة.

قوله تعالى:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾

القراءة

قرأ أبو عمرو ويعقوب: «وُقِّتَتْ» بالواو وتشديد القاف على الأصل؛ لأنه من التوقيت، وأصله الوقت[1].

الباقون: «أقتت» بالألف وتشديد القاف، وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد، على قلب الواو همزة للتخفيف، وكراهية الابتداء بالواو المضمومة، والعرب تعاقب بين الواو والهمزة، يقال: وكدت وأكدت، وأَرخْت الكتاب، وورَّخت، ووِشَاح وأشَاح، ووِكاف وأكاف، ووِسادة وإسادة[2].

وقرأ أبو جعفر بالواو والتخفيف، وقرأ عيسى بن عمر بالهمزة والتخفيف.

اللغة

الطمس: محو الأثر على الشيء، والطمس على النجوم كالطمس على الكتاب؛ لأنه يذهب نورها والعلامات التي كانت تعرف بها، وأصله: استئصال أثر الشيء،

---

(١) حجة القراءات ٧٤٢.

(٢) ووسادة وأسادة: ووساد وإساد، غ. وما أثبتناه من: الكشف والبيان الثعلبي: ١٣/ ٤٧٣.

يقال: طَمَسَ الأثر وطُمِسَ: إذا انمحى، وطمس الله بصره فهو مطموس البصر: إذا ذهب أثر العين، وطمست الريح آثار القوم.

والفروج: الشقوق، ومنه: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

والنَّسْفُ: قلع الشيء من أصله، نسف البعير النبت: قلعه بقوة من أصله، ونسفت البناء: قلعته، وانتسفت الريح الشيء كأنها تسلبه.

والتوقيت: تقدير الوقت لوقوع الفعل، فلما كانت الرسل [قد][1] قدر إرسالها لأوقات معلومة بحسب صلاح العباد، كانت قد وقتت لتلك الأوقات، وَقَّتَ يُوَقِّتُ توقيتًا.

والتأجيل: التأخير إلى أجل، والأجل: الوقت.

والفصل: الحكم؛ لأنه يفصل الأمر أي: يقطعه، ومنه الفصيل: ولد الناقة: إذا انفصل من أمه، والمفاصل: مفاصل العظام للفصل بينها.

«ويل»: كلمة وعيد. و«طوبى» كلمة عظيمة. «ويح»: كلمة رحمة. «ويس»، «ويب»: كلمة تحقير. قال سيبويه: «ويح»: زجر لمن أشرف على الهلكة، «ويل»: لمن وقع في الهلكة، والويل: الحزن، وتَوَيَّلَ الرجل: دعا بالويل. وقيل: الويل: العذاب، فإذا دخل فيه حرف النداء فقال: يا ويلتا، فكأنه يناديه، ويقول: يا أيها الويل، هذا حينك، كما يقال: يا عجبَى، أي: يا أيها العجب، هذا حينك. قال الفراء: وأصله في [الويل: (أوي)][2] أي: حزن، وصلته العرب باللام، وقدروا أنها منه، فعربوها.

الإعراب

قوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ يقتضي جوابًا؛ لأن (إذا) شرط مؤقت، ولا بد من جواب إما قبل أو بعد، وكذلك قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝١٤﴾ يقتضي جوابًا كقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾ [القارعة: ١٠، ١١] وجوابه قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ كأنه قيل: يلحق ذلك اليومَ الويلُ بالمكذبين.

---

(١) قد: زيادة من التبيان في تفسير القرآن للطوسي: ١٠/ ٢١٧.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من: تفسير القرطبي: ٢/ ١١.

۞ المعنى

لما تقدم وقوع القيامة بَيَّنَ آثارها، فقال سبحانه: «**فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ**» أي: في نورها وأزيل ضوؤها «**وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ**» شُقَّتْ وصُدِّعَتْ، فصار فيها فروج «**وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ**» قيل: قلعت من أماكنها، وقيل: نسفها إذهابها بسرعة حتى لا يبقى لها أثر في الأرض، وقيل: دكها وتذريتها، ثم تذريها الرياح «**وَإِذَا الرُّسُلُ وُقِّتَتْ**» أي: جمعت فأحضرت للوقت الذي كان الله وعد إحضارهم وجمعهم فيها، شهداء على الناس، عن إبراهيم، ومجاهد، وابن زيد، وقيل: عرفت وقت ثوابها؛ لأنهم لا يعرفون ذلك في الدنيا، وقيل: أجلت لوقت ثوابها، وهو يوم الفصل، وقيل: جعلت لها وقت لفصل القضاء بين الأمة، وقيل: ضربت لفنائها وقتًا، وقيل: لإعادتها ميقاتًا «**لِأَيِّ يَوْمٍ**» قيل: إنما قال: «**لأَيِّ**» تعظيمًا لذلك اليوم «**أُجِّلَتْ**» أي: أخرت، قيل: أخرت الرسل؛ لأن قوله: (**أقتت**) يرجع إليهم، والأجل: الوقت، عن أبي مسلم، وقيل: لأي يوم أجل الفصل بين الرسل وأممها في الحكم، وقيل: لأي يوم أخرت ثواب الأولياء وعقاب الأعداء، ثم قال: «**لِيَوْمِ الْفَصْلِ**» بين العباد تأخر.

ثم زاد في تفخيم شأن ذلك اليوم، فقال: «**وَمَا أَدْرَاكَ**» أيها الإنسان «**مَا يَوْمُ الْفَصْلِ**» أي: يوم القضاء مجازاة المحسن والمسيء، وانتصاف المظلوم من الظالم، وقيل: ما أدراك مقدار الشدة فيه؛ لأنه وإن خبر به كثيرًا فعيانه يزيد على خبره «**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**» أي: العذاب يومئذ لمن كذب بالرسل، وبذلك اليوم، وبجميع ما أنزل الله تعالى.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: عظم أحوال القيامة، وفيه ترغيب في الطاعة، وتحذير عن المعاصي.

ومنها: أنه يفصل بين عباده، فيجازي كل أحد بما يستحقه.

ومنها: عظم عقوبة المكذب، وليس فيه بيان حال غير المكذب، فهو موقوف على الدليل، فلا تعلق للمرجئة، ولا للخوارج بذلك.

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا[(١)] ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «**نُتْبِعُهُمْ**» بالرفع، وقرأ الأعرج: بالجزم عطفًا على (**نهلك**)[(١)]، وقرأ ابن مسعود: (**سنتبعهم الآخرين**)[(٢)].

قرأ أبو جعفر، ونافع والكسائي: «**وقَدَّرْنا**» مشددة الدال[(٣)]، وهو قراءة علي، والحسن، والسلمي، وطلحة، وقتادة، من التقدير، والباقون خفيفة الدال، وهو اختيار أبي عبيد، وأبي حاتم، من القدرة، لقوله: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وهو رواية عاصم عن السلمي عن علي، وقيل: التشديد والتخفيف بمعنى واحد، كقوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠] قرئ بالتخفيف والتشديد، فمن شدد أراد الجمع بين اللغتين.

اللغة

الإتباع: إلحاق الثاني بالأول، تبع تبعًا فهو تابع، وأتبعه إتباعًا.

والمهين: الحقير، وأصله: الضعف.

والقرار: المكان الذي يمكن طول المكث فيه، قر الشيء وقر فيه: إذا ثبت على طول مكث، يَقَرُّ قرارًا، ولا قرار لفلان في هذا؛ أي: لا ثبات.

---

(١) من قوله: «تنبيها على ما فيها وحثًا على النظر...» إلى هنا: ـ، غ.

(٢) القرطبي ١٩/ ١٤٠.

(٣) القرطبي ١٩/ ١٤٠.

(٤) حجة القراءات ٧٤٣.

والقدر: المقدار، والقدر: مصدر قدر يقدر قَدْرًا وقَدَرًا، وهو بمعنى قدر بالتشديد، إلا أن التشديد للتكثير، والعرب تقول: قدَّر وقدَر بالتخفيف والتشديد، يقال: قدر عليه الموت.

الكِفَاتُ: انضمام الشيء، كَفَتَ الشيء يَكْفِتُهُ كَفْتًا وكِفَاتًا: إذا ضمه، قال أبو مسلم: الكفت: الضم، وما يضم به الكفات[1]، وكانوا يسمون بقيع الغرقد: كَفْتَةً، لأنها مقبرتهم، ومنه الحديث: «اكفتوا صبيانكم»[2] أي: ضموهم إلى أنفسكم، وكل من ضممته إليك فقد كَفَتَّهُ، تقول: كَفَتُّ الشيء فانكفت، أي: ضممته فانضم، والله تعالى جعل الأرض للعباد تكفتهم أحياء وأمواتًا، أي: تضمهم في الحالين، وتقديره: كِفَاتَ أحياءٍ وأموات.

الرواسي: الجبال الثوابت، وأصله من الثبوت، رست السفينة: إذا ثبتت.

والشامخات: العاليات، شَمَخَ يَشْمَخُ شَمْخًا فهو شامخ، ومنه: شمخ بأنفه: إذا رفعه كبرًا، والشامخ والباذخ والشاهق نظائر.

والفرات: العذب من الماء، وهو صفة، يقال: ماء فرات، وماء زلال، وماء غدق[3]، وماء طيب، كله بمعنى.

۞ الإعراب

﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ﴾ رفع عطفًا على موضع ﴿أَلَمۡ﴾ ، كأنه قيل: كنا نهلك الأولين، ثم نتبعهم الآخرين.

نصب ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦﴾ على الحال، ويجوز أن يكون نصبًا؛ لأنه مفعول به، يعني الأحياء والأموات، والفعل الواقع عليهما الكفت.

۞ المعنى

ثم دل تعالى على قدرته بما خلق وبما أهلك، فقال سبحانه: «**أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ**»

---

(١) الكفات: الكفاف، غ.

(٢) البخاري رقم ٣١٣٨.

(٣) وماء غدق: وملح غدق، غ. وما أثبتناه من التبيان في تفسير القرآن للطوسي: ١٠/ ٢٢١.

قيل: الأمم المكذبة الأولون في الهلاك، قوم نوح وعاد وثمود «**ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ**» في الإهلاك «**الْآخِرِينَ**» قوم إبراهيم، وقوم لوط، وقوم فرعون، وقيل: «**ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ**» هم الذين تقوم عليهم القيامة، عن الحسن، وقيل: معناه: أتبعناهم، عن الأصم. «**كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ**» قيل: كما فعلنا بأولئك نفعل بالعصاة، وقيل: كذلك دأبنا بالمجرمين «**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**» السالكين سبيلهم في التكذيب، وقيل: كذلك نفعل بهؤلاء من عذاب الدنيا، فقتلوا يوم بدر، ويل يومئذ للمكذبين بهذه الأخبار «**أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ**» يعني النطفة «**مَهِينٍ**» قيل: ضعيف، عن ابن عباس، وقيل: حقير ذليل لا ينتفع منها بشيء «**فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ**» أي: في مكان يقر فيه ويثبت «**مَكِينٍ**» يتمكن ويثبت فيه «**إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ**» قيل[١]: إلى مقدار من الوقت معلوم، وقيل: إلى أن قدر الله الصورة[٢]، وأتم الولد، والقرار المكين: أرحام الأمهات، فيها تصير النطفة بشرًا، وقيل: «**إلى قَدَرٍ**» إلى وقت الولادة «**فَقَدَّرْنَا**» بالتشديد[٣] معناه: قدّرنا خلقه ذكرًا أو أنثى طويلاً أو قصيرًا، وقيل: قدرنا أحوال النطفة من تنقله من حال إلى حال حتى يصير حَيًّا «**فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ**» قيل: نعم المقدرون لذلك، وقيل: قدرنا أنه يكون في الرحم إلى أن يتم خلقه، يخرجه الله تعالى حَيًّا ناطقًا، فتدل على علمه وقدرته، حيث يخرج من بطن كل شيء ما هو من جنسه، وصور أحسن صور ذات أعضاء وحواس، وتراكيب عجيبة من ماء حقير، فنعم المقدر الأشياء على تقدير، وأخرج على لفظ الجمع تفخيمًا على عادة الملوك، يقولون: صنعنا وفعلنا، وبالتخفيف: قدَرنا على جميع ذلك فنعم القادرون نحن لا يقدر على مثله أحد «**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**» بأنا خلقناه، أو أنا لا نعيده «**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا**» قيل: ذات كفْتٍ؛ أي: ضم وجمع، والأرض كافتة: أي ضامة لهم مشتملة عليهم تضمهم «**أَحْيَاءً**» على ظهرها، «**وَأَمْوَاتًا**» في بطنها، عن قتادة، ومجاهد، والشعبي، وقيل: تقديره: كفات أحياء وأموات، وعن الشعبي، وأشار إلى الدور: هذه كِفَاتُ الأحياء، وإلى القبور: هذه كفات الأموات. وقيل: كفاتًا وعاء، يقال: هذا كفته، أي

---

(١) قيل: وقيل، غ.

(٢) الصورة: المصورة، غ.

(٣) بالتشديد: التشديد، غ. ويقصد تشديد الدال.

وعاه «وَجَعَلْنَا فِيهَا» في الأرض «رَوَاسِيَ» أي: جبالا ثوابت «شَامِخَاتٍ» عاليات، أوتادًا للأرض، وخزائن للحلي، فيها الجواهر والمعادن، ومنها تخرج المياه «وَأَسْقَيْنَاكُمْ» أي: جعلنا لكم سقيًا «مَاءً فُرَاتًا» عذبًا، عن ابن عباس، وقتادة، وعن ابن عباس: أصول الأنهار العذبة أربعة: جيحان ومنه دجلة، وسيحان نهر بلخ، وفرات الكوفة، ونيل مصر. «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» بهذه النعم، وأنه من الله تعالى، وقيل: بالأنبياء والقرآن، وإنما كرر ذلك؛ لأنه عدد نعمه بذكر كل نعمة، فلا يعد تكرارًا.

۞ الأحكام

الآية تتضمن أحكامًا:

منها: أنه خلق الإنسان من ماء مهين، وأن الإنسان هو هذا الظاهر، خلاف من يخالفنا في الإنسان، وفيه تنبيه على قدرته وحقارة الإنسان.

ومنها: أنه خلق الإنسان في قرار إلى قدرته، نقله من حال إلى حال، فتدل على صانع قادر عالم.

ومنها: ما أنعم عليهم بالأرض والجبال حيًّا وميتًا.

ومنها: عِظَمُ عقوبة المكذب بآيات الله.

قوله تعالى:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ
ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾
هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ
جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

۞ القراءة

«**انطلقوا**» قرأ يعقوب الأولى بكسر اللام، والثانية بالفتح، الأُولَى[1] على الأمر،

(١) الأولى: الأول، غ.

والثانية على الخبر، قال: فالأول أمد لهم، والثاني خبر عنهم[1]، والقراء كلهم بالكسر فيهما على الأمر.

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «**جمالة صفر**» بغير ألف، وهو قراءة ابن عباس على جمع جَمَلٍ، نحو: حجر وحجارة، وروي عن يعقوب بضم الجيم بغير ألف، أراد الأشياء العظام، وعن يعقوب: «**جُمالات**» بضم الجيم والألف، وهو قراءة ابن عباس[2]، جمع: جمالة، وهو الشيء المجمل، وقرأ الباقون بالألف وكسر الجيم جمع: جمال.

قرأ العامة: «**شرر**» واحدها شررة، وقرأ عيسى: «**شرار**»[3]، وهي لغة تميم، واحدها شرارة.

قراءة العامة: «**كالقصر**» بسكون الصاد، وعن علي وابن عباس بفتح الصاد[4]، أراد أعناق الإبل، واحدها: قَصَرَةٌ، والقصرة العنق، وجمعها: قصر وقَصَرَاتٌ، وقرأ سعيد بن جبير بكسر القاف وفتح الصاد، قال أبو حاتم: لعلها لغة.

اللغة

الظل والكن والفيء نظائر، وبينها فرق، فالظل من الستر عن الشمس، والكن من الصون عن الأذى، والفيء من الرجوع.

والشُّعَب: جمع شعبة، وهي القطعة من الشيء، ومنه: شَعَبْتُ القدر جمعت قطعها ولأمتها[5]، وهو الشعاب.

والظليل: المنيع من الأذى يستره عنه.

واللهب: ارتفاع النار، التهبت النار تلتهب التهابًا.

والشرر: قطع من النار تتطاير في الجهات، وأصله: الظهور من: شَرَّرْتُ الثوب: أظهرتها للشمس.

---

(١) فتح القدير ٥/ ٥٠٥.
(٢) القرطبي ١٩/ ١٤٥.
(٣) روح المعاني ٢٩/ ١٧٦.
(٤) القرطبي ١٩/ ١٤٤.
(٥) اجتمعت قطعها ولأمتها: جمعه قطعها ولأمته، غ.

والقصر: واحد القصور، وهو البناء العالي، والقصر: أصول الشرائط، وقيل: واحدها قصرة، نحو: جمرة وجمر، والقصر بفتح الصاد: جمع قَصَرَةٍ، وهي أصل العنق والشجرة.

جمالات: جمع جمل، وجمالات: ما جمع من الحبال، عن الفراء، نحو رجل ورجالات، وقيل: جمالات: جمع جمال، عن إبراهيم.

والصفر: جمع أصفر، وقد تسمى الأسود من الإبل أصفر؛ لأنه يشوب سوادها شيء من صفرة، كما يقال لبيضِ الظباء: آدم؛ لأن بياضها يعلوه كدر.

۞ الإعراب

﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ رفع عطفًا على قوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ تقديره: لا يؤذن لهم ولا يعتذرون، وليس بجواب، ويجوز النصب في مثله على جواب النفي، فحينئذ لا تثبت النون.

و﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ رفع على خبر الابتداء، ويجوز النصب على أنه لم يشر إلى اليوم، ولكن إلى الجزاء في اليوم.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما يقال لهم جزاء على تكذيبهم، فقال سبحانه: «**انطَلِقُوا**» أي: يقال لهم: انطلقوا اذهبوا، قيل: هذا من قول الخزنة إذا أمروا بسوقهم إلى النار، فيقولون لهم: صيروا إلى النار التي كنتم بها تكذبون في الدنيا رسلكم، وكنتم تنكرونها «**انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ**» أي: ثلاث قطع، قيل: ظل دخان جهنم ينقسم ثلاث شعب، عن مجاهد، وقتادة، شعبة عن يمينه، وشعبة عن يساره، وشعبة أمامه، فتحيط به من جهاته الثلاث، فلا يجد مذهبًا، وقيل: تتشعب من النار ثلاث شعب: شعبة فوقه، وشعبة عن يمينه، وشعبة عن شماله، فتحيط به، وقيل: عنق يخرج من النار، فيتشعب ثلاث شعب: فالنور يقف على رؤوس المؤمنين، والدخان على رؤوس المنافقين، واللهب الصافي على رؤوس الكافرين. وقيل: هو السرادق

والظلّ[(١)] من يحموم، عن مقاتل، وذلك أنهم إذا انتهوا إلى النار تخرج من النار قطعة فتحيط بهم، فيكون سرادقًا، ثم يخرج منه ثلاث شعب فتعذبهم «**لاَ ظَلِيلٍ**» أي: ليس بطيب، ولا برد فيه، ولا روح «**وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ**» ولا ينفع من شدة اللهب، وفرط الحرارة، بخلاف الظلال المعهود، وقيل: تسمية النار ظِلًّا توسعًا؛ لأنه يظل عليهم، ولأنه مقابلة ما وعد أهل الجنة بما كانوا في ظل ظليل ذات روح «**إِنَّهَا**» قيل: جهنم، وقيل: النار كناية عن غير مذكور؛ لأن الكلام دل عليه، وهو قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، «**تَرْمِي بِشَرَرٍ**» أي: من شدة[(٢)] غليانها وتوقدها ترمي بالشرر، وهو ما يتطاير من النار «**كَالْقَصْرِ**» أي: كالقصر جمع القصور التي هي البنيان، عن ابن عباس، ومجاهد، وقيل: القصر أصول النخل والشجر العظام، عن قتادة، والضحاك، وسعيد بن جبير، واحدها قصرة، كتمرة وتمر، وجَمْرَةٍ وجَمْرٍ، وقيل: الحصون والمدائن، عن ابن مسعود، والقصر في معنى الجمع إلا أنه على طريقة الجنس، وتتشعب بشررها، وتتفرق حتى تصير كل قطعة «**كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ**» قيل: الأيْنَق[(٣)] السود هناك، عن الحسن، وقتادة، وهو جمع جمال، وكان الحسن يقول: هو الشرر[(٤)]، وقيل: هي حبال السفن وقلوسها، يجمع بعضها إلى بعض، عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقيل: صفر جمع للأصفر، وهو لون النار، عن أبي علي، وقيل: سود، وقيل: قطع النحاس «**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**» بنار هذه صفتها «**هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ**» قيل: يبلغون من شدة العذاب مبلغًا لا ينطقون من عظمها، وعلمهم أنه لا يسمع منهم، وقيل: لا ينطقون بحجة وشيء ينفعهم، وقيل: في القيامة مقامات: ففي مقام يتكلمون، فإذا فصل للقضاء لا يتكلمون بعد ذلك،

(١) والظلّ: وظل، غ. وما أثبتناه من: الكشف والبيان للثعلبي: ١٣/ ٤٧٥.

(٢) شدة: شد، غ.

(٣) الأنيق السود: للأنيق الأسود، غ..

وفي التبيان ١٠/ ٢٣١: قال الحسن وقتادة: كأنها أنيق سود لما يعتري سوادها من الصفرة. قال في (مجمع البيان): قال الفراء: لا ترى أسود من الإبل إلا وهو مشرب صفرة، ولذلك سمت العرب سود الإبل صفراء، وقيل: هو من الصفرة؛ لأن النار تكون صفراء، عن الجبائي.

(٤) الشرر: أشر، غ. وما أثبتناه من: العين: ١/ ٣٧٨.

واختلفوا، قيل: تمنعهم الهيبة عن النطق، وقيل: لا ينطقون يأسًا من الرحمة، وقيل: خزنة النار يمنعونهم، وقيل: يختم على أفواههم، وأراد باليوم الوقت، وقيل: بعض اليوم، يقال: أتيتك الجمعة أي: فيها. «**وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**» قيل: لا يسمع لهم عذر حتى يعتذروا؛ إذ ليس لهم عذر صحيح، ولو كان عذرًا صحيحًا، وقيل: لا يؤذن لهم في الاعتذار لما علم من حالهم أنه لا عذر لهم(١)، ولو أتوا بعذر صحيح لقبل منهم، وقيل: معناه ليس لهم عذر، عن أبي مسلم، قال الشاعر:

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ ... نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتِ(٢)

وقيل: أيُّ عذر لمن أعرض عن خالقه وكفر أيادي منعمه؟! «**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**» بهذا الخبر «**هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ**» أي: الحكم والقضاء بين الخلق، والجزاء والانتصار من الظالم للمظلوم، والأعواض على الآلام والمصائب، والإثابة على الطاعات، والعقاب على المعاصي «**جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ**» يعني كفار هذه الأمة تحشر مع كفار الأمم قبلهم «**فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ**» أي: إن كان لكم حيلة تتخلصون بها من العقاب فاحتالوا، يعني لا حيلة لهم، قيل: يناديهم مناد بذلك، وقيل: لو كان تدبير في قهر المؤمنين، وإلحاق المكروه بهم كما كنتم تدبرون في الدنيا فافعلوا(٣)، أي: لا تقدرون على ذلك، وقيل: إن كان لكم كيد في دفع حجج القرآن والدين فافعلوا، أي: لا تجدون إلى ذلك سبيلاً «**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**» بيوم الفصل.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: أن أهل النار يبعث بهم إليها، مع توبيخ عظيم وسوق شديد.

ومنها: أنه لا عذر لأحد في معصية الله، ولا حجة، وذلك يبطل مذهب

---

(١) لا عذر لهم: اعتذر لهم، غ.

(٢) البيت قائله: عمرو بن معدي كرب من قصيدة مطلعها:

ومرد على جرد شهدت طرادها ... قبيل طلوع الشمس أو حين ذرت

العينّ: (جر).

(٣) فافعلوه: وافعلوا، غ.

المجبرة؛ إذ لا عذر أوضح على مذهبهم من قولهم: خلقت[1] فِيَّ العصيان والقدرة الموجبة لها، ولم تعطني قدرة الإيمان ولا شئتها؛ بل منعتني عنه كل منع فكيف تؤاخذني؟ وأما على مذهب العدل: فالعبد مُزاح العلة، أُتِيَ في استحقاق العذاب من جهته، فلا عذر له، ولا حجة.

ومنها: أن يوم القيامة يفصل بين الخلق.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «**ظلال**» جمع الظل، وقراءة الأعرج: «**في ظلل**» جمع ظلة[2].

اللغة

المتقي: المجتنب للقبائح، اتقى اتقاء. والعيون: أنهار جارية في غير أخدود.

والشهوة[3]: توقان النفس إلى المشتهى، اشتهى يشتهي اشتهاء، ويشتهي تشهيًا، وطعام شهي، والشهوة: جنس من الأعراض محلها القلب، لا يقدر عليها غير الله تعالى.

والهنيء: النفع الخالص من شائب الأذى.

والتمتع: الاستمتاع بأحوال تلذ، تَمَتَّعَ تمتعًا، واستمتع استمتاعًا، وأمتعه غيره إمتاعًا، والتمتع والتلذذ من النظائر.

---

(١) خلقت: خلقه، غ.

(٢) فتح القدير ٥/٥٠٧.

(٣) والشهوة: وشهوت؛ غ.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ﴾ في ثقيف، أمرهم رسول الله صلى الله عليه بالصلاة فقالوا: لا ننحني، فإنها سيئة علينا، فقال ﷺ: «لا خير في دين ليس فيها ركوع ولا سجود»(١)، عن مقاتل.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى صفة الجنة بعدما تقدم وصف النار، فقال سبحانه: «**إِنَّ الْمُتَّقِينَ**» الذين يجتنبون الكبائر «**فِي ظِلَالٍ**» يعني ظل الجنة، وقيل: في ظل الأشجار والقصور «**وَعُيُونٍ**» أي: أنهار جارية تراها العيون «**وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ**» ويقال لهم على وجه الإكرام: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا**» من طعام الجنة وشرابها، قيل: هو إباحة، وليس بأمر، عن أبي علي، ولا يريد ذلك عنده، وقيل: إنه أمر، ويريد ذلك لأنه ثواب، ويزيد في سرورهم، عن أبي هاشم، وهو اختيار القاضي، وقيل: تقوله الملائكة لهم «**هَنِيئًا**» أي: خالصًا لا أذى فيه ولا تكدير «**بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**» أي: جزاء على أعمالكم «**إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**» قيل: مثل هذا نجزي المحسنين، وقيل: كما جزينا أولئك على أعمالهم نجزي كل محسن «**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**» بهذا الوعد، وويل لهم إذا تركوا عمل المحسنين.

ثم عاد الكلام إلى المكذبين، فقال سبحانه: «**كُلُوا**» أي: يقال لهم: كلوا «**وَتَمَتَّعُوا**» في الدنيا فإنه لا ينفعكم، ولا يغني عنكم من العذاب شيء، وهذا وعيد لهم، والوعيد استحقوا بترك الواجبات، والاشتغال عن حقوق الله تعالى؛ ولذا فالأكل المباح لا يستحق عليه الوعيد «**قَلِيلًا**» يعني ذلك قليل بالإضافة إلى الآخرة، وقيل: مدة قليلة؛ لأن الموت كائن لا محالة «**إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ**» قيل: مشركون، وقيل: مذنبون، وقيل: من كان همته بطنه وفرجه فهو خاسر محروم «**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**» بهذا الوعيد «**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا**» قيل: يقال لهم هذا في الدنيا إذا أمروا بالصلاة،

---

(١) أبو داود ٣٠٢٦.

فإن الصلاة من الله بمكان، عن قتادة، ومقاتل، وقيل: هذا يقال لهم في الآخرة كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ[1] إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣]، عن ابن عباس، وقيل: المراد بالركوع الصلاة، عن مجاهد، وقيل: الخضوع والتذلل والعبادة «**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**» بوجوب الصلاة والعبادات «**فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ**» أي: بأي حديث بعد القرآن يؤمنون مع وضوح أدلته؟

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: الترغيب في التقوى بذكر ما وعد للمتقين.

ومنها: أن الثواب يستحق على الأعمال؛ لذلك قال: «**نجزي**»، خلاف قول المجبرة، وتشهد أن الأعمال فعلهم، بخلاف قولهم.

ومنها: أن الكفار مخاطبون بالشرائع؛ لذلك عاقبهم بترك الصلاة.

ومنها: أن [صيغتة] صيغة [الأمر][2] والمراد تهديد، كقوله: «**كلوا**».

ومنها: وجوب التدبر في القرآن، والعمل به.

---

(١) وقد كانوا يدعون: ويَدعون؛ غ.

(٢) ما بين المعكوفين كلمة غير واضحة في غ.

سُورَةُ النَّبَإِ

سورة (عم يتساءلون)، وتسمى سورة (المعصرات)، مكية، وهي أربعون آية.

وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ سقاه الله برد الشراب يوم القيامة».

ولما ختم سورة (المرسلات) بذكر القيامة، ووعيد المكذبين، افتتح هذه السورة بذكر القيامة، ودلائل القدرة على صحة الإعادة، وبَيَّنَ فيها أحوال الناس.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾

القراءة

قراءة العامة: «**سيعلمون**» بالياء في الحرفين، وقرأ الحسن ومالك بن دينار بالتاء فيهما على الخطاب[1]، والوجه الأول؛ لأنه قال: «**يتسآءلون**» وقال: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ

(١) القرطبي ١٩/ ١٥١.

مُخۡتَلِفُونَ﴾ فرد الكناية إليهم، ويجوز الثاني لتولي الخطاب، إلا أن[1] القراءة إنما تجوز في الظاهر المستفيض.

قراءة العامة: «من المعصرات»، وعن عكرمة: «بالمعصرات»[2] كقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [القدر: ٤، ٥] يعني: بالباء[3].

۞ اللغة

«عم» أصله: (عن ما) فأدغم النون في الميم لقربها منها من غير إخلال، وحذفت الألف، قال الأخفش: لتكون فرقًا بين الخبر والاستفهام، وقيل: أسقطت الألف كما أسقطت في (بم؟)و(فيم؟)، و(إِلاَمَ؟)، واتصالها بحرف الجر حتى صار كجزء منه لينبئ عن شدة الاتصال.

السؤال: طلب الإخبار بصيغة من الكلام، والتساؤل: التقابل بسؤال كل واحد من النفيسين صاحبه، تساءلا تساؤلاً، وسأله مسألة[4].

النبأ: الخبر العظيم الشأن، ومنه النبيء على مذهب من يهمزه، وجمعه: أنباء، ومن لم يهمز فهو من الرفعة.

والمهاد: الوطاء، وهو القرار المهيأ للتصرف فيه، مَهَّدَ تمهيدًا.

والسبات: قطع العمل للراحة، وأصل السبت: القطع، يقال: سبت أنفه: إذا قطعه، ومنه: يوم السبت، أي: يوم قطع العمل للراحة على ما جرت به العادة.

والوهَّاج: الوقاد، وهو المشتعل بالنور العظيم.

والعصر: مصدر، عصرت الثوب والعنب[5] عصرًا، والمعصرات: السحائب

---

(١) أن: أنه، غ.

(٢) القرطبي ١٩/ ١٥٢.

(٣) بالباء: : الياء، غ.

(٤) ويحتمل اللفظ: وساءله مساءلة.

(٥) الثوب والعِنب: العصر، غ.

تعتصر بالمطر، كأن السحاب تحمل الماء، ثم تعصره الرياح، فترسله كإرسال الماء بعصر الثوب، وعُصِرَ القومُ: مُطِرُوا، والإعصار: الريح تثير السحاب.

والثَّجُّ: الصَّبُّ، ومنه: «أفضل الحج العج والثج»[1]، أي: صب الدم، والثجاج: الدفَّاع في انصبابه، كثج دماء البدن، ثجحت دمه فأنا أثُجُّهُ ثَجًا، وقد ثج الدم يَثُجُّ ثُجُوجًا.

والألفاف: الأخلاط المتداخلة يدور بعضها على بعض، واحدها: لَفٌّ، وشجر ملتف، وأشجار ملتفة، وقيل: واحدها: لُف بضم اللام، شجرة لفاء، وشجر لَفٌّ، ثم الألفاف جمع الجمع.

المعنى

«عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ» يعني عن أي شيء يتساءلون، فهو استفهام، والمراد تفخيم الأمر، وقيل: هؤلاء المشركون يسأل بعضهم بعضًا على طريق الإنكار، والتعجب، وقيل: يتساءلون عن المؤمنين لما أقروا وكذب أولئك «**عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ**» أي: الخبر العظيم، قيل: القرآن، عن مجاهد، كقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧﴾ [ص: ٦٧] وقيل: محمد ﷺ اختصموا فيه، وقيل: البعث بعد الموت، عن قتادة، ، وابن زيد، وأبي علي، وأبي مسلم. «**الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ**» فمصدق به ومكذب، عن قتادة. «**كَلَّا سَيَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ**» (كلا): ردع وزجر، أي: ليس كما يقولون، وقيل: معناه: حقًّا سيعلمون، قيل: سيعلم الكفار عاقبة تكذيبهم، وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم، عن الضحاك، وقيل: كلا سيعلمون ما ينالهم يوم القيامة من العذاب «**ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ**» ما ينالهم في جهنم من عذاب النار.

ثم دل بذكر ما خلق ابتداء على أنه قادر على إعادتهم، كأنه قيل: ما الذي حملكم على التكذيب، أشكًّا في قدرته؟ فهو الذي قدر على هذه الأشياء، فقال سبحانه: «**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا**» قيل: بساطًا، عن قتادة، وقيل: مستوية ليتمكنوا من التصرف عليها «**وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**» للأرض لتسكن ولا تضطرب «**وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا**»

(١) شعب الإيمان، ٧٣٢٠.

قيل: ذكرًا وأنثى، ليتمتع بعضكم ببعض ولتتناسلوا، وقيل: أصنافًا، الأسود والأبيض، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك، عن الأصم. «وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا» قيل: نعاسًا في ابتدائه بطلب النفس راحة، وقيل: راحة لأبدانكم، عن أبي علي، وقيل: قطعًا لأعمالكم «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا» غطاء وسترة، يستر كل شيء بظلمته وسواده، وسميت الظلمة لباسًا؛ لأنها تستر كل شيء بظلمتها[1] «وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا» أي: سببًا ومتصرفًا في طلب معاشكم، وجعل النهار معاشًا؛ لأن المعاش يقع فيه، كما يقال: ليل نائم «وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا» أي: سبع سموات محكمة، أحكمها صنعًا «وَجَعَلْنَا سِرَاجًا» يعني: جعلنا الشمس سراجًا، فهو سراج العالم الذي يستضيء به الخلق «وَهَّاجًا» قيل: منيرًا متلألئًا، عن مجاهد، وقتادة، وقيل: وقادًا حارًا يدفئ العباد، ويزيل البرد «وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ» قيل: الرياح، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل، كأنها تعصر السحاب، تقديره: بالمعصرات، (مِنْ) بمعنى الباء، وقيل: السحائب تتحلب بالمطر، عن ابن عباس بخلاف، وأبي العالية، والربيع، والضحاك، وأبي علي، وأبي مسلم، وهو الأظهر، وقيل: المعصرات: السموات، عن الحسن، وقتادة، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم، ومقاتل، وقال المبرد: (الماطرات) القاطرات «مَاءً ثَجَّاجًا» صبابًا، وقيل: مدرارًا، عن مجاهد، وقيل: متتابعًا يتلو بعضه بعضًا، عن قتادة، وقيل: كثير، عن ابن زيد. «لِنُخْرِجَ بِهِ» بالمطر «حَبًّا وَنَبَاتًا» فالحب: كلما تضمنه كِمَامُ الزرع الذي يحصد، والنبات: الكلأ من الحشيش وغيره والزرع ونحوها، فجمع بين جميع ما يخرج من الأرض «وَجَنَّاتٍ»، بساتين «أَلْفَافًا» ملتفة بعضها ببعض، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والمخرج: أشجار جنات إلا أنه حذف لدلالة الكلام عليه.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أحكام:

منها: سؤال جرى بين قوم واختلاف تقدم منهم، والأظهر أن السؤال وقع عن أمر البعث والقيامة.

---

(١) بظلمتها: بظلمته، غ.

ومنها: أن ذلك نبأ عظيم.

ومنها: تهديد لهم، وزجر.

ومنها: ما خلق مما يدل على وحدانيته، وأنه قادر عالم، وأنه أنعم بجميع ذلك على خلقه.

ومنها: أنه جعل الليل للسكون والدعة، والنهار للمعاش، وذلك يدل على نعمه كما يدل على قدرته، وكل ما عد لا يقدر عليه غيره تعالى.

ومنها: إباحة المكاسب وطلب المعاش، خلاف ما قاله بعضهم.

ومنها: أن السماء صلبة شديدة، وقيل: إنها من الحديد.

ومنها: أنه منعم بإنزال المطر.

ومنها: أنه مخرج النبات، وسبب المطر، وهذا سبب عادة لا سبب إيجاب؛ لأن الإخراج فعل الله تعالى، وهو قادر على إخراجه من غير ماء، إلا [أنه] أجرى العادة بإخراجه عند ورود الماء عليه لمصلحة رآها، وهذا كما أن الولد يحصل من ذكر وأنثى، وإن قدر على خلقه من غيرهما.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

القراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «وفُتِحَتْ السماء» خفيفة التاء، الباقون مشددة التاء على التكثير[1].

(١) حجة القراءات ٧٤٥.

قرأ حمزة: «لَبِثِيَن» بغير ألف[1]، وهي قراءة علقمة، والباقون: «لابثين» بألف وهما لغتان.

قرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «غسَّاقا» بتشديد السين، الباقون بالتخفيف[2]، وهما لغتان، وقد بَيَّنَّا في سورة (صاد).

اللغة

الفصل: فصل الحُكْم، وأصله: القطع، وسميت القيامة يوم الفصل؛ لأنه تعالى يحكم فيها بين الخلق، ومثله يوم الفتح.

والميقات: الوقت المضروب لحدوث أمر، وأصله الوقت، كما أن الميعاد من الوعد، والميزان من الوزن، والمقدار من القدر، والمفتاح من الفتح، وجميع ذلك على معنى يُفْعَلُ به، والميقات: ما يوقت به.

والفوج: الجماعة من الناس، والجمع: أفواج.

والسراب: ما يراه الرائي عند طلوع الشمس ووقت الضحى أبيض يظنه ماء، وهو يسمى وقت الهاجرة آلاء.

والمرصاد: مفعال من الرصد المعد لأثر على ارتقاب الوقوع.

والطاغي والعاتي والعادي سواء، وهو من جاوز الحد في العصيان.

والأحقاب: الأزمان الكثيرة، واحدها[3]: حقب، ومنه: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ [الكهف: ٦٠] بضم القاف، وقيل: واحده: حقَب بفتح القاف، وواحد الحقب: حقبة، قال الشاعر:

وَكُنَّا كَنَدْمَانَي جَذِيمَة حِقْبَةً ... مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ: لَنْ يَتَصَدَّعَا[4]

---

(١) حجة القراءات ٧٤٥.

(٢) السبعة في القراءات ٦٦٨.

(٣) واحدها: وحدها، غ.

(٤) البيت قائله: متمم بن نويرة اليربوعي، تاج العروس (حبر).

والوِفَاقُ: الجاري على مقدار، فالجزاء وفاق؛ لأنه جار على مقدار الأعمال في الاستحقاق، واحدها وَفْقٌ.

والرجاء: التوقع لوقوع أمر يخاف ألاَّ يكون.

وكذابًا: مصدر على «فِعَّال» جاء للمبالغة، قال الفراء: وهي لغة يمانية فصيحة، يقولون: كَذَّبْتُ كِذَّابًا، وخَرَّقْتُ القميص خِرَّاقًا، ومعناه: كذبوا تكذيبًا عظيمًا.

۞ الإعراب

﴿جَزَآءً﴾ نصب على المصدر، أي: جزيناهم جزاء. ﴿وِفَاقًا﴾ كذلك، أي: وَافَقَ أعمالهم وِفَاقًا، عن الأخفش، كما قال: قَاتَلَ قِتَالاً.

ويقال: لم قال: ﴿مِرْصَادًا﴾ وجهنم مؤنثة؟

قلنا: لأنه «مفعال»، و«مفعال» لا تدخله الهاء.

﴿مَـَٔابًا﴾ نصب؛ لأنه خبر (كان)، أي: كانت للطاغين مآبًا.

﴿كِتَـٰبًا﴾ نصب على المصدر؛ لأن في ﴿أَحْصَيْنَـٰهُ﴾ معنى كتبناه، كأنه قيل: كتبناه كتابًا.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر الأدلة بأشياء لا يقدر عليها غيره من الأجسام والأعراض عقَّبها بذكر الإعادة والبعث تنبيهًا على أنه دل بتلك الآيات على صحة البعث، فقال سبحانه: «**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ**» أي: يوم القضاء والحكم، وهو يوم القيامة «**كَانَ مِيقَاتًا**» أي: وقتًا موعدًا لا بد أن يأتي «**يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ**» قَرْنٌ ينفخ فيه إسرافيل، يحيي الله تعالى الخلق عنده، عن جماعة من المفسرين، وروي مرفوعًا، وقيل: الصور جمع صورة، أي: ينفخ الروح في الصور «**فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا**» أي: جماعة جماعة إلى أن يتكاملوا في القيامة، كل فريق مع شكله، وقيل: كل أمة تأتي مع نبيها، فلذلك جاءوا أفواجًا «**وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ**» قيل: شققت السماء «**فَكَانَتْ**» كالأبواب، وقيل: صار فيها طرقٌ ولم تكن كذلك، وقيل: تشققت لنزول الملائكة «**وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ**» من أماكنها «**فَكَانَتْ سَرَابًا**»

يعني كالسراب، يظن أنه جبل، وليس بشيء، وقيل: كالسراب في خفة زوالها «**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا**» أي: طريقًا منصوبة على العاصين، فهو موردهم، ومنهلهم، وكل شيء يكون منصوبًا على الطريق لمورد غيره فهو رَصَدٌ له، فأشار إلى أن جهنم للعصاة على الرصد لا يفوتونه، وقيل: مرصادًا محبسًا، عن مقاتل. «**لِلطَّاغِينَ مَآبًا**» أي: لمن جاوز حد الله مصيرًا ومرجعًا «**لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**» أي: مقيمين فيها أزمانًا ودهورًا لا انقضاء لها، فحذف للعلم بحال أهل النار بآيات أخر، وقيل: «**لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا**» وإن كان[1] كونهم فيها لا يتناهى، فكأنهم يعذبون مرة بالنار فلا يذوقون شيئًا، ومرة بالحميم والغساق، ومرة بالزمهرير وغيرها، واختلفوا في معنى الحقب، فقال بعضهم: ليس له حد معلوم؛ وإنما هو اسم الزمان والدهر، وعن ابن مسعود: لا يعلم الأحقاب إلا الله، وعن الحسن: أن الله سبحانه لم يذكر شيئا إلا وجعل له مدة ينقطع إليها، ولم يجعل لأهل النار مدة، بل قال: «**لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**» فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حُقُبٌ دخل حقب آخر، ثم آخر، كذلك أبد الآبدين، فليس للأحقاب مدة إلا الخلود في النار، ولكن ذكروا لنا أن الحقب سبعون ألف سنة، كل يوم كألف سنة مما تعدون، وقال بعضهم: الحقب محدود، ثم اختلفوا، وقيل: أربعون سنة، كل يوم منها ألف سنة، عن عبد الله بن عمر، وقيل: ثمانون سنة، كل سنة اثنا عشر شهرًا، كل شهر ثلاثون يومًا، كل يوم ألف سنة، وقيل: بضع وثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوما، كل يوم ألف سنة مما تعدون، رواه ابن عمر مرفوعًا. وقال ﷺ: «لا يتكل أحدكم على أن يخرج من النار». وقيل: الحُقُبُ ثلاثمائة سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يومًا، كل يوم ألف سنة، عن بشير بن كعب. وقيل: الأحقاب: ثلاثة وأربعون حقبًا، كل حقب سبعون خريفًا، كل خريف سبعمائة سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يومًا، كل يوم ألف سنة. وقيل: سبعون ألف سنة، عن الحسن، قال: وكل يوم كألف سنة مما تعدون. وقيل: الحقب الواحد سبعة عشر ألف سنة، عن مقاتل، قال: وهذه الآية نسخها قوله: «**فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا**» فالعدد قد ارتفع، والخلود قد حصل، والصحيح أنه لم يذكر ذلك الحد،

(١) كان: كانوا، غ.

ولكن كما يقال: أعوامًا وسنين، ولا يراد التقدير «**لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا**» أي: في جهنم «**بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا**»، قيل: لا يجدون لما يشربون بردًا، وقيل: لا ينالهم برد ليدفع به حر النار، ولا شراب أي: ولا يذوقون شرابًا يستروحون إليه، وقيل: «**بردًا ولا شرابًا**»، أي: روحًا وراحة، عن الحسن، وعطاء، وقيل: لا يذوقون بردًا يدفع حر النار، ولا شرابًا يدفع العطش، وقيل: البرد هاهنا النوم، تقول العرب: منع البرد من البرد، أي: من النوم، وإنما سمي النوم بردًا؛ لأن النائم يبرد بدنه «**إلاَّ حَمِيمًا**» وهو الماء الحار، قيل: استثني من الشراب الحميم، وهو الحار المنتهي حرارته، ومن البرد الغساق، وهو الزمهرير الخارج في البرودة عن الحد «**وَغَسَّاقًا**» قيل: صديد أهل النار، عن إبراهيم، وقتادة، وعطية، وعكرمة، من قولهم: غسقت القرحة تغسق غسقًا: إذا سال صديدها، وقيل: دموع أهل النار، عن الثمالي، قيل: والغساقُ: الزمهريرُ، وقيل: الغساق المظلم، مأخوذ من لفظ الغسق، يعني شرابًا أسود، لا يسوغ في الحلق، عن أبي مسلم، وقيل: غساق واد في جهنم، عن شهر بن حوشب. «**جَزَاءً**» يعني ذلك مكافأة لهم على أعمالهم «**وِفَاقًا**» أي: وافق أعمالهم وفاقًا، قيل: جزاء بحسب أعمالهم، عن الربيع، والضحاك، وقيل: وافق الجزاء أعمالهم، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والربيع، وقيل: لما عظمت ذنوبهم وهو الكفر عظم عقابهم، عن مقاتل، وقيل: كانت أعمالهم سيئة، فجازاهم بما يسوؤهم، عن الحسن.

ومتى قيل: كيف يكون وفاق الذنب، وهو منقطع، والعقاب دائم؟

قلنا: قيل: في العصيان نوع استحقاق بأمر الآمر، ونهي الناهي، فعظم ذلك؛ ولذلك لا يؤخذ الخاطئ والساهي.

وقيل: لما عظمت مواقع نعمه عظمت معاصيه في جنبه، كعصيان الولد لوالده الشفيق، فتكون أعظم من عصيان الأجنبي.

وقيل: العقاب لا يُقَدَّرُ بالوقت؛ ألا ترى أنه يحسن منا ذم فرعون، وإن طالت المدة، والذم يجري مجرى العقاب.

ثم بَيَّنَ وجه طغيانهم، فقال سبحانه: «**إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا**» قيل: لا يرجون لتكذيبهم جزاء وحسابًا، وقيل: لا يرجون ثواب حساب، وقيل: لا يخافون

الحساب، عن الحسن، وقتادة، وقيل: لا يظنون أن لهم حسابًا، عن أبي مسلم. «وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا» أي: كذبوا بأدلتنا تكذيبًا «وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا» يعني: لم يعاقبهم حتى أحصى عليهم جميع أفعالهم القليل والكثير، وقيل: الكتاب: الحِفْظُ، أي: كل شيء أحصيناه حفظًا وكتبناه كتابًا، ثم يقال لهم: «فَذُوقُوا» العذاب، قيل: هذا نداء من الله لهم، فيكون أعظم في عقابهم، وقيل: بل تقوله الخزنة «فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا» قال الحسن: سألت أبا بردة الأسلمي عن أشد آية في كتاب الله تعالى، فقال: سألت رسول الله ﷺ، فقال: «فَذُوقُوا فَلَن نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا»، وإنما قال: «فَلَن نَزِيدَكُمْ»؛ لأن كل عذاب يأتي بعد الوقت الأول، فهو زائد عليه.

❁ الأحكام

الآيات تتضمن أحكامًا:

منها: عظم أحوال القيامة، وشدة أهوالها.

ومنها: بيان ما أعد الله تعالى للطغاة، وأنهم أهل جهنم، خلاف قول المرجئة.

ومنها: أن العقاب على وفاق الأعمال؛ لأنه جزاؤها[1]، خلاف قول المجبرة.

ومنها: أن التكذيب فعل العبد، لذلك استحق العقاب، بخلاف قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) جزاؤها: حراما، غ.

القراءة

قرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع، وأبو عمرو: «**ربُّ السموات**» بالرفع و«**الرحمنُ**» بالرفع، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: «**ربِّ**» بالكسر «**الرحمنُ**» بالرفع، واختاره أبو عبيد[1]؛ لأن قوله: «رب» نعت لقوله: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ لقربه منه، ورفع «الرحمن» على الاستئناف. وقرأ عاصم وابن عامر بالكسر فيهما على نعت «ربك»، واختاره أبو حاتم.

قرأ الكسائي: «**كِذَابًا**» بالتخفيف[2]، وروي ذلك عن أمير المؤمنين، الباقون بالتشديد، وهما لغتان مصدران للتكذيب، وقيل: الكِذَاب بالتخفيف مصدر المكاذبة[3]، وبالتشديد مصدر التكذيب.

واتفقوا في قوله: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ على التشديد؛ لأن «كذَّبوا» يفيد الكذَّاب.

قراءة العامة: «**حسابًا**» بكسر الحاء، وعن بعضهم بفتحها، وتشديد السين، على وزن «حَسَّابًا» أي: كفافًا[4] قال الأصمعي: تقول العرب: حسَّبْتُ الرجل بالتشديد: إذا أكرمته، وعن ابن عباس: (**عطاء حِسَانًا**) بالنون.

اللغة

المفاز: موضع الفوز، والفوز: النجاة إلى حال السلامة، وسميت المفازة تفاؤلاً، كأنه قيل: منجاة.

والحدائق: جمع حديقة، وهي البستان المحوطة، كأنه قد أحدق به حائطه، وأحدق القوم بفلان: أحاطوا به، والحدقة منه؛ لأن الجفن محيط بها.

والكاعب: الجارية التي نهد ثديها، يقال: كعب ثدي الجارية، ونهد: إذا ابتدأ في الخروج، ومنه: الكعب لِنُبُوِّهِ.

---

(١) حجة القراءات ٧٤٧.

(٢) حجة القراءات ٧٤٦.

(٣) أي مصدر كاذبه مكاذبة وكذابًا.وقوله: مصدر التكذيب.أي مصدر كذَّب تكذيبًا.

(٤) كفافا: كفا، غ. وما أثبتناه من تفسير القرطبي ١٩/ ١٦٢، وفتح القدير ٥/ ٥٢٠.

والأتراب: جمع تِرْبٍ، وهو اللِّدَةُ الذي ينشأ مع لدته، أُخِذَ من التُّرْب، كأنهم يلعبون معًا في التراب؛ لكونهم على شيء واحد.

والكأس: الإناء فيه الشراب، ولا يقال كأس حتى يكون فيه.

والدِّهَاق: الممتلئة التي لا مزيد فيها، وأصل الدَّهْقِ: شدة الضغط، أدهقت الكأس: ملأتها.

واللغو: كلام لا فائدة فيه، كأنه مرتاب أن يلغى.

والكِذَّاب: تكذيب بعض لبعض، وقد يخفف، ويشدد، قال الأعشى في تخفيفه:

فَصَدَقْتُهَا وَكَذَبْتُهَا وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهْ[1]

والخطاب والمخاطبة سواء، وهو: توجيه الكلام إلى مدرك له بصيغة تنبئ عَنْ[2] المراد.

والصواب: موافقة الغرض من طريق الحكمة، كأنه أصاب الغرض الذي دعا إليه الحكمة، ونقيضه: الخطأ، وهو مخالفة الغرض الحكمي.

والمآب: المرجع، من آب يؤوب: إذا رجع.

والإنذار: الإعلام بموضع المخافة ليتقى.

۞ المعنى

ولما تقدم الوعيد بما أعد لأهل الكفر عقَّبه بالوعد بما أعد للمؤمنين، فقال سبحانه: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ» الذي يجتنبون الكبائر، وإنما يكون متقيًا بشيئين: أداء الواجبات، واجتناب الكبائر «مَفَازًا» قيل: مَنْجًى إلى مبرة، وهو النجاة من النار إلى الجنة، وقيل: متنزهًا، عن ابن عباس، والضحاك. «حَدَائِقَ» جنات وبساتين محوطة

(١) القرطبي ١٩/ ١٦٢. اللسان (صدق).
(٢) عن: على؛ غ.

«**وَكَوَاعِبَ**» أي: جَوَارِيَ، وكواعب: نواهد، عن ابن عباس. «**أَتْرَابًا**» متساوية في سن واحدة[1]، عن قتادة، ومعناه: استواء الخلقة والقامة والصورة حتى تكون متشاكلة، وقيل: على مقدار أزواجهن في الحسن والصورة والسن، عن أبي علي. «**وَكَأْسًا**» من الشراب «**دِهَاقًا**» مُتْرَعَةً مملوءة، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وقيل: متتابعة، عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وقيل: صافية، عن عكرمة، وعن أبي هريرة قال: دمادم[2]، وقيل: على قدر رِيِّهِمْ، عن مقاتل. «**لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا**» أي: كلامًا يكرهونه لا فائدة فيه، وقيل: لا يسمعون ما يؤذيهم «**وَلاَ كِذَّابًا**» قيل: لا يسمعون من أحد تكذيبهم، وقيل: لا يكذب بعضهم بعضًا «**جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ**» أي: مكافأة يعطيهم الله تعالى على أعمالهم «**عَطَاءً**» أي: أعطاه الله ذلك «**حِسَابًا**» أي: عطاء كافيًا يكفيهم، عن أبي علي، وأبي مسلم، يقال: أَحْسَبَنِي هذا الشيء: إذا كفاني، وحسبك: كفاك، ومنه: حسبي الله، وقيل: حسابًا على قدر الاستحقاق، وحسب ما عملوا، وقيل: يعطون حتى يقولوا: حسبنا ربنا «**رَبِّ السَّمَوَاتِ**» أي: يعطيه رب السموات «**وَالْأَرْضِ**» فهو رب كل شيء من السموات والأرض «**وَمَا بَيْنَهُمَا**» وهو «**الرَّحْمَنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا**» كلامًا، يعني: يفعل بالمؤمنين من الثواب، وبالعاصين من العقاب ما لا يراجع في شيء ولا يعارض؛ لأنه يفعله بحسب الاستحقاق والعدل والحكمة، فلا يكون لأحد فيه كلام، وقيل: لا يملكون خطابًا؛ أي: رضًا، كقولهم: لا يكلمهم الله يوم القيامة، وقيل: لا يملك أن يسأل الله، ولا أن يخاطبه الله بما يتمنى، وقيل: لا يملك شفاعة إلا بإذنه، عن الكلبي، وقيل: لا يملك سؤالاً منه إلا بإذنه، وقيل: لا يجترئون أن يخاطبوه، كقوله: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وقيل: لا يملكون أن يبسطوا في الكلام إلا بإذنه، فلا يقولون لغوًا، وإنما يقولون ما يؤذن لهم «**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ**» قيل: الروح جبريل، عن الضحاك، والشعبي، وقيل: ملك من أعظم الملائكة خلقًا، عن ابن عباس، وابن مسعود، وقيل: هو القرآن، عن زيد بن أسلم، وقيل: هم خلق على صورة الآدميين يأكلون ويشربون، عن مجاهد، وقيل:

---

(١) واحدة: واحد؛ غ.

(٢) كلمة فارسية بمعنى (متتابعة) انظر: الدر المنثور ٨/ ٣٩٩.

الروح: بنو آدم، عن الحسن، وقتادة، وقيل: أرواح بني آدم مع الملائكة بين النفختين قبل رد الأرواح إلى الأجساد «صَفًّا» أي: واقفة صفًا «لاَ يَتَكَلَّمُونَ» أي أحد منهم[1] «إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا» وليس في الظاهر أنهم لا يتكلمون بهذا، ويؤذن لهم فيما ذكر، وقيل: الذي يؤذن لهم فيه لا إله إلا الله، وقيل: أن يتكلم بحق، وهو التوحيد والعدل، وما عمل في الشرع، وقيل: يؤذن لمحمد في الشفاعة، والأول أقرب؛ لأن المتكلم والممنوع واحد في الظاهر «ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ» قيل: ذلك اليوم الذي وعد الله به حق، أي: كائن ثابت لا محالة، وقيل: ذلك اليوم الذي يكون الحق لا باطل فيه، بخلاف أيام الدنيا، وقيل: الوعد به حق «فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ» بالطاعة «إِلَى رَبِّهِ» أي: رضائه والموضع الذي يحكم فيه «مَآبًا» قيل: معقلاً، عن ابن عباس، وقيل: مرجعًا، عن سفيان، وقيل: سبيلاً إلى طاعته «إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ» خوفناكم «عَذَابًا قَرِيبًا» قيل: يوم القيامة لقوله: ﴿[وَنَرَىٰهُ][2] قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٧]، عن أبي علي، وقيل: القتل ببدر «يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ» قيل: ينتظر جزاء ما قدمت يداه، أي: يجازى به، وقيل: يرى جميع ما قدم من أعماله، الخير والشر، الصغير والكبير، محفوظًا مكتوبًا مُجَازَى عليه، فعند ذلك يقول الكافر لما يرى من أعماله القبيحة، وما أعد الله له من العذاب: «يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا» قيل: كما كنت قبل البعث، وقيل: متى وفر الله الأعواض على الحيوانات غير المكلفة وانتصف المظلوم من الظالم صيرهم ترابًا، فيتمنى الكافر مثل ذلك؛ ليستريح من العذاب، عن عبد الله بن عمر، ومجاهد، ومقاتل، ومن يقول بدوام الأعواض يقول: يحشرها، فإذا وفر الأعواض حسن الله بعضها، فيتلذذ أهل الجنة بالنظر إليها[3]، ويصير بعضها في النار غير معاقبين، فيكون عقوبة لأهل النار كالحيات والعقارب. وقيل: الكافر: إبليس عاب آدم أنه من تراب، وافتخر بالنار، ويوم القيامة إذا رأى كرامة الله مع المؤمنين قال: ليتني كنت ترابًا، قال أبو هريرة: يقول التراب للكافر: لا، ولا كرامة لك من جعلك مثلي.

---

(١) منهم: منه، غ.

(٢) ما بين المعكوفين في غ كلمة غير واضحة. ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٣) إليها: إليهم، غ.

۞ الأحكام

تتضمن الآية أحكامًا:

منها: نجاة المتقين، وما أعد لهم.

ومنها: أن ذلك جزاء يستحق على أعمالهم.

ومنها: أن الجزاء بقدر العمل؛ لذلك قال: ﴿حِسَابًا﴾

ومنها: أن أحدًا لا يتكلم إلا بإذنه، وهو لا يأذن إلا في الحق، فدل أنهم لا يكذبون، خلاف ما قاله بعضهم.

ومنها: أن العبد مخير، يقدر على اتخاذ سبيل إلى رضا ربه؛ لذلك قال: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ ، والرجوع إليه رجوع إلى رضاه وثوابه؛ إذ ليس له مكان.

ومنها: أن الكافر يتمنى زوال الحياة لشدة ما يناله من العذاب.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

سورة (النازعات) مكية فيما روي، وهي خمس وأربعون آية.

وروى أبي عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة (النازعات) كان حسابه في القبر والقيامة حتى يدخل الجنة كقدر صلاة المكتوبة».

ولما ختم سورة (المعصرات) بذكر القيامة وأحوالها افتتح هذه السورة بذكر ذلك، فاتصل به اتصال المِثْلِ بالمثل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤)
فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا
خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ
خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤)﴾

القراءة

قرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم: «**عظاما ناخرة**» بالألف[1]، وهي قراءة عمر، وأبي عمرو، وابن عباس، وابن مسعود وأصحابه، وابن الزبير، واختاره الفراء لوفاق

---

(١) حجة القراءات ٧٤٨.

رؤوس الآي، وعن الكسائي ويعقوب القراءتين، وقرأ الباقون: «**نخرة**» بغير ألف، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد، وهما لغتان إلا أن النخرة أشهر وأفصح، وعليه أكثر القراء، وهي[1] قراءة أهل الحرمين، ونظير ذلك: الطَّمِعُ والطامع، والحَذِرُ والحاذر، والبَخِلُ والباخل، ومنهم من فَرَّقَ بينهما، وقال: النخرة: البالية، والناخرة: المجوفة التي تمر فيها الريح تنخر، أي تُصَوِّت.

فأما قوله: «**أئنا لمردودون**»، «**أئذا كنا**» فقرأ أبو جعفر الأول بكسر الألف من غير استفهام، والثاني على الاستفهام بهمزة واحدة ممدودة، وقرأ نافع ويعقوب الأول على الاستفهام بهمزة واحدة غير ممدودة، والثاني بكسر الألف غير مستفهم، وقرأ ابن كثير بالاستفهام فيهما بهمزة واحدة غير ممدودة، وقرأ ابن عامر والكسائي الأول على الاستفهام بهمزتين، والثاني بكسر الألف غير مستفهم، مثل نافع، وقرأ أبو عمرو بالاستفهام فيهما بهمزة واحدة ممدودة، وقرأ عاصم وحمزة بالاستفهام فيهما بهمزتين، وقد مضى بيان ذلك[2].

اللغة

النزع: مصدر نزعت الشيء من مكانه: جذبته أَنْزِعُهُ نزعًا، فهو نازع، والأنثى نازعة، والجمع: نازعات، والمِنْزَعُ: الشديد النزع، ونازعت النفس إلى الأمر نزاعًا، كأنه يجره إليه، وبعير نازع: إذا حَنَّ إلى مرعاه، ونازعت فلانًا: جاريته في الخصومة، ومنه المنازعة، ومنه الحديث: «ما لي أنازع القرآن»، وبئر نَزُوعٌ: قريبة القعر، ينزع منها باليد، ويقال: نزع الرامي قوسه وأنزع: إذا مد الوتر للرمي، ويقال: أغرق في النزع: إذا استوفى في مد القوس.

والغرق: اسم أقيم مقام المصدر،[3]وهو الإغراق، وأغرقت النَّبْلَ: مددته غاية المد، فالإغراق الإبعاد في النزع، والمبالغة فيها.

(١) وهي: وهو، غ.
(٢) حجة القراءات ٥٣٥.
(٣) من هنا إلى نهاية السورة غير موجود في نسخة غ.

والإنشاط: حل العقدة، أَنْشَطْتُ العقدة إِنْشَاطًا: إذا حللتها، فهو ناشط، وناشطة، ونشطتها: عقدتها بِأُنْشُوطَة، ونشط هو، ومنه: كأنما أنشط من عقال، ونشاط الرجل من ذلك، وهو ضد الكسل الذي هو الإبطاء، والناشط: الخارج من بلد إلى بلد بالنشاط، والنشط: النزع أيضا، ومنه حديث أم سلمة: «فجاء عمار وكان أخاها من الرضاعة فنشط زينب من حجرها»[1] أي نزعها، نشط ينشط نشطا، فهو ناشط، أي نازع، والأنشوطة: العقدة تنحل: إذا مد طرفها، وقال بعضهم: الإنشاط: الحل، والتنشيط: العقد.

والسبح: الجري والعدو، وأصله السبح في الماء، سَبَحَ يَسْبَحُ، فهو سابح، والاسم: سِبَاحَةٌ، والجميع سابحات، ويكون في الهواء، وقد يكون في الماء، قال الله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

والسابق: الكائن قبل غيره، بأن يتقدمه ويسبقه، سبق يسبق، ومنه السباقَ السباقَ؛ يعني: المسابقة في الطاعات، ومنه: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ [الحديد: ٢١].

والرجف: الاضطراب، والحركة بشدة، ومثله الزلزلة، يقال: رَجَفَ يَرْجُفُ رَجْفًا ورجوفا فهو راجف، وأرجفوا: إذا أزعجوا الناس باضطراب الأمور.

والرادفة: الكائنة بعد الأولى كالردف من الكواكب، وردفهم الأمر ردوفا، وهو رادف، والترادف: التتابع، وأردف الراكب: إذا اتخذ رديفا، والرديف: الذي يرتدفه، وكل شئ تبع شيئا فهو ردفه، ومنه قال: كان نزل بهم أمر، فردف لهم آخر أعظم منه، وإرداف النجوم: تواليها يتبع بعضها بعضا، وأرداف الملوك في الجاهلية: الذين يخلفون الملوك، والرِّدْفانِ: الليل والنهار؛ لأن أحدهما يتبع الآخر.

والرجف والرجيف: شدة الاضطراب، يقال: رجف الشيء: اضطرب، ويرجف رجفا ورجيفا فهو راجف، والأنثى راجفة، وقلب راجف: مضطرب، وأرجف في السير: أسرع، والرجيف: سرعة السير، وأرجفها راكبها إرجافا.

والخاشعة: الكائنة على الذل والخضوع.

---

(١) مسند أحمد رقم ٢٦٧١١.

والحفر: مصدر حفرت الأرض حفرا، ومنه حافر الفرس، كأنه يحفر الأرض به، والحافرة: التراب يستخرج من الحفرة، كالهدم، ويقال: هو اسم المكان الذي حفر، والحافرة: أول الأمر، يقال: رجع على حافرته، أي: رجع من الطريق الذي جاء [منه]، ورجع الشيخ على حافرته: إذا هرم، ويقال: النقد عند الحافر؛ أي: لا يزول حافر الفرس حتى ينقد الثمن؛ لأنه لكرامته لايباع نسأ، ثم كثر حتى فشا في غير الحافر، قال الشاعر:

أَحَافِرَةً عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ ... مَعَاذَ اللهِ مِنْ جَهْلٍ وعَارِ(١)

أي: رجوعًا إلى حال الشباب وأوله.

والعظام: واحد العظم، وهي أجسام صلبة، يشدد بعضها ببعض بالعقد، وينبت عليها اللحم، فبه يكون قوام الحيوان وتصرفه، وأصله مأخوذ من العِظَمِ، وذلك لعظم صلابتها.

والنَّخِرَةُ: البالية، جذع نَخِرَةٌ، أي: بالية متغيرة، ونَخِرَتِ الشجرة: بليت وتفتت، وكذلك العظم، والناخر: الذي تقع فيه الريح، وتخرج منه تخترقه الريح بشدة هبوبها، ويقال: ما بالدار ناخر، أي أحد، قال الشاعر:

مِنْ بَعْدِ مَا كَانَتْ عِظَامًا نَاخِرَةْ(٢)

أي: بالية.

والكَرَّةُ: المَرَّة، وهي الواحدة، من: كَرَّ يَكِرُّ كَرًّا، وكَرَّةً، وهي كالضربة من الضرب.

والخاسر: الذاهب رأس ماله، خسر فهو خاسر، والخسران: ذهاب رأس المال.

---

(١) الصحاح (حفر)، وورد البيت برواية أخرى: معاذَ اللهِ من سفهٍ وعارِ.

(٢) اللسان (نخر). هذا بيت من خمسة أبيات من مشطور الرجز، قالها الهمداني يوم القادسية، يخاطب بها فرسه، وتكملته:

فإنما قَصْرُكَ تُرْبُ السَّاهِرَةْ ... ثم تعودُ بعدها في الحافرةْ

ومعنى قوله: قصرك؛ أي: نهاية أمرك وغايته.

والزجر: الحدث الصارف من الشيء، والزجرة: الصيحة الهائلة يكرّ بها أمر من الأمور، وأصل الزجرة من النهي[1]، زجره زجرا.

والساهرة: الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض من الفلا ساهرة، أي ذات سهر؛ لأنه يسهر بها خوفًا منها، قال الشاعر:

إِنَّمَا قَصْرَكَ تُرْبُ السَّاهِرَةْ ثُمَّ تَعُودُ بَعْدَهَا فِي الْحَافِرَةْ

والسَّهَرُ: الأرق، والساهرة... على مثل جاء المتيقظ، في أنها مهيأة لما نزلا عليها.

الإعراب

الواو في (**النازعات**) واو القسم، فيكون ما بعده بالكسر، وقيل: القسم بهذه الأشياء تنبيه على موضعها من النعمة والقدرة، وقيل: برب هذه الأشياء، عن أبي علي، واختلفوا في جواب القسم فقيل: محذوف، كأنه قيل: لتبعثن للجزاء يوم ترجف الراجفة، هذا قول أكثر النحويين، وهو الوجه، ثم اتصل به صفة البعث، ووقته.

وقيل: بل جوابه مذكور، ثم اختلفوا فقيل: جوابه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾، وقيل: جوابه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾﴾ و(هل) بمعنى (قد)، كأنه قيل: ورب النازعات قد أتاك حديث موسى.

وقيل: جوابه ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ ، عن أبي علي.

النزول

روي أن أبي بن خلف أخذ عظما باليا، وقال: أتعدنا يا محمد، وقد صرنا هكذا أنّا لمردودون خلقا جديدا؟ فقال: «نعم تبعث بعد الموت ثم تدخل النار»، فقال عند ذلك: تلك إذا كرة خاسرة علينا، على وجه الإبعاد والإنكار فنزلت الآيات.

---

(١) النهي: المضي.

۞ المعنى

«**وَالنَّازِعَاتِ**» اختلف العلماء في هذه الخمسة الأحرف «**النازعات ـ والناشطات ـ والسابحات ـ والسابقات ـ والمدبرات**» فقال ابن عباس ومجاهد: المراد بالجميع الملائكة، وزيف أبو مسلم هذا القول، وذكر أنه لا دليل على هذا، وأنه لا يجوز تأنيث الملائكة، والوجه أن يراد بها الملائكة؛ لأنه أضاف الفعل إليهم، ولأنهم أجمعوا أن المراد بالمدبرات الملائكة، عن أبي مسلم، وهو محجوج بالإجماع. وقال الحسن وقتادة وأبو علي: المراد بالأربعة الأولى النجوم، وبالمدبرات الملائكة. وقال أبو مسلم: المراد بالجميع الغزاة، والرماة في سبيل الله.

فأما غير هؤلاء من المفسرين فاختلفوا، ونبين ما قيل فيه حرفًا حرفًا[1].

قوله: «**والنازعات**» قيل: الملائكة تنزع الأرواح من الأبدان، عن ابن عباس، ومسروق. وقيل: هي الملائكة تنزع أرواح الكفار بشدة، عن أبي علي، ومقاتل، وسعيد بن جبير. وقيل: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق، تطلع ثم تغيب، عن الحسن، وقتادة، وابن كيسان، وأبي عبيدة، والأخفش، وأبي علي. وقيل: القِسِيّ تنزع بالسهم، عن عطاء، وعكرمة. وقيل: النفوس تنزع بالخروج من البدن، عن السدي. وقيل: هو الموت ينزع النفوس، عن مجاهد. وقيل: الغزاة الرماة. وقيل: النازعات: أيدي الرماة إذا مدت القوس للرمي، عن أبي مسلم. وقيل: النازعات ملك الموت وأعوانه، عن الكلبي.

«**غرقاً**» يعني إغراقًا أي إبعادًا في النزع ومبالغة فيه كما يغرق النازع في القوس: إذا بلغ به غاية المد. وقيل: أراد المبالغة في نزع النجوم. وقيل: أراد نَفَسَهُ في صدره عند الموت والمبالغة فيه.

«**والناشطات نشطاً**» قيل: الملائكة تنشط بأمر الله إلى حيث كان، عن ابن عباس. وقيل: الملائكة تقبض روح المؤمن برفق كأنه أنشط من عقال؛ أي حل العقال عن يد

---

(١) حرفا: وحرفا.

البعير، عن ابن عباس أيضًا. وقيل: هي نفس المؤمن تنشط للخروج؛ لأنه تُعرض عليه الجنة، ويرى موضعه فيدعوه إليه، عن ابن عباس أيضًا. وقيل: هم الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الجلد والأظفار حتى تخرجها من أجوافهم بالكرب والغم، عن أبي علي. وقيل: هو الموت ينشط نفس الإنسان، عن مجاهد. وقيل: هي النجوم تنشط من المشرق إلى المغرب، عن قتادة، وأبي علي، والأخفش. وقيل: هي الوحش تنشط من بلد إلى بلد، عن عطاء. وقيل: الناشطات السهام، وهي خروجها عن أيدي الرماة ونفوذها نحو الرمية، وكل شيء حللته فقد أنشطته، ونشط هو، عن أبي مسلم.

«**والسَّابحات سبحاً**» قيل: الملائكة تسبح في الجو عند نزولها بأمر الله تعالى كما يقال للفرس يسبح في جريه: إذا أسرع، عن ابن عباس، ومجاهد، وأبي صالح. وقيل: الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين، عن علي[1]. وقيل: الملائكة يقبضون الأرواح، عن الكلبي. وقيل: هي النجوم والشمس والقمر تسبح في فلكها، عن قتادة، وأبي علي. وقيل: هو السفر، عن عطاء. وقيل: هو الخيل أو الخيل والإبل، والسبح: العَدْوُ، وأراد خيل الغزاة، وذلك كقوله: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ﴾ [العاديات: ١]، عن أبي مسلم.

«**فالسبقات سبقاً**» قيل: الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، عن مقاتل. وقيل: الملائكة يسبقون إلى الخير قبل بني آدم. وقيل: يسبقون الجن إلى الوحي. وقيل: يسبقون إلى الأنبياء بالوحي. وقيل: السابقات أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة القابضة، وقد عاينت السرور شوقًا إلى رحمة الله وكرامته، عن ابن مسعود. وقيل: هو[2] بنو آدم سبقت بالخير والطاعة، عن مجاهد. وقيل: هي النجوم يسبق بعضها بعضًا في السير، عن قتادة، وأبي علي. وقيل: السابقات الخيل السابقة، عن عطاء، وأبي مسلم.

«**فالمدبرات أمراً**» قيل: هم الملائكة تدبر الأشياء بأمر الله تعالى، عن ابن عباس،

(١) علي: عطاء.

(٢) هم: هو، غ.

وقتادة، وعطاء بن السائب، وأبي علي، وجماعة. وقيل: ينزلون بالتدبير والأحكام، فكأنها المدبرة. وقيل: التدابير إلى أربعة: جبريل، وإليه تدبير الرياح والجنود، وميكائيل: وإليه تدبير المطر والنبات، وملك الموت، وإليه قبض الأرواح، وإسرافيل ينزل بالأمر عليهم. وذكر أبو مسلم أن المراد بـ(المدبرات أمرًا) المعقبات أمرًا عند لقاء العدو وهو النصر والفتح؛ أي: تأتي بالنصر بعد هذه الأفعال، وهو نزع السهام، وسبح الخيل، وسبقها إلى الأمر الذي هو النصر، وهاهنا موضع جواب القسم تقديره: برب هذه الأشياء لتبعثن، فكأنه قيل: متى يكون ذلك؟ فقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ أي: يضطرب المضطرب ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ المتَّبعُ قيل: هو النفخة الأولى التي يتزلزل لها كل شيء ويتحرك، وتتبعها الرادفة وهي النفخة الأخيرة، وبينهما أربعون سنة. وقيل: هما نفختان؛ أي: صيحتان، أما الأولى فتميت الأحياء، وأما الثانية فتحيي الموتى بإذن الله، عن الحسن، وقتادة. وقيل: ﴿تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ تتزلزل الأرض والجبال ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ تنشق السماء ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، عن مجاهد. وقيل: الراجفة: القيامة، والرادفة: البعث. وقيل: الراجفة: الموت، والرادفة: الساعة، عن ابن زيد. وقيل: الراجفة: الأرض تضطرب وتزلزل، والرادفة: زلزلة تتبع هذه الأولى فينقطع بذلك، عن أبي علي. وقيل: هي اضطراب عسكر الكفار، سبقت إحداهما يوم أحد، والرادفة تتبع الأولى يوم الخندق. وقيل: هما طائفتان من المشركين قاتلا رسول الله والمؤمنين في حرب أحد، فسبقت إحداهما الأخرى، وفي حربين جاءت الثانية عقيب الأولى، عن أبي مسلم. والأولى أن المراد اضطراب الأرض، كقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة: ٤].

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ قيل: خائفة، عن ابن عباس. وقيل: وجلة. وقيل: زائلة عن أماكنها، عن السدي. وقيل: مسودة، عن قطرب. وقيل: مضطربة، عن أبي علي، وأبي مسلم، والمبرد. واختلفوا في هذا اليوم، فالأكثر على أنه يوم القيامة، وقيل: يوم أُحُدٍ والخندق أو غيره من غزاوت النبي ﷺ، قلوب المنافقين مضطربة من الخوف لما رأت خيل العدو أقبلت، وجاءت الرادفة جبنًا وضعفًا وقلة بصيرة من حيث لم يكونوا مؤمنين بنصر الله، عن أبي مسلم.

«**أبصارها خاشعة**» أي: ذليلة خاضعة، ظهر عليها آثار الذل ﴿يَقُولُونَ﴾ يعني هؤلاء منكرين البعث من مشركي قريش وغيرهم في الدنيا إذا قيل لهم: إنكم مبعوثون من بعد الموت ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ قيل: الحياة الثانية، عن ابن عباس والسدي، وقيل: الحافرة: الأرض المحفورة، أي من قبورنا بعد موتنا أحياء، وقيل: حافرة بمعنى محفورة، كماء دافق يعني مدفوق، أي: نرد إلى الأرض، ثم نبعث خلقا جديدا، ثم نرد إلى قبورنا أمواتا، عن مجاهد، وقيل: يقول المشركون ممن ينكر البعث: إنا لمردودون بعد الموت، وقيل: إنا لنرد إلى أول الأمر، وابتداء الحال فنصير أحياء كما كنا قبل الموت، وقيل: في الحافرة، أي: في خلق جديد، عن الحسن، وقيل: سميت الأرض حافرة؛ لأنها مستقر الحوافر، وقيل: معناه: نرد فنمشي على أقدامنا، عن قتادة، وقيل: إنه اسم من أسماء النار عن ابن[1] زيد، وقيل: هذا يقولونه يوم القيامة تمنيا، أي: ليتنا نرد في الحافرة ميتا «**أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً**» أي: بالية، والنخرة: مجوفة تنخر الرياح فيها، وقيل: هما سواء، وقيل: نخرة أوضح في المعنى، والناخرة أشكل برؤوس الآي «**قَالُوا**» يعني الكفار «**تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ**» رجعة «**خَاسِرَةٌ**» قيل: خاسرة على ما تَعِدُنَا، وقيل: خاسرة: كاذبة ليست كائنة، عن الحسن، وقيل: خاسرة، أي: ذات خسران علينا، فأجابهم الله تعالى، فقال: «**فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ**» أي: صيحة واحدة، ونفخة واحدة «**فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ**» قيل: وجه الأرض، عن الحسن، وقتادة، ومجاهد، والضحاك، أي: من بطن الأرض إلى ظهرها، وقيل: بين الأرض الآخرة، وقيل: سميت ساهرة؛ لأنهم يسهرون نومهم، وقيل: هي أرض بالشام، عن سفيان، وقيل: بين جهنم، عن قتادة.

۞ الأحكام

تدل الآية على تأكيد أَمْرِ البعث، وذكر أهوال القيامة، ومايقول منكر البعث، وما يجابون.

وتدل على عظيم قدرته في إعادة جميع الخلق دفعة واحدة.

وتدل على أنهم سيبعثون على وجه الأرض.

(١) ابن: أبي.

قوله تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾
فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ
وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ
وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «طُوَى» غير منون[(١)]، الباقون منونة، والقراء على ضم الطاء، وعن الحسن بكسرها.

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير ويعقوب: «يُزَّكَّى» بتشديد الزاي على تقدير: «تتزكى»، وروي نحوه عن أبي عمرو، والباقون بتخفيفها[(٢)].

اللغة

الطغيان: مجاوزة الحد في الفساد، طغا طَغْيًا، فهو طاغٍ، ونظيره البغي، بغى يبغي، فهو باغٍ، يقال: بغا وطغا وعتا من النظائر، وقوم طُغَاةٌ وبغاة.

والزكاة: النمو في الخير، والزاكي: النامي في الخير، والتزكي: طلب الطالب أن يصير زاكيا، تزكى تزكيا، والخشية والخوف بمعنى، خشي يخشى خشية.

والإدبار: نقيض الإقبال، والإدبار مأخوذ من تولية الدبر، ويقال: أدبر: إذا اضطربت[(٣)] عليه أموره، وأقبل: إذا استقامت[(٤)] له أموره، كأنه مقبل إلى الخير، أو ذاك مدبر عنه.

(١) حجة القراءات ٤٥١.
(٢) حجة القراءات ٧٤٨.
(٣) اضطربت: اضطرب.
(٤) استقامت: استقام.

والحشر: الجمع من كل جهة، ومنه: الحاشر الذي يجمع الناس، ومنه: يوم الحشر يوم القيامة.

والنكال: العقوبة التي تنكل الناس عن فعل ما جعلت له جزاء، وأصله: المنع، ومنه سمي القيد نكلا، والقيود أنكالا؛ لأنه ينكل به، أي: تمنع، ونَكَلَ عن الأمر يَنْكُلُ على مثال: نَصَر ينصر، ونَكِلَ يَنْكَلُ: إذا امتنع على مثال: عَلِمَ يَعْلَمْ، ومنه: النكول عن اليمين، وأنكلت الرجل عن حاجته: منعته، والنكال: العقوبة؛ لأنها تمنع عن الإقدام على مثل سببه، نَكَّلَ به تنكيلا: إذا شوه به في عقابه.

والعبرة: الدلالة التي يدرك بها الحق، وأصله من العبور، كأنه عبر به إلى الحق، اعتبر به اعتبارا، وعبرة، ومنه: عبور النهر، وتعبير الرؤيا.

۞ الإعراب

﴿طُوًى﴾ لا ينصرف؛ لأنه اسم البقعة من الوادي معرفة، ويحتمل أن يكون معدولا من «طاو» عند الزجاج، ومن صرفه احتج بقول طرفة(١):

أعاذلُ إن اللومَ في غير كُنْهِهِ   عَليَّ طُوًى مِنْ غَيِّكِ المُتَرَدِّدِ

﴿نَكَالَ﴾ نصب على المصدر أي: نكل به نكالاً، و(أخذه) يقوم مقام نَكَلَ، وقيل: نصب بنزع حرف الصفة، أي: بنكالٍ.

۞ النظم

يقال: كيف يتصل حديث موسى بما قبله؟

قلنا: لما تقدم ذكر المكذبين للرسول المنكرين للبعث عقَّبه بذكر موسى، وتكذيب قومه، وما قاسى موسى من الشدائد تسلية للنبي ﷺ، وحثا على الصبر، ووعد بالنصر، كما نصر موسى، ووعيد للمكذبين من قومه، وعظة لهم، وتحذيرا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك، وتأكيدا للحجة عليهم.

---

(١) نسب البيت في اللسان إلى عدي بن زيد، مجمع البيان ١٠/ ٢٥٦. انظر اللسان (ثني).

۞ المعنى

ثم ذكر قصة موسى عليه السلام فقال سبحانه: «هَلْ أَتَاكَ» يا محمد «حَدِيثُ مُوسَى» هذا استفهام، والمراد التقرير، كما يقول الرجل لصاحبه: أعلمتَ كذا؟ فيقول: لا، وإني لمحتاج إلى معرفته، فيخبره بذلك، فخرج الكلام على حد التزيد يطلع السامع إلى شرحه والإبانة عنه «إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ» أي دعاه وقال: يا موسى، «بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ» المطهر «طُوًى» قيل: وادٍ، عن مجاهد، وقتادة، وقيل: طوى بالبركة، عن الحسن، وقيل: طوى بالتقديس، وقيل: واد بالشام عند الطور، عن أبي مسلم. وقيل: هو الموضع الذي كلم الله فيه موسى، عن أبي علي. «اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ» فيه حذف، أي ناداه: يا موسى، ثم أمره بالذهاب، فقال: «اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى» أي: جاوز الحد في الطغيان «فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَن تَزَكَّى» أي: هل تفعل يافرعون ماتصير به زكيا؟ أي: طاهرا عند الله، وهو أن يسلم، وذلك يشتمل على قبول ما يتعلق بالأصول والفروع، والتطهر من أدناس الكفر والفسق، وهذا تلطف في الاستدعاء، وإنما خص فرعون، وإن كان مبعوثا إلى الكل؛ لأنه كان الأصل فيهم، وهو يضلهم «وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ» أي: أدلك على معرفة الله، وأنه خلقك ورباك «فَتَخْشَى» قيل: فتخافه، فتفارق ما ينهاك عنه، وقيل: تعرفه، وتخشى عقابه، عن أبي علي «فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى» في الآية محذوف، وهو أنه جاء فرعون، وأدى رسالة ربه، وأراه الحجة الكبرى، وهي العصا تصير حية تسعى، واليد بيضاء تتلألأ من غير سوء «فَكَذَّبَ» فرعون موسى فيما أتاه به «وَعَصَى» قيل: عصى موسى، وقيل: عصى الله «ثُمَّ أَدْبَرَ» أي: تولى وأعرض عن الإيمان به «يَسْعَى» يعمل بالفساد، وقيل: لما رأى الحية في عظمها خاف منها فأدبر وسعى هربا، عن أبي علي «فَحَشَرَ» أي: جمع السحرة، وقيل: جمع الناس «فَنَادَى» فيهم «[فَقَالَ] أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى» قيل: ليس ربٌّ فوقي، أراد أن يلبس عليهم، وقيل: أراد أن الأصنام أرباب، وأنا ربها وربكم، وقيل: أراد: القادة والسادة[1]، وقيل: إنما ناداهم وقال: أنا ربكم فامنعوني من هذا الساحر، ومن هذه الحية، وهم ـ لفرط جهلهم ـ قبلوا ذلك مع ظهور ضعفه واستعانته بهم، فلما ظهرت الحية ولم يؤمن

(١) والسادة: والسيادة، غ.

«أَخَذَهُ اللهُ»، أي: عاقبه «نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى» يعني في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بالنار، عن الحسن، وقتادة، وقيل: نكال كلمته الأولى والأخرى، فالأولى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، والأخرى قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، عن ابن عباس، ومجاهد والشعبي، وقتادة، وقيل: كان بينهما أربعون سنة «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً» لعظة «لِمَنْ يَخْشَى» عقاب الله تعالى، ونقمته.

❁ الأحكام

يدل قوله تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ أن الهداية هي الدلالة، والطريق إلى معرفة الله تعالى، لا نفس الإيمان.

ويدل قوله: ﴿هَل لَّكَ﴾ على أن الواجب على الداعي إلى الدين أن يبتدئ باللطف والرفق.

ويدل قوله: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ﴾ أن الحجة إنما تلزم بظهور المعجز.

ويدل قوله: ﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ أن عقوبة إحدى الدارين لا تمنع عقوبة الدار الأخرى.

ويدل قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ على وجوب التدبر في الأدلة والأمثال، وخص من يخشى؛ لأنهم ينتفعون به.

وتدل الآيات على أن أفعال العباد حادثة من جهتهم، منها قوله: ﴿طَغَىٰ﴾ وقوله: (كذب ـ وتولى ـ ونادى).

قوله تعالى:

﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩)
وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن
يَرَىٰ (٣٦)﴾

القراءة

قراءة العامة: «**والأرض بعد ذلك**»، وعن مجاهد «**عند ذلك دحاها**»[1] ولعله قاله تفسيرًا.

قراءة العامة: «والأرضَ» بالنصب، على تقدير: ودحا الأرض، وقرأ الحسن «**والأرضُ**» بالرفع على الابتداء[2].

قراءة العامة: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ بنصب اللام على تقدير: أرسى الجبال، وقرأ عمرو بن عبيد بالرفع على الاستئناف[3].

اللغة

السَّمْكُ: الارتفاع، ومنه سمي السقف سَمْكًا، يقال: سمك: ارتفع، والمسموكات: السموات لارتفاعها، ومنه حديث علي: «يا بارئ السبع المسموكات»، ويقال: سنام سامك، أي: عال، وقال الفرزدق:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا ... بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ[4]

ونقيض السَّمْكِ: العمق، والسمك: البناء في العلو، والعمق في السفل.

والتسوية: جعل أحد الشيئين على مقدار الآخر في نفسه ومعناه، سَوَّاهُ يُسَوِّيهِ تسوية.

والغَطَشُ: الظلمة، وغطش الليل: أظلم، وأغطشه الله تعالى: أي أظلمه، والأغطش: الذي في عينه شبه العمش، والمرأة غطشى، وفلاة غطشى: لا يهتدى فيها.

والدَّحْوُ: البسط، دحا دحوا، يَدْحُو ويَدْحَى، نحو: طغى يطغو ويطغى، وصفا يصفو ويصفى، ومحا يمحو ويمحى.

---

(١) الطبري ٢٤/٢٠٩.
(٢) القرطبي ١٩/١٧٨.
(٣) القرطبي ١٩/١٧٩.
(٤) اللسان (كبر).

والمرعى: النبات الذي يصلح لرعي الماشية، وهي ترعاه بأن تأكله، رعيت رعيا ومرعى، ثم يسمى النبات الذي[1] يصلح أن يُرعى به: مرعى.

والإرساء: الإثبات بالثقل، رست السفينة: ثبتت بثقلها.

الطامة: الغاشية الغليظة، التي توفي كل شيء بالغلظ والكثرة، وقيل: الطامة الغالبة العالية، يقال: هذا أَطمُّ من هذا؛ أي أعلى منه، ومنه: الماء الطامي: الكثير الزائد، يقال: طم الماء: كثر وعلا وغلب، وقيل: الطامة: (الداهية) الهائلة، وطم الأمر: غلب، وسميت القيامة طامة؛ أنها تغلب[2] كل شيء، وطم الطائر الشجرة: عَلاَها، وسميت الداهية التي لا يستطاع دفعها طامة؛ لأنها تغلب[3]، وطَمَّ الفرس طَمِيًّا: إذا استفرغ جهده في الجري.

والتبريز: إظهار الشيء: أتم الظهور، ومنه رجل مُبَرَّزٌ في الفضل: إذا ظهر به أتم الظهور، وبارز قِرْنَهُ: إذا ظهر إليه من بين الجماعة، ومنه: المبارزة.

۞ الإعراب

(ها) في ﴿بَنَنهَا﴾ في محل النصب. ﴿مَتَعًا﴾ نصب على الحال، وهو مصدر وُضِعَ موضعَ الحال.

۞ المعنى

لما تقدم ما أتى به موسى، وما قابله فرعون، وما عوقب به بَيَّنَ عقيبه عظة لمن كان على عهد رسول الله، وحذرهم المَثُلاَت، فقال سبحانه: «**أَأَنْتُمْ**» أيها المشركون المنكرون للبعث، وقيل: أأنتم[4] أيها الناس، استفهام، والمراد الإنكار «**أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ**» مع شدتها «**بَنَاهَا**» الله، يعني: مَنْ قَدَرَ على خلق السماء ورفعها من غير عمد، وأجرى النجوم فيها، وقدر على إحيائكم بعد الموت «**رَفَعَ سَمْكَهَا**» أي: سقفها «**فَسَوَّاهَا**» أي: أحكمها حتى ليس فيها فطور، ولا تفاوت، ولا [عوجا]، وقيل:

---

(١) الذي: التي.
(٢) لأنها تغلب: لأنه يغلب.
(٣) لأنها تغلب: لأنه يغلب.
(٤) أأنتم: أنتم.

جعلها محكما متصرفا للملائكة «وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا» أي: أظلم ليلها، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، ، وابن زيد، وإنما أضاف الظلام والضياء إلى السماء؛ لأن منها ينشأ الظلام والضياء، لطلوع الشمس وغروبها على ما قدره الله تعالى. «وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا» قيل: نورها، عن مجاهد، والسدي، كقوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣] قال الشاعر:

فَـقَـلْـتُ لَـهَـا فِـيـئِـي إِلَـيْـكِ فَـإِنَّـنـي ... حَـرَامٌ وَإِنِّـي بَـعْـدَ ذَاكِ لَـبِـيـبُ[١]

أي: مع ذلك.

وقيل: خلق الأرض أولا من غير دحو قبل السماء، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، ثم دحا الأرض بعد ذلك، عن ابن عباس، وقيل: دحيت الأرض من تحت البيت، يعني الكعبة، وكان خُلقِ قبل الدنيا بألفي عام، عن ابن عباس، وعبد الله بن عمر، وقيل: (بعد) بمعنى (قبل): كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] أي: من قبل الذكر، وهو القرآن، قال الشاعر:

حَـمِـدْتُ إِلَـهِـي بَـعْـدَ عُـرْوَةَ إِذْ نَـجَـا ... خَرَاشٌ وَبَعْضُ الشَّر أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ[٢]

وخراش نجا قبل عروة على ما روته الرواة.

«أَخْرَجَ مِنْهَا» من الأرض «مَاءَهَا» الذي به[٣] حياة كل شيء من الحيوانات والأشجار، والنبات، والحبوب، وبه يحصل جميع الأرزاق «وَمَرْعَاهَا» المرعى: العشب ونحوها، فَبيَّنَ جميع المنافع المتعلقة بالأرض تنبيها على أن لها صانعا، ومدبرا، وأنه أنعم وبما، ويجب له الشكر «وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا» أثبتها «مَتَاعًا لَكُمْ» أي: تنتفعون بها وبما يخرج منها مأكولا ومشروبا وملبوسا وزينة، وكذلك المنفعة بالجبال لما فيها من أنواع المعادن، وما يتفجر منها من العيون «وَلِأَنْعَامِكُمْ» يعني: منفعة لأنعامكم، وهو العشب.

ولما دل بهذه الأشياء على أنه قادر على البعث، وصف يوم البعث فقال سبحانه:

---

(١) البيت ينسب للمضرب بن كعب، الصحاح (بعد)، وتاج العروس (لبب)، واللسان (ليب).

(٢) معجم البلدان ٤/ ٤١٣.

(٣) الذي به: التي بها.

«**فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى**» وهو القيامة؛ لأنها تطم على كل هائلة وداهية، أي تعلو وتغلب، وقيل: الداهية العظمى، وقيل: الطامة النفخة الثانية، عن الحسن، وقيل: حين يساق أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار «**يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى**» يعني: يذكر عند قراءة الكتب ما عمل في الدنيا من خير أو شر، وعلم أنه لم يذهب منه صغير ولا كبير «**وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ**» أي: ظهرت النار لمن رآها، وقيل: يراها بارزة، ويعلم أنها مَقَرُّه.

۞ الأحكام

الآيات تدل على صحة البعث بما بَيَّنَ من خلق السماء، والأرض والجبال، والنور والظلمة؛ لأن البعث إعادة الجواهر بعد إفنائها وإحيائها. والإنشاء هذا إيجاد، فإذا جاز البقاء على الجواهر وهو تعالى قادر لذاته، فلا مانع من جوازه.

وتدل على عظيم حال القيامة، وكثرة أهوالها.

قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر والعباس عن أبي عمرو: «منذر» بالتنوين، الباقون بغير التنوين[1].

۞ اللغة

الإيثار: اختيار الشيء على غيره، فمن آثر الدنيا على الآخرة فهو مذموم، ومن آثر الآخرة فهو ممدوح.

---

(١) القرطبي ١٩/ ١٨٣.

و(أيان) معناه: متى، وكثر استعماله في السؤال عن الزمان، ونظيره في السؤال عن المكان (أين).

والإرساء: الثبوت، رست السفينة ترسو رُسُوًّا، وهي راسية، والمرسى: قيامها ثابتة، ويحتمل أن يكون [المراد به][1] المرسى المصدر، يجوز أن يكون وقت الإرساء، يقال: أرسيت إرساء ومرسى، كقولهم: أجريت إجراء ومجرى.

والمنتهى: موضع بلوغ الشيء.

۞ الإعراب

قوله: ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ لم تذكر هاء الإضافة؛ لأن ذكر الفعل عقيب السبب يدل على أنه متعلق به، فأغنى عن الإضافة، وقيل: الألف واللام زائدتان، والهاء زيادة تمنع من إلحاق زيادتين به، وقيل: الألف واللام بدل من المضمر، كقوله: مررت برجل حَسَنِ الوجه.

۞ النزول

قيل: قالوا لرسول الله ﷺ: قد أكثرت من ذكر القيامة، فمتى يكون ذلك؟ فنزلت الآيات.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أحوال الناس يوم القيامة، فقال سبحانه: «**فَأَمَّا مَنْ طَغَى**» أي: جاوز الحد في العصيان «**وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**» أي: اختارها فعمل لها، وتمتع بملاذها، ولم يعمل للآخرة «**فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى**» أي: المرجع لأولئك «**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ**» قيل: مقامه للعرض والحساب، وأضاف إلى الرب؛ لأنه الآمر به، والحكم إليه، والمقام: هو مقام العرض للجزاء والانتصاف من الظالم للمظلوم، وقيل: مقامه في كونه عالما بكل معلوم «**وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى**» أي: امتنع عن ارتكاب المعاصي مع

(١) ما بين المعكوفين أثبتناه من: التبيان في تفسير القرآن للطوسي: ١٠/٢٥٦.

أن نفسه تدعوه إليها وهواه، فكأنه بالامتناع نهى عن ذلك، فذكر النهي توسعا «**فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**» أي: مصيره «**يَسْأَلُونَكَ**» يا محمد «**عَنِ السَّاعَةِ**» القيامة «**أَيَّانَ مُرْسَاهَا**» أي: متى يثبت أمرها بقيامها، وإنما سألوا قيل: تكذيبا، وقيل: إيهاما لأتباعهم أنما يَعِدُ به باطل «**فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا**» قيل: ليس عندك عِلْمٌ بوقتها، ومتى يكون، وإنما علمك أنها تكون لا محالة، عن الحسن، وقيل: ليس هذا مما يتصل بما بُعِثْتَ لأجله، إنما بُعِثْتَ داعيا، وقيل: «**فيم**» تم الكلام، أي: في ماذا سؤالهم عما لا يعنيهم؟ ثم ابتدأ فقال: «**أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا**» أي: من أعلامها، فإنك خاتم الأنبياء «**إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا**» يعني منتهى علمها، أي: لا يعلم وقتها إلا هو، عن الحسن، أي: انتهى علمها إليه فقط، وقيل: إلى ربك منتهى أمرها بإقامتها؛ لأنه لا يقدر عليه إلا الله «**إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ**» مُخَوِّفُ «**مَن يَخْشَاهَا**» يعني: يخشى القيامة، وخصهم بذلك؛ لأنهم ينتفعون به، فكأنه المنذر لهم دون غيره، قيل: صغرت الدنيا في أعين القوم حتى رأوا الآخرة، عن قتادة «**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا**» قيل: أراد أهوال القيامة، وما دفعوا إليه من العذاب، كأن لم يلبثوا إلا ساعة، وقيل: تذهلهم تلك الأهوال عن التفكر في أيام الدنيا وساعاتها فيرونها ساعة، وقيل: في جنب الآخرة يرون الدنيا ساعة، فيستقصرون أيام الدنيا، ويعظمون الآخرة، وقيل: استقلوا الدنيا؛ لأنها عندهم كأحلام نائم، وقيل: أراد لبثهم في القبور «**إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا**» أي: حد ساعتي النهار، إما ضحوة وإما[1] عشية مساء.

۞ الأحكام

تتضمن الآيات أحكامًا:

منها: تبيين حال المطيع من حال العاصي، وأن الجنة تنال بالطاعة، والنار تستحق بالمعاصي، على ما يقوله، خلاف ما يقوله أهل الجبر.

ومنها: أن من آثر الدنيا وعمل لها غافلا عن الآخرة فقد ارتكب أمرا قبيحًا.

---

(١) وإما: أو.

ومنها: أن الجنة تنال بإيثار الطاعة، والاجتناب عن المعاصي؛ لأن قوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ يشتمل على جميع ذلك.

ومنها: أن وقت القيامة لا يعلمه غير الله.

ومنها: أنهم يستقلون الدنيا عند معاينته.

ومنها: أن الطاعة والمعصية فِعْلُ العبد؛ لذلك قال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ فيبطل الجبر.

سُورَةُ عَبَسَ

سورة (عبس) مكية، خمس وأربعون[1] آية.

وعن أُبَيٍّ عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (عبس وتولى) جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر».

ولما ختم السورة بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥] افتتح هذه السورة بذكر إعراضه عمن لا يخشاها، وإقباله على قوم يرجو إسلامهم تأديبًا لأمته.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ (٢) وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخۡشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢)﴾

القراءة

قرأ عاصم: «فَتَنْفَعَهُ» بنصب العين على جواب (لعل) بالفاء، الباقون: بالرفع عطفًا على قوله: «تزكى» و«يذكر»[2].

(١) خمس وأربعون: أربعون وخمس، غ.

(٢) حجة القراءات ٧٤٩.

قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير: «تَصَّدَّى» بتشديد الصاد على الإدغام، وأصله تتصدى، الباقون بتخفيفها على حذف التاء(١).

قرأ ابن كثير: «تلهّى» بإدغام التاء في اللام، وأصله: (تتلهى) الباقون بالتخفيف على الحذف(٢).

اللغة

العبوس: تقطيب الوجه عن تكره، ونظيره: البسور والتقطيب، يقال: عبس فلان في وجه فلان، ومنه: العباس.

والتولي: الإعراض.

يَزَّكّى: أصله يتزكى فأدغمت التاء في الزاي، كما أدغمت في (يَذَّكَّرُ) وأصله يتذكر، والتزكية: التطهير، والتذكر: طلب الذكر.

والتصدي: التعرض للشيء كتعرض العطشان للماء، وأصل الصدى العطش، رجل صَدْيَانُ أي عطشان، والصدى: الصوت الذي يُرَدُّ من الجبل وغيره عند صوت الناس، ورجل صَدٍ، وامرأة صَدْيا، ويقال: صَادٍ وصَادِيَة، أي: عطشان، وتصدى الأمر: يستشرفه ناظرًا إليه، وسمي الصدى؛ لأنه بالجفاف صار كجفاف حلق العطشان، وقيل: كأنه يتعرض للكلام فيأتي بمثله.

والتلهي عن الشيء: الإعراض عنه، والتلهي به: الإقبال عليه، يقال: لَهِيتُ عن الشيء أَلْهَى إذا غفلت عنه، ويقال: ألهاني فلهيت، ومنه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].

الإعراب

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ فعل ماضٍ.

﴿أَن جَآءَهُ﴾ لِأَنْ جاءه.

---

(١) حجة القراءات ٧٥٠.

(٢) روح المعاني ٢٠/ ٤١.

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ الكناية تعود إلى السورة، وقيل: إلى الآية، وقيل: إلى القصة.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ الكناية إما أن تعود إلى القرآن، وإما[1] إلى الذكر.

النزول

قيل: نزلت الآيات في عبد الله بن أم مكتوم أتى رسول الله صلى الله عليه، وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأُبّي بن خلف وأمية بن خلف، يدعوهم إلى الله، ويرجو إسلامهم، فقال: يا نبي الله، عَلِّمْني مما علمك الله، وجعل يناديه، ويكرر النداء، ولا يعلم ما هو منشغل به حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه لقطعه كلامه، وقال في نفسه: «يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد»، فأعرض عنه، وأقبل على القوم يدعوهم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فكان رسول الله صلى الله عليه بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه قال: «مرحبًا بمن عاتبني ربي فيه»، ويقول: «هل لك من حاجة»، واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين، عن الحسن، وجماعة، وكان مؤذنه وخليفته على الصلاة، قال أنس: رأيته يوم القادسية، عليه درع، ومعه راية سوداء. قال ابن زيد: كان يقال: لو كتم رسول الله صلى الله عليه شيئًا من الوحي لكتم هذا.

وقيل: الأعمى ابن أم مكتوم، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد.

وقيل: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾ نزلت في عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، عن مجاهد. وقيل: نزلت في العباس، عن سفيان.

وليس في ظاهر الآية ما يدل على أنه نزل في رسول الله ﷺ، ولا تواترت به الأخبار، وإنما روي في الآحاد.

وقوله: ﴿عَبَسَ﴾ يجوز أن يكون غيره، وهو الظاهر؛ حيث لم يخاطبه به.

---

(١) وإما: أو؛ غ.

قال المرتضى: ومن نظر في أخلاق رسول الله ﷺ مع المسلمين ومعاشرته لهم تبين أن الآية نزلت في غيره.

ومتى قيل: هل كان التعبيس ذنبًا إن صح الخبر؟

قلنا: التعبيس والانبساط مع الأعمى سواء، ولا يشق عليه، فلم يكن ذلك ذنبًا، وإنما ذكر الله تعالى تأديبًا له صلى الله عليه؛ ليأخذ نفسه بأوفر محاسن الأخلاق.

ومتى قيل: إن لم يكن ذنبًا فلماذا عاتبه؟

قلنا: لما بَيّنَّا؛ ليأخذ بمكارم الأخلاق ومعالي الأمور، ونبه بذلك على عظم حال المؤمن المسترشد، ولئلا يؤدي إلى التنفير؛ لأنه كما يجب تأليف المشرك ليسلم يجب تأليف المؤمن ليقيم على إيمانه، ولئلا يعود إلى مثله، فيصير عادة له.

ومتى قيل: هل كان سوء أدب من السائل؟

قلنا: لا؛ لأنه لم يعلم الحال، ولو علم لما ألح.

ومتى قيل: فلماذا قال بلفظ الماضي؟

قلنا: صان نبيه أن يقول: عَبَسْتَ وَتَوَلَّيْتَ؛ لأنه بالتوبيخ أشبه، وهذا بالتأديب والعتاب أشبه.

❁ المعنى

﴿عَبَسَ﴾ أي: بسر وقطب ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أعرض عنه بوجهه ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ أي: لا تدري ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ يتطهر بالأعمال الصالحة، والتجنب من الذنوب والقبائح ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أي: يذكر آيات الله، فينفعه ذلك الذكر، وقيل: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أي: يتعظ ﴿فَتَنفَعَهُ﴾ الموعظة، عن ابن عباس، وابن زيد. ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾ هذا عتاب حين اشتغل بالأغنياء عن الفقراء، واستغنى: أثرى وصار غَنيًّا ذا مال وجاه ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ قيل: تتعرض له، وتصغي إلى كلامه، وتقبل عليه بوجهك، وتعرض عن الفقير، وقيل: تصدّى من الصدى، وهو الصوت؛ أي: تخاطبه. ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ أي شيء يلزمك إن لم يسلم، ولم يتطهر من الكفر؟! وقيل: معناه

أيشق عليك إن لم يسلم؟! فلا يضرك كفره فإنما عليك البلاغ. ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾ يمشي، يعني الأعمى ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ أي: يخاف الله فجاء مسترشدًا ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ تتغافل، وتعرض وتتشاغل بغيره ﴿كَلَّآ﴾ ردع؛ أي: لا تفعل مثل ذلك بعدها، فليس ذلك بمرضي، ولا يليق بأخلاقك، وقيل: معناه حقًّا ﴿إِنَّهَا﴾ قيل: السورة. وقيل: الموعظة، وقيل: آيات القرآن. وقيل: هذه الآيات في هذه السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: تبصرة وعظة واعتبار ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾ قيل: من شاء ذكر القرآن والوعظ.

۞ الأحكام

الآيات تتضمن أحكامًا:

منها: معاتبة من أعرض عمن يخاف ربه، وبين العلة فيه بقوله: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، ونبه بذلك على وجوب توقير المؤمنين، وأنه لا ينبغي ترك ذلك لرجاء إسلام أحد لعله لا يسلم، وفيه تعظيم حرمة المؤمنين.

ومنها: أن الفضل بالإيمان لا بالغنى.

ومنها: شدة حرصه على إسلامهم وإلحاحه عليهم.

ومنها: أن الإسلام فعلهم، وهم قادرون عليه، لولا ذلك لما أفادت دعوته وإلحاحه.

ومنها: أن عليه البلاغ، وليس عليه التزكية والقبول.

ومنها: ما ذكره شيخنا أبو علي أن هذا الفعل يكون معصية فيما بعد لمكان النهي، فأما في الماضي فلا يدل. وذكر الأصم أن عند نزول هذه الآيات تغير وجه رسول الله صلى الله عليه حين نزل قوله: ﴿كَلَّآ﴾؛ لأن[1] المراد به ألاَّ يفعل من بعد[2] مثله.

ومنها: شهادة الله لابن أم مكتوم بالإيمان ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) لأن: ليس؛ غ.

(٢) من بعد: يساقط في نسخة.

ومنها: أن التذكر من العبادات؛ لذلك قال: ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾.

ومنها: دلالة قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ على أنه قادر مخير، وأن الفعل فعله؛ لأن الآية تقتضي ذلك.

قوله تعالى:

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

اللغة

الصحف: جمع صحيفة، والعرب تسمي كل مكتوب فيه: صحيفة، كما تسميه كتابًا، رَقًّا كان أو غيره.

والسَّفَرَةُ: الكَتَبَةُ لأسفار الحكمة، واحدها: سافر، كقوله: كاتب وكتبة، وساحر وسحرة، وكافر وكفرة، وعامل وعَمَلَةٍ، وفاجر وفجرة. وقيل: السفير الرسول، وسفير القوم: الذي يسعى بينهم بالصلح.

قال أبو مسلم: السافر حامل الكتاب، والجمع: سفرة، وسفرت بينهم: أصلحت، قال الشاعر:

وَمَا أَدَعُ السِّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي وَمَا أمشي بِغِشٍّ إِنْ مَشِيتُ

وأصل الباب: الكشف عن الأمر، يقال: سفرت المرأة وجهها إذا كشفت، وأسفر الصبح: أضاء، فالكاتب يكشف عما في النفس، والأسفار: الكتب؛ لأنها تكشف عن المعنى، والواحد سِفْرٌ.

والكرام: جمع كريم، وهو المحمود الخصال، ونقيضها: اللئيم.

والبررة: جمع بار، وهذا من الألفاظ التي تجمع الفاعل على فعله، والبر: فعل

النفع الحسن، والبار فاعل ذلك، وأصله: اتساع النفع منه، وأصل الباب: السعة، ومنه: البَرُّ خلاف البحر، والبُرُّ: الحنطة سمي به تفاؤلاً باتساع النفع به، رجل بر، وامرأة بَرَّةٌ.

والإماتة: مصدر أمات يميت إماتة، والموت معنى لا يقدر عليه غيره يضاد الحياة، ومنهم من قال: هو بطلان الحياة، والأول أولى لقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢].

والإقبار: جعل القبر لدفن الميت فيه، أقبره يُقْبِرُهُ إقبارًا: إذا جعلت له قبرًا، والقبر: الحفير المهيأ للدفن، وأَقْبِرْنِي فلانًا، أي: اجعلني أقبره، والقابر: الدافن الميت بيده.

والإنشار: الإحياء للتصرف بعد الموت، كنشر الثوب بعد الطي، أنشر الله الموتى فنشروا.

قال الأعشى في القابر والناشر:

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتًا إِلَى نَحْرِهَا ... عَاشَ وَلَمْ يُحْمَلْ إِلَى قَابِرِ
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا ... يَا عَجَبًا لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ[1]

الإعراب

(ما) في قوله: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ يحتمل أن يكون (ما) التعجب، ويحتمل معنى، «أي»، يعني: ما الذي حمله على الكفر.

نصب (السبيل) بـ(يسره).

النزول

قيل: نزل قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ في عتبة بن أبي لهب، عن مقاتل.

(١) الأغاني ١٦/٣٠٣؛ وانظر ديوان الأعشى، دار صادر، بيروت.

وقيل: فيمن كان يستدعيه النبي ﷺ، وهم الذين تقدم ذكرهم في أول السورة.

وقيل: أراد جنس الإنسان، عن أبي مسلم. قال مجاهد: ما أحد يأتي على جميع ما فرض الله عليه، والصحيح أنه في الكفار لاستحالة ذم المؤمنين.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى عقيب ذكر القرآن عظم محله، فقال سبحانه: «**فِي صحفٍ مُكرَّمةٍ**» أي: كتب معظمة عند الله. قيل: تعظمها الملائكة لما فيها من العلم والحكمة. وقيل: معظمة عند المؤمنين. واختلفوا في تلك الصحف، قيل: اللوح المحفوظ. وقيل: الصحف التي في السماء، عن أبي علي. وقيل: كتب الأنبياء المنزلة عليهم كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨]. وقيل: أراد الكتب التي فيها القرآن، عن أبي مسلم. «**مَرْفوعةٍ**» رفيعة القدر عند الله تعالى. وقيل: مرفوعة إلى السماء الرابعة. «**مُطَهَّرَةٍ**» قيل: هو الوحي الخالص لا يشوبه شيء غيره، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، عن أبي مسلم. وقيل: مطهرة عن أن تنالها أيدي الطغاة والكفار، مصونة عنها، عن أبي علي؛ لأنها في أيدي الملائكة في أعز مكان. وقيل: مطهرة عن كل دنس. وقيل: مطهرة عن الشك والشبهة والتناقض. «**بِأيدي سَفَرةٍ**» قيل: الكتبة، عن ابن عباس، ومجاهد. وقيل: الملائكة. وقيل: القراء، عن قتادة. وقيل: الملائكة الذين هم السفراء بالوحي بين الله تعالى، وبين رسله، وهو قول الأكثر. وقيل: حملة الكتب، عن أبي مسلم. وقيل: هم أصحاب محمد، عن وهب. وقيل: هم الأنبياء والمؤمنون، كأنه قيل: آخذ الكتاب وحملته كرام بررة، عن أبي مسلم أيضًا. «**كِرام**» أي: أفاضل لهم خصال محمودة. «**بَرَرَةٍ**» أبرار، أي: فاعلو البر.

ثم عاد الكلام إلى المكذبين بهذا الكتاب، فقال سبحانه: «**قُتِلَ الإنسانُ**» قيل: لعن الإنسان، وهو الكافر، عن مجاهد. وقيل: دعاء عليه؛ أي: قاتله الله فما أكفره وما أسوأ صنيعه، عن أبي مسلم. وقيل: أمر بالدعاء عليه؛ أي: قوله: قاتله الله، وقيل: معناه عذَّبه الله، وانتقم منه، عن أبي علي «**ما أكفرَهُ**» قيل: هو (ما) الاستفهام،

يعني: أيّ شيء أوجب أن يكفر؟ عن مقاتل، والكلبي. وقيل: ما الذي أكفره ودعاه إلى الكفر مع شواهد التوحيد وكثرة نعمه تعالى عليه؟، كأنه قيل: ليس هاهنا شيء يدعو إلى الكفر، ويوجبه. وقيل: هو تعجيب؛ أي: عجبًا منه وكفره مع كثرة الشواهد للتوحيد والإيمان! وقيل: فيه إشارة إلى أنه معاند، وإلا فما الذي أوجبه كفره. «**مِنْ أيّ شيء خَلَقَهُ**» أي: كفر نعمه عليه في خلقه، كأنه لا يعلم أنه خلقه من أي شيء.

ثم بَيَّنَ من أي شيء خلقه، فقال سبحانه: «**من نطفةٍ خَلَقَهُ**» وهو ماء الرجل والمرأة، وخلقه أوجده. «**فَقَدَّرَهُ**» أي: على حد معلوم في طوله، وعرضه، وبصره، وحواسه، وأعضائه، وفي عمره، ورزقه، وجميع أحواله. وقيل: «**فَقَدَّرَهُ**» أي: نقله من حال إلى حال حتى صار إلى حال الكمال. وقيل: قدره أحسن التقدير. «**ثم السبيلَ يسّرَهُ**» أي: سهل له الطريق، قيل: طريق خروجه من بطن أمه، عن ابن عباس، وقتادة، والسدي، والأصم. وقيل: طريق الخير والشر، بَيَّنَ له ذلك، وخَيَّرَهُ، وسهل له العلم، ومكنه من الخير واجتناب الشر، ونظيره: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، عن مجاهد. وقيل: سبيل الخير، عن الحسن. وقيل: سبيل الإسلام، عن ابن زيد؛ لأنه عُرِّفَ بالألف واللام، ودين الله هو المعروف. «**يسَّرهُ**» قيل: بصره طريق الهدى والضلال، عن الحسن. وقيل: سهل له الطريق في أمور الدين والدنيا، عن أبي مسلم. «**ثم أماتهُ**» قيل: خلق الموت فيه. وقيل: أزال حياته «**فأقبرهُ**» قيل: صيره بحيث يقبر، وجعله ذا قبر، عن أبي مسلم. وقيل: جعله مقبورًا، ولم يجعله ممن يلقى إلى السباع والطير، عن الفراء. وقيل: أمر بأن يقبر، عن أبي عبيدة. وقيل: أضاف الإقبار إلى نفسه؛ لأنه خلق الأرض التي يقبر فيها، وأمر بأن يقبر. «**ثمَّ إذا شاءَ أنشرَهُ**» أحياه بعد موته للجزاء، وعلق بالمشيئة؛ لأنه يبعثهم متى شاء. وقيل: لإبانة القدرة، يعني أنه قادر على بعثهم متى شاء «**كَلاَّ**» رد على هذا الكافر، أي: ليس الأمر كما ظن. وقيل: حَقًّا، عن الحسن. وقيل: إنه بمعنى الصلة لتأكيد الكلام. «**لمّا يَقْضِ ما أمرَهُ**» أي: لم يفعل ما أمره الله من طاعته وعبادته، وقضى الشيء: الفراغ منه على التمام، يعني أنه تعالى خلقه وبلغه حال التكليف، وأكمل نعمه عليه، ثم أمره تعريضًا للثواب الدائم، ويسر السبيل، فلم يفعل ما أمر. وقيل: هذا تعجيب منه؛ أي كيف خالف أمره مع كثرة نعمه.

الأحكام

يدل قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣﴾ على عظم شأن القرآن وكونه محفوظًا.

ويدل على وجوب تعظيم القرآن؛ لأنه وصفه بذلك كالترغيب في فعل ذلك والتحذير عن مخالفته.

ويدل قوله: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ على أن أعظم الذنوب الكفر، وأنه فعل العبد؛ ولذلك لعنه وذمه، ويستحيل أن يخلق شيئًا، ثم يلعنه عليه.

ويدل قوله: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾ أنه تعالى سهل سبيل الطاعة، فدل أن ذلك فعل العبد، وأن القدرة قبل الفعل؛ ليكون الإيمان ميسرًا على الكافر.

ويدل قوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾ أن العبد يفعل، لولا ذلك لما استقام الكلام.

قوله تعالى:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾

القراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ بفتح الألف[1]، قيل: بدلاً من قوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ كأنه قال: فلينظر إلى طعامه، ولينظر أنا صببنا، وهو على تكرير العامل، وقيل: خبر ابتداء محذوف. والباقون بكسر الألف على الاستفهام.

قراءة العامة: ﴿شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ بالغين المعجمة من فوق؛ أي: يكفيه شأنه، لا يتفرغ

(١) حجة القراءات ٧٥٠.

إلى شأن غيره، قال الفراء: وقرأ بعض القراء وهو ابن محيصن: «يعنيه» بالعين غير معجمة؛ أي: عني بشأنه[١].

اللغة

الشق والصدع والفَطْرُ والفرج نظائر.

والحديقة: البستان المحوطة، والجمع: حدائق، يقال: أحدق به القوم: أي: أحاط، ومنه: الحدقة؛ لأن الجفن يحيط بها.

والغُلْبُ: جمع أغلب، وهي الغلاب، شجرة غلبا غليظة، قال الفرزدق:

عَوَى فَأَثَار أَغْلَبَ ضَيْغَمِيًّا ... فَوَيْلُ ابنِ الْمرَاغَةِ ما اسْتَثَارَا[٢]

أصل القَضْبِ: القطع، ومنه سميت الرطبة قضبًا؛ لأنها تقطع رطبًا، وأهل مكة يسمون القت قضبًا؛ لأنه مما يقطع رطبًا، من قوله: قضبته أقضبه قضبًا إذا قطعته رطبًا، ومنه: القضيب والمقتضب، وأصل القضب: القطع، وفي الحديث: «كان إذا رأى التصليبَ قَضَبَ»[٣] أي قطع موضع[٤] التصليب، واقتضبت الحديث، أي: تحملته كأنه قطعة، وقضبت الكرم: قطعت أغصانه أيام الربيع، وسيف قاضب وقضيب: قاطع، ورجل قَضَّابَةٌ: قطاع للأمور، مقتدر عليها، وقُضَابَةُ الشجرة: ما يتساقط من أطراف العيدان: إذا قطع.

الأَبُّ: المرعى من الحشيش وسائر النبات التي ترعى الأنعام والدواب، ويقال: أَبَّ [يده] إلى سيفه، فاستله، كقوله: هب؛ أي: بدر إليه كبدور المرعى بالخروج، وأَبَّ الرجل: تهيأ للخروج، والمصدر: أَبًّا وأبابة وأبابًا، كل ذلك بالتخفيف.

والمتاع: ما ينتفع به ويتمتع، وأصله المصدر من قوله: أمتعه إمتاعًا ومتاعًا، ومنه: مَتَعَ النهار: ارتفع؛ لأن بارتفاعه يستمتع.

(١) القرطبي ١٩/ ١٩٥.

(٢) ديوان الفرزدق، ط ٢٤.

(٣) مسند أحمد رقم ٢٦١٨٥.

(٤) موضع: ساقط في نسخة.

والأنعام: الماشية، سميت بذلك لنعمة مشيها، أي لينها، كالإبل والبقر والغنم بخلاف الحافر لشدة وطئه بحافره.

والصَّاخَّةُ: الصائحة لشدة صوتها في الآذان، صَخَّ يَصُخُّ، وهو صَاخٍ، وقد قلبوا المضاعف كراهة التضعيف، فقالوا: أَصَاخَ يُصِيخُ إصاخة، وقد قالوا: تطبب، والأصل تطببت لهذا. والصاخة والصيحة والرجة من النظائر، يقول: ضربت الصخرة بحجر، فسمعت لها صيحة؛ أي صوتًا.

والشأن: الأمر العظيم، يقال: لفلان شأن يغنيه: يكفيه، مأخوذ من الغنى عن الشيء في أمر نفسه لا ينازع إليه، كأنه قيل: ليس له فيه فضل، يعني ما هو فيه.

والأسفار: الكشف عن ضياء، ومنه: أسفر الصبح: أضاء، وسَفَرَتِ المرأة: كشفت عن وجهها، وقال توبة[1]:

وَكُنْتُ إِذَا مَا زُرْتُ لَيْلَى تَبَرْقَعَتْ فَقَدْ رَابَنِي مِنْهَا الْغَدَاةَ سُفُورُهَا[2]

أي: كشفها نقابها.

والرهق: أصله اللحوق، ومنه: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ [يونس: ٢٦]، ومنه: غلام مراهق: قارب الحلم، ورهقت الكلاب الصيد: لحقتها، قال الأزهري: الرهق اسم من الإرهاق، وهو أن يحمل الإنسان ما لا يطيقه، يقال: أرهقته أمرًا صعبًا؛ أي كلفته. والرَّهَقُ: العيب، والرهق: السفه، والرَّهَقُ: العجلة، والرَّهَقُ: الظلم، ومنه: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣].

والقَتَرَةُ: ظلمة الدخان، ومنه: القترة ريح الشوي؛ لأنه كالدخان.

والفاجر: جمعه فُجَّارٌ وفَجَرَةٌ، وأصله: الخروج، ومنه: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]، فكأنه خرج من طاعة الله إلى معصيته.

۞ المعنى

ثم نَبَّهَ تعالى على دلائل أخر، وعقَّبه بذكر أحوال القيامة، فقال سبحانه: «فلينظر

(١) توبة: رؤية، غ انظر لسان العرب، ٨/ ٩ والعين: ٢/ ٦١.

(٢) اللسان (يرفع).

الإنسان إلى طعامه» أي: ما يطعمه من الأطعمة الشهية اللذيذة، وكيف خلقها الله تعالى، وكيف هيأ بالرزق عباده، وكيف دبر كل واحد على أحسن التدبير في طعمه ورائحته ومنافعه ومضاره. وقيل: فلينظر إلى طعامه أي: مدخله ومخرجه، عن مجاهد. وعن الحسن عن الضحاك والكلابي أن النبي صلى الله عليه قال له: «يا ضحاك، ما طعامك»؟ قال: يا رسول الله، اللحم واللبن. قال: «ثم تصير إلى ماذا»؟ قال: إلى ما قد علمت. قال: «فإن الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا»[١].

«أنا صببنا الماء صبّاً» أي: أنزلنا الغيث من السحاب إنزالاً، يحتمل أنه يريد المطر، ويحتمل سائر المياه؛ لأن الله تعالى هو الذي يخرجها. **«ثم شققنا الأرض شقاً»** ليخرج النبات مع ضعفه، فيرسخ عرقه ويظهر فرعه.

ومتى قيل: كيف تنشق الأرض؟

قلنا: يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه تعالى يشققها بأن يفرق بين أجزائها[٢]، ويخرج الزرع منها.

وثانيها: أنه يجعل في أجزاء النبات اعتمادات تخرج أجزاء الأرض، فيكون شق الأرض منه بالنبات والاعتمادات التي فيها.

فعلى الوجه الأول هو فعله بغير سبب، **وعلى الثاني** فعله بسبب.

«فأنبتنا» أي: أخرجنا النبات بأن خلقناه **«فِيها»** في الأرض **«حباً»** أراد جنس الحبوب التي تدخر وتقتات **«وعِنباً»** خص العنب لكثرة منافعه فيها[٣] من العنب **«وقضباً»** قيل: الرطبة، عن ابن عباس، والضحاك، والفراء، وأبي مسلم. وقيل: القضب: العلف، عن الحسن، وأبي علي. يعني أقوات النعم. **«وزيتوناً»** الذي منه الزيت، وخصه بالذكر لعظم النفع به وما يتخذ منه والعبرة التي فيه **«وزيتوناً ونخلاً»**

---

(١) مسند أحمد رقم ١٥٧٨٥.
(٢) أجزائها: أحوالها؛ غ.
(٣) فيها: بها؛ غ.

«**وَحَدائِقَ غُلبا**» أي: بساتين محوطة تشتمل على أشجار عظام غلاظ مختلفة. وقيل: «**غلباً**» ملتفة، عن مجاهد. وقيل: طوالاً، عن ابن عباس. وقيل: الغلب: النخل الكرام، عن قتادة. وقيل: عظام الجذوع والرقاب، عن ابن زيد. «**وفاكهة**» سائر أنواع ما يتفكه به[١].

ومتى قيل: لِمَ عطف الفاكهة على ما تقدم، وهو فاكهة؟

قلنا: قيل: ليس ذلك بفاكهة، وقيل: ذكر بعضها لفضله، ثم ذكر جملتها.

«**وأباً**» قيل: المرعى للأنعام كالفاكهة للناس، وقيل: الحشيش والمرعى، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد. وقيل: الأَبُّ: النبات، عن أبي رزين. [وقيل] الثمار الرطبة، عن ابن عباس. وقيل: هو التين، عن الضحاك. «**متاعاً**» أي: منفعة «**لكم ولأنعامكم**».

«**فإذا جاءت الصاخة**» أي: القيامة، عن ابن عباس. سميت بذلك؛ لأنها تصخ الأسماع؛ أي: تبالغ في إسماعها حتى كادت تصمها. وقيل: تصك الأصوات الهائلة الآذان. وقيل: هي النفخة الثانية التي يحيا عندها الناس، عن الحسن؛ لأنها يصخ لها الخلق؛ أي: يستمع.

«**يوم يفر المرءُ من أخيه وأمّهِ وأبيه وصاحبته وبنيه**» أي: زوجته، وأصله اللزوم، ومنه أصحاب النبي ﷺ «**وبنيه**» فهؤلاء أقرب الناس إليه، وكان يعنى بشأنهم، فيومئذ لا يلتفت إلى واحد منهم لشغله بنفسه. وقيل: حذرًا من مطالبتهم إياه لما بينه وبينهم من التبعات والمظالم. وقيل: لعلمه بأنهم لا ينفعونه، ولا يغنون عنه شيئًا، ولا هو ينفعهم، وليس ثم فرَارٌ، وإنما أراد لا يلتفت أحد إلى أحد، ولا يغني أحد عن أحد شيئًا. وقيل: يحتمل أن يكون مؤمنًا وعشائره من أهل النار، فيعاديهم، ولا يلتفت إليهم. وقيل: يفر عنهم لما ظهر من عجزهم وضعفهم إلى من يملك كشف الكروب، ولو ظهر ذلك في الدنيا لما انقطع إلا إلى ربه. وقيل: يفر لئلا[٢] يرى ما ينزل بهم من الهوان. وقيل: ضجرًا لعظم ما نزل به. وقيل: يفر إبراهيم من أبيه، والنبي ﷺ من

(١) به: ساقط في نسخة.

(٢) لئلا: لأنه لا، غ. وما أثبتناه من تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/٢٤٣.

أبيه، ونوح من أبيه، وهابيل من أخيه، ولوط من امرأته، ثم تلا هذه الآية، عن الحسن.

«لكل امرئٍ منهم يومئذٍ شأن يغنيه» أي: أمر عظيم يكفيه، لا يتفرغ إلى غيره. **«وجوه يومئذ مسفرة»** مشرقة مضيئة **«ضاحكه»** كناية عن السرور، وقيل: أراد بالوجوه أصحاب الوجوه **«مستبشرة»**[١] فرحة بما تبشر به من النعم **«ووجوه يومئذٍ عليها غبرة»** قيل: دخان تسود به وجوههم. وقيل: غبار أسود يضر وجوههم، ويسودها. وقيل[٢]: يجوز أن يجعلوا التراب على رؤوسهم كالمستغيث. وقيل: يصير إليها ثَمَّ تراب، ويصير ذلك في وجوههم. وقيل: هو كناية عن فرط الغم[٣] والحزن. وقيل: يغشاها كسوفٌ. وقيل: هي بقية تراب قبورهم. **«ترهقها»** أي: تلحقها، وتغشاها **«قترةٌ»** قيل: ظلمة وسواد. وقيل: هي الدخان. وقيل: الغبار الكثير. وقيل: الرياح تضرب وجوههم بالتراب من وجه والدخان من وجه آخر يصيبهم **«أولئِك»** من تقدم ذكرهم **«هم[٤] الكفرة الفجرة»** الخارجون عن أمر الله.

۞ الأحكام

الآيات تتضمن أحكامًا:

منها: وجوب النظر في الأدلة.

ومنها: بيان الأدلة التي تتضمن النعمة فتدل على صانع عالم قادر منعم.

ومنها: أنه خلق جميع ذلك لنفع العباد ولنفع الأنعام، وتدل أنه يفعل لغرض.

ومنها: أن أصل الأشياء على الإباحة؛ لأنه إذا خلقها لهم جاز لهم الانتفاع به.

ومنها: عظيم أمر القيامة وأهوالها، وفرار كل أحد من أقاربه وعشائره، وهذا متى

(١) مستبشرة: مسفرة؛ في نسخة.
(٢) وقيل وقد قيل؛ في نسخة.
(٣) الغم: النعم؛ في نسخة.
(٤) هم: ـ؛ في نسخة.

كان الأمر مخالفًا لعشائره بأن يكون أولئك كفرة، وهو مؤمن، فيفر عنهم، أو يكون الجميع كفرة، فيفر بعضهم من بعض، فأما إذا كان مؤمنًا وعشائره مؤمنون فإنه لا يفر منهم؛ بل يَعْظُمُ سروره بهم، وسرورهم به.

ومنها: أن الناس فرقتان إلا أن إثبات فرقتين لا يمنع إثبات ثالثة، فلا تعلق للخوارج والمرجئة بالآية.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

سورة (كورت) مكية، عشرون وسبع آيات.

وروى أبو بكر قال: قلت يا رسول الله، أسرع إليك الشيب، قال: «شيبتني (هود) و(الواقعة) و(المرسلات) و(عمّ يتساءلون) و(إذا الشمس كورت)»(١).

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «من أحب أن ينظر في يوم القيامة فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»(٢).

وعن أُبيّ، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أعاذه الله أن يفضحه حين ينشر صحيفته».

ولما ختم سورة (عبس) بذكر القيامة وأهوالها، افتتح هذه السورة بها وذكر علاماتها.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾

---

(١) الترمذي رقم ٣٢٩٧.

(٢) مسند أحمد رقم ٤٩٤١.

۞ القراءة

اختلف القراء في ثلاثة أحرف (سُجِّرَتْ)، (نُشِرَتْ)، (سُعِرَتْ)[1]، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو «نُشِّرَتْ» بالتشديد، و«سُجِرَتْ» و«سُعِرَتْ» بالتخفيف، وقرأ حمزة والكسائي: «سجِّرت» و«سيِّرت» بالتشديد، «سُعِرَت» مخففة، وقرأ أبو عمرو ونافع، وابن عامر، وعاصم: «نُشِرَتْ» مخففة «سُجِّرَتْ» و«سُعِّرَتْ» مشدّدتين[2]، وروى أبو بكر عن عاصم «سُجِّرَتْ» مشددة، و«نُشِرَتْ» و«سُعِرَتْ» مخففتين، وروي نحوه عن يعقوب، وقرأ يعقوب كله خفيفة.

قراءة العامة: «قُتِلَتْ»، وقرأ أبو جعفر مشددة التاء[3].

وقرأ العامة: «سُئِلَتْ» على فعل مجهول، وعن جابر بن زيد وأبي الضحاك: «سألت بأي ذنب قتلت» أضاف السؤال إلى الموءودة[4].

قراءة العامة: «كُشِطَتْ»، وعن ابن مسعود: «قشطت» بالقاف، والعرب تبدل الكاف بالقاف[5].

۞ اللغة

الكَوْرُ واللف والطي والتكوير نظائر، كَوَّرَ العمامة تكويرًا، ويقال: طعنه فَكَوَّرَهُ: إذا ألقاه مجتمعًا، والكور: اللف على جهة الاستدارة، وأصل الكور: الدور، كار يكور: إذا دار، وكور العمامة: دَوَّرَهَا، ومنه: الكور: الزيادة في قوله: نعوذ بالله من الحور بعد الكور؛ أي: من النقصان بعد الزيادة، وتكوير[6] الثياب: جمع بعضها إلى بعض.

والنجم: الكوكب الطالع، وجمعه: نجوم، وأصله: الطلوع والظهور، ومنه: نجم النبات: إذا طلع، ينجم فهو ناجم، ونجم القرن، ونجم الشيء.

---

(١) حجة القراءات ٧٥٠.

(٢) مشدّتين: مشددتان، غ.

(٣) فتح القدير ٥/ ٥٤٩.

(٤) القرطبي ١٩/ ٢٠٢.

(٥) القرطبي ١٩/ ٢٠٤.

(٦) وتكوير: وكايره، غ.

والكَدَرُ: ضد الصفو، والانكدار: انفعال منه، والتكدير تفعيل منه، والانكدار: انقلاب الشيء حتى يصير أعلاه أسفله كالماء المنكدر، وقيل: أصلُ الانكدارِ الانصبابُ.

والعِشَارُ: النوق التي قد أتى عليها عشرة أشهر من حملها، واحدها عُشَرَاء، ونوق عُشْرَاواتٌ، وهو مأخوذ من العشرة، وهي أَعزُّ مالٍ على أهلها.

والحشر: الجمع، والمحشور: المجموع.

والمسجور: المملوء، وأصله من قوله: سَجَرْتُ التنور: إذا أوقدت فيه، فملأته بالنار، وأصل السجر: الملء، يقال: سجر، إذا ملئ، فهو مسجور وهي[1] مسجورة. قال أبو مسلم: التسجير: تغير لون الماء، تقول: مررت بنطفة سَجْراء، إذا كانت تضرب إلى الحمرة. والتسجير: الخَلْطُ[2] أيضًا.

والموءودة: المقتولة بدفنها حية، والعرب كانت تئد البنات خَوْفَ الإملاق، وَأَدَها يَئِدُها وَأْدًا فهي موءودة، أي: مدفونة حية، وإنما سميت موءودة لما يطرح عليها من التراب، فيؤدها[3] أي: يثقلها حتى تموت، ومنه: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي: لا يثقله.

الكشط: نزع الجلد عن الشيء، كشط الرأس يكشطها كَشْطًا: إذا قلعها. وقيل: الكشط: القلع.

والتسعير: تهييج النار حتى تتأجج، ومنه: السِّعْرُ؛ لأنه حال هيج الثمن، واستعرت الحرب والشر بين القوم، أي: هاج.

والإزلاف: التقريب، ومنه: الزلفة، وأزلف الأمر: اقترب، ومنه: المزدلفة؛ لأنها قريبة من مكة. وقيل: سمي مزدلفة لاقتراب بعض الناس من بعض، عن أبي مسلم.

---

(١) وهي: وثمر؛ غ.

(٢) الخلط: الخليط، غ.

(٣) فيؤدها: فيوديدها، غ. وما أثبتناه من: الكشف والبيان للثعلبي: ١٤/ ١٤ وتفسير البغوي: ٨/ ٣٤٨.

۞ الإعراب

«إِذَا» شرط، والجواب قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

۞ المعنى

«إذا الشمس كورت» قيل: ذهب ضوؤها ونورها، عن ابن عباس، وأُبيّ بن كعب، ومجاهد، وقتادة، والضحاك. وقيل: رمى بها وذهب، عن مجاهد، والربيع بن خثيم. وقيل: القيد، عن أبي صالح. قال أبو علي: فيحمى عليها، فيذهب ضوؤها، ويرمى بها. «وإذا النجوم انكدرت» قيل: تناثرت، عن مجاهد، وقتادة، والربيع بن خثيم، وأبي صالح، وابن زيد. وقيل: ذهب ضوؤها، عن أبي علي. والأول أولى لقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] إلا أنه يجوز أن يقال: يذهب ضوؤها ثم تتناثر «وإذا الجبال سيرت» عن وجه الأرض فصارت هباءً منبثا.

«وإذا العشارعطلت» يعني النوق الحوامل التي قرب نتاجها «عطلت» أهملت، تركها أربابها مع نفاستها؛ لما دهمهم من عظيم ذلك اليوم. وقيل: سيبت من الحفظ، وهذا مَثَلٌ؛ أي: يشتغل بأهوال ذلك اليوم كل أحد عن أمواله وأَعِزائه[1]. وقال أبو علي: أي يعطل السحاب لا يكون فيه من المياه التي يمطرها الله على عباده في الدنيا.

«وإذا الوحوشُ حُشرت» قيل: حَشْرُها: موتها، عن ابن عباس. وقيل: جمعت يوم القيامة، عن الحسن، وقتادة، وأبي علي. وقيل: تغيرت الأمور، فصارت الوحوش مع الناس. وقيل: بعثت ليقضي الله بينها، ثم بعد ذلك يكون حالهم ما بَيَّنَّا من قبل: أن منهم من قال: تصير ترابًا، ومنهم من قال: يردون بعضًا في الجنة ثوابًا لأهلها، وبعضًا في النار عقابًا لأهلها، وجوز أبو علي الوجهين.

«وإذا البِحار سُجرت» قيل: أوقدت فصارت نارًا، عن ابن عباس، وأبي بن كعب، وسفيان، ووهب، وابن زيد. وقيل: ملئت حتى فاضت على الأرض حتى

(١) وأعزائه: وإغرابه، غ.

تكون لجج البحار ورؤوس الجبال بمنزلة، عن الحسن، والضحاك. وقيل: جعل ماؤها شرابًا يُعذَّب بها أهل النار. وقيل: بحار في جهنم من الحميم يعذبون فيها، عن أبي علي. وقيل: فاضت، عن الربيع بن خثيم. وقيل: ذهب ماؤها فلم يبق فيها قطرة، عن قتادة. وقيل: يتفجر بعضها في بعض؛ العذب في المالح [والمالح في العذب] فصار الكل بحرًا، ويرتفع البرزخ، عن مجاهد، ومقاتل، والضحاك.

وذكر أبو مسلم معاني:

أحدها: أنه يتغير لون ماء البحار، فيصير أحمر من قولهم: عين سجراء: محمرة، وهو أن يخالط بياضها حمرة.

وثانيها: يسجره بشدة الحر كما يسجر التنور، إذا أوقدته.

وثالثها: يختلط العذب والمالح ولا[1] يتميز بعضه من بعض. والتسجير: الخلط، قال: وكلٌّ محتملٌ، وزيف قولهم: ملئت. لأنها مملوءة في الدنيا. وعلى ما ذكره الحسن لا يتوجه هذا الاعتراض، ويقال: بحر مسجور: مملوء.

«وإذا النفوس زوجت» قيل: قرن كل إنسان بشكله من أهل الجنة أو أهل النار، عن عمر، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والأصم، روي ذلك مرفوعًا. وقيل: «زوجت» ردت الأرواح إلى الأجساد، فتصير أحياء، عن عكرمة، والشعبي، وأبي مسلم. وقيل: يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان، عن أبي علي. وقيل: زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين، والكفار بالشياطين، عن مقاتل. وقيل: زوجت النفوس بأعمالها.

«وإذا المؤدة سألت» يعني الجارية المدفونة حية المقتولة، قيل: كانوا إذا ولدت أمة فأراد قتلها حفر لها قبرًا، ثم يقول لأمها: زينيها وطيبيها لأذهب بها إلى أحمائها، ثم يذهب بها، فيضعها في الحفرة، ويهيل التراب عليها. وقيل: كانت المرأة إذا جاء وقت ولادتها حفرت حفرة وقعدت على رأسها، فإن ولدت بنتًا دفنتها في الحفرة، وإن ولدت غلامًا حبسته، عن ابن عباس. قال الشاعر:

---

(١) ولا: ولم، غ.

سَمَّيْتُهَا إذْ وُلِدَتْ تَمُوتُ وَالْقَبْرُ صِهْرٌ ضَامِنٌ زِمِّيتُ[1]

قال قتادة: كانوا يقتلون البنات، ويغذون الكلاب، فأوعدهم الله على ذلك، وفي ذلك يقول الفرزدق يفتخر:

وَمِنَّا الَّذي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ وَأَحْيَا الْوَئِيدَ فَلَمْ يُوأَدِ[2]

«سألت» معنى تسأل الموءودة: لماذا قتلت، ولا ذنب لها؟! وهذا سؤال توبيخ للقاتل، ونظيره قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة: ١١٦] فإنما هو توبيخ للنصارى، وهذا أبلغ في التوبيخ. وقيل: «سُئِلت» طولب قاتلها بحجة من قتلها، ويسأل عنها وعن سبب قتلها، نظيره قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] أي: مسؤولاً عنه، عن أبي مسلم. كأنه قيل: الموءودة سئلت قتلها «بأي ذنبٍ قتلت» هذه، والكناية عنها أظهر.

«وإذا الصحف نشرت» أي: كتب أعمالهم تنشر ليقرأها صاحبها، وليظهر الأعمال، فيجازَى بقدرها «وإذا السماءَ كشطت» قيل: قلعت عن أماكنها ونزعت وشققت. وقيل: تكشط الشمس والقمر والنجوم من السماء، عن الأصم. وقيل: تفنى، عن أبي علي.

«وإذا الجحيم سُعِرَتْ» قيل: أوقدت حتى ازدادت شدة على شدة. وقيل: سعرت من خلقه، عن الحسن. فإن صح فهو لطف للملائكة، والخبر عنه لطف لنا. وقيل: ستخلق وتسعر يوم القيامة. وقيل: سَعَّرَها غضب الله وخطايا بني آدم، عن قتادة. يعني سعرت لذلك «وإذا الجنة أُزلفت» أي: قربت بما فيها من النعيم، فيزداد المؤمنون سرورًا وأهل النار حسرة. وقيل: قربت من أهلها للدخول «علمت» عند ذلك كل «نفس ما أحضرت» من خير أو شر، ومعناه: علمت كل نفس ما عملت ووجب جزاؤها؛ لأن الأعمال لا يصح عليها الإحضار. وقيل: تحضر صحائف الأعمال. وقيل: «أحضرت» معناه: وجدها حاضرة كقولهم: أَحْمَدْتُهُ: وَجَدْتهُ محمودًا. وقيل:

(١) اللسان (ربت)، وتاج العروس (ربت).

(٢) الصحاح (وأد).

علمت نفس ما عملت في الدنيا، أو علمت ما أحضرت من حجة وعذر فيما تسأل عنه، ذكر الوجهين أبو مسلم.

وعن ابن عباس: في [سورة] ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ اثنتا عشرة خصلة: ست في الدنيا، وست في الآخرة.

الأحكام

في الآيات أحكام:

منها: تغير أحوال السماء والأرض والجبال والنجوم، وصفة الجنة والنار ترغيبًا وترهيبًا.

ومنها: أن من لا ذنب له لا يجوز إيلامه بقتل وغيره، وإذا وبخ الله مَنْ قتل الموءودة، فكيف يعاقبها أبدًا سرمدًا؟ فيدل على أنه لا يعذب أطفال المشركين، ولا أحدًا بغير ذنب، ولا بذنب غيره.

ومنها: أن الوحوش تحشر كما يحشر المكلفون.

ومنها: أن الأعمال مكتوبة في الصحف.

قوله تعالى:
﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ
لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم
بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ
رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا
تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

القراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «**بظنين**» بالظاء[1] **وما هو بقول شيطان رجيم**»

(١) حجة القراءات ٦٧٣.

وهي في جزء ابن مسعود بالظاء، وهي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، والسلمي، وعروة بن الزبير، واختاره أبو عبيدة قال: لأنهم اتهموه، ولم يبخلوه، ومعنى (ظنين) متهم، ولأن العرب تقول: ما هو بظنين بكذا، ولا يقولون: على كذا.

وقرأ الباقون أبو جعفر ونافع وابن عامر وعاصم وحمزة ويعقوب ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضاد، وهي قراءة زيد بن ثابت، والحسن، وابن عمر، وأشهب العقيلي، وروي عن ابن عباس، وهي في مصحف أُبَيّ بالضاد، واختاره أبو حاتم، أي: ببخيل.

أما الضاد من قولهم: ضَنِنْتُ بالشيء بكسر النون أَضَنُّ به ضِنًّا فهو ضَنِينٌ، أي: بخيل، ومعناه: يؤدي إليكم الوحي، ويعلمكم، ولا يبخل به عليكم.

وأما الظاء فهو فعيل من الظِّنَّةِ، والظنة: التُّهَمَة، يقال: فلان ظنين، أي متهم، يعني أنه ليس بمتهم فيما يؤدي؛ لأنه الصادق الصدوق، وقيل: ظنين: ضعيف، حكاه الفراء والمبرد، يقال: رجل ظنين، أي: ضعيف.

❁ اللغة

الخُنَّسُ: جمع خانس، وأصله: الستر، وسمي النجوم خُنَّسًا؛ لأنها تستر بالمغيب، وقال قوم: لأنها تخفى بالنهار، والخنس: الذهاب في خفية، وخنس الرجل: تأخر، وأنا خنسته أي: أخرته، كأنه ستره، والخنس في الأنف: انحطاط القصبة، والبقر كلها خَنْسٌ، والشيطان خَنَّاسٌ؛ لأنه يخنس إذا ذكر الله تعالى، أي: يذهب، ويستر.

والجواري: جمع جارية، وهي ما يجري، ومنه قيل للسفينة: جارية، والنجوم الجواري في مطالعها ومغاربها، والجارية: المرأة الشابة؛ لأنه يجري فيها ماء الشباب.

والكنّس: جمع الكانس، وجمع الكُنَّس الكوانس، وهي جمع الجمع، والكنس الغيب في مثل الكناس، وهي كِنَاسُ الطير والوحش: بيت يتخذه، ويختفي فيه، والكانس: الظبي في كِنَاسِهِ بكسر الكاف، والكُنَّسُ: الكواكب تَكْنِسُ في بروجها كالظباء تدخل في كناسها، قال أبو عبيدة: لأنها تكنس في المغيب.

وعسعس الليل: إذا أقبل من أوله وأظلم، وعسعس: إذا أدبر، وهو من الأضداد، قال الشاعر:

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسَا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وعَسْعَسَا[(١)]

والعَسُّ: طلب الشيء بالليل، ومنه أخذ العسعس، وهو الساري بالليل، واحده: عاسٌّ، نحو: حَارِسٍ وحَرَسٍ، والعسعاس: الذئب؛ لأنه يَعُسُّ بالليل، والعُسُّ: قدح عظيم من خشب أو غيره، وجمعه: عِسَاسٌ بكسر العين، وأصله: امتلاء الشيء بما فيه، فقدح اللبن من شأنه أن يمتلئ به، ويمتلئ الليل بظلامه، وأصله: عَسَّ، ثم ضوعف كصر وصرصر، وصل وصلصل، وتقول العرب: عسعس الليل وسعسع، قال رؤبة:

يَا هِنْدُ مَا أَسْرَعَ مَا تَسَعْسَعَا مِنْ بَعْدِ أَنْ كَانَ فَتًى تَرْعَرَعَا[(٢)]

التنفس: خروج النسيم من الجوف، وأصله: امتداد هواء الجوف بالخروج من الأنف والفم، وتنفس الصُّعَداء، وتنفس الصبح: امتداد ضوئه.

والأفق: ناحية من السماء، قال: هو كالنجم في الأفق، وهو ينظر في آفاق السماء.

۞ النزول

قيل: لما نزل قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾ قال أبو جهل وكفار قريش: خَيَّرَنا محمد في الاستقامة إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، وأرادوا مخالفة النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ يعني الذي وكل إليكم المشيئة، وسهل لكم سبلها هو الذي يشاء أن تستقيموا.

۞ المعنى

ثم أكد ما تقدم بالقسم، فقال سبحانه: «فَلَا أُقْسِمُ» قيل: معناه: أقسم، و(لا) صلة وزيادة، وقيل: هو كقولهم: لا والله لا أفعل ذلك، وقيل: نفي القسم لظهور الأمر فيه؛ لأن القسم إنما يذكر ليظهر، فأما إذا كان من الظهور بحيث لا يخفى فلا يحتاج في إثباته إلى القسم، فكأنه قيل: لا أقسم بهذا؛ لظهور أمره، وذلك يكون

(١) البيت قائله: علقمة بن قرط.

(٢) اللسان (سعع)، وتاج العروس (سعع).

بوجهين: إما أن يكون القسم به ظاهرًا بينًا، فينبه الله عباده ليتكاملوه لدلائل التوحيد، أو تعظيمًا للمقسم به، فيكون تنبيهًا على تعظيمه كقولهم: لا أقسم بهذا البلد، وهاهنا القسم بالخنس لا يحتاج إليه لطول تردده على أعين الناظرين، ومن تأمله علم أن لها مدبرًا أجراها وأنشأها، وجعل فيه النور والضياء، وأنها محدثة، فمع ظهور هذا لا يحتاج إلى قسم، عن أبي مسلم. وقيل: معناه: أقسم بهذه الأشياء لما فيها من دلائل التوحيد. وقيل: أقسم برب الخنس، عن أبي علي. «**بِالْخُنَّسِ**» قيل: الخنس: النجوم، عن أمير المؤمنين، والحسن، وقتادة، ومجاهد، وأبي علي، وأبي مسلم. لأنها تبدو بالليل وتخنس بالنهار، وقيل: تخنس في مغيبها بعد طلوعها، وقيل: هي بقر الوحش، عن ابن مسعود، وإبراهيم، وجابر بن زيد. وقيل: هي الظباء، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك. وقيل: القسم بالنجوم الخمسة: بهرام، وزحل، والمشتري، وعطارد، والزهرة، عن علي. «**الْجَوَارِي**» قيل: النجوم الجاريات في الفلك، وقيل: الوحوش «**الْكُنَّسِ**» قيل: الغيب المتسترة بكناسها، أي: بروجها، وسئل أمير المؤمنين عن هذه الآية فقال: الخنس: الأنجم التي تجري في الفلك، والكنس: مسقطهن إذا سقطن، وهي الجواري تجري «**وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ**» قيل: أدبر بظلامه، عن أمير المؤمنين، وعن[1] ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد. وقيل: أقبل بظلامه، عن الحسن، ومجاهد. وقيل: أظلم، عن الحسن، وأبي علي، وأبي مسلم. «**وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**» إذا أسفر وأضاء، وقيل: امتد وارتفع «**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**» هذا موضع القسم، يعني المتلو من القرآن وحي من الله أنزله على لسان «**رَسُولٍ**» يعني جبريل، عن الحسن، وقتادة، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: عنى محمدًا صلى الله عليه أتى به من عند الله، وإنما أضاف القول إليه؛ لأنه المبلغ والمؤدي بأمر الله، فأضافه إليه توسعًا وإن كان كلام الله تعالى، عن أبي مسلم. وقيل: لأنه قال لجبريل: ائت محمدًا، وقل له كذا، وقيل: أضافه إليه؛ لأنه سمع منه ومن جهته، عن أبي علي. «**كَرِيمٍ**» قيل: كريم على ربه، وقيل: كريم بكثرة فضائله

(١) وعن: عن، غ.

واستحقاقه التعظيم «ذِي قُوَّةٍ» أي: ذي قدرة، قيل: في العلم والعمل، وتبليغ الرسالة، وقهر الأعداء، وقيل: بلغ من قوته أنه قلع ديار قوم لوط بقوادم جناحه حتى بلغ بها السماء ثم قلبها «عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ» أي: عند رب العرش وخالقه رفيع المنزلة، عظيم القدر، كما يقال: فلان مكين عند السلطان، والمكانة القرب «مُطَاعٍ ثَمَّ» قيل: في السماء، وهو جبريل تطيعه ملائكة السماء، وقيل: محمد مطاع في الأرض «أَمِينٍ» لا يخون في شيء «وَمَا صَاحِبُكُمْ» يعني: محمدًا صلى الله عليه وعلى آله «بِمَجْنُونٍ» كما كانوا يزعمون «وَلَقَدْ رَآهُ» يعني: أن محمدًا رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها «بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ» وهو الأفق الأعلى من ناحية المشرق الذي يجيء منه النهار، عن الحسن، وقتادة، ومجاهد، و[عن] ابن عباس أن النبي ﷺ قال لجبريل: «إني أحب أن أراك في صورتك التي تكون في السماء»، فواعده عرفات، فخرج النبي ﷺ، فإذا هو بجبريل أقبل من جبال عرفات ملأ ما بين المشرق والمغرب ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فخر مغشيًّا عليه، فتحول[1] جبريل إلى صورته، وضمه إلى صدره، والمبين الواضح، كأنه رآه عيانًا نهارًا «وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ» أي: على الوحي «بِظَنِينٍ» بالظاء أي: ليس بمتهم فيما يقول، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، والضحاك. وبالضاد قيل: ليس ببخيل فيما يؤدي، وقيل: ليس بضعيف، وقيل: كان يقال له قبل الوحي: محمد الأمين. «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ» أي: ليس بكذب يأتي به الشيطان، وقيل: لا يأتي به الشيطان كما تزعم العرب في الكهنة «رَجِيمٍ» رجمه الله باللعنة، أي: رماه، عن الحسن. وقيل: رجم بالشهب طردًا من السماء «فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ» أي: إلى أين تذهبون عن الحق الذي ظهر[2] أمره وبدت أعلامه إلى الضلال الذي[3] فيه البوار؟ وقيل: فأي طريق تسلكون أَبْيَن مما بينه لكم؟ وقيل: إلى أين تعدلون عن هذا القول، وهو الشفاء والهدى؟ وقيل: معناه: ليس ما تذهبون إليه مذهب حق، فلماذا تذهبون فيه؟! وقيل: أين يذهب بكم يمينًا وشمالاً وهذه

(١) فتحول: فتحويل، غ. وما أثبتناه من تفسير البغوي ١/ ٣٥٠، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢٠٩.

(٢) ظهر: ظهره، غ.

(٣) الذي: التي، غ.

المحجة واضحة والجادة بينة، أين علماؤكم يذهبون بكم فتتمسكون بما لا يصح، ولا يعقل، فتمسكوا بالقرآن «[إن] هُوَ» يعني القرآن «إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» أي: يذكر الخلق ما يحتاجون من أمر دينهم «لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ» قيل: أن يستقيم على أمر الله، عن الحسن. «وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» فيه أقوال:

قيل: خطاب للكفار؛ أي: لا تشاؤون إلا أن يشاء الله أن يجبركم عليه، ويلجئكم إليه، وإنما لم يفعل لأنه أراد منهم أن يختاروا الإيمان ليستحقوا الثواب، ولم يرد حملهم على الإيمان، عن أبي مسلم[1].

وقيل: ما تشاؤون الاستقامة إلا أن يشاء الله ذلك من قبل، حيث خلقكم لها، ومكنكم فيها، وكلفكم بها، وأزاح علتكم فيها، ومن ثم يشاء منه الإيمان والاستقامة، لا [بجوز أن][2] يكلف به، ولا يمكِّن منه، عن أبي علي.

وقيل: ما تشاؤون إلا أن يشاء الله أن يلطف لكم في الاستقامة لما في الكلام من معنى النعم.

وقيل: لا تشاؤون الاستقامة إلا أن يشاء الله؛ إذ لو لم يشأ مع التمكين لأباح الكفر.

قال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لهم، فلهذا لم يشأ أحد خيرًا إلا والله قد شاءه وأمره بالطاعة، ونهاه عن خلافه، ووعده ووعيده وزجره من أدل الدليل أنه شاء الاستقامة.

«والعالمين»: جماعة الناس.

۞ الأحكام

الآيات تتضمن أحكامًا:

منها: حال هذه الأشياء المقسم بها في عظم محلها من الدلالة على الصانع الحكيم، ومن نعمه بها على عباده.

(١) ما أثبتناه من: القاضي عبد الجبار، المغني: ٤/ ٢١٦.
(٢) +، غ: لا يكلف به ولا يمكن منه.

ومنها: أن القرآن نزل به جبريل على النبي صلى الله عليهما.

ومنها: عظم شأن جبريل ومكانته وقوته، فإنه مطاع في السموات.

ومنها: إعجاز القرآن؛ لأنه عظمه كل هذا التعظيم، فلو قدروا على مثله لأتوا به.

ومنها: رؤية النبي ﷺ جبريل على صورته.

ومنها: أنه لم يكتم شيئًا من الوحي.

ومنها: أن العبد مخير، يقدر على الخير والشر؛ لذلك قال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.

ومنها: أنه تعالى يريد الاستقامة من عباده.

سُورَةُ الانفِطَار

سورة (انفطرت)، وتسمى سورة (الحفظة)، وهي مكية، تسع عشرة آية.

وعن أُبيّ، عن النبي ﷺ «من قرأ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ كتب الله له بعدد كل قطرة من ماء حسنة، وأصلح الله له شأنه يوم القيامة».

لما كانت السورة المتقدمة في ذكر القيامة وأهوالها، افتتح هذه السورة بمثل ذلك اتصالَ المِثْلِ بالمِثْلِ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر وعاصم وحمزة والكسائي: «فَعَدَلَكَ» خفيفة الدال[1]، أي: صرفك وأمالك إلى أي صورة شاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب، بتشديد

(١) حجة القراءات ٧٥٢.

الدال، أي: جعلك معتدل القامة، واختاره الفراء؛ لأن «في» مع التعديل أحسن، و(إلى) مع العدل[1].

أبو جعفر: «**يكذبون**» بالياء، كناية عن الكفار، الباقون بالتاء، على الخطاب[2].

۞ اللغة

الفطر: الشق، ومنه: الفاطر الخالق ابتداء، والانفطار والانشقاق والانصداع نظائر.

والانتثار: تساقط الشيء في الجهات، انتثر ينتثر انتثارًا، ونثره نثرًا، ومنه: النثر في الكلام، خلاف النظم.

والتفجير: خرق بعض مواضع الماء إلى بعض على التكثير، فَجَّرَ الأنهار يفجرها تفجيرًا، ومنه: الفجر لإغراقه بالضياء.

وبُعْثِرَتْ وبُحْثِرَتْ بمعنى، يقال: بعثرت الحوض وبحثرته: إذا جعل أسفله أعلاه، والبحثرة: إثارة الشيء بقلب باطنه إلى ظاهره، وقال أبو مسلم: بعثرت: كشفت التراب عما فيه.

الغرور: ظهور أمر يتوهم به جهلاً الأمان من المحذور، غَرَّهُ يَغُرُّهُ غرورًا، واغتر به يغتر اغترارًا.

والتسوية: بجعل الشيء على مقدار غيره، ثم قد يكون في الصورة، ويكون في المعنى، سوَّاه تسوية.

والصورة: بنية معروفة، وأصله: من صَارَهُ يَصُورُهُ صَوْرًا: إذا أماله.

والتركيب: تأليف الشيء بعضه على بعض، ركب [يركب] تركيبًا.

---

(١) يقصد أن الفعل (عَدَلَ) يتعدَّى بـ (إلى) لا (في)، تقول: عَدَلَهُ إلى صورة أحسن، ولا تقول: عَدَلَهُ في صورة أحسن.

(٢) زاد المسير ٩/ ٤٨.

۞ المعنى

«إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ» أي: انشقت وتقطعت، وقيل: انشقت لنزول الملائكة «وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ»: تساقطت «وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ» قيل: فجر بعضها في بعض، عَذْبُها في مالحها، ومالحها في عذبها، فصارا بحرًا واحدًا، عن قتادة، وأبي علي، وقيل: ذلك لرفع الحاجز [الذي جمله الله برزخا بأن ينفذ من البحار في بعض حينئذ يصير الكل فجراً واحداً][1] لزلزلة الأرض، عن أبي علي، وقيل: ذهب ماؤها، عن الحسن، وقيل: ملئت، عن الكلبي، وقيل: تصير الأرض كلها ماء، فلا يرى بها أثر «وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ» بحثت، عن ابن عباس، وقيل: كشفت عما فيها، وأخرجوا منها، عن أبي علي، وأبي مسلم، وقيل: قلب ترابها واستخرج ما فيها من الكنوز والموتى، وكل ذلك من أشراط الساعة «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ» قيل: عرف كل أحد جزاء أعماله، عن أبي علي، كأنه قيل: ما أخذت، وتركت تستحق به الجزاء بما كان في أول عمره وآخره، عن أبي مسلم، وقيل: ما قدمت من عمل، وأخرت من سُنَّةٍ سنها يُعْمل بها، عن القرظي، وقيل: ما قدمت من طاعة أو تركت، عن ابن عباس، وقتادة، وقيل: ما قدمت وأخرت من إحسان أو إساءة إذا قرأ كتابه وجدها محفوظة فيه، وقيل: ما قدمت من فريضة أداها، وأخرت من فريضة تركها، عن عكرمة، وقيل: ما قدمت من الأعمال، وأخرت من المظالم، وقيل: ما قدمت من الصدقات والإنفاق في أعمال البر، وأخرت من التركة للورثة، وقيل: قدمت من سقط، وأخرت من ولد صالح يدعو له، وهذا جواب: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، واختلفوا كيف يعلم؟ قيل: يخلق الله فيه العلم حتى ينظر إليه، وقيل: يتذكر بقراءة كتابه ويعلم.

ثم خاطب العصاة توبيخًا لهم، فقال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ» قيل: ما الذي جرأك عليه بغرورك[2] حتى عصيته؟ وقيل: ما الذي خدعك حتى اختدعت عن عبادة الله؟ عن الأصم، وقيل: ما الذي أداك إلى الاغترار بالله حتى آثرت شهوات الدنيا وغضب الله، وتبعت شياطين الإنس والجن؟ والغرارات كثيرة:

منها: الشيطان بوسوسته.

---

(١) ما أثبتناه من: الكشاف: ٤/ ٧٠١، والتفسير الكبير للفخر الرازي: ٣١/ ٧١.

(٢) بغرورك: بغروره، غ.

ومنها: قرين السوء بدعوته.

ومنها: نفسه تدعوه إلى الملاذ لشهوته، وتزين له سوء عمله، حتى يأمل بعيدًا، ويبني شديدًا، ويجمع عبيدًا، لا يخطر بباله القيامة.

ومنها: الدنيا تزين في عينه حتى يعلم ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون.

ومنها: علماء السوء يزينون له المعاصي بأن الله قَدَّرَهُ عليه، أو يغفره له، وأن النبي يشفع له، وأن مع الإسلام لا تضر معصية.

ومنها: تقليد الرؤساء، والنظر إلى أهل الدنيا، والائتمار لأمرهم، وغير ذلك مما يطول القصة.

وروي أن النبي ﷺ تلا هذه الآية ثم قال: «جَهْلُهُ»[(١)].

«**الْكَرِيمِ**» قيل: المنعم، الذي كل فعله إحسان وإنعام، لا يجزيه نفعًا، ولا يدفع به ضررًا، وقيل: الذي يعطي ما عليه وما ليس عليه، ولا يطلب ما له، وقيل: الذي يقبل اليسير ويعطي الكثير، وقيل: مِنْ كرمه أن لم يرض يغفر السيئات حتى بدلها بالحسنات، وقيل: غره عدوه الشيطان، عن قتادة. «**الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ**» قيل: أي: كيف تركت طاعته، وهو المنعم عليك بأن خلقك حيًّا، وسوى جميع أعضائك وحواسك «**فَعَدَلَكَ**» بالتشديد: سوَّى خلقك، وبالتخفيف: عدل بك عن صورة البهائم وغيرها إلى أحسن الصور، وقيل: مِنْ شَبَهِ أم أو أب أو خال أو عم، عن مجاهد، وقيل: من ذكر أو أنثى، جسيم أو نحيف، حسن أو دميم، طويل أو قصير، وقيل: على أي صورة، يريد صورة[(٢)] إنسان، أو حمار، أو قرد، أو كلب، أو خنزير، عن عكرمة، وأبي صالح، يعني: يقدر على جعلك كيف شاء، ومع هذا خلقك على أحسن الصورة.

---

(١) القرطبي ١٩/ ٢١٣.

(٢) صورة: صور، غ.

ثم بَيَّنَ سبب ضلالهم، وهو تكذيبهم بالبعث، فقال سبحانه: «**كَلَّا**» قيل: لا يليق[1] ذلك، وليس كما ظننتم، وقيل: لا تغتروا فهو يجازيكم، وقيل: حَقًّا إنكم غررتم أنفسكم، وتركتم أمر خالقكم؛ لأنكم تكذبون بالدين «**بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ**» قيل: بالجزاء والحساب، عن قتادة، ومجاهد، وقيل: بالدين الذي جاء به محمد ﷺ، وهو الإسلام، عن أبي علي. «**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ**» يعني: إن اغتروا وغفلوا فلا يغفل عنهم، وعليهم حفظة رقباء، يحفظون أعمالهم، وهم الملائكة «**كِرَامًا**» على الله «**كَاتِبِينَ**» يكتبون ما يفعلون، ليكونوا شهودًا على الناس، فمن مفتضح بشهادتهم، ومن مسرور بها، «**يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**» قيل: يعلمون جميع ما تفعلون بأن يضطرهم الله إلى العلم، وقيل: يعلمون الظاهر والباطن، عن الحسن.

الأحكام

تدل هذه الآيات على أشراط القيامة.

وتدل أن كل نفس تعلم ضرورة جميع ما فعلت[2].

وتدل على عظيم إثم من اغتر بالله فعمل بمعاصيه، والغرور قد يكون من جهته، وقد يكون من جهة غيره من شياطين الجن وفسقة الإنس، يزينون له المعاصي، ويهونون عليه أمر القيامة، وقد روي عن يحيى بن معاذ أنه قال: لو قال لي ربي: ما غرك بربك؟ لقلت: غرني بك برّك بي. ورووا عن فضيل: غرني ستورك المرخاة، وهذا لا يصح؛ لأن الغرور لم يكن من جهته تعالى، مع ما قدم من الوعد، والوعيد، والإنكار، ولكن اغتروا على ما بَيَّنَّا بأن لم يعاجلهم الله بالعقوبة، فغرتهم أنفسهم وغيرهم.

وتدل على أن للعباد[3] حفظة يكتبون أعمالهم، وفيه لطف للمكلفين يمنع عن المعاصي.

---

(١) يليق: يطيق، غ.
(٢) فعلت: فعل، غ.
(٣) للعباد: العباد، غ.

وتدل على أن له نعمة على الكفار؛ لذلك عد عليهم، بخلاف قول المجبرة.

وتدل على أن أفعال العباد حادثة من جهتهم؛ ليصح قوله: ﴿تَفۡعَلُونَ﴾ وقوله: ﴿مَا غَرَّكَ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾، ولو كان الأمر على ما يزعمه أهل الجبر لكان يقال: ما غرني أحد، ولا نفسي، ولكن خَلَقْتَ فيَّ ذلك، ولكان الحفظة لغوًا؛ لاستحالة أن يحفظ عليه ما يخلقه.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

۞ القراءة

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: «**يَوْمُ لا تملك**» برفع الميم، الباقون بفتحها، واختاره أبو عبيد، فالرفع ردًّا على اليوم الأول، والثاني على تقدير: في يوم.

۞ اللغة

الأبرار: جمع بارٍّ، وهم عمال الإحسان، الذين يكونون به محسنين، وأصله من سعة أعمالهم في البر، ومنه: البَرُّ خلاف البحر لسعته.

والدين: الجزاء، والدين: العادة، والدين: الإسلام، وقيل: أصل الباب العادة، وقيل: بل أصله الجزاء.

وصَلِيَ يَصْلَى صُلِيًّا، واصطلى يصطلي اصطلاء، ويصلونها: يلزمونها، والمصطلي: الملازم للنار.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر القيامة، عقَّبه ببيان أحوال الناس، فقال تعالى: «**إِنَّ الْأَبْرَارَ**» أي:

المؤمنين، العاملين البر «**لَفِي نَعِيم**» في الجنة، وقيل: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا في رضا الله، والقناعة بما آتاه، وأما في الآخرة في الجنة، ونظير ذلك: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، «**وَإِنَّ الْفُجَّارَ**» العصاة، المرتكبين الكبائر «**لَفِي جَحِيم**» في النار، والفجور: اسم للعصيان، يقال للزاني: فاجر «**يَصْلَوْنَهَا**» أي: يلازمونها للتعذيب، وقيل: يصيرون صلاها، أي: حطبها، عن أبي مسلم. «**يَوْمَ الدِّينِ**» أي: يوم الجزاء، وهو يوم القيامة «**وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ**» بموت ولا خروج.

ثم عَظَّم أمر القيامة، فقال سبحانه: «**وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ. ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ**» قيل: كرر تأكيدًا وتفخيمًا لشأنها، كما يقال: إياك إياك، وقيل: أراد ما أدراك ما في يوم الدين من النعيم لأهل الجنة، وما أدراك ما في يوم الدين من العذاب لأهل النار، وليس فيه تكرار، عن أبي علي. «**يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا**» أي: **لا يملك** أحد لغيره نفعًا ولا ضرًا؛ لأن الأمور كلها إليه تعالى «**وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ**» أي: لا ينفذ لأحد أمر غيره.

ومتى قيل: فشفاعة النبي ﷺ يجب ألا تصح؟

قلنا: ذلك يكون بأمره تعالى، ومن تدابيره.

ومتى قيل: الأمر كله له في الدارين، فما معنى التخصيص؟

قلنا: في الدنيا قد ملك غَيْرُهُ أشياء من الأمر والملك، تنزع جميعها يوم القيامة، وقيل: لأن الجزاء لا يقدر عليه أحد سواه.

۞ الأحكام

يدل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ الآية على قولنا في الوعيد من جهات:

أحدها: أنه فصل بين البَرِّ والفاجر، فدل أن الفجار ليسوا من الأبرار، خلاف قول المرجئة.

ومنها: أنه عم جميع الفجار ولم يخص، ولا فاجر إلا ويدخل تحت الآية، خلاف قولهم.

ومنها: قوله: ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾ فلم يثبت لهم مكانًا غيره.

ومنها: قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ فدل على الدوام.

ويدل قوله: ﴿لَا تَمْلِكُ﴾ أن أحدًا لا يملك دفع العذاب من المستحق.

ومتى قيل: أراد بالفجار الكفار؟

فَلنا[1] عنه أجوبة:

أحدها: أنه لو صح ما قال لدخل بعض الفجار الجنة، ولكانوا من الأبرار، وهذا خلاف الآية.

وثانيها: أن الآية عامة.

وثالثها: أنها في أهل القبلة بالاتفاق، ولو تناول الكفار لما كانوا؛ لأن الفجور اسم لجميع المعاصي.

وذكر أبو مسلم أن من يدعي التخصيص في مثل هذا لا يبعد قوله؛ لأن ما تقدم كلام في المكذبين، وإن كان الأصل هو العموم.

وجوابنا أن المعتبر عموم اللفظ، لا ما تقدم.

واختلفوا، هل يجوز تخصيص هذا الخبر؟

قيل: لا؛ لأنه خبر، فتخصيصه يؤدي إلى الكذب.

وقيل: بل يصح؛ لأن ما يصح أن يستثنى بدليل متصل جاز بدليل منفصل، وهو الصحيح.

وذكر أبو علي أنه لا يصح فيه التخصيص، كما لا يصح في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

(١) فلنا: قلنا، غ.

سُورَةُ المُطَفِّفِين

سورة (المطففين) ثلاثون وست آيات، واختلفوا فذكر الحسن، والضحاك أنها نزلت بالمدينة، وذكر جماعة أنها نزلت بين مكة والمدينة.

وعن ابن عباس أنها نزلت بمكة.

وعن الفراء أنها نزلت أول ما قدم النبي ﷺ المدينة.

وعن أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (المطففين) سقاه الله من الرحيق المختوم يوم القيامة».

ولما ختم سورة (انفطرت) بذكر القيامة، وما أعد للأبرار والفجار بَيَّنَ في هذه السورة أحوال الناس في القيامة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ متصلاً بغير ألف، ولا وقف بين (**كالوا**)، وبين (هم). و(هم) في محل النصب، قال أبو عبيدة: وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين، ويقف على (**كالوا**)، و(**وزنوا**) وقفة، ثم يبتدئ فيقول: «**هم يخسرون**» و(هم) في موضع رفع بمعنى الفاعل: قال: وأحسبه قراءة حمزة، كذلك أيضًا قال أبو عبيد، والأوجه الأول لوجوه[1]:

أحدها: أنهم كتبوها بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين لكتب (**كالوا**) بالألف، أو (**وزنوا**) بالألف على ما كتبوا الأفعال كلها، مثل: قالوا، وجاؤوا، ولم نجد المصاحف إلا على إسقاطها.

وثانيها: أنه يقال: كِلْتُكَ، أي كِلْتُ لك، ووزنتك، أي وزنت لك، وهذا مشهور عندهم، يقولون: كلتك حقك، ووزنتك حقك، قال الفراء: وهي لغة الحجاز، ومن جاورهم من قيس.

وثالثها: إجماع القراء، فمن خالف محجوج بإجماعهم.

اللغة

الطفيف: الشيء التفه القليل، والمُطفِّفُ: المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق، في كيل أو وزن، والتطفيف: نقص المكيال والميزان، وإنما سمي بذلك لأنه يقلل حق صاحبه، وقيل: لأن ما ينقص منه طفيف قليل، وقيل: التطفيف: أن يسرق الشيء اليسير في خفية، وإناء طَفَّان إذا لم يكن ملآن[2]، ومنه: «بنو آدم كلهم طف الصاع»[3] أي: قريب بعضهم من بعض؛ لأن طف الصاع قريب من ملئه، فليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى.

والطُّفَافَةُ: ما فوق المكيال.

(١) انظر القرطبي ١٩/ ٢٢٠.

(٢) ملآن: ملأنا؛ غ.

(٣) مسند أحمد رقم ١٧٣٥١، والمعجم الكبير رقم ٨١٤.

والاكتيال: الأخذ بالكيل، ومثله الاتزان: الأخذ بالوزن، والاعتداد: الأخذ بالعدد، اكتال يكتال اكتيالاً، وكاله يكيله كيلاً.

والاستيفاء: الأخذ بالوفاء، وهو التمام.

ومعنى ﴿كَالُوهُمْ﴾ أي كالوا لهم؛ لأن الطعام يكال ويوزن، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه مع الإيجاز من غير إخلال.

وخسر وأخسر لغتان: إذا نقص الحق، ومنه: الخسران.

والسِّجِّينُ: فعل من سجنته أَسْجُنُهُ سجنًا، وفيه مبالغة كما يقال: شِرِّيْب من الشرب، وسِكِّير من السكر، وشِرِّير من الشر، ومعناه: هو محبوس عليه حتى يجازى[1] بما فيه، وقيل: «فِعِّيلٌ» من السجن، وهو الشدة، والسجن الشدة أيضًا، كأنه في شدته كشدة السجن، قال ابن مقبل:

ضَرْبًا تَواصَتْ بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّينَا[2]

وذكر قطرب وأبو عمرو: هو مأخوذ من السجن، وقال غيرهما: مأخوذ من الشدة.

والرَّقْمُ: الخط، وكلما خط عليه لعلامة فهو رقم، رقمه يَرْقُمُهُ رقمًا فهو راقم، والشيء مرقوم، ومنه: رقم الثياب: علامة تعرف بها لئلا تختلط، والرقم: الكتابة، قال الخليل: الرقم: إعجام الكتاب.

(كلا): كلمة ردع وزجر، وفيه وجهان:

أحدهما: أن تكون كلمة واحدة من غير تركيب، وضعت للردع، وجرت مجرى الأصوات نحو: صه ومه.

والثاني: أن تكون كاف التشبيه دخلت على (لا)، وشددت للمبالغة في الزجر[3].

---

(١) يجازى: يجازوا، غ.

(٢) تمام البيت: (ورجلة يضربون الهام). انظر الصحاح (سجن)، اللسان (سجن).

(٣) الزجر: الرجز، غ.

۞ الإعراب

قيل: (على) في قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بمعنى (من)، أي: اكتالوا منهم، وقيل: اكتال عليه، واكتال منه، والأول أخذ ما عليه، والثاني استوفى منه.

و﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: النصب على: ذلك يوم يقوم، ويصلح: مبعوثون يوم يقوم، فيكون نصبًا على الظرف، والرفع على الاستئناف، والجر على البدل من ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

۞ النزول

عن ابن عباس (قدم رسول الله ﷺ المدينة، وكانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل).

وقال القرطبي: كان بالمدينة تجار يطففون، وكان من بياعاتهم كشبه القمار، وهو المنابذة، والملابسة، والمخاطرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقرأها عليهم رسول الله ﷺ.

وقال السدي: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وبها رجل يقال له: أبو جهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال ابن عباس: يا معشر الأعاجم، إنكم ابتليتم بآيتين بهما هلك من كان قبلكم من القرون المكيال والميزان.

۞ المعنى

«**وَيْلٌ**» قيل: كلمة وعيد، وقيل: شدة العذاب، وقيل: جُبٌّ في جهنم «**لِلْمُطَفِّفِينَ**» الذين يبخسون الناس حقوقهم في الكيل والوزن، وقيل: المطفف من إذا أخذ استوفى، وإذا وفى قصر.

ثم فسر المطففين، فقال سبحانه: «**الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ**» أي: كالوا ما على الناس ليأخذوه لأنفسهم، وكال واكتال بمعنى «**يَسْتَوْفُونَ**» يكيلون تامًّا، ويأخذون تامًّا «**وَإِذَا كَالُوهُمْ**» أي: كالوا لهم ليوفر عليهم حقوقهم «**أَوْ وَزَنُوهُمْ**» أي: وزنوا لهم «**يُخْسِرُونَ**» ينقصون «**أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ**» قيل: هذا العجب، عَجَّبَ الله نبيه

من غفلة هؤلاء، حيث فارقوا أمر الله وطريقة العدل، وخانوا في الحبات، **فكأنه حل بين الوزن والكيل**، ولم يعلموا أنهم يبعثون ويحاسبون عليها، وقيل: «**ألا يظن**» ألا يعلم أنه مبعوث، ثم يفتضح بين يدي الأشهاد، وقيل: يكتم من الناس ذلك، ألا يظن أنه يظهر عند الخلائق يوم يبعثون «**لِيَوْمٍ عَظِيمٍ**» أي: يوم القيامة «**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**» أي: لحكمه بينهم وللحساب، وقيل: يقومون مقدار ثلاثمائة سنة، ويقصر على المؤمنين حتى يكون كإحدى صلاة المكتوبة «**كَلَّا**» قيل: لا تفعلوا ذلك ولا تظنوا، فليس الأمر كما تظنون، وقيل: حقًّا «**إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ**» قيل: في الأرض السابعة السفلى، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وقيل: سجين: جُبٌّ في جهنم في خبر مرفوع، وقيل: سجن شديد، عن أبي عبيدة، أي: في كتابه ما اشتد عليه عذابه، عن أبي علي، وقيل: هي الأرض السفلى، ومنها إبليس وذريته، عن عطاء الخراساني، وقيل: في ضلال وحساب، عن عكرمة، وقيل: في حبس أي يوقف حتى يجازى عليه، وقيل: في الصخرة التي عليها الأرضون، وفيها أفعالهم وأقوالهم[1]، عن ابن عباس، ومجاهد، وقيل: في ذلة لهوانهم على الله، جعل كتابهم في ذلة، وقيل: السجّين اسم لكتابهم، وهو ظاهر التلاوة، أي: ما كتبه الله على الفجار، يعني: أوجب عليه من الجزاء في هذا الكتاب المسمى سجينًا، ويكون لطفًا تسميته من السجن الذي هو الشدة، عن أبي مسلم، وقيل: في حبس وضيق، عن الأخفش. «**وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ**» قيل: ذكر ذلك تفخيمًا لشأنه، ومعناه: أي شيء أدراك، كان النبي ﷺ يعرف ذلك الموضع، والأصل فيه أنه كتاب مُسْتَخَفٌّ به لأجل حقارتهم «**كِتَابٌ مَرْقُومٌ**» قيل: مكتوب، وقيل: مختوم، وقيل: مكتوب فيه ما يسوؤهم، ويسخن أعيانهم «**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**» بالجزاء والبعث.

۞ الأحكام

الآيات تتضمن أحكامًا:

منها: الأمر بالعدل في المعاملة، والنهي عن التطفيف، وذلك يتناول الصغير والكبير.

(١) وأقوالهم: أروالهم، غ.

ومنها: أن الوعيد يتناول أهل الصلاة.

ولا يقال: يوجب أن يكون قليله وكثيره؟

قلنا: الوعيد يتناول جميع المعاصي، وذلك لا يدل على كونه كبيرة.

ومتى قيل: فعلى كم تقطعون بأنها كبيرة؟

قلنا: اختلف مشايخنا، فعند أبي علي خَمْسَةٌ اعتبارًا بمانع الزكاة، وعند أبي هاشم عشرة اعتبارًا بالقطع في السرقة.

ومنها: هوان الكافر على الله حتى يوضع كتابه في موضع يدل على الذل والهوان.

ومنها: أن التطفيف فعل العبد.

قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

❁ القراءة

قراءة العامة: «تتلى» بالتاء لتأنيث الآيات، وقرأ أبو حيوة بالياء، لتقدم الفعل على الجميع[(١)].

قرأ حمزة والكسائي وحماد، ويحيى عن أبي بكر عن عاصم: «**بل ران**» بكسر الراء لأنه من الرين، الباقون بفتح الراء[(٢)].

قرأ حفص عن عاصم، ونافع في بعض الروايات: «**كلا بل ران**» بإظهار اللام

---

(١) القرطبي ١٩/ ٢٢٧.

(٢) حجة القراءات٧٥٤.

على الأصل مع سكتة يسيرة، والباقون بالإدغام لقرب الحرفين من غير إخلال بالمعنى[(١)].

اللغة

المعتدي: الذي جاوز الحد في الباطل، الاعتداء: الخروج من الحق إلى الباطل، وبناؤه من الفعل مُفْتَعِلٌ، وأصله من العدو، وسواء قولك: اعتدى وعدا وتعدى، ومنه: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾ [الكهف: ٢٨]، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] يقال: اعتدى فهو مُعْتَدٍ، وعدا يعدو عدوانًا، وأصل الكل: مجاوزة الحد، ومنه: العداوة؛ لمجاوزة الحد في النقص، ومنه: العدو: مجاوزة الحد [في] إسراع المشي.

الأثيم: مرتكب الإثم، وهو الفعل القبيح، أَثِمَ يَأْثَمُ إثمًا فهو أَثِيمٌ وآثِمٌ، وأَثَّمْتُهُ تأثيمًا: نسبته إلى الإثم، وتأثم: تحرج، وبناؤه «فَعِيل»، وهو من الباب الذي «فعيل» منه بمعنى «الفاعل»، فأثيم بمعنى الآثم.

والأساطير: جمع أسطورة، وأصله من السطر، وهو الكتابة.

والرَّيْنُ: أصله الغلبة، ران على قلبه: غلب، يَرِينُ رَيْنًا وريونًا[(٢)]، ومنه: رانت الخمر على عقله ترين، وران عليه النعاس يرين، وران به: غلبه، قال علقمة:

أَوْرَدْتُهُ الْقَوْمَ قَدْ رَانَ النُّعَاسُ بِهِمْ ... فَقُلْتُ إِذْ نَهِلُوا مِنْ جَمِّهِ: قِيلُوا[(٣)]

وأَرَانَ القوم: هلكت مواشيهم، أي: غلب الهلاك عليها، والرين: الغطاء؛ لأنه يغلب على ما يغطيه، وفي حديث عمرو في قصة أسيفع لما ركبه الدين: «أصبح وقد رين به»، أي: أحاط الدين بماله حتى غلبه، ويقال: رين به إذا مات.

والحجاب: المانع، ومنه: الحجب والحاجب.

---

(١) حجة القراءات ٧٥٤.

(٢) وريونا: ورانا، غ.

(٣) البيت ينسب لعبدة بن الطبيب، انظر: الأمالي للقالي، ١/ ٢ ٧٣؛ المفضليات، ١٤١.

والدفع والرد نظائر، ونقيضهما: القبول، ويقال: حجب فلان عن باب السلطان: رد[١] ودفع، والمحجوب: الممنوع.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الآية في النضر[٢] بن الحارث.

وقيل: هو عام.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حال المكذبين، فقال سبحانه: «**الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ**» أي: يوم الجزاء والبعث «**وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيم**» مجاوز للحد في معصية الله، «**أثيم**» كثير المآثم، مبالغ في ارتكابه «**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا**» يعني إذا قرئ عليه القرآن «**قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**» يعني ما سطره الأولون، أي: كتبوه، وقيل: أباطيل الأولين «**كَلاَّ**» ردع وزجر، أي: ليس كما كتبوا، وقيل: حَقًّا، قسم منه بأن الذنوب أحاطت[٣] بقلبه «**بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**» أي: غطى ذنوبهم على قلوبهم، وقيل: الرين الذنب على الذنب حتى يموت القلب، عن الحسن، وقتادة، وقيل: غلبت الذنوب على القلوب فلا تخلص إليها العلوم، عن ابن زيد، وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إذا أذنب العبد كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى يسود قلبه فذلك قوله: «**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ**»[٤]، وأكثر المفسرين قالوا: الذنب على الذنب حتى يسود القلب، وقيل: اعتيادهم للكفر وإلْفهم له[٥]، وغفلتهم صار غطاء على قلوبهم، عن أبي مسلم؛ لأن ترك النظر في العواقب، وكثرة المعاصي، والانهماك في الفسق يقوي الإعراض عن التوبة، والإقلاع[٦] عن الذنوب، فصار

---

(١) رد: ورد، غ.

(٢) النضر: نضر؛ غ

(٣) أحاطت: أحاط، غ.

(٤) الترمذي رقم ٣٣٣٤، وابن ماجه رقم ٤٢٤٤.

(٥) له: لها، غ. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ٢٦٤.

(٦) والإقلاع: والإبلاغ، غ.

كالغالب على القلوب، والرين عليها «**كَلَّا**» ردع وزجر، وقيل: حقًا «**إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**» قيل: محجوبون عن رحمته وإحسانه وكرامته، عن الحسن، وقتادة، وقيل: ممنوعون عن رحمته مدفوعون عن ثوابه، غير مقبولين ولا مرضيين، عن أبي مسلم، ولا يقال: الحجاب بينهم وبين الله تعالى؛ لأنه تعالى ليس بجسم، ولا معنى يحل الجسم حتى يصح فيه الحجاب «**ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ**» أي: يصيرون إلى النار، ملازمون لها، لا يغيبون عنها، وقيل: صائرون صلاها، أي: وقودها، عن أبي مسلم «**ثُمَّ يُقَالُ**» لهم توبيخًا: هذه النار التي كنتم بها تكذبون في الدنيا رأيتموها عيانًا.

الأحكام

يدل قوله: ﴿مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أن أعظم الذنوب إنكار البعث، وأنواع الكفر.

ويدل قوله: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ﴾ أن تواتر المعاصي يقتضي الرين على القلب، وهذا توسع، والمراد: أن اعتياده الكفر والفسق للذنوب وترك النظر في العواقب، ألهاه عما يعنيه، فصار كالغالب عليه.

ويدل قوله: ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ أنه لا تنالهم رحمة الله.

وتدل على أن التكذيب فعلهم؛ لذلك استحقوا الوعيد.

قوله تعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر ويعقوب: «**تُعْرَفُ**» بضم التاء، وفتح الراء، على ما لم يسم فاعله[1]، والقراء كلهم على فتح التاء، وكسر الراء، «**نضرة**» بالفتح على أنه مفعول، و«**تَعْرِفُ**» على الخطاب.

وقرأ الكسائي وحده: «**خَاتَمُهُ**»[2] بالألف قبل[3] التاء، وفتح الخاء والتاء، وهي قراءة أمير المؤمنين وعلقمة، والباقون: «**خِتَامُه**» بكسر الخاء ورفع الميم والألف بعد التاء، قيل: الخاتم والختام واحد، وقيل: الختام مصدر، والخاتم صفة، ونظيره: رجل كريم الطابع والطباع، قال أبو مسلم: الختام ما يختم به، وعلى هذا البناء السِّدَاد: ما يسد به، والصِّمام: ما تصم به القارورة.

۞ اللغة

العِلِّيُّون: عُلُوٌّ على عُلُوٍّ مضاعف، ولهذا جمع بالواو والنون تفخيمًا لشأنه، تشبيهًا بما يفعل في عظم الشأن، وهي مراتب عالية محفوفة بالجلالة، قال الفراء: هو اسم موضوع على صفة الجمع، لا واحد له من لفظه، كقولك: عزين، وقال يونس النحوي: واحدها عِلِّيّ وعِلِّيَّة.

المقرب: من القرب، يعني قربوا إلى كرامة الله، وهم الملائكة هاهنا؛ لأنهم أقرب العباد إلى كرامته.

والبر: النفع الحسن الموجب للحمد، والبار: فاعل البر، والأبرار: جمع، وهم المخلصون، يقال: بررت فلانًا أَبَرُّهُ برًّا، فأنا بار.

والنعيم: فعيل من النعمة ولين العيش والسعة، وضده: البؤس.

والنضرة: الإشراق، وأصله من الماء الذي يكون في النبات والشجر غامرًا

---

(١) زاد المسير ٩/٥٨.

(٢) حجة القراءات ٧٥٤.

(٣) قبل: وقبل، غ.

لسعته، يقال: نضر النبات: إذا زهر وَنَوَّر، وفي الحديث: «نضر الله امرأ سمع مقالتي»(١)، رواه الأصمعي بالتشديد، ورواه أبو عبيد بالتخفيف، أراد نعم الله، قال ابن شميل: نَضَرَ الله، ونَضَّرَ الله، وأَنْضَرَ الله، ومعناه: الذي له رونق وحسن، ويقال: نضره الله نَضِرَ يَنْضَرُ، نحو: سمع يسمع، ونَضَرَ يَنْضُرُ، نحو: نصر ينصُر لغتان، ويقال: أخضر ناضر، والنضرة: أصله الحسن.

والأرائك: جمع أريكة، وهو الحَجَلَةُ على السرير، وقيل: هي(٢) المواضع المرتفعة.

والرحيق: الصافي من الخمر، قال الخليل: هي أفضل [الخمر وأجودها](٣)، قال حسان:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمُ ... بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ(٤)

والمسك: طيب معروف، وأصله من تماسك أجزائه [و] جموده، ومنه: المَسْكُ: الجلد بالفتح؛ لأنه يمسك ما فيه.

والتنافس: تمني(٥) كل واحد من المتنافسين(٦) مثل الشيء النفيس أن يكون له ذلك، يتنافسون في الشيء تنافسًا، ونافسه به منافسة، والشيء الذي يتنافس فيه نفيس، ونفس عليه ينفس نفاسة: إذا ضن به لجلالته.

والتسنيم: عين ماء تجري من علو إلى سفل، يقال: سَنَّمَ العين تسنيمًا: إذا أجريتها عليهم من فوقهم، ومنه: سنام البعير؛ لعلوه من بدنه، وكل شيء مرتفع يسمى سنامًا، يقال: سنمت ذروة الجبل، أي: علوت، والتسنيم: الرفع، ومنه: تسنيم القبور.

---

(١) الترمذي رقم ٢٦٥٨.

(٢) هي: هو، غ.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من: التبيان في تفسير القرآن للطوسي: ١٠/ ٢٩٣.

(٤) اللسان (برد).

(٥) تمني: التمني، غ.

(٦) المتنافسين: النفسين، غ.

والمزج: خلط مائع، على خلاف صفته، كمزج الحار بالبارد، والشراب بالماء، مَزَجَهُ يَمْزُجُهُ مَزْجًا، وامتزج به امتزاجًا، ومازجه ممازجة.

والعين: عين الماء، وهو الموضع الذي يجري فيه الماء، وقد يسمى الماء بعينه عينًا، عن أبي مسلم.

۞ الإعراب

«من رحيق» محله نصب على خبر ما لم يسم فاعله، تقديره: يسقون هؤلاء رحيقًا.

وفي نصب (عينًا) وجوه: فقيل[١]: تسنيم اسم معرفة ونظيره: تنعيم اسم جبل، و(عَيْنًا) قطع منها أو حال، وقيل: (تسنيم) مصدر فيجري مجرى ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤]، وقيل: تقديره: يسقون عينًا، وقيل: أعني عينًا نصب على المدح، وقيل: من عين؛ لما حذفت الخافضة نصب.

۞ المعنى

لما تقدم حال الفجار عَقَّبه بذكر حال الأبرار، فقال سبحانه: «كَلَّا» قيل: ردع وزجر، أي: لا تكذبوا، فاتصل بقوله: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ ، عن أبي مسلم. وقيل: معناه حقًّا، فاتصل بما بعده، عن أبي علي. «إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ» أي: المؤمنين المخلصين الدين «[لَفِي عِلِّيِّينَ]» يعني: عليين السماء السابعة، وفيها أرواح المؤمنين، عن قتادة، ومجاهد، والضحاك، وكعب. وقيل: عليين: أعلى[٢] الأمكنة علوًّا على علو، فهي محل الملائكة، وقيل: عليون صفة للملائكة؛ لذلك جمع بالواو[٣] والنون فوصف كتابه أنه عند الملائكة، عن أبي علي. وإنما جعل ذلك بكتابه تعظيمًا لصاحبه، وقيل: تحمل كتبهم وتدفع إلى حملة العرش فيحفظونه، وقيل: «في السماء السابعة تحت العرش»، رواه البراء عن النبي ﷺ، وقيل: هو لوح من زبرجدة[٤]

---

(١) فقيل: فيقل، غ.

(٢) أعلى: على، غ.

(٣) بالواو: الواو، غ.

(٤) ذبرجدة: زبرجة، غ. وما أثبتناه من تفسير القرطبي ١٩/ ٢٢٩، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٦، وزاد المسير ٩/ ٥٧.

خضراء معلق تحت العرش، أعمالهم مكتوبة فيها، عن ابن عباس. وقيل: ساق العرش، عن كعب، ومقاتل، وقتادة. وقيل: هو الجنة، عن ابن عباس بخلاف. وقيل: سدرة المنتهى، عن الضحاك. وقيل: تقدير الكلام: إن كتاب الأبرار كتاب مرقوم في عليين؛ أي: محل للملائكة، وهو الوجه. وقيل: عليون نفس الكتابة، والملائكة يشهدونه، وقيل: عليين أي: مقبولاً عند الله غير مردود، معظم غير مستخف به، وقيل: محمول[1] إلى موضع اللوح المحفوظ، فيحفظ ثم «**وَمَا أَدْرَاكَ**» يا محمد «**مَا عِلِّيُّونَ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ**» قيل: مكتوب بما تقر به أعينهم، ويوجب مسرة لهم بما فيه من الأعمال الصالحة، والحسنات المقبولة «**يَشْهَدُهُ**» يحضره «**الْمُقَرَّبُونَ**» يعني الملائكة «**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ**» في الجنة ولين العيش والسعة «**عَلَى الْأَرَائِكِ**» قيل: السرير في الحجال، عن ابن عباس، وقال مجاهد: هو من اللؤلؤ والياقوت، سرير في حجله، وقيل: العرش فوق الأسرة، عن أبي مسلم. «**يَنظُرُونَ**» إلى ما أعطاهم الله من الكرامة والملك، عن مجاهد. وقيل: ينظرون إلى أعدائهم كيف يعذبون، عن مقاتل. وقيل: ينظرون أي: ينتظرون مثل ما لهم في الحال حالاً بعد حال أبدًا «**تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ**» يعني يتبين في وجوههم أثر النعمة، وهو الحسن والنضارة والإشراق «**يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ**» قيل: خمر صافية طيبة، قيل: هي الخمر البيضاء، عن مقاتل. وقيل: هي الخمر، عن ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد، وقتادة. وابن زيد، والحسن. وقيل: أفضل الخمر. «**مَخْتُومٍ**» وقيل: خَتْمٌ وُضِعَ من أن تمسها الأيدي تعظيمًا لصاحبها «**خِتَامُهُ مِسْكٌ**» قيل: آخره ومقطعه مسك، بأن يوجد ريح المسك عند خاتمة شربه، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك. وقيل: ختم إناه بالمسك بدلاً من الطين الذي يختم بمثله الشراب في الدنيا، عن مجاهد، وابن زيد. وذلك نهاية التعظيم «**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**» قيل: فليرغب الراغبون، وليتمنى ذلك بالمبادرة إلى الطاعة، وقيل: لمثل هذا فليعمل العاملون، عن مجاهد. وقيل: فليتنازع المتنازعون، عن مقاتل. يعني: يجب أن يتنافس فيها لا في أحوال الدنيا، وقيل: فليتشاح المتشاحون، عن زيد بن أسلم. وقيل: فليَجِدُّوا في طلبه، وليحرصوا عليه، عن ابن جريج. «**وَمِزَاجُهُ**» أي: خلط ذلك الشراب «**مِنْ**

(١) محمول: محمل؛ غ.

تَسْنِيم» قيل: التسنيم اسم لعين في الجنة، وقيل: شراب يصب عليهم من علو، وقيل: شراب اسمه تسنيم، وهو من أشرف الشراب، عن الضحاك. وقيل: ينصب عليهم انصبابًا فسمي تسنيمًا، عن مقاتل. وقيل: يجري في الهواء فيصب في أواني أهل الجنة بقدر الحاجة، عن قتادة. وقيل: هذا مما قال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، عن ابن عباس. «عَيْنًا» أي: ذلك التسنيم من عين «يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ» قيل: هي خالصة، للمقربين[(١)] يشربونها صرفًا، وتمزج لسائر أهل الجنة، عن ابن عباس، وابن مسعود. وقيل: تجري من تحت العرش إليهم، وقيل: «يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُون»، أي: هي[(٢)] مورد المقربين، عن أبي مسلم.

الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: عظم منزل المؤمنين حيث يعظم كتابه، وما هو فيه من النعيم.

ومنها: أن الملائكة تحضر تلك الكتب إما لحفظه وإما[(٣)] لتعظيم أمره، وإما[(٤)] لأنه في محلهم ومكانهم، وكل ذلك ينبئ عن عظم محله.

ومنها: نعيم أهل الجنة، كل ذلك ترغيب وترهيب.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

---

(١) للمقربين: المقربين، غ. وما أثبتناه من تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/٢٦٨.
(٢) هي: هو؛ غ.
(٣) وإما: أو؛ غ.
(٤) وإما: أو؛ غ.

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر وحفص عن عاصم: «**فكهين**» بغير ألف، والباقون: «**فاكهين**»[1] قيل: هما بمعنى، وقيل: فكهين: أَشِرِينَ بَطِرِينَ، وفاكهين: كثيري[2] لعب ومزاح ونشاط، وقيل: فكهين: معجبين.

قرأ حمزة والكسائي: «**هل ثوب**» بإدغام اللام في الثاء، وروي نحوه عن ابن عمر. والباقون بالإظهار على الأصل[3].

۞ اللغة

التغامز: إشارة بعضهم إلى بعض بالأعين استهزاءً وطلبًا لِلَّعب، يقال: غمز بِخُفْيةٍ: أشار، والمُغَامِزُ: المعايب، والغَمَزُ: رذال المال.

والفاكه: ما يُتَفَكَّهُ من نوادر الأمور، والفاكه: اللاهي، والفَكِهُ: المزح، والفَكِهُ: الأشر والبطر، والتفكه: التمتع بالمأكول من غير أخذه [على] الفور، والفكاهة: المزاح، رجل فَكِهٌ: طيب النفس، والتفكه: التندم أيضًا من قوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥]، وقيل: تعجبون، والفاكهة معروفة، وأصل الباب: ما يتفكه، أي: يتلهى.

والثواب: الجزاء، وأصله من الرجوع، كأنه يرجع إلى العامل بعمله، ثاب يثوب ثوبًا: إذا رجع، وثاب إليه عقله: إذا رجع، والتثاؤب: ترجيع بمدد الفم مع انفتاحه.

۞ الإعراب

﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ قيل: محله نصب، على تقدير: ينظرون هل ثوب، وقيل: لا موضع له؛ لأنه ابتداء كلام على الاستئناف.

﴿الْكُفَّارُ﴾ رفع؛ لأنه اسم ما لم يسم فاعله، وخبره في قوله: ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

---

(١) حجة القراءات ٧٥٥.

(٢) كثيري: كثير؛ غ.

(٣) زاد المسير ٩/ ٦١.

۞ النزول

قيل: نزلت الآيات في أبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأصحابهم من مشركي قريش بمكة، كانوا يضحكون من عمار وخباب وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين، ويستهزئون منهم ومن إسلامهم.

وقيل: نزلت في علي، جاء إلى رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين، فسخر منهم المنافقون، وضحكوا وتغامزوا، ثم قالوا لأصحابهم: رأينا اليوم الأصلع، فضحكنا منه، فأنزل الله تعالى هذه الآية قبل أن يصل علي وأصحابه إلى النبي صلى الله عليه، عن مقاتل، والكلبي.

وقيل: استعمل رسول الله عليًّا على بني هاشم، فكان إذا مر بهم ضحكوا منه، فنزلت الآية، عن الكلبي.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين، وبيان ما أُعِدَّ لكل واحد، بَيَّنَ بعده استهزاء الكافر بالمؤمن في الدنيا، وَبَيَّنَ حال الكافر في العقبى، وسرور المؤمن، فقال سبحانه: «**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا**» قيل: أشركوا وكفروا فيمن كانوا زمن رسول الله صلى الله عليه «**كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا**» من أصحابهم «**يَضْحَكُونَ**» وضحكهم يحتمل وجوهًا:

منها: أن يكون لقولهم بالإعادة وإحياء العظام الرميمة، وكانوا ينكرون ذلك، ويستبعدون بجهلهم الله تعالى، فكانوا يتعجبون من قولهم، ويضحكون إنكارًا وتعجبًا.

ومنها: أن يكون ذلك استهزاءً بهم.

ومنها: لما رأوا من فقرهم، وضعف حالهم.

ومنها: ما رأوا من جدهم في عباداتهم وكثرة صيامهم وصلاتهم، مع إنكارهم الجزاء والبعث، فكانوا يضحكون لذلك.

ومنها: لجهلهم وغلوهم في كفرهم أوهموا العوام أنهم على شيء، وأن هؤلاء على باطل، فكانوا يضحكون.

«وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ» يعني المؤمنين بالمشركين «يَتَغَامَزُونَ» أي: يشير بعضهم إلى بعض بالأعين استهزاء بهم، ويقولون: هؤلاء يقولون: إنهم على حق وإنا نبعث، ومحمد يزعم أنه يأتيه الوحي، وأنه رسول الله، ونحو ذلك، «وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ» يعني: إذا رجعوا إلى أهلهم رجعوا فكهين، «وفَاكهينَ»، قيل: مسرورين في لعب ونشاط، وغفلة مما يجب عليهم، وقيل: أشرين بطرين، وقيل: معجبين بأنفسهم وحالهم، وقيل: لاعبين لا يكترثون بما فعلوه بالمؤمنين، وما اكتسبوا من الإجرام، عن أبي علي. «وَإِذَا رَأَوْهُمْ» يعني رأوا المؤمنين من أصحاب النبي ﷺ «قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ» عن الحق، يرون ما هم فيه حَقًّا «وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ» قيل: ما كلفوا حفظهم وحفظ أعمالهم، فكيف يطعنون عليهم؟! ولو اشتغلوا بما كلفوا لكان أولى بهم. وقيل: ما أرسلوا عليهم شاهدين؛ لأن شهادة الكفار لا تقبل على المؤمنين، أي: ليسوا شهداء عليهم؛ بل المؤمنون شهداء على الكفار، عن أبي مسلم. وقيل: ما سلطوا عليهم حتى يتبعوهم ويحفظوا عليهم أعمالهم. وقيل: لا يطلعون على ما في ضمائرهم، فكيف يرسلهم حفظة؟ وإنما هم[1] من رتبة الملائكة ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني: يوم القيامة، والألف واللام للعهد ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ لأنهم كانوا أعداء المؤمنين، فكان سرور المؤمنين في تعذيب أولئك الكافرين. وقيل: يضحكون منهم، ويذكرون ما كان منهم في الدنيا وحماقاتهم في عبادتهم الأوثان وتكذيبهم الرسول، واعتقاداتهم الفاسدة بأن يقولوا: كنتم تقولون كذا، ويضحكون. وقيل: يضحكون من مباينة الحالين. وقيل: يفتح لهم باب إلى الجنة فإذا دخلوا أغلق دونهم، يفعل ذلك ثوابًا، والمؤمنون يضحكون منهم ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ الأماكن المرتفعة والأسرة المعروشة ﴿يَنظُرُونَ﴾ قيل: إلى النعم التي أعطاهم الله تعالى. وقيل: إلى أعدائهم كيف يعذبون. وقيل: ينتظرون مثل ما هم فيه حَالاً بعد حال. وقيل: النظر الأول نظر إلى النعم؛ لأنه يتصل بها، والنظر الثاني نظر إلى الأعداء؛ لأنه يتصل بذكرهم فلا يكون تكرارًا، ولا سرورَ أعظمُ من سرورهم، ينظرون إلى نعيم دائم لهم حصلوا فيه، وعدوهم حصل في خزي وذل ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ

(١) هم: هو؛ غ.

مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أي: هل جوزوا بفعلهم، قيل: هو استفهام، والمراد التقرير. وقيل: (هل) بمعنى (قد). واختلفوا، فقيل: إنه يتصل بما قبله. وقيل: بل كلام مستأنف.

فعلى القول الأول قيل: ينظرون هل ثوب الكفار بأعمالهم، وقيل: يقول المؤمنون بعضهم لبعض: هل ثوب الكفار بأعمالهم سرورًا بما ينزل بهم، عن أبي علي.

ومن قال بالقول الثاني، قيل: يجوز أن ينادى بهذا يوم القيامة فيكون سرورًا للمؤمنين وتقريعًا للكافرين. وقيل: بل يقوله الله تعالى للمؤمنين أَلَمْ أُجَازِهِمْ على ما سبق منهم؟ عن أبي مسلم.

ومتى قيل: كيف يستعمل لفظ الثواب في العقوبة؟

قلنا: الثواب حقيقة ما يرجع على صاحبه من عاقبة عمله، إلا أنه غلب عليه الإثابة بالنعم، فاستعمل هاهنا على أصله.

وقيل: إنما قيل ذلك في مقابلة ما فعل بالمؤمنين؛ أي: هل ثُوِّبَ الكفار، كما ثُوِّبَ المؤمنون، فذكر الثواب للمقابلة.

۞ الأحكام

الآيات تتضمن أحكامًا:

منها: أن أهل الباطل لغفلتهم يسخرون من أهل الحق، وتدل على عظيم ذلك عند الله تعالى.

ومنها: أن ذلك لا يضر المؤمنين مع حسن عاقبتهم، وإنما تؤول عاقبته الوخيمة عليهم.

ومنها: قبح اللعب والبطر.

ومنها: أن أهل الجنة يرون أهل النار، ويسرون بما هم فيه من النعيم، وما فيه أعداؤهم من العقاب، وفيه حسرة للكافرين لما رأوا من الحالين.

ومنها: أن العقاب جزاء على الأعمال.

ومنها: أن أعمال العباد فعلهم.

سُورَةُ الانْشِقَاق

سورة (إذا السماء انشقت) مكية فيما روي، وهي ثلاث وعشرون آية، وقيل: خمس وعشرون آية.

وروى أُبيّ عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة (**إذا السماء انشقت**) أعاذه الله أن يعطيه كتابه وراء ظهره».

ولما ختم سورة (المطففين) بذكر القيامة، افتتح هذه السورة بمثلها، فاتصل به اتصالَ المِثْلِ بالمِثْلِ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا
وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ
أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ
أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣
إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر وعاصم وأبو عمرو وحمزة ويعقوب: ﴿وَيَصْلَىٰ﴾ بفتح الياء وسكون وتخفيف اللام[1]، واختاره أبو عبيد اعتبارًا بقوله: ﴿صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٣]، وقوله: ﴿يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢].

وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع والكسائي: (يُصَلَّى) بضم الياء، وفتح الصاد، وتشديد اللام[2]، واختاره أبو حاتم اعتبارًا بقوله: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣١]، وروي بالضم خفيفة عن نافع وعاصم.

اللغة

الانشقاق والانفطار والانصداع والانفراج نظائر، والانشقاق: افتراق عن التئام.

والأذان: الإطلاق، والإذن: الاستماع؛ كأنه بالاستماع أذن له في القول، أَذِنَ يَأْذَنُ إذنًا: إذا استمع، والعرب تقول: أذن فلان، أي استمع، قال الشاعر:

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِشَرٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا[3]

أي: استمعوا، وقال عدي بن زيد:

وَ سَمَاعٍ يَأْذَنُ الشَّيْخُ لَهُ وَحَدِيثٍ مِثْلِ مَاذِيٍّ مُشَارِ[4]

ثم يقام السمع مقام الإجابة، ومنه: سمع الله لمن حمده؛ أي أجاب، ويقال: سمع الله دعاك: أجابه، ويستعمل في الطاعة.

ويقال: حق له أن يكون على هذا الأمر، ومحقوقة بهذا الأمر؛ يعني: جعل ذلك حَقًّا، ومحقوقة وحقيقة سواء في المعنى، ومعناه: حق له أن يكون كذلك، قال الأعشى:

وَإِنَّ امْرأً أَسْرَى إِلَيْكِ وَدُونَهُ سَهُوبٌ وَمَوْمَاةٌ وبَيْدَاءُ سَمْلَقُ[5]

---

(١) حجة القراءات ٧٥٥.

(٢) حجةالقراءات ٧٥٦.

(٣) البيت قائله قعنب بن أم صاحي، الصحاح (أذن)، اللسان (أذن).

(٤) الصحاح (شور)، اللسان (موذ).

(٥) اللسان (حقق)، تاج العروس (حقق)؛ والبيت ورد برواية أخرى:

سهوب وموماة ويهماء سملق

لَمَحْقُوقَةٌ أن تَسْتَجِيبِي لِصَوْتِهِ وَأَنْ تعلمِي أَنّ المُعَانَ مُوَفَّقُ

والسَّمْلَقُ: الخالي.

والمد: مصدر مد الشيء يمد مدًّا، ومنه: الإمداد والمداد، ومَدَّ النَّهْرُ، ومده نهر آخر، وأمددت الجيش بمدد، ومَدُّ النهار: ارتفاعه.

والكداح: السعي الشديد المتعب في الأمر، كدح في أمره كدحًا، ومنه: كُدُوحٌ أي: أثارة من شدة السعي، قال ابن مقبل:

وَمَا الدَّهْرُ إلاَّ تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْدَحُ[(١)]

والملاقاة: مصادفة الشيء للشيء، وكل شيء صادف شيئًا أو استقبله، فقد لقيه، تقول: لقيت فلانًا لُقِيًّا ولُقْيانًا، والملَقَاةُ: المرة الواحدة، واللّقْيَةُ مثله، وليس اللقاء من الرؤية في شيء، وإنما يستعمل فيه مجازًا، يقال: لاقيت جهدًا، ولاقيت شدة، وهاهنا الخطاب للمؤمنين والكفار، والكافر لا يرى ربه بالاتفاق.

والثبور: الهلاك، ثَبَرَهُ الله يَثْبُرُهُ ثَبْرًا: إذا أهلكه، ومَثْبِرُ الناقة: الموضع الذي تطرح ولدها فيه؛ لأنها تشفي به على الهلاك، وتثابرت الرجال في الحرب: تواثبت [لإشفائها] على الهلاك، والمثابرة على الشيء: المواظبة عليه لحمله نفسه على الهلاك بشدة المداومة.

والحَوْرُ: الرجوع، حار يحور حورًا: رجع، وكلمتُهُ فما أحار جوابًا أي: ما رَدَّ، ومنه: نعوذ بالله من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ؛ أي: من الرجوع إلى النقصان بعد التمام، والمحاورة: في الكلام: المراجعة، وحَوَّرَهُ: ردَّه إلى البياض، ومنه: الحُوَّارِيُّ لرجوعه إلى البياض.

۞ الإعراب

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ﴾ شرط قيل: جوابه محذوف، تقديره: رأى الإنسان ما قدم من خير أو شر.

(١) اللسان (كدح)، (نور)؛ تاج العروس (كلاح).

وقيل: جوابه في قوله: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ تقديره: إذا السماء انشقت جوزي كل كادح[1] بكدْحَهُ[2].

وقال المبرد: فيه تقديم وتأخير تقديره: يا أيها الإنسان، إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه إذا السماء انشقت.

وقيل: جوابه في قوله: (أذنت وحقت)، وحينئذ تكون الواو زائدة.

وقيل: هو على تقدير: اذكر إذا السماء انشقت، عن أبي علي.

❁ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ في الحارث بن عمرو القرشي.

وقيل: بل هو عام.

❁ النظم

يقال: كيف يتصل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ بما قبله؟

قلنا: فيه وجوه:

قيل: هو يخبر عن ظنه أن لن يحور، والله يُخْبِرُ ويقطع أنه يحور، وهو بصير به.

وقيل: تقديره: بلى سيرجع إلى الآخرة، والله عالم بأحواله، سيجازيه بالمستحق.

وقيل: بل يحور إلى رب[3] كان به بصيرًا، ولو لم تكن الآخرة لما كلف.

❁ المعنى

«إذا السماءُ انشقت»: تقطعت فصارت قطعة قطعة، وقيل: تشققت لنزول الملائكة. وقيل: تنشق وتفنى، وهو علم من أعلام الساعة. وقيل: فائدة انشقاقها

---

(١) كادح: قادح، غ.

(٢) انظر: القرطبي ١٩/٢٣٧.

(٣) إلى رب: إن ربه؛ غ.

وفنائها إقامة الحجة على من قال بقدمها إذا رآها تتلاشى وتفنى. وقيل: إنما يحتاج إليها أهل الدنيا، فأما أهل الجنة والنار فلا حاجة بهم إليها، فتتلاشى. «**وأَذنت لربِها**» قيل: سمعت وأطاعت، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة. وهذا مثل يعني كأنها سمعت بإذن الله وأطاعت بانقيادها لتدبير أمر الله تعالى[١] فمن لم يمتنع عليه شيء وصف بذلك. «**وحُقَّت**» قيل: حق لها أن تأذن بالانقياد لأمر ربها. وقيل: كانت محقوقة بالانشقاق، عن أبي مسلم. «**وإذا الأرضُ مُدَّت**» بسطت باندكاك جبالها وآكامها حتى تصير كالصفحة الملساء، وهي من أشراط الساعة. وقيل: تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم في حديث مرفوع. وقيل: مدت وزيدت في سعتها، عن ابن عباس. وقيل: مدت: نقلت إلى غير مكانها. «**وألقت ما فيها وتخلَّت**» قيل: أخرجت الأرض أثقالها وما فيها من الموتى والكنوز، عن قتادة، ومجاهد. وإنما قال: (**ألقت**) توسعًا؛ لأنه تفرج أجزاء[٢] الأرض، ويحيون فيخرجون، فأضافها إلى الأرض توسعًا كما قال: «**وأذنت لربها وحقَّت**». وقيل: (**تخلت**) بمعنى خلت، فلم يبق في بطنها شيء، وتخلت وخلت اختلفا في البناء والمعنى واحد. «**وأذنت لربها وحقَّت**» الأول في صفة السماء، والثاني في صفة الأرض، فليس بتكرير.

«**يا أيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كدحاً**» قيل: عامل[٣] لله عملاً من خير أو شر، و(إلى) بمعنى اللام. وقيل: معناه: إنك تعمل عملاً في مشقة لتحمله إلى الله، وتوصله إليه للجزاء. وقيل: صائر بكسبك إلى ربك، قال القتيبي: ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك أي وقت الموت. «**فملاقيه**» قيل: ملاقي ربِّك، والمعنى: صائر إلى حكمه حيث لا حكم إلا لله[٤]. وقيل: ملاقي كدحك؛ أي: سعيك، قيل: تجده مكتوبًا في كتبك[٥] لتجازى وتحاسب. وقيل: يلاقي جزاءه، فذكر السعي وأراد الجزاء. وقيل: ملاقي ما وعد، عن أبي علي.

(١) تعالى: ـ، غ.
(٢) أجزاء: أخر، غ.
(٣) عامل: عاملا، غ.
(٤) لا حكم إلاّ لله: لا يحكم إلا حكمه، غ.
(٥) كتبك: كتبه، غ.

«**فأما من أوتي كتابه بيمينه**» قيل[١]: كتاب أعماله التي كتبها الحفظة، وفائدة إعطائه باليمين كونه علامة لكونه من أهل الجنة، وتعظيمًا له، وزيادة في سروره[٢]، ولطفًا في الإخبار عنه. وقيل: هو[٣] كناية عن قبول أعماله، كما يقال فيمن عرض عليه شيءٌ، فَقِيلَ: تَلَقَّاهُ باليمين، فكأنه قيل: الذي قَبِلَ أمر الله وأطاعه تُقُبِّلُ عمله يوم القيامة ويحاسب حسابًا[٤] يسيرًا، عن أبي مسلم. «**فسوف يُحاسَبُ حساباً يسيراً**» أي: سهلاً. قيل: الحساب اليسير: التجاوز عن السيئات والإثابة على الحسنات، ومن نوقش في الحساب عُذّب، في حديث مرفوع. وقيل: حسابه عرض الحسنات، وما له من الثواب عليها، وما حط عنه من الأوزار. وقيل: إنما يكون إكرامه وإعظامه، فيسر بذلك، ويعلم أهل الموقف محله. «**وينقلبُ إلى أهلِهِ**» قيل: من الحور العين. وقيل: من أولاده وأزواجه وعشائره، وقد سبقوه إلى الجنة فلا يشتغل بشيء قلبه[٥]. وقيل: إلى إخوانه من المؤمنين، وليس المراد النسب، عن أبي مسلم. «**مسرُوراً**» بما أكرم من الثواب.

«**وأمّا من أوتي كتابه وراء ظهرهِ**[٦]» قيل: تجعل يده من وراء ظهره، ويعطى كتابه، عن مجاهد. وقيل: ذلك علامة مناقشة الحساب وسوء المآب، فإذا علم ما فيها من المعاصي بقراءته دعا بالويل والثبور «**فسوف يدعوا تبور**» يقول: وا هلاكاه! واثبوراه! «**ويصلى سعيراً**» قيل: يدخل النار ويعذب بها، عن أبي علي. وقيل: يصير صِلاءً للنار المسعرة، والإسعار والإيقاد واحد، عن أبي مسلم. وقيل: يلزم النار معذبًا، عن علي بن عيسى. «**إنّهُ كان في أهلِه مسروراً**» في الدنيا. قيل: اقتطعه السرور بالدنيا وأهلها عما يلزمه أن يقوم به، خلاف المؤمنين الذين قالوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ

(١) قيل: ـ، غ.
(٢) في سرور: لسروره، غ.
(٣) هو: فهو، غ.
(٤) حسابا: ـ، غ.
(٥) قلبه: قبله، غ.
(٦) كتابه وراء ظهره: بكتابه بشماله، غ.

فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]. وقيل: كان سروره بالأماني الكاذبة، والغرور الباطلة؛ إذ ظن أن لا بَعْثَ ولا معاد، عن أبي مسلم. وقيل: كان مسرورًا بمعاصي الله، لا يغتم ولا يندم، عن أبي علي. وقيل: كان لهواه متابعًا، وفي مواقع اللهو ساهيًا، لم يتفكر في العواقب. «**إِنَّهُ ظَنَّ أن لن يحور**» أي[1]: لن يرجع إلى حال الحياة في الآخرة للجزاء، وقيل: لما ظن أن لن يحور ارتكب المآثم، وانتهك المحارم. ثم رد عليه فقال سبحانه: ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي: ليس كما ظن؛ بل يرجع إلى الآخرة والجزاء ويبعث. وقيل: ظن أن لن يرجع إلى ما وعد وأوعد ليس كذلك، بل يرجع. ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ عالمًا بأحواله وأعماله[2] فيجازيه عليها[3].

۞ الأحكام

الآيات تتضمن أحكامًا:

منها: علامات الساعة.

ومنها: أنه لا يبقى في الأرض ميت، ويبعث الجميع[4].

ومنها: أن كل ساعٍ يلقى جزاء عمله.

ومنها: التمييز بين الكافر والمؤمن في الكتاب، فيعطى المؤمن على وجه الإكرام[5]، ويعرض[6] إجلالاً، ويعطى الكافر هوانًا، ويناقش في الحساب.

ومنها: أن حساب المؤمن يسير غير شاق، فيصير به مسرورًا وهو بالعرض.

ومنها: أن السرور بأحوال الدنيا وقصر النفس عليها والإعراض عن الآخرة مذموم يعقب الندامة.

---

(١) أي: و، غ.
(٢) وأعماله: وأعمالها، غ.
(٣) عليها: ـ، غ.
(٤) ويبعث: إلا ويبعث، غ.
(٥) ومنها أن كل ساع. . . الإكرام: ـ، غ.
(٦) ويعرض: ويعرضوا، غ.

قوله تعالى:
﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن
طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾﴾

القراءة

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: «لَتَرْكَبَنَّ طبقًا» بفتح الباء[1]، وهي قراءة عمر وابن مسعود وابن عباس وأبي العالية، ومعناه: لَتَرْكَبَنَّ يا محمد سماء بعد سماء، ودرجة بعد درجة. وقيل: أراد به السماء تتغير لونًا بعد لون، تصير تارة كالدهان، وتارة كالمهل، وتطوى مرة، وتشق مرة. وقيل: لتركبن أيها الإنسان أو أيها السامع.

وقرأ الباقون بضم الباء، واختاره أبو عبيد؛ لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ؛ لأنه تقدم ذكرهم، ثم خاطبهم، فقال: «لتركبُنَّ طبقاً ع طبقٍ».

اللغة

الشفق: أصله الرقة، ومنه: أشفق على كذا فهو شفيق: إذا رق عليه، وخاف هلاكه، وأشفق منه: خاف: إذا رق بالخوف، وثوب شفيق: رقيق، والشفق: البقية الضعيفة من أثر الشمس إذا غابت، سمي[2] بذلك لرقته، فبعضهم يقول: الشفق: الحمرة، وهو قول الخليل، والأوزاعي، وأبي يوسف، ومحمد، والشافعي، ومالك. ومنهم من يقول: البياض، وهو قول أبي حنيفة، وجماعة من الفقهاء، وقول ثعلب وجماعة من أهل اللغة. قال الفراء: سمعت بعض العرب تقول لثوب أحمر: كأنه الشفق. [قال الشاعر:

أَحْـمَـرُ الـلَّـوْنِ كَـمُـحْـمَـرِّ الـشَّـفَـقْ][3]

(١) حجة القراءات ٧٥٦.
(٢) ما بين المعكوفين ساقط في غ، فتح القدير ٥/ ٥٧٦.
(٣) سمّي: سميت غ.

وقال آخر:

قُـمْ يَـا غُـلامُ أَعِـنِّـي غَـيْـرَ مُـرْتَـبِـكٍ عَلَى الزَّمَانِ بِكَأْسٍ حَشْوُها شَفَقُ[1]

والوَسْقُ: الجمع، وسَقْتُهُ وَسْقًا: إذا جمعته، وطعام موسوق: مجموع في الغرائر، والوَسْقُ: الطعام المجتمع الكثير مما يكال أو يوزن، ومقداره ستون صاعًا، وأنشد ابن عباس:

مُسْتَوْسَقَاتٍ، لَوْ يَجِدْنَ سَائِقَا[2]

أي: مجتمعات.

وقال أبو مسلم: الوسق في كلام العرب يحتمل وجهين: أحدهما: الطرد، والثاني: الحمل، وهو في هذا الموضع الطرد.

والاتساق: الاجتماع على تمام[3] واستمرار. [وهو] افتعال[4]: من الوسق[5]، فإذا تم نوره، واستتم ضياء نوره فذلك الاتساق.

والطبق: الحال الشديد، عن أبي مسلم. وقيل: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي: منزلة بعد[6] منزلة، وأصل الطبق: الحال، والعرب تسمي الدواهي: بنات طَبَقٍ، قال شاعرهم:

قَـدْ طَـرقَـتْ بِـبَـكْـرِهَـا أُمُّ طَـبَـقْ فَـنَـتَّـجُـوهَـا خَـبَـرًا ضَـخْـمَ الـعُـنُـقْ[7]

وقال آخر:

الـصَّـبْـرُ أَحْـمَـدُ وَالـدُّنْـيَـا مُـفْـجِّـعَـةٌ مَنْ ذَا الَّذِي لَمْ يَذُقْ فِي عَيْشِهِ رَنَقَا

---

(١) القرطبي ١٩/ ٢٤٠.

(٢) اللسان (وسق) وتمام البيت:

إن لـنـا قـلائـصًـا حـقـائـقـا مـسـتـوسـقـات لـو يـجـدن سـائـقـا

(٣) الوسق في كلام العرب... تمام: -، غ.

(٤) افتعال: فيقال، غ. وما أثبتناه من التبيان في تفسير القرآن للطوسي: ١٠ / ٣٠٢.

(٥) الوسق: وسق، غ.

(٦) بعد: عن؛ غ.

(٧) قاله خلف الأحمر لما نعي إليه المنصور. اللسان (طرق).

إِذَا صَفَا لَكَ مِنْ مَسْرُورِهَا طَبَقٌ أَهْدَى لَكَ الدَّهْرِ مِنْ مَكْرُوهِهَا طَبْقَا

أي: حالاً.

والإيعاء: جعل[1] الشيء في وعاء، والقلوب أوعية للمعارف والاعتقادات والإرادت والظنون من خير أو شر، يقال: أوعيت المتاع، ووعيت العلم: حفظته.

والمن: أصله القطع، ومنه: ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨]، ومنه: المنّة؛ لأنها تقطع الشكر بالأذى، تقول العرب: منيت الحبل: قطعته، عن الزجاج. والمنون والمنين منه، وهو «فعيل ومفعول» بمعنى واحد؛ لأنه يقطع الحياة، ومنه: المَنِيَّةُ.

۞ الإعراب

جواب القسم قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا﴾.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر البعث والقيامة أكدها بالقسم باختلاف أحوال الناس تنبيهًا على قدرته على البعث[2] **«فلا أقسمُ»** معناه: أقسم، و(لا) زيادة[3]، عن أبي علي. وقيل: هو كقوله: لا، والله لأفعلن كذا، فدخل (لا) للتأكيد. وقيل: نفى القسم لظهور الأمر[4]، فاستغنى عن القسم، عن أبي مسلم. وقيل: القسم بهذه الأشياء لما تتضمن من دلائل التوحيد. وقيل: بل[5] برب هذه الأشياء، عن أبي علي. **«بالشفق»** قيل: الحمرة[6] في الأفق[7] ما بين العشاء والمغرب، عن الحسن، وأبي علي، وجماعة. وقيل: البياض. وقيل: أراد جملة النهار، وليس بالوجه. **«والليل وما وَسَقَ»** قيل: ما جمع إلى مساكنه[8] مما كان منتشرًا

---

(١) جعل: فعل، وما أثبتناه من تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ٧٧، روح المعاني: ٣٠/ ٨٤.
(٢) بالقسم باختلاف أحوال... البعث: ـ، غ.
(٣) في زيادة: + ، غ.
(٤) الأمر: الاسم، غ.
(٥) بل: ـ، غ.
(٦) الحمرة: حمرة، غ.
(٧) في الأفق: ـ، غ.
(٨) مساكنه: ساكنه؛ غ.

بالنهار في منصرفه نحو الدواب والحرشات وغيرها، عن عكرمة. وإذا[١] كان الليل ذهب كل شيء[٢] إلى مأواه. وقيل: ما ساق من ظلمته[٣]، عن الضحاك، ومقاتل. وقيل: «وما وسق» أي: أقبل[٤] من ظلمة أو كوكب[٥]. وقيل: ما[٦] طرق بالليل من الكواكب، فإنها تظهر بالليل وتخفى بالنهار، وأضافها إلى الليل؛ لأن ظهورها فيه مطرد، عن أبي مسلم. وقيل: ما عمل فيه، عن سعيد بن جبير. كان ذلك الفعل منه[٧] لما كان فيه. وقيل: ما طرد من ضوء[٨] النهار، يقال: وسقته فاتسق[٩] أي: طردته فَاطَّرَدَ، والوسيقة الطريدة، كأن الليل إذا[١٠] أقبل طرد الضوء من كل شيء[١١].

«والقمر إذا اتَّسق» قيل: إذا اجتمع، واستوى، وتم نوره. وقيل: إذا استدار، عن قتادة. وقيل: استوى، عن مجاهد. وقيل: ارتفع، وذلك في الأيام البيض. وقيل: اتساقه: مسيره[١٢]. وقيل: اطرد، عن أبي مسلم. يقال: اطرد الأمر: استقام، واطرد الشيء اطرادًا[١٣] إذا بلغ[١٤] وتابع بعضه بعضًا.

«لتركبنَّ طبقاً عن طبق» قيل: لتخرجن من حال إلى حال؛ أي: لتصيرن إلى الآخرة عن الدنيا، عن أبي علي. وقيل: من شدة إلى شدة، ومن[١٥] موتة إلى موتة

(١) وإذا: ـ، غ.
(٢) كان الليل ذهب كل شيء: ذهب كل شيء ذهب، غ.
(٣) ما ساق من ظلمته: ـ، غ.
(٤) أي أقبل: قيل، غ.
(٥) أو كوكب: وكوكب، غ.
(٦) طرق: طرد، غ.
(٧) منه: ـ، غ.
(٨) ضوء: ضيق، غ.
(٩) فاتسق: واتسق، غ.
(١٠) إذا: إذ، غ.
(١١) شيء: ـ، غ.
(١٢) مسيره: سيره، غ.
(١٣) طرادا: اطراد، غ.
(١٤) إذا بلغ: ـ، غ.
(١٥) ومن: من، غ.

من حشر[١] إلى حشر، عن أبي مسلم. وقيل: طبقات السماء بعروج[٢] الأرواح. وقيل: حالاً بعد حال، من[٣] إحياء وإماتة، ثم إحياء ومواقف عظيمة، ثم النار والجنة، عن مقاتل. وقيل: مرة فقيرًا، ومرة غنيًا[٤]، عن عطاء. وقيل: الشدائد والأهوال: الموت، ثم البعث، ثم العرض، عن ابن[٥] عباس. وقيل: لتركبن سَنَنَ[٦] من كان قبلكم وأحوالهم، عن أبي عبيدة. وقيل: حالاً بعد حال: رضيع، ثم غلام، ثم شاب، ثم شيخ، عن عكرمة. وقيل: أحوال الإنسان مختلفة اختلافًا كثيرًا: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا، ثم خلقًا آخر، ثم جنينًا، ثم وليدًا، ثم رضيعًا، ثم فطيمًا، ثم يافعًا، ثم ناشئًا، ثم مترعرعًا، ثم مراهقًا، ثم محتلمًا، ثم بالغًا، ثم أمرد، ثم طارًّا، ثم ملتحيًا، ثم مستويًا، ثم مجتمعًا، ثم كهلاً، ثم أشمط، ثم شيخًا، ثم أشيب، ثم هِمًّا، ثم هرمًا، ثم ميتًا، ثم مبعوثًا، ثم محاسبًا، ثم يستقر به الأمر إما إلى الجنة وإما[٧] النار، فهذا معنى قوله: **«لتركبن طبقاً عن طبق»**، وإذا نظر العاقل في هذه الأحوال علم أنه محدث، وأن له صانعًا ومدبرًا يغير عليه هذه الأحوال. وقيل: كل يوم تتغير عليه أحواله، فلا يكون اليوم، كما كان أمس.

«فما لهم لا يؤمنون» استفهام، والمراد الإنكار؛ أي: ما الذي يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله وبالبعث مع ظهور الحجة. وقيل: ما وجه الارتياب الذي يصرفهم عن الإيمان، وهو تعجيب منهم في تركهم الإيمان.

«وإذا قُرِئَ عليهم القُرءان لا يسجدُون» قيل: لا يخضعون. وقيل: ما لهم لا يصلون، عن الكلبي، ومقاتل. أي: ما الذي يمنعهم من الصلاة، والخضوع عند القرآن.

ثم بَيَّنَ ما الذي حملهم عليه، فقال: **«بل الذين كفروا يكذبون»** أي: تكذيبهم

---

(١) حشر: حضرة، غ.
(٢) بعروج: بخروج، غ.
(٣) من: ـ، غ.
(٤) غنيا: غني، غ.
(٥) ابن: ـ، غ.
(٦) سنن: سنين، غ.
(٧) وإما: أو، غ.

حملهم على ذلك جهلاً. «**والله أعلم بما يوعون**» يكتمون في صدورهم، عن قتادة، ومجاهد. وقيل: بما يعملون من المعاصي، ويسترونه، عن أبي علي. وقيل: يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة، عن ابن زيد. وقيل: بما يعتقدون ويكيدون النبي ﷺ والمؤمنين. «**فبشرهم**» أي: أخبرهم «**بعذابٍ أليمٍ**» موجع «**إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجرٌ غير ممنون**» قيل: غير منقوص، عن ابن عباس. وقيل: غير مقطوع. وقيل: غير مُنَغَّصٍ بالمن، عن أبي علي. وقيل: هو الجنة، عن أبي مسلم. ومعنى «**أَجْرٍ**» أي جزاء.

الأحكام

يدل [قوله]: «**فلا أقسم**» على تأكيد أمر الجزاء.

ويدل قوله: «**طبقاً عن طبقٍ**» اختلاف أحوال الإنسان، وأن له مدبرًا وصانعًا غير عليه الأحوال.

ويدل قوله: «**فما لهم لا يؤمنون**» أنهم[1]: قادرون على الإيمان، والإيمان فعلهم، خلاف قول المجبرة؛ لاستحالة أن يقول: مَالَكَ لا تؤمن، وهو لا يقدر على الإيمان، ولا له إليه سبيل، ولا هو من فعلهم لو وجد، وكذلك دلالة قوله: «**لا يسجدون**».

ويدل قوله: «**لا يسجدون**» أن الكفار مخاطبون بالشرائع، ويدل أن هاهنا سجدة واجبة.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ «أنه قرأ هذه السورة وسجد».

(١) أنهم: أي، غ.

سُورَةُ البُرُوج

سورة (البروج) مكية على ما روي، وهي اثنتان وعشرون آية.

وعن أبي عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (**والسماء ذات البروج**) أعطاه الله من الأجر بعدد كل يوم جمعة وكل يوم عرفة يكون في دار الدنيا عشر حسنات».

ولما ختم السورة التي قبلها بذكر المؤمنين، وما أعدّ لهم، وبيان أحوال القيامة، افتتح هذه السورة بذكر المؤمنين من أصحاب الأخدود، وما لقوا من أعدائهم، وبذكر القيامة والوعد والوعيد تأكيدًا لما تقدم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: ﴿ٱلْوَقُودِ﴾ بفتح الواو، وهو الحطب. وقرأ أشهب العقيلي بضم الواو على المصدر(١).

قراءة العامة: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ﴾ بالكسر فيهما على نعت الأخدود. وقرأ أشهب بالرفع

---

(١) القرطبي ١٩/ ٢٥١.

فيهما[1] على معنى: أحرقتهم النار ذات الوقود، ولا يجوز القراءة بها؛ إنما القراءة بالمشهور المستفيض.

۞ اللغة

البروج: الأبنية العالية، وأصله: الظهور؛ لأنه يظهر على سائر الأبنية، ومنه قيل للقصور[2]: بروج، ومنه: بروج السماء، ومنه: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

والأخدود: الشق العظيم طولاً في الأرض شبه النهر، وجمعه: أخاديد، وهو أُفْعُولٌ من الخد، يقال: أَخْدَدْتُ الأرض خدًّا؛ أي: شققت، ومنه الحديث في تَخُدُّ خَداً الشجرة التي دعاها رسول الله ﷺ: «جعلت تَخُدُّ خدًّا حتى أتته»[3]، ومنه: الخد لمجاري الدموع، والمخدة؛ لأن الخد يوضع عليها.

والوَقُودُ بالفتح: الحطب، وبالضم: الإيقاد، أَوْقَدَ إيقادًا.

والشهود: الحضور على مشاهدة أمر من الأمور، وكل حاضر شاهد، والمشاهد المدرك بحاسة.

۞ الإعراب

السماء: جر؛ لأنها قسم، قيل: القسم بالسماء، وبرب السماء، عن أبي علي.

وجواب القسم قيل: محذوف، وتقديره: الأمر حق في الجزاء على الأعمال، ثم ابتدأ فقال: «**قُتِلَ أصحاب الأُخدود**». وقيل: جوابه: «**قتل**» وفيه إضمار أي: لقد قتل. وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: قتل أصحاب الأخدود، والسماء ذات البروج. وقيل: جوابه: «**إنَّ بطش ربك لشديد**»، عن قتادة. وقيل: قوله: «**إنَّ الذين فتنوا المؤمنين**» إلى آخره، وهذان الوجهان ليس بالوجه لطول الكلام بينهما.

---

(١) القرطبي ١٩/ ٢٥١.

(٢) للقصور: المقصور، غ.

(٣) ابن حبان رقم ٦٥٠٥.

۞ المعنى

«والسماء ذات البروج» قيل: هي منازل الكواكب والشمس والقمر، وهي اثنا عشر برجًا، وقيل: البروج: النجوم التي هي المنازل. وقال أبو علي: هي السماء الدنيا؛ لأن البروج فيها. «واليوم الموعود» قيل: يوم القيامة الذي وعد الله به الجزاء، وأخر الجزاء إليه في خبر مرفوع، عن قتادة، والحسن[1]، وابن زيد، وأبي علي، وأبي مسلم.

«وشاهد ومشهود» قيل: الشاهد: النبي ﷺ، والمشهود: يوم القيامة، عن الحسن بن علي عليهما السلام، وتلا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، ومثله عن ابن عباس وسعيد بن المسيب أن الشاهد: النبي ﷺ والمشهود: يوم القيامة. وقيل: الشاهد: هو الله تعالى، والمشهود: يوم القيامة، عن ابن عباس بخلاف. وقيل: الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة في خبر مرفوع. وعن ابن مسعود وابن عباس وقتادة وعن بعضهم: دخلت مسجد رسول الله ﷺ، وإذا رجل يحدث عن رسول الله ﷺ، فسألته عن الشاهد والمشهود فقال: «نعم، الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة»، وحدثه كذلك آخرُ، ثم تحدث ثالث[2] عن رسول الله ﷺ، فسألته عن[3] ذلك، فقال: «الشاهد: محمد، والمشهود: يوم القيامة، وتلا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]»، فسألت عن الأول، فقالوا: ابن عباس، وسألت عن الثاني، فقالوا: ابن عمر، وسألت عن الثالث، فقالوا: الحسن بن علي. وقيل: الشاهد: يوم النحر، والمشهود: يوم عرفة، عن إبراهيم. وقيل: الشاهد: يوم عرفة، والمشهود: يوم الجمعة، في حديث مرفوع، قال: «يوم الجمعة يوم مشهود تشهده الملائكة»، وقيل: الشاهد: آدم، والمشهود: يوم القيامة، عن مجاهد. وقيل: الشاهد: بنو آدم، والمشهود: القيامة، عن الأصم،

(١) عن قتادة والحسن: : وعن الحسن وقتادة، غ.

(٢) انظر فتح القدير ٥/ ٥٨٧.

(٣) عن: من، غ.

وعطاء، وعكرمة. وقيل: الشاهد: الملائكة، والمشهود: القيامة، عن عكرمة. وقيل: الشاهد: يوم القيامة، والمشهود: الخلق، عن جابر بن عبد الله. وقيل: الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم القيامة يشهده الأولون والآخرون، عن الحسن. وقيل: الشاهد: عيسى، والمشهود: أمته، عن أبي مالك. وقيل: الشاهد: محمد، والمشهود: أمته. وقيل: الشاهد: هذه الأمة، والمشهود: سائر الأمم. وقيل: الشاهد: الله، والمشهود: الخلق، عن سعيد بن المسيب. وقيل: الشاهد: الملائكة وأعضاء بني آدم، والمشهود: بنو آدم، وقيل: الشاهد: الحفظة، والمشهود: بنو آدم. وقيل: الشاهد: هم الشهداء الذين يشهدون على العباد بأعمالهم، والمشهود: الذين يشهدون عليهم، عن أبي علي. وقيل: رب المدرك[1] والمدركات، يعني بالشاهد: المدرك، والمشهود: المدركات، وقيل: الشاهد: الأنبياء، والمشهود: محمد؛ لقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٨١]. وقيل: الشاهد: من حضر يوم القيامة، والمشهود: ما أحضر من أعمالهم وحسابهم وكتابهم، عن أبي مسلم.

«**قتل أصحاب الأخدود**» قيل: «**قتل**» لعن أصحاب الشق، وهم الكفار الذين يشقون الأرض لتعذيب المؤمنين، [وقيل]: بل هو كناية عن المؤمنين الذين ألقوا في الأخدود؛ أي: قتلوا ظلمًا، فأخبر الله تعالى أنهم قتلوا بالإحراق، وقيل: هو كناية عن الكفار، فالمعنى عذبوا بتحريقهم بالنار في الدنيا قبل الآخرة؛ لأنه تعالى أحرقهم بعد قتلهم. وقيل: قتلوا بالإحراق. وقيل: معناه قاتلهم الله، وعذبهم وأهلكهم، عن أبي علي. «**أصحاب الأخدود**» قيل: قوم من الكفار حفروا حفيرًا، وأوقدوا فيها نارًا، وعرضوا عليها المؤمنين، وقالوا: لتتركن دينكم، أو لنحرقنكم، فأبوا، فألقوهم فيها، وأحرقوهم، وقيل: لما ألقوا في النار نجى الله المؤمنين بأن أخذ أرواحهم، فلم تمسهم النار، وخرجت من الحفرة نارٌ أحرقت الكفار الذين كانوا قعودًا حول النار عن آخرهم، عن الربيع بن أنس. وقيل: كانوا من المجوس، عن علي عليه السلام. وقيل: كانوا من بني إسرائيل، عن الضحاك. وقيل: كانوا من اليمن، والمؤمنون كانوا على

(١) المدرك: المدركات.

دين عيسى عليه السلام، عن أبي علي. وقيل: كانوا من اليهود. وقيل: كانوا من عبدة الأوثان، عن الربيع بن أنس. وقيل: كان بُخْتُ نَصَّرَ، عن الضحاك.

«**النار ذات الوقود**» قيل: نار لها وقود، فإن النار قد تكون غير ذات الوقود كنار الحجر والخشب، والنار الكبد والأخرى الكامنة، وقيل: أراد وقودًا مخصوصًا؛ لأنه مُعَرَّفٌ بالألف واللام، فكأنه الوقود بإنذار الناس. وقيل: أراد التأكيد؛ أي نارًا ذات اشتعال وتوقد، عن أبي علي.

«**إذ هُم**» يعني: الكفار «**عليها**» على النار، أي: على أطرافها «**قعود**» عند الحفر يحرقون المؤمنين. وقيل: كانوا فرقتين: فرقة تُعَذِّبُ، وفرقة مشاهدة للحال لم يتولوا تعذيبهم؛ لكن كانوا قاعدين راضين بفعل أولئك. وقيل: كانت الفرقة القاعدة مؤمنة، لكن لم ينكروا صنيع الكفار، فقتلهم الله، عن أبي مسلم. وقيل: أحرقهم جميعًا، فعذبوا جميعًا للاشتراك في الذنب.

«**وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهودٌ**» أي: حضور، وهم الفرقة التي كانت قاعدة. وقيل: بل الكل. وقيل: يشهدون أن المؤمنين ضلال حتى يتركوا عبادة الصنم، ولم يرجعوا عن الحق، عن مقاتل. وقيل: كانت شاهدة لعذاب المؤمنين، عن أبي علي.

الأحكام

يدل قوله: «**والسماء [ذات البروج]**» الآيات، على عظم حال القيامة، وتأكيدها.

وتدل قصة أصحاب الأخدود على أن الصبر على الأذى في الدين، وإن أتى على النفس وتَرْكَ التقية ممدوح؛ فلذلك أثنى الله عليهم حين صبروا حتى أحرقوا.

وتدل على أن من شاهد منكرًا ولم ينكره هو مأثوم؛ بل ربما كان شريكًا في الذنب، فيدل من هذا الوجه على وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

قصة أصحاب الأخدود مختصرة

ذكر القاضي عن علي عليه السلام أن نبيًّا من الحبشة بعث إلى قومه فدعاهم، فتابعه

قوم وخالفه قوم، فخد بعض الملوك أخدودًا، وأجج فيها النيران العظيمة، وامتحنوا الناس، فأحرقوا من آمن بالنبي.

وروي أن غلامًا بعثه والده لتعلم السحر، فمر براهب فدعاه إلى دينه، فتبعه ولزمه حتى صار بحيث تستجاب دعوته، وأن جليسًا لملك زمانه كان أعمى، فجاء إلى هذا الصبي فقال: إن آمنت بالله دعوت الله بأن يشفيك، فآمن، فدعا، فشفاه الله، وبلغ الملك ذلك، فأمر بالجليس والغلام والراهب، فحضروا، فأمرهم بالرجوع عن دينهم، فأبوا، فقتل الراهب والجليس، وأمر بالغلام[1] بأن يلقى من ذروة جبل، فذهب به قوم فَأُهْلِكُوا، فأمر بأن يغرق، فذهب به قوم فَأُهْلِكُوا، ورجع إلى الملك، وقال: إنك لست بقاتلي حتى تجمع الناس، وتصلبني على جذع، وتقول: بسم الله رب الغلام، وترميني بسهم. ففعل، فمات، فاجتمع[2] الناس فقالوا: آمنا برب الغلام، وفشا ذلك بين الناس، فقيل للملك: قد آمن الناس، ونزل ما كنت تكره، فخد الأخدود، وأضرم فيها النار وقال: من رجع عن دينه، وإلا أحرقته، فلم يرجع أحد، فأحرق من آمن، وجاءت امرأة معها صبي، فكأنها تلكأت، فناداها الغلام: يا أماه اصبري [فإنك] على الحق، فاقتحمت النار، في خبر مرفوع. وقيل: إن الغلام ضُرِب على رأسه ضربة مات منها.

قال سعيد بن المسيب: كنا عند عمر إذ ورد علينا بأنّ وجدنا ذلك الغلام واضعًا يده على صدغه، فكلما مدت يده عادت إلى الصدغ، فكتب عمر: واروه حيث وجدتموه[3].

وقيل: كانوا من المجوس، وكان لهم ملك وقع على أخته، فأنكروا عليه، فدعا الناس إلى جواز نكاح الأخوات، فأبوا، فضربهم فأبوا، فخد الأخدود، وأَضْرَمَ الناسُ فيها النار، وعرض ذلك على أهل مملكته، فمن قبل خَلّى سبيله، ومن أَبى أَحْرَقَهُ، عن علي.

(١) فقتل الراهب والجليس وأمر بالغلام: فقتل الراهب وأمر بالجليس.
(٢) فاجتمع: فأجمع، غ.
(٣) الترمذي رقم ٣٣٤٠.

وقيل: كانوا من بني إسرائيل خدوا أخدودًا، وأخذوا رجالاً ونساء، وقالوا: لتكفرن أو نعذبكم بالنار، عن ابن عباس، والضحاك.

وقيل: هم أصحاب ذي (نواس)[1].

وقيل: كانوا باليمن، وكانوا مؤمنين وكفارا، وكانوا يتقاتلون، والظفر للمؤمنين، ثم إنهم عاهدوا ألا يغدر بعضهم ببعض، فغدرت الكفار، وأخذوا المؤمنين وخَدُّوا أخدودًا وأحرقوهم، وقيل: المؤمنون قالوا لهم: أوقدوا نارًا، وأعرضوا عليه، فمن تبعكم في دينكم، فذاك الذي تريدون، ومن أبى اقتحم النار. وقيل: آمنت امرأة معها صبيٌّ، فتلكأت، فقال الطفل: امضي، ولا تنافقي، فاقتحمت النار، عن قتادة.

وقيل: كانوا قومًا من النبط، عن عكرمة.

وقيل: هم نصارى نجران أخذ ملكًا منهم قومًا من المؤمنين، فخد لهم سبعة أخاديد، طرح فيها الحطب والنفط، فمن أبى إلا الإسلام طرحه فيها، وبدأ برجل منهم يقال له: عمرو بن يزيد، ثم أتبع بالمؤمنين وأحرقهم، عن الكلبي.

وقيل: كان بنجران رجلان مسلمان ممن يقرآن[2] الإنجيل، وهذا بعد رفع عيسى، فسمع بهم جماعة فآمنوا، وفشا أمرهم، فسمع الملك، فخدّ لهم الأخدود وعرض عليهم، فمن أبى إلا دين عيسى أحرقه، ومن رجع تركه، فأحرق سبعًا وسبعين نفسًا، عن مقاتل.

وذكر محمد بن إسحاق عن وهب أن رجلاً كان بقي على دين عيسى وقع إلى نجران، فدعاهم فأجابوه، فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير، وخيرهم بين النار واليهودية، فأبوا، فخدوا الأخاديد، وأحرق اثنى عشر ألفًا.

وقيل: كان أصحاب الأخدود سبعين ألفًا.

وقال ابن عباس: كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له: ذو نواس، في الفترة، وكان في بلاده غلام يقال له: عبد الله، وسلّمه أبوه إلى [الساحر]، فمر براهب، فأخذ منه وتبعه، وكان في تلك البلاد حية عظيمة، فمرّ الغلام بها، فرماها

(١) ذي نواس: ذي ينال، غ.

(٢) يقرآن: يقرآ، غ.

فقتلها، وفشا أمر الغلام، وجاء ابن عم الملك مكفوفًا ليدعو له، وقال: إن دعوت ورد الله بصرك آمنت؟ قال: نعم. فدعا ورد الله بصره وآمن، ثم دخل على الملك فقال: من فعل هذا؟ فقال: الله رب السموات والأرض، فقال: من علمك هذا؟ فدل على الغلام، فجيء به، فإذا غلام عاقل، فسأله عن دينه، فأخبره بالإسلام ومن آمن معه، فَهَمَّ الملك بقتلهم مخافة أن يبدلوا دينه، وبعث بهم إلى جبل مع جماعة ليقتلوهم ويهلكوهم، فدعا الغلام فأهلكهم الله، ثم بعث بهم إلى البحر ليغرقوهم، فأهلك الله قومه، فقال: اقتلوه بالسيف، وفشا أمره باليمن، وعلم الناس أنه على الحق، فقال الغلام للملك: إنك غير قاتلي، إلا أن تفعل ما أقول، تجمع أهل مملكتك، ثم ترميني بسهم وتقول: بسم الله رب الغلام، ففعل، فمات، فآمن أكثر الناس، وقالوا: لا دين إلا دينه، ولا إله إلا إلهه، فغضب الملك، وخد الأخاديد، وأحرق الناس، وفيمن آمن امرأة لها ثلاثة بنين جيء بها مع بنيها، فألقي واحد واحد في النار، ويقول لها: ارجعي عن دينك، فأبت حتى أخذ منها الرضيع، فكادت أن تفتتن، فقال: يا أماه، لا ترجعي فإنك على الحق، فألقي الصبي، وأمه في النار.

وقيل: كانوا عبدة الأوثان أخذوا جماعة من المؤمنين، وخدوا الأخدود، وعرض عليهم [الكفر] فأبوا إلا الدين فأحرقوا، عن الربيع بن أنس.

قوله تعالى:

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

اللغة

النقمة من العذاب، ونَقَمْتُ الأمر ونَقِمْتُهُ بفتح القاف وكسرها: أنكرته، والنقمة نقيض النعمة، فالنقمة: إيجاب المضرة، والنعمة: إيجاب المنفعة، قال الشاعر:

مَـا نَـقِـمُـوا مِـنْ بَـنِـي أُمَـيَّـةَ إِلاَّ   أَنَّـهُـمْ يَـحْـلُـمُـونَ إِنْ غَـضِـبُـوا[١]

والعزيز: الممتنع الذي لا يمتنع عليه شيء، وهو يرجع إلى كونه قادرًا.

والحميد: المستحق للحمد.

والحريق: «فَعِيلٌ» من الحرق.

والفتنة: الامتحان، ثم يستعمل في العذاب.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أنه لم يكن منهم ما[٢] يوجب الإحراق إلا أنهم فعلوه ظلمًا، فقال سبحانه: «**وما نقموا منهم**» قيل: ما أنكروا منهم شيئًا، ولا كان فيهم شيء يوجب التعذيب. قيل: ما علموا فيهم عيبًا، ولا وجدوا لهم جرمًا. قال أبو علي: ما فعلوا بهم ذلك العذاب إلا لإيمانهم «**إلا أن يؤمنوا بالله**» يعني فعلوا ذلك لأجل إيمانهم، وتركهم الأصنام، وهكذا يفعل الجهلة، يعدون المناقب عيبًا، والعيب منقبة. «**العزيز**» القادر الذي لا يمتنع عليه شيء. «**الحميد**» المستحق للحمد بآلائه، المحمود بأفعاله. «**الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيءٍ شهيد**» أي: شاهدًا يشاهد ظلمهم ويجازيهم، وينتصف للمؤمنين منهم، وفيه وعيد لهم، وتسلية للمؤمنين.

«**إنّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات**» قيل: أحرقوهم بالنار، وعذبوهم، عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك. ونظيره: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾ [الذاريات: ١٣]، وقيل: فتنوا بحملهم على الكفر، وتعذيبهم ليتركوا الإيمان «ثم لم يتوبوا» من ذلك، فإنهم لو تابوا لقبلت توبتهم. «**فلهم عذاب جهنم**» في الآخرة «**ولهم عذاب الحريق**» قيل: في الدنيا؛ لأنه تعالى أحرقهم بتلك النار، عن الربيع. وقيل: هما واحد، وأراد به في الآخرة، وذكر الحريق تأكيدًا، عن أبي علي، وأبي مسلم، وأكثر المفسرين. وقيل: «**فلهم عذاب جهنم**» بكفرهم، وعذاب بإحراق المؤمنين، عن الزجاج.

---

(١) البيت قائله عبد الله بن قيس الرقيات، اللسان (نقم).

(٢) منهم ما: مما، غ.

«**إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات**» يعني آمنوا ثم عملوا بمقتضاه، فأتوا بكل الواجب، واجتنبوا كل كبيرة. «**لهم جنات تجري من تحتها الأنهار**» أي: بساتين فيها أنهار من ماء تجري «**ذلك الفوز الكبير**» أي: النجاة العظيمة الخالصة.

❁ الأحكام

الآيات تتضمن أحكامًا:

منها: قبح المنع عن الحق، والإكراه على الباطل، وعظم موقعه من العصيان.

ومنها: أن التوبة تزيل كل عقوبة، فتزيل عقاب القتل؛ لأن الافتتان المذكور في الآية كان بالقتل.

ومنها: أن الجنة تنال بالإيمان، والعمل الصالح.

ومنها: أن أفعال العباد حادثة من جهتهم؛ لذلك قال: «**فتنوا**»، «**لم يتوبوا**» و«**آمنوا وعملوا الصالحات**».

قوله تعالى:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾

❁ القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «**المَجِيدِ**» بالكسر نعتًا للعرش[1]، والباقون بالرفع صفة لله تعالى عطفًا على «**الغفور الودود**».

قرأ نافع: «**محفوظٌ**» بالرفع[2] على أنه صفة للقرآن، الباقون بالكسر صفة للوح.

---

(١) حجة القراءات ٧٥٧.

(٢) حجة القراءات ٧٥٧.

قراءة العامة: ﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ كلاهما بالرفع والتنوين، و﴿مَّجِيدٌ﴾ صفة للقرآن.

وقرأ ابن السميقع: «قرآنُ» بالرفع من غير تنوين، «مجيدٍ» بالكسر على الإضافة؛ أي قرآن مجيد[1].

قراءة العامة: ﴿فِى لَوْحٍ﴾ بفتح اللام، وقرأ يحيى بن يعمر: «في لُوح» بضم اللام[2] أي: أنه يلوح، وهو ذو نور وشرف وعلم.

اللغة

البطش: الأخذ بشدة وعنف، بَطَشَ يَبْطِشُ بطشًا ويبطُش بضم الطاء أيضًا، وهو باطش.

والإبداء: أصله من الظهور، يقال: أبدى يُبدي إبداءً: إذا أظهر، وأبداه الله، أي: خلقه ابتداء حتى ظهر بعد أن لم يكن كذلك.

والإعادة: الإنشاء الثاني، وذلك لا يصح إلا بثلاثة شروط:

أحدها: أن يكون مقدورًا لقادر للذات.

والثاني: أن يكون ذلك الشيء مما يبقى.

والثالث: ألاَّ يكون متولدًا أصلاً، هذا قول أبي هاشم، والقاضي. وعند أبي علي: ألاَّ يكون جنسه من مقدور العباد، ثم تستوي فيه الجواهر والأعراض، ولا تصح الإعادة على شيء من أفعال العباد.

وأصل العرش البناء، ومنه: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]، ومنه: العرش السرير المرتفع، ومنه: المُلْكُ، ثُلَّ عَرْشُهُمْ، أي: مُلْكُهُمْ.

والمجيد: فعيل من المجد، والمجد: بلوغ النهاية في الكرم، والمجيد: الكريم العظيم الكرم بما يعطي من الخير، والمجيد والماجد بِمَعْنَى إلا أن في المجيد مبالغة،

(١) زاد المسير ٩/ ٧٩.

(٢) القرطبي ١٩/ ٢٦٠.

فأصل الباب: بلوغ النهاية في الكثرة، يقال: مَجَدَتِ الإبل مجودًا: إذا نالت من الكلأ قريبا من الشبع، ومنه قول العرب: في كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ، وَاستمجد المَرْخ وَالعَفَار. أي: تناهيا في ذلك.

والمحفوظ: المصون.

الإعراب

﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ في محل الرفع بخبر (إن).

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ في محل الكسر بدلاً من (**الجنود**)، ويحتمل النصب على تقدير: أعني فرعون وثمود.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أنه وإن أمهلهم فإنه يأخذهم، وأخذه شديد، فقال سبحانه: «**إنّ بطش ربك**» أي: أخذه بالعقاب «**لشديد**» وإذا وصف البطش بالشدة، فقد تضاعف الشدة، «**إنّه هو يبدىءُ ويُعيد**» قيل: يبدئ بالعذاب في الدنيا، ويعيد في الآخرة، عن ابن عباس. وذلك لاقتضاء ما قبله له. وقيل: يبدئ الخلق، فيخلقهم عن العدم ابتداء، ثم يعيدهم في الآخرة أحياء، عن الحسن، والضحاك، وابن زيد. وقيل: يبدأ بالنعمة في الدنيا ثم يعيدها في الآخرة. وقيل: يبديهم لنفعهم ويمهلهم مع قدرته على أخذهم ليتوبوا، فإذا أصروا يميتهم، ثم يعيدهم للجزاء. «**وهو الغفور**» أي: عادته مغفرة الذنوب لمن أناب إليه، فهو كثير الغفران، ويغفر الذنوب العظيمة مرة بعد مرة. وقيل: يمهل، ولا يعجل بالعقوبة ليتوبوا، فإذا تابوا غفر لهم، وهذا غاية الكرام. «**الودود**» قيل: يوده كل أحد لإحسانه إليهم بأنواع النعم. وقيل: المتودد إلى أوليائه بالمغفرة، عن ابن عباس. وقيل: «الوَدُود»: يود أولياءه، ويحبهم، عن مجاهد، وأبي علي. وقيل: الرحيم، عن أبي مسلم، وابن زيد. وقيل: معناه: المودود، كالحلوب والركوب. وقيل: هو الغفور يغفر، ويود الغفران. «**ذو العرش**» أي: ربه وخالقه «**المجيد**» قيل: الكريم الكثير الإحسان، عن ابن عباس، وقتادة. وإذا جعل

صفة للعرش فمعناه الرفيع؛ لأنه فوق السماء، وتطوف به الملائكة. وقيل: العرش: الملك؛ أي ذو الملك العظيم. وقيل: ذو البناء العظيم مثل السموات والأرضين وما فيها. «**فعال لما يريد**» أي: ما يريد أن يفعله يفعله، لا يمنعه مانع، والمانع إما أن يكون عدم قدرة فهو قادر لذاته، أو مانع حكمة فهو لا يريد إلا ما تدعو إليه الحكمة.

«**هل أتاك حديث الجنود**» يعني حديث الجموع الكافرة، وما فعل بهم، فإن فيه معتبرًا «**فرعون وثمود**» كيف كذبوا، وكيف نزل بهم العذاب، وقيل: هل أتاك حديثهم، وما كان منهم ومن الأنبياء، وكيف صبروا وكيف نصروا، فاصبر كما صبر أولئك ليأتيك النصر من عند الله تعالى.

«**بل الذين كفروا في تكذيب**» أي: في ذلك معتبرٌ، ولكن الذين كفروا أعرضوا عما يوجبه الاعتبار لهم، وأخذوا في الكفر والتكذيب اتباعًا لأهوائهم، ألم يعلموا أن الله ﴿مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ أي: عالم بأفعالهم لا يخفى عليه شيء، قادر على أخذهم لا يفوته شيء.

«**بل هو قرءانٌ مجيدٌ**» أي: كذبوا بالقرآن مع عظم محله تنبيهًا على عظيم كفرهم. وقيل: (بل) بمعنى: ليس كما يقولون من التكذيب، بل هو قرآن، عن أبي مسلم. هو قرآن «**مجيدٌ**» كريم شريف كثير الخير والحكمة «**في لوحٍ محفوظٍ**» قيل: من التغيير والتبديل والزيادة والنقصان. وقيل: اللوح المحفوظ أم الكتاب، عن مجاهد. وقيل: هو ما ضمن الله حفظه، كأنه في لوح محفوظ. وقيل: هو في لوح في السماء، مكتوب فيه القرآن وسائر ما يكون إلى يوم القيامة، وفي أوله: لا إله إلا الله وحده، ودينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن به أدخله الجنة. واللوح من درة بيضاء، عن ابن عباس. وقيل: هو عن يمين العرش، عن مقاتل. وقيل: منه نسخ القرآن، وأنزل إلى السماء الدنيا، ثم أنزل على النبي ﷺ. وقيل: محفوظ أن يطلع عليه غير الملائكة.

۞ الأحكام

يدل قوله: «**الودود**» على أنه يحب أهل طاعته، فيدل أنه يحب الطاعة.

ويدل على أنه تحبب إلى عباده بإنعامه عليهم، وأنه لا يفعل القبيح، وهذا إنما يصح على مذهب أهل العدل أن كل نعمة منه، وأنه يحسن إلى عباده يريد بهم الخير في الدارين، وليس في فعله ظلم ولا قبيح، ويجازيهم على القليل بالكثير، فأما على مذهب أهل الجبر، إذا كان يخلق الكفر والمعاصي، ويخلق الخلق للنار، ويأخذ بغير ذنب، ولا قبيح إلا من فعله وخلقه، فلا يأمن أحد أن يدخله النار وإن كثرت طاعته، وكيف يكون ودودًا، ومن كان بهذه الصفة ممقت؟!، ولا تعلق للمشبهة بقوله: **«ذو العرش»** لأنه ليس فيه أنه على العرش، ولا تعلق للمجبرة بقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾؛ لأنه لا يريد إلا الخير والصلاح، ولأنه تمدح به، والتمدح بخلق الكفر لا يصح.

ويدل قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ إلى آخره أن القرآن في اللوح، فيدل على حدوثه.

ويدل على أنه غير قائم بذات القديم سبحانه وتعالى لاستحالة أن يكون في اللوح، وقائمًا بذاته.

ويدل على عظم محل القرآن، وأنه يمكن معرفته، وأنه حجة.

سورة الطارق

سورة (الطارق) مكية، سبع عشرة آية.

وعن أُبَيّ عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (الطارق) أعطاه [الله] بعدد كل نجم في السماء عشر حسنات».

وعن عبد الرحمن بن خالد: لما نزلت سورة ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ قرأها رسول الله ﷺ فحفظتها في الجاهلية، فمررت مجلسًا فيه جماعة من ثقيف وجماعة من قريش، فقرأتها عليهم، فأما الثقفيون فقالوا: ما هذا إلا حق، وأما القرشيون، وفيهم عتبة وشيبة، [فقالوا]: نحن أعلم بصاحبنا لو علمنا أنه حق لتبعناه(1).

ولما ختم سورة(2) (البروج) بالوعيد للمكذبين، افتتح هذه السورة بمثل ذلك، وأن عليهم حافظين يحفظون ما يعملون تأكيدًا في الوعيد.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠﴾

---

(1) صحيح ابن خزيمة رقم ١٧٧٨، ومسند أحمد رقم ١٨٩٧٨.

(2) سورة: سور، غ.

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر، وابن عامر، وعاصم، وحمزة: «لَمَّا» بتشديد الميم، يعني: ما كل نفسٍ إلا عليها حافظ، يقال: نشدتك الله لَمَّا قمت؛ أي: إلا قمت. الباقون: بتخفيف اللام[(١)]، جعلوا (لما) صلة تقديره: كل نفس عليها حافظ.

۞ اللغة

الطارق: الآتي ليلاً، يقال: طرقني فلان؛ أي أتاني ليلاً، وأصل الطرق: الدق، ومنه: المطرقة؛ لأنه يدق بها، والطريق؛ لأن المارة تدقه بأرجلها، والطارق يأتي في وقت يحتاج إلى الدق للتنبيه، وفي الدعاء: نعوذ بالله من طوارق الليل، إلا طارق يطرق بخير[(٢)]، وقال الشاعر:

أَلاَ طَرَقَتْنَا بَعْدَمَا هَجَعُوا هِنْدُ[(٣)]

والنجم: الكوكب، سمي لطلوعه، يقال: نَجَمَ النبت والسن والقرن، وكل طالع ناجم.

والثاقب: النيّر، يقال: أَثْقِبْ نارك: أشعلها حتى تضيء، والثاقب أيضًا: العالي الشديد العلو، يقال للطائر إذا ارتفع: شديد الثقب كأنه ثقب الجو.

والدَّفْقُ: الصب الكثير، والدافق: القاطر المنصب، والنطفة تخرج دفقًا، وقيل: دافق بمعنى مدفوق، يقال: سِرٌّ كاتِمٌ، وعيشة راضية.

والترائب: نواحي الصدر، واحدها: تَرِيبَةٌ.

والسريرة: الطوية في النفس، وهي إخفاء المعنى في النفس إسرارًا.

---

(١) حجة القراءات ٧٥٧.

(٢) المعجم الكبير رقم ٣٤٥٤.

(٣) البيت قائله الحطيئة، وتمامه:

ألا طرقتنا بعدما هجعوا هند ... وقد سرن غور واستبان لنا نجد

أساس البلاغة (تلب)؛ ديوان الحطيئة: برواية ابن السكيت، ص ٦٤.

۞ الإعراب

«**لمّا عليها**»: تقديره: لَعَلَيْهَا، واللام لام الابتداء التي تدخل في خبر (إنّ)، و(إنْ) مخففة من الثقيلة.

«**فلينظر**» اللام لام الأمر؛ فلذلك جزم الراء.

«**والسماء**» قسم، وجوابه: «**إنه على رجعه لقادر**».

۞ النزول

قيل: أتى أبو طالب إلى النبي ﷺ وأتحفه بشيء، فبينا هو يأكل إذ انحط نجم عظيم، ففزع أبو طالب، فقال: ما هذا؟ قال: (نجم رمي به، وهي من آيات الله) فعجب أبو طالب، فأنزل الله تعالى: «**والسماء والطارق**» السورة.

۞ المعنى

«**والسماء**» قيل: أقسم برب السماء، عن أبي علي. وقيل: بل بالسماء، تنبيهًا على عظيم حاله في القدرة والنعمة. «**والطارق**» الآتي ليلاً «**وما أدراك ما الطارق**» تفخيمًا لشأنه.

ولما كانت الطوارق تختلف فَسَّرَ ذلك فقال سبحانه: «**النجم الثاقب**» أي: هو النجم الثاقب، قيل: المضيء، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: النافذ من المشرق إلى المغرب من ثقب الشيء، عن أبي علي. وقيل: العالي على النجوم، وهو زحل، عن ابن زيد. وطروق النجوم ظهورها بالليل وخفاؤها بالنهار، عن قتادة. وقيل: الثاقب الذي يرمى بها الشيطان. وقيل: جماعة النجوم، عن الحسن.

«**إن كلُ نفسٍ لما عليها حافظ**» هذا جواب القسم، أي: كل نفس عليها حافظ من الملائكة يحفظون عمله ورزقه وأجله، عن قتادة. وقيل: هم الحفظة. وقيل: حافظ له يحفظونه، ويدفعون عنه حتى تأتي المقادير، فيسلمونه. وقيل: تقديره: لَعَلَيْهَا حافظ.

«**فلينظر الإنسان مم خلق**» أي: الذين ينكرون البعث لينظروا في أنفسهم كيف

خلقهم ومماذا خلقهم، وكيف أنشأهم وأحياهم؟!؛ ليعلم أنه تعالى قادر على ما يشاء.

ثم فسر، وقال: «**خلق من ماءٍ دافِقٍ**» أي: مدفوق مصبوب في الرحم. «**يخرج من بين الصلب والترائب**» قيل: يخرج ماء الرجل من الصلب وماء المرأة من الترائب، والله تعالى يخلق الولد منهما، عن الحسن، وأبي علي. وقيل: بل المراد ماء الفحل يخرج منه، ويصب في الرحم، عن أبي مسلم. وقيل: الترائب موضع القلادة، عن ابن عباس. وقيل: بين ثديي المرأة، عنه وعن عكرمة. وقيل: عنى به اليدين والرجلين والعينين، عن الضحاك. وقيل: النحر، عن قتادة. وقيل: نواحي الصدر، عن أبي مسلم. وقيل: إذا غلب ماء الرجل نزع الولد بالشبه إلى أهل بيت أبيه، وإذا غلب ماء المرأة نزع الشبه إلى أهل بيت أمه.

«**إنَّه على رجعِهِ لقادرٌ**» يعني: الذي خلقه ابتداء من هذا الماء يقدر على رجعه، وقيل: أي يرجع حيًّا بعد الموت، عن الحسن، وقتادة، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: رد الماء في الصلب، عن عكرمة، ومجاهد. وقيل: على رد الإنسان ماء، عن الضحاك. وقيل: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، ومن الصبا إلى النطفة، عن مقاتل. وقيل: إنه على جنس ذلك الماء لقادر حتى لا يخرج، عن ابن زيد. والأحسن قول الحسن وأبي علي؛ ولذلك عقَّبه بقوله: «**يوم تبلى السرائر**» يعني: يوم القيامة؛ أي: تبلى بكشف الأسرار، فيظهر ما كان يخفيه، فيجل المؤمن بإظهار طاعته، ويفضح الكافر بإظهار معصيته، عن أبي علي. وقيل: يظهر الخفاء، وقيل: الابتلاء يكون الاختبار، ويكون الإظهار، عن أبي مسلم. وقيل: هي فرائض الأعمال إن سأل العبد صليت؟ وما صلى، وصمت؟ وما صام، واغتسلت من الجنابة؟ وما اغتسل، عن قتادة، ومقاتل، وعطاء بن أبي رباح. «**فما له من قوةٍ ولا ناصرٍ**» يعني ليس لهذا الإنسان الكافر قوة تدفع العذاب عن نفسه، ولا ناصر ينصره، فيدفع عنه العذاب.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿حَافِظٌ﴾ أن كل إنسان عليه حافظ يحفظ عمله.

ومتى قيل: ما الفائدة فيه؟

قلنا: فيه لطف للمكلف إذا تصور ذلك امتنع عن القبيح، وقد يحفظونه عن الآفات، ويحثونه على الخيرات.

ويدل قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ على وجوب النظر في نفسه وتراكيبه وصورته، وتنقله من حال إلى حال؛ ليعلم أن له صانعًا ومدبرًا.

ومتى قيل: ما أول ما يجب عليه؟

قلنا: النظر في طريق معرفته تعالى؛ لأنه لا شيء من العلم والعمل إلا وصحته موقوفة على معرفة الله تعالى.

ويدل قوله: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ أن أجزاء النطفة في الولد، وإن انضم إليها أجزاء أخر حتى يصير الولد ولدًا حيًّا، واختلفوا، قيل: يخلق من الماءين، وقيل: من ماء الرجل، فإذا علم الإنسان ما خلق منه وما صار بعد الموت إليه لم يلتمس مورد[1] الكبر.

ويدل قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ على الإعادة، وما يظهر من الأسرار.

ويدل قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ[2]﴾ أي: من يستحق العذاب في ذلك اليوم، ولا شفيع ولا ناصر لا يمكن دفعه بوجه.

قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾

---

(١) مورد: رد، غ.

(٢) من قوة: من فواق؛ غ.

اللغة

الرجع: أصله من الرجوع، وهو أن يرجع بالشيء حالاً بعد حال، رَجَعْتُهُ رجعًا: إذا أعطيته مرة بعد مرة.

والصدع: الشق، صَدَعَ يَصْدَعُ صدعًا، وتَصَدَّعَ تَصَدُّعًا، وانصدع انصداعًا.

والهزل: نقيض الجد، ونظيره: اللهو واللعب، هَزَلَ يَهْزِلُ هزلاً.

والكيد: فعل ما يوجب الغيظ، كاده يكيده كيدًا، وكايده مكايدة، وتكايد القوم، والكيد في صفته تعالى مجاز، والمراد به: إنزال العقوبة بهم من حيث لا يشعرون، وأطلق الكيد في مقابلة كيدهم كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ﴾ [الشورى: ٤٠].

وأمهل ومهل بمعنى.

رويدًا: تصغير إِرْوَاد، تصغير الترخيم من: أَرْوَدَ إِرْوَادًا، أمهل، وقيل: هو تصغير رُود، وقد أرود، أي: ترفق وتوضع، رويدًا موضع الأمر، فيقال: رُوَيْدًا زَيْدُ؛ أي: أَرْوِدْ زَيْدُ، والذي في القرآن صفة، يقال: سار رويدًا؛ أي: سيرًا رويدًا، وأصل الحرف من: رادت الريح ترود رودانًا: إذا تحركت حركة خفيفة.

الإعراب

﴿رُوَيۡدَۢا﴾ نصب؛ لأنه صفة للمصدر؛ أي: إمهالاً رويدًا.

المعنى

ثم أكد أمر القيامة، فقال سبحانه: «**والسماء**» قيل: أقسم بنفس السماء العظيم موقعها في القدرة والنعمة. وقيل: برب السماء «**ذات الرجع**» قيل: ذات المطر الذي ترجع به حالاً بعد حال، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك. وقيل: شمسها وقمرها ونجومها تغيب، ثم تطلع، عن ابن زيد. وقيل: هي السحاب فيه الماء، عن ابن عباس. أي: تمطر حالاً بعد حال، بحسب المصلحة. وقيل: الرجع هو المطر يأتي مرة بعد أخرى.

«**والأرضِ ذاتِ الصَّدعِ**» أي: تصدع بالنبات، عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وابن زيد. أي: تنشق، فيخرج منها النبات.

«إِنَّهُ لَقَولٌ فَصْلٌ» هذا جواب القسم، ومعناه: أن الوعد بالبعث والإحياء بعد الموت قول فصل يفصل بين الحق والباطل. وقيل: قول مقطوع به، لا خلاف، ولا ريب فيه. وقيل: «إِنَّهُ» يعني القرآن وما فيه من الوعد والوعيد والأحكام قولٌ حق، عن أبي علي. وهو الوجه.

«وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ» أي: أنه جِدٌّ، ليس بلعب. وقيل: فصل، أي: ظاهر واضح، لا لبس فيه، عن أبي مسلم.

«إنهم» يعني الكفار «يكيدُونَ كَيْداً» أي: يحتالون في الإيقاع بك وبمن معك، ويريدون إطفاء نورك «وَأَكِيدُ كَيْداً» أي: أريد أمرًا آخَرَ على ضد ما يريدون، وأُدَبِّرُ ما ينغص تدابيرهم، وهو الدفع عنك، وإتمام أمرك وإظهار دينك. وقيل: الكيد: الإرادة، ومنه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]، والمعنى: يريدون أمرًا آخر، عن أبي مسلم. والله أعلم بالصلاح، فربما تتعجل النصرة، وربما تتأخر.

«فَمَهِّلِ الكافرين» أي: أَنْظِرْهُمْ ولا تعاجلهم، وَارْضَ بتدبير الله فيهم «أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً» أي: إمهالاً قليلاً، عن قتادة. وإنما قلَّل الإمهال[1]، لأن ما هو كائن آتٍ لا محالة فهو قريب، والمراد يوم القيامة. وقيل: أراد يوم بدر، وقتل صناديد قريش، وهذا بعيد؛ لأنه تعالى عم جميع الكفار بهذا الوعيد.

الأحكام

الآيات تتضمن أحكامًا:

منها: عظم محل المطر من القدرة والنعم حتى أقسم به.

ومنها: عظم حال القرآن، وأنه الجد لا هزل فيه، فيجب فيه متابعته، والعمل به.

ومنها: وعيد الكفار، وقرب العقاب منهم.

ومنها: أن الكيد فعلهم.

(١) وإنما قلّل الإمهال: وإنما قال أمهلهم، غ. وما أثبتناه من تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ٢٩١.

سورة الأعلى

سورة (سبح) سبع عشرة آية، وقيل: إنها مكية، عن ابن عباس. وقيل: مدنية، عن الضحاك. وسميت سورة (الأعلى).

وعن النبي صلى الله عليه فيما رواه أبي: «من قرأ سورة (الأعلى) أعطاه الله من الأجر عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله تعالى على إبراهيم وموسى ومحمد».

وعن علي: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة (سبح اسم ربك)[1]، وأول من قال: سبحان ربي الأعلى ميكائيل.

وقال النبي ﷺ: «يا جبريل، أخبرني عن ثواب من قالها في صلاته أو غير صلاته؟ فقال: من قالها فإنه يكون في ميزانه أثقل من العرش والكرسي وجبال الدنيا، ويقول الله: صدق عبدي، اشهدوا ملائكتي أني غفرت له وأدخلته الجنة».

وعن عقبة بن عامر قال: لما نزل قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: ٧٤] قال رسول الله صلى الله عليه: «اجعلوها في ركوعكم»[2].

ولما نزل: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»[3]، وروي عن علي وابن عمر وابن عباس وابن الزبير نحوه.

وعن جويبر، عن الضحاك أنه كان يقول ذلك، وكان يقول: (من قرأها فليقرأها كذلك).

---

(١) مسند أحمد رقم ٧٤٢.

(٢) أبو داود رقم ٨٦٩، وابن ماجه رقم ٨٨٧.

(٣) ابن ماجه رقم ٨٨٧.

ولما ختم السورة بوعيد الكفار، افتتح هذه السورة بذكر صفاته تعالى وقدرته على ما يشاء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾

القراءة

قرأ الكسائي: «قَدَرَ» خفيفة[1]، وهي قراءة علي بن أبي طالب وأبي عبد الرحمن السلمي، وقرأ الآخرون بالتشديد، قيل: معناهما واحد، وقيل: التخفيف من القدرة، والتشديد من التقدير.

اللغة

التسبيح: التنزيه لله عما لا يليق به من صفات النقص وأفعال القبيح، ويوصف بصفات التعظيم، نحو كونه: قادرًا، عالمًا، حيًّا، قديمًا، باقيًا، سميعًا، بصيرًا، إلهًا، وتوصف أفعاله بأنها حكمة وصواب، وحسن لا قبح فيه ولا عبث، ومعناه: براءة له من السوء.

والعلو: القهر والسلطان، والأعلى: وزنه أَفْعَل، ونظيره: أَكْبَر، ومعناه: عالٍ بسلطانه وقدرته، وكل شيء دونه، وهم في سلطانه، ولا يقتضي ذلك مكانا، قال الفرزدق:

إِنَّ الَّذي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنى لَنَا ... بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ[2]

(١) حجة القراءات ٧٥٨.

(٢) اللسان (عزز).

والتسوية: الجمع بين شيئين بما هما فيه سواء، سَوَّى يُسَوِّي تسوية، ثم قد يكون في الصورة والمنزلة والرتبة وغيرها.

التقدير: تدبير الشيء على مقدار، قَدَّرَهُ تقديرًا.

والهداية: الدلالة على الرشد.

المرعى: أصله من الرعي وهو ما [ما أُخرج من الأرض] وهو الكلأ، ورعت الماشية الكلأ رعيًا، والرِّعْيُ بكسر الراء الكلأ، وأصل الباب: الحفظ، والقيام [في] ما يتولى، ومنه: ﴿وَعَهْدِهِمْ[1] رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨، المعارج: ٣٢] أي: حافظون، وراعيت الأمر[2]: نظرت فيه إلى ما يصير، ورعيت [النجوم]: رقبتها، وأرعيت سمعي: أصغيت.

والغثاء: ما تقدم به السيل على جانب الوادي من النبات والحشيش، وأصله الأخلاط من أصناف شتى، ويسمى ما يحمله السيل به؛ لأنه [به] أخلاطًا، والعرب تسمي القوم إذا اجتمعوا من قبائل: أخلاطًا وغثاء.

والأحوى: [الأسود]، والحُوَّةُ: السواد، قال ذو الرمة:

لَمْيَاءُ فِي شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ وَفِي اللِّثَاتِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنَبُ[3]

والإقراء: أخذ القراءة على القارئ بالاستماع لتقويم الزلل، والقراءة: التلاوة، وأصله الجمع، يقال: قرأت الماء في الحوض، والحوض مِقْرَاةٌ، والقارئ التالي؛ لأنه يجمع الحروف.

والنسيان: ذهاب المعنى عن النفس، ونظيره: السهو، ونقيضه: الذكر، نسي نسيانًا فهو ناسٍ، والشيء منسي، والنسيان مَعْنًى من فعل الله تعالى، عن أبي علي. وقيل: هو ذهاب العلم الضروري بما جرت به العادة أن يعلمه، وليس بمعنى، عن أبي هاشم.

والجهر: رفع الصوت، ونقيضه: الهمس، وهو ضعف الصوت، جهر جهرًا.

(١) وعهدهم: لعهدهم، غ.

(٢) الأمر: للأمر، غ.

(٣) اللسان (شنب).

واليسرى: «الفُعْلَى» من اليسر، وهو سهولة عمل الخير، والتيسير: التسهيل، وقد يكون بالتمكين وبالتهيئة له، يَسَرَ الشيء عليه: سهل، وسمي اليسار؛ لأن العمل مع اليمين يسير، وقيل: بل على جهة التفاؤل، كما قيل للمهلكة: مفازة.

۞ الإعراب

﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ يحتمل أن يكون نصبًا نعتًا للاسم، ويحتمل أن يكون جرًّا نعتًا للرب.

﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ قيل: محله رفع؛ لأنه خبر وليس بنهي، يعني فلست تنسى، وقيل: جزم؛ لأنه نهي.

۞ النزول

قيل: كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه القرآن لم يفرغ من آخر الآية حتى يقرأ أولها مخافة أن ينساه، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ فلم ينس بعد ذلك شيئًا.

۞ المعنى

«سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ» قيل: سبحان ربي الأعلى، عن ابن عباس، وقتادة. وقيل: نَزِّهْ اسم ربك أن تسمَي به سواه، وقيل: نزه ربك عما يصفه به المشركون، وقيل: صَلِّ باسم ربك، عن ابن عباس، وقيل: الاسم الصفة أي: نَزِّهْ صفاته عما لا يليق به، عن أبي مسلم. وقيل: سبح الله بذكر اسمه الأعلى، والأعلى من صفة الاسم، وقيل: من صفة الله، وقيل: ذكر الاسم وأراد به المسمى، أي: نَزِّهْهُ[1]، كقوله:

ثـم اسْـمُ الـسَّـلَامِ عَـلَـيْـكُـمَـا [2]

عن أبي علي. وقيل: حسن التسمية؛ لأن حسن الاسم يدل على حسن الصفات وحسن الأفعال. «الْأَعْلَى» قيل: القادر الذي لا قادر أقدر منه، القاهر لكل أحد، وقيل: «الأعلى» من نعت الاسم الذي أسماؤه كلها أعلى، وقيل: للأعلى، وأن

---

(١) نزهه: نزه، غ.

(٢) جزء من بيت للبيد، وتمامه:

إِلَى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا ... وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدْ اعْتَذَرْ.

اللسان (عذر).

يستحق صفاته غيره، فيجل عن صفات المحدثين من أن يشبهه أحد «**الَّذِي خَلَقَ**» الأشياء على موجب إرادته وحكمته «**فَسَوَّى**» قيل: سوى: عدل، أي: سوى خلقه وأعضاءه وحواسه، وقيل: سوى صنعها على ما أراد؛ إذ لم يكن فيه تفاوت في الحكمة ولا قبيح، عن أبي علي. «**وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**» قيل: قَدَّرَ القوت، وهدى لطلبه، وقيل: قدر الخلق على ما خلقهم من الصور والهيئات وأجرى لهم من أسباب المعاش، وهدى بذلك إلى معرفة توحيده، عن أبي علي. وقيل: قدر الآجال والأرزاق، وهدى إلى التوحيد بإظهار الآيات، وقيل: خلق على مقدار معلوم، وأكمل العقل، وهدى إلى الدين، وقيل: قدر لكل دابة ما يصلحها، وهداها إليها، عن عطاء، وأبي مسلم. وقيل: قدر كل شيء، وهدى إليه(١)، فهدى الطفل إلى ثدي أمه، والفرخ إلى أمه، والدواب والطيور، فكل أحد يفزع إلى أمه، ويطلب المعيشة من جهته، فسبحان من قدر ذلك وهدى، وقيل: هدى لسبيل الخير والشر، عن مجاهد. وقيل: هدى خَلْقَهُ كيف يأتي الذَّكَرُ الأنثى، عن مقاتل، والكلبي. وقيل: قدر المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لاستخراجها منه، فجعل بعضها غذاءً، وبعضها دواءً، وبعضهًا سمًّا، وهدى إلى جميع ما يحتاج إلى جميعها، وقدّر في الأرض والجبال المعادن والجواهر، وهدى كيف تستخرج، وكيف يُستعمل كل من على وجه آخر قَدَّرَهُ(٢) الله، وقيل: قدر [الولد] في الرحم تسعة أشهر وأقل وأكثر، وهدى للخروج منه، عن السدي. «**وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى**» الحشيش والنبات، وما هو أقوات البهائم والوحوش من بين أخضر وأصفر، وأحمر وأبيض «**فَجَعَلَهُ غُثَاءً**» أي: ضروبًا وأجناسًا من المرعى، عن أبي مسلم. وقيل: غثاء هشيمًا يابسًا مفتتًا، عن أبي علي. «**أَحْوَى**» قيل: أسود من شدة خضرته، وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: أخرج المرعى أحوى فجعله غثاءً، يعني كان رطبًا، ثم صار يابسًا قوتًا للبهائم في الحالتين، فسبحان من قدر هذا التقدير، ودبر هذا التدبير «**سَنُقْرِئُكَ**» قيل: سنعلمك القرآن، ويقرأه عليك جبريل بأمري؛ لأن الإقراء التعليم، ومنه: المقرئ «**فَلَا تَنسَى**» قيل: هو خبر، وقيل: نهي

(١) إليه: إليها؛ غ.
(٢) قدره: كلمة غير واضحة في غ.

على ما بَيَّنَّا، فإن حمل على الخبر فهو معجزة له، وإن حمل على النهي أي: لا تتعرض للنسيان «إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ» أن تنساه، رَفَعَ حُكْمَهُ وتلاوته، عن الحسن، وقتادة. وقيل: لا تترك العمل به إلا ما شاء الله أن ينسخه، وقيل: كان يقرأ جبريل عليه سورة طويلة فيحفظه، ولا ينساه. وهذا إشارة إلى معجزة عظيمة، وقيل: «لا تنسى» أي: واظب على القراءة، ولا تتعرض للنسيان بترك القراءة، فتنساه أو بعضه، عن أبي علي. «إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ» أن ينسخه وتنسى، عن الحسن، وقتادة، وأبي علي. وقيل: إلا ما تنسى مما يقتضيه إنسيتك فارجع إلى الله تعالى وتعوذ من الشيطان لِتَذَكُّرِهِ، لقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]، عن أبي مسلم. وقيل: (لا) بمعنى (ليس)، أي: لست تنسى إلا ما شاء الله أن تنساه، وهو إشارة إلى إعجازه، وقيل: التكليف مشروط بالذكر، فمعناه: إلا ما شاء الله مما لم يكلفك القيام به، وقيل: إلا ما شاء الله أن تنسى، وقد شاء ألا تنسى فلن تنسى، وقيل: إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله، وقيل: الاستثناء في هذا أنه لم يشأ النسيان، يعني لم تقع مشيئة النسيان، فنظيره: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧] في معنى قول الفراء[1] «إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى» قيل: يعلم الجهر من القول والفعل وما يخفى، فأراد سائر الأشياء، وقيل: يعلم إعلان الصدقة وإخفاءها، وقيل: يعلم ما تقرأ سرًّا وجهرًا؛ لأن ما تقدم في ذكر القرآن «وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى» قيل: نُهَوِّنُ عليك الوحي، ونسهِّله حتى تحفظه، ولا تنساه، وتعمل به، ولا تخالفه، ونوفقك للشريعة اليسرى، وهي الحنيفية، فيتصل بما تقدم من ذكر القرآن، وقيل: نسهلك بالألطاف وتأييد ما يثبتك على أمرك، ويسهل لك المستصعب من تبليغ الرسالة والصبر عليه، عن أبي مسلم. وهذا أحسن ما قيل فيه؛ لأنه يتصل بقوله: «سنقرئك» كأنه أمره بالتبليغ ووعده النصر وأمره بالصبر، وقيل: نيسر لك دخول الجنة، واليسرى الجنة، عن أبي علي. وقيل: نعينك على ما أمرناك حتى يسهل عليك الخطب، ذلك الأفضل والأولى.

(١) الفراء: القراء، غ.

۞ الأحكام

الآيات تتضمن أحكامًا:

منها: وجوب تنزيهه وتنزيه أسمائه عن كل نقص في ذاته أو فعل، فتدل أن جميع أفعاله حسنة، ولا يفعل القبيح، خلاف قول المجبرة.

ومنها: أنه هدى الخلق، خلاف قولهم.

ومنها: أنه أخرج أقوات كل دابة، وكل حي.

ومنها: أن القرآن من جهته تعالى.

ومنها: أن النبي صلى الله عليه لا ينساه، معجزة له على ما بَيَّنَّاهُ.

ومنها: أن فيه ما ينسى بأن يُنْسَخَ؛ لذلك صح الاستثناء، وإذا جاز النسخ جاز محوه عن القلوب، إذا كانت المصلحة في ذلك.

ومنها: جواز النسيان على النبي ﷺ في غير الوحي، فأما الوحي فلا يجوز إلا عند النسخ، وقد كان قراءةٌ عُلِم أنه نسخ.

ومتى قيل: هل يجوز أن ينسى هو بعد أن أداه إلى الخلق؟

قلنا: إذا ظهر ظهورًا لا يخفى جاز، فأما إذا كان في عدد يسير فلا يجوز، ولا يبعد أن يقال: إنه لا يجوز؛ لما فيه من التنفير.

ومتى قيل: هل يجوز بعدما علم الخلق أن ينسوا جميعًا؟

قلنا: يبعد في الخلق الكثير مع كمال العقل، ويجوز في العدد اليسير، فإن قدرنا ذلك معجزة له جاز.

ومنها: أن طريق الدين ميسر لكل مكلف، خلاف ما تقوله المجبرة.

قوله تعالى:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾

القراءة

قرأ أبو عمرو ويعقوب وقتيبة عن الكسائي: «**يؤثرون**» بالياء[1] كناية عن الأشقى وقد تقدم ذكره[2]، والباقي بالتاء على الخطاب، وهو الوجه؛ لأنه روي أن في قراءة أُبَيٍّ: «**بل أنتم تؤثرون الحياة الدنيا**»، وأكثر القراء عليه.

اللغة

التذكير: التعريض للذكر بالبيان الذي يقع به الفهم، ذَكَّرَ يُذَكِّرُ تَذْكُّرًا، ونفع التذكير عظيم؛ لأنه طريق العلم بما يحتاج إليه، (سيذكر): أصله سيتذكر، فأدغم التاء في الذال لقرب مخرجهما قبل الأول، ثم يدغم في الثاني.

والتجنب: المصير في جانب من الشيء بما ينافي غيره، أُخِذَ من الجانب.

والشَّقْوَةُ: حال يؤدي إلى شدة العقاب، ونقيضه: السعادة، شَقِيَ يَشْقَى شِقْوَةً وشقاءً، وأشقاه يُشْقِيهِ.

والفلاح والنجاح والغُنْم نظائر، وهو الظفر بالبغية.

النزول

قيل: نزل قوله تعالى: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ في صدقة الفطر وصلاة العيد، عن أبي العالية،

(١) بالياء: بالى، غ.

(٢) حجة القراءات ٧٥٩.

وأبي سعيد الخدري، وابن عمر. وكان ابن عمر يقول لنافع[1] يوم العيد: أَخْرَجْتَ الصدقة؟ فإن قال: نعم، خرج إلى المصلى، وإن قال: لا، قال: أَخْرِجْ فإنما نزل قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ في هذا.

۞ المعنى

ثم أمر رسول الله ﷺ بتبليغ ما أوحى الله عليه، فقال سبحانه: «**فَذَكِّرْ**» أي: أَدِّ إليهم القرآن، وعِظْهُمْ به، وذكرهم ما فيه من الوعد والوعيد والأحكام «**إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى**» قيل: ليس هذا بشرط، وإنما هو إخبار عن أنه ينفع لا محالة في زيادة الطاعة والانتهاء عن المعصية، كما يقال: سله إن نفع السؤال، وقيل: عظهم وأدِّ ما أرسلت به إليهم، نَفَعَ، أو لَمْ يَنْفَعْ، أي: قبلوا منك، أو لم يقبلوا، عن أبي علي قال: لأنه مبعوث إلى الكافة، فيجب أن يؤدي، قبلوا أم لم يقبلوا؛ للزوم الحجة، وقيل: أراد به الحث على الانتفاع لواعظه كمن يقول لغيره -وقد بين له-: قد أوضحتُ لك إن نفع، وقيل: المراد إن رجوت فيهم الانتفاع، وأملت قلوبهم، عن أبي مسلم. وقيل: (إن) بمعنى (إذ)، يعني: إذ نفعت الذكرى، أي: قد نفع.

ثم بَيَّنَ مَنْ ينتفع، ومن لا ينتفع، فقال سبحانه: «**سَيَذَّكَّرُ**» أي: سيتعظ، ويقبل الذكر «**مَنْ يَخْشَى**» أي: يخاف، قيل: يخاف الله والبعث، وأن من لم يؤمن بالبعث والجزاء لا يتعظ بالذكر «**وَيَتَجَنَّبُهَا**» أي: يتجنب التذكرة، ويباعد عنها «**الْأَشْقَى**» قيل: الأشقى من الإنس [أي] الذي يشقى من الإنس[2] من يخاف ومن يتجنب، عن أبي مسلم. وقيل: أشقى العصاةِ؛ لأن المعاقبين درجات، فأعظمها درجة في الشقاوة: الذي كفر بالله، وعَبَدَ غيره «**الَّذِي يَصْلَى النَّارَ**» قيل: يَلْزَمُ النار، ويُعَذَّبُ فيها «**النَّارَ الْكُبْرَى**» قيل: أشقى العصاة يصلى أكبر النيران، وقيل: النار الكبرى نار جهنم، والنار الصغرى نار الدنيا، عن الحسن. وقيل: النار الكبرى التي في الطبقة السفلى من جهنم، عن الفراء. وقيل: في الآخرة نيران، فالكبرى أعظمها «**ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا**»

---

(١) لنافع: النافع، غ.

(٢) الأشقى من الاثنين: الأشقى من الإثنين الذي يشقى من الإثنين، غ. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/٢٩٦.

فيستريح «وَلَا يَحْيَا» حياة ينتفع بها؛ بل صارت حياته وبالاً عليه، فهو يتمنى زوالها، وقيل: لا يحيا: لا يجد روح الحياة «قَدْ أَفْلَحَ» أي: ظفر بالبغية والمنى «مَنْ تَزَكَّى» قيل: صار زاكيًا بالأعمال الصالحة والورع، عن ابن عباس، وأنس، وقتادة. وقيل: تطهر من الشرك فقال: لا إله إلا الله، عن عطاء، وعكرمة. وقيل: أدى زكاة ماله، عن ابن مسعود، وأبي الأحوص، وكان ابن مسعود يقول: رحم الله امرأً تصدق ثم صلى، ثم يقرأ هذه الآية. وقيل: «صدقة الفطر وصلاة العيد»، عن ابن عمر، وأبي العالية، وروي ذلك مرفوعًا.

ومتى قيل: على هذا القول كيف يصح ذلك، والسورة مكية، ولم يك ثَمَّ صلاة عيد ولا زكاة فطر؟

قلنا: يحتمل أنها نزلت بمكة وتختم بالمدينة، ويحتمل ـ والله أعلم ـ أن الآية نزلت بالمدينة، ونحن نراعي مطلق اللفظ، فنحمله على سائر الصدقات والصلاة.

«وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى» قيل: الصلاة المكتوبة، وقيل: المراد به الدعاء، وقيل: صلى صلاة المخلصين لا صلاة المنافقين، وقيل: خص الصلاة من بين سائر العبادات تفخيمًا لشأنها وموضعها من الدين، وقيل: «تزكى: شهد أن لا إله إلا الله وخلع الأنداد، وشهد أن محمدًا رسول الله، وصلى الصلوات الخمس»، روي مرفوعًا، وقيل: تزكى: طهر نفسه بالأعمال الزاكية، وذكر الله، وصلى مخلصًا، وذكر اسم ربه: فاز بالمطلوب، عن أبي مسلم. وهذا هو الوجه؛ لأنه يشتمل على جميع ما تقدم، ولأنه بمجموع ذلك يصير زاكيًا لا ببعضه.

ثم بعد الأمر بالطاعات خاطب الكفار، فقال: «بَلْ تُؤْثِرُونَ» تختارون «الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» فتعملون لها، وتعمرونها، ولا تتفكرون في أمر الآخرة «وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى»؛ لأن [نعيم] الدنيا قليل وينقطع، ومشوب بكل منغص، فلا يبقى على حاله، والآخرة دائمة النعيم خالصة من كل مشوب «إِنَّ هَذَا» قيل: أراد جميع السورة، وما نص فيها، عن قتادة. وقيل: أراد قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ إلى آخر السورة، عن الكلبي. وقيل: يعني قوله: «وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى»، عن ابن زيد. وقيل: هذا القرآن، عن الضحاك. وقيل: ما وعظكم به وبينه لكم لتؤثروا الآخرة على الدنيا، عن أبي علي. وقيل: معناه: هذا الذي ذكرناك ووعظناك به، والترغيب في الطاعة، والنهي عن المعصية،

وقيل: من تزكى وصلى ممدوح هو في الصحف الأولى كما هو في القرآن، وقيل: ما أمرناك به وتدعو الناس إليه في صحفهم، عن أبي مسلم[1]. «الصُّحُفِ الأُولَى» أي: كتب الأولين «صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى» كتابهما عليهما السلام، وعن أبي ذر، قلت: يا رسول الله، ما كان في الصحف الأولى؟ قال: «اقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، وقيل: في صحف إبراهيم: (ينبغي للعاقل أن يكون حافظًا للسانه، عارفًا بزمانه، مقبلاً على شأنه)، وقيل: إنه تعالى أنزل مائة وأربعة كتب على: آدم، وشيث، وإدريس، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه، وعلى داود وغيرهم من الأنبياء. والله أعلم.

۞ الأحكام

يدل قوله: «فَذَكِّرْ» على وجوب التذكر والدعاء إلى الله تعالى.

ويدل قوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ أن التجنب فِعْلُهُ، وأنه يقدر على خلافه؛ لذلك صح ذمه، فيبطل قول المجبرة في المخلوق والاستطاعة.

ويدل قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ الآية أن الجنة تنال بمجموع ذلك، والتطهير إنما يحصل بأداء الواجبات واجتناب الكبائر، فيصحح قولنا.

وتدل أن التزكية والصلاة والذكر فِعْلُ العبد.

ويدل قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ أن اختيارهم ذلك فعلهم.

ويدل قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أن هذه المواعظ في كتب الأنبياء كما في القرآن، فيكون تأثيره أقوى.

(١) أمر: +، غ.

سُورَةُ الغَاشِيَة

سورة (الغاشية) مكية فيما روي، وهي ست[1] وعشرون آية.

وعن أبي، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة (الغاشية) حاسبه الله حسابًا يسيرا».

ولما ختم سورة (سبح) بأن الآخرة خير من الأولى، افتتح هذه السورة ببيان أحوال الآخرة وما فيها للمؤمنين[2]، وما فيها لمن آثر الحياة الدنيا، كل ذلك ترغيبًا وترهيبًا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١﴾

القراءة

قرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر عن عاصم: «تصلى» بضم التاء على ما لم يسم فاعله اعتبارًا بقوله: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾، وقرأ الباقون بفتح التاء.

---

(١) ست: ستة؛ غ.

(٢) للمؤمنين: المؤمنين، غ.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «**لا تُسمع**» بالتاء مضمومة، «**لاغيةٌ**» بالرفع على أنه اسم ما لم يسم فاعله، وقرأ نافع: «**لا تَسمع**» بالتاء مفتوحة على الخطاب، «**لاغيةً**» بالنصب على المفعول.

اللغة

(**هل**) حرف استفهام، ثم يذكر، ويراد به الإنكار، ويذكر للتقرير لتعظيم الشيء، تقول: هل تعرف ما فعلت؟! وهل تعرفني؟ قال الشاعر:

أَتَـعْـرِفُ رَسْـمَ الـدَّارِ مِـنْ أُمِّ مَـعْـبَـدِ[1]

وهو يعرفه، ولكن استفهم تفخيمًا.

والغاشية: ما أحاط بالشيء من جميع جهاته، وأصله: الستر، ومنه: الغاشية، غَشِيَتْ تغشى غِشْيَانًا فهي غاشية، وأغشاها غيره إغشاءً: إذا جعلها تغشى.

والخشوع: الذل والخضوع[2] والكآبة.

والناصبة والنصبة: التَّعِبَةُ، وهي التي بدأ ضعفها للانتصاب في العمل، نَصِبَ يَنْصَبُ نصبًا: إذا تعب في العمل.

والصلاء: اللزوم، ومنه: الاصطلاء من يلزم النار للأبد[3]، وقيل: الصلاء: الوقود.

والحامية: الحارة.

والآنية: البالغة شدة الحر ونهايته، وأصله البلوغ، أَنَى يَأْنِي أَنًى: إذا بلغ الطعام

---

(١) البيت قائله عدي بن زيد العبادي، وتمامه:

أتـعـرف رسـم الـدار مـن أم مـعـبـد نـعـم ورمـاك الـشـوق قـبـل الـتـجـلـد

المزهر ٢/٤١٣. للسيوطي دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٩٩٨م تحقيق: فؤاد منصور. الشعر والشعراء، ص ١١٢؛ شرح شواهد المنحني، ٢/ ٨٨٥.

(٢) والخضوع: الخضوع، غ.

(٣) للأبد: للأبديا. بدون نقاط، غ.

حال النضج، ومنه: ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، يقال: ما آن[١] لك أن تفعل كذا، أي: ما حان.

والضريع: نبت تأكله الإبل يضر، ولا ينفع، وإنما يشتبه عليها أمره فتظنه[٢] كغيره من النبت، وأصله من المضارعة للمشابهة[٣].

اللغو واللاغية واللواغي: كلام لا فائدة فيه، لَغِيَ يَلْغَى لَغًا، ويَلْغُو لَغْوًا، وألغاه إلغاءً، قال الشاعر:

عَـنِ الـلَّـغَـا وَرَفَـثِ الـتَّـكَـلُّـمِ[٤]

۞ الإعراب

«**وجوه**» ابتداء، وخبره: «**خاشعة**». «**عاملة**» نعت له.

۞ النزول

قيل: لما نزل قوله: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ قالت كفار قريش: إن إبلنا تسمن من الضريع، فنزل: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٍ﴾.

۞ المعنى

«**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ**» قيل: هل بلغك خبر القيامة، فذكر على طريق الاستفهام تفخيمًا لشأنها، وقيل: (هل) بمعنى (قد)، والغاشية: القيامة تغشى الناس بالأهوال، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وأبي علي. وقيل: ما يرد عليهم بعينه، عن أبي مسلم. وقيل: الغاشية النار تغشى وجوه الكفار بالعذاب، كقوله: ﴿وَتَغۡشَىٰ

---

(١) آن: آنا، غ.

(٢) فتظنه: فتظنها، غ.

(٣) للمشابهة: المشابهة، غ.

(٤) البيت قائله العجاج، وتمامه:

ورب أسـراج حـجـيـج كـظـم ... عـن الـلـغـا ورفـث الـتـكـلـم

اللسان (رفث)، تاج العروس (رفث)، الصحاح (لغا).

وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، عن محمد بن كعب، وسعيد بن جبير. «وُجُوهٌ» قيل: أراد أرباب الوجوه، كقولهم: جاءني وجوه القوم، أي: ساداتهم، وقيل: أراد الجارحة بعينها «يَوْمَئِذٍ» يعني يوم القيامة، وقيل: أراد في النار «خَاشِعَةٌ» أي: ذليلة خاضعة «عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ» قيل: عاملة في النار، ناصبة فيها، لم تعمل لله في الدنيا، يعملهم، وينصبهم في النار لمعالجة السلاسل والأغلال، عن الحسن، وقتادة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وروي نحوه عن ابن عباس، قال الضحاك: يكلفون ارتقاء[1] جبل من حديد في النار، قال الكلبي: يخرون على وجوههم في النار، وقال قتادة: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله، فأعملها وأنصبها في الآخرة، وقيل: أراد عاملة في الدنيا بالمعاصي، ناصبة في النار يوم القيامة، عن عكرمة، والسدي. وقيل: عاملة ناصبة في الدنيا، يعملون وينصبون، ويتعبون رجاء أن ينالوا خيرًا، فلما كان تعبهم في غير ما أمر الله به، وكان ذلك فيما نهاهم، كانوا من أهل العذاب في النار، فاتصل صفتهم في الدنيا بصفتهم في الآخرة، عن أبي علي. وقيل: عاملة يجرونها إلى النار، ناصبة في جَرِّها، وشدة عذابها، أي: في عناء شديد، وقيل: هم الرهبان وأصحاب الصوامع وأهل البدع، فأعمالهم تصير هباءً، ويدخلون النار، عن سعيد بن جبير، وزيد بن أسلم. وقيل: سائرة ناصبة في القيامة، تساق إلى النار، عن أبي مسلم. والعرب تسمي السير عملاً، وقيل: سائرة إلى موضع الحساب «تَصْلَى نَارًا» قيل: يلزمون النار، وقيل: يصيرون صلاءً للنار؛ أي: وقودًا، والوقود الحطب، عن أبي مسلم. «حَامِيَةً» حارة «تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ» بلغت النهاية في شدة الحر، عن ابن عباس. «لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ» قيل: الضريع: الشِّبْرِقُ، وهوسُمٌّ، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، وقيل: هو شجر من نار، عن ابن عباس. وقيل: الضريع في الدنيا الشوك اليابس، وفي الآخرة شوك من نار، عن ابن زيد. قال الكلبي: نبت لا يرعاه شيء، وقيل: هو الحجارة، عن سعيد بن جبير. وقيل: هو

(١) يكلفون ارتقاء: يكلفون له تقا، غ: وما أثبتناه من تفسير البغوي١/ ٤٠٧.

طعام يضرعون منه، ومن شدته وكراهته، أي: يتضرعون إلى الله من أكله، عن ابن كيسان. فعلى هذا الضريع بمعنى التضرع، وقيل: هو يشبه الشوك[1] في النار أَمَرَّ من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأشد حَرًّا من النار، سماه الله ضريعًا، رواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه، وقيل: كريه، إذا استغاثوا أعطوا منه، يتضرعون إلى الله من أكله، عن الحسن. «**لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ**» أي: لا يدفع جوعًا ولا يسمن أحدًا.

ثم وصف أهل الجنة، فقال: «**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ**» أي: يظهر عليهم أثر النعمة والسرور والإشراق «**لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ**» قيل: راضية بما عمل في الدنيا من الطاعات [و] بما أتي من الكرامة والثواب، وقيل: لثواب[2] سعيها راضية، وقيل: إذا ظهر نفع أعمالهم وجزاء طاعاتهم رضوه وحمدوه، كما يقال: عند الصباح يحمد القوم السرى، هذا كمؤمن عمل لله، وعاصٍ تاب ورجع إلى الله «**فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ**» قيل: علو الجنة على وجهين: علو الشرف، وعلو المكان والمنزلة، عن أبي علي. وقيل: جنة مرتفعة القصور والدرجات «**لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً**» قيل: كلاما[3] لا فائدة فيه، وقيل: كلامًا يؤذيهم، وقيل: كلامًا ذا لغو، كقولهم: نابل ودارع، قال الشاعر:

وَغَرَرْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّـ ... ـكَ لاَبِنٌ بِالصَّيْفِ تَامِرْ[4]

۞ الأحكام

يدل قوله: «**الغاشية**» على عظيم أحوال القيامة.

ويدل قوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أنهم لا ينتفعون بما كان منهم في الدنيا من الأعمال، فيحتمل الطاعات؛ لأنهم أحبطوها بالكفر، فيدل أن تحمل الكلفة إنما ينفع مع العمل والتقوى والإخلاص، فالمبتدع يجهد في الطاعات فلا يجزى، ويحتمل بعمل الدنيا،

---

(١) الشوك: شوك، غ. وما أثبتناه من تفسير مجمع البيان للطوسي: ١٠/ ٣٠١. روح المعاني: ٣٠/١١٣.
(٢) لثواب: الثواب، وما أثبتناه من تفسير القرطبي: ٢٠/ ٣١.
(٣) كلاما: كلام، غ.
(٤) تامر: تامري، غ. البيت قائله الحطيئة؛ تاج العروس (لبن)، اللسان (لبن)، الصحاح (لبن).

فيبطل سعيه، ويبقى وزره، ويحتمل على فعل المعاصي؛ حيث تؤديه إلى العذاب، ولا تنافي بين الجميع فيحمل عليها، كأنه قيل: كل من كان على الحق يعمل لله فهو الذي يرضى عمله، وما عداه فعاملة ناصبة.

ويدل قوله: ﴿وُجُوهٌ﴾ على أحوال المؤمن، ورضاه بعمله، في مقابلة تلك الأعمال.

وتدل الآيات على ما أعد للفريقين.

وتدل على أن أعمال العباد فعلهم؛ لذلك قال: ﴿عَامِلَةٌ﴾ ، وقال: ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ فيصحُّ[1] قولنا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

القراءة

القراءة الظاهرة: «**خُلِقَتْ**»، و«**رُفِعَتْ**» و«**نُصِبَتْ**» و«**سُطِحَتْ**» بسكون التاء على ما لم يسم فاعله، وعن أنس بن مالك قال: صليت خلف علي بن أبي طالب، وقرأ الأربعة برفع التاءات على الإضافة إلى الله تعالى[2].

قراءة العامة: «**سُطِحَتْ**» بالتخفيف، وعن الحسن بالتشديد[3].

---

(١) فيصح: فيصحح، غ.
(٢) القرطبي ٢٠/ ٣٤.
(٣) القرطبي ٢٠/ . . ٣٤.

قراءة العامة: «**إيابهم**» مخففة، وعن أبي جعفر مشددة الياء، قال أبو حاتم: ولا يجوز ذلك كما لا يجوز الصِّيَّام والقِيَّام بتشديد الياء[(١)].

قراءة العامة: «**بمسيطر**» بكسر الطاء، وعن بعضهم بفتحها وهي لغة تميم[(٢)]، قرأ أبو عمرو والكسائي: «**بمسيطر**» بالسين[(٣)] على اختلاف عنهما[(٤)] فيه، وقرأ حمزة بإشمام الزاي، الباقون بالصاد، وكل ذلك لغات.

اللغة

الجاري: ما يجري من المائع بسرعة، وأصله: جَرْيُ الماء، ثم يوصف به جري الفرس والسفينة، والجارية؛ لأنها يجري فيها ماء الشباب، وفي العين الجارية من الحسن والمَيْعَةِ ما ليس في الواقفة؛ فلذلك وصف بها عيون أهل الجنة.

والسرر: جمع سرير، وهو مجلس السرور والرفعة.

والأكواب: جمع كوب، وهي الأباريق ليس لها خراطيم، وقيل: الأكواب كالأباريق لا عرى لها ولا خراطيم، وهي آنية فاخرة، حسنة الصورة، تتخذ للشراب.

والنمارق: واحدها: نُمْرُقَةٌ، وفيه لغتان بضم النون والراء، وكسرهما.

والمبثوثة: المتفرقة، ومنه: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤]، والبث: الهم؛ لأنه يفرق القلب.

المسيطر: المتسلط على غيره بالقهر له، وسيطر: تسلط، وبناؤه «مُفْتَعِلٌ» من السطر، وهو الكتاب، والتسطير الكتابة، ولما كان الموكل على غيره، والمحاسب له يحفظ أمره بالكتابة قيل لكل حافظ مسلط على غيره مسيطر.

والإياب: الرجوع، آب أَوْبًا وإيابًا، وتأوب تأوبًا، وأوَّبَ يُؤَوِّبُ تأويبا[(٥)].

---

(١) فتح القدير ٥/ ٦١١.

(٢) القرطبي ٢٠/ ٣٥.

(٣) السبعة في القراءات ١٨٦.

(٤) عنهما: عنها، غ.

(٥) وأوّب يؤوب تأويبا: وآب يؤوب إيابا، غ. وما أثبتناه من: التبيان في تفسير القرآن للطوسي: ١٠/ ٣٢٨.

۞ الإعراب

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ استثناء منقطع، معناه: لكن من تولى، قال أبو مسلم: معناه: بل من تولى، وقيل: هو استثناء صحيح راجع إلى قوله: «مسيطر» يعني إلا من تولى فإنك مسيطر عليهم بالجهاد حتى يسلموا، وبعد ذلك يعذبه الله العذاب الأكبر، وقيل: هو راجع إلى قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ قومك إلا من تولى وأعرض، ولا تنفعه التذكرة.

۞ النزول

ذكر أهل التفسير أن الله تعالى لما وصف الجنة بما في هذه السورة عجب الكفار وكذبوا بها، فذكرهم الله قدرته بصنعه، وأنزل: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ الآيات.

۞ النظم

يقال: كيف يتصل ذكر الإبل وما بعدها بوصف الجنة ونعيمها؟

قلنا: فيه وجوه:

قيل: يتصل بأول السورة، والضمير في قوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ راجع إلى عاملة لم ينفعهم عملهم، فلما ذكر عقابهم وذكر ثواب المؤمنين عاد عليهم بالاحتجاج بالإبل والسماء والأرض والجبال، وكيفية خلقها ودلالتها على صانع حكيم، يعني هؤلاء الكفار هلا نظروا في صنع الله، فعرفوه، وعبدوه، عن أبي مسلم.

وقيل: لما ذكر ارتفاع سرر الجنة، وفسَّر رسول الله ﷺ أن ما بين الدرجات كذا، وذكر البُسُطَ، فعجبوا من عظمها، وقالوا: كيف نصعد عليها؟ فأراهم الإبل كيف تُرْكَبُ مع عِظَمِها، وكيف سخرت حتى تنام لِيُحْمَلَ عليها ثم تقوم، والسماء كيف رفعها، والأرض كيف سطحها، والجبال كيف أحكمها، رَدًّا عليهم في معنى قول قتادة.

ومتى قيل: لِمَ خص الإبل من بين سائر الدواب والحيوانات؟

قلنا: لأنهما جل مال العرب التي يمارسونها من صغرهم إلى كبرهم، ويعرفون أحوالها، ولم يروا بهيمة أعظم منها، عن مقاتل، وأبي مسلم.

وقيل: لأنها تنهض بحملها، وهي باركة، ولأنها ليس شيء يسابقها إلا سبقته، عن الكلبي.

وسئل الحسن عن الآية، وقيل: الفيل أعظم في الأعجوبة، فقال: أما الفيل فالعرب بعيدو العهد به، ثم هو خير فيه[1]، لا يركب ظهرها، ولا يؤكل لحمها، ولا يحلب درها، والإبل من أعز مال العرب وأنفسه، يأكل النوى والقَتَّ، ويخرج اللبن.

وقيل: لأنها في عظمها تحمل الحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الصغير.

ومتى قيل: فَلِمَ جمع بين السماء والأرض والجبال والإبل؟

قلنا: الإبل لا تعتبر بأعيانها، ولا فائدة في إدراج بعضها على بعض، والمعتبر بوجه الدلالة، وقد استووا في الأدلة على صانع حكيم.

وقيل: لأن العرب كان مشاهدتهم لهذه الأشياء أكثر.

وقيل: لأن هذه الأشياء يستوي الناس كلهم في معرفتها، فلوضوحها ذكرها.

۞ المعنى

ثم وصف حال الجنة، فقال سبحانه: «فِيهَا» في الجنة «عَيْنٌ جَارِيَةٌ» قيل: تجري كما يريد صاحبها، وقيل: تجري في غير أخدود، وقيل: جارية من كل الشراب يشربونها، عن أبي علي. و«فِيهَا» في الجنة «سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ» أي: رافعة لأهلها حتى لا يحتاج إلى الصعود، وقيل: مرفوعة ليرى المؤمن - وهو جالس عليها[2] - جميع ما خوله ربه من الملك العظيم «وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ» قيل: على حافات[3] الأعين الجارية، فكلما أراد شربها وجدها مملوءة «وَنَمَارِقُ» قيل: وسائد، عن قتادة. وقيل: مرافق[4] «مَصْفُوفَةٌ» بعضها بجنب بعض، فوصف مجالسهم بأنها مجالس الملوك، وقيل: المصفوفة[5] صفًّا مستويًا، عن أبي مسلم. «وَزَرَابِيُّ» قيل: البسط الفاخرة، وقيل: هي

(١) ثم هو لا خير فيه: ثم هو خنزير، غ. وما أثبتناه من تفسير البغوي: ١/٤٠٩.
(٢) عليها: عليه، غ، وما أثبتناه من : التبيان في تفسير القرآن، للطوسي: ١٠/٣٢٥.
(٣) حافات: يامات، غ، وما أثبتناه من تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/٣٠٢. البحر المدمر: ٧/٥٨.
(٤) موافق: موافق، وما أثبتناه من: تفسير الطبري: ١٢/٥٥٥.
(٥) المصفوفة: الموصوفة، غ.

الطنافس، عن ابن عباس. «**مَبْثُوثَةٌ**» قيل: مبسوطة، وقيل: مفرقة في المجالس «**أَفَلَا يَنظُرُونَ**» يتفكرون «**إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**» وكيف قدرها الله، وما فيها من المنافع، وقيل: الإبل: السحاب[1]، وليس له أصل في اللغة، فلا يجوز حمل الكلام عليه «**وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**» أي: بسطت، ومنه: السطح والمسطوح[2]، فبين أنهم لو تفكروا في السماء مع عظمها ورفعها لآ على عمد وزينها بالنجوم، وفي الأرض بسطها مع ثقلها لا على مكان، ثم ما خلق فيها من الحياة والنعم، وإلى الجبال بما فيها من المنافع والمعادن، لعلموا[3] أن لجميع ذلك صانعًا صنعه ومحدثًا أحدثه.

ولما ذكر الأدلة أمر النبي بالتذكير، فقال سبحانه: «**فَذَكِّرْ**» قيل: ذكرهم هذه الأدلة، ومُرْهُمْ بالاستدلال بها، ونَبِّهْهُمْ عليها، عن أبي علي، وأبي مسلم. وقيل: ذكرهم الوعيد لمن تولى وأعرض، والوعد لمن استدل بها وقَبِلَ«**إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ**» قيل: مذكر نعمي عندهم وما توجبه عليهم، وتذكرهم الدلائل والوعد والوعيد «**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ**» قيل: بجبار، عن ابن عباس، ومجاهد. وقيل: لست عليهم بجبار بالإكراه على الإيمان، عن ابن زيد. وقيل: لست عليهم بمسلط تكرههم على الإيمان وتمنعهم عن المعاصي قهرًا؛ إنما إليك الدعوة فقط، عن أبي علي. واختلفوا، فقال بعضهم: كان هذا قبل نزول آية الجهاد، ثم نسخ بآية القتال، وقيل: لا نسخ فيه؛ لأن الجهاد ليس بإكراه، ولمكان الاستثناء، وقيل: إنما بعثت للتذكير، ليس القبول عليك؛ إنما هو عليهم، فليس عليك من ذلك شيء، وقيل: ليس عليك حسابهم حتى تحفظها عليهم، عن أبي مسلم. «**إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ**» أعرض عن الذكر ولم يقبل منك «**وَكَفَرَ**» بالله، وبما جئت به فيعذبهم «**اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ**» وهو العذاب للكفار[4] في النار؛ لأن عذاب الفساق دونه، وقيل: إنما قال: أكبر؛ لأنهم عذبوا في الدنيا بالسيف والقحط

(١) انظر: فتح القدير ٥/ ٦١٠.
(٢) والمسطوح: والمتسطح، غ. وما أثبتناه من اللسان (سطح).
(٣) لعلموا: فعلموا، غ.
(٤) للكفار: الكفار، غ.

والأسر، وقيل: الأكبر الإياس من الروح والفرج ومن كل خير «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ» أي: إلى حكمنا وما وعدناهم رجوعهم، لا يفوتون، «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ» فنجازيهم بما عملوا، فلا يهمنك أمرهم، ففي قريب ترى فيهم ما تقر عَيْنًا به.

ومتى قيل: ما حساب الكفار؟

قلنا: الانتصاف منهم، وإخراج ما عليهم، وإبقاء ما لهم من الأعواض والحساب، وما يظهر من الإحباط، واستحقاق العذاب؛ ليعلم كل أحد أن العقاب مستحق.

۞ الأحكام

الآيات تتضمن أحكامًا:

منها: وصف مجالس أهل الجنة، وأنها مزينة، ونهاية في الطيب والحسن.

ومنها: وجوب التفكر في الأدلة من نفسه، وما شاهده من السماء والأرض والجبال والحيوانات، فكل واحد يدل على صانع حكيم وصفاته وعدله، فيعلم جميع صفاته إما بتفسير تلك الأدلة وإما[1] بواسطة.

ومنها: وجوب التذكر والدعاء إلى الله تعالى عليه، وعلى أمته.

ومنها: أن عليه الدعاء دون الإكراه.

ومنها: وجوب الجزاء والحساب؛ لأن لفظة (على) تقتضي الوجوب.

ومنها: أن أفعال العباد حادثة من جهتهم ليصح المحاسبة والمجازاة.

ومنها: أن الجزاء يقع بحسب الأعمال؛ لذلك يحاسب.

(١) وإما: أو، غ.

سُورَةُ الفَجْر

سورة (الفجر) مكية فيما روي، وهي ثلاثون آية في الكوفي والشامي[(١)]، [واثنتان][(٢)] وثلاثون في المكي والمدني، وتسع وعشرون في البصري.

وعن أُبيّ بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (الفجر) غفر له، ومن قرأها كل يوم كانت له نورًا يوم القيامة».

ولما ختم السورة المتقدمة بأن مصير الخلق إليه وحسابهم عليه، افتتح هذه السورة بتأكيد ذلك بالقسم أنه بالمرصاد، كل ذلك ترغيبًا وترهيبًا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «والوِتْرِ» بكسر الواو[(٣)]، وهي قراءة الأعمش ويحيى بن

---

(١) والشامي: والشام، غ

(٢) واثنتان: واثنان، غ.

(٣) حجة القراءات ٧٦١.

وثاب، واختاره أبو عبيد، قال: لأنه أكثر في الكلام، وأفشى، وقرأ الباقون بالفتح وهي لغة الحجاز، واختارها أبو حاتم، وهما لغتان.

قرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وقتيبة عن الكسائي: «يسري» بإثبات الياء في الوصل وحذفها في الوقف[1]، وهو اختيار أبي حاتم، وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف، وقرأ عاصم وابن عامر والكسائي وحمزة بحذف الياء في الوصل والوقف، قال أبو عبيد: كان الكسائي يثبت الياء في الوصل ويحذف في الوقف ثم رجع إلى الحذف في الحالين، وقيل: إنها رأس آية، أما الحذف فاتباع الخط، فإنها كتبت بغير ياء، ولأنه أخف مع دلالة الكسر على الياء، ولأنه يوافق رؤوس الآي قبله وبعده.

فأما إثباته في الوصل والوقف على ما روينا عن ابن كثير فعلى الأصل، قال الأخفش: حذفت على غير القياس، وكان الأصل ألا تحذف؛ لأن هذا فعل، وإنما تحذف في الأسماء دون الأفعال.

فأما من أثبت في الوصل – على[2] ما روينا عن ابن كثير ـ فعلى الأصل، وإنما حذف في الوقف لأنه ينون الوقف والعرب تقف كذلك، قال الخليل: أسقطت الياء وفاقًا لرؤوس الآي، قال المؤرج: سألت الأخفش عن سقوط الياء من (يسر) فقال: لا أجيبك ما لم تَبِتْ على باب داري سنة، فَبِتُّ على باب داره سنة، ثم سألته، فقال: الليل لا يسري، وإنما يُسْرَى فيه، فهو مصروف، فلما صرفه بجنسه حظر من الإعراب، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨] ولم يقل بغية؛ لأنه صرفه من باغية.

قراءة العامة: «بعادٍ» منونًا، وقرأ الحسن: (بعاد إرم) على الإضافة من غير تنوين[3]، وقراءة العامة بكسر ألف (إرم)، وقرأ مجاهد بفتحها[4]، قال المؤرج: من

(١) حجة القراءات ٧٦١.
(٢) على: فعلى، غ.
(٣) فتح القدير ٥/ ٦١٦.
(٤) القرطبي ٢٠/ ٤١.

قرأ بفتح الألف شبههم بالآرام وهي الأعلام واحدها: إِرَمٌ، وقيل: الأَرْمُ: الهلاك، يقال: أرم بنو فلان هلكوا.

قرأ ابن كثير في بعض الرويات عنه ويعقوب: «**بالوادي**» بإثبات الياء وصلاً ووقفًا، وقرأ ورش عن نافع بإثباتها في الوصل، وهي قراءة أبي جعفر واختيار أبي حاتم، وحذفها في الوقف، وقرأ الباقون بحذفها في الحالين، فأما إثباته فعلى الأصل، والحذف للتخفيف، ولتوافق رؤوس الآي، ومن حذفها في الوقف لأنه ينوي الوقف، وروى خلف عن الكسائي قال: إذا وقفت وقفت بالياء؛ لأنه اسم، ولا يتم إلا بالياء.

۞ اللغة

الفجر: شق عمود الصبح، فَجَرَهُ الله تعالى لعباده يَفْجُرُهُ فجرًا، ومنه: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: شققنا، والفجر فجران: مستطيل، ولا يتعلق به حكم وهو من الليل، ومستطير، وبه تتعلق الأحكام في الشرع من الصوم والصلاة.

والشفع: الزوج، وأصله من الضم، ومنه: الشفيع.

والوتر: الفرد بما ليس له مثل.

والحِجْرُ: أصله المنع، ومنه يقال: حجر القاضي على فلان؛ أي منعه من التصرف، ومنه: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] أي: حرامًا لأنه يمنع منه، يقال: حجر يحجر إذا امتنع، والحجارة تمتنع بصلابتها، والحِجْرُ: العقل لأنه يمنع عن الفساد.

والعماد: جمعه عُمد، وهو ما تبنى به الأبنية، وتستعمل في القوة والشرف، يقال: فلان رفيع العماد، قال الشاعر:

وَنَحْنُ إِذَا عِمَادُ الْبَيْتِ خَرَّتْ   عَنِ الأَحْفَاضِ نَمْنَعُ مَنْ يَلِينَا[1]

والجَوْبُ: القطع، جَابَ يَجُوبُ جوبًا: إذا قطع، قال النابغة الجعدي:

---

(١) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقين وفي روايات: الصحاح (حفض)، اللسان (حفض)، تاج العروس (حفض). ونحن إذا عماد القوم خرّت. . .

أَتَاكَ أَبُو لَيْلَى يَجُوبُ بِهِ الدُّجَى دُجَى اللَّيْلِ جَوَّابُ الْفَلَاةِ عَثَمْثَمُ[1]

أي: قطع به الدجى، والعَثَمْثَم: الإبل الطويلة[2]، وقيل: الإبل الثقيلة[3].

الإعراب

كسر «الفجر» على القسم، وجوابه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ وتقديره: وربِّ هذه الأشياء ومهلك هذه الأمم إن لربك لِهَؤلاء بالمرصاد، وقيل: جوابه محذوف، وتقديره: ليقبضن على كل ظالم أو لينتصفن لكل مظلوم من ظالمه، أي: أما رأيت[4] كيف فعلنا بعاد وثمود وفرعون لما ظلموا، وقيل: تقديره: خالق هذه الأشياء إنه لقادر على ما يشاء.

و«إرم» محله جر؛ لأنه من صفة عاد إلا أن «إرم» لا ينصرف، ولأنه أعجمي معرفة، ويدل عليه أن نعتها مجرورة وهو قوله: «ذات».

و(ثمود) موضعه جر عطفًا على (عاد) وأنث (ذات)؛ لأنه أراد القبيلة.

المعنى

«وَالْفَجْرِ» قيل: فجر الصبح، عن عكرمة، والحسن، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: أراد فجر المُحَرَّمِ، عن ابن عباس، وقتادة؛ لأنه يتجدد عند السنة، وقيل: فجر ذي الحجة، عن مجاهد؛ لأنه فرق به الأيام، وقيل: فجر كل يوم ما دام الدنيا، عن القرظي. وقيل: الصخور تتفجر بالماء، واختلفوا، فقيل: القسم بالفجر وهذه الأشياء لما فيه من دلالة التوحيد، وموقع النعمة به على عباده، وانتشار الضياء التي بها يتم المعاش، وبيان وقت الصوم والصلاة، وقيل: القسم برب الفجر أي: خالقه، عن أبي علي. وقيل: أراد بالفجر النهار كله، عن ابن عباس. والأول الوجه، وقيل: يجوز

---

(١) اللسان (عثم)، تاج العروس (عثم).
(٢) الطويلة: الطويل؛ غ.
(٣) الثقيلة: الثقيل؛ غ.
(٤) ما بين المعكوفين مطموس في غ، وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان: ١٠/ ٣١٠.

أن يريد فجر يوم النحر لاتصاله بليالٍ عشر، عن أبي مسلم. «وَلَيَالٍ عَشْرٍ» قيل: العشر الأولى من ذي الحجة، عن ابن عباس، وابن الزبير، والحسن، وقتادة، ومجاهد، والضحاك، والسدي، والأصم، وأبي علي، وأبي مسلم، ومسروق، وابن زيد، وروي ذلك مرفوعًا. وقيل: العشر الأولى من رمضان، عن الضحاك، وقيل: العشر الأولى من المحرم، عن يمان. والأول الوجه؛ لعظيم حرمتها وكونها وقتًا للحج «وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ» قيل: الشفع: الزوج، والوتر: الفرد من العدد كله، عن الحسن، وأبو مسلم[(١)]. [هو تذكير][(٢)] بالحساب لعظم [(٣)]ما فيه من النفع كأنه نبه على ما في العدد من العبر والنعم، وما يضبط به من المقادير، وقيل: أراد بالشفع والوتر كل ما خلقه الله تعالى، عن أبي علي، وابن زيد؛ لأن جميع الناس وجميع الأشياء إما فرد أو زوج، وقيل: الشفع الخلق، والوتر الله تعالى، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ، وعن ابن عباس، ومجاهد، ومسروق، وأبي صالح. وقيل: الوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر، عن ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، ورواه جابر مرفوعًا، وهو قول الأصم، ووجه ذلك: أن يوم النحر شفع بيوم نحر بعده، وينفرد يوم عرفة بالموقف، وقيل: أراد الصلوات المكتوبة منها شَفْعٌ، ومنها وَتْرٌ، عن عمران بن حصين ورواه أيضًا مرفوعًا. وقيل: الشفع اليومان الأولان من يوم النحر، وهو النَّفْرُ الأول، والوتر اليوم الثالث، وهو النفر الثاني، عن ابن الزبير. وقيل: الوتر آدم، شفع بزوجته، عن ابن عباس. وقيل: الشفع: آدم وحواء، والوتر: الله تعالى، عن مقاتل. وقيل: الشفع: الصفا والمروة، والوتر: البيت، وقيل: الشفع: درجات الجنة ثمانية، والوتر: دركات النار سبعة، فكأنه أقسم بالجنة والنار، أو بخالقهما، وقيل: الشفع: الأيام والليالي، والوتر: اليوم لا ليل بعده، وهو يوم القيامة، عن مقاتل بن حيان. وقيل: الشفع: تضادّ أوصاف المخلوقين؛ يجوز عليهم[(٤)] الوجود والعدم، والعز

(١) قال أبو مسلم: وأبي مسلم. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان: ١٠/ ٣١١.

(٢) ما بين المعكوفين غير واضح في غ. وما أثبتناه من تفسير مجمع البيان: ١٠/ ٣١١.

(٣) لعظم: بعظم، غ. وما أثبتناه من تفسير مجمع البيان: ١٠/ ٣١١.

(٤) عليهم: عليه، غ.

والذل، والقدرة والعجز، والعلم والجهل، والحياة والموت، والوتر: انفراد صفات الله تعالى: موجود لا يجوز عليه العدم، قادر لا يجوز عليه العجز، حَيٌّ لا يجوز عليه الموت، عالم لا يجوز عليه الجهل، وقيل: الشفع علي وفاطمة، والوتر: محمد ﷺ، والأوجه أن يحمل على جميع ما خلق، على ما قاله أبو علي، تنبيهًا على عظيم قدرته، ومواقع نعمه.

«**وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**» أي: يذهب ويسير بظلامه حتى ينقضي ويطلع الفجر، عن أكثر المفسرين، وهو قول أبي مسلم. وقيل: معناه جاء وأقبل إلينا، عن قتادة، وأبي علي. واختلفوا، فقيل: أراد جنس الليالي، وإنما أقسم بربها أو أقسم بها؛ لما فيها من العبر، وقيل: بل أراد ليلة بعينها تشريفًا لها، فقيل: ليلة المزدلفة، عن قتادة، ومجاهد، والكلبي. وفيها يسري الحاج من عرفة إلى مزدلفة ثم يصلي الغداة بها، ويغدو إلى منى «**هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ**» أي: مقنع ومكتفى في القسم لذي عقل ونُهًى، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد. وهذا استفهام، والمراد التقرير؛ أي: في القسم بهذه الأشياء كفاية «**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ**» وهم قوم هود «**إِرَمَ**» اختلفوا في إرم على أقوال أربعة:

أولها: أن إرم بلد، ثم اختلفوا، فقيل: هو دمشق، عن أبي سعيد المقبري، وسعيد بن المسيب، وعكرمة. وقيل: بلد في الإسكندرية، عن محمد بن كعب القرظي. وقيل: إرم بناء بناها شداد بن عاد، وأراد أن يدخلها، فأهلكه الله تعالى بصيحة نزلت من السماء.

وثانيها: أن إرم نَسَبُ عاد، ثم اختلفوا، فقيل: هي أمه، عن مجاهد، وقيل: هم قبيلة من عاد، عن قتادة، ومقاتل. وقيل: هو جد عاد فهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، عن ابن إسحاق. وقيل: عاد الأولين بن إرم، وقيل: إرم أب عاد، فهو عاد بن إرم، وقيل: هو سام بن نوح بن شيث عاد إليه، عن ابن عباس. قال الكلبي: إرم الذي يجتمع إليه نسب عاد، وثمود أهل السواد والجزيرة.

وثالثها: أنه ليس بنسبةٍ ولا بلد، وإنما أضيف إليه للتعريف، ثم اختلفوا، فقيل:

إرم صفة لعاد، وكان عاد يعرف به ويوصف به ليتميز به من غيره ممن اسمه عاد، عن أبي علي. وقيل: بل إرم اسم آخر لعاد، فكان له اسمان، عن الحسن، وأبي مسلم. وقيل: إرم: بنيانٌ بناؤُهُ رفيعُ البنيانِ، فأضيف إليه كأنه قيل: صاحب إرم.

ورابعها: أن الإرم الهلاك؛ أي: أهلكهم وجعلهم رِمَمًا، وظاهر التلاوة ما قاله أبو علي وأبو مسلم؛ لأن إرم بدل من عاد.

«**ذَاتِ الْعِمَادِ**» قيل: ذات الطول، عن ابن عباس، ومجاهد. من قول العرب: رجل مُعَمَّدٌ؛ أي: طويل مشبه بعماد البيت، قال الكلبي: كان طول أحدهم أربعمائة ذراع، وقال مقاتل: كان طول أحدهم اثني عشر ذراعا[1]، وقيل: ذات عمد للأبيات ينتقلون من مكان إلى مكان، عن قتادة. وقيل: ذات العماد في إحكام البنيان، عن ابن زيد. وقيل: ذات القوى الشداد، عن الضحاك وروي مرفوعًا، كان الرجل يأتي الصخرة، فيحملها على الحي ليهلكهم، وقيل: كانت لهم جنات وزروع، وكانوا يسكنون بوادي القرى، وقيل: ذات الأبنية العظام المرتفعة، عن الحسن، وأبي علي. وقيل: إرم ذات العماد هو الجنة التي بناها شداد بن عاد، وذكروا أنه أراد أن يدخلها، فأهلكه الله تعالى، وقيل: ذات الرفعة والقوة، عن أبي مسلم.

«**الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ**» مثل عاد في عظم أجسامهم وكثرة قوتهم، ثم ذلك لم يغنهم عن عذاب الله من شيء لما خالفوا أمره «**وَثَمُودَ**» هم قوم صالح «**الَّذِينَ جَابُوا**» قيل: قطعوا «**الصَّخْرَ**» وقيل: قطعوا الجبال بيوتًا، عن مجاهد. «**بِالْوَادِ**» قيل: بواديهم، وقيل: بوادي القرى، فاتخذوا منها أبنية، قيل: هم أول من نحت الصخر.

ومتى قيل: كيف دخل هذا بين القسم والمقسم به، وذلك يمنع تعلق أحدهما بالآخر، وكيف نظمه؟

قلنا: من قال جواب للقسم محذوف مضمر، فلا سؤال عليه، ومن قال الجواب قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ يقول: لهذا الكلام تعلق بالقسم، كأنه يقول: والذي خلق الفجر وأهلك عادا وثمودَ مع قوتهم، وقيل: جواب القسم لنقبضن على كل ظالم، كما قبضنا على أولئك.

(١) ذراعا: ذراع، غ.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ وما بعده على عظيم موقع هذه الأشياء من النعمة والدلالة على الصانع.

ويدل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ [كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ]﴾ الآيات أن قوتهم ومالهم لم يُغْنِ عنهم شيئًا حين عصوه، تحذيرًا من عصيان الله تعالى، والاغترار بالدنيا، والنفس، والقوة، والجند.

قوله تعالى:

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ
رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ
فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا
تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا
لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

۞ القراءة

قرأ ابن عامر وأبو جعفر: «قَدَّرَ عليه رزقه» بتشديد الدال[١]، الباقون بالتخفيف، وكان أبو عمرو يقول: «قَدَّرَ» مشددة بمعنى قَتَّرَ، و«قَدَرَ» مخففة: هو أن يعطيه ما يكفيه، وقيل: قَدَرَ وقَدَّرَ بمعنى: ضيَّق، وأصله من: القدر، وهو كون الشيء بمقدار، أي: جعله مقدار البلغة، ومنه: القدرة؛ لأن المقدور على مقدار ما يمكن أن يوجد بها، ومنه: التقدير.

قرأ أبو جعفر ونافع: «أكرمني» و«أهانني» بإثبات الياء في الوصل وحذفها في الوقف[٢]، وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات الياء فيهما على الحالين، وقرأ أبو عمرو بإثباتهما وحذفهما في الحالين، لا يبالي كيف قرأ، وقال: كيف شئت بالياء وغير الياء،

(١) حجة القراءات ٧٦١.

(٢) حجة القراءات ٧٦٤.

وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بحذف الياء في الحرفين في الحالين، أما الحذف للتخفيف واتباع المصحف، ولأن الكسرة تدل عليه، [و] أما الإثبات فعلى الأصل.

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «**ربي أكرمني**» و«**ربي أهانني**» بفتح الياء فيهما، الباقون بإسكان الياء فيهما.

واختلفوا في قوله: «**تكرمون**» و«**تحضون**» و«**تأكلون**» و«**تحبون**» أربعة أحرف، فقرأ أبو عمرو ويعقوب الأربعة كلها بالياء، وقرأ الباقون كلها بالتاء على الخطاب، واختلفوا في «**تحضون**» فقرأ أبو جعفر وعاصم وحمزة والكسائي: «**تحاضون**» بفتح التاء والألف من المحاضة[1] وهو مفاعلة، ومعناه: التواص والتواصي، وهو أن يأمر بعضهم بعضًا، ويحضه عليه، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر: «**تحضون**» بالتاء وضم الحاء من غير ألف، وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالياء وضم الحاء بغير ألف، وروي عن الكسائي بضم التاء وإثبات الألف.

اللغة

الوتد: جمعه: أوتاد، ومنه: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ [النبأ: ٧]، والوتدان في الأذنين[2]: هما اللذان[3] في باطنهما كأنهما وتد، يقال في الأمر: تد وتدك.

والطغيان: مجاوزة الحد في الإفساد، ومنه: ﴿طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١] أي: جاوز الحد.

والسوط معروف، وهو ما يضرب به، وجمعها: سياط، ويقال: سيطته بالسوط ضربته، قال الفراء: السوط اسم للعذاب وإن لم يكن ثم ضرب بسوط، يقال: سطته أسوطه سوطًا، فالسوط: النصيب من العذاب، والسوط: خَلْطُ الشيء بعضه ببعض، وسوط فلان أمره تسويطًا خلطه، قال الشاعر:

(١) المحاضة: المحاضت، غ.
(٢) الأذنيين: الأذن، غ. وما أثبتناه من اللسان (وقد).
(٣) هما اللذان: هما اللذان هما، غ.

فسطها ذميم الرأي غير موفق　　　فلست على تسويطها بمعان[١]

ومنه سمي العذاب سوطًا؛ لأنه يخالط اللحوم والدماء، كما يخلط بالسوط، يقال: ساطه يسوطه سوطًا فهو سائط، قال الشاعر:

أَحَارِثُ إِنَّا لَوْ تُسَاطَ دِمَاؤُنَا　　　تَزَايَلْنَ حَتَّى لاَ يَمَسُّ دَمٌ دَمَا[٢]

يعني: تختلط.

والمرصاد: «مفعال» من: رصده يرصده رصدًا فهو راصد: إذا دعي ما يكون منه.

والابتلاء والاختبار والامتحان نظائر، وهو من الله تعالى إظهار ما في العبد من خير أو شر [النائي] عن تعارض دواعي العقل والشرع، ودواعي الهدى والشيطان، فيظهر به المعلوم.

والإكرام إعطاء الخير للانتفاع به، ونظيره: الإحسان والإنعام، ونقيضه: الإهانة.

واللم: الجمع، يقال: لممت ما على الخوان ألمه لمًا: إذا أكله أجمع، كأنه يأكل ما ألم به أي: ما قدر عليه لا يميز شيئًا من شيء.

والجم: الكبير العظيم، يقال لمعظم[٣] الماء: جمة الماء، وجم الماء في الحوض: إذا كثر، قال زهير:

فَلَمَّا وَرَدْنَ الْمَاءَ زُرْقًا جِمَامُهُ　　　وَضَعْنَ عِصِيَّ الحَاضِرِ المُتَخَيِّمِ[٤]

الإعراب

(فرعون) محله كسر عطفًا على **(عاد)** و**(ثمود)**، كأنه قيل: وبفرعون، إلا أنه اسم أعجمي معرفة فلا ينصرف، ويدل عليه أن نعته مجرور وهو قوله: **«ذي الأوتاد»**.

(١) اللسان (سوط)؛ تاج العروس (سوط)؛ الصحاح (سوط).
(٢) البيت قائله المتلمس؛ اللسان (زيل)؛ تاج العروس (زيل).
(٣) لمعظم: معظم، غ.
(٤) البيت قائله زهير بن أبي سلمى في معلقته.

«أكلا» نصب على المصدر وهو المفعول المطلق، و«لما» نعتٌ للأكل.

۞ النظم

يقال: كيف يتصل قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ ؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنه بالمرصاد لأعمالهم، ولهم، لا يخفى عليه شيء من مصالحهم، فإذا أكرم عبدًا فامتحنه بالنعم التي هي الصحة والسلامة والمال والبنون ظن ذلك واجبًا على ربه، وإذا ضيق عليه رزقه ظن ذلك إهانة، ولم يعلم أنه تعالى يفعل كلها مصلحة، فعند النعمة يتوجب عليه الشكر، وعند المحنة الصبر، عن أبي مسلم.

وقيل: إنه بالمرصاد لهم، يتعبدهم بما هو أصلح، ويفعل بهم ما هو الصلاح، وهم ظنوا أنه يبتدئ بالإكرام والإهانة، ولا كذلك لأنه على حسب المصلحة يبتدئ أمرهم، ثم بعد التكليف يدخلون تحت الاستحقاق.

وقيل: لجهلهم بوجوه أفعال الله ظنوا بعضه إكرامًا، وبعضه إهانة، وليس كذلك فالله تعالى أعلم بأحوالهم وهو لهم بالمرصاد، ويتعبدهم، ويفعل بهم ما هو خير لهم.

ويقال: كيف يتصل قوله: ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ﴾ بما قبله؟

قلنا: لما رد عليهم ظنهم أن التقدير الإهانة، بَيَّنَ أن الإهانة لهذا، لا لما قالوا.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ في أمية بن خلف، امتحنه الله بالنعمة فظن ذلك إكرامًا وتعظيمًا، ولم يشكر، وضَيَّق عليه رزقه فظن أنه أهانه، وقال: أهانني ربي، واستخف بي.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما أقسم به وما أقسم عليه، فقال سبحانه: «وَفِرْعَوْنَ» هو فرعون

موسى «**ذِي الْأَوْتَادِ**» أي: صاحب الأوتاد، قيل: ذي الجنود الذين كانوا يشيدون أمره، عن ابن عباس. وقيل: كان يوتد الأوتاد في أيدي الناس، عن مجاهد. وكان إذا غضب على أحد مد يديه ورجله ورأسه، ويوتده بالأوتاد حتى يموت، وقيل: كان له منارات يعذب الناس عليها، عن سعيد بن جبير. وقيل: قتل امرأته آسية، وماشطة ابنته بالأوتاد لما آمنوا بموسى، وقيل: ملاعب كان يلعب فيها ويضرب تحتها بالأوتاد، عن قتادة. وقيل: ذي الأوتاد لكثرة الأوتاد التي كانوا يتخذونها للمضارب لكثرة جموعهم، وكان ذلك فيهم أكثر منه في غيرهم، عن أبي علي. وقيل: ذي البناء المحكم، عن محمد بن كعب. وقيل: هو عبارة عن ثبات ملكه، وطول مدته، وقوة سلطانه، وشدة هيبته، عن أبي مسلم. قال الأسود:

فِـي ظِـلِّ مُـلْـكٍ ثـابِـتِ الْأَوْتَـادْ[1]

يشبه بثبوت الأوتاد في الأرض، وقيل: كانوا إذا حاربوا ثبتوا كثبوت الوتد في الأرض «**الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ**» أي: جاوزوا الحد في الفساد والعصيان والكناية عن جميع من تقدم ذكره من الأمم «**فَأَكْثَرُوا فِيهَا**» في البلاد «**الْفَسَادَ**» يعني الكفر وقتل النفس والظلم «**فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ**» قيل: لونًا من العذاب صبه عليهم، عن قتادة. وقيل: قسط عذاب أي: نصيبًا، وقيل: لكل[2] قوم لونًا من العذاب غير الأخرى، عن السدي. وقيل: هو استعارة، وسمي العذاب سوطًا؛ لأن عندهم السوط غاية العذاب، قال الشاعر:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـلَّـهَ أَظْـهَـرَ دِيـنَـهُ　　　وَصَبَّ عَلَى الْكُفَّارِ سَوْطَ عَذَابِ[3]

وقيل: أهلكهم بأنواع من العذاب، وشبه انصباب العذاب بتواتر السوط «**إِنَّ رَبَّكَ**

---

(١) البيت قائله الأسود بن يعفر النهشلي، وتمامه:

ولقد غنى فيها بأنعم عيشة　　　في ظل ملك ثابت الأوتاد

الأغاني ١٣/ ٢٢.

(٢) لكل: كل، غ.

(٣) القرطبي ٢٠/ ٤٥.

«لَبِالْمِرْصَادِ» قيل: يسمع أقوالهم ويرى أفعالهم وأشخاصهم، عن ابن عباس. وقيل: بإنصاف المظلوم من الظالم، عن الحسن، والضحاك. وقيل: لا يفوته أحد حتى يجازى، وينتصف بين المظلوم والظالم، عن عطاء. وقيل: يرصد الناس على الصراط ويأمر الملائكة بذلك ويجعلهم رصدًا، عن مقاتل. وقيل: بمرصد لأهل الظلم والمعصية، عن الضحاك. وهو وعيد لهم بأنهم يجازون ولا يفوتون، وقيل: مصير الخلق ومرجعهم إلى حكمه وأمره، عن أبي مسلم. وقيل: يرصد أعمال بني آدم، عن الحسن، وعكرمة. وقيل: يحاسب الناس على جسر جهنم، وهي سبعة جسور، يحاسب في الأول على الإيمان، وفي الثاني على الصلاة، وفي الثالث على الزكاة، وفي الرابع على الصوم، وفي الخامس بالحج، وفي السادس بالعمرة، وفي السابع بالمظالم، فإن أتى به انطلق إلى الجنة. وقيل لأعرابي: أين ربنا؟ قال: بالمرصاد، وليس المراد به المكان؛ لأنه ليس بجسم، وسئل علي: أين كان ربنا؟ فقال: (أين) سؤال عن المكان وكان الله ولا مكان. «فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ» أي: عامله معاملة المختبر بأن كلفه ليظهر المعلوم منه «فَأَكْرَمَهُ» بالإنعام عليه والإحسان إليه «وَنَعَّمَهُ» بأنواع النعم دينًا ودنيا «فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ» أي: يَفرح ويُسرُّ ويقول: أعطاني هذا لمنزلتي عنده، فيظن ذلك مجازاة له على عمله وواجبًا على ربه «وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ» ربه «فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ» أي: ضيق عليه معيشته «فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ» يظن ذلك عقوبة وجزاء وذلاً «كَلَّا» ردع وزجر؛ أي: ليس الأمر كما تظن؛ لأنه تعالى قد يوسع على العصاة، ويضيق على المؤمنين المخلصين بحسب ما يرى من المصلحة، فلا سعة الرزق تدل على منزلة له عند ربه، ولا ضيق الرزق يدل على سوء حال له عنده؛ ولكن أَنْعَمَ[1]، وابتلى بالشكر، وَقَدَرَ وابتلى بالصبر، قال الفراء: معنى (كلا) لا ينبغي أن يكون هكذا، ولكن ينبغي أن يحمدوا الله على الأمرين، وقيل في (كلا) تكذيب من الله لهذا القائل، وقال: لا بالغنى أكرمت، ولا بالفقر أهنت، وإنما أكرم بالتقوى،

(١) أنعم: أنعمه، غ.

وأهين بالعصيان، عن الحسن، وقتادة. «بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ» يعني إنما أهنت من أهنت؛ لأنهم عصوني، ثم فَصَّلَ العصيان، فقال: «لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ» وهو الطفل الذي لا أب له، ولا تكرمونه بحفظ ماله ولا إيفاء حقه «وَلاَ تَحَاضُّونَ» أي: تحثون «عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ» أي: التصدق عليهم، والمسكين: الفقير الذي لا شيء له، يعني إذا لم تظنوا منع الصدقة من الفقير إهانة، ولا ترك إكرام اليتيم إهانة فكيف تظنون من الله ذلك إهانة؟! وقيل: الله تعالى إنما أعطاكم المال، وأمر بأن تعطوا اليتيم والمسكين، فإذا لم تفعلوا فذلك الموجب لإهانتكم «وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ» أي: الميراث، وقيل: أراد مال اليتامى، عن أبي مسلم. تأكلونها حرامًا وإسرافًا، وقيل: تأكلون الحرام [و] الحار والبارد والحلو والحامض وما تشتهون، ولا تتفكرون في أمر الله وأنه لكم[1] بالمرصاد «أَكْلاً لَمًّا» أي: شديدًا جميعًا، قيل: يأكل نصيبه ونصيب غيره، عن الحسن. وقيل: ميراثه وميراث غيره اعتداء، عن بكر بن عبد الله. وقيل: اللَّمُّ: الذي يأكل ما يجد لا يميز بين الحلال والحرام، ويأكل ماله ومال غيره، عن ابن زيد. «وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا» أي: كثيرًا شديدًا، عن ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد. وقيل: تحبون المال من فرط الحرص، ولو يكون كثيرًا، وتجمعونه من غير وجهه، وتفرقونه في غير وجهه، ولا تتفكرون في العاقبة «كلا» أي: ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر، وقيل: كلا، لا تفعلوا ما تقدم ذكره، ولا تطغوا.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ﴾ أن الطغيان والفساد فعلهم.

ويدل أنه عاقبهم جزاء على طغيانهم.

ويدل قوله: ﴿لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ على وعيد عظيم لكل من عصى الله، وروي أن عمر بن عبيد دخل على المنصور فقال: عظني، فابتدأ بالفجر [حتى وصل إلى] ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، ثم قال: يا أبا جعفر: ﴿لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾؟! فبكى بكاء شديدًا.

(١) لكم: لهم، غ.

وعن زيد بن علي (عليه السلام) أنه كان يقول في خطبته: اللهم إن بني أبي العاص طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، اللهم صُبَّ عليهم سوط عذاب، إنك يا رب لهم لبالمرصاد. في خطبة طويلة.

ويدل قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ على سوء عادة الإنسان وصنيعه عن النعمة والمحنة، فيظن النعمة كرامة وجزاء، والمحنة إهانة، جهلاً منه، وإنما الجزاء في يوم القيامة.

ويدل قوله: ﴿لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ على وجوب إكرام اليتيم، وحسن رعايته في نفسه وماله، وخصه بالذكر؛ لأنه المحتاج إلى غيره لضعفه.

ويدل على وجوب رعاية حق الفقراء.

ويدل قوله: «**وتحبون**» على ذم من قصر هواه على الدنيا.

ويدل أن هذا الأكل والحب والإكرام والحض فعل العبد؛ لذلك صح المدح، والذم عليها.

قوله تعالى:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ
يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ
عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً
مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

القراءة

قرأ الكسائي ويعقوب: «**يُعَذَّبُ**» بفتح الذال، «**ولا يُوثَقُ**» بفتح الثاء، والباقون بكسر الذال والثاء[(١)]، وروى أبو قلادة عمن أقرأه رسول الله صلى الله عليه بنصب الذال والثاء، وروي عن أبي عمرو أنه رجع إليه في آخر عمره، وسنبين المعنى.

قراءة العامة: «**النفس المطمئنة**» وروي أن في مصحف أبي: (**النفس الآمنة المطيعة**)، وعن بعضهم (**في عبدي**)، وهما يحملان على التفسير.

---

(١) حجة القراءات ٧٦٣.

۞ اللغة

الدك: حط المرتفع بالبسط، واندك سنام البعير: إذا انفرش في ظهره، وناقة دكاء، ومنه: الدكان لاستوائه في الانفراش، قال أبو مسلم: الدك والزحف سواء، قال الشاعر:

لَيْتَ الْجِبَالَ تَدَاعَتْ عِنْدَ مَصْرَعِهِ ... دَكًّا فَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَحْجَارِهَا حَجَرُ[(١)]

تداعت: أي مالت بعضها إلى بعض لتنهدم، وقيل: دُكَّت الأرض تُدَكُّ دكًّا أي: تزلزلت حتى تندك الأرض، فتصير مستوية.

والصف: كون الأشياء بعضها يلي بعضًا على خط الاستواء كَصَفِّ الناس في الصلاة.

والوثاق: الشد بمثل القيد والغل والسلاسل، يقال: أوثقته أي: شددته.

المطمئنة: الساكنة، ومنه: الطمأنينة السكون.

۞ الإعراب

﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ﴾ قيل: نصب (عذابه) بـ(يعذب)، وقيل: أراد مثل عذابه، فلما حذف الخافض نصب؛ فلذلك نصب على القراءتين.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ في أمية بن خلف الجمحي، عن الفراء.

وقيل: نزل قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ في حمزة بن عبد المطلب حين[(٢)] استُشهِدَ يوم أحد.

وقيل: نزل في خبيب بن عدي لما قتله أهل مكة، وجعلوا وجهه إلى المدينة، فقال: اللهم إن كان لي عندك خير فحول وجهي نحو قبلتك، فحول الله وجهه نحو القبلة، ولم يستطع أحد أن يحوله.

وقيل: بل الآية عامة في جميع المؤمنين.

---

(١) البيت قائله: عكرشة أبو الشغب، يرثي ابنه شغبًا: ديوان الحماسة ١/ ٤٣٠، الكامل ١/ ٥٨.

(٢) حين: حتى؛ غ.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ وقت الإكرام والإهانة، فقال سبحانه: «كَلَّا» قيل: ردع وزجر، أي: لا تفعلوا ما أنتم عليه من أكل الحرام ومنع الحقوق، وقيل: معناه حَقًّا، عن أبي علي. «إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ» أي: ترجف وتزلزل حتى تصير مستوية [قد] ذهب دورها وقصورها وأبنيتها، وقيل: تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم، عن ابن عباس. «دَكًّا دَكًّا» أي: يفعل ذلك مرة بعد مرة حتى ينكسر كل شيء على ظهرها «وَجَاءَ رَبُّكَ» قيل: أمره وقضاؤه ومحاسبته، عن الحسن، وأبي علي. وقيل: جلائل آياته فجعل مجيئها مجيئه تفخيمًا لها، ولا يجوز حمله على مجيء ذاته؛ لأنه ليس بجسم، فلا يجوز عليه المجيء والذهاب، وقيل: جاء عذابه وثوابه، وقيل: جاء أمره الذي لا أمر لغيره معه وذلك يكون يوم القيامة، خلاف حال الدنيا، عن أبي مسلم. «وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا» أي: مصطفون في القيامة للحساب، وذلك يزيد في سرور المؤمنين، وغم العصاة، إذا ظهر أمرهم على رؤوس الأشهاد، وقيل: الملائكة تقف صفوفًا خلف الناس «وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ» قيل: تقرب من الناس، فيرونها وأنواع عذابها، وليس ذلك بغائب، فيحضرَ، عن أبي مسلم، وأبي علي. وقيل: يتقدم مكانها إلى الموضع الذي يرونها، فأما ما تهذي به الحشوية أنها[1] تقاد بالسلاسل فليس بشيء «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ» أفعاله القبيحة، وتركه الواجبات، واشتغاله بما لا ينفعه تندمًا وتحسرًا فيقول: لم فعلت، ويتمنى أن يكون عمل في فكاك رقبته «وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى» أنّى له ذكر ينتفع[2] به مع ارتفاع التكليف، كأنه قيل: يندم، وأنّى له الندم، وقيل: وأنّى تنفعه الذكرى يومئذ، وقد فرط في الدنيا و«يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي» قيل: ليتني قدمت للحياة الباقية عملاً صالحًا ينفعني اليوم، وقيل: لحياتي بعد الموت «فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ. وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ» أما على قراءة الكسائي بفتح الذال والثاء قيل: معناه لا يعذب كعذاب هذا الكافر الذي لم يقدم لحياته أحد من الناس، ولا يوثق كوثاقه أحد، وهذا وإن أطلق فالمراد به التقييد لما علم أن إبليس أشد عذابًا منه وأشد وثاقًا، وقيل: لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله يومئذ، وقيل: لا يعذب أحد بعذابه؛ لأنه المستحق،

---

(١) أنها: أنه، غ.

(٢) ينتفع: ينفع، غ.

ولا يؤخذ بذنبه أحد، فأما على قراءة الباقين بكسر الذال والثاء قيل: لا يعذِّب كعذاب الله أحد ولا يوثق كوثاقه أحد، عن الحسن، وقتادة. وذلك مبالغة في شدة عذاب الله، وأن أحدًا لا يبلغ ذلك المبلغ، وقيل: فيومئذ لا يعذب عذابه أحد فداء له[1] من العذاب؛ لأنه المستحق له، إشارة أنه لا يعاقب أحد بذنب غيره، وأنه لا يجعل ما جعل الله في عنقه في عنق غيره بل يفعل ذلك به لاستحقاقه، والوثاق الشد في السلاسل والأغلال، عن أبي علي. قيل: [لا] يُعَذَّبُ كعذاب هذا الكافر أحدٌ، عن أبي مسلم قال: وليس المراد إنساناً[2] بعينه؛ وإنما المراد كل مَنْ هذه صفته وفعله الفعل المحكي عنه، وقيل: لا يسند لأحد أمر في تعذيب ووثاق إلا له، فهو المعذب، وهو الآمر، بين أن العذاب والوثاق يومئذ بأمره وحكمه، وهو يعلم مقاديرهم، فيفعل بكل أحد ما يستحقه، فلا يتصور ثَمَّ ظُلْمٌ، ولو كان الأمر في يد غيره لكان لا يؤمن الظلم والزيادة في العقوبة كما في الدنيا «**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**» قيل: المطمئنة الآمنة بما تبشر عند الموت ويوم البعث، عن ابن زيد. وقيل: المطمئنة بالمعرفة بالله والإيمان به وبدينه، عن مجاهد. وقيل: المطمئنة البشارة بالجنة لما قدم من الأعمال الصالحة، وقيل: المطمئنة التي يبيض وجهه، ويعطى كتابه بيمينه يطمئن، عن الكلبي، وأبي روق. وقيل: المؤمنة الموقنة، عن الحسن. وقيل: المطمئنة بذكر الله، الآمنة من عذاب الله، الراضية بقضاء الله، وقيل: المخلصة، عن ابن كيسان. فإنما تطمئن قلوب علماء أهل التوحيد والعدل حيث عرفوا الله بصفاته وحكمته وعدله، وأنه أمرهم ونهاهم ووعده لهم بالثواب، فَرَضَوْا بقضائه، وشكروا نعمه، واتقوا معاصيه، وعلموا أنه لا يجوز عليه فعل الظلم، فسكنت أنفسهم إلى وعده الثواب والأعواض، وأمنوا العذاب، وأنه ينتصف لهم إن ظلمهم غيرهم، وأنه في تحمل المشاق لا يضيع سعيه البتة. فأما المجبرة فقط لا يطمئن قلبهم؛ لأنهم إن أطاعوا لا يأمنون عقابه؛ لأنهم يُجَوِّزون أنهم خلقوا للنار، وأنه يعذبهم وإن أطاعوا، ولا يرجون على أعمالهم ثوابًا، ولا على ما نالهم من المحن والبلاء أعواضًا، وقط على مذهبهم لا يتصور أن يطمئن قلبهم، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا. «**ارْجِعِي**

(١) فداء له: يناله، غ. وما أثبتناه من: التبيان في تفسير القرآن للطوسي: ١٠/ ٣٣٤.
(٢) إنسانًا: إنسان؛ غ.

﴿إِلَى رَبِّكِ﴾ قيل: يقال هذا عند الموت، عن أبي صالح. وقيل: عند البعث، عن عكرمة، والضحاك. ومعناه: ارجعي إلى ثوابه، وما أعد من النعم، عن الحسن. وقيل: إلى أمثالك من عباد ربك الصالحين، عن ابن كيسان. وقيل: ارجعي إلى وطنك من الجنة، فإن المؤمن في الدنيا غريب، ومسكنه الجنة، وقيل: إلى حكمه وجزائه، وقيل: الخطاب للروح أن ترجع إلى الأجساد، وليس بشيء؛ لأنه ليس بحي حتى يخاطب ﴿رَاضِيَةً﴾ عن الله بما أعد لها ﴿مَرْضِيَّةً﴾ رضي عنها ربها بما عملت[١] من طاعته، وقيل: راضية بقضاء الله في الدنيا حتى رضي الله عنه، ورضي أفعاله واعتقاده، وهذا هُمْ أهل التوحيد، والعدل يرضون بقضاء الله، فأما المجبرة فلا يرضون بقضائه، بل يُسْخِطُونَهُ فلا يرضى الله عنهم ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ قيل: في زمرة عبادي المؤمنين؛ لأن العبد المنسوب إلى الله هو المؤمن، وهذه نسبة تشريف وتعظيم، وقيل: الخطاب للمكلف في الدنيا، أي: ادخل في جملة المؤمنين في الدنيا، واعمل بعملهم، تكن في جملتهم في الآخرة، وقيل: النفس الروح، والمراد: ادخلي في عبادي ليحيوا[٢]، وهذا ليس بشيء؛ لأن الروح ليس بحي يخاطب إلا أن يحمل على التوسع وأنه يريد إعادة الأرواح إلى الأجساد فيحيون، فحينئذ يكون له وجه على البعد ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ وأنث لأنه ذكر النفس.

۞ الأحكام

الآيات تتضمن أحكامًا:

منها: أحوال القيامة، وعلاماتها من اضطراب الأرض، وحضور الناس والملائكة للمحاسبة.

ومنها: تندم العصاة حين لا ينفعهم.

ومنها: شدة عذابهم.

ومنها: حال المؤمنين وطمأنينة قلوبهم، وأمنهم من العذاب، وأنه رضي بما أُوتِيَ، ورضي الله عنه.

---

(١) عملت: عمل؛ غ.

(٢) ليحيوا: ليحيون؛ غ.

سُورَةُ البَلَد

سورة (البلد) مكية فيما روي، وهي عشرون آية.

وعن أُبيّ بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (البلد) أعطاه الله الأمن من غضبه يوم القيامة».

ولما ختم سورة (الفجر) بالوعد والوعيد وذكر العبد وحال الفريقين، بيّن في هذه السورة ذلك، وبيّن بماذا ينال، وأكد القسم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر وحده: «لُبَّدًا» مشددة الباء على الجمع، مثل: راكع وركّع، وساجد وسجّد، وقرأ مجاهد بضم اللام والباء، كقولك: أمر نُكُرٌ، ورجال جُنُبٌ، والقراء كلهم على ضم اللام وفتح الباء مخففة، وفيه وجهان:

أحدهما: أن تكون جمعًا، واحدها: لِبْدَةٌ.

والثاني: أن تكون على الواحد، مثل: قيم، وليس بمعدول.

اللغة

الحل: ضد الحرام، والحلال والحل سواء.

والكُبَدُ: شدة الأمر، ومنه: تَكَبَّدَ اللبن: إذا غلظ واشتد، ومنه: الكَبِدُ لأنه دم يغلظ ويشتد، وتكبد الدم: إذا صار كالكبد، قال لبيد:

[يَا] عَيْنُ هَلاَّ بَكَيْتِ أَرْبَدَ إِذْ قُمْنَا وَقَام الخُصُومُ في كَبد[1]

والكبد: مصدر كَبِدَ يَكْبَدُ، كَبَدًا إذا اشتكى[2] كبده.

واللبد: الكثير، وهو مأخوذ من: تلبد الشيء، إذا تراكب بعضه على بعض، ومنه اللبد، وتقول العرب: ماله سَبَدٌ ولا لَبَدٌ، إذا وصفوا بالفقر.

والنَّجْدَان: الطريقان، طريق الخير والشر، وأصل النجد: العلو، ومنه: نَجْدُ تهامة لعلوه عن انخفاض تهامة، وكل عالٍ من الأرض نجدٌ، والجمع: نُجُود، ورجل نَجِدٌ بَيِنُ النجد: إذا كان جلدًا قويًا لعلوه على أقرانه، واستنجدت فلانًا فأنجدني أي: استعنته للاستعلاء على خصمي فأعانني، والنَّجْدَان الطريقان العاليان، وشبه طريق الخير والشر بهما لظهوره فيهما.

النزول

قيل: نزل قوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ إلى آخر الآية في رجل من بني جمح يكنى أبا الأشدين، كان شديد القوة، يضع الأديم تحت قدمه، ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فلا يطيق أحد نزعه إلا قطعًا، ويبقى موضع قدمه.

وقيل: إن أبا الأشدين هذا أنفق مالاً كثيرًا في عداوة رسول الله ﷺ، وإياه عني بقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ لقوته.

وقيل: نزلت الآيات في الوليد بن المغيرة، كان يقول: أهلكت مالاً لبدا في عداوة محمد، أي: أنفقت.

(١) اللسان (عدل).

(٢) اشتكى: اشتد، غ.

وقيل: بل نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وذلك أنه أذنب ذنبًا، فأمره رسول الله ﷺ بتكفير، فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات مذ دخلت في دين محمد، والأولى أنها على عمومها، فالمعتبر باللفظ، لا بالسبب.

۞ النظم

يقال: كيف يتصل قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ بما قبله؟

قلنا: فيه وجوه:

منها: كيف يحسب أن لا يراه الله وهو الذي خلقه، وجعل له عينين يرى بهما ولسانًا وشفتين يتكلم بهما.

ومنها: أنه يتصل بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ حيث كلفناه، ولكن أَزَحْنَا علته بأن جعلنا له عينين، وَنَبَّه على سائر الأعضاء.

ومنها: أنه يتصل بقوله: ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ كيف ظن ذلك وقد خلقناه وجعلنا له عينين، وإنما خص هذه الأعضاء؛ لأن العينين بهما[1] يبصر الدلائل، وباللسان والشفتين يتكلم.

ومنها: لما تقدم الحكاية عن الكافر استدل عليه بذلك، وبدأ بالعين لعجيب خلقته في الرؤية، وباللسان لعجيب خلقته في الكلام، وَبَيَّنَ أنه هداه، وإنما أُتِيَ في كفره من جهته.

۞ المعنى

«لاَ أُقْسِمُ» قيل: (لا) صلة والمعنى أقسم، والبلد المشار إليه مكة، عن أبي علي وجماعة، كقولهم: لا، والله لأفعلن، ولا يريدون نفي القسم، قال الشاعر:

وَمــا أَلــومُ الـبِـيـضَ أَلاَّ تَـسْـخَـرا[2]

---

(١) بهما: فيهما، غ.

(٢) البيت قائله أبو النجم العجلي وتمامه:

فـمـا ألـوم الـبـيـض ألا تـسـخـرا   لـمـا رأيـن الـشـمـط الـقـفـنـدرا

اللسان (قفندر).

أي: أن تسخر، قال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥] يعني فوربك، وقيل: (لا) رد لكلام سابق، ثم ابتدأ القسم، تقديره: ليس الأمر كما قالوا، بل أقسم «**بِهَذَا الْبَلَدِ**»، فأما أبو مسلم، فذكر فيه وجهين:

أحدهما: أن لا أقسم بهذا البلد وعظيم حرمته لظهور حرمته، واستغنى المخاطبين عن الدلالة على عظيم محله، وما رفعه الله من درجته، وكان ذلك مشهورًا في العرب، ونطق به الكتاب، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧] فلظهور الأمر فيه استغنى عن القسم، كأنه قيل: «لا أقسم»، فالأمر أظهر من أن يحتاج إلى القسم، والمراد به التعجيب أي: مع عظيم حرمة هذا البلد وما حوله وأمنهم أنت خائف على نفسك يستحلون منك ما هو حرام من غيرك؟!

وثانيها: قال ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ إقسام معظم، وكيف أقسم به معظمًا وأنت مع عظيم محلك وما خصك الله به من الرسالة مضاع الحق، مستحل الحرمة، يعني الأعظم هذا البلد مع كفرهم بك، وإيذائهم إياك.

وقيل: عظم أمر مكة حيث أقسم بها لكون الرسول بها حالاً فيها، وبين أن تعظيمه لها لأجله، كما تسمى المدينة طيبة؛ لأنها طابت به حيًّا وميتًا، ثم اختلفوا، فقيل: القسم بها تعظيمًا لها، وقيل: برب مكة «**بِهَذَا الْبَلَدِ**» هو مكة بالاتفاق «**وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**» قيل: حلال لك قَتْلُ مَنْ رأيت به، وذلك حين أمر بالقتال يوم فتح مكة وأحل له فدخلها كرهًا، وقيل: ساعة[1] ولم تحل لأحد بعده، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعطاء، وابن زيد، والضحاك. قال عطاء: لم يحل إلا لنبيكم ساعة من نهار، وقيل: كان له أن يحل ويحرم، وقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، وروي عن النبي ﷺ أنه خطب وقال: «إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، فلا يعضد شوكها، ولا يقطع شجرها، ولا يختلى خلاها، ولا ينفر صيدها»[2]، وقيل: «**وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**» أي: مقيم فيه وهو مَحِلُّكَ، عن أبي علي. يعني إنما أقسم بهذا البلد بكونك فيها؛

(١) ساعة: جماعة، غ.

(٢) البخاري رقم ١٢٨٤.

لأن كونك فيها يزيدها تعظيمًا، وقيل: «وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ» أي: أنت فيه محسن وأنا عنك راض، عن الحسن. وقيل: بين أن تعظيم البيت باقٍ وإن استحلوا حرمة الرسول؛ لذلك قال: «لا يقطع شجرها ولا ينفر صيدها»، وقيل: كيف أقسم به وأنت حل بها؛ أي: يستحلون بك ويهتكون حرمتك، عن أبي مسلم. وقيل: يحرمون قتل الصيد وقطع الشجر، ويستحلون قتلك؟! عن شرحبيل بن سعد. «وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ» قيل: كل والد، وما ولد: العاقر[١]، عن ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير. وعلى هذا فـ(ما) للنفي، وقيل: آدم وولده، عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وسفيان، وأبي صالح. و(ما) بمعنى الإثبات، وقيل: إبراهيم وولده، عن أبي عمران الجوني. وقيل: كل والد وولده، عن ابن عباس، وأبي علي. وقيل: قسم أريد به النعت على صلة رسول الله ﷺ وحفظه لرحمه[٢]، وإكبار ما أتى قريش في أمره مع أنهم ولد والد واحد ينسبون إليه جميعًا، وفيه مع ذلك دلالة للعباد على أن لهم صانعًا مدبرًا، عن أبي مسلم. «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ» هذا موضع القسم، والمعنى: خلقنا الإنسان «فِي كَبَدٍ» قيل: في نَصَبٍ وشدة، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير. وقيل: يكابد أمر الدنيا والآخرة، عن الحسن، وقتادة. وقيل: يحتاج إلى أن يكابد العيش في الدنيا، ويكابد ما أمر به من فعل الطاعات واجتناب المعصية، عن أبي علي. وقيل: يكابد الشكر على النعم والصبر على المحن، عن الحسن. وقيل: في انتصاب قامته قائمًا على رجليه، عن إبراهيم، وعبد الله بن شداد، ومجاهد، وأبي صالح، وعكرمة، وعطية، والضحاك. كأنه بمعنى شدة قوام، وقيل: «في كبد» في شدة خلق: خلقه[٣] في الرحم وحمله وولادته ورضاعه وفصاله ومعاشه ثم موته، عن ابن عباس. قال الحسن: ليس بشيء من خلق الله يكابد ما يكابده الإنسان في أموره وحياته ومعيشته مع ما يصير إليه من أمر الآخرة، وقيل: الإنسان مع كونه ضعيف الخلق مخلوقًا من ماء مهين، ومع ظهور آيات القهر فيه غليظ الكبد جريء القلب، والعرب تقول لكل جريء: قاس غليظ الكبد، عن أبي مسلم، وأنشد:

---

(١) العاقر: العاقب، غ.

(٢) وحفظه لرحمه: وحفظ برحمة، غ.

(٣) خلقه: خلق، غ.

وَنَـحْـنُ أَغْـلَـظُ أَكْـبَـادًا مِـنَ الْإِبِـلِ[1]

وقيل: في ضيق عيش، عن سعيد بن جبير. وقيل: في مقاسات الأمور، عن ابن كيسان. وقيل: في شدة الأمر والنهي والثواب والعقاب، وقيل: الإنسان: آدم خلق في كبد السماء حتى رفع إلى الجنة، عن ابن زيد. وقيل: في ظلمة وجهل، عن عطاء. وقيل: مضيعًا ما يعنيه، مشتغلاً بما لا يعنيه «**أَيَحْسَبُ**» يعني الإنسان: «**أَن لَن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ**» قيل: من قوته وعدته، وقيل: يحسب أن لن نقدر على إعادته بعد موته، وعلى مجازاته على أعماله، وقيل: المراد بـ(**أحد**) هو الله تعالى، يعني يظنون أنه لا يقدر على هلاكهم، وهذا استفهام والمراد الإنكار، أي: لا يحسبن ذلك، وقيل: على تغيير أحواله اغترارًا بنفسه، وقيل: من قسوته وغلظ كبده يظن ذلك، ويعمل في المعاصي عمل مَنْ أَمِنَ العاقبة، عن أبي مسلم. «**يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا**» يعني هذا الكافر يقول: أهلكت مالاً جمًّا في غير طاعة الله، تندمًا وتحسرًا، عن أبي علي. وقيل: أهلكت مالاً كثيرًا في خلاف محمد، فلم يُغْنِ شيئًا، وقيل: أنفقت مالاً جمًّا على سبيل الافتخار، ويحتمل أن يكون في رجل بعينه وعامًا في جميع[2] من يفتخر بالإنفاق، عن أبي مسلم. وقيل: ماله من أمر بالكفارة على ما تقدم في النزول، وقيل: كأن يقول: أتلفت مالي فمن يحاسبني به، ألم يعلم أن الله قادر على محاسبته، وقيل: «لبدًا» كثيرًا، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد. «**أَيَحْسَبُ أَن لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ**» يقول: أنفقت المال العظيم في غير مرضاة الله، ويظن أن لم يره أحد؛ أي: لا يؤاخذه بإنفاقه أحد، وقيل: افتخر بكثرة الإنفاق ظانًّا أن الله لا يعلم حاله، وقيل: أيحسب أن لم يره أحد، فيطالبه من أين اكتسبه وفيماذا أنفقه عن قتادة، وسعيد بن

(١) البيت قائله المخبل السعدي، وتمامه:

يبكي علينا ولا نبكي على أحد لـنـحـن أغـلـظ أكـبـادا مـن الأبـل

أساس البلاغة (غلظ)، شعر المخبل السعدي، جمعه: حاتم الضامن، عالم الكتب، ١٩٨٧؛ ديوان الحماسة (٢/ ١٥٢).

(٢) جميع: جميعهم، غ.

جبير. وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «لا تزول قدما العبد حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه؟ وعن ماله [من] أين جمعه وفيماذا أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل به؟ وعن حبنا أهل البيت»(١)، وقيل: يحسب أن لا بعث ولا حساب على ما أنفق، وقيل: (أحد) أراد: محمدًا ﷺ يعلم مقدار نفقته، وهو يكذب فيما يقول: أنفقت «**أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ**» يعني ألم نبصره أمره بأن جعلنا له عينين يبصر بهما، وهذا استفهام، والمراد التقرير، أي: جعلنا له عينين، فيهما دلائل صنعه، وآثار حكمته ونعمته، وقال قتادة: إنما يقرر كي تشكر «**وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ**» بهما يتكلم «**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**» الطريقين، قيل: طريق الخير والشر، عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، ونظيره: ﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، وقيل: أرشدناه للتدبير، عن ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والضحاك. والمعنى أنه أكمل عقله ونصب الأدلة ونبهه عليها حتى تمكن من العمل بالخير والشر، وإنما ذكر النجد؛ لأنه بالعقل يطلع على هذه الأحوال كمن صعد مكانًا مرتفعًا يطلع على الأماكن القريبة والبعيدة.

الأحكام

تدل الآيات على تعظيم مكة خصوصًا عند حلوله فيها، وكونه بها؛ لأن عند ذلك تتضاعف الحرمة.

وتدل على عظيم نعمه تعالى بالإنسان، وما يتكامل به من النعم والقربات(٢)، فتدل أنه خلق الإنسان في الدنيا للشدة والصبر عليها.

وتدل أنه محفوظ عليه عمله.

وتدل أنه بَيَّنَ طريق الخير والشر، وأن العبد مُمَكَّنٌ من الأمرين على ما نقوله، خلاف ما يقوله أهل الجبر في المخلوق والاستطاعة والإرادة.

---

(١) المعجم الكبير رقم ١١١٧٧.

(٢) والقربات: والقرابات؛ غ.

قوله تعالى:

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾﴾

القراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي والحسن وأبو رجاء العطاردي: «فَكَّ» بنصب الكاف على فعل ماض، «رقبةً» بالنصب على أنه مفعول «أو أَطعَمَ» بفتح الألف والميم بغير ألف بين العين والميم على أنه فعل ماض[١]، وقرأ الباقون: «فكُّ رقبةٍ» برفع الكاف «رقبةٍ» بالكسر على الإضافة «أو إِطعامٌ» بكسر الألف ورفع الميم وألف بين العين والميم، فالأول: رد لقوله: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، ولقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾، والثاني: على جواب: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ فيكون الجواب بالاسم، ورفع «فَكُّ» على الابتداء والخبر، كأنه قيل: هي فك رقبة.

قراءة العامة: «ذي مسغبة» نعت لليوم، وقرأ الحسن وأبو رجاء العطاردي: «ذا مسغبة» يعني أطعم ذا مسغبة[٢].

وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم وعبيد بن عمير وخلف بن هشام: «مؤصدة» مهموزة، وكذلك في سورة (الهمزة)، والباقون غير مهموزة في السورتين[٣]، وروي عن يعقوب الهمز وترك الهمز، وروي عن حمزة الهمزة، وقيل: هما لغتان، وقيل بالهمز معناه: المطبقة، وبغير الهمز: المغلقة، ومنه قيل للباب: وصيد.

(١) حجة القراءات ٧٦٤.
(٢) القرطبي ٢٠/ ٦٢
(٣) حجة القراءات ٧٦٦.

اللغة

الاقتحام: الدخول على شدة، اقتحم يقتحم اقتحامًا، وأقحم إقحامًا[1]، وتَقَحَّم تَقَحُّمًا، ونظيره: الإيلاج والإدخال.

والعقبة: الطريقة التي ترتقى على صعوبة، وتحتاج منه إلى معاناة للشدة والضيق، عاقب الرجل صاحبه إذا صار في موضعه بدلاً منه، ومنه: العاقبة والعقاب، وقيل: العقبة النشئة[2] الضيقة في رأس الجبل يتعاقبها الناس شبهت بها[3]، يقال: النفقة في وجوه البر لشدته.

والفك: فرق يزيل المنع كحل العقدة، وفك الغل والقيد، وفك الرقاب: حلها من الرق، وفك الرهن.

والمَسْغَبَةُ: المجاعة، سَغِب يَسْغَبُ سَغَبًا: إذا جاع، وهو ساغب، قال جرير:

تُـعَـلِّـلُ وَهْـيَ سـاغِـبَـةٌ بَـنِـيـهَـا بِـأَنْـفَـاسٍ مِـنَ الـشَّـبِـمِ الـقَـرَاحِ[4]

وذا مقربة: القريب، يقال: فلان ذو قرابتي، ولا يقال: فلان قرابتي؛ لأنه مصدر، قال الشاعر:

يَبْكِي الْغَرِيبُ عَلَيْهِ لَيْسَ يَعْرِفُهُ وَذُو قَرابَتِهِ فِي الْحَيِّ مَسْرورُ[5]

والمقربة: القرابة.

والميمنة والبركة من النظائر، وأصله من اليُمْنِ.

والمَرْحَمَةُ: حال الرحمة.

والمشأمة: ذات الشمال، أخذت من الشؤم خلاف البركة.

والمُوصَدَةُ: المطبقة، وفيها لغتان: أَوْصَدْتُ الباب أُوصِدُهُ إيصادًا فهو مُؤْصَدٌ بالهمز، وأوصدته فهو مُوصَدٌ بلا همز، والوصيد الباب من: أوصدت.

---

(١) واقحم إقحاماً: واقتحم اقتحاما، غ، والصواب ما أثبتناه من: التبيان في تفسير القرآن للطوسي ١٠/ ١.

(٢) الكلمة في غ غير واضحة. وما أثبتناه من: تفسير التبيان ١٠/ ٣٥٤.

(٣) بها: زيادة من: تفسير التبيان ١٠/ ٣٥٤.

(٤) اللسان (نفس).

(٥) البيت قائله حريث بن جبلة العذري، اللسان (دهر).

الإعراب

نصب «يتيمًا» و«مسكينًا» بـ «(إطعام)».

و«ذا مقربة» نعت لليتيم.

و«ذا متربة» نعت للمسكين.

«موصدة» نعت للنار.

المعنى

لما بَيَّنَ تعالى أنه هدى إلى النجدين طريق الخير والشر، بيّن طريق الخير بلفظ العقبة لشدتها على النفس، ثم بين حال الفقير، فقال تعالى: «فَلَا اقْتَحَمَ» أي: ما دخل، وفيه أقوال:

الأول: أنه دعاء عليه بألاّ يقتحم تلك العقبة، والمراد به الشدة والمشقة، كما يقال: لا غفر الله له، وفي خبر الجمعة: فلا جمع الله شمله ولا بارك الله في أمره، والمعنى: لا نجا من تلك المشقة، ولا جاوزها إلى الرجاء، والمراد العذاب.

والثاني: أنه إخبار عنه بأنه لم يفعل ذلك؛ لأن (لا) متى قرن بلفظ الماضي كان المراد به الخبر، قال الشاعر:

وَأَيُّ عَـــبْـــدٍ لَـــكَ لاَ أَلَـــمَّـــا[(١)]

أي: لم يلم بذنب، فالمعنى قيل: إنما يخبر لأنه لم يقتحم العقبة بعد، ولو اقتحم لما أخبر، وقيل: لم يجاوز هذا الإنسان العقبة، فكيف يأمن ولم يجاوز العقبة؟ وهي ما فسر من فعل، فكأنه قيل: كيف يأمن ولا اقتحم العقبة، ولا فك الرقبة، ولا أطعم يتيمًا، وبهذه الأحوال يسهل اقتحام العقبة، قال الفراء: لم يكرر (لا) في اللفظ، وهي بمنزلة المكرر في المعنى، كأنه قيل: فلا اقتحم العقبة، ولا فك الرقبة ولا أطعم.

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت، وتمامه:

إن تـغـفـر اللـهـم تـغـفـر جـمـا   وأي عـــبـــد لـــك لا ألـــمـــا

الصحاح (لمم)، اللسان (لمم).

والثالث: أنه استفهام، أي: هلا اقتحم العقبة؟ عن ابن زيد، وأبي علي، وأبي مسلم، وجماعة من المفسرين، فكأنه لما مكنه وكلفه قال: هلاّ[1] اقتحم العقبة وفك الرقبة وأنفق الأموال في سبيل الله، قال أبو مسلم: معناه: هلا تكلف ما يشق ويشتد.

فأما «الْعَقَبَةَ» ففيه ثلاثة أقوال:

أولها: أنه تشبيه وتوسع، والمراد ما شق على الأنفس، ثم اختلفوا، فقيل: هلا عرف الإنسان ما أنعم الله عليه وأمر به، وعمل الصالحات، وفك الرقبة، وأطعم إلى غير ذلك ليحصل له الثواب، والعقبة هذه الأشياء، واقتحامها ومجاوزتها: فِعْلُها، عن أبي علي. وقيل: هلا تكلف الشدة؟ ثم فسره بما بعده: فك رقبة والإطعام، عن أبي مسلم. وعن الحسن: عقبة والله شديدة، مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان، وقيل: هلا أنفق ماله في هذه الأشياء ليجاوز بها العقبة فيكون خيرًا له، وإنفاقه في عدواة محمد ﷺ، وقيل: شبه عظيم الذنوب بالعقبة، فإذا تاب وعمل الصالحات فقد جاوزها، فكأنه قيل: هلا فعل من الطاعات والتوبة ليجاوز بطاعاته وتوبته تلك العقبة، وقيل: هلا سلك الطريق الذي فيه النجاة؟ عن ابن زيد.

وثانيها: أنه عقبة في الحقيقة، ثم اختلفوا، فقيل: جبل في جهنم، عن ابن عمر، وقيل: هي سبعون دركة في جهنم، عن كعب. وقيل: عقبة شديدة في النار فاقتحموها بطاعة الله، عن الحسن، وقتادة.

وثالثها: هو الصراط يضرب على جهنم، عن مجاهد، والضحاك، والكلبي.

«وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ» قيل: قال ذلك تفخيمًا وتعظيمًا، وقيل: لا تدري ما هي إلا أن نبينها لك، قال سفيان بن عيينة: كل شيء قال: (وما أدراك) أَخْبَرَهُ به، وما قال: (وما يدريك) لم يخبره به.

ثم فسر ذلك فقال سبحانه: «فَكُّ رَقَبَةٍ» قيل: فك رقبتة من الذنوب بالتوبة، عن عكرمة. وقيل: أراد فك نفسه من العقاب بتحمل الطاعات، عن أبي علي. وقيل: «فَكُّ رَقَبَةٍ» أي: أعتق الرقاب من العبيد والإماء وحررها، عن أكثر المفسرين، وهو قول أبي علي وأبي مسلم. «أَوْ إِطْعَامٌ» إعطاء الطعام «فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ» أي: مجاعة

(١) هلاّ: هذا، غ.

«يَتِيمًا» الذي مات أبوه وهو طفل، ويستعمل فيمن ماتت أمه «ذَا مَقْرَبَةٍ» أي: ذا قرابة «أَوْ مِسْكِينًا» فقيرًا «ذَا مَتْرَبَةٍ» المتربة بقعة التراب، أي: مطروح في التراب لا يواريه عن الأرض شيء، يعني لا شيء له، عن ابن عباس، ومجاهد. وقيل: المتربة شدة الحاجة من قولهم: ترب الرجل: إذا افتقر، عن ابن عباس، وابن زيد. وقيل: ذا متربة قد لصق بالتراب من الفقر، فليس له ما يقي نفسه من التراب، عن أبي علي. قال أبو مسلم: أراد المفرط في الفقر، تقول العرب: فقر مُدْقِعٌ، أي: يلحق صاحبه بالدَّقْعَاءِ وهو[1] التراب، فكان ذا متربة تلحقه التراب «ثُمَّ كَانَ» مع ذلك «مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا» قيل: (ثم) بمعنى الواو؛ أي: وكان من الذين آمنوا، والإيمان يشتمل على جميع الطاعات «وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» وصى بعضهم بعضًا بالصبر على الطاعة وعن المعصية «وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ» أي: بالرحمة على المؤمن من أهل الحاجة أو القرابة أو المظلومين «أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» قيل: يأخذون كتبهم بأيمانهم، وقيل: يؤخذ بهم ناحية اليمين، كلا الوجهين ذكره أبو علي. وقيل: أصحاب اليُمْن[2] والبركة، عن الحسن، وأبي مسلم. «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» قيل: يأخذون كتبهم بشمالهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال، عن أبي علي. وقيل: أهل الشؤم، عن أبي مسلم. «عَلَيْهِمْ نَارٌ مُوصَدَةٌ» قيل: مطبقة، عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك. وقيل: مغلق بابها وهو الوصيد، وذلك لتأكيد اليأس من الرَّوْحِ، عن أبي علي.

❁ الأحكام

يدل قوله: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ على الحث على مجاهدة النفس في عمل الطاعة، واجتناب المعاصي، وقمع الهوى والمعصية جملة، فَصَّلَها الله بعدها، وبين أن مجاوزتها بما عَدَّ من الأشياء.

ويدل قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ على عظم حال عتق الرقبة، وروي أن النبي ﷺ سأله سائل عن عمل يبلغه الجنة فقال: «عتق النسمة، وفك الرقبة»[3]، فقيل: يا رسول الله،

---

(١) وهو: هو، غ.

(٢) اليُمن: اليمين، غ. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان للطبرسي ١٠/٣٢٦.

(٣) المستدرك رقم ٢٨٦١.

أليس هما سواء؟ فقال ﷺ: «لا، عتقها الانفراد بها، وفكها أن تعين فيها».

ويدل قوله: ﴿أَوۡ إِطۡعَـٰمٞ﴾ على فعل الإطعام، وخص ذوي القربى لزيادة فضله وهي صلة الرحم.

ويدل قوله: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا﴾ على فعل الإنعام إلى ذوي الحاجات.

ويدل قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ أن الطاعة إنما تنفع مع الإيمان، والأمر بالمعروف ومجموع ذلك، فيكون من أصحاب الميمنة، خلاف قول المرجئة.

وتدل على وجوب الأمر بالمعروف، والدعاء إلى الله.

ويدل آخر الآيات على وعيد الكفار.

وتدل أن عتق الرقبة والإطعام، والإيمان، والتواصي فعل العبد.

سُورَةُ الشَّمْسِ

سورة (الشمس) مكية فيما روي، وهي خمس عشرة آية إلا في البصري فإنها ست عشرة آية.

وعن أُبيّ، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ فكأنما تصدق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر».

ولما بين في سورة (البلد) أن الفلاح بالطاعة، والعقاب لمن دس نفسه، فعبر في هذه السورة عن الطاعات بالتزكية، وفي تلك السورة بالعقبة، والمعنى واحد، فاتصلت بها اتصالَ اِلْمثلِ بالمثلِ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾

القراءة

قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم: «**ضحاها**» و«**تلاها**» وسائر أواخر الآي إلى آخر السورة بالفتح والتفخيم، وقرأ الكسائي كلها بإضجاع[1] ذلك، وقرأ أبو عمرو ونافع

---

(١) قال السيوطي: الإمالة: أن ينحو بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء كثيرا، وهو المحن، ويقال له: الإضجاع: البرهان. ١/ ٢٤٤.

جميع ذلك بين الكسر والإمالة و ﴿تَلَـٰهَا﴾، ﴿وَضُحَـٰهَا﴾ بالفتح، أما الإمالة فللتخفيف، والفتح الأصل، وما بين ذلك للتخفيف والإشعار بالأصل، وأما حمزة فأمال ما كان من بنات الياء، وفتح ما كان من بنات الواو.

اللغة

ضُحَى الشمس: صدر وقت طلوعها، وكذلك وقت ضحى النهار، وهي صدر وقت كونه، وأضحى يَفعل[1] كذا: فَعَلَهُ وقت الضحى، ومنه: ضحّى بكبش؛ لأنه يذبح في وقت الضحى من أيام الأضحى، ثم كثر حتى قيل له وإن ذبح آخر النهار: ضَحَّى.

والطحو: البسط، طَحَاَ يَطْحُو طَحْوًا[2]، ودحا يدحو دحوًا بمعنى، وطحا بك هَمُّكَ أي: انبسط لك إلى مذهب بعيد، قال الشاعر:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبُ[3]

والطواحي: النسور تنبسط حول القتلى.

قال أبو مسلم: الإلهام والالتهام بمعنى، وسواء قولك: الإلهام والإلقاء والإملاء والإيماء[4] وهو التفهيم والتلقين.

والتزكية: التطهير، زَكَّى يُزَكِّي تزكية.

ودس نفسه نقيض زكَّاها، كأنه دسها بالعمل الفاسد حتى صيرها في إجحاف وخسران، دَسَا فلان يَدْسُو دُسُوًّا، ودَسْوًا، فهو دَاسٍ، نقيض زكا يزكو زكاءً فهو زاكٍ.

---

(١) يفعل: يقول، غ.

(٢) طحا يطحو طحوا: طحا يصحوا صحوا؛ غ. والصواب ما أثبتناه من تفسير التبيان ١٠/٣٥٨.

(٣) البيت قائله علقمة الفحل، وتمامه:

طحا بك قلب في الحسان طروب ... بعيد الشباب عصر حان مشيب

ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشمنتري، تحقيق لطفي السقال ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب، ١٩٦٩. العين (طحو).

(٤) والإلقاء والإملاء والإيماء: والإلقام والالتهام والإلتقام، غ.

الإعراب

الواو في قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾ ونظائرها واو القسم ولذلك كسر ما بعدها، وما بعده معطوف عليه، وحروف القسم ثلاثة: الباء وهو الأصل، ثم الواو فرع عليه، ثم التاء فرع على الواو، فلا تدخل إلا على اسم الله تعالى كقوله: ﴿تَٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٧٣].

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ﴾ ، قال الخليل: اللام مضمر فيه، أي: لقد أفلح، وقيل: بل فيه تقديم وتأخير، تقديره: قد أفلح من زكاها والشمس وضحاها.

والضمير في ﴿جَلَّىٰهَا﴾ قيل: يعود على الشمس، وقد تقدم ذكرها يعني بضوئه المبين لجرمها، وقيل: يعود على الكناية عن الظلمة، ولم تذكر لأن معناه معروف كقولهم: أصبحت باردة، وأمست عاصفة، فكنى عن أشياء لم يَجْرِ لها ذكر، واختلفوا، فقيل: القسم بالشمس لما فيه من الدلالة والنعمة، وقيل: فيه إضمار، أي: برب الشمس.

المعنى

«**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا**» قيل: ضوؤها، عن الحسن، ومجاهد. وقيل: النهار كله، عن قتادة. وقيل: حرها، كقوله: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾ [طه: ١١٩]، عن مقاتل. وقيل: طولها وارتفاعها في الضحى أي: أول النهار، وأفولها وانحطاطها بعد الزوال، عن أبي مسلم. وقيل: طلوعها عن مشرقه، ثم إشراقها «**وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا**» أي: تبعها، يعني: تبع الشمس، قيل: تبعها في الضوء، وأخذ من ضوئها، وقيل: في الطلوع والغروب، وقيل: والقمر إذا تبع الشمس في نصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر في الطلوع، وفي آخر الشهر بالغروب يتلوها، عن ابن زيد. وقيل: طلع بعدها، عن أبي علي، وأبي مسلم. وقيل: «**وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا**» ليلة الهلال، عن الحسن. «**وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا**» وقيل: النهار إذا جلى الشمس، وأنارها، وكشفها بِإِضاءَتِها؛ لأن النهار إنما يكون بالضياء والشمس، عن أبي علي، وأبي مسلم، وجماعة. وقيل: فالنهار إذا جلى الظلمة بأن يزيلها حتى يتجلى كل شيء لشروقه، كناية عن غير مذكور، عن الفراء وجماعة. «**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا**» أي: يغطي الشمس حين الغروب فيسترها من أعين الناظرين، وتظلم الآفاق، ولا يجوز أن يرجع إلى

النهار؛ لأنه لا يؤنث[١]«وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا» وما[٢]: المصدر، أي: وبنائها، يعني: بخلقها ورفعها وإسكانها وتزيينها بالكواكب، كقوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ [يس: ٢٧]، عن قتادة. وقيل: ومن بناها، عن الحسن، ومجاهد، كقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ [النساء: ٢٢]، «وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا» أي: ومن بسطها، عن الحسن، ومجاهد، وأبي علي. لتكون مستقرًّا للخلق، وقيل: وطحوها، عن قتادة. وقيل: وخَلْقِ ما[٣] فيها «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا» أي: تسويتها بأن عدل خلقها وأعضاءها وحواسها ومجاريها، عن قتادة، وأبي علي. وقيل: ونفس وما سواها الله، والسماء وما بناها الله، عن الحسن. وقيل: أقسم بالسماء ومن بناها، والأرض ومن دحاها، والنفس ومن سواها «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» أي: بين لها الخير والشر، وعرفها الفجور والتقوى، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وسفيان، والضحاك. والفاء في قوله: «فألهمها» عطف على قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ يعني: سواها وألهما، عن أبي مسلم. وقيل: معناه أن النفس التي سواها هي النفس التي ألهمها، عن أبي علي. «قَدْ أَفْلَحَ» هذا موضع القسم، وتقديره: لقد أفلح، فحذف اللام لدلالة الكلام عليه، ومعنى أفلح: فاز وظفر بالبغية «مَنْ زَكَّاهَا» قيل: طهرها بأعمال الطاعة، وتجنب المعاصي، عن أبي علي. قال أبو مسلم: لأن التزكية التطهر من الذنوب، وقيل: من زكى نفسه بعمل صالح، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: قد أفلح من زكى الله نفسه، عن جماعة، ثم اختلفوا، فقيل: بأن حكم بطهارتها، وقيل: طهرها بالتوفيق والألطاف والتأييد التي عندها اختار الطاعة «وَقَدْ خَابَ» خسر وانقطع أمله «مَنْ دَسَّاهَا» قيل: الضمير يعود على النفس، أي: دسَّى نفسه بالمعاصي بأن حمله عليها، عن الحسن. وقيل: دساه الله، ثم اختلفوا، فقيل: حَكَمَ [عليه] بذلك، وقيل: [صف] له بالخذلان لما علم أنه لا لطف له، واختلفوا في معنى «دَسَّاها» قيل: دسس نفسه منهمكًا في معاصي الله مُصِرًّا على الذنوب أي: أدخلها، يعني: صار مدسوسًا فيه؛ أي: داخلاً، والياء[٤] بدل من السين، فقد ذكر دَسَّى، والمعنى: دسس، والعرب تبادل هذه

(١) لأنه لا يؤنث: لأنها لا تؤنث، غ.
(٢) ما: فأما، غ.
(٣) ما: وما، غ.
(٤) لعله يقصد الألف المقصورة في (دسا).

الحروف، عن أبي علي. وقيل: أوردها المعاصي وانغمس واندس فيها، عن أبي مسلم. وقيل: دَسَّسَها، يعني: أخملها[1] وأخفى محلها ووضع منها بمعصية كما يقال: تَظَنَّيْتُ وتَظَنَّنْتُ، وقال الشاعر:

تَقَضِّيَ الْبَازِي إِذَا الْبَازِي كَسَرْ[2]

أي: تقضض، وقيل: أفلح من زكاها برفع الغمة، وخاب من دساها بوضع الغمة، روي ذلك عن زيد بن علي (عليه السلام)، وقيل: دساها أبطلها، وأهلكها، عن ابن عباس.

فأما ما روي عن سعيد بن جبير ومجاهد: زكاها: أصلحها وطهَّرها، ودساها: أضلها وأغواها، إن كان الكناية عن النفس، أو عن الله تعالى فهو على ما قدمنا، وعن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكها أنت خير من زكاها»[3].

۞ الأحكام

يدل القسم بهذه الأشياء على عظم محلها في القدرة والنعمة، سواء حمل على القسم على أنه بها أو بخالقها، فذِكْرُها ينبه على ما ذكرنا.

ويدل [قوله]: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ أنه تعالى بَيَّنَ لجميع المكلفين طريق الخير والشر، وأنه مكَّنهم من الأمرين.

ويدل قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أن الفلاح يحصل بمجانبة المعاصي، وبتطهير النفس عنها، والأولى أن تحمل الكناية على النفس؛ لأنه المذكور قبله.

ويدل قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أن الخيبة إنما تحصل بالمعاصي، وكل ذلك ترغيب وترهيب.

---

(١) أخملها: أحلها، غ وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان: ١٠/ ٣٣٠.

(٢) كسر: انكسر، غ؛ البيت قائله العجاج، وتمامه:

أبصر خربان فضاء فانكدر تقضي الباز إذا البازي كسر

انظر: الصحاح (قضي)، اللسان (كسر)، تاج العروس (كسر).

(٣) الترمذي رقم ٥٤٥٨.

قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر: «**فلا يخاف**» بالفاء، وكذلك في مصاحفهم، الباقون: «**وَلاَ يَخَافُ**» بالواو[١].

وقراءة العامة: «**بِطَغْوَاهَا**» بفتح الطاء، وعن الحسن وحماد بن سلمة بضم الطاء، وهما لغتان نحو: الفَتوى والفُتوى[٢].

قراءة العامة: «**فدمدم**»، وعن ابن زبير: (**فدهدم**)[٣] وقد تبدل الهاء بالميم، ولا يجوز القراءة إلا بالظاهر المستفيض.

اللغة

الطغوى: مجاوزة الحد في الفساد والعصيان، وقيل: بناؤه (فَعْلَى) من الطاغية نحو التقوى.

الانبعاث: القيام، ومنه: البعث.

والشقاء: شدة الحال في مقاساة الآلام، والأشقى: الأعظم شقاء، ونقيض الشقاء: السعادة، شَقِيَ يَشْقَى شقاءً فهو شقيّ، وأشقاه الله يُشْقِيهِ إشقاءً.

والسُّقْيا: الحظ من الماء، وهو النصيب منه، كما قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ﴾ [الشعراء: 155].

(١) حجة القراءات ٧٦٦.
(٢) القرطبي ٢٠/ ٧٠.
(٣) القرطبي ٢٠/ ٧١.

والعَقْرُ: أصله نقض شيء من بنية الحيوان، عَقَرَهُ يَعْقِرُهُ عَقْرًا فهو عاقر: إذا قطع منه اللحم وسال الدم.

والدمدمة: ترديد[1] الحال المتكرهة، وهي مضاعفة لما فيه من المشقة، يقال: دم ودمدم، كما يقال: صرّ وصَرْصَرَ.

۞ الإعراب

﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ نصب على الإغراء؛ أي: عليكم ناقة الله، واحذروا ناقة الله، كما يقال: الأسدَ الأسدَ.

والهاء في قوله: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ ترجع إلى (ثمود)، وهي قبيلة؛ لذلك أنَّث.

والهاء في ﴿عُقۡبَٰهَا﴾ قيل: ترجع إلى الدمدمة، وقيل: ترجع إلى الجناية على الناقة.

۞ المعنى

لما تقدم حال من ارتكب المعاصي عقبه بذكر قصة ثمود تأكيدًا لها، فقال سبحانه: «**كَذَّبَتْ ثَمُودُ**» الرسل «**بِطَغْوَاهَا**» قيل: بمعصيتها ومجاوزتها الحد في العصيان، أي لِمَا كان معهم من الكفر والطغيان، يعني لطغيانهم كذبوا، كما قال: بجهلك فعلت، ولجهلك فعلت؛ أي: لأنك جاهل، في معنى قول مجاهد، وابن زيد، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: كذبت بجزاء طغواها، يعني بالحساب والبعث والجزاء، عن أبي مسلم. وقيل: بعذابها، عن ابن عباس. كأنه قيل: بعذاب الطاغية، فأتاها ما كذبت به، وروي عنه أن اسم العذاب الذي جاءهم الطغوى، كأنه جاوز الحد «**إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا**» أي: قام أشدها شقاوة، وهو قدار بن سالف، عاقر الناقة، وكان رجلاً أشقر أزرق[2] قصيرًا، وقيل: الانبعاث: السعي في الأمر بالجد، ومعنى «**أشقاها**» أي: أشقى تلك القبيلة؛ لأنه تولى عقرها من بينهم، فأهلك نفسه

---

(١) ترديد: تريد، غ. وما أثبتناه من تفسير التبيان ١٠/ ٣٦١.

(٢) أشقر أزرق: أشقراً أزرقاً، غ.

وقبيلته، فصاروا أشقياء، وكان عذابه أعظم، فكان أشقى «**فَقَالَ لَهُمْ**» أي: لثمود «**رَسُولُ اللَّهِ**» صالح حين بلغه أنهم قصدوه، وعزموا على قتلها: لا تفعلوا «**نَاقَةَ اللَّهِ**» أي: احذروا ناقة الله أن تتعرضوا لها، وإنما أضاف الناقة إلى الله؛ لأنه خلقها من غير واسطة، دلالة على توحيده، ومعجزة لنبيه صالح، وقيل: لأنه لا مالك لها[1] سواه «**وَسُقْيَاهَا**» أي: احذروا أن تمنعوا سقياها؛ أي: نصيبها من الماء، وكان لها شرب، ولهم شرب، وقيل: أمر العوام عجيب، نحت سامري عجلًا فعبدوه، وسألوا أن يخلق الله لهم ناقة، فخلقها، فقتلوها «**فَكَذَّبُوهُ**» أي: كذبوا صالحًا فيما أوعدهم به «**فَعَقَرُوهَا**» يعني: الناقة؛ لأنه عقرها واحد برضا الباقين، فكانوا أراذلة[2]، وقيل: عَقْرُها: تكذيبُهُ، وقيل: بل هو غيره، وهو الصحيح «**فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ**» قيل: دمر عليهم، وأهلكهم، وأنزل بهم العذاب، عن أبي علي. وقيل: الدمدمة هي الصيحة الشديدة، أي فأخذتهم الصيحة، وهو أمر الله بإهلاكهم، عن أبي مسلم. وقيل: غضب عليهم، وقيل: صاح بهم جبريل صيحة أهلكتهم، وقيل: الدمدمة هلاك باستئصال، عن أبي علي. «**بِذَنْبِهِمْ**» أي: فعل ذلك بهم لأجل ذنبهم، وهو تكذيبهم رسوله، وعقرهم الناقة، فالذنب كان سبب هلاكهم «**فَسَوَّاهَا**» قيل: سوى الدمدمة عليهم، وعمهم بها، فلم ينج منهم أحد، وقيل: سوى بيوتهم على قبورهم، وقيل: سوى بين صغيرهم وكبيرهم، وقيل: سوى الأبنية والحيطان والأشجار والقوم بالأرض حتى لا يرى لهم أثر، عن أبي علي، وأبي مسلم. «**وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا**» قيل: لا يخاف الله تبعة الدمدمة، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد، وأبي علي، وأبي مسلم. أي: لما فعل بهم ذلك لم يخف جزاء وعاقبة ولا انتقامًا من أحد، وقيل: لم يخف عاقر الناقة عقباها أي: عقبى ما فعل بالناقة، عن الضحاك، والسدي، والكلبي. وفيه تقديم وتأخير؛ أي: انبعث لعقرها أشقاها، ولا يخاف عقباها، وقيل: لا يخاف الله عاقبة ذلك؛ لأنه لا يعقب على[3] حُكمِهِ [و] لا يخاف أن يَعقبُه ذلك بأنه ظلمهم، وهو قادر

---

(١) لها: له، غ.

(٢) أراذلة: أرذلة؛ غ.

(٣) ما بين المعكوفين كلمة غير واضحة في غ.

لذاته، لا يقدر أحد على منعه ومجازاته، فلا يخاف الانتقام، وقيل: هذا تحقير لهم، أي: هم أخس وأذل وأهون من أن يخشى الله عاقبة هلاكهم، وقيل: لا يخاف صالح النبي ﷺ عقبى هذا العذاب؛ لأنهم استحقوه[1] بكفرهم، وهو كان مؤمنًا فلم يخف، حكاه القاضي.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أن ثمود طغوا وكذبوا رسول الله، وخالفوا أمر الله، وعقروا الناقة، فأهلكهم الله، فتدل أن الطغيان والعقر فعلهم، وأن العقاب مستحق لهم على أعمالهم.

وتدل على أن صالحًا وعظهم، فلما لم ينجع فيهم أهلكهم الله، فتدل من هذا الوجه على وجوب التفكر، وقبول قول الواعظ.

وتدل على تحريم أذى المؤمنين؛ لأن المؤمن أعظم حرمة من ناقة، فإذا كان عاقرها يستحق العذاب فهذا أولى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ [بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا]﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وتدل أن كل ما كان مستحقًّا فغير المستحق لا يخافه؛ لذلك لم يخف النبي صلى الله عليه تلك العاقبة.

(١) استحقوه: استحقوهم، غ.

سُورَةُ اللَّيْلِ

سورة (الليل) مكية فيما روي، وهي إحدى وعشرون آية.

وعن أُبَيّ، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ أعطاه الله حتى يرضى، وعافاه الله من العسر، ويسر له اليسر».

ولما تقدم في السورة المتقدمة بيان حال المؤمن والكافر، وما فعل بهما، أتبعه بمثل ذلك في هذه السورة.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢﴾

القراءة

قراءة العامة: «**وما خلق**»، وعن ابن مسعود وأبي الدرداء وعلقمة: «**والذكر والأنثى**»، ولا يجوز القراءة إلا بالظاهر؛ لأن القرآن لا يثبت بالآحاد[1].

(١) القرطبي ٢٠/ ٧٣.

۞ اللغة

أصل الغشاء: الستر، ومنه: الغاشية والغِشْيان.

والتجلي: الإنارة والوضوح.

والسعي: العمل والاكتساب.

وشتى: متفرق على تباعد ما بين الشيئين، ومثله: شتان، أي: بَعُدَ بينهما، وتشتت أمرهم، وشتتهم ريب الزمان.

والحسنى: تأنيث الأحسن، وهي النعمة العظمى لحسن موقعها.

واليسرى: تأنيث الأيسر، كما أن الصغرى تأنيث الأصغر، والكبرى تأنيث الأكبر، واليسر: الرخاء والسعة، ونقيضه: العسر؛ لأن عنده يسهل العيش، والتيسير والتسهيل والتخفيف نظائر، ونقيضه: التعسير وهو تصيير الأمر صعبًا، ومنه: أَيْسَرَ يُوسِرُ: إذا كثر ماله؛ لأن بالمال تُيَسَّرُ الأمور.

والعسرى: البلية العظمى، وهي تأنيث الأعسر، وأصله العسر، خلاف اليسر.

والتردي: السقوط من علوٍّ إلى سُفُل، ويجوز أن يكون (تَفَعّل) من الردى، وهو الهلاك.

۞ الإعراب

(ما) في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ﴾ ما المصدر، تقديره: وخَلْقِ الذكرِ والأنثى، وقيل: بمعنى (الذي)، عن الحسن.

۞ النزول

اختلفوا في سبب نزول قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ على ثلاثة أقوال:

أولها: أنها نزلت في أبي بكر.

وثانيها: أنها نزلت في رجل من الأنصار.

وثالثها: أنها عام في جميع من كان بهذه الصفة.

فأما من قال: إنها نزلت في أبي بكر اختلفوا: فقيل: إنه أسلم، وله من المال أربعون ألفًا فأنفقها كلها، وأعتق سبعة، كلهم يعذَّب: بلال، وعامر بن فهيرة، والنهدية، وزِنِّيرَة، وأم عميس، وغيرهم، عن عروة بن الزبير.

وقيل: لما أسلم بلال ذهب يسلح على الأصنام، وكان عبدًا لعبد الله بن جدعان، فشكوه إليه، فوهبه منهم، فجعلوا يعذبونه، وهو يقول: أحد أحد، فمر به النبي ﷺ فقال: «ينجيك أحد أحد» ثم أخبر أبا بكر، فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب وابتاعه وأعتقه، عن ابن عباس.

وقيل: لما سافر أبو بكر قال أمية بن خلف: نبيعه بعبدك نِسْطَاس، وكان عبدًا روميًا لأبي بكر صاحب عشرة آلاف[1] دينار، ودعاه أبو بكر إلى الإسلام فأبى، فلما قال أمية ذلك باعه به، فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ذلك إلا[2] ولبلال عنده يد، فنزل فيه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أي: ممن أعتقهم، عن سعيد بن المسيب.

وقيل: كانت الزِّنِّيرة لبني عبد الدار، أسلمت فَعَمِيَتْ، فقالوا: أعمتها اللاتُ والعزى، فقالت: كفرتُ باللات والعزى، فرد الله عليها بصرها، وَمَرَّ بها أبو بكر، وهي تعذب، فاشتراها، فأعتقها.

فأما من قال: إنها نزلت في رجل من الأنصار: فروي أن رجلاً كان له نخل، وكان يسقط منها في دار جاره، فشكاه إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «بعنيها[3] بنخلة من الجنة» فقال: لا، فلما خرج لقيه الأنصاري، وكان يقال له: أبو الدحداح، فاشتراها بحائط له، ثم باعها من النبي ﷺ بنخلة في الجنة، ودعا النبي ﷺ ذلك الرجل وكان من الأنصار، وقال: «خذها» فنزل: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾.

فأما من قال: إنها عامة: قال: كل من كان بهذه الصفة فالآية متناولة له، وروي أن أبا قحافة قال لأبي بكر لما اشترى هؤلاء: لو اشتريت رجالا[4] جلدًا يمنعونك[5]

(١) آلاف: ألف، غ.
(٢) إلاّ: إلا صح، غ.
(٣) بعنيها: بعها، غ: وما أثبتناه من تفسير القرطبي ١/٤٤٦.
(٤) رجالا: رجلا، غ.
(٥) يمنعونك: لمنعوك، غ.

خير من أن تعتق ضعفاء، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقال أبو بكر لأبيه: إنما أعتق لا أبتغي إلا تخليصهم وطلب مرضاة الله.

فأما قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ قيل: نزل في أبي سفيان، عن الكلبي. وقيل: هو عام. وقيل: نزل في الأنصاري الذي لم يبع نخلته في الجنة.

۞ المعنى

«**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى**» قسم منه تعالى، والواو للقسم، ثم اختلفوا أن القسم بها أو بربها على ما تقدم البيان، ومعنى «**يغشى**» يغطي كل شيء بظلمته، ويزيل الضياء، وقيل: يغشى النهار فيذهب ضَوْءُهُ، عن الحسن. «**وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى**» قيل: جلى الليل، فأذهب ظلمته، عن الحسن. وقيل: أنار وأضاء وتجلى للخلق بنوره، وموقع القدرة والنعمة عظيم بالأمرين، فلذلك ذكرهما «**وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى**» قيل: والذي خلق، والمراد كل ذكر وأنثى خلقهما الله تعالى، وقيل: وخالق الذكر والأنثى، وقيل: أراد آدم وحواء «**إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى**» هذا هو موضع القسم، أي: عملكم أيها المكلفون متفرق، ساعٍ في فكاك رقبته، وساعٍ في هلاكه، وقيل: منهم من يسعى للدنيا، ومنهم من يسعى للعقبى، وقيل: مذاهبهم متفرقة ليسوا على شريعة واحدة، وقيل: يسعى المؤمن والكافر بينهما تفاوت وبُعْدٌ، ثم فسره، فقال: «**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى**» قيل: أعطى حق الله واتقى معاصي الله، عن قتادة، وأبي علي. وقيل: من أعطى ماله في سبيل الله، واتقى ربه باجتناب محارمه، وقيل: أعطى أي: بذل من نفسه ما يلزمه من الطاعات، وما له من الحقوق «**وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى**» قيل: بالخلف، عن ابن عباس، وعكرمة. وقيل: بالتوحيد وما يتصل به من الدين، عن الضحاك. وقيل: بالخير، عن الحسن، ومجاهد، وأبي علي. وقيل: بوعد الله، عن قتادة، ومقاتل. قال أبو مسلم: هو الجنة، فيضاعف نفقاتهم «**فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى**» قيل: نسهل له دخول اليسرى، وهي الجنة؛ لأن فيها[1] العيشة الراضية، والرخاء والسعة، ودخولها[2] سهل على المؤمنين في معنى قول أبي علي، وأبي مسلم، وجماعة. وقيل: نيسره للعود إلى العمل

---

(١) فيها: فيه، غ.

(٢) دخولها: ودخوله، غ.

الصالح، عن الفراء. أي: نسهل ذلك له بالألطاف «**وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ**» بحقوق الله فلم يؤدها[1] «**وَاسْتَغْنَى**» عن ربه فلم يرغب في ثوابه، وقيل: بخل بفعل ما كلف، واستغنى بكفره، عن الأصم. وقيل: بخل: لم يؤد ما فرض الله عليه، ولم يؤد حقوق المال، يعني لم يطع الله، وبخل على نفسه بثوابه، وقيل: بخل بالحقوق واستغنى بشهوات الدنيا وجمعها، وقيل: استغنى بأن أظهر الغنى عنه، ولم يحتشم من فعل المعاصي، وقيل: بخل وطلب الغنى بالبخل، وقيل: لما كَذَّبَ بالجنة والثواب دعاه ذلك إلى البخل: لأن الإنسان يعطي المال رجاء الثواب «**وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى**» قيل: بالجنة والثواب، وقيل: بالخلف، وقيل: بالتضعيف، وقيل: بالتوحيد «**فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**» قيل: نسهل له، أي: نؤديه إلى حالة العسر، وهو العذاب، وقيل: نُدْخِله جهنم، وقيل: نيسره للأعمال الموجبة للعذاب، وهذا إن[2] حمل على التمكين والتخلية صح مع بُعْدِهِ؛ لأنه تعالى لا يلطف في المعصية «**وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى**» أي: لا يكفي عنه ماله إذا هلك بالعذاب، يعني أنه بخل بماله، ولم ينفعه ماله عند حلول العذاب به، «**تردى**» قيل: هوى في النار، عن قتادة، وأبي صالح، وأبي علي. وقيل: إذا مات وهلك، عن مجاهد. «**إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى**» بيان الطاعة من المعصية، عن قتادة. وقيل: علينا أن نهدي العباد إلى ما كلفناهم، عن أبي علي. وقيل: علينا الطريق فلا يفوتنا أحد، عن أبي مسلم. وقيل: علينا البيان، فأما الاهتداء أو فعل الهدى فإليكم.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: أن أعمال العباد مختلفة فدل أن لهم سعيًا وعملاً، خلاف من يقول: إن جميعها خلق الله تعالى.

وتدل أن بعضهم يسعى للدنيا، وبعضهم للآخرة، وبعضهم للجنة، وبعضهم للنار، ولا اختلاف أعظم من هذا.

ويدل قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ على أمور:

---

(١) يؤدها: يؤده، غ.

(٢) وهذا إن: وهذان، غ.

منها: أن مجرد التصديق لا يكفي، ما لم تنضم إليه التقوى، وذلك خلاف قول المرجئة.

ومنها: أن البخل مذموم، وذلك في الشرع اسم لمنع الواجب.

ومنها: أن بمجموعها استحق الجنة والثواب.

ويدل قوله: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾ أن المال لا ينفع عند الموت والعذاب، وروي عن الحسن أنه قيل له: فلان جمع مالاً فقال: وهل جمع عُمْرَهُ، قال: لا، قال: فما يصنع الأموات بالمال؟! وفيه ترغيب في الإنفاق وترهيب في الجمع.

ويدل قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أن نصب الأدلة واجب عليه لبيان ما كلف، وإذا كان الهدى عليه يستحيل أن يضل عن الدين.

قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

القراءة

قرأ ابن كثير: «تلظى» بتشديد التاء، الباقون بالتخفيف[1]، أما التشديد: فقيل: أصله: تتلظى أدغم أحد التاءين في الأخرى، وقيل: أدغم التنوين في التاء، فأما التخفيف: فعلى الحذف كراهية التضعيف، فلو كان ماضيًا لقيل: تلظت. وقرأ عبيد بن عمير: (تتلظى) بتاءين على الأصل، غيره بتاء واحدة على الحذف، وإنما تَحْذِفُ الأصليَّ لأن الأخرى علامة.

اللغة

الإنذار: الإعلام بموضع المخافة لتتقى، ونظيره: التخويف.

---

(١) السبعة في القراءات ٦٩٠.

والأُولَى تأنيث الأوَّلِ، كالأكبر والكبرى، والأصغر والصغرى، والأولى صفة لمحذوف، أي: الدار الأولى، وهي الدنيا، والدار الأخرى هي القيامة، إما الجنة وإما[1] النار.

والتلظي: تلهب النار بشدة الإيقاد، وَتَلَظَّى وتَوَهَّجَ وَتَلَهَّبَ نظائر، تلظت النار تتلظى تلظِياً، و«لظى»: اسم من أسماء النار، مأخوذ منه.

والأشقى: أفعل من الشقي، والأكبر من الكبير، وكذلك الأتقى من التقى.

والتجنب: تصيير الشيء في جانب عن غيره، جَنَّبْتُ الشيء تجنيبًا، وتَجَنَّبَ تجنبًا، ورجل جُنُبٌ وأجنب: إذا أصابه ما يجانب به الصلاة، فهذا الأتقى كأنه في جانب الجنة بعدًا من جانب النار.

والأعلى من العلو وهو القوة والغلبة، يقال: استعلى على خصمه بالغلبة والحجة، ولا يقال ذلك في رفعة المكان، والله تعالى ليس بجسم حتى يكون في مكان دون مكان.

۞ الإعراب

نصب «ابتغاء» على الاستثناء الذي ليس في أول الكلام، كقول الشاعر:

حَلَفْتُ يَمِينًا غيرَ [ذي] مَثْنَوِيَّةٍ ... وَلا عِلْمَ إلاَّ حُسْنُ ظَنٍّ بِصاحِبِ[2]

وقيل: (إلا) بمعنى لكن.

والواو في قوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ﴾ واو الحال، عن أبي مسلم.

۞ النظم

ويقال: كيف يتصل قوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ بما قبله؟

---

(١) وإما: أو؛ غ.

(٢) بصاحب: بكاذب، غ؛ والبيت قائله النابغة الذبياني، في قصيدة مطلعها:

كِلِيني لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطيءِ الكواكبِ

انظر: ديوان النابغة الذبياني، دار صادر، بيروت.

قلنا: قيل: فيه وجوه:

قيل: تسلية؛ أي: لا تفوتونني؛ لأن لي الآخرة والأولى، عن أبي مسلم.

وقيل: إن بخل لم يضر بي بخله؛ لأن لي الآخرة والأولى.

وقيل: أَوسِّع على مَنْ أشاء، وأضيق على مَنْ أشاء؛ لأن لي الآخرة والأولى.

وقيل: علينا الهدى، وقد هديناه إلى الحق ليصل به إلى النعيم الدائم، فإنا لنا للآخرة والأولى، لكن الأولى دار تكليف، والأخرى دار جزاء[1].

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أن له الدارين، وعقَّبه بالوعد والوعيد، فقال سبحانه: «**وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى**»، مُلْكُها ومِلْكُها، فمن سأل غيره شيئًا منها فقد أخطأ الطريق «**فَأَنْذَرْتُكُمْ**» خوفتكم «**نَارًا تَلَظَّى**» تتوقد، و(نارًا) نكرة في الإثبات فتكون نارًا مخصوصة «**لاَ يَصْلاَهَا**» قيل: لا يدخلها ولا يعذب بها، عن أبي علي. وقيل: لا يصير صلاها، أي: وقودها، عن أبي مسلم. «**إِلاَّ الأَشْقَى**» أي: هو موضعه، والمعذب فيه، وقيل: المراد بالأشقى الشقي، قال الشاعر:

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ فَإِنْ أَمُتْ فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ[2]

أي: بواحد، وقيل: المراد أشقى العصاة وهم الكفار «**الَّذِي كَذَّبَ**» الله ورسوله «**وَتَوَلَّى**» أعرض عن طاعة الله، وطاعة رسوله.

ومتى قيل: يجب أن يكون في النار موضع الكفار دون غيرهم من الفساق؛ لأنه إثبات ونفي، فلو دخلها غيرهم لم يكن للنفي والإثبات معنى.

فلنا[3] عن هذا أجوبة:

(١) جزاء: خزي، غ.

(٢) البيت ينسب للإمام الشافعي؛ انظر: شعر الإمام الشافعي، تحقيق مجاهد مصطفى بهجت، جامعة الموصل، ١٩٨٦؛ أساس البلاغة (وحد).

(٣) قلنا: قلنا، غ.

أولها: ما ذكرنا أن قوله: «نارًا» نكرة في إثبات، والنيران دركات، فيجوز أن يكون فيها دركة[1] يختص بعذابها الكفار، عن أبي علي، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وقال: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].

وثانيها: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ أي: لا يتعرض لأن يكون صلاها إلا مَنْ هذه صفته، وهو التكذيب والتولي.

وثالثها: أن النار أضيف إليهم؛ لأنهم أكثر أهلها وأولاهم بها، وهم المقصودون فيها، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، ذكر هذه الوجوه الثلاثة أبو مسلم.

ورابعها: أن فيه بيانا[2] بأن الأشقى يدخلها، فغيره موقوف على الدليل، ولا يمتنع دخول غيره، كقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ ثم الفاسق ليس بأتقى، ويتجنبها عنده، ولأنه لو كان استثناء حقيقة على ما يزعمه لوجب القطع على أن الفاسق لا يدخل النار، وفيه خلاف الإجماع، وإغراء بالمعاصي، بل إباحتها، وذلك لا يصح، ولأن البخيل والعاصي مخوف بالنار، فإما أن يقال: هم كفار، فذلك لا يصح، أو يقال: غير مُخَوَّفِين، وذلك خلاف الإجماع.

وخامسها: أن فيه حذفًا؛ لما صحَّ[3] من الدليل، كأنه قيل: الأشقى، ومن جرى مجراه من العُصَاة.

وسادسها: أن من الكفار من يدخلها، وإن لم يكذب، ولم يبخل، ولم يتوَّل، وأحسن الوجوه هو الأول.

«وَسَيُجَنَّبُهَا» أي: يبعد منها حتى يصير في غير جانبها «الْأَتْقَى» قيل: التقي، وقيل: الأتقى من أهل الجنة، وهم المؤمنون؛ لأن في الجنة صغارًا ومجانين وأصحاب الأعواض والحور العين.

---

(١) فيما دركةُ: مطموس في غ.
(٢) بيانا: بيان، غ.
(٣) صح: صحت؛ غ.

ومتى قيل: أليس قال: (سيجنبها الأتقى) ثم الصبيان والمجانين يجنبونها[١]؟

قلنا: المراد به المكلفون[٢]؛ لأن الإنذار يوجه إليهم.

ثم بَيَّنَ صفة الأتقى، فقال سبحانه: «**الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى**» أي: يتصدق ويؤدي الواجب، ويتطهر بفعل الطاعات «**وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى**» أي: لم يتصدق ولا فعل ما فعل لجزاء ولا لعوض؛ لكن لحسنها وكونها طاعة لله تعالى؛ ولهذا قال: «**إِلَّا ابْتِغَاءَ**»؛ أي: طلب «**وَجْهِ رَبِّهِ**» أي: رضا ربه، فذكر وجهه وأراد نفسه، و(**إلا**) بمعنى (**لكن**) «**الْأَعْلَى**» أي: الأقدر الذي يقهر كل شيء ولا يمتنع، وقيل: الأعلى: الأجل كما لا يجوز عليه «**وَلَسَوْفَ يَرْضَى**» أي: سوف يعطيه الله من الجزاء نهاية أمنيته حتى يرضى، ولا يرى مزيدًا، واللام في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ﴾ لام التأكيد، وهي التي تدخل في جواب القسم فوعد وعدًا مؤكدًا.

الأحكام

الآيات تتضمن أحكامًا:

منها: تخويف عظيم بالنار ليتحرزوا منه، فيدل أن الاحتراز فعلهم؛ إذ لو كانت مخلوقة لكان يخوفهم بما لا سبيل لهم إلى التفضي منه.

ومنها: ما قاله أبو علي أن قوله: ﴿الْأَشْقَى﴾ يدل على أن هناك شقيا[٣] سواه، ولو لم يدخل النار غيره لما صح ذلك، ودل بذلك على صحة قولنا في الوعيد.

ومنها: أن الطاعة إنما يستحق عليها الثواب إذا فعلت لوجه الله، ولكونها طاعة.

ومنها: أن أهل الجنة مع اختلاف درجاتهم، كل واحد راضٍ بما أُوتِيَ، لا يتمنى منزلة غيره، ولا يتباغض، ولا يتحاسد[٤].

(١) يجنبونها: يتجنبها، غ.
(٢) المكلفون: المكلفين، غ.
(٣) شقيا: شقي، غ.
(٤) يتحاسد: كلمة غير واضحة في غ.

سُورَةُ الضُّحَىٰ

سورة (الضحى) مكية، إحدى عشرة آية.

وعن أُبيّ، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (الضحى) جعله الله فيمن يشفع له محمد صلى الله عليه، ويكتب له عشر حسنات، وكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل».

ولما ختم سورة (والليل) بأنه يرضي الأتقى بما يعطيه من الثواب، افتتح هذه السورة خطابًا للنبي ﷺ بأنه يرضيه بما يؤتيه في القيامة في الدرجة والرفعة.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ بالتشديد من التوديع، وعن بعضهم بالتخفيف أي: ما تركك[1].

---

(١) القرطبي ٢٠/ ٨٤

قراءة العامة: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ بالمد، وقرأ أشهب العقيلي: «فأوى» بالقصر أي: رحمك[1]، تقول العرب: أويته، أي: رحمته.

قراءة العامة: ﴿عَآئِلًا﴾ بالألف أي: فقيرًا، وقرأ ابن السميقع: (عَيِّلًا) بتشديد الياء بغير ألف على وزن «فَعْيِلٍ» كقولك: طاب فهو طيّب.

قراءة العامة: ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ بالقاف، وعن النخعي والشعبي: (تكهر) بالكاف[2]، وكذلك هي في مصحف عبد الله، والعرب تعاقب بين القاف والكاف؛ ولذلك قال معاوية بن الحكم الذي تكلم في الصلاة: بأبي هو وأمي ما كهرني ولا ضربني[3].

اللغة

الضحى: صدر النهار، وأصله الظهور، يقال: ضحى فلان للشمس: إذا ظهر لها.

والسَّجُوُّ: السكون، سَجَا يَسْجُو سُجُوًّا: إذا سكن، وطرفٌ ساجٍ وبحرٌ ساجٍ أي: ساكن، قال الأعشى:

فَمَا ذَنْبُنَا أَنْ جَاشَ بَحْرُ اِبْنِ عَمِّكُمْ وَبَحْرُكَ سَاجٍ مَا يُوارِي الدَّعَامِصَا[4]

وقال آخر:

يَا حَبَّذَا الْقَمْرَاءُ والَّلَيْلُ السَّاجُ وَطُرُقٌ مِثْلُ مُلاءِ النَّسَّاجِ[5]

والتوديع: المفارقة والترك، وَدَّعَ يُوَدِّعُ توديعًا، وهو في هذا الموضع استعارة، فإن المفارقة والترك لا تجوز عليه تعالى، فالمراد أنه لا يخليه من عادته في الإحسان، وتتابع الوحي والنصرة، بخلاف ما يقوله هؤلاء الكفار.

(١) فتح القدير ٥/ ٦٤٩
(٢) القرطبي ٢٠/ ٩٠
(٣) مسند أحمد رقم ٢٣٨١٨
(٤) البيت قائله الأعشى، انظر: الصحاح (سجا) (دعمص)، اللسان (دعمص)، تاج العروس (دعمص) الصحيح (سجا).
(٥) اللسان (قمر)، تاج العروس.

والقلى: البغض، والقالي المبغض، قلاه يَقْلِيهِ قِلًى إذا أبغضه.

العائل: الفقير، وهو ذو العيلة، عال يعيل عيلة: إذا كثر عياله، وافتقر، قال الشاعر:

وَمـا يَـدْرِي الْـغَـنِـيُّ مَـتـى[1] يُـعـيـلُ[2]

أي: يفتقر.

والنهر والانتهار: الرد بالقبيح والزجر[3] والطرد، [نهره] وانتهره. [بمعنى واحد][4].

۞ الإعراب

﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ موضعه جر؛ لأنه قسم، والقسم قيل: بهذه الأشياء تنبيهًا على قدرته ونعمه، وقيل: برب هذه الأشياء، وجواب القسم قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾.

و ﴿سَجَىٰ﴾ نصب لأنه فعل ماض، وكذلك ﴿قَلَىٰ﴾.

۞ النزول

قيل: تأخر الوحي عن النبي[5] ﷺ مدة، فاغتم لذلك، فقال قوم من المشركين: إن رب محمد قد قلاه، فأنزل الله تعالى هذه السورة تكذيبًا لهم، عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وجماعة من المفسرين.

وذكر الأصم أن المشركين تجمعوا عليه عند تأخر الوحي وهو في الكعبة، فتناولوه، فأكب أبو بكر عليه وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] الآية،

---

(١) متى: حتى، غ. تاج العروس (عيل)، الصحاح (عيل).

(٢) البيت قاتله: أحيحة بن الجلاح، وتمامه:

وما يـدري الـفـقـيـر مـتـى غِـنـاه ... وما يـدري الـغـنـي مـتـى يـعـيـل

اللسان (عيل)، تاج العروس (عيل)، الصحاح (عيل).

(٣) والزجر: والزيد، غ.

(٤) التكملة من: التبيان في تفسير للطوسي: ١٠/ ٣٥٥.

(٥) عن النبي: غير واضح في غ.

فأنزل الله تعالى هذه السورة، وهذا وإن كان أخبار آحاد فلا مانع منه؛ لأن الوحي إنما ينزل للمصلحة، وقد تكون المصلحة في تأخيره، وقول المشركين فقد قالوا فيه أشياء كذبًا وحسدًا فهذا في ذلك.

وروي أنهم قالوا: لما تأخر الوحي شكا إلى خديجة، وقال: «ودعني ربي وقلاني» فنزلت السورة، وهذا لا يصح؛ لأنه ﷺ أعلم بالله وثقة من أن يظن هذا الظن؛ لأنه خصه بالنبوة مع علمه، فلا يجوز أن يودعه ويقليه، ويعلم أن الوحي يتقدم ويتأخر، وما رووه أيضًا أنه قال لخديجة: «خشيت أن أكون كاهنًا» وهذا من دسيس الملحدة؛ حيث رووا أنه كان في شك من أمره ليشككوا الناس، فلا ينبغي أن يقبل ذلك.

واختلفوا في سبب تأخير الوحي، فقيل: لتركه الاستثناء لما سئل عن حديث أصحاب الكهف وذي القرنين والروح فقال: «سأخبركم غدًا» ولم يقل: إن شاء الله، عن جماعة.

وقيل: سبب احتباسه كون جرو[1] في بيته، فلما نزل جبريل سأله عن تأخيره فقال: «إنا لا ندخل بيتًا فيه كلب أو صورة».

وقيل: قال ليلة المعراج: «سخرت الحديد لداود، والنار لإبراهيم» فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ إلى آخر السورة.

وروي عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته، قلت: يا رب، كيف آتيت سليمان ملكًا عظيمًا، وفلانًا كذا، وفلانًا كذا فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ ، فقلت: بلى يا رب، فقال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ ، فقلت: بلى يا رب، فقال: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ ، فقلت: بلى يا رب».

وعن جندب بن سفيان: رُمي رسول الله ﷺ بحجر في أصبعه فقال:

«هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ[2] دَمِيتِ ... فِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ»

(١) جرو: جر، غ وما أثبتناه من تفسير البغوي ١/ ٤٥٣.

(٢) إلا أصبع: إلا لأصبع، غ وما أثبتناه من تفسير ابن كثير ٢٠/ ٦٧٤، وتفسير القرطبي ٢٠/ ٨٢، وفتح القدير ٤/ ٥٣٩، وروح المعاني ٢٣/ ٤٩.

فمكث ليلتين أو ثلاثًا لا يوحى إليه[1]، فقالت أم جميل بن حرب امرأة أبي لهب: ما أرى شيطانك إلا تركك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ السورة.

واختلفوا في مدة التأخير، فقيل: اثنا عشر يومًا، عن ابن جريج.

وقيل: خمسة عشر يومًا، عن ابن عباس.

وقيل: خمسة وعشرين يومًا.

وقيل: أربعون يومًا، عن مقاتل.

وقيل: لما نزل جبريل قال له النبي ﷺ: «قد اشتقت إليك، فقال: وأنا أشد شوقًا إليك، ولكني عبدٌ مأمورٌ، وما نتنزل إلا بأمر ربك».

والصحيح إن ثبت التأخير أن يقال: إنه تأخير للمصلحة، فأما ترك الاستثناء، وإن كان تأديبًا من الله تعالى وتعليمًا لعباده فلا يجوز أن تتأخر مصالح العباد لتركه للاستثناء.

فأما ما ذكروا من سؤاله ليلة المعراج وبعده فغير صحيح؛ لأنه صلى الله عليه لا يسأل إلا بإذن، وإذا سأل بإذن لا بد أن يجاب؛ لأنه لو سأل بغير إذن، وهو لا يعرف المصالح فلعل ما سأل يكون مفسدة، فإذا لم يفعل يكون فيه نفرة، وهذا لا يجوز.

وروي عن النبي صلى الله وآله أنه[2] قال: «أُرِيتُ فُتُوحَ أمتي فَرَضِيتُ»، فنزل: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾.

وعن عبد الله بن عمر: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ قال ﷺ: «إذن لا أرضى، وواحد من أمتي في النار» وهذا من أخبار الآحاد، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

(١) الترمذي: ٣٣٤٠.
(٢) أنه: أن، غ.

۞ النظم

يقال: كيف يتصل: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ﴾[1] بما قبله؟

قلنا: في قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ إشارة محبته له، وإنعامه عليه، فاتصل هذا أيضًا بذلك، وتقديره: ليس كما يقولون؛ بل يتصل الوحي مدة عمرك، وتدوم محبتي لك، وما أعده لك في الآخرة من النعيم والشرف والمنزلة خير مما أعطيتك، فإذا حسدوك على هذا فكيف لو رأوا ذلك.

وقيل: تقديره: كيف يقليك من أعد لك دار الآخرة، وهي دار الأولياء.

وقيل: كان الحال يختلف بالنبي ﷺ فقال تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:١٦٩]، وهي خالصة لك.

وقيل: كذبوا فيما قالوا، وإنما خليتهم وذلك لمصلحة في الآخرة بحسرتهم، وبحُزْنِكَ، وهو خير لك.

وقيل: تقديره: هم حسدوك على أمرك فقالوا هذا، وما يرون في آخر أمرك من النصر أعظم وأكبر.

ومتى قيل[2]: كيف يتصل قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ ؟

قلنا: اتصال ذكر النعم بذكر النعم، وقيل: تقديره: سوف يعطيك فترضى في مستقبل أمرك، كما أعطاك فيما مضى من أمرك.

۞ المعنى

«**وَالضُّحَى**» قيل: هو صدر النهار عند ارتفاع الشمس، واعتدال الحر والبرد، عن مقاتل، وقتادة. وقيل: النهار كله، ومنه: ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ [الأعراف: ٩٨]،

(١) وللآخرة خير لك: والآخرة لك لك، غ.
(٢) ومتى قيل: ومن يقال، غ.

واختلفوا لِمَ خص الضحى؟ قيل: لأنه الوقت الذي كلم الله فيه موسى، وقيل: هو الوقت الذي ألقي السحرة سجدًا، وكذلك قال: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]، وقيل: القسم برب الضحى، وذكره لما فيه من دلائل القدرة والوحدانية والمنافع والنعم «وَاللَّيْلِ» وقيل: أقسم بالليل، وقيل: برب الليل «إِذَا سَجَى» قيل: أقبل بظلامه حتى غشي كل شيء، عن الحسن، [و] قيل: هدأ وسكن بالخلق، عن قتادة، ومجاهد، وابن زيد، وأبي علي. ومعنى سكن أي: سكن الخلق فيه، وقيل: سجى: استوى، واستقر بظلامه «مَا وَدَّعَكَ» هذا موضع القسم، قيل: ما تركك منذ اختارك، يعني لا يخليك من عادة الإحسان والوحي والنصرة، وقيل: ما قطع الوحي عنك، عن أبي علي. «وَمَا قَلَى» أي: ما قلاك، فحذف الكاف لدلالة الكلام عليه، ولأجل رؤوس الآي، يعني وما أبغضك منذ أحبك، عن ابن عباس، والحسن، وابن زيد. وذلك لأنه لم يفعل شيئًا يوجب البغض، ولا يجوز على الله تعالى أن يبغض أحدًا من أنبيائه عليهم السلام «وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى» أي: ما أعد لك من الثواب الدائم والرفعة في الدار الآخرة خير لك من الدنيا؛ لأنها تنقطع، عن أبي علي. وقيل: ما أوحى لك من النصرة والفتوح في آخر عمرك خير لك مما عجلت لك منها، وقيل: منزلة الشفاعة خير لك، وقيل: الثواب للآخرة على ما نالك من الهم بتأخر الوحي خير لك، وقيل: له في الجنة ألف قصر من اللؤلؤ، ترابه المسك، وفيها كلما تشتهي على أتم الوصف، عن ابن عباس. «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ» قيل: هذا في الدنيا، أي: يعطيك من النصر على الأعداء، والتمكين في البلاد، وتتابع الفتوح، وكثرة المؤمنين، وإظهار الدين ما ترضى، وقيل: هو في الآخرة، ثم اختلفوا، فقيل: يعطيك من الثواب ما ترضى، وقيل: هو مقام الشفاعة يعطيه، فيرضى بذلك، وعن الصادق: رضي جدي ألاّ يبقى في النار موحِّد، يعني مؤمنًا، وعن ابن عباس: رضي محمد ألاّ يدخل أحد من أهل بيته النار، وعن علي: أرجى آية في كتابه الله تعالى هذه الآية، وهي الشفاعة.

«أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى» فيه قولان:

أولهما: أي: مات أبواه، وهو صبي، ولم يخلفا مالاً ولا مأوى يأويه إليه حتى

حببه إلى أبي طالب، فكان أحب إليه من أولاده، ورباه وكفاه، وقيل: مات أبوه، وهو في بطن أمه، وقيل: بعد الولادة بمدة، وقيل: ماتت[1] أمه، وهو صغير، ومات عبدالمطلب، وكان يتولى تربيته، وهو ابن ثماني[2] سنين، فسلمه إلى أبي طالب؛ لأنه كان أخا عبد الله لأمه، فربَّاه.

ومتى قيل: ما السبب في يتمه؟

قلنا: قيل: لئلا يكون عليه لمخلوق حق، عن جعفر بن محمد عليهما السلام، وقيل: لئلا يسبق إلى النفوس أن عزه عن توارث، أو تظاهر عشيرة، وكذلك سبب فقره؛ لئلا يظن أنه تقوَّى بالمال، وقيل: ليكون للأيتام والفقراء به سلوة واقتداء.

وثانيهما: ألم يجدك واحدًا في فضلك وشرفك واستصلاحك لما رسخت له لا نظير لك، فآواك الله لذلك، كما يقال: درة يتيمة: إذا لم يكن لها مثل، عن مجاهد.

«**وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى**» فيه قولان:

أولهما: أنه أراد الضلال والهداية في الدين.

والثاني: أنه أراد في الدنيا وأسبابها.

فأما من قال بالأول اختلفوا: فقيل: وجدك ضالاً عما أنت عليه من الوحي والنبوة ومعالم الشريعة والأحكام لم تكن تعرفه؛ بل كنت غافلاً عنه، فهداك الله إلى ذلك، عن الحسن، والضحاك، وشهر بن حوشب، وابن كيسان، وأبي علي. وقال أبو علي: وضلاله عن ذلك لم يكن معصية؛ لأن الله تعالى لم يكن آتاه ذلك، ونظيره: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، والضلال على هذا: الذهاب عن العلم، قال الله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] أي: لم أعلم.

وقيل: وجدك من قوم ضلال، وكنت واحدًا منهم، فهداك للتوحيد والنبوة، عن الكلبي.

---

(١) ماتت: مات، غ.

(٢) ثماني: ثمان؛ غ.

وقيل: فهداهم بك.

وقيل: وجدك لا تعرف الحق، فهداك إليه بإتمام العقل، ونصب الأدلة، والألطاف، والخواطر، حتى عرفت الله بصفاته بين قوم كلهم ضُلَّالٌ مشركين، فلولا أن الله تعالى فعل بك وإلا ما كنت كذلك.

وقيل: وجدك ضالاً لقبلتك فهداك إليها.

فأما من قال بالثاني فاختلفوا: فقيل: الضال الذي لا يهتدي إلى أمور الدنيا ومصالحها كقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] أي: أنك لم تعرف مصالح الدنيا فهداك إليها حتى فتح لك الفتوح، وذلت لك العرب، عن أبي مسلم، قال: والعرب تقول إذا التبس عليه معيشته: ما أدري أين أذهب، وما أدري إيش أصنع، ونحوه.

وقيل: ضالاً في شعاب مكة، فهداك إلى جدك عبد المطلب، وقال ابن عباس: ضل رسول الله ﷺ، وهو صغير في شعاب مكة، فرآه أبو جهل ورده إلى جَدِّه، فمن الله عليه حتى رده على جده على يديْ عدوه.

وقيل: بعث به جده عبد المطلب في طلب إبل، فاحتبس عنه، وهو صبي، فدعا الله وطاف بالبيت، فجاء مع الإبل، فقال: (يا بني حزنت عليك حزنًا، لا تفارقني أبدًا).

وقيل: لما أرضعته حليمة بنت أبي ذؤيب، وأرادت رده على جده جاءت به حتى قرب من مكة فضَلَّ في الطريق، فطلبته وجزعت، وقالت: إن لم أره لأرمينَّ نفسي من شاهق، وجعلت تصيح وامحمداه، وضج الناس لصيحتها، قالت: فدخلت مكة على تلك الحال، قالت: ورأيت شيخًا فانيًا متوكئًا على عصى، فسألني عن حالي، فأخبرته، فقال: لا تبكي، أدلك على من يرده عليك، هبل الصنم الأعظم، ودخل البيت، وطاف بهبل، وقَبَّلَ رأسه وقال: يا سيداه لم تزل منتك جسيمة، رد محمدًا على هذه السعدية، قالت: فتساقطت الأصنام لما تفوه باسم محمد، وسمع صوتًا يقول: إنما هلاكنا على يديْ محمد، فخرج وأسنانه تصطك، وخرجت إلى

عبدالمطلب وأخبرته، فطاف بالبيت فدعا، فنودي بمكانه، فذهب عبد المطلب، وجاء به في حديث طويل، عن كعب.

وقيل: خرج رسول الله ﷺ مع أبي طالب إلى الشام في قافلة «مَيْسَرَةَ» غلام خديجة، فبينا هو راكب ذات ليلة ناقةً إذ جاء إبليس فأخذ بزمام الناقة، فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى الحبشة، ورده إلى القافلة، فمن الله عليه بذلك، وهذا يحمل على أن بعض الكفار عدل به إن صح الخبر، وبعض المؤمنين رده.

وقيل: وجدك ضالاً ليلة المعراج لا تعرف الطريق حين انصرف جبريل، فهداك إلى ساق العرش.

وقيل: إن العرب تسمي الشجرة الفريدة في فلاة ضالة، فيهتدون بها [إلى] الطريق، فقال سبحانه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ وحيدًا ليس معك نبي غيرك، فهديت بك الخلق إلى الحق.

وقيل: وجدك خاملاً لا تُذكَر ولا تُعْرَف، فعرَّفك إلى الناس، وهداهم بك حتى عرفوك، وعظموك، وأحسن ما قيل فيه ما قال أبو علي، وبدأنا به وما تعداه إما تعسف، وإما تخصيص بغير دليل.

ومتى قيل: كيف قال: «وجدك» وإنما يستعمل فيمن يغيب عنه شيء؟

قلنا: معناه: الرؤية أو العلم؛ أي: رآك كذلك أو عَلِمك كذلك، وقيل: معناه: كنت على هذه الصفة وإن لم يكن ثَمَّ وجدان، كمن يقول: وجدتك عالمًا أي: أنت عالم.

ومتى قيل: أليس قد قال بعضهم: إنه كان على دين قومه فهداه إلى الحق، حتى روي عن السدي أنه قال: كان على أمر قومه أربعين عامًا؟

قلنا: هذا من الخطأ العظيم؛ لأن الكفر لا يجوز على الأنبياء قبل البعثة وبعدها، ولأنه يؤدي إلى التنفير، ولا بد في النبي أن يكون معصومًا قبل البعثة وبعدها من كل كبيرة.

«وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى» أي: فقيرًا فأغناك، وهذا واضح، ثم اختلفوا، فقيل: أغناك بمال خديجة، وقيل: بالغنائم والفتوح، وقيل: بالقناعة، فأغنيك بأن أرضيك بما أعطيك، وقيل: عائلًا عن الأتباع فَأَكْثَرَ أصحابك وأتباعك، وقيل: أغناك بالقرآن وبالعلم، وعن رسول الله ﷺ: «من لم يُغْنِهِ القرآنُ فلا أغناه الله، ومن لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله»، وقيل: أغنى قلبك حتى صرت أغنى الأغنياء يستوي عندك[1] الذهب والحجر، وقيل: وجدك عائلًا تعول[2] الخلق بالعلم، فأغناك بالقرآنُ [و] العلم والحكمة، وقيل: وجدك ذا عيال فأغناك؛ ولذلك أمرهم، وحذف الكاف من قوله: «فآوى» و(هدى) و(أغنى) لموافقة رؤوس الآي، ودلالة الكلام عليه، «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ» قيل: لا تقهر[3] حتى تذهب بماله وتهينه، بل أكرِمْهُ واذكُرْ يتمك، وكما فعل الله بك فافعل بالأيتام، عن أبي مسلم. وإنما خص اليتيم لصغره، ولأنه يحتاج إلى حفظ، ولا ناصر له يقوم بأمره، وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة إذا اتقى الله - وأشار بالسبابة والوسطى -»[4]، وعن عمر: «إذا بكى اليتيم اهتز العرش، ويقول الرب: ملائكتي من أبكى هذا اليتيم الذي غُيِّبَ أبوه[5] في التراب، فيقولون[6]: أنت أعلم، فيقول: ملائكتي، اشهدوا أنَّ لمن أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة»، فكان عمر إذا رأى يتيمًا مسح رأسه، وأعطاه شيئًا.

«وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ» أي: من سألك شيئًا من مالك فلا تطرده، ولا تَرُدَّهُ بقبيح، أعطه اليسير أو ردَّه بالجميل، وقيل: كما أعطاك الله ورحمك وأنت عائل فَأَعْطِ سائلك وارحمه، عن أبي مسلم. وقيل: المراد به جميع المكلفين، وإن كان الخطاب للنبي

(١) عندك: عنك غ.
(٢) تعول: تقول، غ. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان: ١٠/ ٣٤٢. والكشف والبيان للثعلبي: ١٤/ ١٣٩.
(٣) لا تقهر: لا تقهروا؛ غ.
(٤) البخاري رقم ٤٩٩٨
(٥) أبوه: أباه، غ.
(٦) فيقولون: فيقولوا، غ.

صلى الله عليه، عن أبي علي. وقيل: أراد بالسائل طالب العلم، وأمر بالإحسان إليهم، عن الحسن. وقيل: أما السائل عني فَدُلَّهُ عليّ ولا تنهره، [و] عن إبراهيم ابن أدهم: نعم القوم السُّؤَّال يحملون[(١)] زاد أحدنا إلى الآخرة «وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» قيل: نعمه عليك في الدين والدنيا، فاشكره وحدِّثْ به، وقيل: الإسلام، عن الأصم. وقيل: النبوة، عن مجاهد، وقيل: القرآن، عن الكلبي. أي: حدث بما فيه، وعن النبي ﷺ: «من أعطي خيرًا فلم يُرَ عليه سمي[(٢)] بغيض الله معاديًا لنعم الله»، وعنه ﷺ: «التحدثُ بنعمة الله شكر»، وقيل: حَدِّثْ غيرك تعظيمًا للمنعم وشكرًا له، وقيل: أراد به الشرائع والدين، كما علمك به فعلِّمْه الناس، وقيل: حَدِّثْ نفسك كل وقت فاشكره شكرًا متجددًا كما تتواتر وتتجدد عليك النعم، وقيل: حَدِّثْ غيرك لتحببني إليهم، وكان الحسين بن علي يقول: إذا علمت خيرًا فَحَدِّثْ به إخوانك، وذكر الأصم أن النبي ﷺ كان يختم مجالسه فيقول: «كنت يتيمًا فآواني الله، وكنت ضالاً فهداني الله، وكنت عائلاً فأغناني الله» وتأول الآية على ذلك في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

ومتى قيل: هل يطلق أنه كان ضالاًّ؟

قلنا: لا، وإن ورد به القرآن؛ لأنه يوهم الضلال عن الدين.

ومتى قيل: كيف يحسن الامتنان بالنعم من أكرم الأكرمين؟

قلنا: إذا كان قصده أن ينقطع إليه في أمثاله حسن، وقيل: إنما تكون المنة مذمومة لما فيها من المشقة على النفس، وأما من الخالق فلا يشق على النفس، وقيل: إنما ذكر تنبيهًا على الشكر ليحصل له المزيد فيكون غاية الجود.

---

(١) يحملون: غير واضح في غ.وما أثبتناه من: تفسير القرطبي٢٠/ ٩٢. والبحر المديد: ٧/ ٨٠، والكشف والبيان للثعلبي: ١٤/ ٤١.

(٢) سمي: زيادة من تفسير القرطبي ٢٠/ ٩٣.

۞ الأحكام

السورة تتضمن أحكامًا:

منها: دلالة قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ على مقدماتٍ[1] جَرَتْ، وقد بَيَّنَّا ما قيل فيه، وأن الوحي تأخر، وَبَيَّنَّا ما قيلُ في سبب التأخير، وأن الصحيح -إن صح- أنه تأخر لمصلحة كما أوحي إليه بعد أربعين سنة، ومن أصحابنا من قال: يجوز أن يكون ذلك لزلة، وإن كانت صغيرة؛ لأن ذلك يستعظم منهم، وجوز القاضي هذا الوجه، وهذا يحمل على أنه لا يتعلق بحالة التأخير مصلحة للمكلفين، وإلا فلا يجوز تأخير بيان المصالح لصغيرة له، والمعتمد هو الوجه الأول.

ومنها: الترغيب في الآخرة بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾؛ لأنها تدوم، وتخلص من الشوائب بخلاف الدنيا.

ومنها: بيان نعمه عليه من حال صغره إلى كبره، والمراد به جميع المكلفين؛ لأن أحدًا لا يخلو من نعمه طرفة عين، فينبغي أن نشكر ذلك على أبلغ الوجوه.

ومنها: وجوب الإحسان إلى اليتيم والسائل إما بإعطاء شيء وإما[2] رَدٌّ بإحسان.

ومنها: وجوب الشكر والتحديث به.

ومنها: أن القهر والتحديث فعله ليس بخلق الله تعالى.

۞ فصـل

وتكبيرات ابن كثير من سورة ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ إلى آخر القرآن عند خاتمة كل سورة إلا في رواية ابن فليح عنه، وقيل: إنه بجمع القراء، والصحيح ألاّ يصل التكبير بأول السورة ولا بآخرها.

واختلفوا في كيفية التكبير، فقيل: يقول مرة: الله أكبر، وقيل: لا إله إلا الله، والله أكبر، والظاهر من مذهب القراء أنهم لا يكبرون.

---

(١) مقدمات: مقدمت؛ غ.

(٢) وإما: أو؛ غ.

سُورَةُ الشَّرْحِ

سورة (الشرح) مكية فيما روي، وهي ثماني[1] آيات.

وعن زر بن حبيش عن النبي ﷺ: «من قرأ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فكأنما جاءني وأنا مغتم، ففرج عني».

واتصل بسورة (والضحى) اتصال ذكر نعمة بأمثالها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ بسكون السين فيهما، وقرأ أبو جعفر بضم السين[2]، وفي خبر ابن مسعود: «**إن مع العسر يسرًا**» مرة واحدة غير متكررة[3]، وهذا لا يصح الاعتماد عليه؛ لأنه من الآحاد.

---

(١) ثماني: ثمان؛ غ.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ١٧١.

(٣) فتح القدير ٥/ ٦٥٦.

اللغة

الشرح: قيل: الفتح، وشرح الصدر فتحه بإذهاب الشواغل، وأصل الشرح: السعة، ويعبر عن السرور بسعة القلب وشرحه، وعن الهم بضيق القلب؛ لأنه يورث ذلك، يقول: انشرح صدري(١) بهذا الأمر، وضاق صدري بهذا الأمر.

والوزر: من الثقل، ومنه: الوزير لأنه يحمل الثقل عن الملك، والأوزار: الذنوب لأنها تثقل على صاحبها، ومنه: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ [الأنعام: ٣١].

والنقض والهدم من النظائر، وهو إبطال البناء بالتفريق، ونقض المذاهب إبطالها بما يفسدها، والأنقاض: ألأثقال التي(٢) كاد ينقض به ما حمل عليه، أَنْقَضَ يُنْقِضُ إِنقاضًا.

والنصب: التعب، نَصِبَ يَنْصَبُ: إذا تعب في عمله بالدوام فيه.

المعنى

«أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ» قيل: ألم نفتح ونوسع قلبك بالنبوة والعلم؟! يعني فعلنا في قلبك السعة وطيب النفس بما عرفك من أمر دينه، ووفقك لطاعته، حتى قمت بأداء الرسالة، وأطعت الله، واستحققت الثواب، وقيل: ألم نشرح عنك الهموم حتى تثبت في ذلك، عن أبي مسلم. وهذا استفهام والمراد التقرير، أي: شرحنا، وقيل: هو الألطاف التي ترد عليه من الله من تقوية قلبه ونصرته ووعده حتى لم يشق عليه أداء الرسالة، واحتمال الأذى في ذلك؛ لأن ذلك من أعظم ما يحتاج فيه إلى ما يزيل عنه ضيق الصدر والتبرم بها؛ لما يناله من أذى المخالفين مع كثرتهم، وقيل: كان النبي ﷺ يضيق صدره بما يرى من كفرهم وتكذيبهم وأذاهم، فشرح الله صدره حتى كان لا يضجر، ولا يضيق صدره، وذلك من أعظم النعم، وعن النبي ﷺ أنه سئل عن شرح الصدر وعلامته، فقال: «التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود،

---

(١) صدري: صري،.

(٢) الأثقال التي: ألا يقال الذي، غ. وما أثبتناه، من تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ٣٤٤.

والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[١] «**وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ. الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ**» قيل: ذنبك، عن مجاهد، والضحاك، وابن زيد، وأبي علي. وقيل: الوزر الذي كان عليه في الجاهلية قبل النبوة، عن الحسن. وقيل: أزلنا عنك همومك التي ثقلت عليك من أذى الكفار بأن نصرناك عليهم، فشبه الهموم بالحمل، والعرب تجعل الهم ثقلاً، عن أبي مسلم. وهذا أحسن ما قيل فيه. «**الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ**» قيل: أثقل، عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد. وبعير نِقْضٌ: إذا أثقله السفر، فصار مهزولاً، وقيل: كُسر ظهرك حتى سمع نقيضه؛ أي: صوته، عن الفراء. وهذا استعارة وتشبيه.

ومتى قيل: إذا كانت ذنوب الأنبياء صغائر فلماذا وصف بهذه المبالغة؟

قلنا: لشدة اغتمامهم بها، وتحسرهم على وقوعها مع ندم عليها، وعلى ما أوله أبو مسلم لا سؤال عليه، وقيل: لأن محلهم عند الله أعظم، ونعمه أكثر، فكان ذنبهم أعظم، وقيل: لأن الأمر أعظم، وقيل: المراد به ذنوب أمته، فأضافه إليه لاهتمامه به، وقيل: ما وقع سهوًا، وخطأ، وقيل: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ يعني: خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بأمرها، وإن كان أمرًا ثقيلاً، عن أبي عبيدة. وقيل: عصمناك عن الوزر، فسمى عصمته وضعًا أي: لولا العصمة لأنقض ظهرك.

«**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**» قيل: بأني لا أُذْكَرُ إلا ذُكِرْتَ، كقولهم: لا إله إلا الله محمد رسول الله، عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، ورواه أبو سعيد الخدري مرفوعًا، وقيل: رفعنا لك ذكرك بأن جعلناك خاتم الأنبياء، ورفع الذكر هو عظم القدر[٢]، وقيل: جعلت تمام الإيمان بي بذكرك معي، وقيل: رفعنا ذكرك في السماء عند الملائكة، وقيل: بأخذ ميثاقه على النبيين وإلزامهم للإيمان به، وقيل: رفع ذكره عند المؤمنين في الأرض، وعند الملائكة في السماء، عن أبي علي. وقيل: صُيِّرَ مَفْزَعَ الخلق في الشفاعة يوم القيامة «**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**» قيل: بما نَصَبَ[٣] من الكفار من الأذى عسر معه يسر، وقيل: هو تنبيه على كثرة النعم، وقلة الشدائد؛ لأن

---

(١) المستدرك رقم ٧٨٦٣.

(٢) عظم القدر: النباهة وعظم، غ.

(٣) نصب: نصيب، غ.

اليسر هو النعم والعسر هو الشدائد والمحن، عن أبي علي. وقيل: أراد اليسرين في الدنيا، فَيُسْرٌ يغلب العسر، فيكون الرخاء أكثر من الشدة، والصحة أكثر من المرض، وذلك حث على الشكر، وقيل: بشره بالفتوح، وقيل: أراد أحد اليسرين في الدنيا والثاني في الآخرة، كأنه قيل: إن مع العسر يسرًا في الدنيا ويسرًا في الآخرة.

وروي أن النبي ﷺ قال عند نزول هذه الآية: «لن يغلب عسر يُسْرَيْنِ»[1]. واختلف العلماء في تأويل الخبر، فقال بعضهم: اليسر مُنَكَّرٌ، فكان الثاني غير الأول، والعسر مُعرَّفٌ فكان الثاني هو الأول، وقيل: لن يغلب العسر يسر الدارين، وإن غلب فيغلب يسر الدنيا، ذكره الجرجاني صاحب النظم، وزَيَّفَ المعنى الأولَ، وليس كذلك؛ لأن ذلك معنى صحيح عند أكثر العلماء، وقيل: مع عسر الدنيا يسر الآخرة، وهو الجنة والجزاء.

«فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ» قيل: إذا فرغت من صلاتك فانصب إلى ربك في الدعاء ومسألة الحوائج، وارغب إليه، عن قتادة، والضحاك. وقيل: إذا فرغت من فرضك فانصب إلى ما رغبك الله فيه من العمل، عن ابن عباس. وقيل: إذا فرغت من جهاد أعدائك فانصب إلى ربك بالعبادة له، عن الحسن، وابن زيد. وقيل: إذا فرغت من أمور دنياك فانصب إلى عبادة ربك، عن مجاهد، وأبي علي. وقيل: إذا خلوت فانصب إلى الله بالعبادة، والفراغ: الخلو، والنصب: التعب[2]، فأمره بالعبادة عند خلوه، والرغبة إليه ليأتيه اليسر بعد العسر، عن أبي مسلم. وقيل: إذا فرغت مما لا بد لك منه من أمور دنياك فانصب لما تعبدت به من الإبلاغ والعبادة، وقيل: إذا فرغت من جهاد الأعداء فانصب بجهاد نفسك، وقيل: إذا فرغت من أداء الرسالة فانصب لطلب الشفاعة، وقيل: أراد ذكر الله على فراغ القلب من أمر النبوة وأعباء الرسالة، وقيل: إذا فرغت من الركوع والسجود والقراءة فانصب إلى ربك بالدعاء، عن الأصم، وحكي عن قوم أن المراد به الأمر بالجهاد، وزيفه بأن السورة مكية، ولم يك ثَمَّ جهاد، وقيل: إذا فرغت من أداء الرسالة فانصب للاستغفار للمؤمنين، وإلى

---

(١) المستدرك رقم ٣١٧٦.

(٢) التعب: والتعب؛ غ.

ربك فارغب في جميع أحوالك، والتماس ما تحتاج إليه دِينًا وَدُنْيًا لا إلى سواه فإنه قاضي الحاجات القادر على ذلك، وذكر بعض الجهال أن سورة (الضحى) و(ألم نشرح) واحدة، وهذا باطل؛ لأنا بالطريق الذي به علمنا فضل السورة بذلك علمنا أنهما سورتان؛ ألا ترى أنه فصل بينهما بالتسمية، وتواتر النقل بأنهما سورتان.

❁ الأحكام

السورة تتضمن أحكامًا:

منها: بيان نعم الله على نبيه الموجبة للشكر، ونعمه على أمته به.

ومنها: ما شرح من صدره بألطافه وتأييده حتى قام بأمر النبوة مع عظمه وكثرة أعدائه، وقيل: إن شرح الصدر ثواب، ويحكى ذلك عن أبي علي. وقيل: هو من باب الألطاف، وهو الصحيح.

ومنها: أنه أزال عنه وزره، وحمله أبو علي على الصغائر، وأنها وإن صغرت فلأنه يشتغل قلبه بها مع عظيم نعم الله عليه، كأنه ثقل على ظهره، والأولى في ذلك ما قاله أبو مسلم أنه أزال عنه الهموم؛ إذ لم يرد عنه ذنب تحمل الآية عليه.

ومنها: رفع ذكره، فلا يصح الإيمان والصلاة والأذان إلا بذكره.

ومنها: كثرة نعمه على عباده، وغلبة اليسر على العسر، فيجب الشكر عند النعمة، والصبر عند البلاء.

ومنها: أنه يكره الفراغ، فوجب أن يستغل إما بعبادة وإما[1] أمر معاشه، وفي الخبر: «أن الله تعالى يبغض الصحيح الفارغ».

ومنها: أن الدنيا دار شغل ونصب، وإنما الراحة والدعة في الآخرة.

(١) وإما: أو، غ.

سُورَةُ التِّين

سورة (التين) مكية، وهي ثماني(1) آيات.

وعن أُبيّ بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة ﴿وَٱلتِّينِ﴾ أعطاه الله خصلتين: العافية، واليقين، ما دام في الدنيا، وإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة صيام يوم».

ولما ختم سورة (ألم نشرح) بالأمر بالرغبة إليه، افتتح هذه السورة بأنه الذي خلق الخلق، ونقلهم من حال إلى حال، وهو الله تعالى، فالواجب أن يُعْبَدَ هو، وتسأل الحاجات منه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿سِينِينَ﴾ وعن عمر: (سينا).

(1) ثماني: ثمان، غ.

وقراءة العامة: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، وعن ابن مسعود: (أسفل السافلين) بالألف واللام[1].

۞ اللغة

الطور: الجبل. والتقويم: تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون من التأليف والاستقامة، قَوَّمَهُ تقويمًا، واستقام استقامة، وتقومًا[2].

وأسفل: أفعل من السُّفُلِّ: وهو خلاف العُلُوِّ.

والمن: أصله القطع، ومنه: المنون والمنية؛ لأنه يقطع الحياة.

والدين: الجزاء، والدين: الحساب، والدين: ما يدان به، والدين: العادة.

۞ المعنى

«وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ» قسم من الله تعالى، قيل: بهذه الأشياء، وقيل: بربهما، وخصهما بالذكر لما فيهما من النفع والقدرة في خلقته، بخلاف سائر الأشجار، فالتين يخرج من خشب، والزيتون يخرج منه الدهن، واختلفوا في معناهما، فالتين الذي يؤكل، والزيتون الذي يعصر، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وقتادة، وعكرمة، وإبراهيم، وجابر بن زيد، ومقاتل، والكلبي، وأبي علي، وأبي مسلم. وهو الصحيح؛ لأنه الظاهر، فلا يترك ذلك من غير دليل، وقيل: التين مسجد نوح، والزيتون بيت المقدس، عن ابن عباس. وقيل: هما مسجدان بالشام، عن الضحاك. وقيل: التين مسجد أصحاب الكهف، والزيتون مسجد إيليا، عن محمد بن كعب، وعلى هذا تقديره: منابت التين والزيتون، وذكر الأصم أنه تعالى ذكر التين والزيتون وطور سينين؛ لأنه تعالى يُنْبِتُهُمَا في ذلك الجبل، هذا دسم وهذا حلو، دالاً بذلك على قدرته، وقيل: هما جبلان، عن عكرمة. وقيل: التين الكوفة، والزيتون الشام، وقيل: أقسم بمنابت الأنبياء، وقيل: التين المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى، عن الضحاك.

---

(١) تفسير القرطبي ٢٠/١٠٦.

(٢) تقوما: تقوم، غ.

«وَطُورِ سِينِينَ» قيل: الطور الجبل الذي كلم الله عليه موسى، عن الحسن. قال أبو علي: طور سينين اسم لذلك الجبل، وهو عظيم الشأن لهذا المعنى، وقيل: «سينين» حسن؛ لأنه كثير النبات والشجر، عن عكرمة. وقيل: سينين مبارك، عن مجاهد، وقتادة. كأنه قيل: جبل كثير الخير، وقيل: كل جبل فيه شجر مثمر فهو طور سينين، عن مقاتل. «وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ» يعني الآمن، وهو مكة باتفاق المفسرين «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» هذا موضع القسم، أقسم أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، قيل: في أحسن صورةٍ، عن إبراهيم، وقتادة، ومجاهد. وقيل: منتصب القامة وسائر الحيوان منكب إلا الإنسان، عن ابن عباس. وقيل: خلقهم على كمال في أنفسهم، مزينًا بالعقل، مصورًا بأحسن صورة، مميزًا بالنطق، مؤدبًا بالأمر والنهي إلى غير ذلك، وذلك مما يختص به الإنسان، وقيل: قوّم أعضاءه وجوارحه، وأحكمه وحسنه، عن أبي مسلم. وقيل: فيه إشارة إلى حال الشباب «ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ» قيل: أرذل العمر، عن ابن عباس، وإبراهيم، وقتادة، وأبي مسلم. وعلى هذا الاستثناء منقطع، فهو بعد النضارة والقوة، والحسن إلى الضعف والنقص، وقيل: ثم رددناه إلى النار في أقبح صورة، عن الحسن، ومجاهد، وابن زيد، وأبي علي؛ لأنه لم يشكره على نعمه عليه، وعلى هذا الاستثناء صحيح، فالمراد بالمتقدم المكلفون، والمستثنى المؤمنون، وقيل: هم قوم ردوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله صلى الله عليه، فأنزل الله ذلك، فأخبر أن لهم أجرهم على الذي[1] عملوا قبل أن تذهب عقولهم، وقيل: المراد به الكفار، أي: خلقناهم في أحسن خلقة أحرارًا عقلاء مكلفين فكفروا فرددناهم أسفل سافلين بالرق والعبودية، ثم استثنى فقال: «إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

ومتى قيل: كيف يصح هذا الاستثناء عما تقدم؟

قلنا: أما على القول الأول: ثم يردون إلى أرذل العمر فزالت[2] عقولهم وانقطعت أعمالهم فلا تكتب لهم حسنة، ولا عليهم سيئة، إلا الذين آمنوا وعملوا

---

(١) الذي: الذين، غ. وما أثبتناه من: تفسير الطبري: ٢٤/ ٥٠٨. والكشف والبيان للثعلبي: ١٤/ ١٥٢. وتفسير البغوي: ٨/ ٤٧٢. وفي جميعها: لهم أجرهم الذي عملوا.

(٢) فزالت: فزال، غ.

الصالحات فتكتب لهم في حال هرمهم مثل ما كانوا يعملون في حال شبابهم وصحتهم، وقيل: (إلا) بمعنى (لكن)، وهو الوجه، وقيل: إلا الذين آمنوا فإنهم يبقون شبابًا أقوياء في الجنة، والباقون يبقون في حال السفال والضعف في النار.

فأما على المعنى الثاني: فالاستثناء صحيح بمعنى إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فشكروا المنعم، وراعوا حق مولاهم، وعبدوه.

«فَلَهُمْ أَجْرٌ» جزاء وهو الثواب «غَيْرُ مَمْنُونٍ» أي: غير مقطوع، عن أبي مسلم. وقيل: غير منقوص، وقيل: غير محسوب، عن مجاهد. وقيل: غير مكدر مما يؤذي ويغم، وهو ما يمن عليه فيه فينغصه بامتنانه، عن أبي علي. «فَمَا يُكَذِّبُكَ» قيل: ما يكذبك أيها الرسول بعد هذه الحجج؟! عن مجاهد. أي: لا شيء يكذبك، وقيل: فمن يكذبك بعدها، عن قتادة. وقيل: ما يحمل الإنسان بعد هذه النعم وهذا البيان أن يكذب الله ورسوله في الدين الذي أتاهم به، عن أبي علي. «بِالدِّينِ» قيل: بالجزاء والحساب، عن الحسن، وعكرمة، وأبي مسلم. وقيل: الدين هو الإسلام، عن أبي علي. وقيل: الخطاب للمكذبين، وقيل: بل الخطاب للنبي صلى الله عليه، والمراد أنه ليس بمكذب بالقيامة ولا شاك فيها «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ» صنعًا وتدبرًا؛ إذ لا خلل فيه، ولا اضطراب، وهذا استفهام، والمراد أنه أحكم الحاكمين.

ومتى قيل: كيف يتصل هذا بما قبله من ذكر الجزاء؟

قيل: تنبيهًا على الإعادة؛ لأن الحكيم إذا كلف وخَلَّى بين الظالم والمظلوم، فلا بد من جزاء وانتصاف، فإذا لم يكن في الدنيا فلا بد من البعث، وإن لم يفعل ذلك لَمَا كان حكيمًا وهو أحكم الحاكمين، فلا بد من دار للجزاء، قال قتادة: وكان رسول الله صلى الله عليه إذا تلا هذه الآية قال: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»(١).

۞ الأحكام

السورة تتضمن أحكامًا:

منها: عظم حال المقسم به في القدرة والنعمة.

(١) الترمذي رقم ٣٣٤٧.

ومنها: أنه خلق الإنسان على أحسن صورة وأكملها، وكان ذلك من عظيم نعمه الموجبة للشكر.

ومنها: أن مع حسن صورته قد فعل بنفسه ما أورده أسفل السافلين إلا المؤمنين فإن لهم[1] الجنة.

ومنها: أنه لا عذر للمكذب؛ إذ بَيَّنَ الله تعالى وهدى، وأزاح العلة، فلا وجه يوجب الارتياب.

ومنها: أن التكذيب ليس بخلق له؛ إذ من العجب أن يخلق التكذيب ثم يقول: «**فما يكذبك**».

وكذلك يدل قوله: ﴿بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾؛ لأن خلق الكفر والظلم والسفه، وعبادة الأصنام، وسب الرحمن، وقتل الأنبياء ينافي الحكمة.

(١) لهم: له، غ.

سُورَةُ العَلَق

سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ مكية، وهي سبع عشرة آية.

وعن أُبَيّ، عن النبي ﷺ: «من قرأ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ فكأنما قرأ المفصل كله».

ولما ختم سورة (والتين) بأنه أحكم الحاكمين، افتتح هذه السورة بالأمر بذكر اسمه؛ إذ كان أحكم الحاكمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (٢) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (٣) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ (٥) كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ (٦) أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ (٨)﴾

القراءة

قرأ أبو عمرو: «رَئِيه» بفتح الراء وكسره الهمزة، وقرأ نافع وحفص عن عاصم: «رَءَاهُ» بالفتح، وقرأ الباقون: «رِءَاهُ» وبعد الهمزة ألف على وزن: (رِعاء) على إمالة الفتحة، وأبو عمرو يميل الألف.

اللغة

القراءة: التلاوة، وأصله الجمع، ومنه: قرأت الماء في الحوض، والمِقْرَاةُ: الحوض.

والعلق: القطعة من الدم تتعلق بما يمر به لرطوبتها، فإذا جفت فليست[(١)] بعلق، واحدها: علقة، وإنما جمع لأن الإنسان اسم للجنس.

والأكرم[(٢)]: الأعظم كرمًا، وهو المختص بذلك؛ إذ يعطي ما لا يقدر عليه غيره من النعم، وكل نعمة هو الذي ابتدأها وأنعم بها.

والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان.

والرجعى: «الفُعْلَى» من الرجوع، وهو الرجوع إلى دار الآخرة حيًّا بعد الموت.

النزول

قيل: أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ ، عن عائشة، ومجاهد، وعطاء بن يسار.

وقيل: أول ما[(٣)] نزل منها خمس آيات إلى قوله: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ ، ثم نزل باقي السورة بعد ذلك، عن جماعة من المفسرين، وروي نحوه عن عائشة.

وقيل: نزل بعده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، وذلك أنه لما أتاه الوحي رجع إلى خديجة متغيرًا، وقال: «دثروني، زملوني»[(٤)] فَدُثِّرَ فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ ، ثم نزل بعد ذلك: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ [القلم: ١] إلى قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤]، ثم نزل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ .

وقال عبد الله بن شداد: نزلت: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ ثم أبطأ جبريل، ثم نزل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ .

---

(١) فليست: فليس، غ.

(٢) والأكرم: والإكرام، غ. وما أثبتناه من: تفسير التبيان ١٠/ ٣٧٩.

(٣) ما: من، غ.

(٤) الترمذي رقم ٣٣٢٥.

وقيل: أول سورة نزلت (فاتحة الكتاب)، عن عمرو بن شرحبيل. وليس بشيء؛ لأن الإجماع على أن أول ما نزل ﴿ٱقْرَأْ﴾.

وذكر بعضهم أن جبريل قال له: «اقرأ، فقال: وما أقرأ، قال: اقرأ باسم ربك».

وروي أنه لما نزلت هذه السورة جاء رسول الله ﷺ إلى أبي قال: «أمرني جبريل أن أقرأ عليك».

۞ المعنى

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ قيل: استفتح باسم الله قراءة القرآن، فأمره بالابتداء بذكره، ثم بالقراءة، عن أبي مسلم. وقيل: اقرأ باسم ربك المنزل عليك، عن أبي علي. وقيل: اقرأ على اسم الله.

ومتى قيل: لِمَ وجب، أن في تعظيم الاسم تعظيم المسمى؟

قلنا: قيل: لأن الاسم ذكر الشيء بما يخصه فلا سبيل إلى تعظيمه إلا بمعناه، ولأن اسم الله تعالى يفيد مدح وتعظيم وتمجيد[1] إجراء الألقاب عليه.

«**ٱلَّذِي خَلَقَ**» الأشياء مقدرًا تحت حكمته، وعلى ما أراد «[**خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ**] **مِنْ عَلَقٍ**» وهو الدم الجامد الذي تستحيل النطفة إليه في الرحم، وإنما ذكر العلقة وإن كان له أحوال أخر؛ لأنه أدخل في الاستخفاف كأنه قيل: أصله بهذا الحد من المهانة، ثم بلغ منه مبلغ الكمال منبهًا على قدرته ونعمته وحثًا على شكره وعبادته «**ٱقْرَأْ**».

ومتى قيل: لم كرر «اقرأ» وبأي شيء أمر أن يقرأ؟

قلنا: أما الأول: فقيل: أمر في الأولى[2] بالقراءة لنفسه[3]، وفي الثانية بالقراءة للتبليغ، فليس بتكرار، عن أبي علي. وقيل: كرر للتأكيد، عن أبي مسلم.

وأما الثاني: فالمقروء هو القرآن، وقيل: في الأول اسمه، وفي الثاني القرآن.

---

(١) وتمجيد: كلمة غير واضحة في غ.
(٢) الأولى: الأول، غ.
(٣) لنفسه: نفسه، غ.

«وَرَبُّكَ» أي: خالقك وسيدك «الْأَكْرَمُ» أي: لا أحد أكرم منه؛ لأن كل فعله إكرام وإحسان ونفع للغير، بخلاف غيره، فينبغي أن تعبده؛ لأنه بهذه الصفة، وقيل: بَلِّغْ قومك وأمتك بأنه أكرم من أن يكلفك ما لا يجازيك عليه وما لا قبل لك به(١)، عن أبي علي. وقيل: اقرأ فإنه لكرمه يقويك ويعينك ويظهرك ويثبتك، عن القاضي. وقيل: الأكرم: الحليم عن العباد فلا يعجل عليهم بالعقوبة «الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ» قيل: علم الخط والكتابة الذي فيها النفع العظيم فيما يتعلق بالدين والدنيا، وتقييد ما يخاف فيه النسيان وتخليده الدهر الطويل والأداء عن صاحبها حاجاته، عن أبي مسلم. قال قتادة: القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولاه لم يقم دين، ولم يصلح عيش، وقيل: القلم أحد اللسانين، وقيل: أراد علم كلامه بأن كتب لهم في اللوح المحفوظ حتى قرأه الملائكة وبلغوه الناس، عن أبي علي. وقيل: أراد نفس القلم الذي يتوصل به إلى الكتابة «عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» من أمور دينه وشرائعه وأحكامه، وقيل: جميع ما يعلم الإنسان من جهته إما بأن يضطر إليه أو نصب الدليل عليه في عقله، أو بَيَّنَ على ألسنة ملائكته ورسله، وكل ذلك مضاف إليه؛ لأنه من جهته، وقيل: المراد به ما خلق فيهم من العلوم الضرورية التي بها يكمل العقل، وبها يتم الاستدلال، والأول الوجه، وقيل: عَلَّمَ بالقلم من أمور دينه ودنياه ما لم يعلمه قبل ذلك حتى كتبه وحفظه وعلمه، ولولا تعليمه لما كان شيء من ذلك، وقيل: علم آدم الأسماء، ثم صار ذلك في أولاده، والإنسان آدم، وقيل: الإنسان محمد كقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وقيل: هو عام.

ثم بَيَّنَ أن الإنسان مع نعمه عليه يكفر بربه، ويعصي أمره، فقال: «كَلَّا» قيل: ردع وزجر؛ أي: لا تَعْصِ مع هذه النعم، وقد علمت حالك، وقيل: حقًّا «إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى» ليجاوز حده، ويستكبر عن عبادة ربه «أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى» رأى غناه، وقيل: ترفع عن منزلته إلى منزلة في لباسه وطعامه وغيرها، عن الكلبي. وقيل: بحرصه على المال والدنيا وجمعها يطغى، وقيل: معناه أن عادة الإنسان الطغيان، واتباع الشهوات

(١) وما لا قبل لك به: ومن قبل منك، غ.

والحرص على جمع المال إلا أن يقمع نفسه «أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى» قيل: لأنه رآه استغنى، يعني رأى لنفسه غنى ومالاً ودنيا، وقيل: الرؤية بمعنى الظن، أي: يظن نفسه غنيًّا، وكان رسول الله ﷺ يقول: «أعوذ بالله من فقر مُنْسٍ، وغنى مُطْغٍ». «إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى» إلى الموضع الذي يحكم فيه بين عباده لا مالك ثَمَّ إلا هو، وهو القيامة أي: كيف يطغى بماله، ويعصي ربه ورجوعه إلى الله لا مال معه ولا معين.

۞ الأحكام

الآيات تتضمن أحكامًا:

منها: خلقه الإنسان من علق، وفيه دلالة على الصانع؛ إذ خلق من علقة صورة حسنة ذات حواس وأعضاء وتراكيب عجيبة، وينقله من حال إلى حال.

ومنها: أن الكتابة والخط والقلم من عظيم نعم الله تعالى؛ لأن بذلك تستقيم أمور الدين والدنيا.

ومنها: سوء اختيار الإنسان إذا اختار الطغيان على طاعة ربه وآثر الدنيا، فيدل على أنه لم يخلق فيه الطغيان.

ومنها: أن مرجع الخلق إلى حكمه وتدبيره تحذيرًا من معاصيه، وحَثًّا على طاعته.

قوله تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

۞ اللغة

الانتهاء: الامتناع من الفعل، انتهى انتهاءً.

والسَّفْعَةُ: السواد، ومنه قيل للأثافي: سُفْعٌ، وأصله: تغير اللون بتأثير النار إلى

حال التشويه، فقال: سَفَعَتْهُ النار والشمس: إذا غيرت وجهه إلى حال التشويه، ورأى به سُفْعَةَ غَضَبٍ أي: تمعر لونه، ومنها: السَّفْعَاءُ: المرأة الشاحبة، ومنه الحديث: «أنا وسفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة لم تتزين حتى تغير وجهها واسودت، إقامة على ولدها بعد وفاة زوجها لا تضيعهم»(١)، ومنه: الأسفع: الثور الوحشي الذي في خده سواد، ومنه الحديث: «ليبعثن أقوامًا سفع من النار» أي: علامة وتشويه خلقه، وقيل: السفع الضرب، سفعت رأس فلان بالعصى ضربته، كأنه بالضرب تغير لونه، وقيل: السفع الأخذ والجذب، سفعت بالشيء قبضت عليه وجذبته جذبًا شديدًا، وحكى الخليل قال: كان قاضي البصرة مولعًا بأن يقول: اسْفَعَا بِيَدِهِ أي: خذا بيد الخصم فأقيماه، كأنه بالأخذ تغير لونه وتشوه به.

والناصية: شعر مقدم الرأس؛ لأنها متصلة بالرأس، من: نَاصَى يُنَاصِي مناصاة: إذا وصل، قال الراجز:

قِـيٍّ تُـنَـاصِـيـهَـا بِـلادٌ قِـيٍّ(٢)

والنادي: مجلس أهل الندى، فهذا أصله، ثم كثر فسمي كل مجلس ناديًا.

والزَّبْنُ: الدفع بشدة وعنف، والناقة تَزْبِنُ الحالب: تركضه برجلها، والناقة إذا كانت تلك عادتها زَبُونٌ، والحرب الزبون: الذي تدفع إلى الموت، والزبانية: لأنهم يدفعون أهل النار فيها بشدة، وزبن يزبن: إذا وقع بشدة، ومنه: بيع المزابنة: بيع التمر في رؤوس النخل، قيل: كَأَنّ كل واحد من المتبايعين يزبن صاحبه عن حقه بما يزداد منه، وقيل: إذا وقفا على البيع تدافعا حرص البائع على إمضاء البيع والمشتري على فسخه، واختلفوا في واحد الزبانية، فقيل: زِبْنِيَة، عن أبي عبيدة، وقيل: زِبْنِيّ، عن الكسائي، وقيل: زابِنٌ، عن الأخفش، وقيل: زَبَانِيّ، وقيل: يجوز أن يكون اسمًا للجميع كأبابيل.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، رقم ٢٤٠٥٢ بمعناه.

(٢) البيت قائله العجاج، وتمامه:

وبـلـدةٍ نـيـاطـهـا نـطـي قـي تـنـاصـيـهـا بـلادٌ قـيٌّ

اللسان (قوای)، (نطا)؛ تاج العروس (قوای).

۞ الإعراب

﴿أَرَءَيْتَ﴾ استفهام، والمراد التقرير، وجوابه محذوف، تقديره: أرأيت هذا الناهي وفعل ما فعل ما الذي يستحق بذلك من العذاب، وقيل: ما يكون حاله غدًا، وذلك تفخيم لأمر العذاب، وقيل: إنه هو الضال المستحق للنار.

والمراد بالنون في قوله: «لنسفعن» الثقيلة.

۞ النزول

قيل: نزلت الآيات في أبي جهل بن هشام لعنه الله لما نهى النبي صلى الله [عليه وآله] عن الصلاة، عن ابن عباس، وقتادة.

وقيل: قال أبو جهل لقومه: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: لئن فعل ذلك لأطأن عنقه، قالوا: ها هو ذاك يصلي، فانطلق ثم أدبر هاربًا، فقالوا: ما لك؟ قال: إن بيني وبينه لخندق من نار، فنزلت: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾.

وقيل: قال أبو جهل للنبي ﷺ: ألم أَنْهَكَ عن الصلاة، فانتهره رسول الله ﷺ، فقال أبو جهل: أتهددني وأنا أكبر أهل هذا الوادي، لأملأن عليك إن شئت هذا الوادي خيلاً جردًا ورجالاً مردًا، فنزلت: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾، فقال ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوا»[1].

۞ النظم

يقال: كيف اتصل: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ بما قبله؟

قلنا: لما رأى أنه استغنى طغى وعَتَا ونهى العبد الذي صلى.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى من ينهى عن الصلاة، فقال سبحانه: «أَرَأَيْتَ» يا محمد «الَّذِي

(١) مسند أحمد رقم ٨٨١٧.

يَنْهَى. عَبْدًا إِذَا صَلَّى» قيل: هو أبو جهل نهى النبي ﷺ، وذكر النهي وأراد به التهديد والتقريع، وقيل: بل هو عام لمن كان بهذه الصفة، وقيل: هذا تعجيب مشوب بوعيد، عن أبي مسلم. يعني أرأيت من يمنع المؤمنين عن الصلاة ما يكون حاله، وما يستحق من العذاب، عن أبي علي. «**أَرَأَيْتَ**» يا محمد لو أن هذا المصلي كان على هدى وطريق الحق فعلاً واعتقادًا، وأن هذا الطاغي المانع من الصلاة، وعن الأمر بالتقوى كان مبطلاً، وظنه خطأ وتقليده فاسدًا أليس يكون مهلكًا نفسه؟!«**أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى**» قيل: على وجه التبليغ، يريد النبي ﷺ؛ لأن كونه على الهدى والدعاء إلى التقوى يليق به، وقيل: بل هو عام في كل مصلٍّ أمر بحق «**أَرَأَيْتَ**» يا محمد «**إِنْ كَذَّبَ**» الله ورسوله «**وَتَوَلَّى**» أعرض عن القبول ما يكون حاله في تكذيب المحق، والإعراض عن الحق، والمنع عن عبادة الله يوم القيامة في العذاب، فأشار إلى وجوب الاحتياط واتباع الحق، فقال: «**أرأيت إن كان**» مبطلاً أليس قد أهلك نفسه «**أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى**» يرى ما يأتيه هذا المكذب، فيعلم أنه يؤاخذه به، أشار إلى أن علم الإنسان بأن الله يرى ما يفعله يمنعه من ارتكاب المعاصي «**كَلَّا**» ردع وزجر لهذا الناهي عن فعله، وقيل: معناه حقًا، أي: «**[لَئِنْ] لَمْ يَنْتَهِ**» أي: لم يمتنع عن هذا الفعل وهو الذي تقدم ذكره، وعن القول الذي قال: «**لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ**» قيل: لَنَجُرَّنَّهُ بناصيته إلى النار، عن أبي علي. وقيل: معناه: لَنُسَوِّدَنَّ وجهه، فكنى بالناصية عن الوجه لأنها في مقدمة الوجه، وقيل: لَنُعَلِّمَنَّهُ علامة أهل النار من تسويد الوجه، وزرق العين، وقيل: لنأخذن بالناصية إلى النار، كقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]، وفي الأخذ بالناصية استخفاف عظيم وإهانة لهم، وقيل: لنذلنه ولنقيمنه مقام الأذلة، وقيل: لنضربنه، وقيل: هو تأثير النار في وجهه أي: لنحرقن وجهه بالنار، عن أبي مسلم.

ثم وصف ناصية ذلك الكافر فقال: «**نَاصِيَةٍ**» وهي بدل من الناصية الأولى كأنه خاطبها، أي: ناصية من يكذب على الله ورسوله خاطئ في اعتقاده وأفعاله، ووصف الناصية بهذا توسعًا، والمراد به صاحب الناصية، كقولهم: نهار صائم، وليل قائم[1]،

(١) نهار صائم وليل قائم: نهاره صوم وليله قوم، غ. انظر، القرطبي ٢٠/ ٣٩. واللسان (أمر).

وإنما يصام وينام فيهما فيضاف إليهما للمجاورة «فَلْيَدْعُ نَادِيَه» أي: أتباعه وأهل مجلسه، وكانوا يستغيثون بهم في الحوادث، أي: فليدع أولئك ليروا ما نزل بهم جميعًا، لا يجدون ناصرًا، ولا يهتدون حيلة «سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ» هم الملائكة، عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والضحاك. سُمُّوا بذلك لأنهم لقوتهم يدفعون أهل النار فيها بشدة «كَلَّا» ردع وزجر، أي: ليس الأمر كما ظنوا، فلا تطعهم في النهي عن الصلاة، وقيل: حَقًّا إنه مبطل فلا تطعه، وقيل: معناه: إياك أن تطيعه «وَاسْجُدْ» لله، قيل: صلِّ «وَاقْتَرِبْ» قيل: تقرب إلى الله بالمواظبة على طاعته فإن أبا جهل وغيره لا يقدرون على مضرتك، فالله يعصمك، وقيل: اسجد أنت[(١)] يا محمد، واقترب يا أبا جهل، فالأول أمر، والثاني تهديد، يعني إن قَرَّبْتُ لأعذبنك، والصحيح أن المراد بما في هذه السورة النبي ﷺ.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ على قبح النهي عن الصلاة، وعن كل طاعة وهدى، فيتضمن الدلالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويدل قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ أنه يرى الأشياء، وحقيقته جائز، فلا معنى للعدول عن الظاهر، خلاف ما تقوله البغدادية أن معناه يعلم.

ويدل قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ على أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وتدل على تهديد لهذا الكافر.

ويدل قوله: ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أن التكذيب فعله، ليس بخلق الله تعالى.

(١) أنت: إنك، غ.

سُورَةُ ٱلْقَدْرِ

سورة (القدر) مكية، عن ابن عباس، وقتادة. وقيل: هي مدنية عند أكثر المفسرين، قال الواقدي: هي أول سورة نزلت بالمدينة.

وهي خمس آيات.

وعن أُبيّ، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (القدرُ) أُعْطِيَ من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر».

وقيل: لما أمره بالقرآن وقراءته في سورة (اقرأ)، وعظم بيانه، بَيَّنَ أن إنزاله في ليلة القدر، عن أبي مسلم.

وقيل: لما أمر بالسجود والتقرب إلى الله في خاتمة سورة (اقرأ) اتصل به ذكر ليلة القدر، فإن التقرب فيها يزيد على سائر الليالي والأيام، كأنه قيل: تقرب في عموم الأحوال خصوصًا في ليلة القدر.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾

۞ القراءة

قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والكسائي وخلف بن هشام: «مَطْلِع» بكسر اللام، الباقون بالفتح[1]، والفتح: هو الطلوع، مصدر طلع يطلع طلوعًا ومطلَعًا، وبالكسر: موضع الطلوع.

قراءة العامة: ﴿تَنَزَّلُ﴾ بالتشديد، وعن طلحة بن مصرف: «تنزل» بالتخفيف من النزول[2].

قراءة العامة: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ ، وعن ابن عباس: (أمري)، ومعناه: قيل: من كل ملك، فعبر عن الملك بأمري، وقيل: (من) بمعنى (على) أي: على كل أمري.

۞ اللغة

القدْر والقدَر سواء، وقيل: إذا سكنت الدال فهو مصدر، وإذا فتحت فهو اسم، والقدر: الخَلْقُ، وإمضاء الأمور، والقَدْرُ: كون الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان، يقال: قَدَرَ الله هذا الأمر يَقْدُرُهُ قَدْرًا، أي: جعله على مقدار ما تدعو إليه الحكمة.

والشهر: عدد من الأيام معلوم، أخذ من الشهرة بين الناس لحاجاتهم إليها.

والفجر: الصبح، وأصله الشق، ومنه: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣]، والنهار يظهر من في الليل بالفجر كأنه ينشق منه.

۞ الإعراب

الهاء في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ قيل: كناية عن القرآن، وهي كناية [عن] غير مذكور، كقوله: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، والعرب تفعل ذلك، لعلم المخاطب به.

---

(١) حجة القراءات ٧٦٨.

(٢) الذي في تفسير القرطبي ٢٠/ ١٢٣، وفتح القدير ٥/ ٦٧١: أنه قرأ (تنزل) بضم التاء على البناء للمجهول.

و﴿تَنَزَّلُ﴾ أصله «تَتَنَزَّلُ» اجتمعت تاءان، فحذفت إحداهما تخفيفًا.

۞ النزول

قيل: رأى رسول الله ﷺ أعمار الأمم، وأن عمر أمته لا يبلغ أعمارهم، فتمنى لأمته مثل ذلك ليعبدوا الله تعالى، فنزل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ السورة.

۞ المعنى

«إِنَّا أَنزَلْنَاهُ» يعني القرآن «فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» فيه ثلاثة أقوال:

أولها: أنزلنا القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل على رسول الله صلى الله عليه نجومًا، عن ابن عباس.

وقيل: كان يُنْزِلُ في كل سنة في ليلة القدر إلى سماء الدنيا ما يريد إنزاله في تلك السنة على نبيه متفرقًا، ثم كذلك في سنة سنة، عن أبي علي.

وقيل: إنا أنزلنا ما يدين عليه العباد في ليلة القدر بمعنى بَيَّنَّا وآتينا، حكاه القاضي.

وثانيها: ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، عن الشعبي. وكان المبعث في رمضان.

وثالثها: أنزلنا القرآن في فضل ليلة القدر، والأول أولى؛ لأن أكثر المفسرين عليه، وتواتر النقل بأنه عز وجل أنزل القرآن ليلة القدر إلى سماء الدنيا.

«وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ» تفخيمًا لشأنها، وتعظيمًا لفضلها، والكلام فيه يقع من وجوه:

أولها: لم سميت ليلة القدر؟ وقيل[1]: هي ليلة الحكم، وتقدير الأشياء في تلك السنة من كل أمر[2]، عن الحسن، ومجاهد. من قولهم: قَدَرَ الله الشيء قدرًا، وَقَدَّرَهُ

(١) قيل: وقيل، غ.
(٢) أمر: أمري؛ غ.

تقديرًا بمعنى: قالوا: وهي الليلة المباركة فيها يفرق كل أمر حكيم، وسميت مباركة لأنه تعالى يُنزل فيها الخير والبركة والسعادة، وروي عن ابن عباس أنه تعالى يقضي القضايا في ليلة النصف من شعبان، ثم يسلمها إلى أربابها في ليلة القدر، فعلى هذا عنده ليلة القدر غير ليلة براءة.

وقيل: ليلة القدر ليلة الشرف والخطر وعظم الشأن من قولهم: رجل له قدر عند الناس، أي: منزلة وشرف، ومنه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٦٧] أي: ما عظموه حق عظمته عن الزهري.

وقيل: لأن من لم يكن ذا قدر، إذا أحياها صار ذا قدر، عن أبي بكر الوراق.

وقيل: لأن عمل المؤمنين فيها يكون ذا قدر، ككونه مقبولاً مضاعفًا في الأجر.

وقيل: لأنه أنزل فيها كتاب ذو قدر، إلى رسول ذي قدر، لأجل أمة ذات قدر، عَلَى يَدَيْ مَلَكٍ ذي قدر.

وقيل: لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة عند نزولهم من السماء من قوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧]، عن الخليل.

وثانيها: أي وقت هي؟

فقيل: كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه، ثم رفعت، ولأن الفضل كان لنزول القرآن فيها وقد انقطع.

وقيل: بل هو ثابت بعده وهو قول جمهور العلماء، ثم اختلفوا على قولين، وروي عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، ليلة القدر تكون على عهد الأنبياء؟ قال: «لا، بل هي إلى يوم القيامة».

وقال بعضهم: هي في السنة كلها، عن ابن مسعود، وروي نحوه عن أبي حنيفة.

وقيل: بل هي في شهر رمضان، وعليه الأكثر، والمروي عن النبي ﷺ، وهو قول ابن عمر، والحسن، وجماعة العلماء.

ثم اختلف هؤلاء في أي ليلة هي على ثلاثة أقوال: فقيل: أول ليلة، عن

أبي رزين. وقيل: ليلة سبعة عشر، وهي التي صبيحتها كانت وقعت بدر، عن الحسن. وقيل: بل هي في عشر الأواخر من شهر رمضان، وعليه الأكثر، والمروي عن النبي ﷺ: «التمسوها في العشر الأواخر».

ثم اختلف هؤلاء أي ليلة منها؟ قيل: ليلة الحادي والعشرين، عن أبي سعيد الخدري. وقيل: ليلة الثالث والعشرين، عن عمر، وابن عباس. وقيل: ليلة أربع وعشرين، عن زيد بن ثابت، ورواه بلال عن النبي ﷺ. وقيل: ليلة الخامس والعشرين، وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «التمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»، وقيل: هي ليلة السابع والعشرين، عن أبي علي، وأبي بن كعب، وابن عباس، وعائشة. وعن ابن عمر عن النبي ﷺ: «من كان متحريًا فليتحرها في ليلة سبع وعشرين» يعني ليلة القدر، وروى أبي عن النبي ﷺ أنه قال: «ليلة القدر ليلة سبع وعشرين».

وقيل: هي ليلة[1] التاسع والعشرين، وقيل: أخفى ذلك في العشر الأواخر ولم يطلع عليها أحد بعينها ليتعبد الناس في جميعها ليستدركوا فضلها.

وقيل: يجوز أن تكون في كل سنة في ليلة أخرى، فتكون في سنة ليلة ثلاث وعشرين، وفي سنة ليلة أربع وعشرين، وفي سنة ليلة خمس وعشرين، وفي سنة ليلة سبع وعشرين، فأخفى عنهم لأنه ليس في كل سنة ليلة بعينها، ذكر الوجهين أبو علي رحمه الله.

وقيل: أخفاها لنوع من المصلحة، كما أخفى الصلاة الوسطى بين الصلوات، واسمه الأعظم في الأسماء، وساعة الإجابة في ساعة الجمعة، وقيام الساعة مِنَّةً ورحمةً.

وقيل: ليالي الشهر كلها ليلة القدر؛ لأن الشهر كله ذو[2] قدر وشرف.

«**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**» قيل: هي خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر،

(١) ليلة: : لليلة، غ.
(٢) ذو: ذا، غ.

يعني العبادة فيها خير من العبادة في غيرها، وقيل: في هذه الليلة يستحق على عبادة ربه من الثواب كما يستحق في عبادة ألف شهر، قيل: لأن الله تعالى يقدر لعباده من الخير والرزق فيها ما لا يقدره في ألف شهر، فكانت هي للعبادة خيرا من ألف شهر؛ لما فيها[1] من الخير الجزيل، والنفع الكبير، عن أبي علي.

واختلفوا في التقدير بهذا التقدير، فقيل: إن النبي ﷺ رأى أعمار الأمم طويلة وأعمار أمته قصيرة، وأعمالهم لا تبلغ أعمال أولئك، فأعطاه الله ليلة القدر، العمل فيها خير من العمل في ألف شهر، عن مالك.

وقيل: ذكر رسول الله ﷺ يومًا أربعة من بني إسرائيل عبدوا الله ثمانين سنة، لم يعص واحد منهم طرفة عين: أيوب، وحِزْقِيلَ، وزكريا، ويوشع، فتعجبوا من ذلك، فنزل جبريل، فقال: «أتعجبون من ذلك، ما أنزل الله عليك أعجب، ثم قرأ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾» فسُرُّوا بذلك.

وقيل: ذكر النبي صلى الله عليه رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فتعجبوا منه، فأنزل الله: ﴿لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ يعني من يعبد من أمتك في هذه الليلة، فهو خير من فعل ذلك الرجل، عن ابن أبي نجيح. وقيل: ذلك الرجل «شمشون».

وقيل: كان لا يقال فيما مضى للرجل عابد حتى يعبد الله ألف شهر، فجعل لهذه الأمة ليلة يتعبد فيها خيرًا منها.

وقيل: كان ملك سليمان خمسمائة شهر، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر، فمن أحيا ليلة القدر فهو خير له من ملك سليمان وذي[2] القرنين، عن أبي بكر الوراق.

وقيل: ليلة القدر خير من ألف شهر ملك بني أمية، وكان ملكهم ألف شهر، عن الحسن بن علي عليهما السلام.

---

(١) فيها: فيه، غ. وما أثبتناه من: تفسير السراج المنير: ١/ ٥٢٥٠.

(٢) وذي: وذو، غ.

وقيل: ليلة القدر خير من عمر ألف شهر، عن أبي العالية.

وقيل: سلام الملائكة والروح عليك تلك الليلة خير من سلام الخلق عليك ألف شهر، عن مجاهد.

وقيل: ليلة القدر لهذه الأمة خير من ألف شهر للأمم الماضية.

«تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ» قيل: تنزل الملائكة بإذن الله إلى الأرض في تلك الليلة لفضلها، وقيل: ليسمعوا الثناء على الله وقراءة القرآن وغيرها من الأذكار، وقيل: ينزلون ليسلموا على المسلمين بأمر الله، وقيل: تنزل الملائكة إلى سماء الدنيا بما قدر الله لأهل الأرض لتقف عليه ملائكة السماء الدنيا، عن أبي علي. «وَالرُّوحُ» قيل: جبريل، وعليه أكثر المفسرين، وذكر مرفوعًا، وهو قول أبي علي. وقيل: الروح القرآن، عن أبي مسلم. وقيل: الروح طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة، عن كعب، ومقاتل. وقيل: هو ملك عظيم، عن الواقدي. «فِيهَا» أي: في ليلة القدر «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» أي: بأمره ينزلون من السماء «مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» قيل: ذلك أمر قدَّره الله وَقَضَاه في تلك السنة إلى قابل، كقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقيل: ينزلون بالأمور التي قدرها الله تعالى، وقيل: هو ما يتعلق بالدين إما القرآن وإما[1] غيره «سَلَامٌ» قيل: أراد السلامة، أي: قدر لهم السلامة، والمنافع الحسنة، والصلاح والخير، يعني: تنزل الملائكة بكل أمر قدره[2] الله تعالى من السلامة والخير، عن أبي علي. وقيل: جرت العادة بإنزال الملائكة لإهلاك القرى، فقال تعالى: ينزلون بكل أمر سلام؛ أي: بسلامة الناس فيها وأمنهم من العذاب، عن أبي مسلم. فوصف الليلة[3] بالسلامة، وأراد سلامة أهلها، وقيل: «سلام» أي: ساكنة سهلة لا رياح فيها، ولا أذى، عن أبي مسلم. وقيل: من كل أفعال الله سلام وأمن؛ لأنه يفعل المصالح دون القبائح.

(١) وإما: أو؛ غ.

(٢) بكل أمر قدره: ذاك أمر قدرها، غ. وما أثبتناه من تفسير الأعظم: ٢/ ٣١٠.

(٣) الليلة: والليل؛ غ.

ومتى قيل: فلم خص هذه الليلة؟

قلنا: لإنزال الملائكة فيها، وتقدير الآجال والأرزاق وغيرها فيها.

وقيل: لا يقضى في هذه الليلة إلا كل خير وبركة وسلامة، عن الضحاك. وفي غيرها يقضي بالسلامة وبالمضار أيضًا.

وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٍ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: ليلة القدر سلامة وخير كلها.

وقيل: هي سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءًا، عن مجاهد.

وقيل: هي تسليم الملائكة على أهل المساجد في هذه الليلة، من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر، عن الشعبي، ومنصور بن زاذان.

«هِيَ» يعني هذا التقدير والخير والنعمة، ينزلها طول هذه الليلة «حَتَّى» حرف غاية يعني إلى «مَطْلَعِ الْفَجْرِ» إلى وقت طلوع الفجر، وقيل: هي إشارة إلى الرحمة والسلامة، وأنها تبقى إلى طلوع الفجر، وقيل: هي إشارة إلى السلامة أي: من أولها إلى آخرها سليمة، لا تختلف أحوالها، عن أبي مسلم.

وسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه: ما أسأل ربي ليلة القدر؟ فقال: «قولي: إنك عفو تحب العفو فاعف عني»(١).

الأحكام

تدل الآيات على أشياء:

منها: أن القرآن أنزل ليلة القدر.

ومنها: أن القرآن محدث، فيصح الإنزال عليه.

ومنها: عظم حال ليلة القدر، وأحسن ما قيل فيه أنه يقدر فيها من النعم والرحمة لعباده ما هو خير لهم من ألف شهر.

(١) الترمذي رقم ٣٥١٣.

ومتى قيل: لِمَ عظم العبادة في هذه الليلة؟

قلنا: لكونه لطفًا في طاعات كثيرة، وعصمة عن مَعَاصٍ[1] كثيرة، وقيل: لأن المؤمن يجد في سائر الليالي لأجلها، وقيل: لأنه لأجل نزول الملائكة يكثر الطاعات، ويمتنع من القبائح.

ومنها: أن الملائكة تنزل في هذه الليلة، ولا بد أن تنزل بأمر أو وحي.

ومنها: أن ما في الليلة من الخيرات يدوم إلى آخرها.

(١) مَعَاصٍ: معاصي؛ غ.

سُورَةُ البَيِّنَة

سورة (لم يكن) وتسمى سورة (القيّمة)، وهي مدنية فيما روي.

وهي سبع آيات في البصري، وثماني[1] آيات في غيره.

وعن أُبَيّ، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة (لم يكن) كان يوم القيامة مع خير البرية».

وعن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال لأبي بن كعب: «إن الله تعالى أمرني أن أقرأ ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾»، قال: وسماني؟ قال: «نعم»، فبكى.

وعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في هذه السورة ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لعطلوا الأهل والمال وتعلَّموها».

ولما بَيَّن في سورة (القدر) إنزال القرآن حجة على الخلق، افتتح هذه السورة بأن الكفار قبله لم يكونوا خالين عن الحجج.

(١) وثماني: وثمان؛ غ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾

القراءة

قرأ نافع وابن عامر: «خير البريئة» و«شر البريئة» مهموزين[1]، الباقون مشددة غير مهموزة في الحرفين، والبرية: فعيل من برأ الله الخلق يَبْرَؤُهُمْ بَرْءًا: إذا خلقهم، ومنه: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، فمن همزها فعلى الأصل، وَتَرْكُ الهمز فيه وجهان:

أحدهما: أنه من «بَرَى» فترك الهمز فيهما، وأدخل التشديد بدلاً من الهمزة.

وثانيهما: أن تكون «فعيلة» من البَرَى، وهو التراب؛ لقول العرب: بفيك التراب، فتقديره على هذا: المخلوقين من التراب.

قراءة العامة: «المشركين» بالياء[2] في موضع الجر عطفًا على ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وقرأ الأعمش: «والمشركون» رفعًا، عطفًا على ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[3]،

(١) حجة القراءات ٧٦٩.

(٢) بالياء: بالي، غ.

(٣) القرطبي ٢٠/١٢٩.

وفي مصحف ابن مسعود على ما يروى: (**لم يكن المشركون وأهل الكتاب**)[١].

قراءة العامة: ﴿رَسُولٌ﴾ بالرفع بدلاً من **البينة**، وروي أن في مصحف ابن مسعود: (**رسولاً**) بالنصب على القطع والحال[٢].

اللغة

الانفكاك: الانفصال عن شدة اجتماع، وأكثر ما يستعمل في النفي كما أن (ما زال) كذلك، تقول: ما انفك من هذا الأمر، أي: ما انفصل منه لشدة ملابسته له، وأصل الفك: الفتح والفصل، تقول: فككت الكتاب أَفُكُّهُ فَكًّا، ومنه: فك الرهن، وفك الفم، قال:

كَأَنَّ بَيْنَ فَكِّها والفَكِّ فَأْرَةَ مِسْكٍ ذُبِحَتْ في مِسْكِ[٣]

قال الفراء: الانفكاك على وجهين: بمعنى: (لايزال)، فلا بد من خبر وحرف جحد: ما انفك يفعل كذا، أي: ما زال، ويكون بمعنى الانفصال فلا يحتاج إلى خبر ولا حرف جحد، كقولك: انفك الشيء من الشيء.

والبينة: الحجة الظاهرة التي يتميز بها الحق من الباطل، وأصله من البينونة، فصل الشيء عن غيره، يقال: بان يبين بينونة، ومنه: البيان؛ لأنه يميز الشيء من الشيء؛ أي يظهره.

التلاوة: القراءة.

والصحف: جمع صحيفة.

والحنيف: المائل، وقيل: هو الاستقامة، والحنيفية: الشريعة المستقيمة المائلة إلى الحق، وقيل لمائل القدم: أحنف تفاؤلاً.

---

(١) القرطبي٢٠/ ١٢٩.

(٢) القرطبي ٢٠/ ١٣٣.

(٣) البيت لرؤبة بن العجاج، وينسب كذلك لمنظور بن مرثد الأسدي. انظر: شرح المفصل ٤/١٣٨، ٨/ ٩١. الصحاح (ذبح)، اللسان (فكك)، تاج العروس (فكك).

والدين والملة واحد، وهو ما يدان به، والدين: الجزاء، والحساب، والعادة.

والقيّمة: المستمرة على جهة الصواب، وهي «فيعلة» من قام بالأمر يقوم به: إذا أجراه في جهة الاستقامة.

والرضا: معنى يضاد السخط، والرضا يرجع إلى الإرادة، إلا أنه قد يتعلق بالماضي والمستقبل، والإرادة تتعلق بالمستقبل.

والعَدْنُ: الإقامة، يقال: عدن بالمكان: أقام به، وسميت الجنة عدنًا؛ لأنهم يقيمون فيها دائمًا.

۞ الإعراب

﴿قَيِّمَةٌ﴾ نعت لمحذوف، تقديره: دين الله القيمة، أو الشريعة القيمة؛ لذلك أنث، وقيل: تأنيثه على المعنى؛ لأن الدين والملة واحد، قال الشاعر:

سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ: مَا هَذِهِ الصَّوتُ؟[(١)]

أي: الصيحة. وقيل: الهاء فيه للمبالغة.

﴿حُنَفَآءَ﴾ نصب على الحال.

۞ المعنى

«لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» وهم اليهود والنصارى؛ لأن لهم كتابا[(٢)] يعتزون إليه وإن كان محرفًا، فاليهود يعتزون إلى التوراة، والنصارى إلى الإنجيل «وَالْمُشْرِكِينَ» وهم عبدة الأوثان، وقيل: مشركو العرب الذين[(٣)] لا كتاب لهم يعتزون إليه «مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» اختلفوا في معنى الآية، فقيل: لم يكونوا ليُتْرَكوا

(١) البيت قائله لبيد بن ربيعة العامري في معلقته، وتمامه:

يا أيها الراكب المزجي مطيته … سائل بني أسد: ما هذه الصوت

اللسان (صوت)، تاج العروس (صوت).

(٢) كتابا: كتاب، غ.

(٣) مشركو العرب الذين: مشركي العرب الذي، غ.

منفكين من حجج الله وبيناته حتى تأتيهم من قبل الله البينة التي تقوم بها الحجة عليهم، عن أبي علي. يعني لم يمهلهم قط بغير حجة، ولا تركهم مهملين، بل تتواتر عليهم الحجج، وقيل: لم يكن هؤلاء الكفار تاركين لصفة النبي ﷺ، وأنه في كتابهم حتى بعث، فلما بعث تفرقوا عنه وكفروا وأنكروا، عن ابن كيسان، والفراء. وقيل: المراد من الفرقتين المعاندون[1] الذين عرفوا صدق الرسول وصحة ما جاء به، وكفروا وعاندوا، وطلبوا زيادة الأدلة إعناتًا، فقال تعالى: لا ينفكون من كفرهم أي: لا يزالونه حتى تأتيهم البينة برسل من ملائكة الله «**يَتْلُوا**» عليهم «**صُحُفًا مُطَهَّرَةً. فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**» كما قال: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النساء: ١٥٣]، وكقوله: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]، فأخبر عنهم بالإقامة على الكفر عنادًا وحسدًا وبغيًا، وأنهم لو أوتوا ما التمسوا من الآيات ما غيروا أفعالهم، ولا تركوا كفرهم، ولو أرادوا الهدى لكان فيما سبق من الآيات كفاية، وتلخيص المعنى: أنهم لا يخرجون عن كفرهم حتى تأتيهم الملائكة بأيديهم الصحف، فأخبر عن إصرارهم، وأنه لا تنفعهم الآيات؛ لأنهم ما تفرقوا إلا بعد مجيء الأدلة، ولو جاءهم ما التمسوا الكفر، ولأن من لم ينظر في الدليل لم يؤثر الدليل في اعتقاده، عن أبي مسلم.

وقيل: لم يكونوا منتهين عن كفرهم، ولا تاركين اعتقادهم في المسيح وعزير والأصنام «**حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ**» يعني محمدًا ﷺ يتلو عليهم القرآن، وأتاهم بالمعجزات، وبين لهم ضلالهم، ودعاهم إلى التوحيد والإيمان، وتلخيصه: ما كانوا يتركون كفرهم لولا مجيء محمد ﷺ، ودعاه إياهم.

وقيل: لم يكونوا بأجمعهم كافرين بمحمد قبل مبعثه، فإن منهم من كان يقر به، فلما أتاهم أطبقوا على الكفر به، وكانوا يبشرون به قبل البعثة[2]، فلما بعث وكان [من] ولد إسماعيل كفروا به.

---

(١) المعاندون: المعاندين، غ.

(٢) البعثة: البعث؛ غ.

وقيل: لم يكونوا هالكين حتى تأتيهم البينة، أي: لم يعذبوا إلا بعد قيام الحجة عليهم بالرسول والكتاب من قولهم: انفك صَلا المرأة عند الولادة، وهو أن ينفصل فلا يلتئم «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» قيل: الحجج والآيات، وقيل: هو محمد سَمَّاهُ بينة لما معه من البينات نحو القرآن وسائر المعجزات.

ثم فَسَّرَ البينة، فقال: «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ» مبلغًا، قيل: رسول من الملائكة «يَتْلُوا صُحُفًا» من اللوح المحفوظ، عن أبي مسلم. وقيل: هو محمد ﷺ «يَتْلُوا» القرآن عليهم «صُحُفًا» جمع صحيفة، وقيل: الصحف المطهرة في السماء لا يمسها إلا الملائكة المطهرون، عن أبي علي، وهو قول الحسن. وقيل: الصحف المطهرة: القرآن؛ لأنه مثبت في اللوح المحفوظ، وهي صحائف، فلأجل أنه منسوخ منها وصف بأنه يتلو تلك الصحف، وقيل: الصحف المطهرة القرآن «مُطَهَّرَةً» من الباطل، ذكره بأحسن الذِّكْرِ، وأثنى عليه بأحسن الثناء، عن قتادة. «فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ» أي: كتب عادلة، وقيل: مستقيمة.

ثم بَيَّنَ أنه لا عذر لهم في ترك الحق، فقال سبحانه: «وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ» فيه قولان:

أولهما: ما تفرقوا في الدين، ولم يختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم الحجة، وقيل: لا يهمنك أمرهم فما تفرقوا إلا بعد إقامة الحجة عليهم، فإنما أُتُوا في ذلك من قِبَلِ أنفسهم، لا من قبلك.

وقيل: كانوا مجمعين على نبوة محمد، فلما بعث محمد تفرقوا، فآمن بعض، وكفر بعض.

«إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ» أي: الحجة، قيل: هي ما أتى به الأنبياء في كتبهم، عن أبي علي. وقيل: هي ما جاءهم به رسول الله ﷺ من المعجزات والقرآن. «وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» قيل: ما أُمِرَ جميع الأمم إلا لعبادته على وجه الإخلاص، عن الحسن. وقيل: ما أمر هؤلاء من جهة محمد من على لسانه إلا بالتوحيد وإخلاص العبادة، وقيل: «أُمِروا» يعني: أهل الكتاب والمشركين «حُنَفَاءَ» مائلين عن جميع الأديان إلى دين الإسلام، وقيل: مستقيمين في الإسلام، عن

أبي علي. واختلفوا في الحنيفية، قيل: جميع دين الإسلام كما قال النبي ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة»، وقيل: هو الختان وتحريم الأمهات والبنات والعمات والخالات والأخوال وإقامة المناسك، عن قتادة. «**وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ**» يديمونها بأركانها «**وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ**» المفروضة «**وَذَلِكَ**» يعني ما ذكرت «**دِينُ الْقَيِّمَةِ**» المستقيم، والمراد ذلك الدين المستقيم، وأضاف الدين إلى القيمة لاختلاف اللفظين، وقيل: القيّمة: الكتب التي جرى[1] ذكرها، والدين مضاف إليها، يعني الدين الذي تنطويه الكتب القيمة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقيل: القيمة جمع «قَيِّم وقيم وقائم» واحد، والمعنى: ذلك دين القائمين لله بالتوحيد والدعاء إليه، والعبادة له، وهم الأنبياء والمؤمنون «**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ**» عطف المشركين على الذين كفروا، وإن كان لفظه ماضيًا؛ لأن تقديره: إن الكافرين والمشركين «**فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا**» أي: دائمين «**أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**» أي: شر الخلق؛ إذ لا أحد شر من الكافر «**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**» أي: خير الخليقة «**جَزَاؤُهُمْ**» على أعمالهم «**عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ**» أي: جنات إقامة «**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا**» أي: من تحت أبنيتها وأشجارها «**الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**» أي: دائمًا لا ينقطع «**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**» بما قدموه من الطاعات، وقيل: رضي أعمالهم، وقيل: رضي عنهم بأن مدحهم وعظمهم «**وَرَضُوا**» بما جازاهم من النعيم والثواب، وقيل: رضي عنهم حيث وحّدوه ونزهوه عن القبائح وأطاعوه، «[و] **رَضُوا عَنْهُ**» حيث فعل بهم ما رجوا من فضله وعدله، لم يظلمهم في حكمه، ولا عاقبهم من غير جرم، وهؤلاء هم أهل التوحيد والعدل، يوحدون الله، فلا يشبهونه، وينزهونه عن كل قبيح، ويضيفون إليه كل خير، يرجون ثوابه، ويخافون عقابه، دون المشبهة المجبرة «**ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**» أي: خشي عقابه فأطاعه.

الأحكام

السورة تتضمن أحكامًا:

منها: أن الكفار كفروا بعد إقامة الحجة عليهم، وأنهم أتوا في ذلك من قِبَلِ أنفسهم.

---

(١) جرى: جرت، غ.

ومنها: أن الذم والعقوبة لا تتوجه إلا بعد البيان.

ومنها: أن القرآن حجة عليهم.

ومنها: أنهم تفرقوا بعد بيان الحجة، فيبطل قول من يقول: إنهم تفرقوا في أصلاب الآباء، عن أبي علي.

ومنها: أن العبد يجب أن يؤدي العبادة على وجه الإخلاص، وأنهم أمروا بذلك.

ومنها: أن الصلاة والزكاة من الدين.

ومنها: أن الدين فعل العبد؛ لذلك جعل إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة دينًا.

ومنها: أن المؤمن خير البرية والكافر شر البرية، ولا يقال: إن الآية تدل على أن المؤمن أفضل من الملائكة؛ لأن البرية إذا أطلقت فُهِمَ منها بنو آدم، ولأن الذي تقدم الكلام في الإنس، فكفارهم شرهم، وصلحاؤهم خيرهم.

ومنها: أن الثواب يستحق على الأعمال؛ لذلك قال: «**جزاؤهم**».

ومنها: أن الجنة والنار دائمان، خلاف قول جهم.

ومنها: أن المؤمنين رضي الله عنهم، والرضا بالفعل هل يكون رِضَا عن الفعل، والرضا عن الفاعل هل يكون رِضَا بالفعل، فمنهم من قال بذلك، ومنهم من أبى، وهو الصحيح؛ لأن المؤمن قد يأتي بالصغيرة[1] والفاسق قد يأتي بالطاعة.

ومنها: أن الفضل يحصل بالعمل.

ومنها: أن للخوف فضلا[2] في الدين.

ومنها: أن الكفر والإيمان فعل العبد.

(١) بالصغيرة: بالصغير؛ غ.
(٢) فضلا: فضل، غ.

سورة الزلزلة

سورة (إذا زلزلت)، قيل: مكية، عن ابن عباس، وقيل: مدنية، عن قتادة، ومقاتل.

وهي ثماني[1] آيات في الكوفي والمدني، تسع في البصري.

وعن علي، عن النبي ﷺ: «من قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله»[2].

وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ تعدل نصف القرآن، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل [ثلث] القرآن[3]، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن».

ولما ختم السورة [المتقدمة] ببيان حال المؤمنين والكافرين، وما أعد لكل واحد، افتتح هذه السورة ببيان وقتها وذكر أحوالها.

---

(١) ثماني: ثمان، غ.

(٢) الحديث المشهور أنها تعدل ثلث القرآن، انظر الترمذي رقم ٢٨٩٣؛ أو نصفه. انظر شعب الإيمان رقم٢٥١٦.

(٣) شعب الإيمان رقم ٢٥١٦.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾

القراءة

قرأ أبان عن عاصم، ونصير عن الكسائي: «**خيرًا يُره**» و«**شرًّا يُره**» بضم الياء في الحرفين، وقرأ الباقون بفتح الياء في الحرفين[١].

وقرأ أبو جعفر ويعقوب: «يره» و«يره» مختلسة غير مشبعة، الباقون بضم الهاء وإشباعها، وعن ابن عامر وابن عمر، وبعض ما يروى بجزم الهاء، والباقون بالرفع والإشباع[٢].

قراءة العامة: ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بضم الياء، وعن الحسن والأعرج أنهما قرآ بفتح الياء، وروي ذلك مرفوعًا[٣].

قراءة العامة: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ بكسر الزاي[٤]، وعن عاصم الجحدري بفتحها[٥]، وهي مصدر كالوسواس، أي: بتحريكها، وقيل: بفتح الاسم، وبالكسر المصدر، عن علي ابن عيسى.

(١) القرطبي ٢٠/ ١٤٠.
(٢) حجة القراءات٧٦٩.
(٣) القرطبي ٢٠/ ١٣٩.
(٤) الزاي: الزا، غ.
(٥) القرطبي ٢٠/ ١٣٧.

❁ اللغة

الزلزلة: شدة الاضطراب، زلزل يزلزل زلزلة وزلزالاً بالكسر، من: «زَلَّ يَزِلُّ زلاً» للتكبير والتعظيم، كصرصر وصر.

والثقل: الحمل، وجمعه: أثقال، وأصله من الثقل، ومنه سمي متاع البيت ثِقْلاً.

والصدر: ضد الورود، وهو الانصراف عنها.

أشتاتًا: متفرقين، واحدها: شَتٌّ، ومنه: الحمد لله الذي جمعنا من شت، ومنه: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل: ٤].

والمثقال: «مفعال» من الثقل، وهي قدر معلوم.

❁ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ في رجلين، وذلك أنه لما نزل: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨] كان أحدهما يأتيه السائل، فيستثقل أن يعطيه التمرة والكسرة، ويقول: ما هذا بشيء، إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه؟ وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير والنظرة وأشباهها ويقول: إنما وعد الله النار على الكفار، فنزلت الآية، عن مقاتل.

❁ المعنى

«إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ» حركت حركة شديدة واضطربت، وقيل: زلزلت ورجت ورجفت سواء، عن[1] الحسن. «زِلْزَالَهَا» أي: حركتها، وهي مصدر ذكر للتأكيد، وكانوا يسألون كثيرًا عن القيامة، فيذكر الله تعالى أشراطها وأعلامها، ولا يعرفهم بعينها لوجهين:

أحدهما: ليكونوا خائفين متوقفين في كل حال، فيكون لطفًا.

---

(١) عن: على، غ.

والثاني: كونها بغتة تزيد في سرور المؤمنين، وغم الكافرين.

وقيل: زلزالها إنما يكون عند تفطرها، عن أبي علي.

«**وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا**» قيل: الموتى المدفونون فيها تخرج أحياء للجزاء، عن ابن عباس، ومجاهد، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: كنوزها ومعادنها، فتلقيها على ظهرها ليراها أهل الموقف، والفائدة فيه وجوه:

منها: أن العاصي والظالم متحسر بالنظر إليها؛ إذ عصى الله فيها، ثم تركها لا تغني عنه شيئًا.

ومنها: أنه يكوى بها جباههم وظهورهم.

ومنها: أنه يعيرهم الله بها فيقول: بهذا عصيتموني ولي ميراثها.

«**وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا. يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**» قيل: فيه تقديم وتأخير، أي: تحدث أخبارها فيقول الإنسان: ما لها، وقيل: تقديره: يقول الإنسان ما لها حين يخبر عن حالها، وقوله: «**مَا لَهَا**» أي: ما للأرض تتزلزل متعجبًا، أي: ما لها حدث فيها ما لم يعرف منها، عن أبي مسلم. وقيل: ما لها تشهد عليّ، والهاء كناية عن الأرض، وقيل: الكافر أحمق الحياة أحمق الممات حتى يسأل الأرض ما لها، عن الأصم. «**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**» أي: أخبار الأرض وما كان عليها ومن عصى، وقيل: بما عمل الناس عليها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، فتقول: المؤمن وحّد، وصام، وصلى، وأطاع ربه، وتقول: الكافر أشرك، وعصى عليّ، فتوبخه في ذلك المشهد، وتشهد كما تشهد الملائكة والجوارح، فتزداد فضيحة العاصي، وسرور المؤمن، وقيل: «لتخبر بكل عمل عمل على ظهرها»، رواه أبو هريرة مرفوعًا[1].

ومتى قيل: فما الفائدة في ذلك؟

(١) الترمذي رقم ٢٤٢٩.

قلنا: وجوه:

منها: خزي الكافر وسرور المؤمن.

ومنها: إبلاء العذر، ككلام الجوارح؛ ليعلم أنه أُتِيَ من قبل نفسه، وأن الله ليس بظلام للعبيد.

ومنها: أنه لطف للمكلف، إذا تصور تلك الحالة صرفه عن العصيان.

ومتى قيل: كيف تتكلم الأرض؟

قلنا: فيه وجهان:

[الأول]: إما أن يخلق الله فيها الكلام، فيكون الله مخبرًا به، وأضافه إلى الأرض توسعًا؛ لأنه محله.

والثاني: أن يصيرها حيوانًا يتكلم، وتكون حجة على الخلق، ذكر الوجهين أبو علي.

وثالثها: يكون ببيان يقوم مقام الكلام، وليس هو بحقيقة كلام، ولكن يأتي فيها من عظم الآية ما يضطر العاقل إلى معرفته، عن أبي مسلم. وعن ابن مسعود: إنما تتكلم يومئذ فتقول: الله أمرني بهذا، وهذا أقرب إلى الظاهر.

«**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا**» قيل: ينصرفون عن قبورهم إلى العرض والحساب، عن أبي علي. قيل: «**أشتاتًا**» كل قوم على دين ومذهب وعمل، فَيَرِدُونَ زمرة زمرة، كل زمرة يتقدمها إمامها، وقيل: ينصرفون عن موضع الحساب إلى موضع الجزاء، عن أبي مسلم. «**أشتاتًا**» متفرقين، فأخذ ذات اليمين إلى الجنة، وأخذ ذات اليسار إلى النار «**لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ**» قيل: يروا جزاء أعمالهم، وقيل: يروا صحائف أعمالهم يقرأون ما فيها، وقيل: يرى المحسن سيئاته مكفّرة، ويرى المسيء حسناته محبطة فتزد الحسرة، وقيل: الرؤية عبارة عن الوجدان أي: يجدون[١] جزاء ما عملوا من[٢]

---

(١) يجدون: يجدوا، غ.

(٢) عملوا من: عمل في، غ.

إحسان أو إساءة، وقيل: إذا رأوا ذلك في صحفهم اعترفوا بصحته ولم يمكنهم جحده[1]؛ لأنه تعالى أحصاها، عن أبي علي. قال ابن عباس: ليس مؤمن ولا كافر إلا أراه الله عمله، فأما المؤمن فيريه حسناته وسيئاته فيغفر له سيئاته، ويثيبه على حسناته، وأما الكافر فتحبط حسناته، ويعذبه بسيئاته «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ» قيل: النملة الصغيرة، عن ابن عباس. قال ثعلب: مائةُ نملةٍ زِنَةُ حَبَّةٍ، وقيل: زنة ذرة، عن أبي عبيدة، قال يزيد بن هارون: يزعموا أنه ليس للذرة وزن. «خَيْرًا يَرَه» أي: يجد جزاء ما عمل من الخير، وإن قَلَّ.

«وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه» اختلفوا في معنى هذه الآية، فأما شيخنا أبو علي رحمه الله فيحمله على الرؤية، لا على الجزاء؛ لأن المحبط والمكفر لا يجازى عليه، فيقول: يرى جميع أفعاله خيره وشره فيقف عليها ويعلمها، فأما المؤمن والتائب فيرى السيئات مكفرة، ويثاب على الحسنات من غير بخس، وأما الكافر فيرى حسناته محبطة، وذنوبه يعاقب عليهما أجمع، بناء على مذهبه في الإحباط والتكفير.

فأما عند مشايخنا: يجازى على جميع أفعاله لا يضيع شيء، فإن كان مُؤْمِنًا يجازى على حسناته، وما كان من سيئاته فيحبط بقدره من ثوابه، وإن كان كافرًا يعاقب على ذنوبه، وما كان حسنة حط عنه من عقابه بقدره، فقد وجد جزاء جميع أعماله، وهذه هي[2] الموازنة التي ذهب إليها شيخنا أبو هاشم وأصحابه، وعليه يدل الظاهر.

وقيل: يجازى على قليله وكثيره، عن أبي مسلم. وهذا على التفصيل الذي ذكرنا.

وقيل: من يعمل مثقال ذرة من خير، وهو كافر أتاه الله ثوابه في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر، وهو مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله شيء، وعن بعضهم أنه سمع هذه السورة فقال: حسبي، [قد] انتهت الموعظة.

---

(١) جحده: جحد، غ.
(٢) وهذه هي: وهذا هو؛ غ.

ومتى قيل: كيف يصح مع كرمه أن يحاسب على الذرة؟

قلنا: هذا هو العدل والكرم، وإنما جاز ذلك؛ لأن في المعصية استخفافًا، والكريم لا يحتمله، والطاعة وإن قلت فلا تضيع عنده.

۞ الأحكام

ما في السورة كلها ترغيب وترهيب، ولطف للعباد، ويقتضي تصور ذلك اليوم وما أُعِدَّ من الجزاء.

وتدل على أن الزلزلة تكون، وأما أبو علي فيقول: يكون ذلك عند موت الناس وفناء الأرض، وهو قول جماعة. وغيرهم يقولون: إنه يكون عند قيام الساعة، وذلك أليق بالظاهر.

ويدل قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ﴾ أن أحدًا لا يبقى في الأرض.

وتدل أن الأرض تشهد [على] ما عملت الخلائق.

ويدل قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ [مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ]﴾ إلى آخر السورة على الموازنة على ما بيَّنَّا.

وتدل على أن الثواب والعقاب جزاء على الأعمال.

سُورَةُ العَادِيَات

سورة (والعاديات)، إحدى عشرة آية، قيل: إنها مكية، عن الحسن، وعكرمة، وقتادة. وقيل: مدنية، وقالوا: نزلت عند جهاد وقع في سرية.

وعن أُبَيّ، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة (والعاديات) أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعًا».

ولما ختم السورة [المتقدمة] بذكر القيامة والجزاء اتصلت[1] هذه السورة بها؛ لما فيها من ذكر القيامة والجزاء اتصال المثل بالمثل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ
بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ
لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ
يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿فَأَثَرْنَ﴾ بالتخفيف، وقرأ أبو حيوة بالتشديد من التأثير[2].

(١) اتصلت: اتصل، غ.

(٢) القرطبي ٢٠/١٤٧.

وقراءة العامة: ﴿فَوَسَطْنَ﴾ بالتخفيف، وعن قتادة بالتشديد، وقيل: وسط وتوسط بمعنًى[(١)].

قراءة العامة: «حُصِّلَ» بالتشديد، وضم الحاء وكسر الصاد من التحصيل على ما لم يسم فاعله، وقرأ عبيد بن عمر وسعيد بن جبير: «حَصَلَ» بفتح الحاء، وتخفيف الصاد أي: ظهر[(٢)]، ولا يجوز القراءة بشيء من ذلك؛ إنما القراءة بما ظهر نقله، وتواتر.

اللغة

العاديات: جمع عادية.

والضبح: قيل: حمحمة الخيل تَضْبَحُ ضَبْحًا عند العدو، وقيل: شدة النفس عند العدو، وأصل الضبح: الصوت، ضَبَحَتْ الخيل تَضْبَحُ ضبحًا وضُباحًا، ومثله: ضَبَعَتْ، وهو أن تصيح، والضباحُ: صوتُ الثعلب، والضبح: العَدْوُ فوق التقريب، والضبح الضبع، وهو أن يمد ضبعيه حتى لا يجد مزيدًا، أضبعت الناقة تضبيعًا: إذا اشتدت في السير كأنها تمدُّ ضبعَيْها، وإنما يضبح الفرس والكلب، وأصل الضبح [من] قولهم: ضَبَحَتْهُ النار، إذا غيرتْ لونه، وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغيرت حالها من تعب أو فزع أو طمع.

والموريات: جمع مارية، وأصله: الظهور، والموريات: المظهرة سنابكها النار.

قدحا: أورى القادح النار يوري إيراءً: إذا قدح تسمى تلك النار نار الحُبَاحِب، وهو اسم رجل كان بخيلاً، وكانت ناره ضعيفة؛ لئلا يراها الأضياف، فضربوا المثل بناره، وشبهوا نار الحوافر بها لقلتها.

والنقع: الغبار؛ لأنه يغوص فيه صاحبه كما يغوص في الماء، نَقَعَ يَنْقَعُ نقعًا فهو ناقع، واستنقع استنقاعًا.

---

(١) القرطبي ٢٠/ ١٤٩.

(٢) القرطبي ٢٠/ ١٥١.

والكنود: [الكفور الجحود لنعم الله][1] كَنَدَ يَكْنُدُ كنودًا، وكند نعمه: كفرها، وأرض كنود: لا تنبت شيئًا، وسميت كندة؛ لأنه فارق أباه وكندَه ولحق بأخواله ورأسهم فقال له أبوه[2] كنَدْت، وأصله: منع الحق والخير، قال الأعشى:

أَحْدِثْ لَهـا تُـحْـدِثْ لِـوَصْـلِـكَ إِنَّـهـا ... كُـنُـدٌ لِـوَصْـلِ الـزَّائِـرِ الـمُـعْـتَـادِ[3]

بعثرت التراب وبحثرت بمعنًى، وكل شيء يستخرج من التراب فهو مبعثر ومبحثر، يعني أخرج.

۞ الإعراب

﴿ضَبْحًا﴾ نصب على المصدر كأنه قيل: تضبح ضبحًا، وكذلك ﴿قَدْحًا﴾ إلا أن الاسم ورد من غير لفظ المصدر، تقديره: القادحات قدحًا، وقيل: نصب على القطع؛ لأن العاديات معرفة، فينبغي أن يكون نعته معرفة فيكون الضبح، فلما سقطت الألف واللام نُصِبَ على القطع، ومثله: ﴿بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]. وكسرت (إن) لأجل اللام في الخبر.

۞ النزول

قيل: بعث رسول الله ﷺ بسرية إلى حيين[4] من كنانة، واستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري أحد النقباء، فتأخر خبرهم، فقال المنافقون: قتلوا جميعًا، فأخبر الله تعالى عنهم، ونزلت السورة، عن مقاتل.

وقيل: نزلت في وقعة[5] بدر، وكلام أمير المؤمنين وابن عباس يدل على أنها

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ٣٧٩.

(٢) فقال له أبوه: فقال أبو، غ. وما أثبتناه من: مقاييس اللغة: ٥/ ١١٥.

(٣) البيات قائله الأعشى في قصيدة مطلعها:

أجـبـيـر هـل لأسـيـركـم مـن فـادي ... أَمْ هَـلْ لِـطَـالِـبِ شُـقَّـةٍ مِـنْ زَادِ

انظر: ديوان الأعشى، دار صادر، بيروت.

(٤) حيين: خم، غ.

(٥) وقعة: وقعت، غ.

نزلت في حرب بدر، وقد رووا بين علي وابن عباس في ذلك خلافًا، وأن رجلاً سأل ابن عباس عن العاديات فقال: الخيل، فأخبر عليًّا بذلك فدعا ابنَ عباس، فقال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فَرسان: فرس للزبير، وفرس للمقداد، إنما هي إبل الحاج، قال ابن عباس: فرجعت إلى قول علي، وهذا يدل أن عندهما السورة مدنية، وأنها نزلت في حرب بدر، وقال أبو مسلم: ومن العجب أن يقع بين علي وابن عباس اختلاف في اللغة أو في نزول السورة [وقد] شهداه.

۞ المعنى

«**وَالْعَادِيَاتِ**» أقسم بها، وقيل: برب العاديات، وقيل: العاديات: خيل الغزاة، وقيل: الخيل تعدو في سبيل الله، عن ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، والكلبي، وأبي العالية، والربيع، وعطية، وقتادة، ومقاتل، وابن كيسان، وأبي علي. وقيل: الإبل تعدو، عن علي، وابن مسعود، وعبيد بن عمير، ومحمد بن كعب، والسدي. ثم اختلفوا، فقال بعضهم: هو الغزاة تعدو في سبيل الله، وهو المروي عن علي. وقال بعضهم: إبل الحاج تعدو من عرفة إلى مزدلفة، ومن مزدلفة إلى منى، قال أبو مسلم: والتأويلان مُطَّرَحَانِ، والخيل أشبه بظاهر التلاوة، قال ابن عباس: وليس بشيء من الدواب تضبح غير الفرس، ولأنه قال عقيبه: «**فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا**» فذلك إنما يصح في الحافر «**ضَبْحًا**» قيل: هو صوت ليس بصهيل، ولا حمحمة، وقيل: صوت الخيل في شدة العدو، وقيل: «**ضبحًا**» أي ضبعًا تمد أعناقها في السير، وهذا مذهب من يقول: إنها الإبل، وقيل: الضبح من الخيل الحمحمة «**فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا**» يعني الخيل المنعلة تخرج من سنابكها النار، وقيل: هي الخيل توري النار بحوافرها، إذا سارت في الحجارة، عن الضحاك، وعطاء. وقيل: هم الذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب، عن ابن عباس. وقيل: أفكار الرجال، عن مجاهد، وابن زيد. وقيل: هي الخيل تهيج الحرب، ونار العداوة بين أصحابها وفرسانها، عن قتادة. وقيل: رجال العرب، عن سعيد بن جبير. وقيل: هي ألسنة الرجال توري النار من عظيم ما يتكلم به، عن عكرمة. «**فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا**» أي:

الخيل بفرسانها في سبيل الله يغيرون على العدو وقت الصبح، عن ابن عباس. وقيل: هي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر، من جُمَعٍ إلى منى، والسنة ألاَّ تدفع حتى تصبح، والإغارة: سرعة السير، عن محمد بن كعبٍ القرظي. وإنما أقسم بالمغيرات لعظم شأنها، وتفخيم أمرها حيث صبح أعداء الله بالجهاد، وإنما قال: «**صُبْحًا**» قيل: لأنهم كانوا يسيرون إلى العدو ليلاً ويأتونهم صبحًا، وقيل: أشار إلى قطع المسافة البعيدة في سرعة، عن أبي مسلم. وقيل: إنه لِعِزِّهم أغاروا نهارًا، ونسب الغارة إلى الخيل، وأراد فرسانها، وهم الرجال «**فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا**» أي: هيجن به الغبار بالحوافر من الأرض، والنقع الغبار، عن قتادة، وجماعة من المفسرين، و«**بِهِ**» قيل: كناية عن المكان أو الوادي، كناية عن غير مذكور، وقيل: «**بِهِ**» كناية عن الصبح؛ أي: في ذلك الوقت أثار الغبار، عن أبي مسلم. «**فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا**» أي: يحللن في وسطهم، والجمع جمع العدو، عن قتادة. وقيل: جمع الفريقين، عن مجاهد. وقيل: أراد جمع المزدلفة ومنى، و«**بِهِ**» كناية عن المكان أو الصبح «**إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ**» هذا موضع القسم «**لَكَنُودٌ**» قيل: لكفور، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، والربيع، وأبي علي، وأبي مسلم. أي: جحود لنعم الله تعالى، وقيل: هو اللوام لربه، يقول: ربي أهانني ولم يكرمني وفعل وفعل، عن الحسن، وابن سيرين. قال الحسن: الكنود الذي ينسى النعم، ويَعُدُّ المصائب، وقال الكلبي: هو بلسان كندة وحضرموت: العاصي[1]، وبلسان مضر وربيعة وقضاعة: الكفور، وبلسان بني مالك: البخيل، وقيل: «هو الذي يأكل وحده، ويمنع رِفْدَه، ويضرب عبده»[2] روى ذلك أبو أمامة عن النبي ﷺ، قال القاضي: معناه: لا ينفق مما رزق بخلاً ولا يضعه في حقه، فيكون كالكافر للنعمة، وقيل: هو قليل الخير، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئًا، عن أبي عبيدة. وقيل: هو الذي ينفق نعم الله على معاصيه «**وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ**» قيل: الله شاهد عليه بأنه كنود، عن قتادة، وأكثر المفسرين. والهاء كناية عن اسم الله تعالى، وقيل: الهاء راجعة على الإنسان؛ أي: هو شاهد على نفسه بما

(١) وحضرموت العاصي: وحضرموت الجحود موت العاصي، غ: والصواب ما أثبتناه من تفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ٣٧٩.

(٢) المعجم الكبير رقم ٧٨٨٧.

يصنع، عن ابن كيسان، والحسن. وقيل: يشهد بعضهم على بعض، وقيل: الإنسان بما يظهر من أفعاله من الكفر، وقلة الشكر كالشاهد على نفسه بأنه كنود، عن أبي مسلم. وقيل: أفعاله شاهدة على ما في قلبه من الرضا والسخط، وقيل: يشهد على نفسه، وتنطق جوارحه عليه بذنوبه يوم القيامة «**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**» الخير المال، وتقديره: لشديد الحب للخير، عن أبي علي على ما قال ابن زيد: سمي المال خيرًا وربما يكون خبيثًا حرامًا؛ لأن الناس يسمونه خيرًا. وقيل: إنه من أجل حب المال لشديد بخيل شحيح، ويقال للبخيل: شديد وشحيح، عن أبي مسلم. وقيل: إنه لشديد الحب للخير والمال، فهو يظلم الناس في تحصيله، ويمنع الحق، وقيل: لأجل حب المال شديد النفس قاسي القلب لفرط الحرص، يتناوله من غير حله، ويمنع الواجب من أهله كعادة الظلمة، وقيل: لحب الدنيا لا يقر بالآخرة، قال الفراء: وكان موضع الحُبِّ بَعْدُ شديد[1] وأن يضاف شديد إليه فيقال: وإنه لشديد حبه للخير، فلما تقدم الحب، وذكر قيل: «شديد»، وحذف عن آخره الهاء لما جرى ذكره في أوله ولرؤوس الآي. «**أَفَلَا يَعْلَمُ**» يعني الإنسان «**إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ**» أي: أخرج ما فيها من الأموات «**وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ**» أي: جمع وأبرز ما فيها من خير أو شر، وقيل: أظهر ما فيها حتى صار ظاهرًا، وإن كان مُخْفِيهُ، وإنما ظهر بأن جازاه الله عليها، وأفعال القلوب وإن كانت مستورة فبالجزاء عليها تظهر «**إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ**» العالم بهم يجازيهم بأعمالهم، قيل: «**إِنَّ رَبَّهُمْ**» جواب: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ ، ولو لم يدخل اللام في الجواب لكان (إن) مفتوحة، وقيل: يجوز أن يكون جواب «**أفلا**» محذوفًا، و(**إن ربك**) ابتداء كلام، عن أبي مسلم.

۞ الأحكام

يدل القسم بهذه الأشياء على تفخيم حال الغزاة، وتأكيد حال القسم به، وهو كون الإنسان كنودًا، والإنسان وإن كان عامًّا فالمراد به الخصوص.

---

(١) شديدا: شديد؛ غ.

ويدل قوله: ﴿لَشَهِيدٌ﴾ أن يوم القيامة يشهدون على الخلق تأكيدًا للحجة وبيانًا للعدول.

ويدل قوله: ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ على أنه لجهله يؤثر الدنيا على الآخرة، وكل ذلك يدل على أن أفعالهم حادثة من جهتهم.

ويدل قوله: ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ على وعيد وزجر عن عظيم؛ لأن الإنسان متى اعتقد أن خالقه يعلم ويرى جميع ما يفعل، كان زجرًا له عن العصيان.

سُورَةُ القَارِعَةِ

سورة (القارعة) مكية، و[هي] إحدى عشرة آية.

وعن أُبَيّ، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة (القارعة) ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة».

ولما ختم سورة (العاديات) بذكر القيامة، افتتح هذه السورة بذكرها اتصالَ النظمِ بالنظم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ
ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦
فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ
أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

القراءة

قرأ حمزة ويعقوب: ﴿مَا هِيَهْ﴾ بحذف الهاء في الوصل، وقرأ الباقون بإثباتها في الوصل، واتفقوا على إثباتها في الوقف، وهي هاء السكتة تُوصَلُ على نية الوقفِ، ويجوز فيه الحذف.

اللغة

القرع: الضرب بالشدة، ومنه: المقرعة، وتَقَارَعَ القوم في القتال: إذا تضاربوا بالسيف، والقرعة كالضرب بالفأل، وقوارع الدهر دواهيه، والقارعة: البلية التي تقرع القلوب لشدة المخافة، قَرَعَ يَقْرَعُ قَرْعًا.

والفراش: الجراد، وأصله: الفرش، وسمي بذلك؛ لأنه ينفرش، ويركب بعضها بعضًا.

والمبثوث: المتفرق في الجهات، بثه يَبُثُّهُ بثًّا: إذا فرقه، وأبثثتك الحديث: ألقيته إليك، كأنك فرقته بأن جعلته عند اثنين، والبث الهم؛ لأنه يفرق القلب.

والعهن: الصوف الملون، قال زهير:

كَـأَنَّ فُـتَـاتَ الْـعِـهْـنِ فـي كُـلِّ مَـنْـزِلٍ نَـزَلْـنَ[1] بِـهِ حَـبُّ الـفَـنَـا لَـمْ يُـحَـطَّـمِ[2]

ويقال: عِهْنَةٌ وعِهْنٌ، مثل: صُوفَةٌ وصُوفٌ.

راضية أي: مرضية، «فاعل» بمعنى «مفعول»، على تقدير: ذات[3] رضا، كقولهم: نابل ذو نبل، ولابن ذو لبن، وتامر ذو تمر، قال الشاعر:

كِـلِـيـنِـي لِـهَـمٍّ يَـا أُمَـيْـمَـةَ نَـاصِـبِ وَلَـيْـلٍ أُقَـاسِـيـهِ بَـطِـيءِ الْـكَـوَاكِـبِ[4]

أي: ذو نصب، وقال آخر:

وَغَـــرَرْتَـــنِـــي وَزَعَـــمْـــتَ أَنَّـــ ـكَ لَابِـــنٌ فِـــي الـصَّـــيْـــفِ تَـــامِـــرْ[5]

والهاوية: العدو الشديد، يقال: هَوَتْ الناقة تَهْوِي هُوِيًا فهي هاوية: إذا عدت شديدًا، و﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وأصله: الميل، ومنه: هوى القلب؛ لأنه يميل إلى صاحبه، ومنه: ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ [الأنعام: ٧١] أمالته إلى ما دعته إليه، ومنه:

---

(١) نزلن: نزين. بدون نقاط، غ.

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، اللسان (فتت)، ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١١٢.

(٣) ذات: ذي؛ غ.

(٤) البيت للنابغة الذبياني، الصحاح (أسس)، انظر: ديوان النابغة الذبياني.

(٥) البيت للحطيئة، الصحاح (لبن)، انظر: ديوان الحطيئة.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣]، ومنه: هوى سقط، وهوى هلك، وهَوَيْتُ أَهْوِي: سقطتُ[١] من علو إلى سفل، وسميت جهنم هاوية؛ لأنها تهوي بأهلها من أعلاها إلى أسفلها؛ أي: سقط فيها، يقال: هوى يهوي هويًّا: إذا هبط، وهويًّا إذا صعد.

۞ الإعراب

﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ قيل: الهاء للمبالغة كقولهم: علاّمة ونسّابة، وقيل: لأنها عبارة عن الساعة، والهاء في قوله: ﴿هَاوِيَةٌ﴾ هاء التأنيث، والهاء في ﴿مَاهِيَهْ﴾ هاء الاستراحة.

۞ المعنى

«**الْقَارِعَةُ. مَا الْقَارِعَةُ**» قيل: في الكلام حذف، وتقديره: ستأتيكم القارعة فاحذورها، وقيل: القارعة والواقعة والحاقة: القيامة، عن وكيع. وقيل: أراد نفخة الصور، يقال: ما قرع سمعي مثل كلامك، وقيل: القارعة أهوال القيامة لأنها تقرع القلوب «**مَا الْقَارِعَةُ**» يعني أي شيء هي «**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**» تفخيم لشأنها «**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ**» قيل: كالجراد الذي ينفرش ويركب بعضه بعضًا، عن الفراء. وقيل: طير ينفرش، ليس بذباب، ولا بعوض، عن أبي عبيد. وقيل: هي الطائر الذي يتساقط[٢] في النار والسراج، عن قتادة. «**الْمَبْثُوثِ**» المتفرق، يعني إذا خرجوا من قبورهم انتشروا متحيرين لما نالهم من الأهوال، والتشبيه بالجراد قيل: لضعفهم، وقيل: لتفرقهم، وقيل: لكثرتهم «**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ**» كالصوف المصبوغ المندوف؛ لأنها تزول[٣] عن أماكنها، وتصير لا شيء «**فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ**» في الميزان قولان:

قيل: هو على جهة المثل، أي: قبلت حسناته، وكثرت، عن مجاهد. وقيل: هو العدل، عن أبي مسلم.

(١) سقطت: سقط؛ غ.

(٢) الذي يتساقط: التي تتساقط، غ.

(٣) لأنها تزول: لأنه يزول، ؛ غ.

وقيل: ميزان له كفتان كموازين الدنيا، عن الحسن وأكثر أهل العلم.

واختلف هؤلاء ما الذي يوزن؟ قيل: الصحف، وقيل: يظهر نور وظلمة علامة للخير والشر، وقيل: يوزن الأشخاص، فأما وزن الأعمال فمحال؛ لأنها انقضت، ولأنها أعراض.

«فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ» أي: مرضية في الجنة، «وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ» بالخيرات «فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ» قيل: أمه جهنم؛ لأنه يأوي إليها، كما يأوي الولد إلى أمه؛ لأن العرب إذا نذرت بشدة ذكرت الأم من حيث لا أحد أشفق عليها منها، وقيل: يهوي على أم رأسه في النار، عن أبي صالح، وقتادة. وقيل: هي[1] كلمة تقولها العرب عند شدة المصيبة، فيقال: وَيْلَ أُمِّهِ، وهوت أمُّه، معناه: سقطت، عن أبي مسلم. وقيل: النار أولى به من أمه، وقيل: الأَمُّ: القصد، أمّ يؤمّ أمًّا، معناه: قَصَد هاوية؛ لأنه لا طريق له إلا النار، وقيل: مُسْتَقَرُّهُ هاويةٌ، عن الأخفش. «وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ» يعني ما الهاوية؟ تعظيمًا لها وما فيها من العذاب، وقيل: الضمير يعود إلى القارعة، أي: أي شيء فيها، ثم فسَّر، فقال: «نَارٌ حَامِيَةٌ»، عن أبي مسلم. «نَارٌ حَامِيَةٌ» شديدة[2] الحر.

۞ الأحكام

السورة تتضمن أحكامًا:

منها: تخبر الناس وتعرفهم بشدة[3] الأهوال.

ومنها: ما تصير الجبال إليه حتى تزول تلك الصلابة.

ومنها: إثبات الميزان لأجل الظاهر، ولا مانع منه.

ومنها: صحة الموازنة على ما يقوله أبو هاشم.

ومنها: ما يجري في القيامة من العدل والجزاء، خلاف ما تقوله المجبرة، ولو كانت الأعمال خلقًا له لم يكن لوزنه على العباد فائدة، وذِكْرُ ذلك ترغيبٌ وترهيبٌ.

---

(١) هي: هو، غ.

(٢) شديدة: شديد، غ. وما أثبتناه من: تفسير ابن كثير، ٨/ ٤٦٩.

(٣) بشدة: لشدة، غ.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

سورة (التكاثر)، قال الحسن: مدنية، وقال ابن عباس وقتادة: مكية.

وهي ثماني[1] آيات.

وعن أُبيّ، عن النبي صلى الله عليه: «من قرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ لم يحاسبه الله بالنعم الذي أنعم عليه في دار الدنيا، وأعطي من الأجر كأنما قرأ ألف آية».

ولما ختم السورة بوعيد الكفار، وأن أمهم هاوية، افتتح هذه السورة ببيان ما أدّى بهم إلى ذلك.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

القراءة

قرأ ابن عامر والكسائي: **«لتُرون الجحيم ثم لتَرونها»** الأول بضم التاء والثاني بفتحها، وروي ذلك عن علي. والباقون بالفتح فيهما[2].

---

(١) ثماني: ثمان؛ غ.

(٢) حجة القراءات٧٧١.

اللغة

الإلهاء: الصرف إلى اللهو والاشتغال عن الجد، واللهو: الانصراف إلى ما يدعو إلى الهوى، فهو يَلْهُو لَهْوًا، ولَهِيَ عن الشيء يَلْهَى، وألهاه يُلْهِيهِ إلهاءً، وحقيقة قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أي: لهيتم بالتكاثر، فأضاف الفعل إلى التكاثر اتساعًا؛ لأن ذلك سببه، والداعي إليه، ومنه: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ﴾ [المنافقون: ٩].

والتكاثر: التفاخر بكثرة المناقب[١]، تكاثر القوم تكاثرًا، وهو تفاعل من الكثرة، وهذا البناء ينصرف إلى[٢] ثلاثة معانٍ:

أحدها: وقوع الفعل بين اثنين كالمقاتلة والمضاربة، يقال: تقاتلنا، وتعاملنا، وتناظرنا.

وثانيها: تكلف الفعل على كُرْهٍ، كقولهم: تغافلت عن الأمر، وتعاميت، والمعنى: تكلفت ذلك.

وثالثها: حصول الفعل، تقول: تباعدتْ بمعنى بَعُدَتْ، وتفاقم الأمر، وتعالى الله، وتعاليت، والمراد به العلو.

زاره يزوره زيارة، والزيارة: إتيان الموضع كإتيان الماء، والمألوف على غير إقامة، ومنه: زوّر تزويرًا: إذا شبه الخط بما يوهم أنه خط فلان، وليس به.

وعلم اليقين: علم تسكن النفس إليه بعد اضطراب؛ ولذا لا يجوز اليقين في صفة الله تعالى.

الإعراب

﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ نصب على المصدر، أي: علمًا يقينًا، وقيل: أراد القسم، أي: وعلم اليقين، فحذف الواو ونصب، والأول أولى.

---

(١) المناقب: المنابت، غ.

(٢) إلى: على؛ غ.

ويقال: أين جواب (لو)؟

قلنا: فيه قولان:

أولهما: أنه محذوف، وتقديره: لو علمتم علم اليقين ما تصيرون إليه في المعاد لمنعكم ذلك ما أنتم فيه من طلب الدنيا، ولَشَغَلَكُمْ عن التفاخر بالكثرة، عن مقاتل.

وثانيها: أن جوابه فيما بعده، أي: لو علمتم يقينًا أنكم ترون الجحيم، وأنكم تصيرون إليها لمنعكم ذلك من التكاثر، عن أبي علي.

وقيل: لو علمتم علم اليقين لرأيتم الجحيم بقلوبكم، ثم لرأيتموها بأعينكم.

۞ النزول

قيل: نزلت في اليهود قالوا: نحن أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالاً، عن قتادة.

وقيل: نزلت في فخذ من الأنصار، عن بريدة.

وقيل: نزلت في حيين من قريش: بني عبد مناف بن قصي، وبني سهم بن عمرو، تفاخروا حتى ذكروا الأشراف والسادة وأنهم أكثر، فكثرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعد موتانا، فجاؤوا إلى القبور، فعدوها، وقالوا: هذا قبر فلان، فكثروهم بنو سهم؛ لأنهم كانوا أكثر عددًا في الجاهلية، ففيهم نزلت السورة.

۞ المعنى

«**أَلْهَاكُمُ**» أي: شغلكم «**التَّكَاثُرُ**» في الدنيا والحرص على جمعها عما أمركم به ربكم من الطاعات، والتكاثر: التباهي بكثرة المال والعدد، عن أكثر المفسرين. وقيل: ألهاكم كثرتكم، ووفور عددكم، وإعجابكم بأنفسكم[1] عن تدبر أمر الله تعالى، ذكر الوجهين أبو مسلم. «**حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**» قيل: حتى متم وصرتم من أهل المقابر، وهي القبور، عن الحسن، وقتادة، وأبي علي، وأبي مسلم. قال أبو علي:

(١) بأنفسكم: بنفسكم؛ غ.

يعني حتى متم على ذلك ولم تتوبوا، وقيل: زرتم المقابر، فعددتم الأموات في القبور في تفاخركم «كَلَّا» قيل: ردع وزجر، أي: لا تقولوا ذلك وازدجروا، واشتغلوا بما أمركم الله به، وقيل: معناه حَقًّا إنكم ستعلمون أن الأمر بخلاف ما ظننتم «سَوْفَ تَعْلَمُونَ» وعيد لهم، أي: عن قريب تعلمون ما وعدتم، وقيل: تعلمون بطلان ما قلتم، وما أنتم عليه «ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» فيه عدة أقوال:

أولها: ستعلمون في القبر، ثم ستعلمون في الحشر بعد البعث، عن أبي علي.[وعن علي][1] قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وثانيها: أنه كرر ذلك لأنه في موقفين، موقف الإكرام، وموقف الفضيحة، وذلك جَمِيعًا في الحشر، كأنه قيل: كلا سوف تعلمون إذا رأيتم دار الأبرار، ثم كلا سوف تعلمون إذا رأيتم دار الفجار.

وقيل: كرر تأكيدًا ووعيدًا، عن أبي مسلم.

وقيل: كلا سوف تعلمون عند اليأس، ثم كلا سوف تعلمون في الحشر، عن أبي علي.

«كَلَّا» قيل: ردع وزجر، وقيل: تأكيد في الوعيد، والعرب تؤكد بـ(كلا) و(حَقًّا)، وقيل: هو قسم «لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ» أي: علمًا يقينًا، واليقين والعلم واحد، فأضاف أحدهما إلى الآخر لاختلاف اللفظين، وقيل: معناه العلم اليقين، كقوله: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وقيل: العلم يكون بمسانيد، وضرورة، ويكون باكتساب، وإذا انضاف الضروري إلى المكتسب صار يقينًا، وإنما نعلم أحوال القيامة باكتساب، ثم نعلمه مشاهدة وضرورة «لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» يعني: في القيامة «ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ» بالمشاهدة إذا دخلوها وعذبوا بها، وقيل: ذكر (كلا) ثلاث مرات أي: ستعلمون عند اليأس، وفي القبر، وفي الحشر، وذكر في الثالث علم اليقين؛ لأنه صار عيانًا ومشاهدة «ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ» يعني: يوم القيامة «عَنِ النَّعِيمِ»[2] يعني: عن النِّعم

(١) ما بين المعكوفين زيادة من: تفسير الطبري: ١٢/٦٧٩، وتفسير ابن كثير: ٤/٤٠٧، وروح المعاني: ٢٠/٢٢٣، وتفسير القرطبي ٢٠/ ١٦٠.

(٢) عن النعم: من النعيم، غ. وما أثبتناه من تفسير الأعظم: ٢/٣٠٨.

التي كنتم فيها في الدنيا، قيل: عن جميع أجناس النعم دينًا ودنيا كيف صنعتم فيها، وهل شكرتم أم لا، وكل ذلك سؤال توبيخ، وقيل: الحواس السليمة، والأذواق الطيبة، والنفس الصحيحة، والماء البارد، وكل ذلك يدخل فيما ذكرنا أولاً، وقيل: من كل لذة من لذات الدنيا، عن مجاهد. وقيل: القرآن وشرائع الإسلام كيف علمتم بها، وروي أن النبي ﷺ سئل عن ذلك، فقال: «بيت يؤويك، وخرقة تواري عورتك، وكسرة تشد بها صلبك» وما سوى ذلك من النعيم[(١)]، وروي أن النبي ﷺ قرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فقال: «تكاثر الأموال جمعها من غير حقها، ومنعها عن حقها، وشدها في الأوعية»، ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ حتى دخلتم قبوركم ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إذا خرجتم من قبوركم إلى محشركم ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ عند تطاير الصحف، وشقي وسعيد ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ وذلك حين يُنْصَبُ الصراط بين جسري جهنم ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ عن خمس: شبع البطون، وبارد الشراب، ولذة النوم، وظلال[(٢)] المساكن، واعتدال الخَلْقِ»، وقيل: الصحة والفراغ والمال، عن عكرمة. وقيل: الأمن والصحة، عن ابن مسعود، ومجاهد. وقيل: المأكل والمشرب وسائر الملاذ، عن سعيد بن جبير، وقيل: العافية، عن علي. وقيل: عما أنعم عليكم بمحمد ﷺ، عن محمد بن كعب. نظيره: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، وقيل: عن الإسلام والسنن، عن أبي العالية. وليس هذا بخلاف، وإنما ذكر [النعيم] كلاً واحداً[(٣)] نعيما ظاهرًا، وجميع ذلك داخل فيما ذكرنا أنه يسأل عن نعم الدين والدنيا.

واختلفوا أي سؤال هو؟

فقيل: سوال توبيخ وتقريع.

وقيل: يسأل ليظهر أعمالهم للخلق.

وقيل: يقال لهم عند نزول العذاب بهم: أين ذهب ما تفاخرتم به، وما تكاثرتم به؟!

---

(١) من النعيم: عن النعم، غ.

(٢) وظلال: ضلال، غ.

(٣) كلا واحداً نعيما: كل واحد نعما، غ.

وعن النبي ﷺ أنه قرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ①﴾ ثم قال: «يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»(١).

۞ الأحكام

السورة تتضمن أحكامًا:

منها: ذم المباهاة والمفاخرة بالمال وأسباب الدنيا، والإعجاب بها، والحرص على تحصيلها، والاشتغال بها عن عبادة الله والعمل للآخرة، وكل ذلك مذموم.

ومتى قيل: أليس هذه الأموال كلها خلقها الله لمنافع عباده؟

قلنا: بلى، ومن أوتي مالاً من حله أو اكتسبه من جهته، ووضعه في حقه، ولم يمنعه ذلك عن عبادة ربه، فهو موضع الشكر، وليس بمذموم، وإنما المذموم أن يكتسبه من غير وجهه، أو وضعه في غير حقه، أو أنفقه في معصيته، أو قصر همته عليه، أو شغله عن عبادة ربه، فهو مذموم.

ومنها: أن العبد يضطر إلى معرفة ما عمل وجزائه، وذلك لطف للمكلف.

ومنها: أن كل أحد يُسْأَلُ عن عمله، وفيه أيضًا لطف.

وروي عن النبي ﷺ: «لا تزول قدما العبد حتى يسأل عن أربع: عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن عمله ماذا عمل به»(٢)، فإذا تصور العبد ذلك صرفه عن المعاصي.

---

(١) الترمذي رقم ٢٣٤٢.

(٢) الترمذي رقم ٢٤١٧.

سُورَةُ العَصرِ

سورة (العصر) مكية، وهي ثلاث آيات.

وعن أُبَيّ عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (**والعصر**) ختم الله له بالصبر، وكان مع أصحاب الحق يوم القيامة».

ولما ختم السورة بوعيد من ألهاه التكاثر بالدنيا، افتتح هذه السورة بأن الإنسان في خسر إلا من عمل صالحًا، وتجنّب المعاصي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ بسكون السين، وعن الأعرج بضمها[1].

اللغة

العصر: الدهر، وأصله: عصر الثوب ونحوه، وهو فتله لإخراج مائه، فمنه

(١) القرطبي ٢٠/١٦٧.

[عصر][1] الدهر؛ لأنه الوقت الذي يملك فيه فتل الأمور، كفتل الثوب، ومنه سميت صلاة العصر؛ لأنها تعصر بالتأخير عن أول وقتها[2]، والعصارة ما يعتصر من العنب وغيره، والمعصرات: السحاب الذي ينعصر بالمطر، والإعصار: غبار ينفتل كالعمود، ويتصعد في السماء.

والخسر: هلاك رأس المال، وهو الخسران.

والصبر: حبس النفس عما تنازع إليه من الأمر.

الإعراب

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ مكسور لأنه قسم، والواو واو القسم، وموضع القسم قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾.

النزول

قيل: نزل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ في أبي جهل بن هشام. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أبو بكر ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عمر ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ عثمان ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ علي، عن علي بن عبد الله بن عباس، ورواه أبي بن كعب مرفوعًا، والصحيح أنه عام؛ ولذلك استثنى.

المعنى

«وَالْعَصْرِ» قيل: أقسم بالعصر، وقيل: القسم برب العصر، والعصر: الدهر، عن ابن عباس، والكلبي، وأبي علي. وفيه عبرة لما فيه من مرور الليل والنهار، واختلاف أحوالهما، وقيل: هو العشي، عن الحسن، وقتادة. وفيه أيضًا عبرة لما فيه من إقبال الليل وإدبار النهار، وقيل: الليل والنهار، عن ابن كيسان. وقيل: صلاة العصر، وهي الوسطى، عن مقاتل. وقيل: العصر أحد طرفي النهار، عن أبي مسلم. وقيل: العصر

(١) عصر: زيادة من: التبيان في تفسير القرآن للطوسي: ١٠/ ٣٨٤ وتفسير مجمع البيان للطبرسي: ١٠/ ٣٨٩.
(٢) عن أول وقتها: إليه يقبل؛ غ.

نوائب الدهر، عن علي. والأول الوجه. «إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ» أي: في هلاك؛ لأنه لا خسران أعظم من استحقاق العذاب الدائم، وقيل: إنما قال: «لفي الخسر»[1]، وإن لم يكن في الحال فيه؛ لأن عاقبته الخسر، وهو واقع لا محالة، كقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، وقيل: بل هو في خسر من إحباط أعماله، واستحقاقه النار، عن الحسن. وقيل: في خسر أي: في خسران، وقيل: في هلاك، عن الأخفش. «إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله ورسوله «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» فإنهم ليسوا في خسر «وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ» يعني أمروا غيرهم بالطاعة والحق، وهو جميع ما أمر الله تعالى به، وقيل: الحق القرآن، عن الحسن وقتادة. وقيل: الإيمان والتوحيد، عن مقاتل. وقيل: كل عمل صالح «وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» وصى بعضهم بعضًا بالصبر على طاعة الله، عن الحسن، وقتادة.

۞ الأحكام

تدل السورة على أشياء:

منها: تأكيد الكلام بالقسم على عادة العرب.

ومنها: القسم بالعصر لما فيه من القدرة والنعم.

ومنها: أن كل من اتبع هواه، وآثر دنياه في خسر، وإنما الفلاح لمن آمن وعمل صالحًا، فيبطل قول المرجئة.

ومنها: وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعاء إلى الحق، وهو التوحيد والعدل.

ومنها: وجوب الصبر على الطاعة، وعن المعصية.

ومنها: ما يتضمن من إعجاز القرآن؛ لأنها مع قلة آياتها وحروفها تدل على جميع ما يحتاج إليه في الدين علمًا وعملاً.

ومنها: أن الإيمان والعمل والوصية فعل العبد، ليس بخلق الله تعالى.

(١) لفي خسر: في الخسر، غ.

سُورَةُ الهُمَزَة

سورة (ويل لكل همزة) مكية فيما روي، وهي تسع آيات.

وعن أُبيّ، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد[1] من استهزأ بمحمد وأصحابه».

ولما تقدم في سورة (العصر) أن الإنسان لفي خسر، بيّن في هذه السورة تفصيل تلك الجملة، وما أعد الله له.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، وعن الأعمش: «**ويل للهمزة اللمزة**»[2]، وروي نحوه عن ابن مسعود.

---

(١) بعدد: وبعدد، غ. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان للطبرسي ١٠/٣٩١. والكشاف: ٣٢٥٧. والكشف والبيان للثعلبي: ١٤/٢٠٨.

(٢) القرطبي ٢٠/١٦٩.

قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي: «جَمَّعَ» بتشديد الميم[1]، الباقون بتخفيف الميم والمعنى واحد، إلا أن في التشديد مبالغة وتأكيدًا.

قراءة العامة: «عدّده» مشددة الدال، وعن الحسن مخففة، وهو بعيد، جاءت في الشعر ضرورة لَمّا أبرزوا التضعيف خففوه.

قراءة العامة: «لينبذن» بغير ألف بين الذال والنون على الوحدان؛ لأن ما تقدم على ذلك (جمع، وعدد، ويحسب)، وعن الحسن: «لينبذان» بألف على الاثنين يريد هو وماله[2].

قرأ أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي: «عُمُد» بضم العين والميم، والباقون بفتحهما[3]، وهما جمعان للعمود، ويقال: حمار وحُمُر، وأديم وُأُدُم، قال أبو عبيد: هو جمع عماد كإهاب وأُهُب.

قراءة العامة: «ممددةٍ» بالكسر نعتًا للعمد، وقرأ عاصم الجحدري: «ممددةٌ» بالرفع جعلها نعتًا للمؤصدة.

وقرأ أبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم: «مؤصدة» بالهمز، الباقون بغير همز، وروي عن يعقوب القراءاتان[4].

۞ اللغة

الهَمَّازُ، والهُمَزَةُ، والغيَّاب: المغتاب، وأصل الهمز: الكسر والعض على الشيء، فكأن المغتاب يطعن فيه، ويكسره، همز يهمز همزًا، والهُمَزَةُ: الكثير الهمز، ومثله: ضُحَكَة كثير الضحك، وعُيَبَة كثير العيب، وقيل لأعرابي: أَتَهْمِزُ الفأرة، فقال: الهِرُّ يهمزها.

(١) حجة القراءات٧٧٢.
(٢) فتح القدير ٥/ ٧٠٢.
(٣) حجة القراءات ٧٧٣.
(٤) حجة القراءات ٧٦٦.

واللمز: العيب، واللماز العَيَّاب، وقيل: الهمز واللمز واحد، وقيل: بينهما فرق، ثم اختلفوا، فقيل: الهُمَزَةُ الذي يعيبك بظهر الغيب، واللمزة الذي يعيبك في وجهك، عن الليث. وقال ابن كيسان: الهمزة الذي يؤذي جليسه بسوء لفظه، واللمزة الذي يكسر عينه على جليسه، ويشير برأسه، ويومئ بعينه، يقال: لَمِزه يلمَزه، ولَمُزَهُ بكسر الميم وضمها، ومنه: ﴿يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ٥٨]، ورجل لَمّاز ولَمَزَةٌ، وهَمَّازٌ وهُمَزَة، وعيابُ [وعُيَبَة]، قال زياد الأعجم:

تُـدْلِـي بِـوُدِّي إِذَا لاَقَـيْـتَـنِـي كَـذِبًـا ... وَإِنْ أَغِـيـبُ فَـأَنْـتَ الْـهَـامِـزُ الـلُّـمَـزَهْ[1]

والنبذ: الطرح.

والحطمة: الكثير الأكل، ورجل حُطَمَةٌ: أكول، وأصله الكسر، ومنه: حطم الشيء أي كسره، وهذا البناء إنما يقع في صفةِ مَنْ كثر منه ذلك الفعل، فيصير عادة له، كقولهم: همزة لمزة، ورجل نُكَحَةٌ، كثير النكاح.

والمؤصدة: المطبقة، أصدت الباب أوصده: إذا أطبقته، وأوصدته أيضًا لغتان.

والعَمَدُ: جمع عمود، ويقال: جمع عماد، كقولك: إِهَابٌ وأَهَبٌ، ويقال: عُمُدٌ أيضًا.

۞ الإعراب

﴿وَيْلٌ﴾ رفع على الابتداء، جوابه: ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾.

﴿لُّمَزَةٍ﴾ جر بدلاً من الهمزة.

﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ رفع لأنه خبر (إن).

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ﴾ موضع (الذي) جر صفة اللُّمزة.

(١) العين (همز).

۞ النزول

قيل: نزلت السورة في مشرك بعينه، كان يهمز الناس ويلمزهم، أي: يعيبهم، عن ابن عباس. وقيل: إنه يسمى جميل بن عامر الجمحي، عن ابن نجيح.

وقيل: نزلت في الأخنس الثقفي، وكان يغتاب الناس مقبلين ومدبرين، عن الكلبي.

وقيل: نزلت في أمية بن خلف الجمحي، عن ابن إسحاق.

وقيل: في الوليد بن المغيرة، وكان يغتاب النبي، ويطعن في وجهه، عن مقاتل.

وقيل: ليست خاصة، بل هي عامة في كل من كان هذا صفته، عن مجاهد وجماعة، وهو الوجه.

۞ المعنى

«**وَيْلٌ**» كلمة وعيد، وقيل: واد في جهنم «**لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ**» قد أكثروا في ذلك، فقيل: هما واحد ومعناهما: الغَيَّابُ الطَّعَّان، عن جماعة منهم: مقاتل، وأبو علي، وأبو مسلم، قال أبو علي: وهو الطعن بالعيب من غير إيضاح، وقيل: هما واحد، ومعناهما: المَشَّاءُ بالنميمة، المفرِّق بين الأحبة، الباغي للبريء المكاره، عن ابن عباس. وقيل: بينهما فرق، ثم اختلفوا، فقيل: الهُمَزَةُ: الطعان، واللمزة: المغتاب، عن ابن عباس. وقيل: الهُمَزَةُ: المغتاب، واللمزة: الطعان، عن سعيد بن جبير، وقتادة. وقيل: الهمزة الذي يطعن في الوجه بالعيب، واللمزة الذي يغتاب عند الغيبة، عن الحسن، وأبي العالية، وعطاء بن أبي رباح. وقيل: الهمزة: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة: الذي يلمزهم بلسانه وبعينه، عن ابن زيد. وقيل: الهمز[(١)] باللسان، واللمز بالعين، عن سفيان، وابن كيسان. أي: يومئ بعينه ويشير برأسه استخفافًا به، وعيبًا له «**الَّذِي جَمَعَ مَالاً**» قيل: جمعه من غير حله، ومنعه من حقه «**وَعَدَّدَهُ**» قيل: أعدَّه ذخرًا لنوائب دهره، ولكثرته استخف بالمسلمين، عن

(١) الهمز: الهمزة، غ.

أبي علي. وقيل: عدَّدَه: كَثَّرَهُ، وقيل: أعده حالاً بعد حال، ذكر الوجهين أبو مسلم. وقيل: أعده: جعله عتادًا له، عن مقاتل. وقيل: أحصاه؛ أي: ما زال يعد شيئًا ويضعه حتى كثر من العدد «**يَحْسَبُ**» يظن «**أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ**» قيل: يبقيه، فلا يموت، ولا يفنى، وقيل: يحسب أن ماله أخلده حتى يغنيه، عن الحسن. وقيل: يعمل عمل من يحسب أن ماله أخلده، عن أبي علي. وقيل: يحسب أن لا بعث، وأنه مخلد في الدنيا، فهو توسع في أن لا بعث «**كَلَّا**» أي: ليس الأمر كما ظن، فلا تحسبوا ذلك، فإنه يموت، ويفنى ماله، عن أبي علي. وقيل: ليس كذلك؛ بل كذبوا في ذلك، وقيل: لا تغتابوا، ولا تعيبوا، وقيل: معناه حقًّا.

ومتى قيل: لِمَ[1] قال: «**أخلده**» بلفظ الماضي؟

قلنا: أراد به المستقبل، وعبر بالماضي، ومثله جائز.

«**لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ**» أي: ليُطْرَحَنَّ في جهنم بعد الموت، وإنما ترميهم الملائكة خزنةُ جهنم «**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ**» يعني لا يمكنك معرفة عظمها لشدتها، وسميت جهنم حطمة؛ لأنها تحطم كل شيء أي: تكسره «**نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ**» أي: المؤججة، وقيل: هي نار توقد منذ خلق الله السموات والأرض، فإن صح ذلك على بعده فهي لطف للملائكة، والخبر عنه لطف لنا «**الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ**» قيل: يبلغ ألمها القلوب، والاطلاع والبلوغ بمعنى، وقيل: تحرق أبدانهم حتى تصل إلى أجوافهم، وتطلع على أفئدتهم، عن أبي علي. وقيل: تحرق الأبدان والعظام والقلوب، عن أبي مسلم. وقيل: لشدتها تَنْفُذُ [في] كل شيء حتى تصل إلى القلب، وقيل: تخرج من الباطن إلى الظاهر بخلاف نيران الدنيا، وإنما خص القلب بالذكر؛ لأن أشد الآلام ما يخلص إلى القلب، وإذا خلص الألم إلى القلب يموت صاحبه، والمصائب والغموم تصله، ولا شيء يحس بالألم كالقلب «**إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ**» أي: مطبقة مغلقة، وقيل: تطبق، وتغلق أبوابها ليبقوا فيها آيسين من[2] الخروج، عن أبي علي.

---

(١) لم: ما، غ.

(٢) من: عن، غ. وما أثبتناه من: التبيان في تفسير القرآن للطوسي: ١٠/ ٣٨٨.

«فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ» قيل: هي العمود الطويل، وقيل: عمد من نار، وقيل: عمد تطرح على الأبواب إذا أغلقت، وتمد عليهم؛ ليتأكد إياسهم من الخروج، وقيل: العمد السرادق والأخبية، يعني أن النار محيطة بهم، كقوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف:٢٩]، عن أبي مسلم. وقيل: عمد يعذبون بها، عن قتادة. و«ممددة» أي: ممدودة، وهي من نعت العمد، وقيل: يكونون فيها موثقين مشدودين في القيود والسلاسل والعمد، عن ابن عباس.

۞ الأحكام

السورة تتضمن أحكامًا:

منها: وعيد العَيَّاب المغتاب المشَّاء بالنميمة، وحذر من ذلك غاية التحذير؛ لأنه مما يعم ضرره.

ومنها: ذم من قصر همته على جمع الدنيا، ويعجب بها، ولا يبالي من حرام حَصَّلَ أو حلال.

ومنها: وعيده بنار، منبهًا أن ظنه خطأ، وأنه لا يُخَلَّدُ أحدٌ، وأنه يبعَثُ، ويعذَّب بعذاب يصل إلى القلب، وكلُّ ذلك ترغيبٌ وترهيبٌ.

سُورَةُ الفِيلِ

سورة (الفيل) مكية فيما روي، وهي خمس آيات.

وعن أُبيّ، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (الفيل) عافاه الله أيام حياته في الدنيا من القذف والمسخ».

ولما تقدم ذكر من عاب الناس واغتابهم، وركن إلى الدنيا، وما أعد لهم من العذاب، بيّن في هذه السورة ما فعله بأصحاب الفيل، وكيف نَجّى المؤمنين؛ تأكيدًا لما تقدم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿تَرْمِيهِم﴾ بالتاء كناية عن الطير وهي جماعة، وقرأ طلحة بن مصرف وأشهب العقيلي بالياء كناية عن ذكر الله تعالى[1]؛ أي: يرميهم الله، وقيل: ترجع إلى لفظ الطير، وليس فيه علامة التأنيث، وروي هذه القراءة عن أبي حنيفة.

---

(١) القرطبي ٢٠/ ١٨٣.

اللغة

الكيد: الاحتيال والاجتهاد، ومنه سميت الحرب كيدًا لاحتيال الناس فيها، وقيل: الكيد إرادة مضرة على سبيل الخفية، ويستعمل بمعنى الإرادة، ومنه: ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]، كاده يكيده كيدًا، وقوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧] أي: لأحتالن لها، ويقال: كدت الرجل أكيده، إذا أردته بسوء، وكاد يكيد من الكيد، وكاد يكاد: يَقْرُبُ، ومنه: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور: ٤٠].

والضلال: أصله الذهاب عن سبيل القصد، ضل يَضِلُّ ويَضَلُّ بكسر الضاد وفتحها، قال ابن السكيت: أضللت[١] بعيري: إذا ذهب منك، وضَلَلْتَ الدار، لا تعرف موضعها، وضل عن الطريق، وأضل الشيء: إذا ضاعه، هذا أصله في اللغة، ثم يستعمل في الشرع في أشياء، والضلال إذا أطلق فهو اسم ذم، وهو من ضل عن دين الله وأمره، ثم قد يكون عامدًا فهو كبيرة، كقوله: ﴿مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ [الواقعة: ٩٢]، وقد يكون خاطئًا كقوله: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] أي: المخطئين، أردت شيئًا فحصل غيره، والضلال الهلاك أيضًا، ومنه: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٨]، ومنه: التضليل.

والأبابيل: جماعات في تفرقة، أي: زمرة زمرة، وقيل: لا واحد لها من لفظها، عن الفراء، وأبي عبيدة، ونظيره: العباديد، وقيل: واحدها إِبَّالَة، وقيل: إِبَّوْل، حكاه الكسائي، ونظيره: عِجَّوْل، وقيل: إِبِّيل.

والسجيل: قال أبو عبيدة: كل شديد، قال الشاعر:

ضَرْبًا تَواصَى بِهِ الْأَبْطَالُ سَجِينَا[٢]

والعصف: قال أبو عبيدة: ورق الزرع وهو عصيفه؛ وذلك لأن الريح تعصفه أي: تذهب به يمينًا وشمالاً.

---

(١) أضللت: أضلله، غ.

(٢) البيت قائله: ابن مقيم، وتمامه:

ودجلةً يضربون الهام من عرضٍ ... ضربا تواصت به الأبطال سجينا

جمهرة اللغة (جرل)، والصحاح(سجن)، واللسان (سجن).

۞ الإعراب

﴿أَبَابِيلَ﴾ من نعت الطير، إلا أنه لا ينصرف.

۞ القصة

أجمعت الرواة أن ملك اليمن الذي قصد الكعبة لهدمها: أبرهة بن الأشرم، وذلك أن ذا نواس الحميري كان ملك اليمن وكان يهوديًّا، وتهود قومه من حمير إلا نجران فإنهم كانوا على النصرانية، وأنه دعاهم إلى اليهودية فأبوا، فَخَدَّ لهم الأخدود، وأحرق بعضهم، وقتل بعضهم، وخرج رجل من أهل سبأ يسمى أوس بن ثعلبان إلى قيصر، واستنصره، فكتب له إلى النجاشي بالحبشة وكان على دين النصارى لينصره، ويبعث إلى اليمن، فبعث رجلًا يسمى أرياط، فغلب على الحبشة، وهلك ذو نواس، وكان مع أرياط أبرهة، فوقع بينهما خلاف، وخرج أبرهة، وقتل أرياطًا وملك اليمن، واجتمعت له الحبشة، فهذا سبب ملكه، وقصد الكعبة ليخربها.

واختلفوا في السبب الذي لأجله قصد هدم الكعبة، فقيل: بنى كنيسة بصنعاء وأمر الناس بأن يحجوا إليها، وسمع بذلك العرب، فخرج رجل من بني كنانة، وأحدث فيها، فأخبر بذلك أبرهة فحلف ليهدمن الكعبة، عن محمد بن إسحاق.

وقيل: إن رجلًا من العرب أحرق كنيسة للنصارى، فحلف أنه يحرق الكعبة.

وقيل: إن العرب هدموا كنيسة الحبشة، وهي للنصارى[1]، عن الحسن.

وقيل: كان جماعة من العرب تجارًا أدخلوا نارًا في كنيستهم فوقعت النار فيها، وكان يسمى الهيكل فاحترق، وبلغ النجاشي، فأمر أبرهة بهدم الكعبة غضبًا لكنيستهم، عن مقاتل.

وقيل: رأى أبرهة الناس يتجهزون أيام موسم الحج، فسأل عن ذلك، فقيل: يحجون بيت الله بمكة، فقال: مم هو؟ قيل: من الحجارة، فقال: أنا أبني بيتًا خيرًا

(١) للنصارى: النصارى؛ غ.

منه، وبنى كنيسة عجيبة، وأمر الناس بحجه، وجاء رجل من خثعمة، ولطخ البيت بالنجاسة، وبلغ ذلك أبرهة، فغضب، وقال: فعلته العرب لأجل بيتهم، وحلف لَيَهْدِمَنَّ الكعبة، عن الواقدي.

واختلفوا، فقيل: هو أبو مكسوم أبرهة، وقيل: أبو مكسوم بعض ندمائه، عن مقاتل. وقيل: أبرهة جد النجاشي الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، عن الواقدي.

وصار أبرهة بجنوده، ومعه الفيل.

واختلفوا في وقته، فقيل: كان قبل مولد النبي ﷺ بأربعين سنة، عن مقاتل. وقيل: من قبل مولده بثلاث وعشرين سنة، عن الكلبي، وعبيد بن عمير. وقيل: كان في السنة التي كان فيها مولد رسول الله ﷺ، [وعليه] أكثر أهل العلم. وعن عائشة: رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان[1].

قال الواقدي: كان بين هلاك الفيل وبين مولد النبي ﷺ خمسين يومًا، وكانت قريش تؤرخ بعام الفيل، فلما خرج أبرهة خرج معه أبو رغال، رجل من ثقيف، فمات في الطريق وهو الذي يرجم قبره، ولما قرب من الحرم بعث رجلاً يسمى الأسود، فجمع إليه أموال الحرم وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير، ثم بعث إلى أهل مكة بأني ما جئت للقتال، لكن لهدم هذا البيت والانصراف، فقالوا: ما عندنا قتال، وما لنا به يد، إنا سنخلي بينه وبين البيت، فله رب يحفظه، وجاء عبد المطلب حتى دخل على أبرهة، وهو شيخ جسيم وسيم، له رَوّاء وهيبة، فأعجبه وأكرمه وعظَّمه وسأله عن حاجته، فقال: أصبتَ مالاً لي فارددْهُ عليّ، فقال: كنت أعجبتني رؤيتك، ولقد زهدت، فقال: ولِمَ ذاك؟ قال: جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك أهدمه، لم تكلمني فيه وتكلمني في مائتيْ بعير، فقال: أنا رب الإبل، وللبيت رب سيمنعه، فَأَمرْ بِرَدِّ الإبل إليه.

وقيل: كان ذهب عبد المطلب بعمرو بن ثعلبة يعرض على أبرهة ثلث أموال أهل تهامة ليرجع ولا يهدم البيت، فأبى، عن ابن[2] إسحاق.

(١) يستطعمان: يستلعمان، غ: وما أثبتناه من تفسير ابن كثير ٤/ ٧١٠، وتفسير القرطبي ٢٠/ ١٧٤، وفتح القدير ٥/ ٧٠٦.

(٢) ابن: أبي، غ.

وقيل: قال عبد المطلب له: إن هذا بيت لم يسلط عليه أحد، ورجع عبد المطلب، وأمر قريشًا فتفرقوا في الشعاب، ورؤوس الجبال، وجاء إلى البيت، وأخذ حلقة الباب، وقال:

يَا رَبِّ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ حِلالَكْ
لاَ يَغْلِبَنّ صَلِيبُهُمْ وَمَحَالُهُمْ أَبَدًا مِحَالَكْ
إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَكَعْبَتَنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكْ

وعن محمد بن إسحاق أن عبد المطلب قال وهو آخذ بحلقة الباب:

يَا رَبِّ لاَ أَرْجُو لَهُمْ سِوَاكَا
يَا رَبِّ فَامْنَعْ مِنْهُمُ حِمَاكَا
إِنَّ عَدُوْ الْبَيْتَ مَنْ عَادَاكَا
امْنَعْهُمُ أَنْ يُخْرِبُوا فِنَاكَا

وذهب مع قومه، وأصبح أبرهة، وعبَّأ جيشه، وقرب فيله، وأقبل رجل يقال له: نفيل، وأخذ أُذن الفيل وقال: اترك محمودًا، وارجع راشدًا فإنك في بلد الله الحرام، فترك الفيل، فبعثوه، فأبى، فضربوه بالمعول، فأبى، فوجهوه إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى المشرق، فلم يهرول، فوجهوه إلى مكة فَبَرَكَ، وأرسل الله الطير من البحر، مع كل طير ثلاثة أحجار، حجران في رجليه، وحجر في منقاره، وقيل: كان في كل حجر مكتوب اسم صاحبه، وقيل: كان الحجر أصغر من الحمص وأكبر من العدس، فلما غشي القوم أرسلن عليهم فلم تُصِبْ أحدًا إلا هلك، وليس كل القوم أصابت، وخرجوا هاربين يتساقطون يهلكون في كل سهل، وأصيب أبرهة في جسده، فتساقطت منه أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطير، فمات.

وقيل: أصاب ما أصاب قومه من الحجارة، فهلك، عن أبي علي. وقيل: رمتهم بالحجارة، فلم يبق منهم أحد إلا أخذته الحكة، فكان لا يحك أحد جلده إلا تساقط لحمه.

وقيل: أرسل الله سيلاً فذهب بهم وألقاهم في النجد، وكان عبد المطلب يطلع عليهم، فلما رآهم لا يتحركون، جاء فرآهم كذلك، أخذ ما وجد من الصفراء والبيضاء ورجع إلى مكة وأخبرهم، فخرجوا، وانتهبوا.

وقيل: كان للطير مثل الخطاطيف سُودٌ، وقيل: كانت الحجر تقع على البيضة، فتحرقها حتى تصل إلى دماغه ثم في جوفه ثم في دابته حتى تغيب في الأرض.

قال محمد بن إسحاق: ولما رد الله الجيش عن مكة عظَّمَتْ العرب قريشًا، وقالوا: أهل الله، قاتَلَ عنهم، فكفاهم مؤنَة عدوِّهم، وقويت دواعي الناس إلى زيارة البيت، وتفاخروا، وقالوا فيه الأشعار، ولولا دفع الله لكان فيه بوارُ قريشٍ، وإنما جعل الله ذلك لتأتلف قريش على تصديق نبينا ﷺ وحرمة البيت، وتعظيمًا لأمر قريش حيث أخرج منهم رسول الله ﷺ.

المعنى

«**أَلَمْ تَرَ**» قيل: ألم تعلم يا محمد؛ لأنه ﷺ لم ير ذلك، والرؤية تستعمل بمعنى العلم، وبمعنى الإدراك بالبصر «**كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**» من الهلاك، قيل: كان معهم فيل واحد، اسمه محمود، عن مقاتل. وقيل: كانت ثلاثين فيلاً، عن الضحاك. وقيل: اثنا عشر فيلاً، وإنما وحد لرؤوس الآي، وأراد الجنس «**أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ**» قيل: احتيالهم، وقيل: تدابيرهم في المساء «**فِي تَضْلِيلٍ**» في هلاك، وقيل: في أباطيل، وقيل: في خسار، عن مقاتل. «**وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ**» قيل: يتبع بعضها بعضًا، عن ابن عباس. وقيل: كثيرة متتابعة، عن قتادة. وقيل: كان لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب، عن ابن عباس. وقيل: لها رؤوس كرؤوس السباع لم ير قبل ذلك، ولا بعده، عن عكرمة. وقيل: فيها أنياب السباع، عن الربيع. قالت عائشة: أشبه شيء بالخطاطيف، [و] قيل: طير خضر، لها مناقير صفر(١)، عن سعيد بن جبير. وقيل: كانت سودًا، عن عبيد بن عمير. فيحمل أن

(١) مناقير صفر: كمناقير صقر، غ. وما أثبتناه من: تفسير الطبري: ٢٤/ ٦٠٧. وتفسير القرطبي ٢٠/ ١٨٢. والكشف والبيان للثعلبي: ١٤/ ٢٢٢. وتفسير ابن كثير: ٨/ ٤٨٨. وتفسير البغوي: ٨/ وتفسير السراج المنير: ١/ ٥٢٩١.

بعضها كان خضرًا، وبعضها سودًا، وقيل: خلقها الله في ذلك الوقت في الهواء، وقيل: جاؤوا من البحر «تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ» أي: الطير ترمي تلك الجنود، قيل: مع كل طير ثلاثة أحجار، واحد في منقاره، واثنان في يديه، وقيل: في أجنحتها ومناقيرها، وقيل: كان الحجر يقع على رأس الرجل، فيخرج من دبره، وقيل: كان يصيب المغفر، فيجاوز حتى يصير إلى الأرض، [و] قيل: كان على كل حجر اسم صاحبه «مِنْ سِجِّيلٍ» قيل: من طين مطبوخ بالآجُرِّ، وقيل: مختلط بالطين، وقيل: هو مُعَرَّبٌ، عن أبي مسلم. وقيل: حجارة تذوب كالْجَمَدِ[(١)]، وقيل: حجارة صلبة شديدة ليست من جنس الحجارة التي تذوب[(٢)] كالبرد، سماها سجيلاً لصلابتها[(٣)]، عن أبي علي. وقيل: معنى السجيل: أنه سجل عليهم لعذابهم، وقيل: سجيل اسم من أسماء السماء الدنيا، أي: جاءتهم من جهة السماء، وقيل: حجارة من الجحيم وهو سجين، فأبدلت النون لامًا «فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ» قيل: كورق الزرع أكل بعضه وكسر بعضه، وقيل: وقع فيه الأكل، عن الزجاج. وقيل: مأكول الثمرة، كقولهم: فلان حسن، أي: حسن الوجه، فأجرى مأكول على العصف من أجل أكل ثمرته؛ لأن المعنى معلوم، وقيل: العصف ورق الحنطة، عن مجاهد. وقيل: هو أطراف الزرع قبل أن يسبل ويدرك، عن الفراء. وقيل: كالحب المأكول، عن عكرمة. وقيل: كطعام، عن الضحاك. وقيل: كالزرع النابت الذي أكل ورقه، عن الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة. وقيل: كزرع أكل حبه وتبنه، وقيل: كتبن مأكول، قد بطل، عن أبي مسلم.

۞ الأحكام

السورة تتضمن معجزة ونعمة وقدرة وعبرة:

أما المعجزة: فلأن ما ظهر من الطير ورميها بالأحجار، وإهلاك تلك العدد الكبير

(١) أي كالثلج.

(٢) التي تذوب: التي يذوب، غ.

(٣) سماها سجيلا لصلابتها: سماه سجيلا لصلابته، غ.

نقض للعادة، فلا بد من كونها معجزة لنبي، ثم اختلفوا، فقيل: كان إرهاصًا لنبينا ﷺ وكذلك حديث الغمامة، وهو قول مشايخنا البغداديين والجاحظ وغيرهم، وقيل: كانت معجزة لبعض الأنبياء في ذلك الزمان خالد بن سنان أو غيره، وهو قول شيوخنا.

ومتى قيل: لو كان ثَمَّ نبيٌّ لظهر أمره، وتواتر خبره؟

قلنا: يجوز أن يكون مبعوثًا إلى طائفة، ولم يكن ثَمَّ متعبدون بشرعه، فجائز أن يخفى عنا خبره، نحو كثير من الأنبياء.

فأما النعمة: فكما سلم البيت، وهو قبلة له ولأمته، ومطاف وإحياء سنة إبراهيم وإسماعيل.

وأما القدرة: فلما خلق الطير، وألهم رمي الحجر، وأرسل معهم الأحجار، وفي كل حجر من الاعتمادات ما يزيد على الحديد حتى يتجاوز الأجساد.

وأما العبرة: فما فعل بهم من الانتقام، وأن كل من قصد دين الله فالله ينتقم منه، وتدل على فضل الكعبة.

ومتى قيل: أليس الملحدة ينكرون ذلك؟

قلنا: قد تواتر الخبر بذلك، وذكروا ذلك في أشعارهم، ولأنه ثبت أن القرآن حجة، وقد نطق به، ولأن النبي ﷺ قرأ عليهم السورة، فصدقوه، ولم يكذبوه مع حرصهم على تكذيبه، وقد أكثر الشعراء ذكر ذلك، فمنها قول ابن الرقيات من قصيدة أولها:

أَرَّقَتْنِي بِالزَّابِيَيْنْ[1] هُمُومُ[2]

---

(١) بالزابيين: بالرامتين، غ.

(٢) قائله عبد الله بن قيس الرقيات، وتمامه:

أرقتني بالزابيين هموم　　　يتعاودنني كأني غريم

انظر: ديوان عبد الله بن قيس الرقيات، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت.

وفيها:

كَـادَهُ الْأَشْـرَمُ الَّـذِي جَـاءَ بِـالْـفِيـ ـلِ [فَـوَلّـى] وَجَـيـشُـهُ مَـهْـزُومُ

وَاسْتَهَلَّتْ عَلَيْهِمُ الطَّيْرُ بِالجَنْـ ـدَلِ حَـتَّـى كَـأَنَّـهُ مَـرجُـومُ[1]

وقال أبو صلت بن أمية:

إِنَّ آيَـاتِ رَبِّـنَـا بَـيِّـنَـاتٌ مَـا يُـجَـارِي فِـيـهِـنَّ إِلاَّ الْـكَـفُـورُ

حَبَسَ الْـفِـيـلَ بِـالْـمُـعَـرَّسِ حَـتَّـى ظَـلَّ يَـحْـبُـو كَـأَنَـهُ مَـعْـقُـورُ[2]

ولعكرمة بن عامر:

الـلـهُ رَبِّـي وَوَلِـيُّ الْأَنْـفُـس حَـبَـسَ الْـفِـيـلَ بِـأَعْـلَـى الْـمُـعَـرَّسِ

وقال نفيل ـ وكان خرج ليحارب أبرهة فأسره واستبقاه ليدله على الطريق، وهو الذي قال في أذن الفيل لما رأى ما نزل بهم ـ:

أَيْـنَ الْـمَـفَـرُّ وَالْإِلَـهُ الـطَّـالِـبُ وَالْأَشْرَمُ الْـمَـغْـلُوبُ غَـيْـرُ الْـغَـالِـبِ[3]

وله:

حَـمَـدْتُ الـلـهَ إِذْ عَـايَـنْـتُ طَـيْـرًا وَخِـفْـتُ حِـجَـارَةَ تُـلْـقَـى عَـلَـيْـنَـا

وَكُـلُّ الْـقَـوْمِ يَـسْـأَلُ عَـنْ نُـفَـيْـلٍ كَـأَنَّ عَـلَـيَّ لِـلْـحُـبْـشَـانِ دَيْـنَـا[4]

---

(١) البيت قائله عبد الله بن قيس الرقيات، انظر الديوان.

(٢) الأبيات تنسب لأمية بن أبي الصلت، انظر: ديوانه، وورد برواية أخرى:

إن آيـات ربـنـا ثـاقـبـات لا يـمـاري فـيـهـن إلا الـكـفـور

حبس الـفـيـل بـالـمـغـمس حتى ظـل يـحـبـو كـأنـه مـعـقـور

(٣) البيت قائله نفيل بن حبيب الخثعمي، وورد عجز البيت برواية أخرى: والأشرم بالمغلوب ليس الغالب. تاريخ الطبري١، دار الكتب العلمية بيروت ط ١ ١٤٠٧ هـ؛ سيرة ابن هشام، ج١، ص ٢٨.

(٤) ينسب البيتان كذلك لنفيل بن حبيب، وبرواية أخرى:

حـمـدت الـلـه إذ أبـصـرت طـيـراً وخِـفـت مـجـارة تـلـقـي عـلـيـنـا

فـكـل الـقـوم يـسـأل عـن نـفـيـل كـأن عـلـيّ لـلـحـبـشـان ديـنـا

تاريخ الطبري ١/ ٤٤٣؛ سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٨.

وذلك أنه خرج من بينهم هاربًا، فلما أصابهم ذلك طلبوه ليدلهم على الطريق، فما وجدوه، ولعبد الله بن عمر بن مخزوم من قصيدة:

أَنْـتَ الْـجَـلِـيـلُ رَبُّـنَـا لَـمْ تَـدْنَـس ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ أَنْـتَ حَـبَـسْـتَ الْـفِـيـلَ بِـالْـمَـغْـمَـس

مِـنْ بَـعْـدَ مَـا هَـمَّ بَـشـرٍّ مَـأْنَـسِ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ حَـبَـسْـتَـهُ فِـي هَـيْـئَـةِ الْـمُـكُـرْكَـسِ

أي: المنكس.

سُورَةُ قُرَيْشٍ

سورة (**لإيلاف قريش**) وهي مكية فيما روي، وهي أربع آيات.

وعن أُبَيّ، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (**لإيلاف قريش**) أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة، واعتكف بها».

وعن أم هانئ عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى فضل قريشًا لأني منهم، وأن النبوة فيهم، والسقاية فيهم، ونصرهم على الفيل، وعبدوا الله عشر سنين، لا يعبده غيرهم، فأنزل الله فيهم سورة لم يشرك فيها أحدًا غيرهم»، وقد قال بعضهم: إن سورة (الفيل) و(قريش) سورة واحدة، فرووا(١) أن في مصحف أبي لا فصل بينهما، والصحيح أنهما سورتان، وعليه جُلُّ الصحابة والتابعين، وبالطريق الذي يعلم تفاصيل السور بذلك يعلم أنهما سورتان، وما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأ بهما في ركعة واحدة لا يدل أنهما سورة.

ولما ختم السورة بذكر نعمه على قريش بإهلاك أصحاب الفيل، افتتح هذه السورة بذكر نعمه عليهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

(١) فرووا: فروا، غ.

۞ القراءة

اختلف القراء في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾[1] فقرأ أبو جعفر: «**لايلاف**» بغير همز، وقرأ ابن عامر: «**لإيلاف قريش**» مهموزًا مختلسًا بالياء، وإنما ذهب إلى ذلك طلبًا للخفة، وقرأ الباقون: «**لإيلاف**» بالياء والهمزة والإشباع على الأصل.

واختلفوا في «**إيلافهم**» فقرأ ابن كثير في رواية ابن فليح: (**إلْفهم**) ساكنة اللام، وروي عنه مثل قراءة أبي جعفر وهو: (**إلافهم**) بفتح اللام مشبعة بعدها ألف، والهمزة قبلها مختلسة ليس بعدها ياء، وروى محمد بن حبيب عن أبي يوسف الأعشى، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم: «**إئْلافهم**» بهمزتين: الأولى[2] مكسورة والثانية ساكنة، وقيل: هذه الرواية غير صحيحة، والصحيح عنه: «**إيلافهم**» مشبعة الهمزة بعدها ياء، وقرأ الباقون: «**إيلافهم**» بهمزة مشبعة، بعدها ياء، وروي عن عكرمة: (**لِيَألَفَ قريش إِلْفَهم**)[3].

۞ اللغة

الإيلاف والإلف بمعنًى، قال أبو مسلم: وهذا مما اتفق فيه الفعل، تقول: أَلِفْتُ المكان وآلَفْتُهُ، فمن قال: غير ممدود قال في المستقبل: آلَفُ، ممدود مفتوحة اللام، هذا إذا أخبر عن نفسه، فإذا أخبر عن غيره قال: أَلِفَ يَأْلَفُ إلفًا، نحو: علم يعلم علمًا، وإذا قال: آلفت ممدودة مفتوحة اللام قال في المستقبل مخبرًا عن نفسه: أُولِفُ إيلافًا، وإذا أخبر عن غيره قال: آلف ممدودًا يُؤْلِفُ إيلافًا نحو: أعلم[4] يعلم إعلامًا، والمعنى واحد، قال الشاعر:

أَبَتْ إِبِلي ماء الحياض وآلَفَتْ[5]

---

(١) انظر هذه الاختلافات في حجة القراءات ٧٧٣ ـ ٧٧٦.

(٢) الأولى: الأول، غ.

(٣) روح المعاني ٣٠/ ٢٤٠.

(٤) أعلم: علم؛ غ.

(٥) البيت قائله: طفيل الغنوي، وتمامه:

أبت إبلي ماء الحياض وآلفت ... تفاطير وسْمِيٍّ وأحناد مكرعِ

ديوان طفيل الغنوي، تحقيق حسان فلاح أو غلي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧. تاج العروس (فطر).

والإلف لزوم الشيء على عادة في سكون النفس إليه، أَلِفَ يَأْلَفُ إلفًا، وآلفه إيلافًا: إذا جعله يألف، وائتلف القوم ائتلافًا، وتآلفوا تآلفًا، وأَلَّفَهُمْ تأليفًا، ونظير الإيلاف: الإيناس، ونقيضه: الإيحاش، وأَلَّفْتُ بين الشيئين، ومنه التأليف معنى يحل جزءين لا يشاركه في هذا عرض، وبه فارق سائر الأعراض، وهو جنس برأسه.

الرحلة: حال السير على الراحلة، والراحلة: المركب القوي على السفر من الإبل ذكرًا كان أو أنثى، ومنه الحديث: «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»[1]، والرحل: متاع السفر، والارتحال: احتمال الرجل للسير في السفر، رحل يرحل رحلة، والرحل: منزل الرجل ومأواه، والراحلة: السرج؛ لأنه آلة السفر، والعرب تسمي الرحلة لِمَا كان في طلب المعيشة والرفادة وما أشبهها، وما كان للجهاد والحرب يسمى الغزو.

الإعراب

يقال: ما العامل في قوله: «**لإيلاف**» وما الجالب للام؟

قلنا: اختلفوا فيه على أقوال:

أولها: قال الفراء: هي متصلة بالسورة الأولى، كأنه قيل: فعلنا بأصحاب الفيل ما فعلنا نعمة منا على قريش، وتقديره: فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، وقيل: اللام بمعنى [إلى]؛ أي: فعلنا ذلك نعمة منا على قريش، إلى نعمتنا عليهم في رحلتها الشتاء والصيف، فكأنه قيل: نعمة إلى نعمة.

وقيل: هي لام (كي)، أي جعلهم كعصف مأكول لكي تألف قريش، فكأن هلاك أصحاب الفيل سبب لإيلاف قريش ونظام حالهم، هذا كله على أنها تتصل بالسورة المتقدمة. قيل: هذا لا يصح؛ لأنه من سورة أخرى.

وثانيها: قال الكسائي والأخفش: هي لام التعجب، تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت، ثم أمرهم بعبادته، كما تقول: لزيد، وإكرامنا إياه على وجه التعجب، أي: اعجبوا لذلك، إلا أنه حذف.

(١) البخاري رقم ٦١٣٣.

وثالثها: العامل فيه ما بعده، تقديره: فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، كأنه قيل: لذلك الإنعام فليعبدوا، ومثله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ [الزمر: ٦٤] كأنه قيل: أفأعبد غير الله فيما تأمروني، اعتراض على هذا التفسير، وهذا قول الزجاج.

ومتى قيل: لم عمل ما بعد الفاء فيما قبله؟

قلنا: لأنها زائدة غير عاطفة، كقولك: زيدًا فاضرب، وتريد: اضرب[1]، ولو كان عطفًا لما جاز [فيه] تقديم [المعمول]، كما لا يجوز في الواو و(ثم).

واختلفوا في نصب «رحلةَ» فقيل: نصب على المصدر، أي: ارتحالهم رحلة، وقيل: نصب لوقوع إيلافهم عليهم، تقديره: ليألفوا رحلة، عن الأخفش، وقيل: نصب على الظرف بمعنى: على رحلة، وقيل: محله رفع على تقدير: هما رحلة الشتاء والصيف.

۞ النزول

قيل: ضاق العيش على أهل مكة بدعاء النبي ﷺ حين قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر»[2] فجدبوا سبع سنين حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة، فمشى إليه رؤساء مكة: أبو سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة وغيرهما، وقالوا: ادع لنا، فإنا مؤمنون، فدعا لهم فاختصبت بلادهم بخصب اليمن، وقراها، وحمل إليهم الطعام، وكفاهم الله الرحلتين، فنزلت السورة.

۞ المعنى

«لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ» أي: لتأتلف مكة وقريش ولد النضر بن كنانة، وقيل: من لم يلده النضر فليس بقريش، واختلفوا لم سموا قريشًا، فقيل: القريش الجمع، يقال: تقرشوا؛ أي: تجمعوا، فلجمعهم سُمُّوا بذلك، وقيل: لتكسبهم الأموال وجمعها،

(١) وتريد اضرب: وبزيد فاضرب، غ. وما أثبتناه من: التحرير والتنوين لابن عاشور: ١٥/ ٤٠٢.

(٢) البخاري رقم ٧٧١.

وتجاراتهم سموا بذلك، وقيل: بل قريش دابة في البحر، تغلب سائر ما في البحر من الدواب، قال الشاعر:

وَقُـرَيْـشٌ هِـيَ الَّـتِـي تَـسْـكُـنُ الْـبَـحْـرَ   بِـهَـا سُـمِّـيَـتْ قُـرَيْـشٌ قُـرَيْـشَـا[1]

«**إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ**» قيل: كانت لهم رحلتان: رحلة الصيف إلى الشام، ورحلة الشتاء إلى اليمن في التجارة، عن ابن زيد، والكلبي، وجماعة. وقيل: كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف، فأمر الله أن يقيموا بالحرم ويعبدوا رب هذا البيت، عن ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير. وقيل: كان بالشام أرض باردة وأرض حارة، فكانوا يرحلون في الشتاء إلى الحارة، وفي الصيف إلى الباردة، عن أبي صالح. وقيل: إنه أنعم عليهم بالمقام بمكة، وأغناهم عن الخروج، وقيل: بل أمنهم في أسفارهم في الرحلتين.

فأما الأول: فتقديره: لتألف قريش مكة كإلفهم التجارتين فلا يفارقوها؛ لأنه أغناهم عن الخروج بما لطف حتى قصد الناس البيت للحج، وكثرت تجاراتهم بسببه، وجلبوا إليها كل شيء حتى استغنوا عن الرحلتين، وأمنهم من العدو، عن أبي مسلم.

وقيل: ليألفوا عبادة الله، كما ألفوا الرحلتين.

وقيل: كان لهم هاتان الرحلتان في الجاهلية طلبًا للمعاش، فلما جاءهم الإسلام، ووجب الحج، واستغنوا عن ذلك، وجلبوا إلى مكة ما أغناهم عن الارتحال، فذكرهم تلك النعم.

وأما الثاني: فمن عليهم بأن أمنهم في أسفارهم بما جعل في قلوب الناس من تعظيم أهل مكة، وقولهم: إنهم سكان الحرم، فلا يتعرض لهم أحد، عن أبي مسلم.

«**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ**» قيل: ليعبدوا رب [هذا] البيت قريشُ من أجل ما[2] أنعم عليهم من الاستغناء عن الرحلتين، عن أبي مسلم. وقيل: كان الحرم واديًا لا زرع فيها ولا ضرع، وكان لهم رحلتان بهما معاشهم، ولا يتعرض أحد لهم بسوء،

---

(١) تاج العروس (قرش)، اللسان (قرش).

(٢) ما: من، غ.

يقولون: سكان حرم الله، وولاة بيت الله، فشق عليهم الرحلتان، فأخصب اليمن والشام، وحمل إليهم الطعام، وكفاهم مؤنة الرحلتين، فأمرهم بعبادة رب البيت، عن جماعة من المفسرين. وقيل: فعل ما ذكره في سورة (الفيل) لتأتلف قريش وتجتمع وتكثر، وتأتلف رحلة الشتاء والصيف في التجارات؛ لأن ذلك معاشهم، ولولا ذلك لتفرقوا عن مكة، ففعل ذلك ليقيموا بمكة، ويخرج منهم محمد رسول الله ﷺ، فأمنهم من الخوف من العرب، وأطعمهم مما رزقهم من الأموال، عن أبي علي. وقيل: اللام لام الأمر؛ أي: لتألفْ قريشٌ بمكة، وليعبدوا رب هذا البيت كإلفهم رحلتين، وقيل: لِتَبْقَ قريش وما ألفوه من الرحلتين، عن الزجاج. وقيل: ليألفوا البيت كإلفهم الرحلتين «الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ» قيل: ما أعطاهم من الأموال، وسبب لهم من الأرزاق، وقيل: بما أوقع في قلوب الحاج وغيرهم حتى جلبوا إليها كل نعمة، عن أبي مسلم. وقيل: بالأسباب التي دعت إلى جلب النعم حتى توسعوا، وقيل: لما هلكت الحبشة قويت الدواعي إلى الحج، فقصدوا مكة بأنواع التجارات والنعم، وأزاح الله تعالى علتهم في معاشهم «وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» قيل: أمنهم من خوف الغارة بالحرم الذي جُبِلَ قلوب العرب على تعظيمه، عن قتادة. وقيل: كانوا إذا قالوا في سفرهم: نحن أهل حرم الله، لا يتعرض لهم أحد، وقيل: أمنوا بكثرة العدد والقوة والأموال، عن أبي علي. وقيل: أمنهم من الجذام، فلا يصيبهم ذلك أبدًا، عن الضحاك، والربيع، وسفيان، وشريك. وقيل: أمنهم من الحبشة، وقيل: أمنهم من أن تكون الخلافة إلا فيهم، عن علي (عليه السلام). وقيل: أمنهم بدعوة إبراهيم، وقيل: أمنهم بالنبي ﷺ، والإسلام، ورزقهم.

۞ الأحكام

السورة تتضمن أحكامًا:

منها: نعم الله على أهل مكة بالنعم والخصب والأمن.

ومنها: ما فعل من هلاك الحبشة ليأتلفوا بمكة، ويقيموا، ولا يتفرقوا عنها.

ومنها: الأمن بالعبادة، وأنها إنما تلزم لأجل النعم؛ لذلك عَدَّ النعم.

ومنها: أن الإطعام والأمن من حكم الله على عباده.

سُورَةُ المَاعُون

سورة (أرأيت)، سبع آيات.

قيل: مكية، عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقتادة. وقيل: مدنية، عن الضحاك، والواقدي. وقيل: مكية إلى قوله: ﴿ٱلْمِسْكِينِ﴾ وباقي السورة مدنية، عن مقاتل.

وعن أُبيّ، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (أرأيت) غفر الله له إن كان للزكاة مؤديًا».

ولما تقدم ذكر نعمه على قريش، افتتح هذه السورة تعجبًا من حالهم مع عظم النعم عليهم بمكة من الأمن والرزق، ثم إنهم كذبوه، وجحدوا نبوته.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: ﴿يَدُعُّ﴾ بضم الدال وتشديد العين من الدَّعِّ، وهو الدفع، وقرأ أبو رجاء العطاردي: «يَدَعُ» بفتح الدال، وتخفيف العين[1] أي: يترك، من قولهم: ودعته أي: تركته، ومصدره: الوَدْعُ، وَدَّعَ يُوَدِّعُ توديعًا فهو مودَّع[2]، والأمر دَعْ، ومنه: دع راعيَ اللبنِ، وزعم بعضهم أن العرب أهملوا مصدره وماضيه، وليس كذلك، فقد ورد في الحديث: «لينتهين الناس عن وَدْعِهِمْ الجُمُعات أو ليختمن على قلوبهم»[3] أي: عن تركهم إياها، والنبي ﷺ أفصح العرب، وينشد بعضهم:

لَيْتَ شِعْرِي عَنْ خَلِيلِي مَا الَّذِي ... غَالَهُ فِي الْحُبِّ حَتَّى وَدَعَهْ[4]

أي: تركه.

۞ اللغة

الدين: الجزاء، والدين: الحساب، والدين: ما يدان به، والدين: الطاعة، والدين: العادة، وأصل الباب: الجزاء.

والدَّعُّ: الدفع بشدة، دَعَعْتهُ دَعًّا، ودَعَّهُ يَدُعُّهُ دَعًّا: إذا دَفَعْتَهُ دفعًا شديدًا، ومنه: الدَّعْدَعَةُ: تحريكك المكيالَ ليستوعب الشيء، كأنه يدفعه، ومنه: الدَّعدَعة، قولك للعاثر: دع دع، كما يقال: لَعًا، كأنه يقول: دفعًا عنك، والدعدعة: زجر المعز، كأنه يدفعه.

والحض: التحريض على الشيء، يقال: حَضَضْتُهُ وحَرَّضْتَهَ وحَثَثْتُهُ بمعنًى، قال الخليل: الفرق بين الحث والحض أن الحث يكون في السير والسوق وكل شيء، والحض لا يكون في سير ولا سوق.

---

(١) القرطبي ١٧/ ٥٧.

(٢) مودّع: وادع؛ غ؛ اسم الفاعل من (وَدَّعَ): (مُوَدِّعٌ)، والأمر: وَدِّعْ.

(٣) النسائي رقم ١٣٧٠.

(٤) البيت ينسب لأبي الأسود الدؤلي، وينسب كذلك لأنس بن زنيم، الصحاح (ودع)، واللسان (ودع).

والماعون: قال أبو عبيد: كلما كان فيه منفعة، وأصله من القلة من قولهم: المَعْنُ القليل، وقال قطرب: وهو فاعول من «المَعْنِ»، تقول العرب: ما له سَعْنَةٌ ولا مَعْنَةٌ؛ أي كثير ولا قليل، قال الشاعر:

فَإِنَّ هَلاَكَ مَالِكٍ غَيْرُ مَعْنِ[1]

أي: غير قليل، فالماعون القليل القيمة مما فيه منفعة من آلة البيت كالفأس، والمقدحة، والإبرة، قال الأعشى:

بِـأَجْـوَدَ مِـنْـهُ بِـمَـاعُـونِـهِ إِذا مَـا سَـمَـاؤُهُـمُ لَـمْ تَـغِـمْ[2]

وقال الراعي:

قَـوْمٌ عَـلَـى الإِسْـلَامِ لاَ يَـمْـنَـعُـوا مَـاعُـونَـهُـم وَيُـضَـيِّـعُـوا الـتَّـهْـلِـيلاَ[3]

ومنه: مَعَنَ الوادي: إذا خرجت مياهه قليلاً، والماء المعين: الذي يجري قليلاً قليلاً، والماعون: الماء، قال الشاعر:

يَـمُـجُّ صَـبِـيْـرُهُ الْـمَـاعُـونَ صَـبًّـا[4]

سميت بذلك لأنه يجيء من السحاب قليلاً قليلاً، والصَّبِيرُ: السحاب، وقال أبو مسلم: الماعون «فاعول» من المعن وهو العطية، وهذا يرجع إلى ما ذكرنا؛ لأن العطية قليل من كثير، وسميت الزكاة والمعروف ماعونًا لذلك، لأنه قليل من كثير، وسمي أثاثُ البيتِ ماعونًا لقلة قيمته، وقيل: الماعون: الذي لا يحل منعه كالماء والنار والملح لقلة قيمتها، وقمعن له بظاعن لأنه يقل له، وحكى الفراء عن بعضهم أنه

(١) البيت قائله النمر بن تولب، وتمامه، وصدره:

ولا ضـيـعـتـه فـالأم فـيـه وقـدور وبـروايـة أخـرى:

ولا ضـيّـعـتـه فـالأم فـيـه فـإن ضـيـاع مـالـك غـيـر مـعـن

الصحاح (معن)، اللسان (معن).

(٢) اللسان (معن).

(٣) اللسان (معن).

(٤) وتمام البيت:

أقـول لـصـاحـبـي بـبـراق نـجـد تـبـصـر هـل تـرى بـرقًـا أراه

يـمـج صـبـره الـمـاعـون صـبًّـا إذا شـم مـن الـهـيـف اعـتـراه

الصحاح (معن)، اللسان (معن).

مأخوذ من الماء يُعِين، يقال: معن الماء، وأمعن: إذا سال، فعلى هذا يكون من العين فهو الماء الظاهر للعيون، فأخذ الماعون منه؛ لأن المَعْنَة، وهي الماء القليل الجاري، (فلعله) شَبَّهَ الماعون به.

۞ الإعراب

﴿أَرَءَيْتَ﴾ الألف الأولى استفهام، والثانية من أصل الكلمة، ويجوز (أَرَيْت) بحذف الألف الثانية، ولا يجوز (رأيت)؛ لأن ألف الاستفهام تصير عِوضًا، وإنما ذكر بلفظ الاستفهام لأن العرب إذا أرادوا المبالغة في الإفهام يقولون للمخاطب: أرأيت، وألم تر، تنبيهًا وتوكيدًا، فجرى الخطاب على عادتهم.

۞ النزول

قيل: نزلت السورة في العاص بن وائل السهمي، عن مقاتل، والكلبي.

وقيل: في الوليد بن المغيرة، عن السدي، ومقاتل بن حيان[1]، وابن كيسان.

وقيل: في عمرو بن عائذ المخزومي، عن الضحاك.

وقيل: في هبيرة، عن أبي وهب المخزومي.

وقيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وكان ينحر، فأتاه يتيم فسأله شيئًا، فقرعه بعصاه، فأنزل الله تعالى فيه هذه السورة، عن ابن جريج.

وقيل: هو عام في كل مَنْ كان بهذه الصفة.

۞ المعنى

«أَرَأَيْتَ» يا محمد هذا «الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ» قيل: بالجزاء والبعث والحساب، وفي بعض الأخبار: «الديان لا يفنى، والذنب لا يُنْسى، فاصنع ما شئت كما تدين تدان»[2]، وقيل: يكذب بالدين الذي جاء به محمد ﷺ، وهو الإسلام «فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ» أي: مع تكذيبه يَدُعُّ؛ أي: يدفع اليتيم، وهو الذي لا أب له، ولا أم له، وقيل: يدع اليتيم، أي: يقهره، ويدفعه عن حقه، ويظلمه، وإنما خص اليتيم؛ لأنه

---

(١) حيان: معيان، غ.

(٢) مصنف عبد الرزاق رقم ٢٠٢٦٢.

ليس له مدافع(١) «وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ» قيل: لا يحض على مواساة الفقراء بخلاً به وجهلاً بموقع الجزاء، وقيل: إطعام الطعام من سُنَّة الأنبياء والمؤمنين، وَمَنْعُهُ من شِيَم المنافقين لقولهم: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون: ٧] فَبَيَّنَ أنهم تخلقوا بأخلاق المنافقين، دون أخلاق المؤمنين، وقيل: أراد إلقاء حقوقهم؛ لذلك أضافه إليهم «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ» اختلف المفسرون فيه على قولين: منهم من يقول: إن المراد به المنافقون، ومنهم من يقول: المراد به المراؤون، ولما كان الذم يتوجه في السهو، إما بتركه على ما قاله بعضهم، وإما(٢) تأخيره أو لا يأتي بشرائطه، ثم كل ذلك قد يفعل مستحلاًّ، فيكفر، وقد يفعل على غير ذلك الوجه، فيفسق؛ فلذلك اختلف المفسرون فيه.

فأما من قال: إنه في المنافقين اختلفوا: فقيل: معناه: مِنْ صفتهم أنهم لا يُصَلُّون إلا رياء ونفاقًا من غير نية وإخلاص وإقامة قربة، عن أبي علي، وأبي مسلم.

وقيل: غافلون عنها، لا يبالي صَلَّى أم لم يُصَلِّ، عن قتادة.

وقيل: يتركون الصلاة في السر إذا غاب الناس، ويصلون في العلانية إذا حضروا، عن ابن عباس، والضحاك.

فأما من قال: إنه في غير المنافقين اختلفوا: فقيل: يغفل عن صلاته، ويقصر فيها، وقلبه مشغول بغيرها، لا يرى لها منزلة تقتضي صرف الهمة إليها، وهو المرائي الذي يُذَمُّ لسهوه، دون المنافق الذي يذم لنفاقه، لا لسهوه.

وقيل: ساهون: يؤخرونها عن وقتها، عن ابن عباس، ومسروق. وروي عن سعيد أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها»(٣).

---

(١) مدافع: دافع، غ.
(٢) وإما: أو، غ.
(٣) المعجم الأوسط رقم ٢٢٧٦.

وقيل: لاهون عنها مع أدائها، عن مجاهد.

وقيل: هو الذي إِنْ صلاها صَلَّاها رياء، وإن فاتته لم يندم.

وقيل: لا يصلونها بمواقيتها، ولا يُتِمُّون ركوعها وسجودها، عن أبي العالية، وروي عنه: الذي يَلْتَفِتُ.

والأظهر ـ بل الواجب ـ أنه أراد بالسهو ما هو فعل العبد، دون ما هو فعل الله؛ ليصح توجيه الذم عليه.

و«يراءون» يعني يراؤون الناس، يفعلونه ليروه، والأولى أن تحمل الآية على أهل النفاق؛ لأن أول السورة في المكذبين.

ومتى قيل: ما يفعله المنافق ليس بصلاة، فكيف أطلق عليه اسم الصلاة؟

قلنا: لأن صورته صورة الصلاة، فسماه صلاة توسعًا، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وإن كان ذلك ليس بدين.

ومتى قيل: لِمَ قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ ، ولم يقل (في صلاتهم)؟

قلنا: لأن الساهي فيها يقيم لها، والساهي عنها تاركٌ لها؛ ولهذا قلنا: إنه أليق بالمنافقين، وعن عطاء بن دينار قال: الحمد لله الذي قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل: (في صلاتهم).

«وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» قيل: هي الزكاة الواجبة، عن علي، وابن عمر، وابن الحنفية، والحسن، وقتادة، والضحاك، وأبي مسلم. وقيل: الماعون: ما يتداوله الناس بينهم من الفأس، والقدر، والدلو، عن ابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وسعيد بن جبير. وقيل: هو ما يسأله الجيران بعضهم من بعض من الأمتعة التي يستعيرها الناس، عن ابن مسعود، وأبي علي. قال أبو علي: وصفهم بغاية البخل والرداءة، وقيل: الماعون بلسان قريش: المال، عن سعيد بن المسيب، والزهري، ومقاتل، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الماعون الزكاة ـ أربع مرات ـ ألا أَدُّوا الزكاة تَنْجُوا»[1] وهو الصحيح؛ لأنها الذي يستحق الوعيد بتركها، وقيل: كانت العارية

(١) المستدرك رقم ٣٩٧٧، وفيه أنه قول لعلي رضي الله عنه.

واجبة في ابتداء الإسلام لضيق ذات يد المهاجرين، فلما اتسع الأمر صار مباحًا، وقيل: ذم هؤلاء لأنهم لخستهم لا يعينون ضعفاء المؤمنين، وقيل: هو الطاعة، عن ابن عباس. وقيل: هو المعروف كله، عن محمد بن كعب، والكلبي.

۞ الأحكام

السورة تدل على أشياء:

منها: وعيد من كذب بالبعث، ولا شبهة في كفره.

ومنها: عظم موقع الظلم على الأيتام، والظلم كله قبيح إلا أن ظلم اليتيم أفحش؛ لأنه لا يمكنه دفعه عن نفسه، ولا ناصر يدفع عنه، ولأن الله تعالى هو خصمه.

ومنها: ذَمْ من لا يطعم المسكين.

ومنها: أن العقاب والذم يتوجه على ألا يفعل على ما يقوله شيخنا أبو هاشم، خلاف ما يقوله أبو علي.

ومنها: قبح البخل، والبخل وظلم اليتيم وإن كان فسقًا ليس بكفر، فقد وصف الكافر به ذَمًّا له أنه مع كفره يتخلق بالظلم والبخل.

ومنها: ذم تارك الصلاة وتأخيرها والاشتغال عنها، وأن من أداها رياء من غير إخلاص لا ينتفع بها، ويستحق العقوبة؛ لأن المراد بالويل العقوبة.

ومنها: أن التكذيبَ ودَعَّ اليتيمِ والصلاةَ والرياءَ كلُّ ذلك فِعْلُ العبد، ليس بخلق الله تعالى.

ومنها: أن الواجب ألاَّ يسهو عن الصلاة ولا فيها، بل يؤديها، ويقوم بحقها.

ومنها: إيجاب الوعيد بمنع الماعون، والأولى أنها الحقوق الواجبة، وهو على وجهين: منها ما يجب بالشرع كالزكاة والنفقات، ومنها ما يحتاج إليه عند الضرورة على طريق العارية أو الضمان، وما عداها لا يستحق الوعيد بتركه، فلا تحمل الآية عليه، إلا أن تُحْمَلَ على أنه تخلق بالبخل، واعتاده حتى في العارية.

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

سورة (الكوثر) مكية، ثلاث آيات.

روى أبو أمامة عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ سقاه الله من أنهار الجنة، وأعطاه من الأجر عشر حسنات بعدد كل قربان قَرَّبَهُ العباد في يوم عيد».

وعن مكحول: «من قرأ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ كان له ما بين المشرق والمغرب أَبْعِرَةٌ، كل بعير عليه كراريس، كل كراسة مثل الدنيا وما فيها، كتب له [بدقة] الشعر ليس فيها[1] إلا صفة قصوره ومنازله في الجنة».

ولما ختم السورة بذم تاركي الصلاة، ومانعي[2] الزكاة مع تكذيبهم له، بَيَّنَ في هذه السورة أنهم إن منعوه وكذبوه فالله يعطيه الخير الكثير، وأمره بالصلاة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ③﴾

---

(١) فيها: فيهما؛ غ.

(٢) ومانعي: ومانع؛ غ.

القراءة

قراءة العامة: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ بالعين من العطاء[1]، وعن الحسن وطلحة بن مصرف: (أنطيناك) بالنون، وروي ذلك مرفوعًا، ومعناه: أعطيناه، ومنه الحديث أنه قال لرجل: «أَنْطِه» أي: أعطه، وروي في الدعاء: «لا مانع لما أنطيت، ولا منطي لما منعت»، فأبدل العين نونًا.

وعن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ كان يملي كتابًا، فدخل رجل، فقال له: «[أَنْطِهِ» أي: أعطه][2]، قال ابن الأعرابي: قد شرف النَّبِيُّ ﷺ هذه اللغة وهي حميرية.

اللغة

الإعطاء: إخراج الشيء إلى آخذ له، وأصله: التناول، يقال: عَطَا يَعْطُو: تناول، ومنه: أعطيته فعطا؛ أي أخذ.

والكوثر: بناؤه «فوعل» من الكثرة كَنَوْفَل من النفل الذي هو الإعطاء، ومعناه: الكثير النوافل، والكوثر: الذي من شأنه الكثرة، والكوثر: الخير الكثير.

والشانئ: المبغض، يقال: شَنِئْتُهُ أَشْنَؤُهُ شَنْأً وشنآنًا، وشَنَأْتُهُ: إذا أبغضته، ورجل مشنوء، ومنه: الشنآن، مصدر على «فَعَلَان» كالنَّزَوَان والضَّرَبَان.

والأبتر: المنقطع عن الخير، وأصله الذي انقطع، يقال: بترتُ الشيءَ قطعتُهُ قبل إتمامه، وسيف باتر أي قاطع، ورجل أبتر: لا عقب له، كأنه قطع نسله، وكلُّ مَنْ انقطع من الخير أثره أبترُ، والأبتر من الدواب: المقطوع الذَّنَب، وفي حديث زياد أنه خطب الخطبة البتراء؛ لأنه لم يحمد الله ولم يُصَلِّ على رسوله ﷺ.

---

(١) القرطبي ٢٠/١٩٨.

(٢) ما بين المعكوفين في غ: «انطا» أي: اسكت قوماً ما أثبتناه من: اللسان (فطا)

۞ النزول

عن ابن عباس قال: نزلت هذه السورة في العاص بن وائل السهمي، رأى رسول الله ﷺ يخرج من المسجد، وهو يدخل، فتحدثا، فسأله ناس من قريش: من الذي كنت تحدث؟ قال: ذلك الأبتر، يعني النبي ﷺ، فنزلت السورة.

وقيل: نزلت في عقبة بن أبي معيط، وهو قال للنبي ﷺ: أبتر.

وقيل: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من قريش قالوا: نحن خيرٌ أم محمدٌ؟ فقال: بل أنتم، ففيه، وفيهم نزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥٠ الآية إلى آخرها]، ونزل في الذين قالوا للنبي ﷺ أبتر: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، رواه عكرمة عن ابن عباس، وهذا بعيد؛ لأن قصة كعب كانت بعد الهجرة، وبعد بدر، وهذه السورة مكية.

وقيل: توفي لرسول الله ﷺ ابنٌ يُسَمَّى عبد الله، فسمته قريش أبتر، وكانوا يسمون من لا ابن له أبتر صُنْبُورًا.

وقيل: قالوا: هو أبتر، لا ولد له ذكر يقوم مقامه فيما يدعو إليه، فينقطع أمره، ففيهم نزلت الآية، فكذبهم، وجعل دينهم الأبتر، وأظهر دين الإسلام يزيد كل يوم علوًا.

وقيل: نزل قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢﴾ يوم الحديبية حين حُصِرَ النبي ﷺ وأصحابه وَصُدُّوا عن البيت، فأمره أن يصليَ وينحرَ وينصرفَ، عن سعيد بن جبير. وقيل: هذا بعيد؛ لأن الحديبية كانت بعد الهجرة بسنتين، وهذه السورة مكية.

۞ النظم

يقال: كيف تتصل هذه السورة بعضها ببعض؟

قلنا: تقديره: إنا أعطيناك الخير الكثير، فصل شكرًا، وانحر، واصبر، فإنا نهلك أعداءك.

وقيل: إنا أعطيناك خيرًا كثيرًا منها الشرائع لِيُصَلُّوا وينحروا في الأعياد، ومنها هلاك الأعداء.

المعنى

«إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ» يا محمد «الْكَوْثَرَ» قيل: نهر في الجنة، حافتاه الدر والياقوت، عن عائشة، وابن عمر، وروي ذلك مرفوعًا، وهو قول أبي علي، وروي أنه قال: «أعطيت الكوثر، فضربت يدي إلى تربته فإذا مسك أذفر، وإذا حصاه اللؤلؤ، وإذا حافتاه فُتَاتُ اللؤلؤ، وإذا نهر يجري على الأرض جريًا ليس بمشقوق»، وسئل رسول الله ﷺ عن الكوثر فقال: «نهر أعطاني الله تعالى، أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزر»[1]، فقال عمر: إن تلك الطير ناعمة؟ فقال: «أكلها أنعم منها يا عمر»، قالت عائشة: نهر في الجنة، من أحب أن يسمع خريرها فليجعل أصبعه في أذنه، وقيل: هو حوض النبي ﷺ، والذي يكثر الناس عليه يوم القيامة، عن عطاء. وقيل: هو الخير الكثير، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وأبي مسلم. وهذا هو الأولى؛ لأن جميع ما قيل فيه من تفاصيله، وقيل: هو القرآن العظيم، عن الحسن. وقيل: النبوة والكتاب، عن عكرمة، وقيل: هو العظيم من الأمر، عن ابن إسحاق. وقيل: كثرة الأتباع والأصحاب، عن أبي بكر بن عياش. وقيل: النسل الكثير كما ظهر في ذريته، وقيل: الصبر الرفيع والنصر في الدنيا والجزاء في الآخرة، وقيل: الفقه في الدين، وقيل: الشفاعة، وقيل: المعجزات، وقيل: الشرائع.

ثم نبه على عظيم حال الصلاة من جملة الشرائع، فقال: «فَصَلِّ لِرَبِّكَ» كأنه قيل: كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة فَصَلِّ شكرًا لنا في مقابلة تلك النعم، وقيل: إن ناسا[2] كانوا يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله، ويسمون عليها غير اسم الله، فقال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ فلتكن صلواتك ونحرك لله، عن محمد بن كعب، قيل: صَلِّ صلاة العيد وانحرْ نسكك، عن عكرمة، وعطاء، وقتادة، وأبي علي. وقيل: صَلِّ المكتوبة «وَانْحَرْ» نسكك في الحج والعمرة، عن أبي مسلم.

(١) الترمذي رقم٢٥٤٢.
(٢) ناسا: غير واضحة في غ. وما أثبتناه من: القرطبي ٢٠/ ٢٠٠ وفتح القدير ٥/ ٧١٦.

وقيل: صَلِّ الغداة المكتوبة بجُمَع، وانحر البُدْن بمِنَى، عن سعيد بن جبير، ومجاهد. وقيل: صل وانحر: ضع اليمين على الشمال في الصلاة وحِذَاءَ النحرِ، عن علي، وابن عباس. وقيل: انحر البدن، عن أنس، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وقتادة، وابن زيد، وأبي علي، وأبي مسلم. وروي نحوه عن ابن عباس. وقيل: «**وَانْحَرْ**» أي: استقبل القبلة بنحرك، عن الفراء، ومنه: داران يتناحران؛ أي: يتقابلان، وأنشد:

أَبَا حَكَمٍ هَلْ أَنْتَ عَمُّ مُجَالِدٍ(١) وسَيِّدُ أَهْلِ الأَبْطَحِ المُتَنَاحِرِ(٢)

أي: المتقابل.

وقيل: هو أن يقعد بين السجدتين حتى يبدو نحره، عن عطاء. وقيل: وارفع يديك بالدعاء إلى نحرك، عن سليمان التيمي، وقيل: «**وَانْحَرْ**» أي: ارفع يديك إلى النحر عند افتتاح الصلاة، والأَوْلى أن يحمل على الصلاة، ونحر الإبل؛ لأنه المشهور الظاهر، ولأنه عطفه على الصلاة، والظاهر أنه غيره، وخصهما تفخيمًا لشأنهما، ولأنهما كانا ينحران لغير الله، فأمر بالصلاة، والنحر لله شكرًا على إظهار شرائع الإسلام.

«**إِنَّ شَانِئَكَ**» أي: عدوك، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير وقال: هو العاص بن وائل، وهو جواب له، وقيل: جواب لقريش، وهم يومئذ أعداؤه، وقيل: لكعب أو عقبة على ما بَيَّنَّاهُ، وقيل: هو عام في كل عدو له «**هُوَ الْأَبْتَرُ**» قيل: المنقطع عن كل خير، وقيل: الذي لا عقب له، عن مجاهد. وقيل: الأقل الأذل بانقطاعه عن الخير، عن قتادة. وقيل: أراد به هلاكهم، عن أبي مسلم. وقيل: أراد أنه حط ما قالت قريش: إن دين محمد لا يقوم به بعده أحد، فكان ذلك دينهم [و] انقطع ما كانوا عليه، فلم يتمسك بها أحد من عبادة الأوثان، وظهر دينه، عن أبي علي. وقيل: الحمار الأبتر: المقطوع الذنب، شبه أعداءه به.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ أنه أعطاه الخير الكثير وخصه به، وذلك

(١) مجالد: مجالب، غ.

(٢) تاج العروس (نحر)، اللسان (نحر).

يشتمل على نعم الدين والدنيا، وعلى ما يعطيه في الآخرة، وكل واحد من المفسرين ذكر بعض ما دخل في الجملة، وما روي عن النبي ﷺ: «أنه نهر في الجنة»، وروي: «نهر أعطانيه الله» وروي: «نهر وعدني ربي» وروي: «نهر في بُطْنَانِ الجنة» وإن كان من أخبار الآحاد فلا مانع منه، وذكر بعض ما دخل في العموم، وإن صح ذلك فيدل على أنه موجود في الحال، ورووا أنه رأى الكوثر ليلة المعراج، ولا يقال: أليس يفنى بالفناء، وذلك لا يجوز وجوده في الحال، وأن يفنى، ثم يعاد.

ويدل قوله: ﴿فَصَلِّ﴾ أنه أمر بالعبادة بعد ذكر النعم شكرًا، وذلك يشتمل على كل صلاة، وقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ على كل نسك، وقد بَيَّنَّا ما قيل فيه.

ويدل أن الصلاة فرضت بمكة، وإن تغير بعض أوصافها بالمدينة، وروي أن جبريل أَمَّهُ عند البيت، وعلَّمه المواقيت.

ويدل قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أن أعداءه هم الأبتر، وذلك يشتمل على انقطاع النسل والذِّكْرِ، وانقطاع الدين، وعلى الهلاك، وكل ذلك فُعِلَ بهم، وفُعِل ضِدُّهُ به حتى انتشر ذكره وصيته، وظهر أمره ودينه، وكثر نسله وعقبه، ورأى مصارعهم وهلاكهم.

وتدل السورة على معجزات لرسول الله ﷺ:

منها: ما أخبر عن حال أعدائه، فكان كما أخبر.

ومنها: ما بشره بظهور دينه وانتشار أمره، فكان كما أخبر.

ومنها: عجزهم عن إتيان مثل هذه السورة مع تحديه إياهم به، وحرصهم على بطلان أمره.

ومنها: ما في هذه السورة من الإعجاز؛ لأنها مع قصرها تدل على أنه معجز، وأنه كلام رب العزة لفظًا ومعنى.

أما المعنى: ففيه تشريف له بما أعطي من الخيرات دينًا ودنيا، وأمر بالصلاة التي هي آكد عبادات البدن، وأمر بالهدايا التي هي من حقوق المال، وفيه أن ما يفعله ينبغي أن يكون لله، وفيه بشارة بهلاك أعدائه، وظهور أمره.

فأما اللفظ: فتشاكل الألفاظ، وسهولة مخرج الحروف، وحسن التأليف، وتقابل المعاني؛ لأن قوله: ﴿أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ أحسن موقعًا من أعطيتك الكثير، أو النعم، أو نهرًا في الجنة، أو النبوة، من حيث سهولة اللفظ واشتماله على المعاني الكثيرة، وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أحسن من صَلِّ لَنَا، ﴿وَٱنْحَرْ﴾ أحسن من «اشكر»، و﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ أحسن من «الأخسر»، وأعم وأدل على النكاية، فهذه الحروف القليلة قد جمعت المحاسن الكثيرة، مع ما فيها من الفخامة، وعظم الفائدة حتى تقبلها النفوس، ولاَ تُمجَّهَا الآذان.

سُورَةُ الكَافِرُون

سورة ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ مكية فيما روي، وهي ست آيات، وتسمى هذه السورة وسورة (الإخلاص): (المتشقشقتين)، لأنهما يبرئان من النفاق، يقال: تشقشق المريض: إذا برئ.

وروى جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «أتحب يا جبير أن تكون إذا خرجت سفرًا من أمثل أصحابك هيبة، وأكثرهم زادًا؟» قلت: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقال: «فاقرأ بهذه السور الخمس: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، و﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وافتح قراءتك ببسم الله الرحمن الرحيم»، قال جبير: وكنت غنيا كثير المال، فأخرج مع من شاء الله أن أخرج معه في السفر، فأكون أبذهم[1] هيئة، وأقلهم زادًا [فما زلت منذ علمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرأت بهن، أكون من أحسنهم هيئة وأكثرهم زادا][2]، حتى أرجع عن سفري ذلك[3].

وعن النبي ﷺ قال لرجل: «اقرأ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ عند منامك؛ فإنه براءة من الشرك».

وعن النبي ﷺ: «﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ربع القرآن»[4].

---

(١) أبذهم: أكثرهم، غ. والصواب ما أثبتناه من: مسند أبي يعلى: ١٥/ ٢٢٥.

(٢) ما بين العكوفين ساقط في غ، والزيادة من: مسند أبي يعلى: ١٥/ ٢٢٥.

(٣) مسند أبي يعلى رقم ٧٤١٩.

(٤) الترمذي رقم ٢٨٩٣.

وعن أبي، عن النبي ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فكأنما قرأ ربع القرآن، وتباعدت عنه مردة الشياطين، وبرئ من الشرك، وتعافى من الفزع الأكبر».

وعن النبي ﷺ: «مروا صبيانكم فليقرؤوها عند المنام فلا يعرض لهم شيء».

وعن ابن عباس: ليس في القرآن سورة أشد لغيظ إبليس من هذه السورة؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك.

ولما تقدم ذكر نعمه عليه، وذكر أعدائه في سورة (الكوثر)، أمر في هذه السورة بالبراءة من أعدائه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

۞ القراءة

قرأ نافع وابن كثير وحفص عن عاصم: «وليَ دين» بفتح الياء، الباقون بسكونها[1]. وقرأ يعقوب: «ديني» بإثبات الياء في الوصل والوقف، وكذلك كل ياء إضافة إلا في مواضع، وقرأ الباقون بحذفها.

۞ اللغة

أصل العبودة: الخضوع والتذلل، يقال: طريق مُعَبَّدٌ؛ أي: مذلل، والعبادة: الطاعة، ومنه: العبد، خلاف الحر، وعَبَّدْتُ فلانًا: اتخذته عبدًا، والعَبَدُ: الأنفة، والبعير المعَبَّدُ: الجَرِبُ المهنوء بالقطران المذلل.

---

(١) الحجة في القراءات السبع ٣٧٧.

۞ النزول

قيل: نزلت السورة في رهط من قريش دعوا النبي ﷺ إلى أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدون إلهه سنة، وفيهم نزل: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، عن ابن عباس.

وقيل: قالوا: نشركك في أمرنا، فإن كان الذي في أيدينا خيرًا كنت قد أخذت بحظ منه، وإن كان الذي في يدك خيرًا كنا قد أخذنا بحظ منه.

وقيل: الذي قال ذلك الوليد[١] بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية بن خلف، والحرث بن قيس السهمي، والأسود بن عبد يغوث الزهري، فقال النبي ﷺ: «معاذ الله أن أشرك به شيئًا».

وقيل: قالوا: نتبادل العبادة ليزول ما ينشأ من البغضاء والعداوة.

وقيل: قالوا للعباس: إن استلم ابن أخيك بعض آلهتنا صدقناه وآمنا به، فأنزل الله تعالى هذه السورة، وأمره بإظهار العداوة معهم، فدخل المسجد، وقرأها عليهم فأَيِسُوا، فحينئذ آذوه وآذوا أصحابه، وكان هذا قَبْلَ الأمرِ بقتالهم، وهكذا يكون المبطل في دينه في شك، والمحق على بصيرة ويقين.

۞ المعنى

«**قُلْ**» يا محمد «**يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**» الخطاب لقوم معهودين[٢]؛ لأن الألف واللام للعهد «**لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**» من الأوثان في الحال «**وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**» في الحال، يعني أعبد الله وأنتم لا تعبدونه «**وَلاَ أَنَا عَابِدٌ**» في المستقبل «**مَا عَبَدتُّمْ**» أنتم «**وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**» في المستقبل، فأحدهما ينصرف إلى الحال، والثاني إلى الاستقبال، فلا يكون تكرارًا، وعلى هذا نزلت السورة فيمن علم أنه لا يؤمن، وهذا القول محكي عن ثعلب. وقيل: القرآن نزل بلغة العرب، وهم قد يكررون للتأكيد والإفهام، وذلك

---

(١) الوليد: وليد، غ.

(٢) معهودين: معهود، غ.

مذهب لهم معلوم، كما عُلِمَ من مذهبهم الاختصار والحذف والإيجاز للتخفيف، وقد نطق القرآن بذلك في مواضع كثيرة، وورد من الأشعار ما لا يحصى، قال شاعرهم:

هَلَّا سَأَلْتَ جُمُوعَ كِنْـ ـدَةَ يَوْمَ وَلَّوْا أَيْنَ أَيْنَا[1]

وقال الآخر:

يا عَلْقَمَة يا عَلْقَمَة يَا عَلْقَمَةْ خَيْرُ تَمِيمٍ كُلِّهَا وَأَكْرَمَهْ[2]

وأنشد ابن الأنباري: أنبأنا أبو[3] بكر وفيها: وحدثني أصحابه أن مالكًا والحارث بن عبادة [لَهُ] أبيات أولها:

قَرِّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي لَقَحَتْ حَرْبُ وائِلٍ عَنْ حِيَالِ[4]

ثم كرر:

قَرِّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي

في أبيات كثيرة.

وقالت ليلى الأخيلية ترثي توبة بن الحمير:

وَنِعْمَ الفَتَى يَا تَوْبَ كُنْتَ لِخَائفٍ[5]

ثم كررت: ونعم الفتى يا توب... في أبيات كثيرة.

وقال مهلهل يرثي أخاه كليبًا:

---

(١) البيت قائله عبيد بن الأبرص، تحقيق: حسين نصار، القاهرة، ١٩٧٥. والأغاني ٢٢/٨٨.

(٢) أبو: ـ، غ وما أثبتناه من الكشف والبيان للثعلبي: ١٤/٢٤٦.

(٣) القرطبي ٢٠/٢٠٨.

(٤) اللسان (عنن). القصيدة شهيرة قالها الحارث بن عبادة في حرب البسوس بن بكر وتغلب وينعي ابنه جبير.

(٥) البيت لليلى الأخيلية، وتمامه:

ونعم الفتى يا توب كنت لخائف أتاك لكي تحمي ونعم المنازل

انظر: ديوان ليلى الأخيلية، تحقيق: واضح الصمد، دار صادر، ٢٠٠٣.

عَـلَـى أَنْ لَـيْـسَ عَـدْلاً مِـنْ كُـلَـيْـبِ[1]

ثم كرر ذلك في أبيات كثيرة.

وإذا كان هذا عادة لهم مشهورة، فأولى[2] المواضع بالتأكيد هذا الموضع؛ لأنهم أبدوا وأعادوا، فأكد لإياسهم وحسم أطماعهم بالتكرار، وقيل: أراد في الأول المعبود، وفي الثاني العبادة، و(ما) في الثاني (ما) المصدر، كقوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [الشمس: ٦]، وكقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥] أي: بفرحكم، وتقديره: لا أعبد ما تعبدون من الأصنام ولا أنتم عابدون من أعبد وهو الله تعالى، فإن زعمتم أنكم عابدون إلهي فأنتم كاذبون؛ لأنكم لا تعبدونه كعبادتي في الإخلاص والتقرب إليه، ولا أنا أعبده كعبادتكم، وهذا قول أبي مسلم والفراء، وقد ذكر الفراء أنه كقول المجيب: بلى، بلى، والممتنع: لا، لا، وأنشد أيضًا:

كَـمْ نِـعْـمَـةٍ كَـانَـتْ لَـكُـمْ ... كَـمْ كَـمْ وَكَـمْ[3]

وأنشد:

نَـعَـقَ الْـغُـرَابُ بِـبَـيْـنِ لَـيْـلَـى غُـدْوَةً ... كَـمْ كَـمْ وَكَـمْ بِـفِـرَاقِ لَـيْـلَـى يَـنْـعِـقُ

إلى غير ذلك من الأبيات.

وقيل: إن قريشًا مرة سألوه ذلك: أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فأمره أن يجيب بقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، ثم سألوه ذلك مرة أخرى بأن يستلم بعض آلهتهم ليؤمنوا، فأمره أن يجيب، فإنما تكرر لاختلاف الوقتين، والقرآن نزل شيئًا بعد شيء، وهذا قول ابن قتيبة. وقيل: لا أعبد ما تعبدون قطعًا، ولا أعبد أيضًا بشرط أن تعبدوا أنتم الله، ففي الحالين لا أعبده، وكذلك أنتم، وقيل: لا أعبد كعبادتكم، وهو الشرك، ولا أنتم تعبدون كعبادتي، وهو التوحيد.

---

(١) البيت قائله المهلهل بن ربيعة في قصيدة مطلعها:

أَلَـيْـلَـتَـنَـا بِـذِي حُـسُـمٍ أَنِـيـرِي

انظر: ديوان مهلهل بن ربيعة، تحقيق: طلال حرب؛ دار صادر، بيروت، ١٩٩٦.

(٢) فأولى: وأولى، غ.

(٣) صبح الأعشى، للقلقشندي تحقيق: يوسف طويل دار الفكر - دمشق ط١ ١٩٨٧م ٣/ ٣٦١.

ومتى قيل: لِمَ قال: «أعبد ما» و(ما) لما لا يعقل؟

قلنا: هو بمعنى الذي، ولأن العرب تعتبر المجازات في الكلام؛ فلذا[1] عبر عن معبودهم بما عبر عن معبوده. وقيل: النون قد تبدل بالألف، والأول أوجه.

ومتى قيل: الخطاب لجميع الكفار؟

قلنا: لا، بل لقوم خاص، عُلِمَ أنهم لا يؤمنون.

وقيل: إنه خطاب للمستهزئين، وقد بَيَّنَّا ما قيل في ذلك.

«لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» قيل: لكم دينكم الكفر، ولي ديني الإسلام، وهذا تهديد، لا تسليم، وقيل: لكم جزاء عملكم، ولي جزاء عملي، نبه على نصرته في دينه، وقطع أطماعهم فيما التمسوه منه.

۞ الأحكام

تدل السورة على وجوب مباينة المبطل، وذم المداهنة في الدين.

وتدل على وجوب الإخلاص، ولا تجوز المبادلة في العبادة.

وتدل على معجزة لنبينا ﷺ أن أخبر عن حالهم، فكان كما أخبر.

وتدل على أن كل أحد مُجَازًى على فعله.

وتدل على أن أفعال العباد فعلهم، ليس بخلق الله [تعالى].

---

(١) فلذا: فلما، غ.

سُورَةُ النَّصۡرِ

سورة (النصر) مدنية، وهي ثلاث آيات.

وعن ابن عباس: هي آخر سورة نزلت من القرآن على رسول الله ﷺ.

وقيل: نزلت قبل الفتح بزمان، عن أبي علي.

وعن أُبَيّ، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (النصر) فكأنما شهد مع محمد فتح مكة».

لما ختم السورة المتقدمة بأن لهم دينهم وله دينه، افتتح السورة بالبشارة بظهور دينه، وبطلان دينهم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

اللغة

النصر: هو المعونة على العدو للظهور عليه.

والفوج: الجماعة من جماعة، والأفواج: جماعات من جماعات، وهكذا كان الناس يدخلون في دين الله جماعة بعد جماعة.

والتسبيح: التنزيه.

والاستغفار: طلب المغفرة.

والتَّوَّابُ: كثير قبول التوبة، وهو مبالغة فيه، وذلك يكون بوجهين: إما لكبر الذنب، فيقبل التوبة، أو بفعلها مرة بعد مرة، فيقبل كل مرة توبته.

۞ الإعراب

﴿أَفْوَاجًا﴾ نصب على الحال.

﴿تَوَّابًا﴾ نصب لأنه خبر (كان).

۞ النزول

قيل: نزلت السورة قبل الفتح بزمان، عن قتادة، ومقاتل، وأبي علي، قالوا: وعاش رسول الله ﷺ بعده سنتين.

وقيل: نزلت في سنة الفتح.

وقيل: نزلت في حجة الوداع بمنى أيام التشريق، فجمع الناس، وخطب الخطبة المشهورة.

وقيل: نزلت بعد هذه السورة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣ الآية]، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ﴾ الآية [البقرة: ٢٨١].

وعن ابن عباس: لما نزلت هذه السورة قال النبي صلى الله عليه: «نعيت إليّ نفسي بأني مقبوض في تلك السنة»[1].

۞ القصة

قيل: لما صالح رسول الله ﷺ قريشًا بالحديبية، وكان رئيس القوم أبا سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، دخلت خزاعة في حلف رسول الله صلى الله عليه، ودخلت

(١) مسند أحمد رقم ١٨٧٣.

بنو بكر في حلف قريش، وكان بينهما شر في الجاهلية، حجر عنه الإسلام، ثم وقعت بين بكر(١) وخزاعة، قال: فأعانت(٢) قريش بكرًا سرًّا، وأصابوا منهم، ونقضوا بذلك عهد رسول الله ﷺ، فخرج عمرو بن سالم إلى المدينة، ودخل على رسول الله ﷺ، وهو في المسجد فأخبره بخبرهم، وأنشد الأبيات التي منها:

لاَهُمَّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدَا ... حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الأَتْلَدَا(٣)

إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا ... وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا

وفيها:

فَقَتَّلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّدًا

وخرج بديل بن ورقاء فأخبر رسول الله صلى الله عليه بما أصيب منهم، فوعدهم رسول الله ﷺ النصر، وعلمت قريش بالنقض فندموا، وبعثوا أبا سفيان في جماعة إلى المدينة ليؤكد العهد، فدخل على رسول الله صلى الله عليه، والتمس منه ذلك فلم يجبه، فجاء إلى أبي بكر وعمر ليسألا رسول الله فلم يجيباه، وأتى عَلِيًّا، وسأله أن يكلم رسول الله ﷺ فأبى، فقال: يا أبا الحسن، فَأَشِرْ عليّ، فقال: ما أعلم شيئًا يُغْنِي، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فَأَجِرْ بين الناس، ففعل، ورجع إلى مكة، وأخبرهم بالقصة، فقالوا: لعب بك ابن أبي طالب.

وأمر رسول الله ﷺ بالجهاد لحرب مكة، وجهز الناس، ودعا الله تعالى، فعميت عليهم الأنباء، وكتب حاطب بن أبي بلتعة إليهم بالخبر، وجاء الوحي، فبعث عليًا والزبير فَرَدَّا الكتاب، وخرج في شهر رمضان قاصدًا مكة في سنة ثمانٍ من الهجرة حتى نزل بمر الظهران في عشرة آلاف، وخرج في تلك الليلة أبو سفيان، وبديل بن ورقاء، وحكيم بن حزام، يتحسسون الأخبار، وخرج العباس على بغلة رسول الله، فلقيهم في الأراك، فجاء بأبي سفيان.. في قصة طويلة، وأسلم بعدما خُوِّفَ بالقتل.

(١) وقعت بين بكر: وقع من بني بكر، غ.
(٢) فأعانت: فأعان، غ.
(٣) البداية والنهاية ٤/ ٣٧٨.

ودخل رسول الله ﷺ مكة، وكان الفتح.

وأجمع أهل السير والفقهاء أن مكة فُتِحَتْ عنوة، غير الشافعي، فإنه قال: فتحت صلحًا، ففي فتح مكة نزل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

ولما ظفر بهم قالت العرب: إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون في دين الله فوجًا فوجًا.

وكان الفتح لعشر بقين من شهر رمضان سنة ثمانٍ.

۞ المعنى

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ يعني إذا نصركم الله على أعدائكم ومن ناوأكم، فأضاف المجيء إليه توسعًا، وهو بشارة من الله لنبيه بالنصرة. ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قيل: فتح مكة، عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، وأكثر المفسرين، وهو المروي عن ابن عباس. وقيل: فتح المدائن والقصور، عن يمان، وليس بالوجه. ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ﴾ قيل: العرب، عن الحسن. وقيل: أهل اليمن، عن مقاتل، وعكرمة. ﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: الإسلام ﴿أَفۡوَاجٗا﴾ قيل: زمرًا زمرًا، عن مجاهد. ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ يعني إذا أنعم عليك بهذه النعم فاشكر الله، وَنَزِّهْهُ عما لا يليق به بأن تحمده على هذه النعم، وتصفه بصفاته. وقيل: تنزهه عن أن تضيف نعمه إلى غيره، أو تضيف إليه قبيحًا. وقيل: فصلِّ لربك شكرًا. وروي أنه لما فتح مكة صلى ثماني[1] ركعات في وقت الضحى لما أمره الله به. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾ أي: اطلب المغفرة.

ومتى قيل: أي اتصال لهذا بالنصر والفتح؟

قلنا: النعمة تقتضي القيام بحقها، وهو شكر المنعم وتعظيمه، والائتمار لأمره، والانتهاء عن معاصيه، فكأنه قيل: حدث أمر يقتضي الشكر والاستغفار.

واختلفوا، فقيل: استغفر من صغائر ذنوبك عند تذكرها لتنافي الإصرار. وقيل: استغفر على جهة التسبيح، وإن لم يكن ثَمّ ذنب، وهذا هو الوجه. وقيل: استغفر من

(١) ثماني: ثمان، غ.

تقصير وزلة، وإن كانت صغيرة؛ لأنه لا يمتنع أن يتعبد الأنبياء بذلك لما تميزوا مِنْ غَيْرِهِمْ بنعمه تعالى. وقيل: استغفر لما يخطر ببالك. وقيل: استغفر لأمتك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ قابلاً للتوبة حالاً بعد حال من جميع الذنوب: صغيرها وكبيرها. وقيل: أمره بما ذكر شكرًا على إنجاز ما وعده من النصر.

وروي أنها لما نزلت السورة سُرَّ المسلمون، وبكى العباس وقال: أظن أنه نعي إليك نفسك يا رسول الله، فقال: «هو هكذا».

واختلفوا من أيْ وجهٍ علموا ذلك، وليس في ظاهره نَعْيٌ، فقيل: لما تقدم الوحي بأنه عند ظهور أمره، وانتشار دينه، ودخول الناس فيه يقرب أجله.

وقيل: لأنه انتهاء الرسالة، وتمام الأمر.

وقيل: لأنه أمره بتجديد التوحيد، واستدراك الفائت بالاستغفار، وذلك مما يلزم عند الانتقال.

ومتى قيل: لم كان دخول الناس في الدين مِنّة منه تعالى عليه؟

قلنا: لوجوه:

أحدها: أنه لفرط رحمته أراد دخول جميعهم في الدين، فدخلوا بلطفه، وصاروا تبعًا له.

وثانيها: لسرور النبي ﷺ بذلك، وبلوغه مقصده، وتمام مراده.

وثالثها: أن بكثرة ما يهتدى به يكثر ثوابه، ويعظم.

ورابعها: كثرة أمته حتى يباهي بهم يوم القيامة.

وقيل: كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه السورة يكثر قول: «سبحان الله وبحمده وأستغفرك وأتوب إليك»[1].

---

(١) المعجم الصغير رقم ٦٧٧.

۞ الأحكام

تدل السورة على معجزة؛ لأنه وعده بالنصر والفتح، ودخول الناس في الإسلام، فكان كما أخبر.

وتدل أن كثرة المسلمين وظهور الإسلام نعمةٌ من الله يجب على النبي والمسلمين شكرها؛ وذلك لأن قوة دين الله وكثرة جمع المسلمين نعمة عظيمة، موجبة للشكر لله تعالى؛ حيث ظهر الحق بلطفه وهدايته، ومِنْ وَجْهٍ آخرَ أن قوة الإسلام لطف تدعو إلى الدخول فيه، فيوجب الشكر، ومِنْ وَجْهٍ آخرَ أن المسلمين إخوة، فوجب الشكر له بظهوره، وكذلك يجب الشكر للنبي ﷺ حيث حصل بدعوته وحده واجتهاده، وكان ذلك لطفًا في إسلامهم، وكذلك يجب الشكر على عامة المسلمين بظهور الإسلام لأصحاب النبي ﷺ؛ لأنهم كانوا أنصار الدين، وكانوا لطفًا في إسلام الخلق، وجاهدوا واجتهدوا، في ظهور الحق خصوصًا مَنْ كَثُرَ جهاده بنفسه أو ماله كالخلفاء الأربعة.

ويدل قوله: «فسبح» الآية، على أن النعم كالسبب في وجوب العبادة والشكر.

فأما ما روي أنه نعي إليه نفسه، فذلك كرامة له ولأمته، أما له ليصلح أموره، ولأنه مخصوص به، وليعلموا إذا لم يبق هو فلا يبقى أحد.

فأما سؤال مَنْ يسأل عن الفائدة في إماتته، فالله أعلم بالمصالح، وهو النبي لا بد منه غير مُسْتَغْنًى عنه، ومن أسلم لخوفه فذلك لا يعتد به؛ وإنما يجب أن يسلم لله تعالى ولوجوبه.

سورة المسد

سورة (تبت) مكية، [وهي] خمس آيات.

وعن أُبيّ، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (تبّت) رَجَوْتُ ألا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة».

ولما ذكر في السورة المتقدمة وعده بالنصر والفتح عقّبه بالنصر والفتح على أبي لهب(١)، وما كفى الله من أمره، وكان أعدى عدو له.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾

القراءة

قرأ ابن كثير: «أبي لَهْبٍ» ساكنة الهاء، الباقون بفتحها(٢)، واتفقوا في ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أنها مفتوحة.

قرأ عاصم وحده: «حَمَّالَةَ» منصوبة، وروي ذلك عن الحسن(٣) والأعرج، ولها وجهان:

---

(١) على أبي لهب: بأبي لهب، غ.

(٢) حجة القراءات ٧٧٦.

(٣) حجة القراءات٧٧٦.

[أولها]: الحال، والقطع؛ لأن أصله: وامرأته الحمالة الحطب، فلما حذفت الألف واللام نصب.

وثانيها: على الذم، كقوله تعالى: ﴿مَّلۡعُونِينَۖ﴾ [الأحزاب: ٦١]، تقديره: أعني حمالة أو أَذُمُّ[١] حمالة الحطب.

الباقون بالرفع، وهو اختيار أبي حاتم، وله وجهان:

أحدهما: سيصلى نارًا هو وامرأتُهُ حمالةُ الحطب في النار.

والثاني: رفع على الاستئناف، تقديره: وامرأته حمالة الحطب في النار أيضًا.

قراءة العامة: ﴿وَتَبَّ﴾ ، وعن ابن مسعود: (وقد تَبَّ)[٢]، فالأول دعاء، والثاني خبر، كقولهم: غفر الله لك، وقد فعل، قال: لأني دعوت الله فيك، وقد فعل.

وقراءة العامة: ﴿سَيَصۡلَىٰ﴾ بفتح الياء وتخفيف اللام، وعن أشهب العقيلي بضم الياء وتشديد اللام، وعن أبي رجاء بضم الياء[٣].

اللغة

التَّبُّ: الخسران المؤدِّي إلى الهلاك، تَبَّ يَتِبُّ تَبًّا، والتَّبابُ: الهلاكُ.

والجِيدُ: العنق، وجمعه: أجياد، قال الشاعر:

فَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا وَجِيدُكِ جِيدُهَا[٤]

والمسد: حبل من ليف، وجمعه: أمساد، وأصل المسد: الفتل، ومنه: الليف؛ لأن من شأنه أن يفتل الحبل.

وَمَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيَانِقِ[٥]

---

(١) أذم: أذكر، غ.

(٢) القرطبي ٢٠/٢١٦.

(٣) القرطبي ٢٠/٢٠.

(٤) البيت لقيس بن الملوح، وتمامه:

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ... سوى أن عظم الساق منك دقيق

اللسان (سوق).

(٥) البيت هو لعقبة الهجيمي، وتمامه:

فأعجل بغرب مثل غرب طارق ... ومسد أمر من أيانق

ليس بأنياب ولا حقائق

اللسان (مسد).

الإعراب

﴿تَبَّتْ﴾ سكنت التاء لأن تاء التأنيث في غير مواجهة مجزوم، ولو واجهت قلت: تَبَبْت، وأنث (تبت): لإضافته إلى اليدين، وهي مؤنثة، ﴿وَتَبَّ﴾ ذَكَّرَ؛ لأنه مضاف إليه.

﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ موضع (ما) نصب، تقديره: أي شيء أغنى عنه ماله، فالمال فاعل و(ما أغنى) مفعول.

النزول

قيل: كان رسول الله ﷺ يكتم أمره، ويصلي مع أصحابه في شعاب مكة ثلاث سنين، فنزل قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فأتى رسول الله ﷺ الصفا، وقيل: أتى قبيس، فصعد، ونادى: «وا صباحاه»، فاجتمع الناس، فقال: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني فلان، فذكر بطنًا بطنًا، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل يريد أن يغير عليكم أكنتم تصدقوني»؟ قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تَبًّا لك تَبًّا لك، ألهذا دعوتنا، وقيل: أراد أن يرمي رسول الله ﷺ بحجر، فمنعه الله منه.

وقيل: قال صلى الله عليه: «إن الله أمرني بإنذاركم وأنتم الأقربون من قريش، وإني لا أملك لكم من الدنيا حظًّا، ولا من الآخرة نصيبًا إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله»، فقال أبو لهب: ألهذا دعوتنا[1] تبًّا لك، فأنزل الله تعالى هذه السورة.

المعنى

«تَبَّتْ» خسرت وهلكت، وفي هذا إخبار وذم له، وقيل فيه بمعنى الدعاء عليه، نحو: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٠]، «يَدَا أَبِي لَهَبٍ» أي: تَبَّ هو، فأخبر عن يديه،

(١) البخاري رقم ٤٥٢٣.

والمراد نفسه، على عادة العرب في محاوراتهم، يقولون: كسبت يداك، وخابت يداه، وقيل: اليد صلة، كقولهم: يَد الدهر، ويد الرزايا، قال الشاعر:

وَأَيْـدِي الـرَّزَايَـا بِـالـذَّخَـائِـرِ مُـولَـعُ[1]

وقيل: أراد به ماله وملكه، يقال: فلان قليل ذات اليد؛ يعني المال، والمراد هلك ماله، عن أبي مسلم. وقيل: المراد: اليد بعينها؛ وذلك لأنه أراد أن يرمي رسول الله صلى الله عليه بحجر، فمنعه الله منه، فقال: خسرت يداه في رميه، عن أبي علي. «أَبِي لَهَبٍ» قيل: هو كنيته، واسمه: عبد العزى فلذلك كَنَّاهُ، وقيل: بل اسمه كنيته، وقيل: سمي بذلك لحسنه، وإشراق[2] وجهه، وكانت وجنتاه تلتهبان، عن مقاتل. وقيل: كني بذلك لأنه يصير إلى النار، ويعذب باللهب، وقيل: كان مشهورًا بالكنية، فأراد أن يشتهر بالفضيحة.

«وَتَبَّ» قيل: الواو للعطف، وقيل: للحال، و(تب) خبر محض، كأنه قيل: وقد تب؛ أي: خسر وهلك، وقيل: الأول دعاء، والثاني خبر أنه فعل بذلك، وقيل: تبت يداه للمنع الذي وقع به من رمي الحجر، وتَبَّ للعقاب الذي نزل به فيما بعده، فأضاف الخسران الأول إلى يديه؛ لأن ذلك يمنع من الرمي، والثاني إلى نفسه، وقيل: لأن العذاب ينزل بجملته في الآخرة، عن أبي علي. وقيل: الأول: هلاك ماله، والثاني: هلاك نفسه، والمعنى: هلك ماله ونفسه، فلم يغن هو عن نفسه شيئًا، ولا أغنى عنه ماله، عن أبي مسلم. «مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ» أي: ما كفى عنه ماله من عذاب الله شيئًا، وعن ابن مسعود: أن أبا لهب قال لما دعاه رسول الله ﷺ: إن كان ما تقول يابن أخي حقًا فأنا أفدي نفسي بمالي، فبيَّن أنه لا يغني عنه ماله شيئًا، وقيل: معناه: أي شيء يغني عنه ماله إذا نزل به عذاب الله تعالى، وقيل: أراد بالمال الأغنام، وكان صاحب مواشٍ وسائمة، عن أبي العالية. «وَمَا كَسَبَ» قيل: ولده، وقيل: كسبه أمواله، وقيل: أفعاله.

(١) قرى الصيف ٣/ ٣٨٤، لأبي الدنيا، تحقيق: عبد الله المنصور ـ مكتبة أضواء السلف ـ الرياض ط ١ ١٩٩٧م.

(٢) وإشراق: وإفراق، غ.

ومتى قيل: لِمَ قال بلفظ الماضي؟

قلنا: قيل: عطفًا على ما تقدم، وقيل: لأنه كائن لا محالة، كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

ومتى قيل: من أي شيء لا يغني ماله؟

قلنا: فيه وجهان:

قيل: من عذاب الله في الآخرة.

وقيل: مما حَلَّ به في الدنيا.

«سَيَصْلَى نَارًا» يعني سيفعل به ذلك؛ لأن السين سين (سوف)، وقيل: سين الوعيد، كقولهم: سأفعل بك، ومعناه: عن قريب يصير أبو لهب صلاء النار، أي: وقودًا وحطبًا، وقيل: سيدخل نارًا ويعذب فيها «ذَاتَ لَهَبٍ» يعني ليست بجمرة، بل تتوقد؛ ولذلك قال: ﴿خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، قال أبو علي: لهبها اشتعالها. «وَامْرَأَتُهُ» أي: وستصلى امرأته بتلك النار، وهي أم جميل بنت حرب، أخت أبي سفيان، عمة معاوية، وكانت عوراء «حَمَّالَةَ الْحَطَبِ» قيل: كانت تمشي بالنميمة، فَوُصِفَتْ بحمالة الحطب، عن ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والسدي. كأنها نقالة الحديث والكذب، يقال: فلان يحطب على فلان: إذا أغرى به، قال الشاعر:

وَلَمْ يَمْشِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ(١)

أي: لم يمش بالنميمة، وإنما شبه النميمة بالحطب؛ لأن الحطب توقد به النار، والنميمة توقد نار العداوة، وقيل: كانت تأتي بالشوك، فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ إذا خرج إلى الصلاة، عن ابن عباس، والضحاك، وابن زيد. وقيل: وصفها بحمالة الحطب تخسيسًا لها وتحقيرًا لحالها، عن أبي علي، قال: ويجوز أن يكون أراد وصفها بهذه الصفة تعريفًا لها وذمًا، وعن مرة الهمداني قال: كانت تأتي

(١) مجمع الأمثال ١/٢٥٦.

بالحسك، فتطرحها في طريق المسلمين، فبينا ذات يوم حاملة حزمة حطب فأعيت، فقعدت على حجر لتستريح، فأتاها ملك، فجذبها من خلفها فأهلكها، وقيل: «**حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**» أي: حمالة الخطايا، عن سعيد بن جبير، وأبي مسلم. ونظيره: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١]، ويقولون: فلان يحطب على ظهره: إذا أساء. «**فِي جِيدِهَا**» عنقها «**حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ**» قيل: تحمل الحطب بحبل من ليف ذمًّا لها، عن أبي علي. وأراد خبثها وعداوتها للنبي صلى الله عليه حتى تُلْقِيَ الشوك في طريقه على ما تقدم، وقيل: سلسلة من حديد سبعون ذراعًا تدخل من فيها وتخرج من دبرها، وتدار على عنقها في النار، عن ابن عباس، وعروة بن الزبير. وقيل: ذلك الحبل الذي كان ينقل الشوك يكون في عنقها في النار، وذلك نحو قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٣٥]، وقيل: حمالة الحطب عبارة عن حمل الآثام، والحبل عبارة عن لزومها له، فإن الشيء يُشَدُّ بالحبل، وقيل: حلق من حديد، عن السدي. وقيل: من ليف.

ومتى قيل: كيف يبقى الليف في النار؟

قلنا: كما تبقى أعضاء الإنسان.

وقيل: معناه: كان في الدنيا ليفًا، وفي الآخرة نارًا، عن الضحاك.

وقيل: كانت خرزات في عنقها، عن الحسن.

وقيل: كانت لها قلادة فاخرة في عنقها حلفت لتنفقها في عداوة محمد.

وقيل: حبال من شجر باليمن يقال: [لها][1] مسد، عن ابن زيد.

۞ الأحكام

تدل السورة على معجزة له صلى الله عليه؛ إذ أخبر عن أمرها، وكان كما أخبر.

ومتى قيل: أكان يقدر على الإيمان مع هذا؟

قلنا: نعم، وإنما الوعيد بشرط ألا يؤمن، ولو تاب لقبلت توبته، والقدرة على خلاف المعلوم تصح، كما يقدر الله تعالى، وكما يقدران بقدرة، وكما أمره به، وذلك لا يكون؛ لأنه تعالى إنما علم الشيء على ما يكون.

---

(١) لها: زيادة من تفسير الطبري: ٢٤/ ٦٨١.

ومتى قيل: كيف يكون لو آمن؟

قلنا: لم يؤمن، فهذا تقدير محال، فالسؤال عنه محال؛ لأنه بأي شيء أجيب كان فاسدًا.

وتدل على أن المال لا يغني من عذاب الله شيئًا.

وروي أن أبا لهب كان ينفِّر الناس عن رسول الله، فأنزل الله تعالى هذه السورة وعيدًا له، وإظهارَ الكذِب له، وتنفيرًا للناس عن مقاله.

وروي أن أم جميل لما سمعت هذه السورة جاءت بحجر لترمي النبي ﷺ فدخلت المسجد فلم تره وأبو بكر جالس، فقالت: أين صاحبك الذي هجاني، وهجا زوجي؟ فقال: إنه ليس بشاعر، فقال ﷺ: «ما زال ملك يسترني عنها»[1]، ويحتمل أنه جعل بينهما سترًا، ويحتمل أنه عكس شعاعها عنه. وروي أنها قالت لأبي بكر: قد أجبته:

مُذَمَّمًا أَبَيْنَا وَدِينَهُ قَلَيْنَا[2]

فقال ﷺ: «إن الله تعالى صرف ذلك عني، يذمون مذممًا، وأنا محمد»[3] صلوات الله عليه.

(١) صحيح ابن حبان رقم ٦٥١١.
(٢) القرطبي ٢٠/٢١٦.
(٣) النسائي رقم ٣٤٣٨.

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

سورة (الإخلاص) أربع آيات، قيل: مكية، عن ابن عباس وهو الصحيح، وقيل: مدنية، عن قتادة، وهو غير صحيح.

وسميت سورة (الإخلاص)؛ لأنه ليس فيها غير التوحيد.

ولما تقدم ذكر الدين ووعد النصر لإظهاره وإهلاك أبي لهب ودينه، بَيَّنَ له دينه الذي يدعو إليه من التوحيد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

القراءة

قرأ حمزة ويعقوب: «كفؤًا» ساكنة الفاء مهموزة[1]، وروى مثله إسماعيل عن نافع والعباس عن أبي عمرو، وقرأ شيبة وحفص عن عاصم مضمومة الفاء مشبعة مفتوحة الواو وغير مهموزة، وقرأ الباقون بضم الفاء والهمزة، وعن أبي جعفر ساكنة الفاء غير مهموزة، وكلها لغات.

---

(١) السبعة في القراءات ٧٠١.

قراءة العامة: ﴿أَحَدٌ﴾ وعن ابن مسعود: (الواحد). قراءة الفراء: ﴿أَحَدُ﴾ بالتنوين في الوصل، وعن أبي عمرو بالتنوين وترك التنوين، وعن الحسن وأبان بن عثمان بلا تنوين للخفة مع أنه رأس آية وتنوين الوقف، والأصل التنوين[1].

۞ اللغة

الأحد والواحد بمعنى، وأصله: وحد، قلبت الواو همزة كقولهم: أتاه ووتاه، ولأنهم كرهوا الواو، أَوَّلاً، فقلبوها إلى حرف مناسب له، وقيل: جاء على الأصل في شعر النابغة:

كَـأَنَّ رَحْـلِـي وَقَـد زَالَ الـنَّـهـارُ بِـنَـا   بذي الْجَلِيلِ عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحِدِ[2]

وحقيقة الواحد: الشيء الذي لا ينقسم في نفسه، أو معنى صفته، فيقال: واحد في نفسه، وواحد في صفته، فالأول: كقولهم: جزء واحد، والثاني: كقولهم: جسم واحد، ودار واحدة.

والصمد: السيد المعظم، وقيل: الذي يصمد إليه في الحوائج، قال:

أَلاَ بَكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرَيْ[3] بَنِي أَسَدْ   بِعَمْرو بْنِ مَسْعُودٍ وَبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ[4]

وأصله: القصد، صمدت إليه أصمد، أي: قصدت، فلما كان السيد بهذه المثابة سمي صمدًا.

والكُفُؤُ والكَفِيءُ والكُفْءُ: المثل والنظير، يقال: ما له كفؤ، أي: نظير.

۞ الإعراب

قوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قيل: (هو) عماد، و(الله) ابتداء، و(أحد) خبره، عن

---

(١) فتح القدير ٥/ ٧٣١.

(٢) اللسان (وحد).

(٣) بخيري: بمخبر، غ.

(٤) البيت لهند بنت معبد. اللسان (صمد).

الكسائي، وأنكر الفراء أن يكون العماد مستأنفًا، وقال: هو كناية عن اسم الرب تعالى؛ لأنهم لما قالوا: ما ربك؟ قال: هو الله أحد.

ويقال: لِمَ قال: ﴿أَحَدٌ﴾ وكان ينبغي أن يقال: الأحد؛ لأنه صفة لمعرفة؟

قلنا: هو بدل من (الله) كأنه قيله: هو الله، هو واحد.

﴿كُفُوًا﴾ نصب؛ لأنه خبر (كان).

۞ النزول

عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه: انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ السورة.

وعن ابن عباس قال: إن عامر بن الطفيل وأربد بن قيس أتيا النبيﷺ فقال عامر: إلام تدعوننا يا محمد؟ قال: «إلى الله»، فقال: صف لنا، أَمِنْ ذَهَبٍ، أم من فضة، أم من حديد، أم من خشب؟ فنزلت هذه السورة، فأرسل الله الصاعقة على أربد فاحترقته، وطعن عامر في خنصره، فمات.

وقال قتادة ومقاتل والضحاك: جاء أناس من أحبار اليهود، فقالوا: يا محمد، صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك، فإنه أنزل نعته في التوراة، فأخبرنا من أي شيء هو؟ ومن أي جنس؟، أمن[١] ذهب، أم نحاس، أم صفر، أم حديد، أم فضة؟ وهل يأكل ويشرب؟ فنزلت السورة.

وعن سعيد بن جبير أن رهطًا من اليهود قالوا: يا محمد، هذا الله خلق المخلوقين، فمن خَلَقَهُ؟ فغضب رسول الله حتى تغير وجهه، فجاءه جبريل، وسكنه، وجاء بالجواب: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخره، فقالوا: صفه، كيف عضدُهُ؟ كيف ذراعه؟ كيف خلقه؟ فغضب أشد من غضبته الأولى، فأتاه جبريل بالجواب: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الحج: ٧٤].

(١) أمن: أم، غ.

وروى الضحاك عن ابن عباس: أن[1] وفد نجران، قدموا على رسول الله ﷺ، سبعة أساقفة من بني الحارث بن كعب، فيهم السيد والعاقب، وقالوا للنبي ﷺ: صف لنا ربك، من أي شيء هو؟ فقال: «إن ربي ليس من شيء، وهو بائن من الأشياء»، فنزل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ السورة.

وذكر القاضي قال: روي أن عبد الله بن سلام انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه، وهو بمكة [فقال] له [الرسول]: «أنشدك الله، ما تجدني في التوراة رسول الله؟»، فقال: انعت لنا ربك، فجاء جبريل بهذه السورة، فقرأها عليه، فكان سبب إسلامه، لكنه كتمه، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه أظهر إسلامه.

❁ المعنى

«قُلْ» يا محمد: «هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» قيل: واحد في الإلهية والقدم، وقيل: واحد في صفات ذاته، لا يشاركه فيها أحد، وقيل: واحد لا نظير له، وقيل: واحد في صفاته، فإنه قديم باقٍ، قادر عالم، حي لم يزل، ولا يزال، وواحد في أفعاله بِفِعْلٍ لا يجرّبه، نفعًا، ولا يدفع به ضررًا، وجميع أفعاله كذلك، وقيل: واحد في استحقاق العبادة، لا تحق لأحد سواه، وقيل: واحد لا يتجزأ، ولا يتبعض، مع أنه حي قادر عالم، ولا يقال «واحد» من طريق العدد؛ لأنه يشتمل على جميع المعدودات، القديم والمحدث «اللَّهُ الصَّمَدُ» قيل: السيد المعظم، عن ابن عباس، وأبي رزين، وسفيان. وقيل: ليس فوقه أحد، وقيل: الذي يقصد إليه في الحوائج والرغائب، المستغاث به عند المصائب، عن السدي، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: الذي لا ينام، عن يمان. وقيل: الذي لا يكافئه أحد من خلقه، عن كعب الأحبار. وقيل: الذي لا يوصف بصفته أحد، عن ابن كيسان. وقيل: الذي لا تعتريه العيوب عن الآفات، عن الربيع، ومقاتل. وقيل: الكامل في جميع صفاته وأفعاله، عن سعيد بن جبير. وقيل: المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد، عن أبي هريرة. وقيل: الغالب الذي لا يُغلب، عن الصادق. وقيل: الصمد الذي لا تدركه الأبصار، ولا تحويه الأفكار، ولا تبلغه الأقطار، وكل شيء عنده بمقدار.

(١) أن: أنى، غ. وما أثبتناه من: الكشف والبيان للثعلبي: ١٤/ ٢٦٥.

فأما إن(١) [أراد ما] قال بعضهم: الذي لا خَوْفَ له، فإن أراد أنه يستحيل ذلك عليه فهو صحيح، وإن أراد أنه جسم مصمت فيتعالى الله عن ذلك.

وقيل: الصمد الذي يقضي الحوائج: سئل، أم لَمْ يُسْأَلْ.

«**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**» أي: ليس بصفة الجسم حتى يلد ويولد، ردًّا على النصارى واليهود وغيرهم، بل «لم يلد» فيكون بصفة الوالدين، «ولم يولد» فيكون بصفة الأولاد «**وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**» أي: لا مثل له، وقيل: لا صاحبة له، عن مجاهد. وتقديره: لم يكن له [أحدٌ] كفؤًا، فقدم وأَخَّر لتطَّرِد رؤوس الآي.

❁ الأحكام

هذه السورة مع قصرها تدل على صفاته تعالى، وما يجوز عليه، وما لا يجوز عليه.

ومما لا يجوز: فيدل قوله: ﴿أَحَدٌ﴾ أنه واحد في الإلهية، وذلك لا يصح إلا بالتفرد بصفات ذاته.

ويدل قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ أنه مفزع الخلق في حاجاتهم دينًا ودنيا، فيدل أنه منعم لا يفعل القبيح.

ويدل قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ أنه ليس بجسم، ولا يشبه الأجسام.

ويدل قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أنه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، وأنه ليس بمتحيز، ولا في مكان، ولا في جهة.

وقيل: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يدل على التوحيد، و ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يدل على العدل؛ لأنه إنما يقصد من أفعاله حسنة.

وقيل: أنواع الشرك ثمانية: النقص، والتغلب، والكثرة، والعدد، وكونه علة،

(١) إن: من، غ.

وكونه معلولاً، والأشكال، والأضداد، فنفى الله تعالى عن صفته نوع الكثرة والعدد بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ونفى النقص والتغلب بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، ونفى العلة والمعلول بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، ونفى الأشكال والأضداد بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

۞ فضل السورة

روى أبو الدراء عن النبي ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة»؟ قلت: يا رسول الله، ومن يطيق ذلك، قال: «اقرؤوا ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»[1].

وعن جرير بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حين يدخل منزله نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل والجيران»[2].

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرة بورك عليه، ومن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهله، فإن قرأها ثلاث مرات بورك عليه، وعلى أهله وعلى جميع جيرانه، فإن قرأها اثني عشر مرة بُنِيَ له اثنا عشر قصرًا في الجنة، وتقول الحفظة: انطلقوا بنا إلى قصر أخينا، فإن قرأ مائة مرة كفر عنه ذنوب خمس وعشرين سنة ما خلا الدماء والأموال، فإن قرأها أربعمائة مرة كفر عنه ذنوب أربعمائة سنة ما خلا الدماء والأموال، فإن قرأها ألف مرة لم يمت حتى يرى مكانه من الجنة، أو يُرَى له».

وعن سهل بن سعد أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه، فشكا إليه الفقر، فقال: «إذا دخلت بيتك فسلِّمْ إن كان فيه أحد، وإن لم يكن فيه أحد فَسلِّمْ عليّ، واقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرة واحدة»، ففعل الرجل، فأدرّ الله عليه رزقًا حتى أفاض على جيرانه.

---

(١) البخاري رقم ٤٧٢٧.

(٢) المعجم الكبير رقم ٢٤١٩.

وعن أنس كنا مع رسول الله صلى الله عليه بتبوك، فطلعت الشمس بضياء وشعاع ونور لم أرها طلعت فيما مضى، فأتى جبريل فسأله رسول الله صلوات الله عليه عن ذلك، فقال: ذاك لأن معاوية بن معاوية مات بالمدينة[1] اليوم، فبعث الله تعالى سبعين ألف ملك يُصَلُّونَ عليه، فقال: «وفيم ذلك؟ قال: كان يكثر قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ بالليل والنهار، وفي قيامه وقعوده ومشيته، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض، فتصلِّي عليه، فصلّى عليه، ثم رجع»[2].

وعن أنس أن رجلاً كان يقرأ في جميع صلاته ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فسئل عن ذلك، فقال: يا رسول الله، إني أحبها، فقال: «حبك إياها يدخلك الجنة»[3].

وروى محمد بن المنكدر عن النبي ﷺ: «أن ملكًا نزل من السماء السابعة، وخرج ملك من الأرض السابعة فالتقيا، فقال الذي نزل من السماء: رفع اليوم عمل لم يرفع قبله، قال: ما هو؟ قال: قرأ رجل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مائة مرة، [قال]: ما صنع به؟ قال: غفر الله له».

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال: «وجبت» قيل: يا رسول الله، وما وجبت؟ قال: «وجبت له الجنة»[4].

وعن أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه سئل عن ثواب ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تناثر الخير على مفرق رأسه من عنان السماء، فنزلت عليه السكينة، وتغشاه الرحمة، وله دويٌّ حول العرش، ونظر الله إلى قارئها، فلا يسأله إلا أعطاه إياه، وجعله في كلاءته وحرزه».

---

(١) بالمدينة مطموس في غ. وما أثبتناه من: تفسير القرطبي ٢٠/ ٢٢٧، ومسند أبي يعلى ٧/ ٢٥٦.
(٢) مسند أبي يعلى ٤٢٧٦.
(٣) البخاري رقم ٧٤١.
(٤) الموطأ رقم ٤٨٦.

سُورَةُ الفَلَق

سورة (الفلق) مكية، عن الحسن، وقتادة. قال الأصم: هي مدنية، وعليه جماعة من أهل التفسير.

وهي خمس آيات.

وروى ابن عباس عن أُبَيّ بن كعب عن النبي ﷺ: «من قرأ (المعوذتين) فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى كلها».

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه قال له: «ألا أخبرك بأفضل ما تَعوَّذَ به المتعوذون؟ قال: قلت: بلى، قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[(١)].

وعن عقبة أن رسول الله صلى الله عليه قال: «ألا أعلمك سورتين هما من أفضل القرآن»؟ قلت: بلى، فعلمني المعوذتين، ثم قرأتهما في صلاة الغداة، وقال لي: «اقرأهما كلما قمت ونمت»[(٢)].

وعن عقبة عن النبي ﷺ: «إنك لن تقرأ سورة أحب إلى الله تعالى، ولا أقرب عنده من قراءة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، فإن استطعت ألاّ تدعها في صلاة فافعل»[(٣)].

وعن عقبة، عن النبي ﷺ: «أنزل عليّ الليلة سورتان لم أسمع بمثلهن، ولم أر مثلهن»، [يعني]: المعوذتين[(٤)].

---

(١) النسائي رقم ٥٤٣٢.

(٢) المعجم الكبير رقم ٩٢٨.

(٣) المعجم الأوسط رقم ١٣١١.

(٤) مسند أحمد رقم ١٧٣٣٧.

ولمّا بَيَّنَ ما دعا إليه من التوحيد، وخالف بذلك جميع الأمم، أمره بالتعوذ بالله منهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «**النفّاثات**» بتشديد الفاء والألف بين الفاء والثاء، وعن ابن عمر: (**النافثات**) بتخفيف الفاء والألف بين النون والفاء[1].

اللغة

الفَلْقُ: أصله الشق والفرق، ومنه: فلق رأسه بالسيف يَفْلِقُهُ فلقًا، والفَلَقُ: الصبح؛ لأنه ينشق من الليل من الضياء، ويسمى الخَلْق بذلك، وتسمى الداهية فَلِيقَةَ؛ لأنها تشق الظهر.

والغاسق: الهاجم بضرر، وأصله: الجريان، من قولهم: غَسَقَتْ القرحة: إذا جرى صديدها، والغسّاق: صديد أهل النار لسيلانها بالعذاب، وغسقت عينه: سال دمعها، والبارد، الشديد البرد: غاسق، لجريانه بالضرر، والليل: غاسق، لجريانه بالضرر في الخلق في إخراج الهوام وغيره.

والوَقْبُ: الدخول، وقَبَ يَقَبُ وقُوبًا، إذا دخل.

والنَّفْثُ: النفخ ليس فيها ريق، كنفخ السحرة، نَفَثَ نَفْثًا.

(١) القرطبي ٢٠/ ٢٣٨.

۞ النزول

قيل: إن لبيد بن أعصم اليهودي سحر رسول الله صلى الله عليه حتى مرض، فجاء الملك، وهو بين النائم واليقظان فأخبره بذلك، وأنه في بئر، وبعث عليًّا والزبير وعمارًا، فنزحوا ماء البئر، فوجدوا صخرة، فرفعوها وأخرجوا منها شيئًا عقدوا عليها، وغرزوا بالإبرة، فأنزل الله تعالى السورتين، فقرئ عليه، فوجد خفة، كأنما أُنْشِطَ من عقال، وجعل جبريل يُعَوِّذه، ورووا ذلك عن عائشة وابن عباس.

وروي أن بنات لبيد بن أعصم سحرته، ونحن لا ننكر أن يكونوا سحروه، وعقدوا له تلك العقد، واعتقدوا أنهم يؤثرون فيه، كما يعتقده كثير من جهال الناس الآن، والذي ننكره أن يكون المرض منهم، ومن تأثيرهم، ولو قدروا على ذلك لقتلوه، وقتلوا كثيرًا من المؤمنين لشدة عداوتهم لهم، ولأن القادر بقدرة لا يصح أن يفعل إلا بمماسة، ولم توجد؛ لأن المرض على ما يصفونه ليس بمقدور للبشر.

ومتى قيل: الله أمرضه عقيب فعلهم؟

قلنا: وهذا لا يصح؛ لأن فيه تنفيرًا وإيهامًا أن المرض جعل بفعلهم، وقد نفى الله تعالى عنه ذلك بقوله رَدًّا على الكفار حين قالوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧]، ثم قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ الآية [الإسراء: ٤٨]، ويجوز أنهم فعلوا ذلك على حسب اعتقادهم، وأخبر به رسول الله ﷺ فأمر من يخرجه، فكانت معجزة له، وقد قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، فكيف تنفذ حيلهم مع هذا.

۞ المعنى

«قل» قيل: كل موضع من القرآن فيه (قل) فإنه يقدمه سؤال كقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ﴾ [الأنفال: ١] ونظائرها، والخطاب لرسول الله ﷺ، أي: قل يا محمد، والمراد جميع أمته. «أَعُوذُ» أمتنع وأعتصم «برب الفَلَقِ» قيل: الفلق الصبح، ومنه: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، عن ابن عباس، وجابر، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، ومحمد بن كعب، وابن زيد، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: الفلق: شجر

في جهنم، عن ابن عباس، وعبد الله بن عمر، وعن بعض أصحاب النبي ﷺ الفلق: بيت في النار، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، عن كعب. وقيل: الفلق جميع الخلق، عن ابن عباس. وقيل: جب في جهنم، عن السدي. وقيل: واد في جهنم، عن الكلبي. وقيل: الفلق الجبال تنفلق بالمياه أي تنشق. وقيل: الحب والنوى تنفلق بالنبات. وقيل: البطن تنفلق بالحيوان. «**من شر ما خلق**» أي: من شر جميع الخلق. وقيل: (ما) بمعنى المصدر؛ أي: من شر خلقه. وقيل: من شر كل ذي شر مما خلق من الجن والإنس والسباع والطيور والهوام. وقيل: هو استعاذة من كل مكروه، فيتناول الشر في الدين والدنيا؛ لأن كثيرًا من الناس والسباع والهوام شرهم في النفس، وكثير من الإنس والجن شرهم في الدين، والظَّلَمَةُ شرهم في المال، وعلماء السوء وأهل البدع شرهم في الدين، فأمر بالاستعاذة من الجميع. وقيل: (ما) يتناول ما لا يعقل، فالمراد به الجمادات من مصائب الدنيا والآخرة.

«**ومن شر غاسق إذا وقب**» أي: من شر الليل إذا دخل بظلامه، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد. والغاسق: الليل، سمي بذلك لظلمته، والمراد: ما يحدث في الليل من الشر والمكروه، كما يقال: أعوذ من شر هذه البلدة، وخص الليل بالذكر؛ لأن الغالب من الشر يقع فيه، والفساق يقدمون على الجنايات ليلاً، وكذلك السباع والهوام يؤذون بالليل، ولأن المتنبه يحفظ نفسه. وقيل: الغاسق إذا وقب: النجم إذا طلع، وروي مرفوعًا، رواه أبو هريرة. وعن عائشة أنه القمر، وقيل: الثريا: إذا سقطت، وكانت الأسقام تكثر عند ذلك، وترتفع إذا طلعت، عن ابن زيد.

«**ومن شر النفاثات في العقد**» قيل: السحرة، عن الحسن، وقتادة.

والتعوذ من شرهم لوجوه:

أحدها: إيهامهم أنهم يمرضون ويصحُّون[1]، ويفعلون أشياء بالحيل من النفع والضر، فينفثون في العقد، وجهال العوام يصدقونهم في ذلك، فعظم الضرر بذلك؛ لأنه كُفْرٌ وفساد في الدين، فأمر الله بالتعوذ منهن لأجل هذا الضرر، ولأجل أن من صحح ذلك تنسد عليه طريق معرفة النبوات والشرائع، وذلك من أعظم الشرور.

---

(١) ويصحُّون: ويصححون، غ.

وثانيها: ما كانوا يزعمونه من خدمة الجن بأنهم يفعلون ما يريدون، ويعلمون الغيب، وهذا أيضًا كُفْرٌ.

وثالثها: ما كانوا يعتقدونه من التأثير بالأطعمة الضارة، والدخانات المفسدة، وقد يدخل في هذا ما جرت العادة به، وإن كان التأثير من فعل الله تعالى كالسموم ونحوها، فأمر الله تعالى بالتعوذ من شرهم.

ورابعها: ما كانوا يفعلونه بالتضريب والنميمة ونحوها، فأمر الله تعالى بالتعوذ من شرهم، فعلى هذا حمل الآية أكثر المفسرين.

وذكر أبو مسلم النفاثات في العقد هي النساء، والعقد عقد الرجال، وهي عزائمها وأمورها، يعني أن النساء بما يسكن قلوب الرجال من حبهن، فبطاعتهن يتصرفون على حسب رضاهن وكلامهن وحيلهن، ويحملنهم على أمور فاسدة، وبما يضر بالدين والدنيا، وينصرفون عن أمور صحيحة، وعزائم بأمرهن، فأمر الله بالتعوذ منهن، ونظيره قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

«ومن شر حاسد إذا حسد» قيل: لأنه عند الحسد يبتغي الغوائل، ويتمنى زوال نعمته ونزول الضرر به، فأمر بالتعوذ منه.

۞ الأحكام

تدل السورة على أشياء:

منها: وجوب التعوذ بالله من كل شر.

ومنها: أن الشر ليس من خلقه، وإلا كان يجب التعوذ منه، لا به.

ومنها: أنه القادر على دفع كل ذي شر، فيجب الانقطاع إليه، والاستعاذة به.

ومنها: أنه إذا وجب التعوذ من ضرر الدنيا فمن ضرر النار أولى، فمن هذا الوجه هو لطف.

ومنها: قبح الحسد لما يتضمن من سبب العداوة، وضروب المكايد.

سُورَةُ النَّاسِ

سورة (الناس) قيل: مكية، عن الحسن، وقتادة. وقيل: مدنية، عن الأصم.
وهي ست آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾

اللغة

الوسواس: حديث النفس بما هو كالصوت الخفي، وأصله الصوت، قال رؤبة:

وَسْوَسَ يَدْعُو مُخْلِصًا رَبَّ الْفَلَقْ[(١)]

وقيل: أصله كثرة الكلام، ولذلك سمي المصاب في عقله إذا تكلم بغير نظام موسوسًا، عن أبي مسلم. وقيل: أصل الوسواس الحركة، ومنه وسواس الحلي، والوسوسة كالهمهمة، وَسْوَسَ يُوَسْوِسُ وَسْوَسَةً.

والخناس: الكثير الاختفاء بعد الظهور، والخنوس: الاختفاء بعد الظهور، خنس يَخْنُسُ خنوسًا، ومنه: الخُنَّس؛ أي النجوم تخفى بعدما تظهر، ومنه: الخَنَسُ في الأنف لخفائه بانخفاضه عندما يظهر بنبوةٍ.

---

(١) تاج العروس (وسس).

ويقال: ما الفرق بين مَلِكٍ ومَالِكٍ؟

قلنا: الملك يدل على سعة الملك والتدبير، والمالك ينبئ عن الملك، وإن قَلَّ، يقال: ملك الروم، ولا يقال: مالك.

۞ الإعراب

﴿مَلِكِ﴾ كسر لأنه صفة للرب، وكذلك﴿إِلَـٰهِ﴾.

۞ المعنى

«**قُلْ**» يا محمد «**أعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**» خالقهم ومدبرهم، وسيدهم، ومربيهم، يعني: خلقهم ابتداء، ورباهم ثانيًا، فهو سيدهم والقادر عليهم، ومن كان بهذه الصفة فالاستعاذة به تجب «**ملك الناس إله الناس**» قيل: الذي تحق له العبادة، الغني عنهم، المنعم عليهم. وقيل: المدبر للخلق على وجه الحكمة «**مِن شَرِ الوَسْواسِ**» قيل: من شر الوسوسة التي تكون من الجِنّة والناس. وقيل: من شر ذي الوسواس، وهو الشيطان، كما جاء في الخبر «أنه يوسوس، فإذا ذكر العبد ربه خنس»[1]، ويكون من الجنة لقوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] ولأنه عطف عليه الناس. وقيل: الوسواس الشيطان، سُمِّيَ به لكثرة ما يوسوس كقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦] لكثرة ما وجد من العمل الفاسد. وقيل: «**مِن شَرِ الوَسْواسِ**» على العموم، ثم فسره من بعد. وقيل: الوسواس الموسوس لكثرة الوسوسة، عن أبي علي. وهو من الجنة والناس كما يقال: نعوذ بالله من شر كل مارد من الجن والإنس. «**الخَنَّاسِ**» الذي يوسوس، فإذا ذكر الله خنس؛ أي: هرب واختفى. وقيل: الخناس المختفي، فأمرنا بالتعوذ منه؛ لأنه مستتر عن الأعين؛ ليكون الحذر منه أشد. وقيل: الشيطان صياد حاذق، والدنيا له شبكة عظيمة، والمكلف صيد غافل غبي، وله من ملاذ الدنيا داعٍ قوي، فمن اجتهد نجا من الهلكة، وإلا وقع في الشبكة، فلهذا وصفه بالخناس مبالغة في الزجر والتحذير «**الذي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النَّاس**» بأن يدعو إلى المعاصي «**من الجِنَّةِ**

(١) مصنف ابن أبي شيبة رقم ٣٤٧٧٤.

والنَّاسِ» يعني الوسواس يكون من الجِنّة والناس، عن أبي مسلم. وقيل: بَيَّنَ تفسير الخناس بأنهم من الجِنَّة والناس، فسمى الجِنّة أيضًا ناسًا كما سماهم رجالاً في قوله: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦].

۞ الأحكام

السورة تتضمن أحكامًا:

منها: وجوب الانقطاع إليه تعالى، والاستعاذة به من كل شر، ومن شر ما يلحق العبد من المكاره ليدفعها عنه، وهذا إنما يصح على مذهب أهل التوحيد والعدل، حيث اعتقدوا أن كل خير منه، وأن الشر من غيره، وبه يندفع، فأما على مذهب الجبر، فكل شر منه فكان يجب التعوذ منه.

ومنها: أن الشر ليس من خلقه.

ومنها: أن التحرز من شياطين الإنس والجن واجب، لكن من الجن يجب أن يكون أشد؛ لأنه لا يُرى.

ومنها: أن التعوذ في أمر الدين والدنيا واجب، ومن الفريقين الجن والإنس، فيدخل فيه رؤساء الضلالة، وعلماء السوء، وأهل البدع؛ إذ لا ضرر أعظم من ضررهم.

ومتى قيل: كيف توسوس الجِنّ في الصدر؟

قلنا: تكلمه بكلام خفي يصل إلى قلبه، وقيل: له آلة وطريق توصل الكلام إلى قلبه، فأما من يقول: يدخل القلب، أو له خرطوم يدخل القلب فبعيد.

ومتى قيل: فَلِمَ خلق إبليس إذا أمر بالتحرز عنه؟

قلنا: خلقه كخلق سائر الكفار وغيرهم؛ لأنه تعالى خلقهم للعبادة، فما يوجد منهم من الكفر والضلال لا تعلق لذلك بخلقه تعالى، وكان أبو علي يقول: لا يضل به إلا ويضل مع عدمه، وأبو هاشم يقول: يجوز أن يضل بدعوته، ويجب التحرز منه.

(فصل) قد أنجزنا ما وعدنا، وأتينا على جملة من علوم القرآن بحسب الإمكان،

وشرحنا وهذبنا من غير إحاطة بالجميع، ورتبناه فصولاً يسهل على الناظر طلب ما يقصده من فصوله، وجريت على عادة شيخنا أبي علي في ترك الإحالة على الآيات المتقدمة، بل أوردت في كل موضع ما لا بد منه، وأسأل كل من نظر في كتابي هذا من إخواني من أهل التوحيد والعدل إصلاح ما يجدونه فيه من غلط، فالعبد لا يخلو منه، وأوصيهم بالدعاء والاستغفار لمصنفه، وتقديم ما ينفعه، فالأخوّة في الدين فوق الأخوة في النسب.

وقد ألحقت بآخر الكتاب مسائل على سبيل الرمز والإشارة ما لا بد منه لمن تكلم في علم القرآن منها، وأختم بها الكتاب، والله الموفق للصواب.

(فصـــل): يقال: لِمَ قلتم: إن القرآن معجز؟

قلنا: لأنه ﷺ ادعى النبوة وتحداهم بمثله، فلم يأتوا به، مع شدة عداوتهم له، فعلم أن ذلك لعجزهم.

(فصـــل): ويقال: لِمَ قلتم: إنه كلامه تعالى؟

قلنا: بالمعجز علمنا صدق رسول الله ﷺ، وعلم من دينه ضرورة أنه كلام الله تعالى، ونطق به الكتاب.

(فصـــل): ويقال: هل في القرآن لغة غير العربية؟

قلنا: لا، وما روي إما اتفاق اللغتين، وإما[1] أخذته العرب فَعَرَّبَتْهُ.

(فصـــل): ويقال: هل في القرآن ما لا يفهم معناه؟

قلنا: لا؛ لأن الغرض بالكلام الإفهام، فخروجه عن ذلك يدخله في حد العيب، كمن يخاطب الرب بالزنجية.

(فصـــل): ويقال: هل يحتاج إلى شرط ليفهم الخطاب؟

قلنا: نعم، وهو أن يَعْلَمَ اللهَ تعالى، وأنه صادق لا يجوز عليه الكذب والقبيح، ويقف على اللغة.

---

(١) وإما: أو؛ غ.

(فصـــل): ويقال: لم كان في القرآن متشابه؟

قلنا: لأنه أدعى إلى النظر من الكل، من خالف، ومن وافق.

(فصـــل): ويقال: كيف يعرف المراد بالقرآن؟

قلنا: أما المحكم فبظاهره، والمتشابه بحمله على أدلة العقول والمحكم، وأما المجمل فببيان الرسول ﷺ.

(فصـــل): ويقال: أليس بعضهم قال: إن فيه ما لا يعقل معناه؟، ومنهم من قال: لا بد من توقيف؟

قلنا: لا شيء؛ لأن الأول يجعله عبثًا، والثاني يوجب ألاَّ يُفْهَمَ معناه أبدًا؛ لأن التوقيف كلام.

(فصـــل): ويقال: أتقطعون على المراد؟

قلنا: بلى، إلا أن تدل دلالة أن ما يحتمله ليس بمراد.

(فصـــل): ويقال: كيف يحمل الخطاب على مقتضى اللغة أو الشرع؟

قلنا: إذا كان الاسم شرعيًّا فهو أولى، وإن كان لغويًّا حمل على مقتضى اللغة.

(فصـــل): ويقال: إذا كان للفظ معانٍ، ولا دليل، وكله مما يجوز، كيف تقطعون؟

قلنا: نقطع بأن الجميع مراد.

(فصـــل): ويقال: أليس الباطنية يقولون: لكل ظاهر باطن؟

قلنا: باطل؛ لأنه يطرق إليه كل فساد.

(فصـــل): ويقال: أليس بعضهم قالوا: في القرآن زيادة ونقصان؟

قلنا: باطل؛ لأنه علم من دينه ضرورة أن القرآن ما يَقِلُّ، وقد ضمن الله حفظه.

(فصـــل): ويقال: أليس روي عن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن، وعن أُبيَّ أن سورتي القنوت من القرآن؟

قلنا: أما ابن مسعود فلم يقل: إنه ليس بِمُنَزَّلٍ، ولكن قال: إنه لا يكتب؛ لأنه للتعوذ، ثم هو محجوج بالإجماع.

وأما أُبَيّ فقال: سورة القنوت منزلة، ولم يخالف أنها ليست من القرآن.

(فصــــل): ويقال: أليس طعن في القرآن بأن فيه لحنًا ومناقضة؟

قلنا: لو كان كذلك لرد عليه أعداؤه، ولأنا نظرنا فيما أوردوه فلم يكن كذلك، وقد نقض شيخنا أبو علي كتاب ابن الراوندي في ذلك.

(فصــــل): ويقال: ولم قلتم: إن العرب لم يعارضوه؟

قلنا: الدواعي إلى نقل المعارضة أكثر، فلو كانت لنقلت، وقد نقل ما عورض من الشقشقة.

(فصــــل): ويقال: ما وجه إعجاز القرآن؟

قلنا: أما مشايخنا فقالوا: الفصاحة. وقال بعضهم: النظم. وقال بعضهم بالصِّرْفَةِ. وقال بعضهم: ما فيه من علم الغيب.

تم الكتاب بمنه وكرمه والحمد لله رب العالمين، وصلواته على رسوله محمد خاتم النبيين، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، وسلم عليه وعليهم أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الفهرس

سورة الجمعة ٦٩١٧
سورة المنافقون ٦٩٣٥
سورة التغابن ٦٩٤٩
سورة الطلاق ٦٩٦٣
سورة التحريم ٦٩٨٣
سورة الملك ٦٩٩٩
سورة القلم ٧٠٢١
سورة الحاقة ٧٠٥١
سورة المعارج ٧٠٧١
سورة نوح ٧٠٩١
سورة الجن ٧١٠٧
سورة المزمل ٧١٣١
سورة المدثر ٧١٤٩

سورة القيامة ٧١٧٥
سورة الإنسان ٧١٩٩
سورة المرسلات ٧٢٢٥
سورة النبأ ٧٢٤٣
سورة النازعات ٧٢٥٩
سورة عبس ٧٢٧٩
سورة التكوير ٧٢٩٥
سورة الإنفطار ٧٣٠٩
سورة المطففين ٧٣١٧
سورة الإنشقاق ٧٣٣٥
سورة البروج ٧٣٤٩
سورة الطارق ٧٣٦٣
سورة الأعلى ٧٣٧١
سورة الغاشية ٧٣٨٣
سورة الفجر ٧٣٩٥
سورة البلد ٧٤١٥
سورة الشمس ٧٤٢٩
سورة الليل ٧٤٣٩

سورة الضحى ٧٤٤٩
سورة الشرح ٧٤٦٣
سورة التين ٧٤٦٩
سورة العلق ٧٤٧٥
سورة القدر ٧٤٨٥
سورة البينة ٧٤٩٥
سورة الزلزلة ٧٥٠٣
سورة العاديات ٧٥١١
سورة القارعة ٧٥١٩
سورة التكاثر ٧٥٢٣
سورة العصر ٧٥٢٩
سورة الهمزة ٧٥٣٣
سورة الفيل ٧٥٣٩
سورة قريش ٧٥٤٩
سورة الماعون ٧٥٥٥
سورة الكوثر ٧٥٦٣
سورة الكافرون ٧٥٧١
سورة النصر ٧٥٧٧

سورة المسد ٧٥٨٣
سورة الإخلاص ٧٥٩١
سورة الفلق ٧٥٩٩
سورة الناس ٧٦٠٥